المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة

"المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر"

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

A
956.7
N328t

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

المكتبة العربية
التأليف

تاريخ العراق الحديث

من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا

تأليف

الدكتور عبد العزيز سليمان نوار

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة عين شمس

الناشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

بالقاهرة

١٣٨٧ - ١٩٦٨

تقديم

للأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

وكيل جامعة عين شمس

لا أعرف باحثا تعشق موضوع بحثه ، فلازمه ، وأخلص فى عشرته وخدمته ، كما فعل الدكتور عبد العزيز نوار لتاريخ العراق الحديث . وقد بدأت هذه الصحبة بينهما منذ تخرج نوار فى كلية الآداب بجامعة عين شمس فى سنة ١٩٥٤ ، ولعلها بدأت قبل ذلك .. لا أدرى ! وما أن بدأنا نتخير له موضوعا لرسالة الماجستير حتى اختار تاريخ العراق الحديث دون تردد .

ولم أملك ازاء ما أبدى من حماسة الا أن أقره على اختياره مشجعا إياه على المضى فى بحوثه داعيا له بالتوفيق . فأنا أحب هذا التعاطف بين الباحث وموضوع بحثه ، حتى يندفع الباحث إلى خدمة موضوعه ، دون أن ينحرف — فى الوقت نفسه — عما ينبغى أن يتوفر للبحث فى موضوعية وأصالة ، وهكذا فعل الدكتور نوار .

وفى سبيل ذلك شد الدكتور نوار رحاله الى انجلترا باحثاً عن الوثائق والمراجع التى لم يجدها فى القاهرة ، وهنا أذكر لصديقى نوار فضلا كبيرا ، فإنه لم يكتف بجمع مادة بحثه — على ما فى ذلك وحده من مشقة — ولكنه لبى طلب زملائه طلاب الدراسات العليا بجامعة عين شمس فأقبل عن رضا يجمع لكل منهم ويصور الوثائق التى تعينه . فدل بذلك على ما ينبغى أن يقوم بين أبناء المدرسة الواحدة بأجيالها المتتابعة من ود وتعاون .

وفى سبيل خدمة موضوعه أيضا شد الدكتور نوار رحاله إلى العراق حيث أمضى به ثلاث سنوات دراسية معاراً للتدريس بجامعة بغداد وهى

أمنية كانت عزيزة على نفسه منذ زمن بعيد وإن لم يستطع تحقيقها إلا بعد أن أتم رسالته للماجستير والدكتوراه ، وربما أفاده هذا التأخير فى زيارة العراق ، فقد ذهب إليه وقد غدت معلوماته وتفكيره ونظراته فى تاريخ العراق الحديث أكثر نضجاً وعمقاً وشمولا ، كما مكنته هذه الإقامة من جمع مادة غزيرة لبحوث ومشروعات تالية .

وأثمرت هذه العشرة الطويلة بين نوار وتاريخ العراق الحديث ثمراً جنيا ، من رسائل وكتب وبحوث ، نشر بعضها ، ولا يزال بعضها الآخر فى طريقه إلى النشر .

أشير بذلك إلى رسالتيه القيمتين : الأولى رسالته التى نال بها درجة الماجستير (١٩٥٨) وموضوعها «داود باشا والى بغداد ١٨١٧–١٨٣١» ، وقد تم طبعها وأوشكت على الظهور ، وكان لى حظ تقديمها إلى جمهور القارئين والباحثين ، ثم رسالته الثانية التى نال بها درجة الدكتوراه (١٩٦٣) وموضوعها «تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا» ، وهى رسالته التى أكتب الآن تقديماً لها .

ومن ثمرات بحوث الدكتور نوار أيضا فى تاريخ العراق كتاب له صدر هذا الأسبوع فى موضوع « المصالح البريطانية فى أنهار العراق » وبحث آخر له فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (العدد ١٤) عن موقف العراق إزاء حرب القرم . هذا عدا بحوث أخرى منشورة وغير منشورة .

وهنا أود أن أسجل ظاهرة هامة فى مجال نشر البحوث التاريخية فقد كنا فى الثلاثينات والأربعينات نتلمس وسائل لنشر ما نكتب فلا نكاد نجد إلا بشق الأنفس ، وأذكر أن رسالتى للماجستير (١٩٣٦) لم تر النور إلا بعد أن أغريت الناشر بشىء من المال حتى قبل (المغامرة) بطبعها ! أما اليوم فإن كثيراً من المؤسسات العامة والخاصة ترحب بنشر البحوث التاريخية ، وغيرها من البحوث العلمية ومنها الجامعات ووزارة الثقافة والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية والمؤسسة العامة للتأليف والنشر (دار الكاتب العربى) ودار المعارف والجمعية التاريخية وغيرها ، مما مكن

لعديد من الدراسات والبحوث العلمية الجادة — مؤلفة ومترجمة — من الظهور ، وهذه ظاهرة نسجلها هنا مقدرين مستزيدين :

ولعلى أعتذر إلى القارئين إذ أحدثهم عن ذكريات — قد تكون خاصة — عن نوار وأستاذه ، وما أشك إلا أنهم يتوقعون منى حديثاً عن الكتاب الذى يسرنى أن أقدمه اليوم . ولكنى أفضل أن أدع الكتاب يتحدث عن نفسه وعن جهد صاحبه وإخلاصه وكفاءته ، وأنا واثق بأنهم — فى النهاية — مقدرون هذا كله واضعون الدكتور عبد العزيز نوار فى مكانه الجدير به بين شباب المؤرخين فى الوطن العربى .

وعلى الله قصد السبيل .

فبراير ١٩٦٨

أحمد عزت عبد الكريم

مقـــدمة

بسم الله الذى منحنا القدرة على خدمة تاريخ هذا الوطن العربى أقدم ثمرة جهاد شاق طويل بدأ منذ أن انتهيت مباشرة فى ١٩٥٨ من مناقشة رسالتى للحصول على الماجستير بعنوان (داود باشا ١٨١٦–١٨٣١) والتى كانت كذلك تحت إشراف أستاذى الدكتور أحمد عزت عبد الكريم . وناقشها المرحومان الأستاذ محمد شفيق غربال مؤرخ الجيل والدكتور محمد مصطفى صفوت . وكان لتوجيهاتهما أثر كبير فى وضع الخطوط الرئيسية لهذه الرسالة .

كانت دراساتى تحت إشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم وكانت الاجتماعات الأسبوعية التى يعقدها لطلبة الماجستير والدكتوراه ذات أهمية كبيرة فى توجيه هذه الدراسات . حتى إذا ما سافر إلى ليبيا قررنا نحن طلبة الدكتوراه والماجستير بكلية آداب عين شمس أن تستمر هذه الاجتماعات تحت إشراف الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال . وعرضنا عليه هذه الرغبة فرحب بذلك كل الترحيب وكنا مندهشين من تلك المعاملة التى لم نكن فى قرارة نفوسنا نتوقعها . ولكن شاء القدر أن يحرمنا فى وقت مبكر من هذه الأبوة الكريمة واختطفته يد المنون ونحن فى أشد الحاجة إليه .

كذلك بعد أن انتهيت من مناقشة رسالتى للماجستير تشرفت بمقابلة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى صفوت مرتين ، تحدثنا خلالهما عن خطة الرسالة وطلب منى أن أعنى بدراسة الرحلات وبالتنافس الدولى حول خطوط المواصلات العالمية ، ولكن حرمتنا يد المنون أيضاً منه فى وقت مبكر ، فكان ذلك من الحوافز التى جعلتنى أتفانى فى تحقيق ما أشار به على ، واستغرقت عملية جمع المادة حوالى سنوات أربع (١٩٥٨–١٩٦٢) ، وعرضت على أستاذى الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الخطوط الرئيسية للرسالة . وبدأت فى كتابة فصولها . وكان من وقت لآخر يحثنى على أن أجد طريقاً

للسفر إلى بريطانيا وإلى العراق لاستكمال بحوثى ، واستطعت الحصول على إجازة دراسية بفضل المعاونة الصادقة التى قدمها لى رؤسائى فى وزارة التعليم العالى ، وسافرت إلى بريطانيا فى سبتمبر ١٩٦٢ بعد أن انتهيت من مراجعة كل وثيقة أو كتاب فى ج . ع . م . يتعلق بتاريخ العراق الحديث وهناك فى بريطانيا غرقت فى وثائق India Office و Foreign Office وكان المفروض أن أقضى فى بريطانيا جزءاً من الإجازة الدراسية وفى العراق بقيتها . ولكن وجدت أن الوثائق المطلوب مراجعتها فى بريطانيا من الضخامة لدرجة أنها تحتاج إلى أكثر من عام ، ولذلك قررت أن أقضى الإجازة كلها فى بريطانيا وأن أصور الوثائق التى لا أستطيع مراجعتها . وفعلا راجعت عدداً ضخماً من الوثائق وعدت ومعى آلاف منها مصورة على «ميكروفيلم» وأسهمت كلية الآداب بجامعة عين شمس فى نفقات تصوير هذه الوثائق ، وعدت إلى وطنى دون أن أذهب إلى العراق ، ونظراً لأن صحيفة (زوراء) كانت هامة جداً لموضوع رسالتى وحالت الظروف دون سفرى إلى العراق قمت بمساع كبيرة فى سبيل الحصول على صورة لهذه الصحيفة من النسخ الموجودة فى مكتبات بغداد . وكنت قد بدأت الاتصالات فى هذا الشأن مع المسئولين منذ ١٩٥٨ وتفضل الأستاذ محمد بهجت الأثرى بالمعاونة ولكن اعتذر فى النهاية عن عدم إمكان الحصول على صورها لأن النسخ الموجودة فى مكتبات العراق قليلة جداً ومتفرقة وأنه لا توجد نسخة كاملة منها إلا لدى الأستاذ عباس العزاوى وهو معروف بالتمسك بما لديه من وثائق تاريخية ، فنصحنى أستاذى الدكتور أحمد عزت عبد الكريم بالاتصال بالدكتور زكى صالح أستاذ التاريخ الحديث فى جامعة بغداد علّه يعيننى على تصوير النسخة الموجودة بمكتبة الجامعة وكان هذا فى أوائل ١٩٦٢ واستمرت المكاتبات المتبادلة الرسمية والشخصية مدة طويلة حتى أكتوبر ١٩٦٣ عندما استطاعت سفارتنا فى بغداد الحصول على الأعداد الأولى لهذه الصحيفة من العدد (٥٦) إلى (٢٥٢) وأرسلتها إلىّ بصفة استثنائية . وعندما وصلتنى كنت قد انتهيت من طبع الرسالة ولذلك قرر الدكتور عزت عبد الكريم أن يصورها وفعلا قام الأستاذ عبد المنعم عمر مدير دار الكتب مشكوراً بتصويرها على نفقة

الدار وبعد الانتهاء من مناقشة رسالتى هذه سأتفرغ لدراسة أعداد هذه الصحيفة وسأجتهد فى سبيل الحصول على الأعداد الباقية منها حيث إنها من أهم مراجعنا فى كتابة تاريخ العراق فى الفترة بين ١٨٦٩–١٩١٤ .

وللدكتور أحمد عزت عبد الكريم فضل كبير فى إعداد هذه الرسالة من حيث التوجيه والإرشاد ، وتحمل مشاق كثيرة خلال مراجعته لهذه الرسالة كلمة كلمة .

وبعد جهد انتهينا من مراجعة الرسالة . وأخيراً ، لا يسعنى إلا أن أؤكد مرة أخرى أن الدراسات التاريخية تحتاج إلى أن يعنى بها المسئولون عناية أكثر . وأن يرصدوا لها الأموال اللازمة لسفر البعثات والدارسين ولتصوير الوثائق والمؤلفات الرئيسية . فالمعروف أن كتابة تاريخ العرب الحديث يتطلب من المؤرخين السفر إلى الخارج ونطاق البعثات والإجازات الدراسية لا يسمح إلا بسفر عدد قليل من الدارسين . ومن ثم فعلى المسئولين أن يتوسعوا فى إيفاد الدارسين إلى الخارج حتى نكتب تاريخ هذا الوطن كتابة صحيحة ودقيقة .

عبد العزيز سليمان نوار
مدرس بكلية الآداب بجامعة عين شمس
القاهرة ١٩٦٣

المحتوى

الكتاب الأول

الفصل الأول

دراسة تمهيدية لعلاقة

الدولة العثمانية بالعراق حتى نهاية القرن

التاسع عشر

	صفحة
١ – التوسع العثمانى وفتح العراق	٥
٢ – ظهور المماليك	١٣
٣ – داود باشا ونهاية المماليك	٢٤
٤ – أزمة التوسع المصرى	٤١
٥ – التنظيمات العثمانية ١٨٣٩ – ١٩٠٨	٤٤

الفصل الثانى

جهود الدولة العثمانية فى بسط سيطرتها على

ولايات العراق ومتسلمياته

١ – مذبحة المماليك	٦١
٢ – ثورة العقيل فى الكرخ	٦٥
٣ – إعادة الحكم المباشر إلى جنوب العراق	٦٨
٤ – القضاء على حكم آل عبد الجليل فى الموصل	٧٩
٥ – إعادة الحكم المباشر إلى العتبات المقدسة	٨٦

الفصل الثالث

تصفية الإمارات الكردية وإعادة الحكم العثمانى فى كردستان

صفحة

١ – سقوط الإمارة الصورانية ... ١٠١
٢ – سقوط الإمارة البهدينانية ... ١١٠
٣ – سقوط الإمارة البوتانية ... ١١١
٤ – سقوط الإمارة البابانية ... ١١٢
٥ – العشائر الكردية ... ١٢٠
٦ – العشائر اليزيدية ... ١٢٤

الفصل الرابع

مشكلة العشائر العربية فى العراق

١ – دراسة لأهم العشائر العربية ... ١٤١
٢ – الصراع بين الحكومة العثمانية والعشائر ١٨٣٠–١٨٦٨ ... ١٦٢

الفصل الخامس

أثر التوسع المصرى على العراق ١٨٣٠ – ١٨٤١

١ – العلاقات بين مصر والعراق قبل التوسع المصرى (١٨١٨ – ١٨٣١) ١٨٧
٢ – أثر التوسع المصرى فى الشام على العراق (١٨٣٢–١٨٣٩) ... ١٩١
٣ – أثر التوسع المصرى فى شبه الجزيرة العربية على العراق (١٨٣٧–١٨٣٩) ٢٠٨
٤ – تطورات الموقف فى العراق بعد نزيب (١٨٣٩–١٨٤١) ... ٢٢٤

الفصل السادس

التنافس الدولى على خطوط المواصلات عبر العراق

١ – خطوط البواخر ... ٢٣٩
٢ – بعثة جسنى ... ٢٤٢
٣ – تفوق الملاحة البريطانية فى نهرى دجلة والفرات ... ٢٦٤
٤ – خطوط السكك الحديدية والبرقية ... ٢٧٦

الفصل السابع

النشاط الأجنبى فى العراق ١٨٣٠ – ١٨٧٢

صفحة

١ – النشاط السياسى الأجنبى فى العراق ... ٢٨٣
٢ – المقيميات البريطانية فى بغداد والموصل والبصرة ... ٢٩٣
٣ – التبشير ... ٣٠١
٤ – التنقيب عن الآثار ... ٣٢٠

الفصل الثامن

أثر العلاقات الفارسية العثمانية على العراق ١٨٣٠ – ١٨٦٨

١ – تطور النزاع بين الدولتين الفارسية والعثمانية حول العراق ... ٣٢٧
٢ – النزاع حول عشائر كعب ... ٣٣٠
٣ – لجنة الحدود ... ٣٣٤
٤ – معاهدة أرضروم ... ٣٤٠

الكتاب الثانى

الفصل التاسع

عهد مدحت فى العراق ١٨٦٩ – ١٨٧٢

إصلاحات مدحت :

١ – قانون الولايات ... ٣٥٦
٢ – المجالس ... ٣٦١
٣ – القضاء ... ٣٦٥
٤ – محاولات مدحت للسيطرة على العشائر ... ٣٦٧
٥ – تطبيق قانون الأراضى (الطابو) ... ٣٧٦
٦ – مدحت والضرائب ... ٣٧٨

صفحة

٧ — عناية مدحت ببغداد ... ٣٨٠
٨ — عناية مدحت بالثقافة والتعليم ... ٣٨٢
٩ — عناية مدحت بالجيش والأسطول ... ٣٨٧
١٠ — خطوط البواخر النهرية والبحرية ... ٣٩٠

الفصل العاشر

السياسة فى الخليج العربى وحملة مدحت باشا

١ — سياسة ولاة بغداد إزاء الخليج العربى (١٨٤٠–١٨٧٠) ... ٣٩٥
٢ — التنافس على البحرين ... ٣٩٨
٣ — تقوية قبضة العثمانيين على الكويت ... ٤٠٣
٤ — حملة مدحت فى الخليج (١٨٧١–١٨٧٢) ... ٤٠٤
٥ — أزمة الصراع بين عبد الله وسعود ... ٤٠٦
٦ — نشاط مدحت فى قطر ... ٤٢٦
٧ — الصدام بين العثمانيين وعبد الله ... ٤٣٠
٨ — سياسة مدحت إزاء فارس ... ٤٣٥
٩ — عزل مدحت ... ٤٤٠

الفصل الحادى عشر

بواكير الحركة العربية فى العراق

بواكير الحوكة العربية فى العراق ... ٤٤٥

المراجع

(أ) المراجع العربية والتركية والفارسية
١ — الوثائق المنشورة ... ٤٧٨
٢ — الكتب والمؤلفات ... ٤٧٨
٣ — الصحف والمجلات ... ٤٧٩
(ب) المراجع الأوروبية
١ — الوثائق غير المنشورة ... ٤٩٨
٢ — الوثائق المنشورة ... ٥٠٠
٣ — المؤلفات ... ٥٠١
٤ — الرحلات ... ٥١٣

الكتاب الأول

١٨٣٠ – ١٨٦٨

الفصل الأول

دراسة تمهيدية لعلاقة الدولة العثمانية بالعراق

حتى نهاية القرن التاسع عشر

١ — التوسع العثمانى وفتح العراق

٢ — ظهور المماليك

٣ — داود باشا ونهاية المماليك

٤ — أزمة التوسع المصرى

٥ — التنظيمات العثمانية ١٨٣٩ — ١٩٠٨

الفصل الأول

الدولة العثمانية والعراق حتى نهاية القرن التاسع عشر

التوسع العثمانى وفتح العراق :

تزعم الشرق الأوسط فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ثلاث دول : إحداها قديمة وهى دولة المماليك فى مصر والشام والحجاز واليمن . والثانيتان ناشئتان هما الدولة العثمانية فى الأناضول والبلقان ، والدولة الصفوية فى فارس . وقد نشأت الدولة العثمانية من إمارة سُنّية صغيرة فى الجهة الشمالية الغربية من آسيا الصغرى . وحملت هذه الدولة لواء الجهاد ضد جارتها الكبيرة المرهقة « الدولة البيزنطية » . ونجحت القوات العثمانية فى استخلاص الأناضول بأسره من القوات البيزنطية ثم استولت على القسطنطينية (١٤٥٣) لتصبح عاصمة الدولة العثمانية زهاء أربعة قرون .

توسعت الدولة العثمانية كذلك فى جهة الشرق حتى تاخمت الإمارة القديمة الصغيرة الفاصلة بين الدولتين العثمانية ودولة المماليك فى الشام ، وحتى تاخمت الحدود الشمالية الغربية للدولة الصفوية الشيعية . وكانت مجهودات العثمانيين مركزة فى الميدان الأوربى حتى ظهرت الدولة الصفوية على يد الشاه إسماعيل . إذ اشتبكوا مع الفرس فى حرب لم تلبث أن أدت إلى حرب أخرى بينهم وبين مماليك مصر .

وترجع أسباب الحرب بين الدولتين العثمانية والصفوية إلى أنهما كانتا على طرفى نقيض . فقد كان الأتراك منذ دخولهم فى الإسلام الحماة التقليديين للمذهب السنى . أما الدولة الصفوية فى فارس فقد قامت على أنقاض دولة الآق قويونلو التركمانية السنية . وأسستها أسرة دعت إلى المذهب الاثنى عشرى . وأعلن الشاه إسماعيل فى أعقاب انفراده بالحكم أن التشيع مذهب

البلاد الرسمى . وقرر أن ينشر مذهبه إلى أقصى درجة ممكنة وتطلع إلى الاستيلاء على العراق أولا لوجود العتبات المقدسة (النجف وكربلاء) فيه وطمعاً فى خيرات سهول العراق . واستولى الشاه إسماعيل على العراق . وعمل على صبغه بالصبغة الشيعية ولو بحد السيف . وأراق بسبب ذلك دماء علماء المذهب السنى . ثم سعى إلى نشر المذهب الشيعى فى الأناضول . فأثار بذلك ثائرة السلطان العثمانى ، خاصة وأن الشاه إسماعيل كان يسعى إلى التحالف مع ملك المجر ضد العثمانيين ، فرد سليم الأول على استفزازات الشاه إسماعيل الصفوى بأن شن حرباً شاملة على الدولة الفارسية . ودارت المعركة الحاسمة بين سليم الأول والشاه إسماعيل فى وادى جالديران ١٥١٤ وانتصرت إنكشارية السلطان فى المعركة ، ولكن سليم الأول لم يشأ أن يتابع تقدمه إلى ما وراء تبريز التى سقطت فى يده ولم يستول سليم على العراق باستثناء المنطقة الكردية الشمالية ومنطقة الموصل التى ضمها إليه . ويبدو أن سليماً اكتفى بكبح جماح الفرس ، إذ خشى أن يتابع تقدمه فى قلب فارس بسبب صعوبة المسالك المؤدية إليها عبر الأناضول ومرتفعات الهضبة الفارسية . هذا فضلا عن طول خطوط المواصلات وخطورتها خلال أشهر الشتاء القاسية وتمرد الإنكشارية . وعاد سليم بجيوشه إلى بلاده ولم يلبث أن دار نزاع بينه وبين الغورى حول إمارة ذى القدرية . واستولى السلطان سليم على مصر والشام والحجاز بعد انتصاره على جيوش المماليك (١٥١٦—١٥١٧) .

وبامتداد الدولة العثمانية على هذا النحو أصبحت تطوق العراق من الشمال والغرب. وهذا وضع يمنح فرصاً واسعة لحكام بغداد للتردد بين الشاه والسلطان . فقد أعلن حاكم بغداد ذو الفقار الكردى ولاءه للسلطان . فرد الشاه على ذلك بالزحف بجيشه إلى بغداد . واستطاع بالخيانة أن يصرع ذا الفقار ، ولكن السلطان سليمان القانونى حسم الموقف بأن زحف صوب تبريز ثم انقلب إلى العراق واستولى على بغداد ١٥٣٤ م . ولم تتوغل القوات العثمانية صوب البصرة إذ اكتفى السلطان بإعلان راشد بن مغامس — شيخ المنتفق وصاحب البصرة — ولاءه له ، ولكن لم تلبث العشائر العربية أن تمردت على الحكم الجديد وانضم إليها راشد . فزحفت القوات العثمانية إلى البصرة واحتلتها

(١٥٤٦) ثم زحفت هذه القوات إلى الأحساء (١٥٥٥) وإلى ما وراء ذلك حتى مسقط ، ولكن لم يدم حكم العثمانيين طويلا فى المناطق الواقعة فيما وراء الأحساء . كما فشل العثمانيون فى فرض سيادتهم على المياه الشرقية وفى الخليج العربى حيث إنهم وصلوا إلى هذا الميدان متأخرين وبعد أن ثبت البرتغاليون أقدامهم فى تلك النواحى .

وعندما اكتمل الفتح العثمانى للعراق أصبح يتألف من أربع ولايات هى :

١ — الموصل   ٢ — شهرزور

٣ — بغداد   ٤ — البصرة

وإلى الجنوب من البصرة ولاية الأحساء ذات الارتباط الوثيق بالعراق . وكانت الإمارات والعشائر الكردية تنتشر فى إيالتى شهرزور والموصل . أما العشائر العربية فكانت تنتشر فى ولايات بغداد والبصرة والأحساء وكذلك فى ولاية الموصل . وقد اعترف العثمانيون بالعصبيات الحاكمة وبشيوخ العشائر سواء فى مناطق الأكراد أو فى المناطق العربية .

كانت ولاية الموصل تغطى الجزء الشمالى الغربى من العراق وتشمل مدينة الموصل واسكى موصل وعشائر طى وتمتد إلى الجنوب حتى تكريت وتحدها من الغرب والشمال إيالة الرقة وديار بكر والصحراء الشامية . وإلى الشرق منها كانت توجد إيالة شهرزور (كردستان) وامتازت إيالة الموصل عن بقية الإيالات العراقية بوجود الإقطاعات العسكرية فيها بكثرة لم تعهدها الإيالات الأخرى . كما أن هذه الولاية امتازت بموقعها الهام كهمزة وصل بين ولايات العراق وولايات الأناضول وولايات الشام .

أما إيالة شهر زور (كردستان) فلم تعمر طويلاً . ويرجع ذلك إلى أن السلاطين العثمانيين اتبعوا سياسة الاعتراف بحكم العصبيات المحلية . وكان كردستان مليئاً بالإمارات والعشائر الكردية السنية التى وقفت فى وجه الغزو الفارسى وشدت أزر العثمانيين خلال حروبهم ضد الفرس . وعلى رأس هذه الإمارات : الإمارة الصورانية والبهدينانية والبابانية فأبقوا هؤلاء الأمراء على إماراتهم . وكانت لا تزال إمارات صغيرة . ولكن هذا النظام تطور إلى

البلاد الرسمى . وقرر أن ينشر مذهبه إلى أقصى درجة ممكنة وتطلع إلى الاستيلاء على العراق أولا لوجود العتبات المقدسة (النجف وكربلاء) فيه وطمعاً فى خيرات سهول العراق . واستولى الشاه إسماعيل على العراق . وعمل على صبغه بالصبغة الشيعية ولو بحد السيف . وأراق بسبب ذلك دماء علماء المذهب السنى . ثم سعى إلى نشر المذهب الشيعى فى الأناضول . فأثار بذلك ثائرة السلطان العثمانى ، خاصة وأن الشاه إسماعيل كان يسعى إلى التحالف مع ملك المجر ضد العثمانيين ، فرد سليم الأول على استفزازات الشاه إسماعيل الصفوى بأن شن حرباً شاملة على الدولة الفارسية . ودارت المعركة الحاسمة بين سليم الأول والشاه إسماعيل فى وادى جالديران ١٥١٤ وانتصرت إنكشارية السلطان فى المعركة ، ولكن سليم الأول لم يشأ أن يتابع تقدمه إلى ما وراء تبريز التى سقطت فى يده ولم يستول سليم على العراق باستثناء المنطقة الكردية الشمالية ومنطقة الموصل التى ضمها إليه . ويبدو أن سليماً اكتفى بكبح جماح الفرس ، إذ خشى أن يتابع تقدمه فى قلب فارس بسبب صعوبة المسالك المؤدية إليها عبر الأناضول ومرتفعات الهضبة الفارسية . هذا فضلا عن طول خطوط المواصلات وخطورتها خلال أشهر الشتاء القاسية وتمرد الإنكشارية . وعاد سليم بجيوشه إلى بلاده ولم يلبث أن دار نزاع بينه وبين الغورى حول إمارة ذى القدرية . واستولى السلطان سليم على مصر والشام والحجاز بعد انتصاره على جيوش المماليك (١٥١٦–١٥١٧) .

وبامتداد الدولة العثمانية على هذا النحو أصبحت تطوق العراق من الشمال والغرب. وهذا وضع يمنح فرصاً واسعة لحكام بغداد للتردد بين الشاه والسلطان . فقد أعلن حاكم بغداد ذو الفقار الكردى ولاءه للسلطان . فرد الشاه على ذلك بالزحف بجيشه إلى بغداد . واستطاع بالخيانة أن يصرع ذا الفقار ، ولكن السلطان سليمان القانونى حسم الموقف بأن زحف صوب تبريز ثم انقلب إلى العراق واستولى على بغداد ١٥٣٤ م . ولم تتوغل القوات العثمانية صوب البصرة إذ اكتفى السلطان بإعلان راشد بن مغامس – شيخ المنتفق وصاحب البصرة – ولاءه له ، ولكن لم تلبث العشائر العربية أن تمردت على الحكم الحديد وانضم إليها راشد . فزحفت القوات العثمانية إلى البصرة واحتلتها

(١٥٤٦) ثم زحفت هذه القوات إلى الأحساء (١٥٥٥) وإلى ما وراء ذلك حتى مسقط ، ولكن لم يدم حكم العثمانيين طويلا فى المناطق الواقعة فيما وراء الأحساء . كما فشل العثمانيون فى فرض سيادتهم على المياه الشرقية وفى الخليج العربى حيث إنهم وصلوا إلى هذا الميدان متأخرين وبعد أن ثبت البرتغاليون أقدامهم فى تلك النواحى .

وعندما اكتمل الفتح العثمانى للعراق أصبح يتألف من أربع ولايات هى :

١ – الموصل ٢ – شهر زور

٣ – بغداد ٤ – البصرة

وإلى الجنوب من البصرة ولاية الأحساء ذات الارتباط الوثيق بالعراق . وكانت الإمارات والعشائر الكردية تنتشر فى إيالتى شهرزور والموصل . أما العشائر العربية فكانت تنتشر فى ولايات بغداد والبصرة والأحساء وكذلك فى ولاية الموصل . وقد اعترف العثمانيون بالعصبيات الحاكمة وبشيوخ العشائر سواء فى مناطق الأكراد أو فى المناطق العربية .

كانت ولاية الموصل تغطى الجزء الشمالى الغربى من العراق وتشمل مدينة الموصل واسكى موصل وعشائر طى وتمتد إلى الجنوب حتى تكريت وتحدها من الغرب والشمال إيالة الرقة وديار بكر والصحراء الشامية . وإلى الشرق منها كانت توجد إيالة شهرزور (كردستان) وامتازت إيالة الموصل عن بقية الإيالات العراقية بوجود الإقطاعات العسكرية فيها بكثرة لم تعهدها الإيالات الأخرى . كما أن هذه الولاية امتازت بموقعها الهام كهمزة وصل بين ولايات العراق وولايات الأناضول وولايات الشام .

أما إيالة شهر زور (كردستان) فلم تعمر طويلاً . ويرجع ذلك إلى أن السلاطين العثمانيين اتبعوا سياسة الاعتراف بحكم العصبيات المحلية . وكان كردستان مليئاً بالإمارات والعشائر الكردية السنية التى وقفت فى وجه الغزو الفارسى وشدت أزر العثمانيين خلال حروبهم ضد الفرس . وعلى رأس هذه الإمارات : الإمارة الصورانية والبهدينانية والبابانية فأبقوا هؤلاء الأمراء على إماراتهم . وكانت لاتزال إمارات صغيرة . ولكن هذا النظام تطور إلى

استبداد هؤلاء بالسلطة حتى لم يعد للولاة أية قدرة على إدارة الأمور هناك فترك العثمانيون أمر كردستان لأمرائه تحت إشراف ولاة بغداد . وكانت كركوك مقر هذه الإيالة، ولكنها لم تلبث أن فقدت مكانتها بسبب نمو الأسرة البابانية فى نهاية القرن الثامن عشر وسيطرتها على كردستان كله تقريباً وعلى كركوك أيضاً .

وفى أقصى جنوب العراق أنشئت ولايتا البصرة والأحساء ولم تقسما إلى إقطاعات عسكرية . ولم تلبث الأحساء أن أصبحت تحت حكم العشائر هناك . أما البصرة فقد تبادلها الولاة العثمانيون وشيوخ المنتفق وشيوخ الحويزة غير مرة . وكان من العسير على ولاة بغداد أن ينقذوها من متاعبها ، كما أن القطع العثمانية البحرية التى وضعت أمامها والقوات الإنكشارية التى عسكرت فيها لم تكن قادرة على حفظ المدينة من الطامعين فيها . وانتهى الأمر بأن باعها واليها لكاتب الجند « أفراسياب » الذى دفع مبلغاً من المال للوالى وتولى حكمها فى إطار التبعية للدولة العثمانية (١٥٩٦)(١) .

أما ولاية بغداد فكانت أهم هذه الولايات العراقية . كان واليها يحصل على ساليانه سنوية . وبينما كان باشا من المرتبة الأولى كان الولاة الآخرون فى الموصل وشهرزور من المرتبة الثانية . وهذا التمييز نتيجة لما كانت تتمتع به بغداد من مكانة عظيمة وشهرة بين مدن العالم الإسلامى كعاصمة للخلافة حتى ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م ولأنها كانت أكبر مركز ثقافى واقتصادى فى العراق برغم ما حل بها من نكبات عديدة منذ الغزو المغولى . وكانت ولاية بغداد منذ فجر الحكم العثمانى أقوى ولايات العراق . ومن ثم كانت دوائر الباب العالى تكلف ولاة بغداد بإنقاذ الولايات العراقية مما تتعرض له من أخطار فقد تحملت ولاية بغداد أعباء طرد آل أفراسياب من البصرة والأحساء والدفاع عن البصرة ضد هجمات أمير الحويزه . فكان ذلك من العوامل الرئيسية التى أدت إلى أن تتحول ولاية البصرة إلى مجرد متسلمية تابعة لبغداد فى أوائل القرن الثامن عشر (٢) .

(١) على ظريف الأعظمى : مختصر تاريخ البصرة : بغداد ١٩٢٧ : ص ١٢٨ — ١٣٠
عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين : ج ٤ : ص ١٨٩ — ١٩٦ .

(٢) انظر عباس العزاوى : تاريخ ج ٥ : ٢٤ — ١٠٣ ، ١٧٥ — ١٨٤ ، ١٩٣ .

كذلك تحملت ولاية بغداد مسئولية الدفاع عن إيالة شهر زور ضد التهديدات الفارسية المتتالية ، وكان عليها أيضاً أن تظل مستعدة للضغط على الإمارات الكردية حتى تضمن استمرار ولاء هذه الإمارات للسلطان . وأدت هذه الأوضاع إلى أن تصبح إيالة شهرزور تحت إشراف والى بغداد . وكان هذا الإشراف عبئاً ثقيلا على ولاة بغداد . وعلى هذا يمكن القول إن ولاية بغداد أصبحت مشرفة على الولايات العراقية باستثناء الموصل . وحتى إيالة الموصل أخذت هى الأخرى تفقد أجزاء كثيرة منها لتصبح من بعد تحت إشراف بغداد . حتى إن والى الموصل فى القرن التاسع عشر أصبح حكمه مقصوراً على الموصل ومنطقة صغيرة حولها .

وضع الباب العالى نظام حكم إيالات العراق على غرار النظام الذى كان متبعاً فى بقية الإمبراطورية العثمانية . فكان الوالى على رأس الجهاز الإدارى ومعظم هؤلاء الولاة حتى ١٧٢٣ كانوا من حاشية السلطان . كان على الوالى أن يدبر أمور ولايته وأن يرسل الأموال المقررة عليها سنوياً إلى الباب العالى وألا يزعجه بمشكلات خطيرة . ومن مهامه إسناد الحكم إلى شيوخ العشائر والإمارات الكردية والعربية وحكام المدن وكان يختار موظفيه وعلى رأس هؤلاء الموظفين الكتخدا ، الذى كان بيده الإدارة التنفيذية فى الولاية . كان الكتخدا نائب الوالى ، ومسئولا عن الأمن . وقد أصبح مركزه على جانب كبير من الأهمية فى القرن الثامن عشر (١) .

وشحن الباب العالى مدن العراق الكبرى بالجنود الإنكشارية كما وزع إقطاعات عسكرية فى ولاية الموصل بصفة خاصة وكانت ترد أحياناً من الآستانة فرق إنكشارية جديدة لتحل محل القوات القديمة . وكلما توترت العلاقات مع فارس أرسلت القوات الإمبراطورية إلى العراق . وكانت إنكشارية

(١) عباس العزاوى : تاريخ : ج ٦ كان الكتخدا يلعب طوال عهد المماليك أدواراً خطيرة وكان سليمان أبو ليلة (أول الباشوات المماليك) كتخدا سلفه .
H. A. Gibb & H. Bownen : Islamic Society and the West. Vol. I. Pt. I. London 1952.
وفيه تفصيلات عن نظم الحكم العثمانى .

الولايات مكلفة فى أوقات السلم بأعمال الشرطة وبجمع الضرائب . وكان ضباط الإنكشارية أعضاء فى ديوان الولاية .

وكان الديوان هو الهيئة الحكومية العليا فى الولاية ، ولكنها لم تستطع أن تقف على قدميها أمام الولاة . إذ كان الوالى يختار أعضاء الديوان . وكانت القوات الإنكشارية تعتمد على قوتها فى فرض مطالبها على الوالى . ولما كان للوالى الحق فى أن يجمع قوات محلية أخذ يعتمد على هذه القوات بالتدريج . وانتهى الأمر بأن أصبح الديوان مجرد هيئة استشارية وأبقى عليه ليجتمع فى الحفلات الرسمية ولاستقبال كبار الزوار .

وكان من بين أعضاء الديوان القاضى والدفتردار . وكلاهما يعينان مباشرة من الآستانة ، وكان الدفتردار أكبر شخصية فى الولاية استطاعت أن تحد من تلاعب الولاة بصالح الدولة . فقد كان يضع أموال الوالى المعزول تحت الحراسة حتى يفى بجميع التزاماته المالية .

وكان الشعب أيضاً أداة من أدوات المراقبة على الوالى . كان الأهالى يلجئون إلى القاضى والعلماء كلما وقع عليهم ظلم . ويرفعون الشكايات مباشرة إلى السلطان . وكم من مرة انتفض فيها الشعب بقيادة علمائه ضد الولاة الظالمين . ولذلك فبرغم أن الوالى كان صاحب السلطة العليا فى البلاد لم يكن مطلق السلطة فيها بسبب تلك الجهات المتعددة التى كانت تراقب أعماله وهى : الشعب والقاضى والدفتردار وقواد الإنكشارية .

وامتاز ولاة بغداد بأن السلطان كان يمنحهم حق عزل ونصب باشوات الإمارات الكردية وهذا ما لم يحصل عليه أى باشا من باشوات الإيالات العراقية الأخرى . (١) ومع هذا لم ينجح الولاة فى بسط الحكم المباشر على الإمارات والعشائر الكردية والعربية وتركوا أمرها لشيوخها على الأساس الذى وضعه السلطان سليمان القانونى . وبذلك كانت السيادة العثمانية ضعيفة فى مناطق هذه العصبيات . أما فى المدن فكان الولاء للسلطان العثمانى وللحكم

(١) W. Heude : A Voyage up the Persian Gulf. London. 1818. p. 172.
جودت : ترتيب جديد : استنبول مطبعة عثمانية : ١٣٠٢ هـ : ج ١ : ص ٣٧٢

العثمانى قوياً . كان التجار وأهل الحرف يرون فى الحامية العثمانية القوة القادرة على نشر الأمن اللازم لنجاح أعمالهم . وكان العلماء يرون فى السلطان حامى حمى الإسلام ورافع راية الجهاد . ولذلك كان الثوار على الوالى لا يقولون إنهم ثائرون ضد السلطان وإنما ضد وال ظالم .

كان الوالى يعتمد فى السنوات الأولى من الحكم العثمانى على القوات الإنكشارية والإقطاعية . ولكن بسبب التمردات العديدة التى قامت بها هذه القوات العثمانية لجأ الولاة إلى تكوين قوات محلية تكون تحت أوامرهم عند الحاجة . وأدت هذه الأوضاع إلى أن يحدث صدام من وقت لآخر بين القوات الإنكشارية والقوات المحلية . وكانت القوات الإنكشارية هى الأقوى داخل بغداد . ولما كان امتلاك زمام السلطة فى بغداد هو العمل الحاسم للاستئثار بالسلطة العليا استطاعت الإنكشارية أن تستبد بالحكم مرتين فى بغداد. المرة الأولى كانت فى ١٠١٤هـ–١٦٠٥ م . ولقد صمد القائد الإنكشارى – الذى اغتصب الحكم – أمام جيوش الباب العالى التى أرسلت لطرده من بغداد . ولكن استطاع الباب العالى فى نهاية الأمر أن يستعيد حكمه المباشر فى بغداد بعد فترة وجيزة (١٦٠٨ م) . (١)

وبعد تلك الحادثة بثلاث عشرة سنة استطاع بكر صوباشى – أحد ضباط الإنكشارية – أن يستأثر بالحكم فى ١٦٢١ م . (٢) وبعثت الدولة العثمانية بجيوشها لطرد بكر صوباشى . وكادت جيوش السلطان تنجح فى مهمتها لولا دخول عباس الثانى – شاه فارس – كطرف ثالث فى المشكلة . فقد استنجد به بكر صوباشى . وكانت فارس – تحت حكم عباس الثانى – قد استعادت نشاطها . وكان العراق فى معظم الأحيان محط آمال وأطماع شاهات فارس الأقوياء . وفى سبيل السيطرة على العراق استخدمت فارس كل ما فى جعبتها من أسلحة . فاستغلت العصبيات الحاكمة فى العراق . كما استغلت الضغائن التى كانت بين السنة والشيعة فى العراق للوصول إلى أغراضها

(١) C. Huart : Histoire de Bagdad. Paris. 1901 pp. 36-49.
(٢) Ibid : pp. 48-52.

ونجح عباس الثانى فى الاستيلاء على العراق . ولم يسترده العثمانيون إلا بعد أن شن مراد الرابع – آخر السلاطين العثمانيين الفاتحين – حرباً شاملة ، فى ١٦٣٨ ضد فارس . وانتهى الصراع بين هاتين الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين بعقد معاهدة (١٦٣٩) . (١)

وقد نصت هذه المعاهدة على أن تكون بدره وجسان ومندلى ودرتنك والسهول الواقعة بين تلك المدن وعشائر الجاف وعشائر قطور تابعة للدولة العثمانية . كما اعتبر الممر المؤدى إلى شهرزور حداً فاصلا بين الدولتين فى تلك الجهة . وبذلك كانت معاهدة ١٦٣٩ مثل غيرها من معاهدات الدول الشرقية لا تنص على حدود دقيقة كما أهملت الإشارة إلى الحدود فى مناطق طويلة بين الدولتين مثل منطقة عربستان (خوزستان) الأمر الذى سيخلق مشكلات معقدة بين الطرفين فى القرنين التاسع عشر والعشرين (٢) .

حقيقة استعاد العثمانيون العراق ، ولكنهم تابعوا سياستهم التقليدية دون أن يقوموا بإصلاح شامل فى البلاد . فتركوا العصبيات العربية والكردية على ما كانت عليه . وظلت أداة الحكم على ما كانت عليه ، بل استمر تدهور القوى العسكرية العثمانية سواء الإنكشارية أو الإقطاعية . وهذا التدهور فى تلك القوة العسكرية فى العراق ليس إلا امتداداً للانحلال العام الذى دب فى النظام الإنكشارى وفى نظام الإقطاعات العسكرية فى مختلف ولايات الدولة . فكان طبيعياً أن يزداد الولاة اعتماداً على القوات المحلية . وهذه القوات المحلية كانت أضعف من أن تبسط سيطرة الولاة كاملة على مختلف أجزاء العراق . ولذلك نمت قوة العصبيات الكردية والعربية . وظل العراق يعانى من الفتن الداخلية والثورات الإنكشارية والتمردات العشائرية والتهديدات الفارسية والأزمات الاقتصادية ، ومن الأوبئة والفيضانات . هذا التدهور فى أحوال البلاد العسكرية والاقتصادية جعل الولاة يتبعون سياسات ضارة بها فى سبيل فرض سيطرتهم عليها إذ لجأ معظم الولاة إلى أن يضربوا العرب بالكرد والكرد بالعرب . كما كانوا يضربون العرب بالعرب والكرد بالكرد .

(١) J. Hurewitz : Diplomacy in the Near and Middle East. London 1952. Vol. I, p. 23.

(٢) سندرس تفاصيل النزاع حول عربستان فى الفصلين الثانى والثامن .

ظهور المماليك فى بغداد :

هذا الضعف الذى انتاب حكومة بغداد جعلها فى حاجة إلى وال قوى يستقر فيها ليضع خطة معينة لمعالجة مشكلات البلاد وإنقاذها من الفوضى التى ترددت فيها خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر . وقد هيأت الظروف السياسية الفرصة لإسناد العراق إلى وال ذى نشاط جم وهو حسن باشا . فقد حدث أن تعرضت فارس لفوضى طاحنة فى الجزء الأخير من القرن السابع عشر مما أطمع الأفغانيين فيها فغزوها . فقرر السلطان أن يبعث حسن باشا والياً على بغداد ليتخذ الاستعدادات اللازمة لتأمين الحدود العثمانية من جانب فارس . فبذل حسن باشا (١٧٠٤ – ١٧٢٣) مجهودات كبيرة للسيطرة على العراق بأسره . فاستطاع أن يبعد عشائر المنتفق عن البصرة. وفى أن يسند شهرزور إلى ابنه أحمد . وبذلك حكم البصرة وشهرزور من قبله . وأخذ تفوق بغداد على كل من ولايتى البصرة وشهرزور يستقر . ولقد جنت حكومة بغداد ثمار توحيد معظم أجزاء العراق تحت إشرافها . فقد استطاع حسن باشا أن ينتهز فرصة الغزو الأفغانى لفارس ويستولى على همدان ، ولكن حدث أن توفى حسن باشا فجأة فخلفه ابنه أحمد . وفى هذا الوقت أفاق الفرس من نكباتهم واستطاعوا أن يصدوا الأفغانيين . وتفرغ الفرس للعثمانيين فأخرجوا القوات العثمانية من فارس ثم غزت القوات الفارسية العراق تحت قيادة نادر شاه . ضرب نادر شاه الحصار على بغداد والموصل . ودافع أحمد باشا وجيشه من المماليك دفاعاً رائعاً حتى اضطر نادر شاه إلى أن يخلى البلاد وإلى أن يرفع الحصار عن الموصل بسبب استماتة واليها حسن باشا الجليلى فى الدفاع عن المدينة (١) .

وبعد انسحاب القوات الفارسية بدأت مفاوضات الصلح بين الدولتين الفارسية والعثمانية . وانتهت هذه المفاوضات بعقد معاهدة ١٧٤٧ . وقد كانت هذه المعاهدة تأكيداً للمعاهدة التى عقدت قبلها فى ١٦٣٩ .

وكانت تلك الظروف العسكرية تتطلب من حسن باشا أن يكون تحت

(١) عبد الرحمن السويدى : حديقة الزوراء فى سيرة الوزراء . مخطوط ص١٢٠ ، سليمان صايغ : تاريخ الموصل . مصر ١٩٢٣ ج ١ ص ٢٧٤ .

يده باستمرار جيش ثابت يدين بالولاء له ورهن إشارته . وكانت الإنكشارية فى القرن السابع عشر غير الإنكشارية التى أرهبت أوربا . فقد ضعفت وأصبحت مصدر متاعب للحكام . وكانت العشائر القوة الثانية التى يمكن أن يعتمد عليها حسن باشا فى تكوين جيش كبير منظم ؛ خاصة وأن بعضاً منها كان يؤلف حرس الباشا ومكلفاً بالخدمة العسكرية . ولكن هذه العشائر مرتبطة بمراعيها وبتقاليدها فلا يمكن تدريب رجالها على الحركات العسكرية الشاملة ولا يمكن الاعتماد عليها فى كل وقت . ولذلك اتجه حسن باشا إلى أن يكون جيشه من المماليك . وتاريخ المماليك فى مصر والشام وإيران كان معروفاً بالمواقف التاريخية الرائعة . وكان أكثر المماليك يجلبون من القوقاز ، فأكثر حسن باشا من شرائهم ورباهم تربية تعدهم للحياة العسكرية والإدارية فى مدارس أعدت خصيصاً لهم .

وكانت هذه الحياة التى يحياها المماليك خلال فترة تربيتهم وشعورهم بأنهم أقلية ممتازة فى وسط المجموع العراقى الكبير كل هذا كان من العوامل القوية التى جعلت منهم عصبية متماسكة . واستطاعوا بفضل إمكاناتهم أن يستأثروا بالحكم فى العراق فى منتصف القرن الثامن عشر .

إن ظهور المماليك — كعصبية حاكمة — فى العراق ليس إلا ظاهرة تكررت فى بقاع عديدة من الدولة العثمانية . فإلى جانب العصبية المملوكية فى بغداد ظهرت عصبيات جديدة فى العراق كذلك . ففى الموصل ظهرت أسرة آل عبد الجليل الحاكمة التى استمرت تحكم من منتصف القرن الثامن عشر حتى الثلاثينات من القرن التاسع عشر . وفى البصرة ظهرت أسرة آل أفراسيات التى حكمت من ١٥٩٦ إلى ١٦٦٨ م عندما استعاد العثمانيون حكمهم المباشر عليها فى ذلك التاريخ .

وتزايدت قوة عشائر المنتفق حتى أصبحت ديرتهم على وشك أن تصبح إمارة عربية متمتعة باستقلال ذاتى كبير . كما ظهرت فى كردستان إمارة كردية قوية هى الإمارة البابانية (١) .

(١) وفيما يلى أهم الأسرات الكردية الحاكمة فى كردستان منذ الفتح العثمانى وهى : الأسرة البهدينانية فى العمادية ، والبوتانية فى جزيرة ابن عمر ، والصورانية فى راوندوز واستمرت هذه الأسرات فى الحكم حتى الثلث الأول من القرن التاسع عشر .

وظهرت عصبيات وأسرات حاكمة جديدة عديدة فى بقية أجزاء الدولة العثمانية وعلى وجه الخصوص :

١ — الأسرة القرهمنلية فى طرابلس .

٢ — الأسرة الحسينية فى تونس .

٣ — آل سعود فى نجد .

٤ — بنو معن والشهابيون فى لبنان .

٥ — آل العظم فى دمشق .

ولم يكن فى وسع الدولة أن توقف نمو قوة هذه العصبيات بسبب اتساع نطاق العمليات العسكرية التى كانت تقوم بها القوات العثمانية فى أوربا وفى البحر المتوسط وضد فارس فى الجبهتين العراقية والأناضولية . هذا إلى أن العثمانيين كانوا قد تركوا فى مدن الدولة العديدة حاميات إنكشارية وخيالة إقطاعية لحماية البلاد من الأعداء ، لتكفل ولاء الناس للسلطان وللقيام بعمليات جمع الضرائب واستتباب الأمن خلال أوقات السلم . وكانت هذه الأعباء الملقاة على كاهل القوات العثمانية ثقيلة خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أنها كانت تقاتل على أرض معادية فى أوربا وأن الشعوب البلقانية كانت دائماً تتحين الفرص للثورة ضد العثمانيين . ولقد بلغت الدولة من الاتساع الدرجة التى جعلت قواتها العسكرية تتوزع على مساحات شاسعة الأمر الذى أضعف من قوة الدولة وحملها نفقات أكثر .

كانت القوات العثمانية التى تحملت أعباء هذه الفتوحات تتألف من خيالة الإقطاعات العسكرية (تيمار وزعامت) ومن القوات الإنكشارية . وكان أصحاب التيمار والزعامات يحصلون على هذه الإقطاعات فى مقابل الخدمة العسكرية التى يؤدونها لما طلب السلطان منهم ذلك . وكانوا مسئولين عن تجهيزاتهم العسكرية . فلا يكلفون السلطان إلا القليل من النفقات .

ومنذ القرن السابع عشر أخذ هؤلاء العسكريون الإقطاعيون يتجنبون الاشتراك فى الحروب لأنها كانت تجبرهم على الابتعاد فترات طويلة عن

أرضهم الأمر الذى يؤدى إلى تدهور دخولهم من إقطاعاتهم . ومن ناحية أخرى أدى تطور الأسلحة النارية — وما صاحب ذلك من حاجة ماسة إلى تدريبات ميدانية — إلى أن يتضاءل اعتماد الحكومة العثمانية على هؤلاء الخيالة العسكريين لأنهم لم يكونوا مستعدين للقيام بهذه التدريبات . كما أن الإقطاعات أصبحت تورث دون أن يؤخذ فى الاعتبار صلاحية الوريث للخدمة العسكرية . فعاش أصحاب التيمار والزعامات على إقطاعاتهم بينما أكثر السلاطين من الجند الموظفة نظراً لأن القوات الإنكشارية هى الأخرى بدأت تفقد مميزاتها العسكرية فى القرن السابع عشر على وجه الخصوص .

كان الإنكشاريون — بعكس الإقطاعيين العسكريين — لاينتمون إلى العنصر التركى أو إلى الإسلام قبل دخولهم فى خدمة السلطان . وكان الإنكشاريون مشاة ومدفعيين . بينما كان العسكريون الإقطاعيون خيالة . ولكن ابتداء من القرن السابع عشر دب الانحلال فى هذه القوات الإنكشارية إذ تخلى السلاطين العثمانيون عن جمع الصبية المسيحيين لإعدادهم لأوجاق الإنكشارية . وزاد اعتماد السلاطين على الجند الموظفة بسبب كثرة الفتن الإنكشارية . وغض المسئولون العثمانيون الطرف عن نزول الإنكشاريين إلى ميدان الأعمال المدنية واختلاطهم بالسكان وتزوجهم ومغادرتهم ثكناتهم ؛ بل أصبحت امتيازات الإنكشارى تباع وتشترى وأدى هذا التدهور إلى أن أصبحت قوائم الإنكشارية تضم من لا يعرف شيئاً عن حمل السلاح . وغدت فرق الإنكشارية فى العاصمة وفى الولايات مصدر المتاعب للحكام وللشعب على حد سواء . وتاريخ الشام والعراق ومصر ملىء بحوادثهم وظلمهم ورغبة الناس فى التخلص منهم . ولقد كثرت فتنهم الفوضوية منذ نهاية القرن السابع عشر سواء فى العراق أو الشام ومصر (١) .

أثقل تدهور القوة العسكرية الإنكشارية كاهل الدولة بنفقات متزايدة . فعلاوة على الهزائم التى أخذت تنزل بالدولة — خاصة فى القرنين السابع

(١) راجع حوادث دمشق اليومية : ص ٦٦/٧٢/٧٧ على سبيل المثال
الجبرتى : حوادث شعبان ١١١٨ هـ/١٧٠٦ م وربيع أول ١١٢١ هـ .
وعباس العزاوى: تاريخ العراق : جـ ٤ ، جـ ٥ .

عشر والثامن عشر — كان الباب العالى مضطراً إلى أن يكون جيشاً ليساعد القوات الإنكشارية فى الحروب . وكان هذا يكلف الدولة نفقات كثيرة ، فى وقت كانت فيه اقتصاديات الدولة العثمانية فى تدهور سريع . ويرتبط هذا التدهور الاقتصادى فى الدولة العثمانية بتدفق الذهب والفضة من المستعمرات الأوربية فى الأمريكتين على دول غرب أوربا . فقد تدهورت قيمة العملة العثمانية وارتفعت الأسعار . فى الوقت الذى تزايدت فيه حاجة الدولة العثمانية إلى الأموال لمواجهة مسئولياتها الضخمة الإدارية والعسكرية . وحتى تتمكن الدولة من مواجهة هذه الظروف اضطرت إلى أن تزيد من قيمة الضرائب المفروضة على الشعوب .(١)

هذه الضرائب كانت تفرض بصورة غير عادلة حيث إنها لم تعد تعتمد على الإحصاءات التى كان يقوم بها العثمانيون حتى القرن السادس عشر فقط . ففر كثير من الفلاحين من أراضيهم ، وأصبح من العسير على أصحاب الإقطاعات العسكرية (تيمار وزعامت) إدارة إقطاعاتهم فتركوا ذلك إلى من يقوم نيابة عنهم بأمرها . وكان ذلك بداية ظهور الملتزمين الذين انتشروا فى البلاد كلها وانتقل هذا النظام إلى مختلف نواحى الدخل الحكومى . كان هناك من يلتزم الجمرك ، ومن يلتزم قرية ، حيث كان هذا النظام يوفر على الحكام متاعب جمع الأموال . وقد تركت الحكومة هؤلاء الملتزمين يستبدون بالزراع وبالناس . وظهر نتيجة لذلك « أعيان مملكت » وهم ملتزمون كبار جعلوا لأنفسهم شبه سيادة إدارية وقضائية على المنطقة التى تولوا أمرها (٢) . وفى العراق نماذج متعددة لهذه الالتزامات . كانت المدن والقرى تمنح بالالتزام كما كان شيخ العشيرة يلتزم الأموال المطلوبة من عشيرته .

كان نظام الالتزام من الأسباب التى ساهمت فى إضعاف الدولة إذ عنى الملتزم بجمع أكبر مبلغ ممكن من منطقة التزامه . ومن ناحية أخرى كانت

(١) Bernard Lewis : The Emergence of Modern Turkey. Oxford University Press. London 1961. p. 29.

(٢) Ibid. pp. 30-33

الدولة فى حاجة إلى أموال متزايدة . فكانت ترفع من وقت لآخر قيمة الضرائب وقيمة المبالغ المطلوبة من الملتزمين . فكان أن استخدمت العصبيات المحلية الحاكمة التى استبدت بالسلطة قوتها فى الحد من مطالب الباب العالى . ولهذا السبب انتشرت الثورات . وكانت أشد هذه الثورات وطأة على الدولة العثمانية ثورات القوميات المسيحية فى البلقان . إذ كان العامل الدينى يذكيها، كما كان للتحريضات الصادرة عن النمسا وعن روسيا أثرها الكبير فى إشعال ثورات تلك القوميات المسيحية . وانتهزت كل من روسيا والنمسا متاعب الدولة العثمانية وأقحمتا عليها الحرب بعد الحرب . وكانت الحرب الروسية العثمانية ١٧٧٠—١٧٧٤ من أشد الحروب وطأة على السلطان .

ومنذ معاهدة كوتجك قينارجى المذلة (١٧٧٤) التى تخلى فيها السلطان عن القرم خسرت الدولة كل حرب خاضتها ضد جارتيها القويتين النمسا وروسيا .

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر فقدت الدولة العثمانية القدرة على المبادرة بالهجوم والتزمت سياسة الدفاع والتنازل عن بعض ممتلكاتها الأوربية كثمن لعقد الصلح ووقف الحرب وحال التنافس بين الدول الأوربية دون أن تلتهم دولة أوربية بمفردها الدولة العثمانية الأمر الذى أعان الدولة على أن تقف على قدميها أمام التهديد الأوربى حتى الحرب العالمية الأولى . وأدرك المسئولون العثمانيون منذ نهاية القرن الثامن عشر أن النظم العسكرية والإدارية فى حاجة إلى التعديل حتى تستعيد الدولة شبابها .

على أن الحملة الفرنسية على مصر والشام يمكن أن تعتبر من العوامل الرئيسية التى شحذت الهمم لإحداث تغيير جوهرى سواء فى مصر أو فى الآستانة فى أساليب القتال والحكم . حقيقة كانت الرغبة فى إصلاح أمور الدولة سابقة على حوادث الثورة الفرنسية وحملة بونابرت ؛ ولكن الثورة الفرنسية والحروب النابليونية قذفت بالدولة منذ ١٧٩٨ فى هذا الصراع الدولى الدموى وجعلت من البلاط العثمانى ميداناً تتنافس فيه فرنسا وأعداؤها دبلوماسياً وثقافياً وعسكرياً ، كما جعلت من ولايات الدولة مجالات للنشاط

الاستعمارى ، خاصة فى مصر والشام وشمال إفريقية وشبه الجزيرة العربية والعراق .

كان احتلال الفرنسيين لمصر سابقة استعمارية خطيرة فى بلد هو قلب العالم الإسلامى العثمانى . والمعروف أن هذا الاستعمار الفرنسى فى مصر كان محاولة لإيجاد محور جديد ترتكز عليه الحكومة الفرنسية لبناء إمبراطورية استعمارية جديدة تناظر الإمبراطورية البريطانية . فأصبحت بريطانيا حساسة جداً لهذا التطور الخطير فى ميدان التنافس الدولى بينها وبين فرنسا . وخشيت بريطانيا على الطرق المؤدية إلى الهند . حقيقة كان طريق رأس الرجاء الصالح تسيطر عليه القطع البحرية البريطانية ، ولكن كشفت مشروعات الفرنسيين لتوصيل البحرين الأحمر والمتوسط والاتصال الفرنسى بسلطان مسقط وبعثات فرنسا إلى العراق خلال الحروب النابليونية أن الطريقين القديمين عبر الشرق الأدنى على وشك استعادة أهميتهما فى مجال خطوط المواصلات العالمية . وبدا لبريطانيا أن وقوع هذين الخطين فى أيد معادية لها سيؤدى إلى ضياع مستعمراتها فى الشرق الأقصى . ولذلك سعت إلى إبعاد أية قوة أوربية عن التحكم فيهما ، وبعد جلاء الفرنسيين عن مصر سعت الحكومة الفرنسية إلى استعادة شىء من مكانتها فى مصر والعراق بالتفاهم مع الباب العالى أو مع الولاة العثمانيين مباشرة . فالمعروف أن البلاط العثمانى كان ميداناً للنشاط الفرنسى بقصد كسب ثقة السلطان وإقناعه بجدوى التحالف مع فرنسا . وفى العراق نجح سليمان الصغير — الذى تولى بغداد فى ١٨٠٨ — من أن يحصل على منصب الولاية بفضل تزكية السفير الفرنسى فى الآستانة المسيو سباستيانى Sbastiani له (١) . وفى مصر كانت السلطات البريطانية تعمل على أن يكون حكامها من المماليك المتفاهمين مع الحكومة البريطانية . ولذلك وقف البريطانيون ضد الجهود التى قام بها العثمانيون لطرد المماليك من حكم مصر (٢) . بينما وقف الوكيل السياسى البريطانى فى بغداد بالمرصاد لسليمان باشا الصغير حتى أحرج مركزه أمام سلطات

(١) جودت : ﺟ ٨ : ص ٤٣ — ٤٤ ، ١٧٠ .

(٢) د. محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر : ﺟ ١ : ٨٧ — ١٤٠ .

الآستانة . ولذلك عمل الباب العالى على التخلص منه ونجح فى محاولته سنة ١٨١٠ . (١)

هذه التطورات الدولية وسلوك العصبيات الحاكمة وعلاقاتها بالدول الكبرى الأوربية ، والنكبات العسكرية المتتالية التى لحقت بالدولة أدت إلى أن يعمل السلطان سليم الثالث على إنقاذ الدولة بإصلاح أمورها وإقالتها من عثرتها بتقوية جيشها وتعديل نظمها الإدارية عن طريق اقتباس النظم الأوربية العسكرية والمدنية ، وتوحيد الدولة تحت يد السلطان . وهذا يتطلب إنشاء قوات عسكرية غير القوات الإنكشارية والقضاء على العصبيات الحاكمة . وبدأ السلطان سليم فى إعداد جيش جديد، ولكن كبار رجال الدين والإنكشارية كانوا ينظرون بكل ريبة إلى استعانة السلطان بالأجانب وإلى الجيش النظامى الذى بدأ يظهر إلى الوجود . وكان الإنكشاريون ينظرون بعين الحسد والقلق إلى نمو هذه القوات الجديدة . وبدأت حركة تمرد فى الروملى فبعث السلطان بقوة من «النظام الجديد» ولكن هزمت هذه القوة فكانت فرصة للعناصر الرجعية وحاول السلطان أن يتفادى العاصفة دون جدوى . فبرغم أنه أعلن حل «النظام الجديد» اضطر إلى التنازل عن العرش ثم دفع حياته ثمناً لأفكاره التقدمية (٢) . وتولى محمود الثانى العرش فى صيف ١٨٠٨ ، وكان السلطان الجديد قد قدر خطورة الرجعية وقوتها وأن الظروف تقتضى منه أن ينحنى للعاصفة وأن يتريث حتى تحين فرصة أكيدة للقيام بالإصلاحات . كذلك شلت الثورات العديدة فى البلقان ، وخاصة الثورة اليونانية والحرب الفارسية قدرات محمود الثانى ومع ذلك انتهز الفرصة الملائمة للقضاء على أكبر قوة معارضة للإصلاحات العسكرية وهى الإنكشارية خلال أزمة الثورة اليونانية . فقد أعلن محمود الثانى فى ٢٨ من مايو سنة ١٨٢٦ تشكيل فرق جديدة من الجيش على النظام الحديث ، ولكن دون أن يصرح بأنه يحيى إصلاحات سلفه سليم الثالث حتى لا يثير عليه نفوس المعارضين لمثل هذه الخطط الإصلاحية . وكان محمود الثانى حكيماً

(١) فصلنا ذلك فى رسالتنا للماجستير بعنوان « داود باشا » .

(٢) Lewis : Emergence. p. 71.

عند ما تجنب – بقدر الإمكان – إسناد أمر تدريب هذه الفرق الجديدة إلى مدربين أجانب فقط واعتمد – إلى حد ما – على ضباط ومدربين مسلمين . ومع ذلك شعر أغوات الإنكشارية أن هذه الفرق الجديدة ستؤدى إلى انحلال أوجاقهم وعزموا على إحباط خطة محمود الثانى مثلما أحبطوا خطة سليم الثالث من قبل . ولكن «محمود الثانى» كان قد أعد لكل شىء عدته وقضى على المقاومة بسرعة (١٨٢٦) وألغى أوجاق الإنكشارية فى كل الولايات العثمانية . وألغى محمود كذلك الإقطاعات العسكرية «تيمار وزعامت» . وصدرت التعليمات بتأليف جيش من الولايات يبلغ ١٢ ألف مقاتل وأن تكون مدة الخدمة العسكرية ١٢ سنة (١) .

كان تكوين الجيش الجديد يتطلب إدخال نظام التجنيد فى الدولة وإعداد جيش من الوطنيين فى جميع أجزائها ومعنى هذا أن الضرورة أصبحت ملحة لاستعادة الحكم المباشر لا لهذا السبب فقط ، بل أيضاً لأن السلطان كان يعتقد أن العصر عصر إمبراطوريات وأن الضغط الأوربى قد بلغ درجة كبيرة تتطلب الاستفادة من مصادر الدولة البشرية والاقتصادية كلها . وهذا يتطلب أن تكون يد السلطان ورجاله هى الموجهة لأمور البلاد . فكان لابد من أن يسعى السلطان إلى إعادة حكمه المباشر إلى الولايات التى استبدت بها العصبيات أو الأسرات الحاكمة أو الباشوات المغامرون (٢) .

(١) Ibid. pp. 79-80, 99-101.
لطفى : تاريخ لطفى : جـ ١ : ١٩٦ .

(٢) محمد على فى مصر .
داود فى بغداد .
يوسف القره منلى فى طرابلس العرب .
الأسرة الحسينية فى تونس .
الجزار فى عكا .
دربيكات الأناضول .
الأمراء الأكراد فى كردستان .
العشائر العربية الكبرى فى العراق والجزيرة العراقية والصحراء الشامية وشبه الجزيرة العربية .
الإمامة الزيدية فى اليمن .

ويؤكد لنا تاريخ هذه العصبيات وهؤلاء الباشوات والإمكانات التى كانت فى متناول أيديهم أن مهمة السلطان محمود فى إعادة حكمه المباشر إلى هذه الدولة المفككة كانت غاية فى الصعوبة ، خاصة إذا لاحظنا أن حركة إصلاح الجيوش باستخدام النظم العسكرية الأوربية والمدربين الأجانب لم تكن مقصورة على الآستانة فقط وإنما كانت موجودة فى بغداد وفى مصر . وهكذا كان ينتاب الدولة تياران أحدهما يرمى إلى توحيد السلطة كلها فى يد السلطان وتيار آخر تزعمته مصر يعارض هذا الاتجاه على اعتبار أن الدولة لن تقوى على النهوض من كبوتها . وضاعف من العقبات التى وضعت أمام محمود لاستعادة الحكم العثمانى المباشر على ولاياته أنه اضطر إلى استخدام محمد على فى القضاء على الحركة الوهابية ثم حاول استخدامه فى إنقاذ العراق من الفرس (١) كما استخدمه فى إخماد ثورة المورة ، فأعطى الفرص لهذا التابع ليعد لنفسه جيشاً وأسطولا قويين وليكوّن علاقات سياسية مباشرة مع الدول الأوربية . كما خرجت مصر من نكبة نوارين ١٨٢٧ وقد أحرزت مركزاً سياسياً مرموقاً فى البحر المتوسط .

وهكذا عند ما بدأ محمود الثانى يعيد قبضته على ولايات الدولة وجد نفسه أمام ولاية نامية وتعتمد على قواعد محلية قومية. فكان الاصطدام بمصر فى نهاية العشرينات يعرض الدولة لخطر شديد ، ولذلك كان توجيه المجهودات نحو العراق من حسن السياسة حيث إن قوة المماليك فيها لم تكن قد تطورت بمثل ما تطورت به مصر فى أوائل القرن التاسع عشر . وفعلا بدأ محمود الثانى بالقضاء على مماليك العراق . وكانت ظروف العراق بصفة عامة تعين السلطان على التخلص من هذه العصبية . ونظراً لأهمية هذه الظروف يجدر بنا أن نعود إلى الوراء قليلا لنلقى ضوءاً على الأوضاع الداخلية فى العراق خلال حكم المماليك منذ أن استبدوا بالحكم ١٧٤٩ حتى سقوط داود آخر ولاتهم فى ١٨٣١ .

كان أول المماليك سليمان أبا ليله . وتولى الحكم فى بغداد برغم أنف

(١) الدار الأهلية للوثائق : من محمد على إلى الصدر الأعظم : دفتر ١٣ معية تركى صحيفة ٣٥ – ٣٦ أمر ٧٦ فى ١٥ شعبان ١٢٣٨ هـ (١٨٢٢/ ١٨٢٣ م) .

الباب العالى الذى اضطر إلى أن يثبته فى الحكم على عادته إزاء المتغلبين .
وكان الباب العالى ينتظر الفرص لاستعادة حكمه المباشر . وسنحت الفرصة عند ما تعرضت البلاد لغزو فارسى فى ١٧٧٥–١٧٧٦ ولطاعون مريع أباد عدداً كبيراً من أهل العراق . ولكن فشل العثمانيون فى طرد المماليك من العراق نظراً لأنهم أصبحوا عصبية عسكرية وإدارية قوية . بينما الولاة العثمانيون كانوا لا يحسنون إدارة أمور العراق . هذا فضلا عن ميل الشعب لولاة المماليك الذين كانوا يعيشون بينه . ولهذه الأسباب وبسبب عجز القوات العثمانيين عن إخراج الفرس من البصرة أعيد الحكم إلى المماليك ، بينما استطاعت عشائر المنتفق أن تخرج القوات الفارسية من البصرة .

وفى أعقاب هذه الأزمات أسند حكم بغداد إلى أحد المماليك ويدعى سليمان واشتهر بالكبير لمجهوداته المضنية فى سبيل تقوية الحكم المملوكى وفى مقاومة التمردات العشائرية العنيفة التى واجهته خلال ثلاث وعشرين سنة من حكم البلاد (١٧٧٩–١٨٠٢) ونظراً لأن الدولة العثمانية كانت مشغولة خلال هذه الفترة بمشكلاتها المعقدة مع الدول الأوربية لم تتدخل كثيراً فى أمور مماليك العراق ؛ خاصة وأن سليمان الكبير كان مخلصاً فى حفظ البلاد فى إطار الدولة العثمانية . وتغيرت سياسة الباب العالى إزاء مماليك العراق بعد وفاة سليمان الكبير . ويرجع ذلك التغير إلى أن العراق أخذ يتأثر بوضوح بالتطورات السياسية الدولية فى الآستانة . فقد رفع المماليك إلى الحكم سليمان الصغير الذى استطاع أن يحصل على فرمان الولاية بوساطة السفير فى الآستانة المستر سباستيانى (١٨٠٨) (١) ولكن تدهور العلاقات بعد ذلك بين السلطان ونابليون أدى إلى أن يعمل الباب العالى على إبعاد سليمان الصغير عن الحكم . وتم له ذلك (١٨١٠) بمساعدة بعض المماليك والعشائر العربية والكردية . وكان الباب العالى يتجنب إسناد الولاية إلى العرب أو الأكراد حتى لا يستقلوا بالبلاد . وفضل الباب العالى أن يرفع إلى الباشوية أحد المماليك وهو عبد الله باشا . وكانت تؤيده الإمارة البابانية القوية فى كردستان . ونكب المماليك منذ عهد هذا الوالى بالانقسام

(١) جودت : جـ ٨ : ص ٤٣ – ٤٤ ، ١٧٠ .

الشديد بين صفوفهم . وعندما أراد سعيد باشا أن يتولى الحكم استعان بقسم من المماليك وبعشائر المنتفق . واستطاع بوساطة عشائر المنتفق أن يحقق أغراضه (١٨١٣) . ولكن اعتماد سعيد باشا هذا على الشيوخ العرب وخاصة قاسم الشاوى (شيخ العبيد) وحمود الثامر شيخ عشائر المنتفق أدى إلى أن يثور عليه المماليك بقيادة داود . وكان من الطبيعى أن يستعين داود بالإمارة البابانية — أقوى إمارة كردية فى كردستان — للوصول إلى أغراضه . واستطاع بهذه الوسيلة أن يصل إلى الحكم (١٨١٧) .

داود باشا ونهاية المماليك :

ورث داود — مثل أسلافه — مشكلات العراق التقليدية وعلى رأسها توزع كردستان إلى إمارات متصارعة وتمسك العشائر العربية الكبرى بالمحافظة على نظام حكمها المشيخى وعلى استقلالها الذاتى . وورث كذلك مشكلة النفوذ البريطانى المتزايد فى البلاد منذ سقوط سليمان الصغير . كما واجه غزواً فارسياً للعراق (١٨٢٠—١٨٢٢) .

اتبع داود سياسة المماليك التقليدية نحو العشائر العربية وهى ضرب عشيرة بأخرى وحاول أن يقنع العشائر بالكف عن الغزو والتزام الهدوء دون جدوى. واستمرت حوادث القتال ضد العشائر طيلة أيام حكمه .

ولو ألقينا نظرة سريعة على المعارك التى دارت بين داود باشا والعشائر العربية — وهى معارك ملأت أحداثها كل سنة من سنى حكمه الخمس عشرة — لقدرنا أن المشكلة العشائرية كانت فى أيامه أقوى من أن تحلها العصبية المملوكية (١) . ولاشك أن حاجة المماليك إلى القوات العشائرية كانت عاملا رئيسياً فى أن يستمر الشيوخ متمتعين بسيادة شبه مطلقة على عشائرهم ، وخاصة فى عهد داود عندما كانت القوات المملوكية منقسمة على نفسها بين المطالبين بالحكم من زعماء المماليك .

كذلك كانت القوات المملوكية لا تستطيع أن تخوض حرب الصحراء .

(١) مختصر مطالع السعود : ٥١ ، عباس العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٣٦ — ٢٨٣ .

ولذلك كانت حكومة بغداد تعتمد على عشائر الجربا فى الدفاع عن العراق ضد زحف جموع عشائر عنزة الضخمة . وقد اكتسب صفوق شيخ عشائر شمر الجربا شهرة بسبب مواقفه الرائعة من عشائر عنزة وكافأه داود باشا على ذلك بثلاثين ألف قرش دفعة واحدة (١) . وكانت حكومة بغداد تعتمد على شمر الجربا فى حماية المنافذ الغربية الصحراوية للعراق كما كانت تعتمد على عشائر المنتفق فى حماية جنوب العراق، وخاصة البصرة من عدوان، كعب — العشيرة النامية التى اتخذت من المحمرة ابتداء من ١٨١٢ ميناء ينافس البصرة أشد المنافسة (٢) . ولكن حمود الثامر كان قد أصبح القوة الحقيقية المسيطرة على جنوب العراق وهو وضع يهدد مكانة المماليك . ولذلك عمل داود على عزله وإسناد المشيخة إلى شيخ متفاهم معه وفعلا أسند المشيخة إلى عقيل السعدون . فما كان من حمود الثامر إلا أن استنجد بعشائر كعب وبسلطان مسقط السيد سعيد ، وكان الأخير على نزاع مع داود . وفعلا بعث السيد سعيد بأسطوله إلى البصرة وحاصر حمود — شيخ المنتفق المعزول — المدينة براً ، ولكن استطاع رجال داود أن يردوا أسطول مسقط بعد أن دفعوا له مبلغاً من المال . وأسقط فى يد حمود واضطر إلى أن يتخلى عن المشيخة لعقيل السعدون الذى ظل موالياً لداود حتى نهاية حكمه . بعكس صفوق شيخ عشائر شمر الجربا الذى انضم إلى جيش السلطان الموجه ضد داود فى ١٨٣١ (٣) .

(١) عباس العزاوى : تاريخ : ٦ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ . مختصر مطالع : ٥١ .

(٢) خورشيد : سياحتنا مه حدود ٣٢٠

(٣) عباس العزاوى : تاريخ : ج ٦ : ٢٨٦ — ٢٩٠/ مختصر مطالع: ٦ — ٦١٪
عبد الله الناصر : تاريخ السعدون : ٣٩ — ٤٠

A. Groves : Journal of a Residence at Bagdad. London. 1832. p. 24.
Rudolph Reute : Said bin Sultan. London 1929. pp. 42-44.

الدار الأهلية ومحفظة ٧ عابدين — معية سنية . بحرا برا مسلسل ٢١١ بتاريخ ٢٢ ربيع الأول ١٢٣٦ هـ (من الصدر الأعظم إلى محمد على) ، دفتر ٤ معية تركى : ص ٢٢٩ من الجناب العالى إلى الصدر الأعظم فى ١٣ رمضان ١٢٣٦ هـ/١٨٢٠ —١٨٢١ م .

Selections from the Records of the Bombay Government. XXiv p. 192.

وكان داود كذلك يعانى من اضطراب أمور كردستان أشد العناء . حيث إن الإمارة البابانية كانت تعمل على التخلص من السيطرة المملوكية ولأنها كانت أضعف من أن تقف وحدها فى وجه الضغط المملوكى المستمر . وكان المماليك من ناحية أخرى لا يستطيعون السيطرة تماماً على كردستان . فاتبعوا الطريق التقليدى لضمان ولاء الأمراء الأكراد وهو ضرب أمير بابانى بآخر . ولكن المشكلات كانت تتعقد بسرعة لأن الأمير البابانى المخلوع كان يعود إلى الحكم على أسنة الرماح الفارسية . ودار بسبب ذلك صراع طويل فى كردستان اشتركت فيه القوات البابانية والمملوكية والفارسية ، دون أن تستطيع قوة من هذه القوى أن تنفرد بالحكم فى كردستان . وأصاب كردستان من جراء ذلك خراب شديد . إذ كانت فارس لاتتورع عن إرسال الجيش بعد الجيش لاجتياح كردستان ، لضمه إليها . فكان هذا من أسباب الحرب بين الدولتين الفارسية والعثمانية .

وترجع أسباب هذه الحروب الفارسية العثمانية التى نشبت فى ١٨٢٠ إلى الأسباب نفسها تقريباً التى أدت إلى وقوع الحروب الخمس السابقة بين الدولتين . كانت الحروب الأولى والثانية والثالثة فى عهد السلاطين الفاتحين سليم الأول وسليمان القانونى ومراد الرابع . وكانت الحربان التاليتان عندما هاجم نادر شاه العراق (١٧٤٥) وعندما استولت قوات كريم خان الزندى على البصرة ١٧٧٥ . فقد كانت فارس كلما أحست بقوتها تطلعت إلى سهول العراق وإلى ضم كردستان إليها ، وإلى إرضاء شيعة فارس بالاستحواذ على العتبات المقدسة (النجف وكربلاء) وتخليص حجاج العتبات المقدسة من الضرائب الباهظة التى كانت تفرض عليهم ومن المعاملات السيئة التى كانوا يتعرضون لها فى العراق .

وظهر عامل خارجى لعب دوراً كبيراً فى نشوب الحرب بين الدولتين الإسلاميتين . فقد أدرك الوكيل الروسى مازارفتش **Mazarovitch** أن الرغبة متأججة فى صدر عباس ميرزا للفتح والغزو ، وقدر قيمة استغلال هذه الرغبة فى توجيه هذا التوسع ضد الدولة العثمانية ، حتى يضرب الدولتين الإسلاميتين بعضهما ببعض وحتى يشغل « فتح على » — شاه فارس — عن

العمل على استعادة البلاد الواسعة التى اضطر إلى التنازل عنها فى معاهدة كلستان ١٨١٣. (١) وتطورت مشكلات الحدود بين الدولتين الفارسية والعثمانية إلى إعلان الحرب ١٢٣٥هـ — ١٨٢٠م . وكلفت الدولة داود باشا بالدفاع عن الجبهة العراقية وأمدته بخمسة عشر مدفعاً وبكمية من العتاد(٢) .

عند ما نشبت الحرب تولى داود أمر الدفاع عن البلاد ولكنه لم يستطع أن يجمع القوى تحت قيادته . فقد خانه محمود بابان أمير السليمانية ، وثار عليه الكتخدا وطالب بالولاية لنفسه ووقفت عشائر المنتفق هادئة دون أن تشترك فى القتال . حقيقة وقفت بعض العشائر العربية بجانب قوات الباشا ولكنها لم تكن — فى هذه الظروف — بقادرة على أن تصمد أمام الجيش الفارسى واضطر داود إلى أن يسحب قواته إلى ما وراء بغداد وبدأت القوات الفارسية تضرب الحصار على المدينة ١٨٢٠—١٨٢١ (٣) .

شعر الباب العالى بخطورة الموقف فى الجبهة العراقية ، ولكن لم تكن لديه قوات يستطيع أن يرسلها لنجدة بغداد إذ استغرقت ميادين القتال فى الأناضول الجيش العثمانى الرئيسى كله . ولذلك لجأ الباب العالى إلى محمد على باشا — والى مصر — مرة أخرى لينقذ العراق من الفرس مثلما تغلب على الحركة الوهابية من قبل ، ولكن محمد على كان مشغولا فى ذلك الوقت بسياسته الإفريقية التوسعية فى السودان وكانت آماله فى هذا الاتجاه . ولم تكن سياسته نحو ولايات الدولة العثمانية الآسيوية قد تبلورت بعد . هذا فضلا عن أن هذا التكليف عبارة عن مغامرة محفوفة بالمخاطر . ولذلك تلكأ محمد على

---

(١) جودت : جـ١٢ :ص٤ — ١٢ Sykes : A Hist. of Persia. Vol. II. p. 316
Hurewitz : Diplomacy in the Near and Middle East. Vol 1. pp. 84-86.

(٢) مختصر مطالع السعود : ٥٢ ، جودت : جـ ١٢ : ٣ — ٤ .محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ١٤٢ — ١٤٣ .
Rich : Narrative of a Residence. Vol. II. p. II.

(٣) عباس العزاوى : تاريخ : ٦ : ٢٧١ — ٢٧٧
تاريخ السليمانية : ١٤٤ — ٦ مختصر مطالع السعود : ٥١ — ٥٣ .

فى تلبية نداء الباب العالى (١) ، حتى اضطرت القوات الفارسية إلى التراجع عن بغداد بسبب تفشى الكوليرا فيها وبدأت حدة القتال تفتر حتى توقف تماماً عند ما نجحت مفاوضات الصلح بين الطرفين . وعقدت معاهدة أرضروم الأولى فى أغسطس ١٨٢٣ . (٢) والمعتقد أن اشتداد الثورة اليونانية ضد العثمانيين كان من العوامل التى عجلت بعقد هذه المعاهدة ليتفرغ السلطان لإخضاع تلك الثورة .

لم تأت هذه المعاهدة بشىء جديد . ووضعت فى صورة خطوط ومبادئ عامة . بينما كانت الحدود العراقية — الإيرانية فى حاجة ضرورية إلى دراسة شاملة من جميع الوجوه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية لتحديد تبعية كل عشيرة تحديداً دقيقاً . ولكن لم تكن العقلية السياسية الفارسية أو العثمانية حتى ذلك الوقت قد ارتفعت بعد لتضع معاهدة تفصيلية على هذا النمط للحدود المشتركة . فلم يثر انتباه الدولتين إلا مشكلة العشيرة التى كانت من أسباب إشعال الحرب . فكان من الطبيعى أن عادت الخلافات بين بغداد وكرمنشاه بشأن المشكلة الكردية بسبب استمرار تدخل القوات الفارسية فى أمور الإمارة البابانية وبسبب استمرار وجود القوات الفارسية فى زهاب برغم أن معاهدة ١٨٢٣ جعلتها من أراضى الدولة العثمانية ، بل واحتدت الأزمة الكردية — الفارسية عند ما ظهرت إمارة كردية ناشئة

---

(١) الدار الأهلية : دفتر ١٣ معية تركى : ص ١٣٥ أمر رقم ٧٦ من محمد على إلى الصدر الأعظم فى ١٥ من شعبان ١٢٣٨ هـ .

دفتر ١٠ عابدين معية تركى أمر ٤٠ فى ٤ من ربيع أول ١٢٣٧ هـ/ ٢٠ نوفمبر ١٨٢٢م . من محمد على إلى والى جدة .

دفتر ١٠ عابدين معية تركى أمر ٤٦ ص ٢٩ فى ١١ ربيع أول ١٨٢٢/١٢٣٧ من محمد على إلى محافظ المدينة المنورة.

دفتر ١٠ عابدين معية تركى أمر ٤٥ ص ٢٩ فى ١١ ربيع أول ١٨٢٢/١٢٣٧ من محمد على إلى محافظ المدينة المنورة .

دفتر ١٣ عابدين معية تركى ص ٣٥ — ٣٦ أمر ٧٦ فى ١٥ شعبان ١٢٣٨ من محمد على إلى الصدر الأعظم .

(٢) Hurewitz : Diplomacy in the Near and Middle East Vol. I. pp. 90-92.

هى الإمارة الصورانية فى راوندوز كقوة جديدة تسعى إلى التوسع على حساب فارس والإمارة البابانية فى السليمانية وعلى حساب ولاية الموصل كذلك . (١)

ونظراً لأن داود — والى بغداد — كان يسعى إلى كسر شوكة آل بابان ، وجد فى هذه الإمارة الصورانية الناشئة القوة القادرة على تحقيق هدفه (١٨٢٦) . وهذه السياسة تؤكد لنا أنه برغم عناية داود بالجيش كان لايزال حتى أواخر أيام حكمه عاجزاً عن فرض حكمه على كردستان (٢) . وقد كان هذا الصراع بين داود وآل بابان فرصة انتهزها الوكيل السياسى البريطانى فى بغداد المسترك . جيمس ريتش C. J. Rich(٣) لكسب ثقة البابانيين من ناحية ولتحريضهم على الانفصال عن جسم العراق من ناحية أخرى . وأغلب الظن أن نقمة داود على ريتش ترجع إلى ما كان يقوم به ريتش من نشاط يتعارض مع مصلحة داود قبيل الحرب الفارسية العثمانية ١٨٢٠ وخلالها ، بل واجه داود خلال تلك الحرب مؤامرات خطيرة صادرة عن ريتش C. J. Rich . وكان هذا الوكيل — مثل عدد من الوكلاء الإنجليز فى ذلك الوقت — ذا طموح كبير . كان يعتقد أن الوقت أزف ليصبح العراق مستعمرة بريطانية . والواقع أن نظرة بريطانيا إلى العراق كانت قد تغيرت إلى حد كبير منذ مطلع القرن التاسع عشر . فقد زاد حجم التجارة البريطانية مع العراق زيادة كبيرة وكانت بريطانيا قد انفردت بالسيادة فى الخليج العربى فى أعقاب حملتها البحرية على الإمارات العربية ١٨٠٩ ثم فى ١٨١٩ وعقدها الاتفاقات المشهورة مع البحرين وإمارات الساحل المهادن ومسقط . وغدا العراق من الطرق التى أكثر الرحالة الإنجليز من ارتيادها وهم فى طريقهم بين الهند وبريطانيا ..

---

(١) انظر تاريخ الإمارتين الصوارنية والبابانية فى الفصل الثالث .

(٢) الدملوجى : بهدينان : ٤٠ — ٤٥ .

Porter : Op cit. II. pp. 470-471.

محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ١٥٠ — ١٥١ .

(٣) تولى ريتش منصب المقيم البريطانى فى بغداد ١٨٠٨ واستمر فى منصبه هذا حتى طرده داود من البلاد فى ١٨٢١ .

وأخذت أهميته كخط من خطوط المواصلات العالمية تتضح منذ حملة بونابرت على مصر .(١)

على أن السبب الرئيسى للنزاع الذى دار بين داود وريتش كان اقتصادياً فى مظهره . كان داود يريد أن يجبى من التجار الأجانب ضرائب أكثر من الضرائب المفروضة حسب ما جاء فى الامتيازات Capitulations (٢) ، واعترض ريتش على هذا الإجراء ، ولكن الأمور تطورت إلى صراع مسلح وحصار للمقيمة البريطانية بسبب ما أقدم عليه ريتش من محاولات لتحريض الناس ضد داود . وكان ريتش على علاقات صداقة قوية مع عدد كبير من رجال الحكم فى بغداد . وكان يحمى الطوائف المسيحية واليهودية ويتخذها عيوناً له ، وكان يحرض محمود بابان أمير السليمانية على الانفصال عن حكم المماليك ، بل حرض ريتش حكومته لمساعدة الشاه ضد داود خلال الحرب الأخيرة (٣)

وتحت الضغط العسكرى اضطر ريتش إلى أن يغادر البلاد نهائياً ، ولكن السلطات البريطانية وقفت أمام داود موقفاً صلباً . وأوقفت التجارة مع العراق مما كبّد خزانته خسائر فادحة . إذ كانت التجارة الهندية تمثل أهم ممول لخزانة داود الذى اضطر إلى أن يوقع على اتفاقية أعادت الأمور إلى ما كانت عليه وقيدت داود بالفرمانات والمعاهدات المعقودة بين السلطان وبريطانيا . وهذه الاتفاقية تكشف لنا عن أن المصالح البريطانية كانت على

(١) عبد العزيز نوار : داود باشا ص ١٨١ — ١٩٠ .

(٢) انظر معاهدات الامتيازات التى عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية فى
Hurewitz : op. cit. Vol. I. pp.

(٣) C. Alexander : Bagdad. Bygone Days. London. 1928. p. 31.
Rich : Narrative of a Residence. II. p. II, 180, 184
Groves : Op cit. pp. 36-53.
Buckingham : Travels in Assyria. Vol. II;,. p. 169.
S. Lled: Foundation in the Dust. London. 1947. p. 44.
Alexander : Bagdad : 31-297.
Heude : Op cit. pp. 44-45, 171-172, 180-181.
ك. ريج : رحلة ريج فى العراق : ٣٢ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٦٨ ، ٢٢٩ ، ٢٥٢ .

جانب كبير من الأهمية وأن الضغط الاقتصادى البريطانى كان كفيلاً بأن يضطر الوالى إلى الخضوع للمطالب البريطانية (١) .

بعد هذه الأزمة كانت العلاقات عادية بين داود والمستر تيلر R. Taylor الى خلف ريتش Rich فى منصبه . وكان داود يتجنب أن يسلم قياده له . فقد كان داود يرغب فى تنظيم جيشه على الأسس الأوربية . وهذا يتطلب الاستعانة بخبراء أجانب . واستعان داود فعلا بأحدهم ولكنه كان فرنسيا . وكان تيلر Taylor يدرك أهمية إسناد هذه المهمة إلى إنجليزى وعرض على الباشا تسهيلات كثيرة فى هذا الصدد . (٢)

ولكن التفوق البريطانى العام على فرنسا فى الشرق الأدنى ، وعناية الحكومة البريطانية به عناية كبيرة منذ ظهور فكرة استخدام البواخر لربط الهند ببريطانيا عبر الطريقين العالميين القديمين — مصر والعراق — أديا إلى تقارب سريع بين داود وتيلرTaylor فقد كان الإنجليز يخشون من أن تكون هذه البواخر أداة من أدوات التسلط الروسى على الشرق الأدنى والعراق . وعند ما عرض تيلر Taylor الأمر على داود رحب به وفكر فعلا فى شق قناة جديدة بين دجلة والفرات لربط النهرين وتيسير الملاحة التجارية فيهما (٣) ولكن الظروف لم تسمح لداود بأن يبرز إلى حيز التنفيذ هذا المشروع الكبير . ويرجع ذلك إلى أن نزاعاً مسلحاً وقع بعد وقت قصير بينه وبين السلطان محمود الثانى . فقد وجد السلطان نفسه مضطراً إلى خوض حرب ضروس ضد روسيا فى ١٨٢٧—١٨٢٨ بعد أن نكب أسطوله والأسطول المصرى فى نوارين ، وطلب الباب العالى من الولايات العثمانية أن تلبى النفير العام لقتال روسيا . وكلفت الآستانة الولاة بتقديم الجنود لهذه الحرب ، فكان نصيب

(١) انظر نص هذه الاتفاقية فى :
C. Aitchison : A. Collection of Treaties Engagements And Sanads. Calcutta .1892. Vol. XI. pp, 12-14.

(٢) Groves : Op. cit. p. 29.

(٣) Alexander : Op. cit. 256.
Groves : Op. cit. 9-29, 66.
Rich : Narr. of a Residence. Vol. 11. p. 180.
Chesney : Narrative of the Euphrates Expedition. p. 76.

العراق أن يشارك بستة آلاف جندى . ويبدو أن الباب العالى كان معتقداً أن داود لن يفرط فى جندى من جنوده ولذلك طلب من داود ستة آلاف كيس. ومع هذا رفض داود تقديم هذا المبلغ فى أول الأمر فقرر الباب العالى عزله وإنهاء حكم المماليك فى العراق وأرسل الباب العالى مبعوثاً إلى بغداد لإخطار داود بقرار العزل ولتسلم أمور الولاية منه . إلا أن داود قتل مبعوث السلطان وكأن يظن أنه بذلك سيرغم الباب العالى على قبول الأمر الواقع ، ولكن الحقيقة أن فكرة القضاء على حكم داود وعلى العصبيات الحاكمة كانت قد أصبحت ركناً رئيسياً من أركان سياسة السلطان محمود الثانى . (١) فقد كان الباب العالى يعمل على القضاء على حكم المماليك فى شتى ولايات الدولة . فأصدر أوامره بمنع شراء المماليك . وكان ورود المماليك قد قل منذ استيلاء الروس على جورجيا . كذلك كان الباب العالى يعمل على طرد العصبيات الحاكمة لا لإعادة حكمه المباشر فقط ، بل كذلك لإنقاذ الولايات من الاستعمار الأوربى الذى يدبر لها . والمعروف أن موقف ولاة الدولة العثمانية فى العراق وكذلك فى ولاية طرابلس (ليبيا) من الحملة الفرنسية على مصر كان على نقيض موقف السلطان منها . فقد تجنب سليمان الكبير اتخاذ إجراءات ضد القنصل الفرنسى فى بغداد ، ووقع يوسف القره منلى والى طرابلس معاهدة مع الفرنسيين ليفتح لهم طريق الاتصال بين فرنسا ومصر عبر ليبيا . واتبع سليمان الصغير — والى بغداد (١٨٠٨–١٩١٠) — سياسة مناهضة للإنجليز بعد توقيع الصلح بين الدولة العثمانية وبريطانيا . كذلك وقف داود وقفة صلبة فى وجه النفوذ البريطانى وطرد ريتش Rich من بغداد ، ولكنه حسن علاقاته بالقنصل البريطانى الجديد روبرت تيلر ، وأخذ داود يفكر فى تنفيذ شق قناة بين دجلة والفرات لخدمة المشروع البريطانى الهادف إلى استخدام الفرات كطريق للملاحة التجارية يربط الشرق بالغرب . وهذا المشروع يؤدى إلى ربط العراق بحلقة المواصلات الإمبراطورية البريطانية وتصبح العراق من بعده محط آمال

(١) عبد العزيز نوار : داود باشا والى بغداد : ص ٢٣٩ — ٢٤٥

الاستعمار البريطانى ، وهذا يؤدى بطبيعة الحال إلى أن يصبح العراق ميدان منافسة بين الدول الاستعمارية الأوربية : بين فرنسا وبريطانيا وروسيا ، إذ أصبحت أمور العراق تتعلق بالسياسة الدولية بدرجة أكبر عن ذى قبل ، وخاصة فيما يتعلق بالتنافس حول خطوط المواصلات العالمية عبر الطريقين القديمين : طريق أوربا — العراق — الهند وطريق أوربا — مصر — الهند . والعراق كان مجرد ولاية من ولايات الدولة ولا يستطيع وحده أن يقف فى وجه الأطماع الإمبراطورية الاستعمارية الأوربية . ولذلك كانت خطة الباب العالى ترمى إلى تركيز قوى الولايات كلها فى يده لتقف الدولة العثمانية بجميع إمكاناتها ضد التدخل الأجنبى . وهذا الاتجاه يتطلب إعادة الحكم المباشر إلى مختلف الولايات .

بعد أن قرر السلطان محمود الثانى أن يوجه ضربة نهائية لمماليك العراق أخذ يبحث عن وال يستطيع أن ينفذ هذه الرغبة فوجد لدى على باشا رضا — والى حلب — الاستعداد للقيام بتلك المهمة . فأسند إليه السلطان ولاية بغداد وديار بكر والموصل بالإضافة إلى ولاية حلب . وترجع ثقة على رضا فى أن ينجح فى التغلب على داود إلى أن على رضا خلال حكمه فى حلب كان مطلعاً على أمور العراق ، وعقد صلات مع أعيانه وذوى الرأى فيه . وسهل له ذلك أن حلب كانت ذات أهمية اقتصادية كبيرة للعراق . فعن طريقها كانت تجرى خطوط القوافل الرئيسية المترددة بين فارس والعراق والشام . كما كانت حلب من أكبر مراكز التبادل الثقافى مع العراق حينذاك . ولذلك كانت أمور العراق مكشوفة أمام حكام حلب وأهلها . ولذلك كان من اليسير على « على باشا رضا» أن يجمع حوله الناقمين على حكم داود أو الطامعين فى الحصول على الحكم . وكان على رأس هؤلاء والى الموصل الجديد قاسم العمرى وبعض زعماء المماليك وشيوخ العشائر العربية .

وكان انضمام عدد من زعماء المماليك إلى جانب السلطان ضد الباشا الحاكم أمراً معروفاً فى تاريخ المماليك فقد كانت المنازعات الداخلية تشتت وحدة المماليك ، وكان هناك فى معظم الأحيان مملوك يطالب بالحكم . هذا إلى أن فرمان السلطان كان واجب الطاعة . وكان له مفعول عجيب فى

تفكيك قوى الثوار وفى انضمام كبار رجال الولاية إلى رجال السلطان . وفعلا بدأت أفواج الخارجين على داود تفد على «على باشا رضا»(١) ، وانضم إليه أحد كبراء عشيرة شمر الجربا وسليمان الغنام أحد شيوخ عشيرة العقيل (٢) . وكانت هاتان العشيرتان من عشائر العراق الصعبة المراس ذات الشهرة الواسعة فى ميادين القتال . كذلك وضع قاسم العمرى — والى الموصل وعدو داود اللدود — كل إمكاناته تحت تصرف «على باشا رضا» . ولكى يسد «على رضا» على داود جميع المسالك ويضرب عليه حصاراً قوياً اتصل بالمسئولين الفرس طالباً منهم عدم قبول داود إن هو لجأ إليهم .

كذلك عمل الباب العالى على أن يحبط المحاولات البريطانية للإبقاء على داود حاكماً فى بغداد . فقد طلب الإنجليز من الباب العالى العفو عنه ، وانتقدوا حملة على رضا من حيث إنها باهظة التكاليف وأشاروا على الباب العالى أن يقبل المبالغ التى عرضها داود لتسوية النزاع بدلا من الاستمرار فى تدابير القتال المكلفة ، ولكن هدف الحملة لم يكن جمع أموال وإنما إعادة حكم السلطان المباشر إلى هذه البلاد . ومن ناحية أخرى لم تتابع السلطات البريطانية الضغط على الباب العالى لأن الإنجليز كانوا قد ضمنوا منه المحافظة على الأمن وعلى المصالح البريطانية هناك (٣) . هذا إلى أنهم كانوا يميلون إلى داود بسبب ميله إلى مشروعاتهم الخاصة باستخدام نهر الفرات كطريق للبواخر التى سترتبط بين البحر المتوسط والخليج العربى تمهيداً لربط أوربا بالشرق الأقصى بخطوط ملاحة تجارية منتظمة عبر العراق . ولكنهم حصلوا بوساطة جسنى F.Chesney — المكلف بدراسة هذا المشروع — على وعد من على باشا رضا بأن يعينهم على تحقيق مشروعهم فى العراق وأن يقوم بتطهير ميناء

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٣٠٩ — ٣١٢ .

(٢) بغدادكوله من : ٥١ .

(٣) عباس العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٣١٠ .

السويدية لهذا الغرض . ولذلك لم تعد للإنجليز حاجة إلى الإبقاء على داود فى بغداد(١) .

كانت تلك الاستعدادات تمثل الجانب السياسى من إجراءات على باشا رضا لإضعاف جبهة داود الدفاعية . وأما من الناحية العسكرية فكان تحت يده قوات نظامية تتألف من كتيبة قوامها ٣٠٠ مقاتل من ولاية حلب وتسعة مدافع هاون وكتيبتان من التيماريين(٢) . ولعل هذه آخر المعارك التى اشترك فيها أصحاب الإقطاعات العسكرية إذ ألغى نظامهم كلية فى العام نفسه (١٨٣١)(٣) . وأرسل الصدر الأعظم السابق سليم محمد باشا بقوة عسكرية إلى حلب وعيِّن قائداً للفيلق الثانى ليكون ردءاً لعلى رضا(٤) ورد داود على هذه الإجراءات بأن وزع قواته على المواقع الاستراتيجية استعداداً لخوض المعركة الفاصلة .

وبينما كان الطرفان يستعدان لخوض المعركة المنتظرة فاجأ الوباء (الطاعون) البلاد (سبتمبر ١٨٣٠) . وكان قد انتشر فى تبريز وكركوك واجتاح كردستان من قبل أن يهبط على بغداد والعراق العربى . وشعر داود بخطورة الموقف عندما دهم الوباء بغداد فى هذه الظروف العصيبة . وطلب داود من المستر تيلر Taylor — الوكيل السياسى البريطانى فى بغداد — أن يبين له الأساليب الحديثة فى مقاومة الأوبئة . ولكن لم نر لتلك الأساليب أثراً فى بغداد ، فلم يكن لدى الأهالى من وسيلة سوى أن يفروا من المدن . واشتدت وطأة الطاعون وتساقط الضحايا بالآلاف يومياً بعد أن كانوا بالمئات . وكان من يفر من بغداد يقع فى أيدى العشائر المتربصة لتنهبهم ، وأصبح الناس فى حيرة من أمرهم . فالوباء الفتاك فى المدينة والنهابون خارجها ودجلة منسوبه يرتفع بسرعة مهدداً بغداد بالغرق . وأخيراً وقعت ثالثة الأثافى عندما انطلقت مياه دجلة مجنونة تدمر بيوت بغداد وتهدمها على

(١) F.Chesney : The Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris. London. 1858 Vol. I. p. 447.
J.B.Fraser : Mesopotamia and Assyria. From The Earliest Ages To The Present Time. Edinburgh. 1842. P. 255.

(٢) بغدادكوله من : ٥١ .

(٣) B. Lewis : Emergence. p. 90.

(٤) عباس العزاوى : تاريخ : ٦ : ٣٠٩ .

رءوس المرضى ، وفر الأصحاء إلى تلال مرتفعة لعلها تعصمهم من الفيضان فعصمتهم منه . ولكن ازدحامهم فوقها ساعد على انتشار الوباء بينهم فسرى فيهم كالنار فى الهشيم . وغدت أيام بغداد أسود من نكبة المغول لها (١) .

كان من الطبيعى أن تقف بغداد — نتيجة لتلك الكوارث — مكتوفة اليدين وأن تفتح أبوابها لجيش السلطان . وفعلا سعى وجوه وأعيان بغداد إلى تجنيب المدينة كوارث أخرى وطلبوا من على باشا رضا — أن يأتى ليتولى أمر البلاد . فأرسل على رضا «قاسماً العمرى» — والى الموصل — ليتسلم المدينة مؤقتاً . ولما كان قاسم العمرى من ألد أعداء داود طلب تسليم داود إليه فوراً . وكان أعيان بغداد قد تعهدوا لداود بأن يحافظوا على حياته حتى يسلموه إلى على باشا رضا . ولكن أصر قاسم على أن يسلموه داود . وبدا لأهل بغداد أنه يريد أن يستبد بالأمور ، ويعمل سيف الانتقام . فقرروا التخلص منه . فجمعوا فلولهم وهاجموا قاسم وقواته وقتلوه . ومعنى هذا أيضاً أنهم أعلنوا راية العصيان على الوالى الجديد . وفعلا قرر أهل بغداد أن يرفضوا قدوم على رضا إلى المدينة وكتبوا إلى السلطان يطلبون منه إعادة داود إلى الحكم ، وإن لم يكن داود فلتسند الولاية إلى صالح بك — صهر داود . وأسندت قيادة المقاومة إلى الضابط الفرنسى ديفو Deveaux الذى كان يتولى تدريب قوات داود . وعزم البغداديون على أن يقفوا فى وجه على رضا إذا ما صمم على أن يدخل بغداد عنوة(٢) .

كانت الثورة البغدادية ضد على رضا ورجاله وليست ضد السلطان . فقد كان الثوار يعتقدون أن السلطان لن يضحى بإحدى ولاياته العزيزة فى سبيل أحد باشواته . واعتقدوا أن السلطان سيلبى مطالبهم . وكانوا قد قدموا إلى السلطان عروضاً طيبة لتسوية النزاع إذ تعهدوا بدفع عشرين ألف كيس خدمة للخزانة السلطانية وإبلاغ سنوية بغداد إلى أربعة آلاف كيس فى السنة الأولى بعد أن كانت ألفين ثم يضاف ألف كيس كل سنة حتى تبلغ «عشرة آلاف كيس» كما تعهدوا بدفع مصاريف حملة على رضا باشا .

(١) Groves : Op cit. pp. 96-138.

(٢) بغداد كوله من : ٥٢ — ٧٩ . Groves : Op cit. pp. 182, 187-8.

ولقيت هذه العروض ترحيباً فى دوائر الباب العالى الذى كان يدرك أن الموقف أمام على رضا أصبح معقداً وأن فتح بغداد لن يكون بالأمر اليسير . ولذلك كتب الباب العالى إلى على رضا رسالة يأمره فيها بأن يدبر أموره بحكمة فإذا وجد أن فتح المدينة غدا بعيد الاحتمال فليعد أدراجه وأرسل إليه صورة من الالتماس الذى بعث به أهل بغداد إلى السلطان .

كان الموقف العسكرى يتحول كذلك ضد على باشا . فقد صمدت القوات المدافعة ودارت المعارك سجالا بين الطرفين وبدأ المعسكر البغدادى يفكر فى القيام بهجوم شامل على جيش على باشا رضا ليلقى به فى دجلة . وكان صاحب هـذه الخطة هو الفرنسى ديفو Deveaux وكان ديفو يعتقد أن الوقت حان لمثل هذا الهجوم الحاسم لأن المدينة قد أشرفت على الانهيار بسبب المجاعة التى أكل بسببها الناس الميتة وكل ما تصل إليه أيديهم ووضع ديفو خطة تفصيلية للهجوم ؛ ولكن المدينة لم تكن تحت قيادة قوية ، بل تعددت القيادات ، وتعددت الاقتراحات والاعتراضات . وكان أقوى اعتراض على خطة ديفو هذه صادرة عن درويش أغا .

كانت اعتراضات درويش أغا منصبة على النتائج السياسية المترتبة على تنفيذ خطة ديفو . فقد ذكّر المجتمعين بأن الأمور قد تركت فى أيدى أولى الأمر فى الآستانة وليس من الحكمة أن يخرج أهل بغداد من مدينتهم لشن هجوم على جيش السلطان ، إذ أن هذه الحركة لا يمكن أن تفسر على أنها من قبيل الدفاع ، بل على أنها مقاومة للسلطان نفسه . ثم ذكّرهم بالعدو الرابض على حدود البلاد الشرقية والذى يعبث بها منذ وقت طويل ويتحين الفرص للاستيلاء على البلاد وأنهم بعدائهم السافر للسلطان يمنحون فرصة كبيرة لفارس لتطعن الدولة من خلف ويصبح أهل العراق وحدهم أمام هذا الخطر الفارسى الكبير وأن الفرس لو قاموا بهجوم على بغداد لأجهزوا على هذه المدينة المنكوبة وتم الكارثة والحق كان هناك خوف عام من وقوع هجوم فارسى . ومثل هذه الظنون كانت على أساس تاريخى حقيقى . ولكن أهل بغداد لم يكونوا تحت

(١) بغداد كوله من : ٧٦ — ٧٧ .

(٢) بغداد كوله من : ٧٤ — ٧٧ .

قيادة حازمة . فقد كان صالح بك – أكبر شخصية فى المدينة والمطالب بالولاية – متردداً فى اتخاذ القرارات . فهو لا يريد قتال السلطان لعله يحظى برضاء المسئولين ويحصل على المنصب ولكن دون أن يمنع البغداديين من مقاومة جيش على رضا . هذا التردد هو الذى حوّل الموقف إلى مصلحة على رضا بالتدريج . وكان الأخير قد أدرك أن فتح المدينة لن يتم بقوة السلاح وحده وإنما بالحيلة والخديعة وكانت تربة بغداد صالحة لمثل هذه المناورات . ومع أن على رضا أدرك رغبة المسئولين فى الآستانة فى أن تنتهى مشكلة بغداد فى وقت سريع حتى ولو أدى ذلك إلى عودته فإنه قرر أن يقوم بمحاولة أخيرة لفتح المدينة وليتولى هو المنصب الذى منح له .

فأرسل على رضا إلى كبراء المدينة يدعوهم إلى التفاوض معه فيما أمر به السلطان . فبعث البغداديون مندوبين عنهم إليه . وفى الاجتماع أظهر حمدى بك – مندوب على رضا فى المفاوضات – لمندوبى بغداد الالتماس الذى بعث به أهل بغداد من قبل إلى السلطان . وحذرهم من التمادى فى المقاومة حيث إن السلطان ترك أمر البت فى هذا الالتماس إلى على رضا ، وأكد لهم أن الباب العالى رفض التماسهم وأن لا سبيل لهم سوى تسليم المدينة وأن الاستمرار فى المقاومة سيكلف المدينة نكبات جديدة لن تنزل إلا على رءوس أهلها . وعندما أحيط صالح بك بما دار فى ذلك الاجتماع أسقط فى يده وتلقى نبأ وصول الالتماس إلى يد على رضا كأنه كارثة نزلت على أم رأسه فشلت حركته ليصبح وكأنه « صورة على حائط » وذهل صالح بك لأن السلطان لم يسند إليه أو إلى داود المنصب. وأراد أن يخفى أمر تلك المفاوضات دون جدوى واهتزت القلوب من إصرار السلطان على فتح بغداد ، وانهارت الروح المعنوية . فكان ذلك فرصة ذهبية استغلها رجال على رضا لتفكيك قوى المدافعين وأكثر على رضا فى وعد المنضمين إليه بالمناصب وبدأ يظهر فى داخل المدينة – خاصة فى « حى الشيخ » أكبر أحياء المدينة – حزب قوى مؤيد للوالى الجديد على رضا(١) .

(١) بغداد كوله من : ٧٩ – ٨١ .

وفى أغلب الأحيان كان سقوط بغداد يتوقف على ثورة داخلية فيها . وكم من مرة استعصت بغداد على الفاتحين من فرس وترك طالما كانت الجبهة الداخلية متينة متحدة . ومن ثم كان مفتاح الموقف فى يد الأهالى . وقد تصدعت وحدة أهالى بغداد بعد تسرب أنباء تلك المفاوضات . وتزعم أحد وجوه بغداد حركة الانضمام إلى على رضا والتف حوله عدد كبير من الأهالى والمماليك . وبدأت المدينة تستعد لاستقبال قوات على رضا ولكن بشكل غريب . لقد انهمكت الأحياء فى إقامة التحصينات فى مداخل الشوارع لمواجهة تدفق قوات على رضا لاعتقادهم أنها ستنهب المدينة . فأخذ التدمير يحل بالمدينة من جديد بصورة أخرى إذ أن إقامة المتاريس كانت تتطلب قدراً كبيراً من الأخشاب فخلعت أسقف الحوانيت والمنازل . وسرت فى الوقت نفسه فى المدينة روح من الفوضى والاستهتار واللصوصية . وبعد وقت قصير دخلت قوات على رضا المدينة من الباب الشرقى الذى فتحته القوات الموالية للباشا الجديد فى ليلة الخميس ٢ من ربيع الثانى ١٢٤٧ هـ سبتمبر ١٨٣١ م ودخل منه الخيالة والتماريون واستولوا على طوابى المدينة فيما عدا باب الإمام الأعظم الذى ظل يقاوم حتى صباح اليوم التالى فكان آخر نقطة للمقاومة سقطت فى يد العثمانيين(١) . ثم استسلم داود إلى على رضا الذى أحسن استقباله وهدأ روعه وأمر على رضا بالبحث عن حسن بن داود الذى افتقده أبوه خلال الأزمة الأخيرة وأحضروه إليه والتقى الأب بابنه فى موقف مؤثر أكد نبل عواطف الوالى الجديد . ولم يكتف على رضا بذلك ، بل ترك الحرية لداود فى أن يستقبل من يشاء دون أن يحيطه بحرس وأحضر إليه جميع آل بيته وأعد لهم لوازم السفر إلى الآستانة وكتب إلى الباب العالى أن السبب فى عصيان الباشوات ورفضهم الأوامر عزلهم هو أن العزل كان يعقبه الإعدام غالباً وقال إن العفو يكون أجمل مكافأة للباشا لو أطاع أمر السلطان دون تمرد ، وبخاصة أن داود كان عالماً وكبير السن . ونجح على رضا فى مسعاه فسجل اسمه بذلك فى سجل المصلحين (٢) .

(١) بغداد كوله : ٦٥ – ٨٤ . Groves : Op cit.pp. 243-245, 248.
(٢) بغداد كوله من : ٨٤ - ٨٨ . Huart : Op. cit. p. 100-102.

وهناك من يقول إن داود حصل على العفو بعد أن قدم خزائنه كرشوة تنقذه من سيف الجلاد . حقيقة كانت الأموال من العوامل الرئيسية التى كانت تغير من سياسة الباب العالى ، وكانت الرشوة شائعة فى الدولة ، ولكن الموقف بالنسبة لداود يختلف عنه بالنسبة لحوادث التمرد الأخرى . فقد كان السلطان محمود الثانى يواجه ثورات عديدة وكان يريد أن يثبت للعالم كله أنه سلطان مصلح وأن ضروب القسوة والإعدام السريع لم يعد لها مجال تحت حكمه العادل . ولقد كانت ثورة على باشا والى « يانينا » عاتية وهزت كيان الدولة بشدة ومع ذلك كان مصرعه على غير هوى السلطان . ومن ثم كان اتجاه الدولة هو إحلال تبادل الثقة محل تبادل الريبة والشك . فلا نستبعد إذاً أن يكون الدافع السياسى والاقتناع بفكرة على رضا من حيث تجنب إعدام الباشوات المعزولين هما السببان الرئيسيان فى إنقاذ رأس داود .

ومن ناحية أخرى كانت براعة داود فى العلوم الدينية واللغوية من العوامل التى أنقذت رأسه . فلقد كان على رضا نفسه محباً للعلم وللعلماء . ولقد ارتبط عهد داود بنهضة علمية جعلت الطبقة المثقفة فى بغداد تتمسك بالباشا وتستبسل فى الدفاع عنه . ومن ثم كانت مكانة داود العلمية من الأمور التى نظر إليها على رضا بعين الاعتبار . فقد حرص على أن يكسب ثقة هذه الطبقة المثقفة ليقيم حكمه على أساس قوى . وإعدام داود — الشيخ العالم — سيلطخ صفحة على رضا وسيكون حاجزاً منيعاً بينه وبين الطبقة المثقفة فى المدينة فلا شك إذاً فى أن على رضا كان بعيد النظر فى موقفه الكريم من داود . ولقد احتضن على رضا الطبقة المثقفة فى بغداد وعفا عمن كان يحرض البغداديين على مقاومته ، بل وقرب بعضهم إليه وأسند إليهم الوظائف وبدا كأن حكمه استمرار لحكم داود ، ذلك الحكم الذى كان فى نظر البغداديين خير عهد شهدوه فى القرون الأخيرة (١) .

وعندما تمت جميع الترتيبات اللازمة لرحلة داود وأسرته إلى الآستانة أمرت كتيبة من الفرسان وأخرى من القوات غير النظامية بأن تقوم بحراسة

(١) عبد السلام الشواف : حديقة الورود : ورقة رقم ١٣ (مخطوط) .

داود وقافلته ووصل داود فى هدوء إلى الآستانة وعفا عنه السلطان ، بل وأفاد من خبرته فولاه البوسنة ١٢٤٩ — ٥١ هـ (١٨٣٣ — ٣٥ م) ثم أسند إليه رياسة مجلس شورى دولت (١٢٥٤ هـ — ١٨٣٨ م) ثم تولى أنقرة (١٢٥٥ هـ — ١٨٣٩ م) وعزل عنها فى ١٢٥٦ هـ — ١٨٤٠ م وفى ١٢٦٢ هـ — ١٨٤٥ م طلب داود أن توجه إليه مشيخة الحرم النبوى فنال ما طلب وظل هناك حتى توفى فى ١٢٧٦ هـ — ١٨٥٠ م ودفن بالبقيع .

وقد قضى العثمانيون على مماليك العراق بعد سقوط داود وتولى الولاة العثمانيون الوافدون من الآستانة الحكم ابتداء من عهد على رضا (١٨٣١) حتى سقوط الدولة العثمانية وكانت (١) بداية الحكم المباشر فى العراق يقابلها انهيار المقاومة العثمانية فى الشام أمام القوات المصرية . ولذلك كان التوسع المصرى ذا أثر كبير على أحوال العراق خلال الثلاثينات من القرن التاسع عشر .

أزمة التوسع المصرى :

فى خريف السنة التى سقطت فيها حكومة المماليك فى بغداد بدأ الجيش المصرى عملياته فى سوريا ووجد السلطان أن مصير الإمبراطورية أصبح فى مفترق الطرق : إما إمبراطورية عثمانية موحدة تحت حكمه المباشر وإما إمبراطورية منقسمة على نفسها وتعيش فى داخلها دولة عربية كبيرة تسيطر على أهم ولايات الدولة وتمتد من السودان إلى طوروس ومن الخليج العربى إلى باب المندب تحت حكم محمد على باشا .

(١) وفيما يلى قائمة بالولاة الذين تولوا الحكم فى الفترة التى نحن بصددها :

١	على باشا رضا	١٨٣١ — ١٨٤١
٢	نجيب باشا	١٨٤١ — ١٨٤٧
٣	عبدى باشا	١٨٤٨ — ١٨٥٠
٤	وجيهى	١٨٥٠ — ١٨٥١
٥	نامق باشا	١٨٥١
٦	رشيد الكوزكلى	١٨٥٢ — ١٨٥٦
٧	عمر باشا ومصطفى فوزى وأحمد توفيق	١٨٥٧ — ١٨٦١
٨	نامق باشا	١٨٦١ — ١٨٦٧
٩	مدحت	١٨٦٩ — ١٨٧٢

وكانت أسباب هذا النزاع بين السلطان ومحمد على تتعدى الرغبة فى الحصول على مركز ممتاز أو نوع من الحكم الذاتى .إذ كانت مصر الناهضة دائماً تتطلع إلى أن ترتبط مع الشام برباط وثيق . ولابد لكل حاكم فى القاهرة أن يسير على نهج الوحدة بين القطرين ذلك النهج الذى سار عليه حكام مصر الأقوياء منذ الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية حتى عهدنا هذا . وكان السلطان قد حنث بوعده الخاص بمنح محمد على الشام بعد إخماد ثورة المورة . فقرر محمد على أن يحقق أهدافه بالطريقة التى تروق له . ويبدو أن محمد على كان يعتقد أن بريطانيا لن تعترض على مشروعه فى التوسع فى الشام ، أو أنه على الأقل أراد أن يستغل ظروف التنافس بين روسيا وبريطانيا وفرنسا لتحقيق أهدافه . فيحدثنا القنصل العام البريطانى باركر C.F.Barker أن محمد على كان يعتقد أن بريطانيا لابد أن تخوض فى المستقبل القريب حرباً ضد روسيا فى الشرق الأوسط وربما فى فارس ، وكان محمد على يرى أن على بريطانيا أن تتفق معه على اعتبار أنه القوة الكفيلة برد العدوان الروسى ، خاصة إذا وقفت بريطانيا بجانب مصر .

وعندما اختمرت فكرة التوسع فى رأس محمد على زحفت القوات المصرية بسرعة فى الشام . وهدد هذا التوسع السريع بانسلاخ العراق عن الدولة العثمانية ، كما هدد أطماع كل من روسيا وبريطانيا . وكان بالمرستون قد تولى وزارة الخارجية البريطانية فى أواخر ١٨٢٠ ووضع سياسته على أساس مقاومة التوسع المصرى وتمسك بسياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية .(١)ولم تكن سياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية مقصورة على الحكومة البريطانية ، فقد كانت روسيا هى الأخرى تخشى من النتائج الخطيرة المترتبة على اقتسام الدولة . وكان مبدأ حفظ التوازن هو المبدأ الذى

(١) Barker's Despatch to F.O. (March, 8, 1830), F.O. 78—192.
-do- -do- 13, 1832. F.O. 78—214 & -do- -do- (Oct. 3,1832).
Dodwell The Founder. P. 112.
Palmerston to Campbell. Feb. 4, 1833. F.O. 78—226.

ساد سياسة الدول الأوربية الكبرى خلال أزمة التوسع المصرى فى الشام (١) وعملت كل من روسيا وفرنسا وبريطانيا على اتخاذ سياسة فعالة لوضع هذا المبدإ موضع التنفيذ وكانت فرنسا هى المتهمة باتباع سياسة تقطيع أوصال الدولة العثمانية . أما روسيا فأسرعت إلى مد يدها للسلطان وعقدت معه فى يوليو ١٨٣٣ معاهدة خنكار سكله سى ، والقصد منها معاونة السلطان ضد تابعه القوى محمد على. فرأت بريطانيا فى المعاهدة إخلالا بالتوازن الدولى ومحاولة روسية لاقتسام الدولة. وأعلنت بريطانيا تؤيدها فرنسا عدم اعترافها بهذه المعاهدة وعملت بريطانيا على إحباط مفعولها وحملت محمد على تبعة نزول القوات الروسية على ضفاف البسفور. والتقت سياسة كل من روسيا وبريطانيا عند سلب مصر مكاسبها باعتبار ذلك الحل الوحيد لإعادة الأمور إلى ماكانت عليه ، وكسبت بريطانيا الجولة حتى بعد انتصار المصريين فى نزيب ١٨٣٩ إذ كونت بريطانيا جبهة قوية أوربية أملت شروطها على محمد على وأرغمته بالقوة على الانسحاب من الشام واقتصر حكم محمد على على مصر والسودان. واستعادت الدولة العثمانية الشام . وكسبت بريطانيا إغلاق المضايق (الدردنيل والبسفور) فى وجه السفن الحربية . أو بمعنى آخر منعت الأسطول الروسى من الخروج إلى البحر المتوسط .

وبرغم أزمة التوسع المصرى دأب محمود الثانى على تنفيذ سياسته الإصلاحية سواء فى أساليب الحكم والإدارة أو فى تجديد نظم الجيش وإمكاناته فظهرت إدارات جديدة . اختص بعضها بالشئون الخارجية وبعضها بالأشغال العامة . وشكل فى ١٨٣٧ « مجلس خاص »وهو يشبه إلى حد ما مجلس الوزراء كما أسس مجلس « شورى عسكرى » ومجلس «والى أحكام عدليه » لإعداد التشريعات القضائية . ووضع نظماً إدارية ومالية للولايات إلا أنها لم تطبق إلا فى حدود ضيقة (٢) . كما سيتبين ذلك لنا من حديثنا عن العراق .

(١) د. محمد مصطفى صفوت : محاضرات فى المسألة الشرقية ومؤتمر باريس — القاهرة ١٩٥٨ ص ١٢ — ١٢١
B.Lewis : Emergence. pp. 94-98, 365-367, 370-371. Engelhardt : La Turquie et les Tanzimates. I, pp. 298-345.

(٢) انظر نوفل عبد الله نوفل : الدستور : جـ١ : ٢ — ٤

توفى محمود الثانى قبل أن يعرف بنكبة جيشه فى موقعة نزيب . وواجهت الدولة العثمانية ظرفاً عصيباً للغاية فقد تولى العرش السلطان عبد المجيد الصغير السن ، وأصبحت الدولة بعد موقعة نزيب منهارة القوى . وفى هذه الظروف غادر مصطفى رشيد باشا بريطانيا إلى الآستانة ليتولى الشئون الخارجية واستطاع رشيد باشا أن يستصدر خط كلخانة المشهور (٢٦ شعبان ١٢٥٥ هـ ١٨٣٩ م) . ويعتبر هذا الخط فى نظر « انجلهاردت » الثورة الإصلاحية الثانية على اعتبار أن الثورة الأولى بدأها محمود الثانى . ويعتقد انجلهارت أيضاً أن هذا الخط إنما صدر لكى تثبت الدولة العثمانية لبريطانيا أنها ليست أقل من محمد على فى مضمار الإصلاح (١) . ومع اعتقادنا أن ظروف الأزمة التى كانت تجتازها الدولة بعد نزيب وسقوط الجزائر فى يد الفرنسيين كانت من العوامل التى أدت إلى إصدار هذا الخط إلا أنه من المؤكد أن حركة الإصلاحات بدأت من داخل الدولة ونمت وتطورت ، بل صدرت عدة قوانين إصلاحية قبل خط كلخانة .

ومن ثم فهذا الخط حلقة فى سلسلة الإصلاحات التى بدأها محمود الثانى . وإنما أخذ هذا الخط الأهمية الخاصة به — من حضور السفراء وكبار رجال الدولة ساعة قراءته وكأنه عهد من السلطان للناس — بسبب ظروف الدولة العصيبة التى سبق أن أشرنا إليها .

ويؤكد خط كلخانة (٢) أن عدم الانقياد إلى الشرع الشريف كان السبب فيما أصاب الدولة خلال المائة والخمسين سنة السابقة له من تدهور وضعف ، وأن المقصود من إصدار هذا الخط هو إحياء الدين والدولة والملة ومع ذلك كان هذا الخط هو الخطوة الأولى نحو الأخذ بالقوانين الوضعية حين قرر المساواة التامة بين المسلم وغير المسلم . فكان ذلك الخطوة الأولى لفرض الخدمة العسكرية على غير المسلمين . كذلك ساوى الخط بين الطوائف المختلفة فى فرض الضرائب أمام القانون بصفة عامة . واقتضت

(١) Engelhardt : Op. Cit. T. p. 314.

(٢) J. Hurewitz : Diplomacy in the Near and Middle East. London. 1958. Vol. I. pp. 113-116

قرارات فرض التجنيد على الرعايا جميعهم إلغاء نظام الإقطاعات العسكرية إلغاء تاماً . كما اقتضت قرارات تحديد الضرائب (١) على كل فرد إلغاء نظام الالتزام الذى كان سائداً فى الدولة .

وقد وصف خط كلخانة نظام الالتزام بأنه من « آلات الخراب » . ولما كان الموظفون والضباط يحصلون قبل هذه التنظيمات على مرتباتهم من ريع الالتزامات أو من الاحتكارات ، أصبح من الضرورى تحديد مرتبات للموظفين وللولاة . وكان المعروف أن الوالى يأخذ الولاية بأن يلتزم دفع مبلغ معين سنوياً ويقوم بجمعه ويستولى على ما يجمعه زيادة على المبالغ المطلوبة للخزانة . فصدرت الأوامر إلى الولاة بألا يجمعوا أكثر من المبالغ المطلوبة ، ومنعت طريقة شراء المناصب وحددت رواتب الولاة ابتداء من أول ١٨٤٠ . كذلك كان الحال بالنسبة لحكام المدن . إلا أن هذه المبادئ لم تأخذ طريقها إلى التطبيق العملى فى العراق إلا ببطء شديد جداً .

وصدرت فى أعقاب خط كلخانة مجموعة من القوانين لتنفيذ توصيات ذلك الخط . فصدرت القوانين الجنائية وأسس التقاضى والقوانين المدنية فكان أن ظهرت فى العراق المحاكم بأنواعها المختلفة . وكان ظهور هذه المحاكم سبباً فى أن يبتعد العلماء ورجال الدين والولاة عن مزاولة المهام القضائية . وكانت هذه القوانين وكذلك القوانين التجارية مقتبسة إلى حد كبير من القوانين الفرنسية، ولكن وضعت بقدر الإمكان فى إطار الشريعة الإسلامية . وإذا كانت القوانين القضائية قد أثارت رجال الدين إلى حد ما فإن القوانين التجارية أثارتهم بدرجة كبيرة ، إذ نظر العلماء إليها على أنها تتعارض مع مبادئ العقيدة الإسلامية . ولذلك ستصادف طريقة تطبيقها فى العراق متاعب كثيرة خلال فترة الانتقال من أساليب التقاضى القديمة إلى الأساليب الجديدة . ومع ذلك استمر الباب العالى يصدر القرارات ، والفرمانات المتعلقة بالأمور التجارية إذ لم تكن مقاومة رجال الدين بقادرة على أن توقف تيار هذه الإصلاحات إن لم يتول أحد كبار رجال الدولة أمر

(١) أصبح من المقرر أن يدفع ممول الضريبة المبالغ المطلوبة منه إلى الصراف مباشرة .
Ibid. T.I. p. 41.

هذه المقاومة . فصدر فى ١٨٤٠ فرمان بإنشاء بنك الدولة وصدرت بعد ذلك الأوراق النقدية (١) .

وكمعظم القرارات الإصلاحية كان لخط كلخانة والتنظيمات التى صدرت فى أعقابه مؤيدون وناقدون فقد حذر مترنخ – السياسى النمساوى الشهير – العثمانيين من الخطر الكامن وراء استعارة أساليب الحضارة الأوربية المتعارضة مع الحضارة الإسلامية العثمانية . ودعا العثمانيين إلى أن يظلوا متمسكين بطابعهم الإسلامى الشرقى على أن يمنحوا أهل الذمة الحماية وحرية العبادة . والحق أن خط كلخانة كان يضع أسساً إصلاحية مقتبسة من النظم الأوربية والغرض منها إنقاذ الملة والدولة فى إطار الشريعة الإسلامية . وكان من الصعب القيام بالخطوات الإصلاحية على هذا الأساس دون أن يؤخذ ببعض القوانين التى نظر إليها على أنها تتعارض مع الشريعة الإسلامية (٢) .

وأما بريطانيا فكان من مصلحتها أن تتابع حكومة الآستانة خطة الإصلاح ، حيث إن علاقة بريطانيا بالدولة العثمانية كانت تحتم عليها مساعدة الدولة فى الوقوف على قدميها أمام الضغط الروسى وهذا لم يكن يتأتى إلا بإعادة تنظيم الجيش والإدارة العثمانية . وهذا يفسر لنا تحمس كاننج(٣) فى تأييد دعاة الحركة(٤) الإصلاحية. كذلك كانت حركة التنظيمات تتمشى مع نصوص معاهدة « بلطة ليمان » ١٨٣٨ . فإلغاؤها الاحتكار فتح مجال الاقتصاد العثمانى على مصراعيه أمام النشاط التجارى البريطانى وأمام رءوس الأموال البريطانية . فضلا عن أن هذه التنظيمات لم تكن تمس الامتيازات التى سبق أن حصلت عليها بريطانيا من قبل ، وكانت فرنسا وبريطانيا متحمستين لحركة

---

(١) Lewis : Emergence. pp. 109, 309 & 379 & Engelhardt : op.cit T.I.p.101.

(٢) يتهم انجلهاردت مترنخ بأنه لم يوجه هذا النقد إلا بسبب كراهيته للنفوذ الفرنسى النامى فى البلاط العثمانى ولأن معظم القوانين الجديدة كانت مقتبسة من القانون الفرنسى .
Engelhardt : p. cit. TI. p. 101.

(٣) كان ستراتفورد كاننج من أبرز سفراء بريطانيا فى الآستانة .

(٤) Lane-Poole : Turkey. pp. 352-353.

التجديد إذ أن إدخال النظم الأوروبية إلى الإدارات العثمانية سيفتح أمامهما مجالات اقتصادية سياسية وتبشيرية واسعة .

وفى داخل البلاد واجهت هذه الإصلاحات معارضة من جانب عدد ليس بالقليل من المسلمين ، وخاصة أولئك الذين كانوا يتزاوون بجوار عصبيات مسيحية مثلما كان الحال فى لبنان وفى جبال طيارى فى العراق فقامت الفتن بين المسلمين والمسيحيين ووقعت عدة مذابح فى كل من لبنان والعراق . فالأقليات المسيحية اشرأبت بأعناقها إلى الدول المسيحية الكبرى وبدأت تثير أشجان المسلمين ، وخشى المسلمون من هذه الإصلاحات التى سمحت للمسيحى بأن يستعدى الأجنبى على البلاد التى يعيش فيها .

فقد استغلت الدول الأوربية والهيئات التبشيرية هذه الإصلاحات مستعينة فى الوصول إلى أغراضها الظاهرة والخفية بالامتيازات Capitu-lations فكانت فرنسا تسعى إلى بسط حمايتها على الكاثوليك كلهم وروسيا تريد أن تفرض حمايتها على الأرثوذكس، ومبشرو بريطانيا والولايات المتحدة يعملون على تحويل أكبر عدد من مسيحيى الشرق إلى الكنيسة البروتستانتية . ويوحون إلى الأقليات المسيحية بأن بريطانيا ملاذهم وحاميتهم . وقد صاحب هذا النشاط الأوربى تيار من القوانين التى كان يستفيد منها المسيحيون بدرجة أكثر من المسلمين الأمر الذى كان يؤدى بالتدريج إلى أن يفقد المسلمون والمسيحيون الثقة فى بعضهم البعض . ولا شك أن تناصل الدول الأوربية فى البلاد العثمانية لعبوا دوراً كبيراً فى توسيع شقة الخلافات بين المسلمين والنصارى .

ونتيجة لسوء فهم المسلمين والمسيحيين لأهداف خط كلخانة ، وللإصلاحات والقوانين الجديدة تعرضت حركة الإصلاح لنكسات عديدة ، وقامت محاولات للعودة إلى النظم القديمة . وكانت أول محاولة من هذا النوع على أثر عزل رشيد باشا – رائد الإصلاح العثمانى – فى مطلع ١٨٤١ . فقد توقف العمل بالنظم الجديدة وعادت الحكومة إلى نظام الالتزام وإلى الحكام العسكريين ، وسُحب جباة الضرائب المدنيون واستعاد هؤلاء الحكام العسكريون مهمة جمع الضرائب (فبراير ١٨٤٢ م) وفى العراق ظهر

هذا الاتجاه واضحاً فى التردد بين الحكم العسكرى والمدنى فتارة يكون الوالى هو قائد الجيش السادس المرابط فى بغداد وتارة أخرى تنفصل قيادة الجيش عن منصب الولاية .

ولكن حتى تحت حكم الرجعية بعدعزل رشيد لم تتوقف الحركة الإصلاحية وإنما سارت ببطء فقسّم الجيش العثمانى إلى خمسة فيالق وحددت مدة الخدمة العسكرية بخمس سنوات للجندى فى الجيش العامل وسبع سنوات أخرى فى الرديف (الاحتياطى) ولما عاد « رشيد » إلى إدارة الشئون الخارجية فى ١٨٤٥ ثم إلى الصدارة العظمى فى ١٨٤٦ عادت عجلة الإصلاح إلى سابق سرعتها . وكان المسئولون خلال الفترة التى انقضت منذ إصدار خط كلخانة قد فهموا أن الشعب لم يدرك قيمة التنظيمات الجديدة ، وأن النجاح فى تطبيقها يتطلب تعريف الناس بها وإعداد جيل على الأسس التعليمية الحديثة . فالتعليم الحديث يعد الأذهان للسير مع تيار الإصلاحات فى الدولة . وكان هذا من العوامل التى دفعت المسئولين إلى نشر المدارس فى الدولة ، فشكلت فى مارس ١٨٤٥ لجنة لدراسة أحوال المدارس القائمة فعلا ، وإمكانات إنشاء المدارس الجديدة . واقترحت اللجنة إنشاء مدارس رشدية وجامعة . وابتدئ فى بناء جامعة ،ولكن توقف العمل فيها قبل أن تتم . وكان بناء المدارس الرشدية بطىء الحركة حتى إن عددها فى منتصف القرن التاسع عشر بلغ ست مدارس فقط بها ٨٧٠ طالباً وهى نتيجة ضئيلة إذا ماقورنت بالخطط التى وضعت لنشر التعليم .

وبرغم هذا البطء فى الحركة التعليمية فإنها وضعت أساس المدارس العثمانية التى أبعدت رجال الدين تدريجياً عن ميدان التعليم العام والخاص وأصبحت هذه المدارس تحت إشراف نظارة المعارف ولا سلطان لرجال الدين عليها . وحددت المرتبات للمدرسين . وأدرك المسئولون على التعليم أن البلاد فى حاجة إلى مدارس فنية إلى جانب المدارس العسكرية والرشدية فظهرت مدارس الصنائع . (١) وظهرت هذه المدارس تباعاً وفى فترات متفرقة فى ولايات العراق .

(١) Lewis : Emergence. pp. 100, 380.

د . مصطفى صفوت : محاضرات فى المسألة الشرقية : ٩ — ١٠ .

وإلى جانب التعليم العلمانى أراد السلطان أن يقوم بحركة دعاية للتنظيمات التى قامت بها الدولة ليكون شعبه على دراية بهذه الإصلاحات فأصدر أمره بأن ترسل كل ولاية بمندوبين عنها إلى الآستانة ليتشاوروا مع مجلس شورى الدولة فى هذه الإصلاحات (١٨٤٦) . وعندماعقد الاجتماع الذى ضم هؤلاء المندوبين فوجئوا بورقة توزع عليهم تبين سبب استدعائهم العاصمة وطلب من كل منهم أن يدلى برأيه فى إصلاحات الدولة .

وهذه هى المحاولة الأولى التى قام بها العثمانيون لإشراك أهالى الولايات فى تخطيط سياسة الدولة . وهذه الوسيلة فى حد ذاتها دعاية لها قيمتها لمجهودات الدولة الإصلاحية ليفهمها الناس وليقدروها وليعملوا على تطبيقها ، ولكن الأذهان لم تكن مستعدة لتفهم هذا الأسلوب الجديد فى تبادل وجهات النظر بين الحاكمين والمحكومين ففوجئ الحضور بما طلب منهم من إبداء آراء وكتابة اقتراحات . ولم يدل أحد بشىء يذكر وعادوا إلى ولاياتهم بينما قرر السلطان عدم العودة إلى مثل هذا الإجراء غير المجدى ، وعاد إلى الطريقة القديمة فى معرفة أحوال الولايات وحاجاتها وهى إرسال مندوبين من لدنه إلى الولايات لتقصى أحوالها وكتابة التقارير عنها لإصلاح أمورها . وكان لبعض هذه التقارير أثره فى تعديل سياسة الباب العالى نحو بعض المسائل . ولكن عدداً كبيراً من هذه التقارير كان لا يرى النور . (١)

استمر رشيد مخلصاً لسياسة الإصلاح حتى عزل من منصب الصدارة فى ١٨٥٢ وهى السنة التى تولى فيها السلطان عبد العزيز العرش . وتولى الصدارة لفترات قصيرة كل من محمد على وعالى باشا . وكان الأول رجعياً والثانى من المؤمنين بحركة الإصلاح . وعمل عالى باشا فى ميدان الإصلاح سواء كان فى الصدارة أم فى غيرها من مناصب الدولة الكبرى ، فقد عين فى ١٨٥٤ رئيساً لمجلس عالى تنظيمات ثم للصدارة فى نهاية حرب القرم .

(١) Lewis : Emergence. pp. 110-112, 397. Engelhardt : Op. Cit. I. p. 76.

وتعتبر حرب القرم المحنة الثانية التى عرضت الدولة لخطر الانهيار منذ أزمة التوسع المصرى فى الشام وشبه الجزيرة العربية . فمنذ انسحاب المصريين من الولايات الآسيوية أخذت روسيا تتحول عن سياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية إلى وضع خطط لاقتسام ممتلكاتها مع الدول الكبرى ذات المصالح فيها . وكانت روسيا خلال فترة الهدوء التى سادت العلاقات بين القيصر والسلطان من (١٨٢٩ — ١٨٥٣) تنظر بعين الشك إلى النشاط الفرنسى والبريطانى فى ولايات الدولة وتعتبره خطوات فعّالة نحو اقتطاع بعض هذه الولايات من جسم الدولة . ولقد أقدمت فرنسا فعلا على محاولة ناجحة للتوسع فى شمال إفريقية ، وكانت تعمل على الاستيلاء على بقية إيالة الجزائر وتهدد تونس . أما بريطانيا فقد اتخذت لنفسها خلال هذه الفترات نقاط ارتكاز قوية فى مداخل البحر الأحمر والخليج العربى لتثب منها متى شاءت على الولايات العثمانية فى تلك الجهات . كما أن التنافس الفرنسى — البريطانى حول الحصول على امتيازات لمشروعات خطوط المواصلات العالمية التجارية — سواء لخطوط السكك الحديدية أو للملاحة النهرية — كان ينذر بصدام بين الدولتين فى الشرق الأدنى قد يؤدى إلى اقتسامهما للدولة العثمانية .

فكرت روسيا فى الوصول إلى تقسيم للدولة العثمانية ترضى عنه كل من بريطانيا وفرنسا والنمسا وعمل القيصر فعلاً على تنفيذ مشروعاته فوقعت الحرب . ووقفت الدول الثلاث : الدولة العثمانية وفرنسا وبريطانيا متعاونة ضدّ روسيا . وضغطت بريطانيا على فارس حتى لا تدخل الحرب بجانب روسيا وعبأت الدولة قواتها فى العراق وبعد سقوط اسباستبول دارت مفاوضات لعقد الصلح بين المتحاربين . وقبيل عقد صلح باريس صدر فى الآستانة فى فبراير ١٨٥٦ الخط الهمايونى ، ربما بتوجيه من الدولتين الأوربيتين الحليفتين . وليس معنى هذا أن المصلحين العثمانيين كانوا يصدرون القرارات الإصلاحية تحت ضغط أوربى فقد سارت عجلة الإصلاح قبل وخلال حرب القرم . فخلال الحرب أعيد تنظيم « مجلس والى أحكام عدليه » كما صدر فى ٧ من مايو ١٨٥٥ فرمان برفع الجزية عن المسيحيين . وبعد ذلك صدر الخط الهمايونى . فمما لا شك فيه أن هذا الخط صدر كذلك بدافع من الرغبة

فى الإصلاح ، (١) هذا إلى أن العثمانيين كانوا يكتشفون من وقت لآخر أن القرارات السابقة لم تكن تنفذ إطلاقاً فى بعض الأحيان .

أكد الخط الهمايونى ١٨٥٦ خط كلخانة ، ولكن زاد عليه التفصيلات المتعلقة ببعض حقوق المسيحيين والتنظيمات الإدارية الجديدة . فبالنسبة للمسيحيين تقرر تشكيل مجالس مخصوصة وانتخاب البطريق لكل ملة وأن تحدد الرواتب لرجال الدين غير المسلمين . كما كفل لهم حرية العبادة وحرية إنشاء المدارس على أن تتفق فى المنهج مع مدارس الدولة ، ومنح البطريق سلطات واسعة فى الأحوال الشخصية لملته وحدد طريقة التقاضى بين المسلم والأوربى وبإصدار مجموعة كبيرة من القوانين المدنية . كذلك أكد هذا الخط حق الدولة فى أن تجند المسيحيين وفى الوقت نفسه أعطتهم فرصة دفع البدل العسكرى . كما سمح للأجانب بحق امتلاك العقارات ، ولكن وفق شروط معينة .

أما المبادئ الأخرى التى تضمنها هذا الخط فأهمها تشكيل نظام المجالس والشرطة فى الولايات على أن يمتنعوا منعاً باتاً عن أن يشتركوا فى أى التزام كخطوة نحو القضاء على هذا النظام نهائياً . وأكد الخط أن الدولة فى حاجة إلى الأخذ بأساليب التقدم الأوربى ، وخاصة فى النواحى العلمية والاقتصادية وعلى رأسها نظام البنوك والاستفادة من رءوس الأموال الأجنبية فى ترقية أمور البلاد . فكان ذلك فاتحة سياسة الاقتراض التى أدت إلى إفلاس الدولة .

ومن كل هذا يتضح لنا أن الخط الهمايونى كان تفسيراً لخط كلخانة ومحاولة لتحديد الأساليب الجديدة التى قررت الدولة إدخالها فى نظامها العام . ولكن هذا الاتجاه نحو الإصلاح وإدخال النظم الأوربية كان فى نظر غالبية مسيحيى الدولة من مظاهر ضعفها فتطلعوا إلى الدول الأجنبية بدرجة أكبر وتمسكوا بما منحهم الخط الهمايونى من حقوق دون أن يتنازلوا عن الحقوق القديمة التى كانت لهم . تمسكت العصبيات المسيحية فى الشام ولبنان بأن يظل حكامها منهم ، وبرفع يد الحكام العثمانيين عنهم ، وأقبل المسيحيون على دفع البدل العسكرى دون الاشتراك فى الجندية ، واعتقدوا أن الدول الأوربية

(١) Lewis : Emergence. pp. 114-115.

ستقف إلى جانبهم إذا ماوقع نزاع مع المسلمين . فكان ذلك من عوامل الاحتكاك الشديد الذى ظهر فى الشام والعراق بعد خط كلخانة فى الأربعينات ثم ظهر فى جبل لبنان بشكل دموى خلال حوادث الستين بعد الخط الهمايونى بأربعة أعوام .

وهكذا كلما تقدمت حركة الإصلاحات زادت الهوة بين عناصر الدولة المختلفة ، وزاد الضغط الأوربى على السلطات الحاكمة . كان الغرب — وخاصة الدول الكاثوليكية — تعتقد أن ثورة المارونيين ترجع إلى عدم تطبيق العثمانيين للإصلاحات التى وعدوا بها . ووقعت مذابح الستين وتدخلت الدول الأوربية الكبرى والقوات الفرنسية ، واضطرت الدولة إلى أن توافق على نظام المتصرفية الذى تقرر فيه أن يحكم لبنان حاكم مسيحى يختاره الباب العالى وبالاتفاق مع الدول الأوربية الكبرى . ومعنى هذا أن لبنان اتخذت طريق الحكم الذاتى الذى يتعارض تمام التعارض مع الاتجاهات الإصلاحية العثمانية فهو يتعارض مع :

١ — سياسة التخلص من العصبيات الدينية أو القومية الحاكمة .

٢ — سياسة توحيد الدولة بأسرها تحت حكم السلطان المباشر .

٣ — سياسة التخفيف من حدة النزاع بين المسلمين وغير المسلمين .

وصدرت بعد حرب القرم مجموعة من التنظيمات التى مست مساً قوياً المجتمع العثمانى وأهمها :

١ — قانون الأراضى (الطابو) ١٢٧٤ هـ — ١٨٥٨ م

٢ — قانون الولايات (١٨٦٤) .

٣ — مجموعة القوانين الجنائية والتجارية ١٨٦٠ — ٦٣ .

وسنعنى بالقانونين الأولين لارتباطهما الوثيق بتاريخ الدولة بصفة عامة وتاريخ العراق بصفة خاصة . وكان الغرض من قانون الأراضى التخلص نهائياً من بقايا نظام الالتزام والإقطاعات العسكرية ، وتحسين حال الفلاح بتمليكه قطعة من الأرض تمليكاً غير مطلق يرتزق منها . وعندما وضع القانون موضع التنفيذ جاءت نتيجته على غير ما كان يتوقع منه . فقد كان

الفلاح فقيراً عاجزاً عن دفع قيمة الأرض . بينما كان لدى الملتزم المال والخبرة فسجل الملتزمون باسمهم مساحات واسعة من الأراضى وتحول الفلاح إلى مجرد أجير لدى هؤلاء الملاك الكبار ، كذلك سجل شيوخ العشائر الأراضى باسمهم وأصبحوا هم الملاك وأفراد العشيرة عمالا عندهم .

أما قانون الولايات فيعتبر المحاولة العملية لإصلاح حال الولايات من جميع النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتأكيد خضوعها للدولة وحدد القانون نظام الإدارة واختصاصات الوالى وغيره من الموظفين والمجالس المحلية (مجلس الولاية ومجلس المدينة) وطريقة انتخاب أعضاء هذه المجالس وحدد سلطات الأداة التنفيذية وعلاقتها ببقية إدارات الولاية وبالباب العالى . وكان من أهداف هذا القانون إشراك الأهالى فى إدارة أمور بلادهم وفى الإصلاحات التى أدخلت فى مختلف النواحى . كذلك كان من أهداف هذا القانون أن يتمشى مع أحوال كل ولاية إذ أدرك المسئولون العثمانيون أن الولايات العثمانية تختلف عن بعضها اختلافاً جوهرياً وأنه لايمكن وضع قانون موحد ينتظم القوميات المسيحية البلقانية والأكراد الجبليين وعرب السهول العراقية وعصبيات الشام وعرب شمال إفريقية وترك الأناضول .

كان قانون الولايات يضع السلطة العليا فى قبضة الحكومة المركزية فى الآستانة وقد اتجه حكام الآستانة هذا الاتجاه لاعتقادهم أن فساد إدارة الولايات هو المسئول عن عدم تحسين أحوالها . وأنه لهذا السبب يجب أن يكون الوالى مجرد منفذ لأوامر رؤسائه فى الآستانة ، ويرجع إليهم فى أمور الولاية الهامة .

ولما كانت أساليب المواصلات الحديثة قد أخذت تنتشر فى الدولة أصبح فى الإمكان تطبيق هذا القانون الذى يتطلب سهولة الاتصال بين مقر الولاية والآستانة . وكان هذا من العوامل التى جعلت الدولة تعمل على تنفيذ مشروعات المواصلات المحلية والعالمية عبر العراق . وقد قسمت الإدارة فى الولاية حسب قانون الولايات الجديد إلى إدارات مالية وشرطة وإدارات

سياسية وقضائية إلى غير ذلك من الإدارات (١) .

وعنى القانون بإدخال نظام البلديات فى المدن وفى ١٨٧٠ تقرر تشكيل المجالس البلدية فى الولايات ، ولكن قانون الولايات صادف عقبات شديدة فى تنفيذه . حقيقة طبقت أجزاء كثيرة منه وهى المتعلقة بالأداة التنفيذية والقضائية ، ولكن المجالس المحلية والبلدية لم تحرز تقدماً يذكر فى بعض الولايات . (٢)

ولقد استطاع مدحت أن يطبق قانون الولايات بنجاح كبير فى ولاية الطونه فى الستينات من القرن التاسع عشر وعندما أسندت ولاية بغداد إلى مدحت باشا (١٨٦٩) أخذ يطبق قوانين الإصلاحات فيها قدر جهده وحسب الظروف التى كان يواجهها فى ذلك الوقت حتى عزل منها ١٨٧٢ . وأقدم إلى جانب ذلك على تقوية قبضة الحكومة على شبه الجزيرة العربية والخليج العربى .

وفى ١٨٦٩ ثم فى ١٨٧١ أصيبت الحركة الإصلاحية بخسارة جسيمة بوفاة فؤاد ثم عالى . وظهرت موجة من الرجعية بعدهما ، ولكن مدحت باشا استطاع أن يمسك بمقاليد الأمور وأن يصدر أول دستور عثمانى فى ١٨٧٦ بعد خلع السلطان عبد العزيز الذى ألقى بالدولة فى هاوية الإفلاس بسبب الديون الكثيرة التى اقترضها والتى أنفقت فى نواح استهلاكية لا إنتاجية ، ولكن هذه الحركة الدستورية أصيبت بنكسات شديدة لأن الدستور ترك للسلطان السيادة العليا على الحكومة وعلى ممثلى البلاد فكان فى استطاعته البطش بمن يقف ضد رغباته ولأن الدولة كانت لا تزال تعانى من الضغط الروسى العسكرى المستمر فلم يكن لديها متسع من الوقت لتنفيذ الإصلاحات . وقد سمحت هذه الظروف للدول الأوربية بالتدخل فى أمور الدولة باسم حمايتها من الخطر الروسى .

ولكن منذ عام ١٨٧٥ الذى اشترت فيه إنجلترا أسهم قناة السويس

(١) Lewis : Emergence. pp. 117, 382.

(٢) Ibid : pp. 380-392.

ومنذ مؤتمر برلين ١٨٧٨ حدث تغيير كبير فى سياسة بريطانيا إذ تحولت إلى سياسة الاستيلاء على الأراضى العثمانية على أن تحرم روسيا فى الوقت نفسه من أن تكسب على حساب الدولة العثمانية . وهكذا تحولت بريطانيا من سياسة تثبيت حدود الدولة العثمانية بقدر الإمكان إلى سياسة اقتطاع أجزاء منها ولصالحها ولصالح فرنسا وإيطاليا . الأمر الذى جعل حكام الدولة العثمانية — سواء فى عهد السلطان عبد الحميد أو فى عهد الاتحاد والترقى — يتطلعون إلى ألمانيا والنمسا سياسياً واقتصادياً .

وفى عهد عبد الحميد الثانى اتخذت الدولة سياسات جديدة نحو تنفيذ خططها لمقاومة التدخل الأوربى ولإصلاح أمورها فقد دعا عبد الحميد الثانى الناس إلى الالتفاف حوله وتكوين جامعة إسلامية تستطيع أن تقف فى وجه الخطر الأوربى بقوة . وبهذه الوسيلة أصبح فى يد عبد الحميد سلاح لتقوية حكمه فى ولاياته الآسيوية ولتركيز السلطة فى يده على اعتبار أنه خليفة المسلمين . كما أراد عبد الحميد أن يستغل هذه الحركة فى إثارة العناصر الإسلامية الواقعة تحت الاستعمار الأوربى ضد المستعمرين ليصبح قادراً على الضغط على الدول الاستعمارية المهددة لولاياته . وتابع عبد الحميد الثانى هذه السياسة ، ولكن أصيبت الدولة بكوارث سياسية واقتصادية عديدة وصاحبها نمو سريع فى الحركة الدستورية المناوئة لسياسة عبد الحميد الاستبدادية ونمو فى الحركة القومية الأمر الذى أدى إلى ثورة جمعية الاتحاد والترقى ١٩٠٨ ولكنها عملت على اتباع سياسة التتريك بقوة فكان أن واجهت فى العراق شعباً عربياً متمسكاً بعروبته وفشلت الجهود التركية فى سياستها تلك ، وبقى العراق بوجهه العربى الذى يطالعنا به حتى الآن .

الفصل الثانى

جهود الدولة العثمانية فى بسط سيطرتها على ولايات العراق ومتسلمياته ١٨٣٠ – ١٨٤٣

١ – مذبحة المماليك .

٢ – ثورة العقيل فى الكرخ .

٣ – إعادة الحكم المباشر إلى جنوب العراق .

٤ – القضاء على حكم آل عبد الجليل فى الموصل .

٥ – إعادة الحكم المباشر إلى العتبات المقدسة .

الفصل الثانى

جهود الدولة العثمانية فى بسط سيطرتها على ولايات العراق ومتسلمياته

عندما دخل على باشا رضا بغداد (١٨٣١) كانت مسئولياته واسعة النطاق جداً . كان والياً على بغداد والموصل وديار بكر . كما كان مسئولا عن أمور كردستان (ولاية شهر زور) وعن متسلمية البصرة . وكانت ظروف العراق قاسية فى ذلك الوقت . كان الطاعون قد أرهق البلاد أشد الإرهاق وأصاب المدن بخسائر فادحة فى الأرواح . وكان العراق مفككاً إلى مجموعات قوية من العصبيات :

١ — العصبية المملوكية فى بغداد وخارجها وكانت تعمل على أن تستعيد الحكم إما بالقوة وإما بالأساليب السلمية ؛

٢ — عصبية آل عبد الجليل فى الموصل ؛

٣ — الإمارات الكردية :

(ا) الإمارة الصورانية فى راوندوز .

(ب) البهدينانية فى العمادية .

(حـ) البوتانية فى جزيرة ابن عمر .

(ى) البابانية فى السليمانية .

٤ — العشائر الكردية .

٥ — العشائر العربية ، وعلى رأسها :

(ا) شمر الجربا تحت زعامة صفوق فى الجزيرة العراقية ؛

(ب) عشائر المنتفق وشيخها عقيل السعدون فى جنوب العراق ؛

(ح) عشائر زبيد والخزاعل وبنى لام والدليم وغيرها من عشائر وسط العراق وجنوبه .

(ى) عشائر كعب المرتكزة على الفلاحية والمحمرة فى دلتا نهر كارون .

٦ — عصبية العقيل النجديين فى الكرخ .

٧ — العصبية العربية فى البصرة والزبير .

كان من الصعب على الوالى الجديد أن يصفى هذه المشكلات العويصة فى الظروف التى لابست اجتياح الطاعون للبلاد ، ثم زادت مهمته صعوبة بسبب نشوب الحرب بين محمد على — والى مصر — والسلطان وتقدم القوات المصرية بسرعة فى الشام . هذا كله إلى جانب ضخامة الأعباء التى يتطلبها مشروع إعادة الحكم المباشر وإرغام تلك العصبيات كلها على قبول هذا النظام الجديد . فسار على رضا فى تنفيذ سياسة إعادة الحكم المباشر بالتدريج :

— بدأ أولا بالقضاء على المماليك فى بغداد وخارجها .

— ثم أخمد الحركات الثورية فى الرصافة والكرخ .

— وأبعد آل عبد الجليل عن الموصل .

— ونظم حملة على جنوب العراق للسيطرة على متسلمية البصرة وتوابعها : المحمرة وسوق الشيوخ والزبير والكويت .

— واشترك فى القضاء على الأسرة الصورانية فى راوندوز وعلى الأسرة البهدينانية فى العمادية .

وكانت هذه المجهودات مقدمة لتصفية العصبيات الأخرى وسار الولاة من بعده فى الطريق نفسه فقضى نجيب باشا ونامق باشا على الأسرة البابانية وبسقوط هذه الأسرة انتهى عهد العصبيات الحاكمة فى كردستان . أما العشائر العربية فقد أجهدت الولاة فى سبيل السيطرة عليها خلال الفترة التى نحن بصددها .

وفى الصفحات التالية تفصيل لهذه الجهود التى بدأها على باشا رضا .

مذبحة المماليك ونهايتهم فى العراق :

بدأ على رضا سياسته الداخلية الهادفة إلى توطيد سلطته المركزية بالقضاء على المماليك داخل بغداد وخارجها . فقد جمع المماليك — الذين أعلنوا الولاء للباب العالى وتعاونوا معه ضد داود — فى حفل لقراءة فرمانات السلطان ، وأحاط الباشا المكان بالجند سراً حتى إذا ما انسحب من المكان بطريقة متفق عليها أمطر الجند المماليك بالرصاص فأفنوهم عن آخرهم . وقلة منهم أعلنت خضوعها للباشا فعفا عنهم وصدرت الأوامر إلى مختلف الجهات باقتفاء أثر المماليك وقتلهم . ولذلك سقط عدد منهم صريعاً فى عدة جهات متفرقة ، واستطاعت فلولهم أن تفر إلى إخوانهم الذين أعلنوا الثورة تحت قيادة عزيز أغا متسلم البصرة السابق فى عهد داود (١) .

وكان عزيز أغا مملوك داود يرى أن المماليك — حتى بعد ما أصيبوا به من نكبات — أحق الناس بحكم البلاد وشجعه على الاستمرار فى هذه الثورة اضطراب أمور البلاد ،(٢) وسوء ظن الناس بالحكم العثمانى الجديد(٣) . وانضمام مجموعات قوية من العشائر الشيعية المشاغبة إليه ، وترحيب الدوائر الفارسية بهذه الثورة . فقد قدم ابن شيخ العشائر الفيلية الفارسية المساعدات لعزيز وأعانه فى حرب دعاية واسعة النطاق ضد على باشا رضا . وأخذ عزيز يكتب لرجالات العراق ويدعوهم إلى تأييد قضيته ويهدد من يتقاعس عن ذلك(٤) .

---

(١) بغداد كوله من : ٨٧ — ٨٨ ، تاريخ لطفى ج ٤ : ٧١ .

Taylor to Farren : 16 April 1832 (India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gulf. Vol. 47, pp. 341-346).

(٢) كانت شمر الجربا ثائرة وكان محمد باشا — أمير راوندوز — يتوسع بشكل خطر فى كردستان ، وخرجت الموصل عن طاعة السلطان فى ١٨٣٢ م .

Taylor to Chief Secretary to the Government Bombay. 22April. 1832. (Ind. O.R.F.R, PP.G. Vol. 47. P. 354-59.

(٣) انظر ثورة بغداد فى مايو ١٨٣٢ ص ٤٥٢

(٤) Taylor to Farren 16 Ap. 1832 (Ind. O.R.F.R. P.P. Vol. 147. P341-6).

Taylor ro Mendaville. Ap. 1832 (Ibid. P. 347-53).

" , Secret. Committee. July 13. 1832 (Ibid Vol. 49.P.196-7).

" , Chief Sec. Govrt. Bombay. 2 May 1832 (Ibid. Vol. 47. P. 367-71.)

عمل على رضا على حماية البصرة وجنوب العراق من نشاط عزيز أغا فى تلك الجهات وعين درويش أغا على البصرة لما عرف عنه من عداوة شديدة لعزيز ومن علاقة قوية بعرب البصرة . (١) كما خاطب على رضا الحكومة الفارسية باسم معاهدة أرضروم ١٨٢٣ م التى تنص على حسن الجوار بين الدولتين وعدم تأييد الثوار . ولقد حدث تحول من جانب الفرس بالنسبة لثورة عزيز أغا لسببين :

أولهما : وفاة ابن شيخ العشائر الفيلية المؤيد لثورة عزيز . ففقد الأخير بوفاته عنصراً له أهميته فى تدعيم ثورته . (٢)

ثانيهما : كانت حكومة إيران تريد فى حقيقة الأمر أن تساعد ثورة عزيز أغا نكاية فى الدولة العثمانية ، ولكن وجدت نفسها تحت ضغط بريطانى شديد يرغمها على أن تقف على الحياد فى أزمة الصراع الناشب بين محمد على والدولة العثمانية . (٣)

وجه على رضا قواته ضد الثوار فى شرق البلاد وجنوبها . وكانوا بعد تلك المجهودات من جانب الحكومة قد فقدوا الكثير من قوتهم . واضطر عزيز فى نهاية الأمر إلى أن يلجأ إلى الأراضى الفارسية . فطالب على رضا حكومة طهران بتسليمه . وكان هذا من حق الباشا وفقاً لمعاهدة أرضروم ١٨٢٣ . فوافقت الدوائر الفارسية على تسليمه (٤) راجية من الباشا أن يبقى على حياته إلا أن على رضا كان مصمماً على استئصال شأفة القوة

(١) Taylor to Chief Sec. Govrt. Bombay. 2 May 1832 (Ind. O.R.F. R., P.P. G. Vol. 47.P.P. 367-371).

(٢) Taylor to Sec. Comm. 13 July 1832 (Ibid. Vol. 49. PP. 196-197).

(٣) جاء فى كتاب موجه من ستراتفورد كاننج إلى الكابتن كامبل المبعوث البريطانى فى تبريز فى ٢ أغسطس ١٨٣٢ مايلى :

The Turkish Government has requested that I would communicate them.. in confidence to you in the hope that your friendly influence my be employed.. in counteracting the intrigues of Meh. Ali, and hoping the Persian Cabinet will stay steady to its present pacific engagements with the Porte ?

Canning to Cam pbell 2 July 1832. No. 60. F.O. 78-211.

(٤) Taylor to Sec. Comm. Aug. 1832 (Ind. O.R., F.R.P.P.G., Vol. 49PP. 218-219).

العسكرية المملوكية ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فأعدمه فور وصوله إلى العراق . (١)

عمل على رضا على إبعاد المماليك عن المناصب الإدارية . وعين فى هذه المناصب عدداً من أصفيائه من أهل حلب الذين كان يعرفهم منذ كان والياً عليها . ونظراً لعجز هؤلاء عن إدارة أمور البلاد بسبب جهلهم بها اضطر على رضا إلى أن يستخدم بعض المماليك فى المناصب الإدارية وأن يصطنعهم أدوات لخدمة الدولة. خاصة وأنهم كانوا ذوى خبرة بأمور العراق . فأسند منصب الدفترية إلى محمد أسعد بن النائب (٢) ولما أبدى هذا الرجل إخلاصاً وقدم خدمات كثيرة للدولة رفعه على رضا إلى منصب الكتخدائية وهو المنصب الذى يلى منصب الوالى مباشرة ولصاحبه قوة تنفيذية كبيرة (٣) .

نجح ابن النائب فى إدارته ، واستتب الأمن بفضل مجهوداته واعتمد على القوات المحلية فى إدارة أمور البلاد . ويبدو أن الرجل بعد أن أحرز ثقة على رضا أراد أن يداوى جراح إخوانه من المماليك فعطف عليهم وقربهم إليه ثم أسند إليهم الكثير من الأعمال . وإلى جانب هذا أصبح مرجع الناس والأعيان والشيوخ وغدا رجل العراق الأول بعد الوالى .

وبدا كأن أيام المماليك عادت إلى ما كانت عليه . وهذه الظروف تعطى فرصة كبيرة لأعوان الوالى ليحذروه من خطورة تلك المكانة التى بلغها ابن النائب . والحق أن من يمتلك تلك السلطات وذلك النفوذ كان قادراً على القيام بانقلاب عسكرى يطيح بالباشا . ولقد حدث فى تاريخ العراق الكثير من هذه الانقلابات التى رفعت قائد القوات المحلية إلى منصب الولاية .

وبرغم تحذيرات أعداء ابن النائب لعلى رضا ، لم يستمع الباشا إليهم . ولكنه أخذ بالتدريج يخشى مغبة ترك الأمور فى يد ابن النائب ، وقرر أن

(١) تاريخ لطفى : ج ٤ : ٧١ .

(٢) كان من رجال داود ثم تمرد عليه .

(٣) عباس العزاوى : تاريخ العراق ؛ ج ٧ : ٢١ — ٢٣ .

يتخلص منه فاغتاله فى ٢٧ من رمضان ١٢٤٨ هـ منتصف يناير ١٨٣٢(١) .

وفر أعوان ابن النائب بعد مصرعه إلى عز يز أغا ليتابعوا الثورة تحت لوائه وانضم بعضهم إلى يحيى الجليلى الثائر فى الموصل (٢) ، ولكن أحوال المماليك كانت فى انتكاس متواصل فقد فشلت هاتان الثورتان وقضى بذلك نهائياً على النشاط العسكرى المملوكى .

وبرغم ما تبينه على رضا من خطورة إسناد منصب الكتخدائية إلى أحد المماليك اضطر إلى أن يسند المنصب مرة أخرى إلى مملوك آخر يدعى أحمد أغا . إلا أن مصرع ابن النائب كان درساً وعاه أحمد أغا «فلم يتوغل حذراً من الوقيعة» (٣) بل ظلم الناس لإرضاء الوالى . ولم يلبث أن توفى أحمد أغا بعد وقت قصير . فأسند الوالى المنصب للمرة الثالثة لمملوك آخر يدعى الحاج أحمد . وسار الرجل على خطة سلفه وكانت مظالمه أكثر واستبد فى تحصيل الأموال للخزانة . وهذا سلوك يقربه من الوالى . وبعد أحمد أغا هذا لم يتول أحد من المماليك منصباً كبيراً فى البلاد . وانتهت هذه العصبية تماماً من العراق كعصبية حاكمة عسكرية وإدارية . (٤) .

على أن نكبة المماليك أدت إلى اشتداد كراهية الناس للحكم المباشر مما ترتب عليه اندلاع ثورة عنيفة فى بغداد بزعامة عبد الغنى جميل مفتى بغداد . كانت هذه الثورة ترمى إلى طرد على رضا من المدينة ، ولكن هذا الوالى استطاع أن يخمد الثورة . وبرغم انتصاره على الثوار لم يطاردهم وإنما عمل على تقريبهم إليه وعلى التفاهم معهم ليقفوا إلى جانبه خلال أزمة التوسع المصرى (٥) .

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٧ :ص ٢١ – ٢٢ .
تاريخ لطفى : جـ ٤ : ٧١
Taylor to Farren. Ap. 16, 1832 (Ind. O.R., F.R., PP. G., Vol. 47 PP. 341-346).
(٢) انظر ثورة عزيز أغا وثورة يحيى الجليلى فى الفصل الأول من هذه الرسالة .
(٣) مرآة الزوراء ص ١٥٥ . نقلا عن عباس العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٧ : ١٣
(٤) عباس العزاوى : تاريخ العراة العراق جـ ٧ : ٢٣ .
(٥) سندرس هذه الثورة بالتفصيل فىالفصل الخاص ببواكير الحركة العربية فى العراق . (الفصل الحادى عشر)

ثورة العقيل فى الكرخ :

كان القضاء على ثورة عبد الغنى جميل فى بغداد (١٨٣٢) يمكّن على رضا من السيطرة على النصف الشرقى فقط من بغداد وهو الرصافة . أما الكرخ – الواقع على الضفة الغربية لدجلة – فكان تحت سيطرة عشيرة العقيل النجدية التى اشتهرت بالخدمة العسكرية فى جيوش باشوات بغداد وبقيادة القوافل بين العراق والشام والحجاز .

وكانت قوة العقيل من القوات التى أخلصت لداود حتى آخر لحظة ١٨٣٠–١٨٣١ ومنذ البداية كانت العلاقات متوترة بين الوالى الجديد وعشيرة العقيل فى الكرخ ،ولما كانت موارد العقيل من تجارة الجمال وقيادة القوافل ومن الخدمات العسكرية التى يقدمونها لباشا بغداد وجّه إليهم على رضا ضربة اقتصادية شديدة بأن أسند هذه المهام إلى عشيرة شمر الجربا ، ولكن فشلت شمر فى المهمة التى عهدت إليها . ويرجع ذلك الفشل إلى أن عنزة كانت عدوة شمر التقليدية . وكانت عنزة تملأ الصحراء بين الشام والعراق وما كانت لتترك قافلة تحت قيادة شمرية تمر بسلام فى أراضيها وما كان فى استطاعة شمر الجربا أن تشق طريقها فى قلب أراضى عنزة بحد السيف لأن عنزة أكثر عدداً وأقوى جانباً .

أما العقيل فكانوا يعرفون كيف يمرون من أراضى شمر وعنزة بأغلى القوافل دون أن تتعرض القوافل للأذى . إذ كانت تتفق مع شيوخ العشائر على مبالغ معينة فى مقابل المحافظة على سلامة القوافل .

وكان من الطبيعى أن تشتد عشائر عنزة فى مقاومة قيام شمر بمهمة قيادة القوافل نظراً لأن على رضا منح شمر هذا الامتياز بعد هزيمة شمر أمام عنزة . وكان على رضا يقصد من وراء ذلك ضرب أكثر من عصفور بحجر واحد ، بأن يبعد العقيل عن احتكار قيادة القوافل وبأن يداوى جراح شمر التى أصيبت بها لهزيمتها أمام عنزة بما ستحصل عليه من دخل وفير من قيادة القوافل ، وهو بذلك يقوى من جانب شمر الجربا لتكون درعاً للعراق من

هجوم عنزة عليه(١) ولذلك فالمعتقد أن العقيل بدورهم حرضوا عنزة على التصدى بكل قوة للقوافل التى تقودها شمر(٢) .

أدى عجز شمر عن القيام بمهمتها إلى أن تصاب اقتصاديات بغداد بأضرار جسيمة ، مما اضطر على رضا على تغيير سياسته عندما وصلت إلى أسوار بغداد قافلة كبيرة تحت حراسة من رجال من عشيرة العقيل واستغل العقيليون الفرصة وأبوا أن يسلموا البضائع إلى أصحابها إلا إذا أعادهم الباشا إلى ما كانوا عليه من قبل . فاضطر الوالى إلى أن يقبل شروطهم وعادوا إلى أعمالهم وهم يشعرون أنهم سادة الموقف(٣) .

كان ذلك التراجع من جانب الباشا سبباً فى أن يتصرف العقيل على أساس أنه أصبح تحت رحمتهم فأثاروا حفيظته(٤) . وبعث إليهم بحملة مؤلفة من قواته النظامية ومن الأرناءوط تؤيدها خيالة العشائر الموالية (٥) . وقبل أن يأمر بالهجوم أنذر شيخ العقيل بمغادرة الكرخ فى هدوء حقناً للدماء(٦) . ورفض العقيل قبول الإنذار وقطعوا الجسر ليفصلوا بين الرصافة والكرخ . ولم يكن تحت يد الوالى ناقلات نهرية جاهزة لنقل قواته إلى الضفة الغربية . وهنا وضع روبرت تيلر R. Taylor سفينته الراسية أمام المقيمية تحت خدمة الباشا وبوساطتها نقلت القوات والإمدادات إلى البر الغربى(٧) . وتفوقت قوات الحكومة لأنها كانت تضم قوات نظامية ومدفعية وانهارت مقاومة العقيل خصوصاً عندما أقبلت خيالة عشائر زبيد عدوة العقيل منذ وقت طويل(٨) . ومع ذلك دافع

(١) Taylors Memo.Feb.1836.(Ind.O.R.,F.R.,p.p.G,PP. 9, Vol. 53.P.799).

(٢) سعاد العمرى – بغداد : ٧٨ – ٧٩ .

(٣) Taylors Memo.Feb.1836.(Ind.O.R.,F.R.,p.p.G.,PP.9,Vol.53, P.799).

(٤) IBID.

(٥) Lorimer : opeit. Vol. I. P. 1317, & Ibid.

(٦) IBID.

(٧) Taylor to Sec. Comm. Dec. 8. 1834. (Ind. O.R., F. R., p.p. G., PP. 9, Vol. 52. PP. 128-132).

(٨) سعاد العمرى : ٧٨ – ٧٩ .

العقيل عن كرخهم بيتاً بيتاً ودارت معارك شوارع دموية اضطروا فى نهايتها إلى الجلاء عن ديارهم . وانقض الأرناءوط على البيوت نهباً برغم تحذيرات على رضا(١) .

حقيقة طرد على رضا العقيل من كرخهم ، ولكن حاجات بغداد الاقتصادية كانت تلح على إعادتهم إليه . وكانت الضربة التى وجهت إلى العقيل قاسية وكانوا هم أيضاً فى حاجة إلى العودة إلى ديارهم . ولذلك التقت مصالح الطرفين عند التعاون معاً وعادوا فعلا إلى ديارهم(٢) ، بل وأصبحوا من أدوات الباشا فى بسط السيادة العثمانية على البلاد . فاشتركوا فى حملته على جنوب العراق والمحمرة(٣) . كما اعتمد على رضا على سليمان الغنام – شيخ العقيل – فى حث فيصل بن تركى آل سعود على الاستمرار فى مقاومة حملة خورشيد على نجد فى ١٨٣٩(٤) على أن قوة العقيل أخذت فى التدهور بعد ذلك . فقد أعدم نجيب باشا والى بغداد (١٨٤٢–١٨٤٧) شيخ العقيل سليمان الغنام(٥) . وربما كان إعدامه بسبب عدم إخلاصه للعثمانيين خلال أزمة التوسع المصرى فى الشام وشبه الجزيرة العربية . ولم نعد نسمع عن العقيل كقوة ذات بأس من بعد .

وبالقضاء على المطالبين بالحكم من المماليك وعلى ثورة عبد الغنى جميل فى بغداد وثورة العقيل فى الكرخ أصبحت بغداد بقسميها تحت سيطرة على باشا رضا فهل عنى بها بمثل عناية المماليك بها ؟ .

الواقع أن عهد الحكم المباشر تميز بإدخال تحسينات بسيطة على المدينة . ولعل ذلك يرجع إلى أن الولاة من المماليك كانوا يشعرون أن بغداد بالنسبة لهم أكثر من مجرد عاصمة ولاية ، وإنما كانت فى نظرهم قاعدة لدولتهم .

(١) تخلص منهم على رضا عندما أتته قوات نظامية من الآستانة .

(٢) Lorimer, Gazetteer of the Persian Guef. Oman and Central Arabia. Culcutta. 1915. Vol. I. Part. I. pp. 1371-1318.

(٣) Taylor to Secret Committee. 14 No. 1834. (Ind. O.R., F.R., P.P. G. Vol. 53. p. 113).

(٤) محفظة ٢٦٤ عابدين – وثيقة ٢٦١ فى ٢٢ شعبان ١٢٥٤ هـ .

(٥) عباس العزاوى : تاريخ العراق ج ٧ : ٦٤ .

ووطناً لهم . هذا إلى أن اعتماد الولاة المماليك على أهل العراق فى تقوية جانبهم كان يجعلهم يعنون ببغداد . وهذه الدوافع لم تكن لدى الباشوات فى عهد الحكم المباشر حتى عهد مدحت فى العراق .

ولذلك كان نمو بغداد بطيئاً . ومع أن كوارث ١٨٣١ أرهقتها كل الإرهاق إلا أن تعداد سكانها أخذ يرتفع من ٥٠ ألفاً فى ١٨٣١ إلى ١٣٥ ألف نسمة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ولكنه لم يبلغ تعدادها فى عهد داود (١٥٠ ألف نسمة) ، ولكن آثار تلك الكوارث ظلت موجودة حتى نهاية الفترة التى نحن بصددها، بل إن الولاة لم يعنوا بإعادة بناء السراى ، وظلوا يسكنون فيه برغم ما أصابه من تهدم وتدمير وظل على حاله حتى عهد مدحت .

وكان خط الملاحة التجارية فى نهر دجلة الذى بدأ فى الأربعينات من القرن التاسع عشر من الأسباب التى قللت النشاط التجارى فى طريق القوافل . وأخذت القوافل الكبيرة التى اشتهرت بها بغداد تقل سنة بعد أخرى . وأخذ كبار التجار يرحلون عنها إلى البصرة التى أصبحت منذ السبعينات الميناء البحرى التجارى الكبير فى الخليج العربى . كذلك أدت المنازعات الفارسية العثمانية إلى أن يقل عدد الحجاج الشيعة إلى العتبات المقدسة سنة بعد أخرى(١) . وبرغم ذلك التدهور فقد بدأت المدينة تتقدم بشكل ملحوظ فى أواخر القرن التاسع عشر .

اعادة الحكم المباشر الى جنوب العراق :

وفى أقصى الجنوب كانت سيطرة الحكومة فى معظم أيام الحكم العثمانى واهية نظراً لوجود عشائر عربية قوية تحجب البصرة وجنوب العراق عن حكومة بغداد ولوجود مجموعتين عشائريتين قويتين على جانبى البصرة هما عشائر كعب عربستان (خوزستان) وعشائر المنتفق . فكانت البصرة لذلك محط أطماع هذه العشائر فضلا عن أطماع فارس المستمرة ،ولاشك أن عدم قيام الدولة العثمانية بمسئولياتها فى الخليج العربى وفى شبه الجزيرة العربية

(١) A. Blunt : Bedouin. I. P. 186-188, 190-191.
بعد مد خط السكة الحديد إلى بغداد فى القرن العشرين زادت أهمية بغداد واتسع العمران فيها.

أضعف مكانة البصرة فأنزلها العثمانيون من مرتبة الولاية إلى أن تكون مجرد متسلمية تابعة لبغداد (١٧٧٩) .

وبينما كانت عشائر المنتفق خاضعة بلا جدال لحكومة بغداد كانت السيادة العثمانية والفارسية على عشائر « كعب » على السواء غير واضحة . وكانت عشائر كعب من ناحيتها تعمل على أن تكون مستقلة عن الدولتين بقدر الإمكان . وعنيت عشائر كعب بتنمية مواردها عن طريق النشاط التجارى البحرى حتى هددت مستقبل البصرة الاقتصادى أشد تهديد . ونظراً لأن هذه العشائر وميناءها المحمرة ستصبح مجال منافسات خطيرة بين الدول الفارسية والعثمانية والبريطانية والروسية والفرنسية يجدر بنا أن نلقى نظرة سريعة على تاريخها فى العهد العثمانى .

عند ما فتح العثمانيون العراق ١٥٣٤ أخضعوا بصفة عامة العشائر العربية فى الجنوب ومنطقة البصرة . وبعد الفتح العثمانى الثانى للعراق ١٦٣٨ اعتبر العثمانيون عشائر كعب تابعة لهم بمقتضى معاهدة ١٦٣٩(١) .

وكانت كعب خلال القرن السابع عشر تدفع ضريبة « ميرى قلمية » لخزانة البصرة فى مقابل الرعى فى الأراضى العثمانية . وبدأ أول نزاع حول تحديد تبعية هذه العشيرة فى ١٦٨٣ عندما اضطرت عشائر كعب — تحت وطأة القحط — إلى الرحيل عن مستنقعات دلتا كارون . واعتبر الفرس أنه بانتقال العشيرة إلى مواقعها الجديدة أصبحت تحت حكم الشاه على اعتبار أن دلتا كارون أرض فارسية . بينما رد العثمانيون على ذلك بأن الضريبة التى تدفعها كعب لخزانة البصرة خير دليل على رعويتها العثمانية . وهدأت المجادلات

(١) جاء فى معاهدة ١٦٣٩ — على أساس النصوص التى عثر عليها فى تاريخ « نعيما وجهانما » — أن البصرة وتوابعها ضمن الدولة العثمانية مع أن السيادة العثمانية لم تفرض فى جنوب العراق إلا حوالى ١٦٦٨ . كما أن السلطة العثمانية امتدت لتشمل المنطقة الواقعة على نهر كارون . وفى أرشيف وسجلات البصرة ما يثبت أن «الميرى» كان يدفع عن المنطقة بين كردلان (قرب المحمرة) والخليج العربى الأمر الذى يشير إلى أن الضفة اليسرى (الشرقية) لشط العرب كانت تابعة للبصرة منذ أيام مراد الرابع .
Rawlinson's Memorandum on the Perso-Turkish Frontiers. Confidential. No. 793. pp. 2-3.
William's Despatch of July 18, 1852. No. 16. Sheil's Desp. of Aug. 10, 1852.

حول كعب لأنها كانت قليلة العدد حينئذاك ولأن دلتا كارون لم تكن قد لفتت الأنظار بعد . وظل شيخ كعب يدفع لبغداد حتى ١٧٤٠ ، ضريبة سنوية ويتلقى الخلعة من واليها(١) .

أما الرابطة الوحيدة التى كانت تربط هذه العشائر بالفرس فكانت هدايا من الخيول والزبد تقدمها سنوياً لزعيم الأفشار (٢) فى مدينة دوراق نظير الرعى على طول الضفة الشرقية لنهر جوبان Guban المتفرع من نهر كارون حيث إن هذه الأراضى كانت ملكاً للأفشار قبل مجىء كعب إلى كارون .

اضطرت عشائر كعب مرة أخرى إلى أن تهاجر عندما تحولت مياه نهر كارون عن مجرى جوبان وانطلقت المياه فى بهماشير وفى الحفار ، فانتشرت كعب على طول نهر الحفار وشط العرب وعملوا أيضاً كفلاحين لدى الملاك العثمانيين ، وعبرت العشيرة الرئيسية نهر جوبان إلى نهر جراحى وطردوا الأفشار من دوراق وثبتوا أقدامهم بقوة فى هذه النواحى الفارسية . واستغلت كعب إمكانات هذه المنطقة الجديدة زراعياً وتجارياً فنمت فى العدد وفى الثروة واستطاع سلمان — شيخ كعب — أن يحقق لنفسه نوعاً من الاستقلال عن القوى المجاورة وأن يقوم بتنفيذ مشروعات رى لها قيمتها أدت إلى أن يعيد الحياة إلى مجرى نهر جوبان . فأعاد بذلك الحياة فى تلك المنازل السابقة لعشيرته(٣) . وبعد ذلك اتسع نطاق كعب على طول شط العرب على ضفته الغربية . على أن هذا الاتساع كان أكثر مما تحتمله عشائر كعب ولذلك ركزت نفسها بين شط العرب ونهر جراحى(٤) .

لفت نمو هذه العشيرة أنظار الدولتين الفارسية والعثمانية ، فضغط عليها

(١) درويش باشا : تقرير درويش : ص ٢ — ٤ ، ٧ — ٨ ، ٢٣ .

(٢) عشيرة فارسية مجاورة لعربستان .

(٣) Memo. Dependency of Chaab tribe (Precis of Turkish Arabia. pp. 327-328).

(٤) Memo. Dependency of Chaab Tribes Precis of Turkish Arabia. PP. 330.

كريم خان الزندى ، كما ضغط عليها المماليك بمساعدة عشائر المنتفق وأحياناً بمساعدة الأسطول الإنجليزى . فكان أن اضطرت كعب إلى أن تبحث عن موقع أكثر أمناً . فاختارت منطقة الفلاحية مقراً لها حيث إن المياه تحيط بها فكان هذا منشأ الفلاحية فى عربستان . ونتيجة لهذه التطورات أصبحت أربعة أخماس العشيرة تعيش فى أرض فارسية تماماً ، وتدفع لوالى الحويزة إيجار المراعى واعتبر الفرس هذه الإيجارات الضريبة السنوية التى يدفعها الشيوخ الخاضعون للشاه . وأصبح الفرس ينظرون إلى عشيرة كعب على أنها عشيرة عثمانية استقرت طويلا فى الأراضى الفارسية فاكتسبت بذلك الرعوية الفارسية ، أما السلطات العثمانية فكانت تعتبر هذه التطورات مجرد نمو للعشيرة لم يغير من حقيقة تبعيتها للسلطان حيث إنها ظلت تستغل الأراضى الواقعة على طول شط العرب والحفار وهى أراض تابعة للبصرة وكانت تدفع الضرائب السنوية الأميرية لخزانة البصرة(١) . بل إن بعض هذه الأراضى كانت تقع على الضفة الغربية (اليمنى) لشط العرب(٢) .

كانت القوة التى منعت كعباً من الاستمرار فى التوسع غرباً هى عشائر المنتفق القوية . وأدى وجود هاتين الإمارتين العشائريتين المتجاورتين المتعاديتين إلى حفظ التوازن فى تلك المنطقة التى كانت فيها سلطة الحكومة المركزية — سواء الفارسية أو العثمانية — ضعيفة . فقد استخدمت قوات كعب لكسر شوكة المنتفق ، كما استخدمت قوات المنتفق ضد كعب كلما توغلت غرباً(٣) .

وخلال ذلك أخذت قوة عشيرة المحيسن — إحدى عشائر كعب — تنمو وتظهر كأكبر وحدة عشائرية فى عربستان . ونظراً للنمو الاقتصادى البحرى

(١) Saldanha : Precis of Turkish : PP. 328-330.

(٢) Ibid. No. 52-54.

(٣) انظر تفاصيل الصراع بين كعب من جهة والعثمانيين والإنجليز من جهة أخرى فى القرن الثامن عشر ، وخاصة فى العقد الثامن منه فى :
Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf Oman & Central Arabia. Vol. I, P.P.II, PP. 1625-1644, 1648-1650.

لعشيرة المحيسن ولخشيتها من تعديلات مماليك وعشائر العراق أنشأ شيخ المحيسن ميناء المحمرة حوالى ١٨١٢(١) ولكن أدى نمو عشيرة المحيسن إلى غموض تبعية هذه العشيرة فالظروف الاقتصادية اضطرت شيخ المحمرة إلى أن يتعامل مباشرة مع السلطات الفارسية والعثمانية على السواء(٢) . فأصبح لشيخ المحمرة علاقاته الخاصة بالفرس والعثمانيين وهى علاقات تختلف فى بعض الأحيان عن العلاقات التى كانت بين شيخ كعب من جهة والفرس والعثمانيين من جهة أخرى .

فقد فتح شيخ المحمرة ميناءه لجميع السفن دون جمارك فتحولت السفن إلى المحمرة وأخذت السفن تنزل متاجرها فيها ثم تهرب منها البضائع إلى الزبير ومنها إلى نجد والعراق(٣) . وأغلب الظن أن فونتانييه Fontanier كان صادقاً حينما قال إن البضائع الإنجليزية لا تفتش وأن الرسوم لا تقدر عليها إلا بعد تجميعها فى المقيمية الإنجليزية فى البصرة(٤) .

وقد عمل داود باشا فى أواخر أيامه على أن يفرض سيادته على كعب ، وضغط عليها حتى جمع منها أموالا كثيرة(٥) . ويبدو أن تفاهماً سلمياً كان قد تم بين شيخ كعب وداود باشا منذ ١٨٢٧(٦) . ولعل هذا التفاهم يفسر لنا عدم إقدام كعب على تأييد مقاومة عشائر المنتفق لداود عندما استنجد بها حمود السعدون(٧) شيخ المنتفق وبرغم اجتياح الطاعون لها كما اجتاح البصرة إلا أن نكبتها كانت أقل وطأة من نكبة البصرة حيث إن نشاط المحمرة ظل مستمراً ، بل وفى نمو متوال بينما توقفت البصرة عن النمو وعن اللحاق بالمحمرة(٨) .

---

(١) Memo. Depend. Chaab Tribes. Pr. Turk. Arb. PP. 332-5 & Ibid.

(٢) Ibid. 336.

(٣) Fontanier : Op. cit. Vol. I. P. 310.

(٤) Ainsworth : A Personal. Vol. II. PP. 212-213, 98-99 Ibid 282-284.
وكان فونتانييه قنصلا فرنسيا متجولا

(٥) خورشيد : سياحتنامه حدود : ٣٢ .

(٦) Lorimer : Op.cit. Vol. I P. IIPP. 1648-1650.

(٧) عبد العزيز نوار : داود باشا : الفصل الثالث

(٨) Lorimer : Op. cit. Vol. I. pt. II PP. 1648-1650.

عمل على رضا باشا منذ الأيام الأولى من حكمه على إعادة السيادة العثمانية على كعب فطلب من شيخها إعلان ولائه للسلطان . فما كان من الشيخ إلا أن حذر على رضا من مغبة الإصرار على الضغط عليه ، وأخطره بأنه سيطلب مساعدة حاكم شوشتر الفارسى لو أقدم على رضا على إرسال جيش ضده . وربما أجل الباشا اتخاذ خطوات عنيفة ضد كعب بسبب ظروف التوسع المصرى السريع فى الشام فى سنة ١٨٣٢ ، سنة ١٨٣٣ . فترك أمر الضغط على كعب إلى متسلم البصرة والقبطان باشى هناك ، وقد اشترك فى هذه المناورات السياسية الحزب العربى فى البصرة ذو النفوذ الكبير بين عشائر كعب(١) .

كذلك كان إذا وقع نزاع بين شيوخ العشائر الكعبية انتهز حكام شوشتر الفرصة لتأييد شيخ ضد آخر ابتغاء الوصول إلى فرض السيادة الفارسية . وكانت هذه المناورات الفارسية بطبيعة الحال تلقى اعتراضاً من جانب على باشا رضا (١٨٣٦)(٢) .

والمعتقد أنه حوالى ذلك الوقت أدى التنافس الشديد بين شيخ كعب وشيخ المحيسن إلى أن يصبح لكل كيانه الخاص ، وكان شيخ كعب يتمسك بحقه فى أن يكون شيخ المحيسن تحت إمرته وطاعته مثلما كان الحال من قبل وذلك ليضمن الكثير من الدخل الوفير من ميناء المحمرة . ومع ما كانت تبدو عليه هذه المنافسات بين شيخى كعب والمحمرة من عنف كانا يتضامنان ضد المحاولات العثمانية أو الفارسية لفرض السيادة عليهما(٣) .

هذه الظروف كانت بعثة جسنى تهبط نهر الفرات وصدرت لها

---

(١) Taylor to Chief Secrt. to Govornt.Bombay. 20thJan. 1832 -do- -do- 16 July. 1832, do - do. Aug. 1832 (Ind. O.R., F.R., PPG, Vol. 47. PP. 303-5).

(٢) Taylor's Memo. Ind. O.R., F.R., PPG, Vol. 53. PP. 799-818.

(٣) كان ثامر شيخ كعب يتجنب انفراد فارس بالسيادة على عربستان ولذلك عقد روابط قوية مع البصرة دون أن يسمح لحكامها بممارسة سيادة على عشائره . وكان يقدم الخيول الأموال هدايا لحكام البصرة ويتسلم الخلعة من متسلمها .
Lorimer : Opcit. Vol. I., Pl. II. P. 1653-1654.

الأوامر بأن تعمل لا فى الفرات فقط ، بل فى نهرى دجلة وكارون وغيرهما من الأنهار التى يمكن أن تفتح مجالات استراتيجية وسياسية واقتصادية أمام الإنجليز . وصعدت الباخرة الفرات نهر كارون حتى المحمرة وأثبتت أن النهر صالح للملاحة البخارية حتى ميناء المحمرة(١) .

وقدرت البعثة أهمية المحمرة كميناء يمكن أن يحل محل البصرة، بل وأن يتفوق عليها فى المستقبل . ولذلك نشط الإنجليز فى تلك الفترة فى دراسة إمكانية الاستفادة من هذا الميناء الناشىء واتصلوا بشيوخ كعب . كما أن التجار الإنجليز استخدموا فعلا ميناء المحمرة كقاعدة لهم لتهريب بضائعهم إلى العراق حتى لاتدفع الجمارك فى البصرة .

وكان فونتانييه يرى فى الاتصالات المباشرة بين المقيم البريطانى فى بوشهر وشيخ المحمرة مكمن الخطر على هذا الميناء (المحمرة) حيث إن ذلك يعنى أن المحمرة دخلت فى دائرة اختصاص المقيم فى بوشهر . فقد كانت دائرة اختصاص هذا المقيم معظمها تشمل الإمارات العربية المطلة على الخليج العربى والتى أرغمت على توقيع معاهدة ١٨٢٠ التى أعطت بريطانيا الفرصة لأن تعتبر هذه الإمارات مستقلة كخطوة نحو فرض السيطرة الكاملة البريطانية عليها وخشى فونتانييه أن يعمل المقيم البريطانى فى بوشهر على تحويل المحمرة لما آلت إليه الإمارات العربية الأخرى المطلة على الخليج . أما لو دخلت المحمرة فى اختصاص المبعوث البريطانى فى طهران أو فى دائرة اختصاص الوكيل السياسى البريطانى فى بغداد فكان هذا يوحى بأن بريطانيا تعترف بتبعية المحمرة للحكومة الفارسية أو للحكومة العثمانية فى العراق .

ورأى فونتانييه أن هذه المناورات البريطانية تمهد لاحتلالهم فى القريب العاجل للعراق . والواقع أن المظاهر والتطورات العامة فى الخليج كانت تؤيد ظنون فونتانييه فإن الإنجليز كانوا فى ذلك الوقت يحتلون جزيرة « خرج » لإرغام الشاه على الانسحاب من هراة ، ومن « خرج » يستطيع الإنجليز أن

(١) Chesney : Narrative : P. 95, 299, 302-314, 323-324.
Anisworth : A Personal. Vol. II. PP. 94-95, 202-203.
Fontanier : Opcit. I. PP. 224-226, 347-349.

يثبوا على العراق بسهولة وأن يسيطروا على منافذ إيران الجنوبية الغربية(١) .

وكان من مصلحة الإنجليز أن يعملوا على أن تكون المحمرة بعيدة عن متناول أيدى الفرس والعثمانيين على السواء الأمر الذى كان يقوى الشكوك حول نياتهم نحوها . ولقد جنى الإنجليز مكاسب كثيرة من وراء توطيد علاقتهم المباشرة بشيوخ كعب والمحمرة . فقد وجدت الحملة البريطانية على فارس ١٨٣٧ (٢) فى ثامر شيخ كعب مؤازراً له قيمته إذ كان يتعاون معها من حيث تقديم المؤن والمعلومات عن الجيش الإيرانى الأمر الذى سهل للإنجليز الوصول إلى نصر سريع وبأقل التكاليف(٣) .

وهكذا كانت الظروف الدولية فى الخليج العربى دقيقة بالنسبة لإيران والعراق وبريطانيا . وكانت الأمور تتطور بسرعة لمصلحة الإنجليز . فقد أوقع الإنجليز الشاه فى مأزق حرج عندما رفض الانسحاب من هراة . إذ استولوا على خرج وأنزلوا قواتهم على الساحل الفارسى دون مقاومة تذكر. وكانت الخطة البريطانية تهدف إلى تحطيم الوفاق الفارسى الروسى والتحالف العثمانى الروسى فى آن واحد ، وأن تمسك هى بزمام الموقف سواء فى أفغانستان أو على طول الحدود الفارسية العثمانية أو على طول الحدود العثمانية المصرية . وكان مجرد تصور هذه الخطة البريطانية الواسعة النطاق يثير فى الفرنسيين الحماس لوضع خطط لمجابهتها . وكانت المحمرة أحد الميادين التى التهبت فيها هذه المنافسات البريطانية الفرنسية . فقد أخذ فونتانييه يحرض

(١) Fontanier : Op. cit. Vol. I. PP. 346-349.
Sheill to British commissioner. Sep. 27, 1843 F.O. 195-224.
Sykes : A History of Persia. Vol. II P. 532.

(٢) انظر الحملة الإنجليزية على إيران وعن علاقة الإنجليز بكعب
Chesney, Expedition, Vol. I, P. 144.

(٣) Ainsworth ; A Personal, Vol. II PP. 221-232.
عندما يتحدث الإنجليز عن علاقاتهم بكعب خلال الحملة البريطانية على إيران ١٨٣٧ – ١٨٣٨ أو بعد ذلك يسوقون الحديث دون الإشارة إطلاقاً إلى أن كعباً أو المحمرة تتبع إيران أو الدولة العثمانية الأمر الذى يجعلنا نعتقد أن من مصلحتهم أن يتعاملوا مع هذه الإمارة العربية على أنها مستقلة أو على الأقل شبه مستقلة لما يترتب على ذلك من سرعة تفاهم وتعاون مع شيوخها .

على باشا رضا – والى بغداد – على أن يستولى على المحمرة قبل أن يسبقه إليها الإنجليز .

ولاشك أن تحريضات فونتانييه كانت لها أثرها فى أن يقتنع على رضا بضرورة إرسال حملة إلى المحمرة لا لذلك السبب فقط ، بل كذلك لإنقاذ البصرة من التدهور الاقتصادى الذى تسببت فيه المحمرة .

عندما قرر على رضا باشا الزحف جنوباً اعترضت عشائر جنوب العراق الكبرى على مرور الجيش عبر أراضيها واتهم فونتانييه غريمه تيلر Taylor(١) بأنه هو الذى وضع هذه العقبات فى وجه الحملة . ولقد اتصلت عشائر المنتفق وكعب بتيلر فعلا ووسطته لدى على رضا لإقناع الباشا بالعدول عن إرسال الحملة فى مقابل أن يدفعا لخزانة بغداد ، ما قيمته ٣٠٠ ألف قرش(٢) . ولكن على رضا أصر على أن يذهب على رأس الحملة لأن المسألة لم تكن متعلقة بخزانة بغداد وإنما بمستقبل الحكم المباشر فى جنوب العراق والبصرة . واستطاع على رضا أن يتفاهم مع عشائر المنتفق التى قدمت قوة من خيالتها تحت قيادة طلال السعدون للاشتراك فى الحملة ، وذلك بعد أن عزل شيخ المنتفق ورفع إلى المشيخة شيخاً آخر متعاوناً معه . كما استعان على رضا باشا بقوات من عشائر زبير والعقيل وطى(٣) . ووجد على رضا فى فونتانييه مستشاراً سياسياً وعسكرياً خلال عمليات الحملة . فقد أمده بالخرائط اللازمة وكتب له أسماء المواقع باللغة التركية ليكون من السهل عليه أن يدير المعركة(٤) . هذا إلى جانب بعض الكتائب النظامية تحت قيادة سرخوش باشا . تبلغ حوالى عشرة آلاف رجل – حسب التقدير الرسمى – وتشد أزرها قوة غير نظامية مؤلفة من عشرين ألف خيال . ويقول فونتانييه أن التقديرات الرسمية لا تمثل حقيقة الجيش الزاحف ،

(١) الوكيل السياسى البريطانى فى بغداد .

(٢) Taylor's Memo. on the actual position of the Pachalik pa of Bag (Ind. O.R., F.R., P.P. G., Vol. 53. P. 799-818).
Fontanier ; Op. cit. T. I. P. 360-363.

(٣) عبد الباقى العمرى : الترياق الفاروق : ٢٣٩ – ٢٤٢ وقد نظم قصيدة كشفت عن كل العشائر التى اشتركت فى المعركة (المرجع نفسه) .

(٤) Fontanier : Voy. dans I. Inde. I. PP. 374-375.

وأن الحملة كانت تتألف من ستة آلاف جندى نظامى وألفين من الخيالة ومعها قوات عشائرية غير مأمونة الجانب عند خوض المعركة ، بل يقول فونتانييه إن على رضا أخطر المسئولين فى الآستانة أن الحملة تربو على تسعين ألف مقاتل . وكانت ترافق الحملة ستة مدافع ميدان و ٣–٤ مدافع مورتر . وعلى قلة سلاح المدفعية إلا أنه كان خطير المفعول فى معارك العراق إذ لم تكن هناك قوة فى العراق تمتلك أى قطع من المدفعية إلا فى القليل النادر(١) .

وبعد استعدادات متطاولة فى بغداد خرجت منها الحملة صوب الجنوب تحت قيادة على باشا نفسه وكان توليه هذه القيادة سبباً فى أن يشيع الخوف فى قلوب العشائر التى سبق أن اعترضت على سير الحملة عبر أراضيها . ونتيجة لذلك وصلت الحملة دون مقاومة تذكر إلى القرنة ، واستطاع على رضا أن يجمع تموين حملته بوساطة متسلم البصرة وعدد من شيوخ العشائر . ثم خاضت القوات العثمانية معركة سريعة ضد عشائر كعب واستولت على المحمرة ١٨٣٧(٢) .

ولما كانت البصرة خلال تلك الحملة قاعدة للعمليات العسكرية فإنها استعادت شيئاً من مكانتها السياسية لوجود الباشا بها . ومع ذلك يحدثنا فونتانييه عن أن أحوال المدينة الاجتماعية والاقتصادية أخذت فى الانتكاس منذ قدوم جيش الباشا . وعلل ذلك بأن رجال الحملة أرهقوا الأهالى والعشائر أيما إرهاق حتى باتت جميع طوائف المدينة تنتظر يوم رحيل الباشا عنها . وقبع الناس وراء جدران بيوتهم تجنباً لمطالب الوالى وجنده . فكان أن عجز الجيش عن الحصول على العدد اللازم له من العمال ، ومن كان يعمل فإنما أرغم على ذلك تحت تهديد السلاح . وكان عقاب من يمتنع الجلد أو الكى بالنار . وتوقفت التجارة وتوارى التجار المسلمون والمسيحيون على حد سواء ، بل فر بعضهم من المدينة على أمل العودة بعد رحيل الجيش عنها . وما نعتقده من أن فونتانييه بالغ فى بعض الأحيان فى الوصف الحقيقى للأحداث فلا شك

(١) Fontanier : Op. Cit. I. PP. 362-363.

(٢) كان الولاة قليلا مايتولون بأنفسهم قيادة الحملات .
Ibid. PP. 364-5.

أن ما ذكره عن تخوف الناس من الجيش ومن التكاليف التى وقعت على الأهالى كان له أساس قوى من الحقيقة(١) .

ومن البصرة أخذ على رضا ينظم أمور جنوب العراق فأسند منصب قبطان البصرة إلى تركجة بيلمز ، أحد ضباط محمد على والى مصر ، وكان قد فر من الحجاز إلى العراق على ظهر باخرة بريطانية . والمعتقد أن على رضا استهدف من وراء هذا التعيين أن يستخدمه فى مقاومة المصريين لخبرته فى هذه الناحية إذ كان تركجة بيلمز زميل خورشيد قائد الحملة المصرية لإعادة قبضة « حكومة محمد على » على قلب شبه الجزيرة العربية فى اتجاه الخليج العربى(٢) وبرغم ما كانت توحى إليه مظاهر هذه الحملة على جنوب العراق والمحمرة من نجاح كبير فإنها فى الواقع لم تؤد إلى سيطرة الحكومة لا على عشائر وسط العراق وجنوبه ولا على المحمرة نفسها إلا لفترة قصيرة إذ لم يلبث أن عاد ثامر إلى مشيخة كعب كما عاد جابر إلى المحمرة فى الوقت الذى تنبهت فيه حكومة فارس إلى ضرورة استعادة قبضتها على تلك الأطراف فدار بسبب ذلك نزاع طويل حول كعب والمحمرة بين الدولتين(٣) .

ومع أن البصرة أصبحت ذات أهمية كبيرة خلال أزمة التوسع المصرى فى شبه الجزيرة العربية صوب العراق فى ١٨٣٨–١٨٤١ فإن العثمانيين لم يعنوا بها وتركوها على ما كانت عليه من قبل بينما كانت المصالح التجارية والسياسية البريطانية تتزايد فى البصرة وجنوب العراق باستمرار . وقد تولت عصبية آل زهير فى البصرة زعامة عرب البصرة فى وجه هذا النمو المطرد فى النفوذ

---

(١) يقول فونتانييه إنه إذا ماقتل مسيحى يدفع له خمسة وعشرين فرنكاً وأما اليهودى فيدفع له ثلث ذلك فقط . انظر :
Fontanier : Op. cit. Vol. I. PP 402-406.

(٢) تمرد تركجة بيلمز على حكم محمد على – والى مصر – فى الحجاز بسبب تأخر صرف المرتبات فكانت فرصة انتهزها الباب العالى لإثارة المتاعب فى وجه مصر فأعلن تركجة بيلمز حاكماً على الحجاز ولذلك أسرعت القيادة المصرية إلى توجيه ضربة حاسمة له اضطرته إلى الفرار إلى الحديدة ثم إلى مخا (١٨٣٢) فتتبعته القيادة المصرية واستولت على مخا بينما فر تركجة بيلمز على ظهر الباخرة البريطانية Tigris التى حملته إلى بمباى ومنها إلى العراق. انظر : عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على : الطبعة الثانية – القاهرة ١٩٤٧ : ص ٢٧٨ .

(٣) تفصيله فى فصل « أثر العلاقات العثمانية الفارسية على العراق »ص : ٣٢٥.

البريطانى هناك ، وهذه العصبية لم تقم على أساس القوة العسكرية بقدر ما كانت تقوم على أساس التنمية الاقتصادية المناهضة للنشاط البريطانى . الأمر الذى أدى إلى أن تعمل هذه الأسرة – لتأمين أعمالها – على أن يكون متسلم البصرة طوع أمرها .

ولذلك وقع المتسلم بين ضغط هاتين القوتين . وكان القنصل البريطانى روبرت تيلر يكره هذه الأسرة أشد الكراهية وأخذ يحرض على رضا ضدها باستمرار حتى قرر الباشا أن يرسل حملة ضدها . واتبع سياسة حفظ التوازن فى المناطق العشائرية . وهى سياسة العثمانيين التقليدية . فكلف المنتفق بأن يضربوا هذه الأسرة . ولما كانت عصبية هذه الأسرة ليست فى البصرة فقط ، بل كذلك فى الزبير فإنهم احتموا بالزبير واستماتوا فى الدفاع عن أنفسهم ، إلا أن عشائر المنتفق كانت وفيرة وتمكنت من اقتحام الزبير وسامت آل الزهير الكثير من الهوان ومع ذلك استمرت بعد ذلك من أهم الأسرات النشطة فى البصرة .

وأغلب الظن أن ذلك الصراع الذى كان دائراً بين القوى المتحكمة فى مقدرات البصرة كان من العوامل التى تفسد أخلاق المتسلمين بسرعة . فلقد نكبت البصرة بعدد من أسوإ المتسلمين سيرة ، بل كذلك كان الوكلاء البريطانيون فيها على جانب كبير من فساد الذمة(١) .

وظلت البصرة تابعة لوالى بغداد كمتسلمة حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما رفعت البصرة من مركز المتسلمية إلى مركز الولاية ، ولكنها لم تلبث أن أعيدت إلى مركز المتسلمية بعد وقت قصير .

القضاء على حكم آل عبد الجليل فى الموصل :

عاشت الموصل تحت تأثيرات مختلفة منذ الفتح العربى . عاشت تحت تأثير العصبيات الكردية المجاورة لها فى كردستان ، والعشائر العربية النازلة بالقرب منها بين دجلة والفرات وتحت تأثير الحكومات القوية فى الشام .

---

(١) Fontanier : Op. Cit. I. PP. 132-135, 173, 219-221, 224-226, 237, 282-284, 313. Lorimer : Op. cit. Vol. I. Pt. I. PP. 237, 1473.

فكانت بذلك المنطقة العراقية الوحيدة التى كانت تولى وجهها صوب الشام فى أوقات عديدة من التاريخ الإسلامى الوسيط ، ولكنها لم تلبث أن ارتبطت بالعراق ارتباطاً وثيقاً خلال حكم الدول الايلخانية والقرة قوينلية والآق قوينلية والصفوية وبعد الفتح العثمانى أصبحت ولاية من ولايات العراق . فارتبط مصيرها منذ ذلك الوقت بدرجة قوية بمصير الأجزاء الأخرى من العراق .

وأدى ضعف سلطة الباشوات والدولة العثمانية بصفة عامة إلى أن تصبح العصبيات المحلية هى المسيطرة على المدينة . ونشبت نتيجة لذلك منازعات متوالية بين زعماء المدينة والطامعين فى الحكم . ولما كانت الدولة غير قادرة على أن تعالج بالقوة كل فتنة فى ولاياتها فإنها كانت تلجأ إلى أسلوب آخر لتسوية الأزمات الداخلية . فكانت تستقدم من الحرمين أحياناً أشرافاً من سلالة النبى أو المنتسبين إلى الخلفاء الراشدين ، إلى المدينة التى تستعر فيها الفتن . ومن ذلك أنها استقدمت إلى الموصل بعض العمريين لهداية الناس إلى الطريق القويم(١) .

ولكن إصلاح أمر ولاية كهذه ما كان ليتم عن طريق حديث التقوى والصلاح ، لأن الإصلاح يجب أن يقوم على أساس فهم مشكلات المدينة وأسبابها . ولذلك استمرت الفتن لا فى الموصل وحدها وإنما فى معظم مدن العراق . على أن التطور الطبيعى لكل مدينة على هذه الشاكلة لابد وأن ينتهى إلى ظهور شخصية قوية قادرة على مواجهة مشكلات المدينة وبسط الأمن فى ربوعها . وبذلك كان يتاح لهذه الشخصية فرصة تأسيس أسرة حاكمة . وهذا ما حدث فى الموصل . فقد ظهر آل عبد الجليل فى الموصل فى مطلع القرن الثامن عشر كأسرة ذات نفوذ وثراء كبيرين . وقدمت للدولة خدمات كثيرة ، خاصة عندما تزعم رجالها حركة المقاومة الباسلة ضد جيش نادر شاه ١٧٤٧ الذى حاصر المدينة حصاراً قاسياً وتحطمت مجهوداته أمام إصرار أهل الموصل وقيادة حسن باشا الجليلى لهم .

ولاشك أن هذه الخدمات التى قدمتها العصبيات الحاكمة جعلت الدولة

(١) سليمان صائغ : تاريخ الموصل ج ١ : ٢٦٦.

العثمانية ترضى عنها وتثبتها فى الحكم . ومن ناحية أخرى كانت الدولة ماهرة فى استخدام هذه العصبيات وفى الدفاع عن البلاد وفى تنمية أحوالها الاقتصادية الأمر الذى حفظ للدولة مكانتها فى بقاع عديدة . وكانت أسرة آل عبد الجليل إحدى هذه الأسرات التى رضيت عنها الدولة مدة طويلة .

وقد حكم أول رجالها وهو حسن باشا الجليلى الموصل فى ١٧٣٠ وظل فى الحكم حتى ١٧٥٧ . وكانت أيامه من أسعد أيام الموصل ، ولكنها من بعده أخذت تعانى مثل بقية المدن العثمانية من الصراع الأسرى بين أفراد الأسرة الحاكمة . وضعفت حكومة المدينة ولم تعد قادرة على أن تفرض سيطرتها على جميع أجزاء الولاية ، بل أصبحت عرضة لعدوان العشائر الكردية . ونظراً لضعف حكام الموصل عن فرض الأمن فى أجزاء الولاية أخذت حدود هذه الولاية تتقلص . ففى عهد حسن باشا والى بغداد (١٧٠٤–١٧٢٣) أصبحت ماردين ونصيبين والعمادية كلها تابعة لبغداد وكانت من قبل ضمن ولاية الموصل . وكان من الطبيعى أن يؤدى ذلك إلى أن يتطلع حكام بغداد إلى السيطرة على الموصل، خاصة بعد أن أصبحت ولايتا شهرزور والبصرة تابعتين لهم . وفعلا كان بعض الولاة من المماليك يولون ويعزلون حكام الموصل من آل عبد الجليل (١) .

وكان موقع الموصل يغرى باشوات بغداد بها ، خاصة عندما حملوا مسئولية الإبقاء على السيادة العثمانية فى كردستان . إذ كانت الموصل قاعدة لها قيمتها الكبرى فى شن الحملات على السليمانية – مركز الإمارة البابانية – كلما تمرد أمير بابانى أو وقع تدخل إيرانى مسلح فى تلك الجهات . وأتعب آل الجليلى ولاة بغداد من المماليك بسبب أنهم لم يوفوا بوعودهم فى مساعدة المماليك ضد البابانيين .

وكان من الطبيعى أن يقاوم آل الجليلى النفوذ المملوكى المتزايد الطامع فى الاستيلاء على الموصل . ولذلك كان آل الجليلى يتعاونون مع البابانيين ومع الباب العالى ضد المماليك مثلما حدث عندما تعاون باشا الموصل مع باشا السليمانية مع

(١) مختصر المستفاد : ١٦٣–١٦٤ .

حالت أفندى ، الذى بعثه الباب العالى لعزل سليمان باشا الصغير والى بغداد سنة ١٨١٠ . (١)

وقد بذل داود باشا — آخر حكام المماليك (٢) — مجهودات كبيرة للسيطرة على الموصل . وساعدته الظروف ليقوم بإجراءات إيجابية فى هذه الناحية . فقد أصبح مركز يحيى باشا الجليلى — والى الموصل فى العشرينات من القرن التاسع عشر — حرجاً أمام ثورة الأهالى ضده بسبب احتكاره تجارة الغلال التى ارتفع ثمنها ارتفاعاً كبيراً . وتولى هذه الثورة ضده آل العمرى وهم المنافسون لآل عبد الجليل فى الموصل . فلجأ يحيى إلى داود . فأيده داود . وعاد يحيى إلى الحكم ثم طرده الأهالى مرة أخرى وتولى الحكم مكانه قاسم العمرى وثبت الباب العالى قاسم فى الحكم .

وكان تعيين قاسم العمرى من الخطوات الأولى التى اتخذها الباب العالى للحد من نفوذ داود تمهيداً للقضاء عليه . ولذلك عندما كلفت الدولة على باشا رضا بطرد داود من بغداد وجد فى قاسم خير مساعد له فى هذه المهمة . وكانت قوات قاسم أول ما دخل بغداد عندما استسلمت بعد نكبة الطاعون ١٨٣١ ، ولكن المماليك وأهل بغداد خشوا على أنفسهم من نيات قاسم الانتقامية ، فدبروا ثورة ضده سقط فيها صريعاً . (٣)

كان قاسم العمرى قد ترك على الموصل — قبل أن يزحف إلى بغداد — متسلماً شاء حظه العاثر أن يواجه فى هذه الظروف أزمة التوسع المصرى فى الشام والأناضول . وكانت الموصل بطبيعة موقعها ولعلاقاتها الوطيدة بحلب أشد مناطق العراق تأثراً بالنفوذ المصرى ؛ ولم يكن الخطر الذى تعرض له متسلم الموصل ناجماً عن هجوم مصرى مباشر ضد الموصل . فالجيش المصرى لم يعن بأن يمد جبهة القتال فى اتجاه الموصل وإنما صعد قدماً

(١) العزاوى : تاريخ العراق : ج٦ : ص٣١٣ ، ٢٦٣ . مختصر مطالع السعود : ص ٤٠ .

(٢) فصلنا الحديث عن الموصل فى القرن الثامن عشر والثلث الأول من القرن التاسع عشر فى كتابنا « داود باشا والى بغداد ١٨١٦ — ١٨٣١ » الفصل الثالث .

(٣) انظر ص ٣٤ من هذه الرسالة .

إلى قلب الأناضول ، ولكن واجهت الموصل هجوماً مفاجئاً شنه يحيى الجليلى الذى كان منفياً فى حلب منذ أن طرده أهل الموصل من حكمها فى ١٨٢٨ فقد جمع يحيى قوة قوامها أربعة آلاف مقاتل من العشائر العربية عبر بها الصحراء من حلب إلى الموصل . وهاجم المدينة وظفر بها وقيل إنه استولى عليها بأمر من إبراهيم باشا فى وجه مقاومة عنيفة . وأصبحت قضية يحيى هى الرابحة عندما انضم إليه صفوق شيخ عشائر شمر الجربا الذى انعقدت عليه آمال العثمانيين فى قتال المصريين(١) . ولكنه لم يلب رغبة على رضا باشا .

اتفق يحيى الجليلى مع صفوق ضد الدولة العثمانية سواء فى الشام أم فى العراق وكان هذا الحلف أمل البقية الباقية من المماليك فى استعادة شىء من النفوذ وفى تحقيق بعض آمال كانت تراودهم . فانضموا إليه تحت زعامة آخر قائد مملوكى مكافح وهو عنايت آغا . ويقول روبرت تيلر إن محمد بك أمير راوندوز انضم إلى هذا الحلف أيضاً وأنهم اتفقوا على الزحف على بغداد لطرد على رضا منها . وأغلب الظن أن هذا التحالف بين محمد بك ويحيى الجليلى وصفوق لم يتم وإنما تخيله الوكيل السياسى البريطانى . فلم يشاهد أى تعاون بين أمير راوندوز وهؤلاء الثوار . وربما تخيل الوكيل البريطانى ذلك بسبب أن الجميع كانت تربطهم رابطة واحدة هى معاداة الحكم العثمانى المباشر والاستفادة من متاعب العثمانيين خلال أزمة التوسع المصرى فى الشام والأناضول . وبرغم وجود هذه الرابطة فإنهم افتقدوا القدرة على تنسيق قواهم . (٢) على أن التفاهم بين صفوق ويحيى الجليلى كان أقوى ما يكون .

كان التخلص من يحيى الجليلى يتطلب أولا وقبل كل شىء إخضاع صفوق — شيخ شمر الجربا وفصم عرا التحالف بينهما إذ كانت عشائر شمر ستاراً قوياً يحجب الموصل عن بغداد . واتبع على رضا السياسة التقليدية وهى ضرب عشيرة عربية بعشيرة عربية أخرى معادية لها . وكانت عنزة مستعدة دائماً

(١) محفظة ٢٤٦ عابدين وثيقة ١٧٨ (١٢٤٨ هـ / ١٨٣٢) م محفظة ٢١٣ عابدين وثيقة ١٢،٢٨ ذو القعدة ١٢٤٧هـ/ ١٤من أبريل ١٨٣٢ م(ومحفظة ٢١٣ عابدين وثيقة ٢٣٩) .

(٢) Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 49. PP. 541-543, 673 (Sep. 1833) Vol. 47. PP. 354-359.

لقتال شمر الجربا . وكان الولاة يستغلون هذا العداء بين العشائر فى حفظ التوازن بينها حتى لاتقوى واحدة على الأخرى وتصبح خطراً شديداً على البلاد . كما كان الولاة يستغلون العصبيات الحاكمة فى العراق بالأسلوب نفسه وللأهداف نفسها. وهكذا بينما نجد صفوق قاب قوسين أو أدنى من الإطباق على بغداد إذا به يضطر إلى التراجع بسرعة بعيداً عنها حتى لا تطبق عليه عشائر عنزة التى حرضها على باشا رضا على قتال شمر الجربا. فشغل صفوق بهذا العدو المتربص(١) . وفى الوقت نفسه أسند على رضا حكم كردستان إلى قائد عثمانى مناضل هو « محمد انجه بيرقدار » وكلفه بالسيطرة على مقاليد الأمور فى الموصل . واستطاع بيرقدار أن يدخل المدينة وأن ينهى حكم آل عبد الجليل نهائياً من الموصل . (٢)

وترجع السهولة التى صادفها « بيرقدار » فى الموصل إلى أن أسرة الجليلى كانت قد فقدت شعبيتها فى المدينة فلقد طردها من الحكم أهل الموصل من قبل غير مرة . كذلك كان المصريون حينذاك لا يعنون بالتدخل العسكرى المسلح فى أمور العراق . هذا فضلا عن أن التحالف بين صفوق ويحيى كان تحالفاً نتيجة لرغبة كل منهما فى التخلص من السيطرة العثمانية ، ولكن لم يتطور هذا التحالف إلى تعاون فعلى عسكرى بين الطرفين وقبض على يحيى الجليلى وأرسل إلى الآستانة (٣) ولم نعد نسمع عن هذه الأسرة من بعد كأسرة حاكمة وإن بقيت كبيت من بيوت الأعيان فى الموصل .

ومع أن « بيرقدار » هو الذى أنهى حكم أسرة الجليلى فى الموصل لم يشأ على رضا أن يسند حكم المدينة إلى وال تركى وإنما أسنده إلى « محمد سعيد آل ياسين » (٤) . ويبدو أن على رضا أدرك أن إسناد الحكم إلى باشا تركى قد يثير هناك متاعب عديدة لأن الأهالى اعتادوا منذ وقت طويل أن يكون

---

(١) Taylor to Sec. Comm. I st Nov. 1834 (Ibid. Vol. 51. PP. 420, 547 -55).

(٢) Taylor to Sec. Comm. 5 Sep. 1834 (Ibid. Vol. 51. P. 1-3).

(٣) Badger : The Nestorians. London. 1885. Vol. L. P. 73.

(٤) عباس العزاوى : تاريخ العراق جـ٧ص٣٢٧ محمد سعيد آل ياسين من أسرة ياسين.

حاكمهم من بينهم ، وكانت ظروف العراق العسكرية لا تساعد على رضا على فرض الحكم المباشر بالقوة فوراً . هذا إلى أن اختيار حاكم من أسرة آل ياسين يحول دون الصدام بين الأسرتين الجليلية والعمرية اللتين تنافستا خلال الفترة الأخيرة على الحكم ، ولكن محمد سعيد كان حاكماً ضعيفاً وتجلى ضعفه أمام توسع محمد بيك أمير داوندوز (١) . وكانت ظروف العراق الاستراتيجية تتطلب وضع باشاوات أقوياء فى الطرفين الغربيين للبلاد (أى الموصل والبصرة) يكونون على خبرة بأساليب قتال المصريين أوعجموا عودهم . ولذلك عين محمد انيجة بيرقدار باشا على الموصل .

لم تكن مهمة بيرقدار توطيد الحكم العثمانى فى الموصل فحسب ، بل أن يعد العراق الشمالى ليكون قاعدة من قواعد الهجوم على القوات المصرية فى الشام بالتعاون مع الجيش العثمانى المحتشد فى ديار بكر . وكان هذا يتطلب السيطرة على كردستان بإخضاع الإمارات الكردية التى كانت تهدد الجيش العثمانى من الخلف . وقد شاركت الموصل تحت قيادة بيرقدار مشاركة فعالة فى القضاء على الإمارات الصورانية والبهدينانية والبوتانية (٢) . وبذلك كانت إعادة الحكم المباشر إلى الموصل من العوامل الرئيسية التى أدت إلى إخضاع كردستان . ولأول مرة منذ أيام الحكام الأول لآل الجليلى استعادت الموصل كيانها كإيالة مسئولة عن شمال العراق على أن ظروف التوسع المصرى هى التى جعلت محمد اينجه بيرقدار يركز اهتمامه فى القيام بمشروعات عسكرية كبيرة سبقت بها غيرها من مدن العراق .

عنى بيرقدار ببناء ثكنة للجيش ومقر للحكومة وأنشأ مصنعاً للمدافع والذخيرة ، وأعد مستشفى للجند وأفراناً لتموين القوات بحاجتها من الخبز(٣) ، ويلاحظ أن هذه الإجراءات لم تتخذ فى بغداد فى ذلك الوقت الأمر الذى يؤكد لنا أن المقصود الأول من وراء هذه المنشآت هومقاومة التوسع المصرى من الموصل.

---

(١) Form Taylor to Mendaville. (Ibid. O. R., F., R., PP. G. Vol. 47. PP. 347-353).

(٢) سنتعرض بالتفصيل لكل إمارة من هذه الإمارات فى الفصل الثالث .

(٣) سليمان صايغ : تاريخ الموصل : جـ ١ : ٣١٢ .
Cuinet : Op. cit., I. II. P. 824.

وأخذ بيرقدار يطبق قوانين التجنيد العسكرية ولم تكن قد طبقت فى أى جزء من أجزاء العراق من قبل ، بل إن الموصل — بسبب تلك الظروف التى كانت تمر بها حينئذاك — سبقت كل بلاد العراق فى تنفيذ القرعة العسكرية والترتيبات الحديثة لتكوين القوات النظامية الجديدة على الطراز الأوربى .

ولكن واجه بيرقدار مقاومة عنيفة من جانب الأهالى ضد محاولاته لجمع الرجال للجندية ، ولم يكن هناك مفر أمامه من أن يطبق قوانينه بحد السيف . وفعلا هدد بضرب المدينة بالمدفعية إن لم تذعن للقوانين العسكرية (١) . وبعد حكم دام حوالى تسعة أعوام توفى بيرقدار فى الموصل بعد أن أدخل الكثير من الإصلاحات فى المدينة .

وتولى حكم الموصل من بعد بيرقدار ولاة وباشوات عديدون لم يبرز منهم واحد بعمل فريد فى بابه ، بل كان بعضهم سيئ السيرة مثل محمد كريتلى . (٢) وحكم الموصل خلال ثلاثين سنة أربعة وعشرون حاكماً (بمعدل سنة وربع السنة) الأمر الذى كان يحول دون أن تنفذ سياسة إصلاحية واضحة .

اعادة الحكم المباشر الى العتبات المقدسة :

يمثل الشيعة فى العراق قسماً كبيراً من الشعب فبعضه كان عشائر عربية وكردية وبعضه كان ينزل كبريات المدن وعلى رأسها : النجف وكربلاء وبغداد وغيرها (٣) . وكانت الحكومات الفارسية تستغل هذه العاطفة الشيعية لتحقيق أهداف سياسية . فكانت تثير هذه العشائر والمدن كلما وقعت أزمة بين السلطان والشاه . وبينما كان المذهب السنى لايعمد إلى نشر فكرته بوساطة الدعاة كان دعاة الشيعة يجوبون العراق مبشرين بمذهبهم بين العشائر (٤) وكانت النجف وكربلاء بلا جدال أكبر مراكز الشيعة الدينية والسياسية على حد سواء خلال النصف الأول من القرن التاسع

(١) سليمان صايغ : تاريخ الموصل : ج ١ : ٣١٣ — ٣١٤ .
(٢) تاريخ لطفى : ج ٨ : ٧٥ ، ٩٩ .
(٣) Cuinet : La Turquie d'Asie. III. P. 289.
(٤) مختصر مطالع السعود : ص ٦١ .

عشر قبل ذلك ومن الناحية السياسية والاجتماعية كانت الروابط بين شيعة فارس وشيعة العتبات المقدسة قوية جداً .

كانت شيعة فارس تدفع الحكومة باستمرار إلى تقوية هذه الروابط ، بل إلى احتلال العراق من أجل العتبات المقدسة وكانت الفرس فى العتبات المقدسة يتمنون فى كل يوم أن تضم العتبات المقدسة بوسيلة أو بأخرى إلى فارس . فقد كانت قوافل الزوار السنوية تفد بكثرة من فارس إلى العتبات المقدسة لا للزيارة فقط ، بل كذلك لدفن الموتى الذين ينشدون الجنة إذا دفنوا على مقربة من سيدنا على أو الحسين بن على(١) .

وكان هؤلاء الزوار الفرس والشيعة بوجه عام يضعون النذور بكثرة فى العتبات المقدسة ، وخاصة فى مقام الحسين. حتى أصبحت هذه النذور تشكل كنزاً تضاربت الأقوال فى قيمته الخيالية . فقد قيل إنه عندما أخرجت هذه النذور قدرت بـ ٧٧ طناً (٥٠ طغاراً) من المجوهرات والمصوغات (٢) .

وكانت هناك مجموعة من العوامل تعين فارس على التدخل فى أمور العراق الداخلية باسم الشيعة . وعلى رأس هذه العوامل :

(ا) وجود المزارات الشيعية المقدسة فى النجف وكربلاء والكاظمية وكانت هذه المزارات تولد فى النفوس العطف على أئمة الشيعة ، وكانت قوافل الزوار الفرس تعبر العراق باستمرار ، مما يساعد على جذب الناس إلى مذهبهم .

(ب) كان شيعة العتبات المقدسة — وكان كثير منهم من أصول فارسية — يرون شاه إيران حاميهم من الترك والسنة .

(١) G. Norandounghian : Recuil d'Actes Internationaux. T. III. p. 300.
جعفر آل محبوبة : ماضى النجف : المقدمة (أ) .
Saad : La Frontiére. P. 532-546. Pillet, peit. P. 43.
Layard : Early. Vol. IIP. 47, 50-51. Loftus : Travels : pp. 55-64.
Jones : Selections. P. 247. 530-541.
(٢) Cuinet, Opcit. T. P. 181.

(حـ) وكان كبار رجال الدولة الفارسية والبلاط الفارسي يقومون بتجديدات وإصلاحات ومنشآت دينية من وقت لآخر فى العتبات المقدسة مما كان يقوى الثقة فى نفوس الشيعة بأن هناك من أصحاب الصولة من يقف وراءهم إن أريد بهم شراً . كما أن أئمة النجف كانوا – إذا أعوزتهم الأموال – يطلبون العون من الشاه ويطوفون إيران لجمع التبرعات (١) .

وكانت تشع من النجف وكربلاء وبقية المدن الشيعية العراقية روح معادية للحكم السنى بصفة عامة والعثمانى بصفة خاصة . وفى عهد داود تمردت النجف وكربلاء والحلة فأرسل عليها حملات عسكرية تأديبية (٢) . ولكن هذه المجهودات لم تستأصل الداء وظلت الرغبة فى الانفصال عن جسم العراق قوية لدى شيعة العتبات المقدسة وعلى وجه الخصوص الفرس منهم. ومن ذلك أن كربلاء والنجف منذ عودة الحكم المباشر إلى العراق كانتا تقاومان إسناد الحكم فيهما إلى ولاة من الترك بكل قوة . وكان حكم كربلاء بيد المتغلبة من كبار رجال الشيعة ، ونظراً لعدم سيطرة الدولة عليها سيطرة كاملة وصفت بأنها شبه جمهورية A Self - governing Semi-alien Republic. (٣)

ولم يكن يربطها بالدولة سوى دفع ضريبة سنوية أحياناً ، ولكن فى الغالب لم تكن هذه الضريبة السنوية تدفع إلا تحت ضغط الحكومة . ولقد حاول باشوات العراق فى العهد المملوكى غير مرة أن يضعوا من قبلهم حكاماً عليها **ولكن كان الكربلائيون يقتلون الحكام أويضطرونهم إلى مغادرة المدينة . ولقد حاصرت قوات داود باشا كربلاء فى السنوات الأخيرة من حكمه زهاء أحد**

(١) مختصر مطالع السعود : ٦١ . محمد جعفر التميمى : مشهد الإمام: ج١ ص٢٤٣ . دكتور عبد الجواد الكليدار : تاريخ كربلاء : ص ٢٥٦ .

(٢) وداى العطية : تاريخ الديوانية : ٢٣ – ٢٤ ، تاريخ لطفى : ج ١١٦ العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ٢٨٨ – ٢٨٩ . يوسف كركوش الحلى : تاريخ الحلة ٧٠ – ٧١

Fraser : Mesopotamia P. 284., Loftus : Opcit. P. 64-65, 57

وانظر فى هذا الشأن كذلك Lorimer : I. Pt. I. pp. 1348-1349.

(٣) Pol. & Sec. Dept. Recs., Ltrs. Fr. Pol. Agt. Bag. Vol. 13. p. 147.

عشر شهراً دون أن ينال من وراء ذلك سوى وعد بدفع الضرائب السنوية المربوطة عليها . وكذلك أراد على باشا أن يؤكد سيادته على كربلاء ولجأ إلى الحيلة دون القوة وتظاهر بأنه يود أن يؤدى الزيارة لقبر الحسين ، ولكن أهل المدينة رفضوا أن يسمحوا له بذلك . وفضل على رضا أن يكتفى بإسناد حكم المدينة إلى سيد وهاب وهو من إحدى الأسرات الكبيرة فى المدينة التى ظلت مدة حكم على رضا فى العراق شبه مستقلة . ولكن تحت سيطرة جماعة مسلحة أطلق عليها اسم يارمز (١) . وكانت هذه الجماعة تحتوى على عدد من الخارجين على القانون واللصوص والفارين من وجه باشوات العراق . وكانت إحدى فرق هذه الجماعة تدعى « الغارتية » (من غارة) تفرض الإتاوات على الحجاج (٢) . وكان أشهر زعيم لهم فى ١٨٤٢ هو السيد إبراهيم الزعفرانى وهو من أصل مختلط إيرانى عربى ، وكان يليه فى النفوذ إيرانيان لهما عدد كبير من الأتباع الفرس . ونظراً لانقسام « اليارمز » إلى فرق كان ينشب فيما بينها صراع دموى شديد ، كان يعانى منه شعب كربلاء المسالم أشد أنواع الخسائر المادية والإرهاق العصبى . وفى خضم هذه الفوضى تفوق زعماء اليارمز على هيبة كبار علماء الشيعة فى المدينة وكان لهم النفوذ الأكبر من قبل ، ولكن وجد العلماء فى انقسام اليارمز إلى طوائف فرصة لكسب أعوان لهم من بينهم فكان أن انشطر اليارمز إلى شطرين أحدهما مع الزعيم الدينى الشهير كاظم الرشتى (٣) والآخر مع زعيم دينى آخر يدعى سيد إبراهيم القزوينى (٤) .

وإذا كان على باشا رضا قد قبل أن يترك لكربلاء أن تحكم نفسها بنفسها وتجنى ثمار الفوضى القاتلة فإن نجيب باشا – وقد هدأت أزمة الشام وتفرغ حكام العراق لتأكيد نظام الحكم المباشر فيه – ما كان ليسكت على ترك كربلاء هكذا دون أن تخضع له . على أن حنق نجيب باشا اشتد لدرجة كبيرة

(١) Lormier : Op.cit. Vol. I. Pt. I, pp. 1348-1349.

(٢) لكى يسلم الحجاج من شرهم كان كل حاج يضع نفسه تحت حماية أحد اليارمز .

(٣) لكاظم الرشتى دور هام فى ظهور الحركة البابية فى العراق وإيران .

(٤) Lorimer : Op.cit. Vol. I. Pt., I. P. 1350.

عند ما أراد أن يذهب للزيارة فحدد له أولو الأمر فى المدينة عدد مرافقيه بستة أشخاص فقط . هذا بالإضافة إلى أنهم رفضوا أن يلبوا رغبة نجيب فى أن يمدوه بتموين لجيشه فى سنة ١٨٤٢ م (١) .

وفى أكتوبر من تلك السنة كان نجيب باشا معسكراً على رأس جيشه فى منطقة « المسيب » فى طريقه لتأديب عشائر المعدان الثائرة ، فانتهز الفرصة واتصل بكبار زعماء كربلاء الدينيين ومجتهديها وطلب منهم أن يعينوه على إعادة النظام إلى المدينة . وقد نجحت مفاوضاته مع كاظم الرشتى ومع « ظل السلطان » — أحد أبناء فتح على شاه (٢) ، والسيد وهاب حاكم المدينة . واتفق هؤلاء مع نجيب باشا على أن يبعث إليهم بأحد البغداديين لوضع الخطوط النهائية لما سيكون عليه أمر حكم المدينة . واستطاع المفاوض البغدادى أن يقنع الطرف الآخر بإدخال خمسمائة جندى كحامية فى المدينة ، ولكن لم تلبث الاتفاقية — شأن كل اتفاقية تعقد مع متمردين منقسمين إلى فرق متعددة متنافرة — أن مزقت فى أعقاب توقيعها ، بينما استعد المتعصبون من « اليارمز » والسيد « كاظم الرشتى » « وظل السلطان » للدفاع عن المدينة ورفعت المدافع على الأسوار واستدعى العرب من ضواحى المدينة للدفاع عنها (٣) .

كان نقض هذا الاتفاق سبباً فى أن يصر نجيب على أن تخضع له المدينة بمثل ما تخضع به أية مدينة عراقية أخرى . وقبل أن يضرب نجيب ضربته الأخيرة عقد مباحثات مع كبار الشخصيات الفارسية والوكيل الفارسى فى كربلاء ومع القنصلين الفرنسى والبريطانى ليكونوا على علم بمدى مجهوداته السلمية ولعلهم يعينونه على تسوية الأزمة ، ولكن دون جدوى . (٤) وعندما قرر نجيب باشا إرسال حملة ضد كربلاء أخطرهم مقدماً بمشروع حملته لما كان يتوقعه من نشوب أزمة سياسية كبيرة بين الدولتين الفارسية والعثمانية .

(١) Lorimer : Opcit. Vol. I. Pt. I. PP. 1349-1350.

(٢) كان منفياً فى العراق . وفتح على كان شاه فارس

(٣) Lorimer : Opcit. Vol. I. Pt. I. P. 1350-1351.

(٤) Extract of a letter to H. Br. Envoy of Tehran dated Bagdad 17 Jan. 1843. (Ind. Off., Pol. & Sec. Dept. Recs., Letrs. fr. Agn. Bagd. Vol. 13.PP. (127-128.)

ولما كانت المدينة قد عبأت قواتها وجلبت الإمدادات من خارجها ، قدر نجيب خطورة الفشل فى إخضاع المدينة فلم يكتف بما كان لديه من قوات مرابطة فى « المسيب » وأتى بإمدادات من بغداد واستعان بمجموعة من العشائر العربية الموالية له . (١) غاضاً الطرف عن نصيحة المبعوث البريطانى فى طهران بشأن العدول عن إرسال الحملة . (٢)

وبعد أن اتخذ نجيب إجراءاته الدبلوماسية والعسكرية أصدر أوامره بمهاجمة المدينة بكتيبة من الفرسان وعشرين مدفعاً وثلاث كتائب من المشاة ثم أرسل فى أعقابها إلى المدينة فى ١٩ من ديسمبر ١٨٤٢ القوات العشائرية وبدأ ضرب المدينة بالمدفعية .

فعرض كاظم الرشتى أن يأخذ القائد عائلات زعماء اليارمز كرهينة حتى ينسحب الجيش . وفعلا ذهب بعض زعماء اليارمز ولكن جاءت الأنباء بأن نجيب باشا رفض انسحاب الجيش فعاد الصراع بين الطرفين . ثم عادت المفاوضات واشترك فيها المندوب الفارسى فى بغداد وتطرف الثوار للدرجة التى رفضوا معها الشروط المعتدلة وزاد تمرد الثوار شدة عندما أشيع أن الجيش الفارسى يستعد لغزو العراق لينقذ كربلاء .

ضرب الجيش الحصار بقوة على المدينة وقصفت المدفعية الأسوار ، فزادت جذوة المقاومة الشعبية ، وهب العلماء يصلحون الأسوار ويثيرون حماس المدافعين ولكنهم ما كانوا ليصمدوا أمام جيش منظم . ودخلت القوات المدينة فى ١٣ من يناير ١٨٤٣ .

وفقد الضباط سيطرتهم على الجند ووقعت حوادث نهب وقتل عديدة(٣)

(١) Lorimer : Op. cit. Vol. I. Pt. PP. 1350-1351, 1357.

(٢) Sheil to Pasha of Bagdad (Ind. O.R.F.R., P.P. G., Vol. 77PP. 59-63) of 1843.

(٣) يتهم « محمد فيرياد معتمد » — نجيب باشا — بأنه أصدر أمراً عاماً بقتل الشيعة فى كربلاء (انظر تاريخ روابط سياسي إيران وعثمانى ، جلدوم از إنتشارات كتابخانة ابن سينا. جاب اتحاد (بدون تاريخ) ص ٥٠ — ٣٢ .

Lorimer : Op. cit. Vol. I. PP. 1354-1355.

ثم هدأت الأمور بعد دخول نجيب باشا المدينة وبدأ بتنظيم الإدارة فيها بتعيين قاض ، وخطيب ليدعو للسلطان فى صلاة الجمعة . (١)

وارتفعت المشكلة إلى مصاف الأزمات الدولية ، فأرسل « كاننج » Canning — السفير البريطانى فى الآستانة — مندوباً من قبله إلى كربلاء ليدرس الموقف هناك وكان هذا المندوب هو الليوتنانت « كولونيل فارانت » Lieut. Colonel Farrant وكان الكولونيل تايلور — الوكيل السياسى البريطانى فى بغداد — قد هنأ الباشا على فتحه كربلاء دون أن يخبر كاننج بهذه الخطوة ، مما جعل من الضرورى أن يقوم كاننج Canning بإرسال مبعوث خاص إلى كربلاء ليدرس الموقف ، إذ أن تايلور — وقد أخذ فعلا جانب الباشا — لم يعد صالحاً للقيام بمهمة الوساطة بعد تلك التهنئة . وطلب المبعوث الروسى فى الآستانة — المستر بوتنييف M. Do. Boutenieff أن يقوم المستر فارن Farren بتمثيل الجانب الروسى فى استقصاء الحقائق هناك . فوافقت السلطات الإنجليزية على ذلك بينما بعث الباب العالى مندوباً إلى كربلاء هو نامق باشا (٢) .

جاء فى تقرير (٣) فارن Farren أن القتلى لا يزيدون على خمسة آلاف . قتل منهم ثلاثة آلاف داخل المدينة معظمهم من العرب لا من الفرس ، وأن آلافاً من الفرس فروا من المدينة قبل اقتحام القوات العثمانية لها . وأما من

(١) Extr. of Letr. to His Br. Envoy. Tehran. dated Bagd. 17 Jan. 1843.
(Pol. & Seo. Dept. Recs, Letrs. fr. Pol. Agr. Bagd. Vol. 13 PP. 127-128).

(٢) Layard : Early : Vol. II. pp. 385-386.
Lorimer, Opcit, Vol. I.Pt. I.P. 1355.

ولعله هو نفسه نامق باشا الذى أشار إليه لايارد والذى تولى من بعد باشوية بغداد مرتين انظر كذلك :

Pol. & Sce. Lept. letrs. fr. Pol. Agr. Bagd. Vol. 13 PP. 173-175.
Canning to Aberdeen, 18 Mch. 1843, No. 56, F.O. 78—217.

وقد طلب مستر كاننج تغيير تيلر .Taylor القنصل البريطانى فى بغداد — لأنه تسرع بتهنئة نجيب على فتحه لكربلاء .

Canning to Aberdeen. 18Mch. 1843. No. 56. F.O. 78 : 127.

(٣) مؤرخ ١٥ من مايو ١٨٤٣ .
Lorimer : Op. cit. vol. I. Pt. I. PP. 1356-8.

قتل من الهنود فكانوا ثلاثة من مملكة أود Oude ، وفقد حوالى ٢٠—٣٠ من البنجابيين ومن أهل كشمير . وأكد (فارن) أنه لم يقتل من الرعايا الروس فى هذه المعارك سوى شخص واحد بعكس ما قيل من قبل من أن عدداً من هؤلاء لقى حتفه خلال الصراع .

أما المبعوث العثمانى فقدر القتلى فى المدينة بحوالى ٢٥٠ قتيلا منهم ١٥٠ فارسياً بينما خسر العثمانيون ٤٠٠ قتيل ، و ٢٠٠ جريح . وتكشف لنا المقارنة بين الإحصاءات التى قدمها كل من (فارن) الإنجليزى ونامق العثمانى أن كلا منهما قدم إحصاءات تخدم مصالح بلاده . ففارن ينفى وقوع قتلى روس إلا فى حالة واحدة ونامق يقول إن القتلى والجرحى العثمانيين يفوقون فى عددهم عن الفرس . (١) وعلى أى حال استتب الأمر للحكومة العثمانية منذ حملة نجيب على المدينة برغم الاحتجاجات الإيرانية . كما أدت سيطرة قوات الحكومة على كربلاء إلى سيطرتها على النجف .

وأما النجف فمكانتها لدى الشيعة هى الأخرى عظيمة وكانت الجالية الفارسية كبيرة جداً ، وكانت المدينة مقصد الحجاج الفرس وكانت أيضاً — مثل زميلتها كربلاء — عرضة للضغط الوهابى ، خاصة فى مطلع القرن التاسع عشر . وأدى هذا إلى أن يعمل بعض وجوه البلد إلى تأليف قوة للدفاع عنها حتى لا تتعرض لما تعرضت له كربلاء فى ١٨٠١ . وكان المسئول عن أمن النجف حينذاك هو الشيخ جعفر الخفاجى فألف قوة من الشباب تولى هو قيادتها . وبذلك أصبح الشيخ جعفر زعيماً دينياً ودنيوياً ذا بأس وكان من بين رجال هذه القوة جماعة تخرج للصيد وتكثر من استخدام لفظ (زقرت) أى الصقر ، فأصبحت هذه الكلمة علماً عليهم . واستطاعت قوة الزقرت أن تصد عدوان العرب عن المدينة (٢) فكان أن شعر أهل العلم بالقوة .

(١) Taylors Despt. 26 Feb. 1843. (Ind. O.R.F.R., PP. G., Vol. 77PP. 187-
كذلك أكد فارن أن ما أشيع من عمليات نهب واسعة النطاق كان مبالغاً فيه . ونفى كذلك إشاعة تقول بأن أبناء فتح على شاه وزوجاتهم تعرضوا للسلب .

Ibid.

(٢) لما عمر البويهيون المرقد العلوى فى النجف عينوا السادن والخدم وأجروا عليهم الأرزاق وتولى العلماء السدانة التى كانت وراثية . ولما كانت أحياناً من نصيب الشرفاء كان =

وكان فى النجف رجل يدعى محمود له عين ماء تروى أراضى كثيرة واستطاع أن يجمع حوله عدداً من أهل النجف ليساعدوه فى أعماله ونظراً لاتساع نطاق هذه الأعمال خشى هجمات الوهابيين ففضل أن يعقد معهم أواصر الصداقة وأن يكرمهم . وتناثرت الإشاعات عن أن محموداً هذا هو الذى دل الوهابيين على طريقة لمهاجمة النجف . فما كان من الشيخ جعفر الخفاجى إلا أن طلب من محمود أن يخبر المدينة إذا ما ظهر الوهابيون قربها ليستعد الخفاجى ورجاله « الزقرت » لمقاومة الغزو القادم . ولكن محموداً كان صريحاً فى رده على الزقرت مبيناً لهم أن هذا فوق طاقته « لأنه مزارع يشترى سكوت الوهابيين عنه » (١) .

كان تمسك محمود بموقفه سبباً فى اصطدامه بالزقرت وحدث أن قتل الرجل فى ظروف غامضة واتهم أهله — ومنهم من كان من سدنة الروضة العلوية — جعفرا ورجاله من الزقرت باغتيال محمود وتزعم الملا محمد طاهر المطالبين بثأر محمود وهؤلاء سموا « الشمرت » (٢) فعزل الملا يوسف الذى كان يتولى السدانة وكان من رءوس الفتن وكان يطمع فى أن يتولى حكم المدينة ويستبد بأهلها وحاصر النجف فعلا سنة ١٨٣٩ ولكنه فشل أمام مقاومة الزقرت له الذين دمروا بيته الذى كان تحفة من تحف المدينة (٣). ومع أن فتنة الملا يوسف هدأت ظلت الفتن بين الطرفين « الزقرت والشمرت » مستعرة ولم تجد محاولات على رضا باشا أو الشاعر المعروف عبد الباقى العمرى فى إخمادها . (٤)

نشبت الفتن مرة أخرى فى عهد ولاية محمد نجيب باشا ١٢٥٨ هـ—

= السادن يجمع السدانة ونقابة الأشراف وفى هذه الحالة يكون السادن النقيب الحاكم المطلق للمدينة . ونظراً لضعف السادة العلويين أصبحت النقابة شرفية وأصبح السادن هو المسيطر على البلد (انظر جعفر آل محبوبة : ماضى النجف ١٧٦ — ١٩٦) .

(١) على الخاقانى : شعراء الغرى ج ٢ : ١١٧ — ١١٨ .

(٢) على الخاقانى : شعراء الغرى ج ٢ : ١١٨ — ١٢٠ .

(٣) جعفر آل محبوبة : ماضى النجف : ١٨٨ — ١٨٩ .

(٤) هذا ما يتضح لنا من شعر عبد الباقى العمرى فى هذه الحادثة وقد يكون هذا من باب الفخر . انظر الترياق الفاروقى : ١٢٨ — ١٢٩ — ١٠١ .

١٨٤٣ م فزحف بجيشه — بعد أن أوقع بكربلاء — إلى النجف ليؤدب المتمردين فيها . ولكن أهل النجف أسرعوا إلى إعلان طاعتهم حتى لا ينزل بهم ما نزل بكربلاء (١) . وكان الشيخ حسن آل كاشف الغطاء هو الوساطة بين المدينة ونجيب باشا . واستطاع الشيخ لمركزه الدينى الكبير أن يكسب عفو الوالى عن المدينة (٢) . ولكن عادت الفتن إلى ما كانت عليه واضطر نامق باشا إلى أن يبعث بقوة من الجيش لضرب المتمردين ، وخاصة الشمرت الذين طردوا الزقرت من المدينة وكان الشمرت يرون فى ثورة العشائر على الحكومة درعاً يقى مدينتهم من هجوم الجيش ، ثم أعدوا المتاريس فى الشوارع عندما تمكن الجيش من الوصول إلى المدينة . ودارت معركة شوارع رهيبة ، شعر خلالها قائد الجيش أن الأمل فى السيطرة الكاملة على المدينة بعيد وأن مفاوضة الشمرت أجدى من الاستمرار فى القتال ، وكان المتمردون فى الوقت نفسه — وكذلك الأهالى — يخشون أن ينتهى القتال بكارثة مثل تلك التى أصابت كربلاء سنة ١٨٤٣ .

توسط العلماء بين الشمرت والحكومة وانتهت إلى أن يرحل زعيم الشمرت ببعض رجاله إلى الحلة منفياً وأن يترك رجاله المدينة بأسلحتهم . وتمت هذه الخطوة دون كثير اضطراب بينما وضعت الحكومة فى النجف حامية عثمانية سيطرت على المدينة حتى إذا ما انسحبت منها الحامية عادت الفوضى مرة أخرى (٣) .

عمد نامق باشا — والى بغداد — إلى أن يصفى الموقف فى النجف بالأسلوب نفسه الذى اتبعه على رضا باشا وهو إرسال أحد كبار علماء العراق إلى النجف فبعث عبد الباقى العمرى إلى هناك ، وكانت الظروف ملحة لأن تخضع الحكومة المدينة نظراً لأن أحداث المدينة أصبحت سلاحاً فى يد فارس ، ولأن الفرقتين المتنازعتين كانتا الواحدة منهما تأخذ جانب الحكومة أو تناصبها العداء لتصل بأى شكل إلى أهدافها . ويقول عبد الباقى العمرى إن المدينة

---

(١) على الخاقانى : شعراء الغرى : ج ٢ : ١٢١ — ١٢٣ .

(٢) المصدر السابق : ج ٣ : ٥٨ — ٥٩ .

(٣) Lorimer, Op.cit, Vol. I, pt. P. 1368.

أذعنت له بعد أن هددها بضربها بالمدفعية (١) . ولكن الذى ظهر من بعد ذلك أن الفتن ظلت مستعرة فعندما حاول السيد رضا الرفيعى أن يخلص المدينة من الطائفتين قتل ويقال إن سبب مصرعه يرجع إلى أنه أخرج الطائفتين من المدينة (٢) .

ويمكن أن نتصور ما حل بالنجف من خراب من جراء ذلك الصراع المتطاول من كتاب بعث به السيد جعفر الخرسانى ١٢٩٥ هـ–١٨٧٨ م إلى والى العراق مبيناً له ما آلت إليه النجف بسبب فتن الزقرت والشمرت .

« كتبت إليك أسعد الله والسهام رائشة والأحلام طائشة والسيوف مسلولة والدماء مطولة ... فكم من صغير مذعور وكبير منحور ودم مسكوب ، وثوب مسلوب ، ومال منهوب .

ومرضعة مذهولة عن رضيعها ... مخافة سلب يكشف الستر عن يد أين أمراء الدولة العلية وشهامتها المعروفة » . (٣)

ولقد أتعبت النجف الحكومات المختلفة فى العهد العثمانى وبعده كذلك . حتى إن الحكومة العراقية سنة ١٣٢٤ هـ اضطرت إلى قطع المواصلات عنها وعرقات من اتصالات العشائر بها حتى لا تتأثر هذه العشائر بالدعايات(٤) .

(١) الترياق الفاروقى : ص ٤٤٨ – ٤٥٠ .
(٢) جعفر آل محبوبة : ماضى النجف : ١٩١ – ١٩٣ .
(٣) على الخاقانى : شعراء الغرى : جـ ٢ : ٧–٨ .
(٤) والجدير بالذكر أن أول فرع لجمعية الاتحاد والترقى تشكل فى النجف فى سنة ١٣٣٤ هـ كما كان للنجف مواقف شديدة وعنيدة ضد المحتلين الإنجليز خلال ثورة ١٩٢٠ المشهورة . انظر محبوبة : ماضى النجف : ١٩ – ٢٢ .

الفصل الثالث

تصفية الإمارات الكردية وإعادة الحكم العثمانى المباشر إلى كردستـــان

١ — سقوط الإمارة الصورانية .
٢ — سقوط الإمارة البهدينانية
٣ — سقوط الإمارة البوتانية .
٤ — سقوط الإمارة البابانية .
٥ — العشائر الكردية .
٦ — العشائر اليزيدية .

الفصل الثالث

تصفية الإمارات

الكردية وإعادة الحكم العثمانى المباشر فى كردستان

جاء الأكراد إلى كردستان من آسيا عبر فارس ، وحافظوا على أساوب حياتهم ، وعلى لغتهم التى هى إحدى اللغات الاندو - أوربية . واشتهروا بالخدمة العسكرية شأنهم فى ذلك شأن أهل الجبال . وهم فى غالبيتهم العظمى سنيون ، ولذلك لجئوا إلى السلطان العثمانى عندما وقعوا تحت السيف الشيعى الصفوى فى أوائل القرن السادس عشر . وعندما ضم السلطان كردستان اعترف بما كان فيه من إمارات وعصبيات حاكمة(١) .

وكانت أهم هذه الإمارات هى :

١ - الإمارة الصورانية فى هوديان ثم فى حرير وأخيراً فى راوندوز .

٢ - الإمارة البابانية فى السليمانية .

٣ - الإمارة البهدينانية فى العمادية .

٤ - الإمارة البوتانية فى جزيرة ابن عمر .

وتساعد طبيعة بلاد الأكراد على ظهور إمارات متناحرة ، كل منها تحاول أن تبتلع الأخرى دون جدوى . وهذه التطورات تسمح بظهور

---

(١) انظر شرف خان البدليسى : شرفنامه جـ ١ : ص ٨١ - ٢٥ (المقدمة)
محمد أمين زكى : تاريخ الكرد وكردستان ، خلاصة تاريخ الكرد - ص : ٦٢ وما بعدها .
مينورسكى : مادة كرد فى دائرة المعارف الإسلامية .
د . دولت صادق : الجغرافية السياسية : ص ٤٠٧-٤٠٨ .

إمارات قوية نسبياً ، ولكنها سرعان ما تضعف لتحل محلها إمارة أخرى نامية . ولم تستطع إمارة واحدة أن تسيطر بمفردها على كردستان بأسره .

وابتداء من القرن الثامن عشر تميزت الإمارة البابانية بأنها أقوى الإمارات الكردية ، ولكنها منذ القرن التاسع عشر أخذت تضعف بسرعة بسبب الصراع الأسرى مما أفسح الطريق للإمارة الصورانية النامية . أما الإمارة البهدينانية فكانت تارة تحت نفوذ الإمارة البابانية وتارة أخرى تحت نفوذ الإمارة الصورانية أيهما أقوى . فارتبط مصيرها بهاتين الإمارتين .

إلى جانب هذه الإمارات التى ترتكز على مدن كبيرة توجد مجموعات كبيرة من العشائر الكردية التى لعبت أدواراً لها قيمتها فى الفترة التى نحن بصددها وأهمها :

١ — العشائر البلباسية : على الحدود الفارسية .

٢ — العشائر الجافية فى منطقة السليمانية والحدود الفارسية .

٣ — عشائر الهماوند : على الحدود الفارسية .

٤ — عشائر الهورامان : على الحدود الفارسية .

٥ — العشائر اليزيدية : فى سنجار وشيخان .

وبرغم أن الغالبية العظمى من العشائر والإمارات الكردية سنية المذهب، فقد دأبت على الاستنجاد بفارس كلما ضغط عليها ولاة بغداد حتى إذا ما تحقق للأمير الكردى أمله فى التخلص من الضغط العثمانى انقلب على حلفائه الفرس ليطردهم عن بلاده .

ومن هنا كانت المعارك بين الأمراء الأكراد وحكومة الفرس والمماليك متتالية ومثيرة . هذه الظروف جعلت بعض المشكلات الكردية ترتفع إلى مستوى الأزمات الدولية . وسمحت هذه الأزمات لبريطانيا بالتدخل فى أمور كردستان حماية لمصالحها فى فارس وفى الدولة العثمانية ودرءاً للخطر الروسى ولكسب الكرد إلى جانب الحكومة البريطانية وزاد من تعذر الوصول إلى حل نهائى للمشكلة الكردية ، وخاصة البابانية أن ولاة بغداد فى العهد المملوكى وبعده كانوا فى حاجة إلى القوة العسكرية البابانية للوصول إلى الحكم

من جهة ولمقاومة التدخل الفارسى من جهة أخرى ، ولكن بسقوط المماليك لم يعد لهذا العامل وجود حيث إن تعيين الولاة أصبح من الآستانة مباشرة .

وسنتناول بالدراسة المجهودات العثمانية بعد عودة الحكم المباشر إلى العراق فى سبيل تصفية الإمارات الكردية لصالح الحكم العثمانى الجديد .

سقوط الامارة الصورانية :

أسس الإمارة الصورانية رجل صالح من بغداد . ولما اتسعت الإمارة اتخذت من حرير مركزاً لها وتوسعت على حساب الإمارات المجاورة، وخاصة الإمارة البابانية ويبدو أن السلطان سليمان القانونى خشى من تفوق نفوذ الأسرة الصورانية فضربها باليزيديين (١) .

ومما ساعد على ضعف الأسرة الصورانية أيضاً انتعاش الإمارة البابانية (فى السليمانية) فى القرن الثامن عشر واتساعها على حساب جيرانها حتى أصبحت حرير — قاعدة الإمارة الصورانية — ضمن الإمارة البابانية . ثم دب الضعف سريعاً فى الإمارة البابانية فى نهاية القرن الثامن عشر بسبب الصراع الأسرى المستعر ولاجتياح الجيوش الفارسية والعثمانية البلاد المرة بعد الأخرى ، فسمح ذلك للأسرة الصورانية أن تعمل فى هدوء على تقوية نفسها فى مقرها الجديد فى راوندوز حتى أصبح لها كيان واضح فى مطلع القرن التاسع عشر . ونكبت الأسرة الصورانية فى ذلك الوقت — مثل غيرها من الأسرات الحاكمة — بالصراع الأسرى ولكنها خرجت منه تحت حكم شخصية قوية هى محمد باشا الذى اشتهر باسم « مير كور » والذى وصل إلى الحكم على جثث كل من طمع فيه حتى انفرد به(٢) .

بدأ مير كور حكمه فى راوندوز فى ١٨٢٦ . ووجد داود — والى بغداد — أنه قوة جديدة يمكن أن تستخدم فى ضرب الإمارة البابانية المشاغبة وفى كسر شوكتها وفى مقاومة التدخل الفارسى المستمر فى تلك الجهات . فسلطه داود على البابانيين . ودارت المعارك الطاحنة بين مير كور

(١) شرف خان البدليسى : شرفنامه : ج ١ : ٢٦٨ — ٢٧٦ .
(٢) على سيد الكورانى : ١٣٠ — ١٣١ .

من ناحية والإمارة البابانية من ناحية أخرى(١) وكانت كفة ميركور هى الراجحة(٢) . ولم تكن هذه الانتصارات نتيجة لمهارة ميركور العسكرية فحسب ، بل كذلك لعنايته باستغلال موارد بلاده وبتكوين قوة من المدفعية لها شكيمتها فى تلك الجهات ، كما أن جيشه لم يكن من الكرد فقط ، بل كانت فيه قوات عربية أيضاً(٣) .

كان ذلك هو الموقف فى كردستان حين دخل على رضا بغداد وكانت ظروف التوسع المصرى والأزمة الناشئة عن عودة يحيى الجليلى إلى الموصل وثورة عزيز أغا فى جنوب العراق وضعف القوة العسكرية التى كانت تحت يد على رضا من العوامل الرئيسية التى جعلت على رضا يتبع سياسة لينة مع ميركور . فقد استمر ميركور فى عملياته التوسعية واستولى على « أربل » وأخطر ميركور والى بغداد بذلك ، وطلب منه الموافقة على ضمها إلى حكمه فوافق على رضا ، خاصة وأن ميركور أبدى خضوعاً واضحاً للدولة وبعث بالهدايا والأموال لوالى بغداد(٤) . وتابع ميركور توسعه فاستولى على العمادية وأعاد فتحها مرة أخرى عند ما تمردت عليه وعين عليها أخاه رسول أغا وبعد ذلك استولى ميركور على زاخو ودهوك وجزيرة ابن عمر (الإمارة البوتانية) ، وبلغ به الأمر أن أصبح يهدد بلاداً تقع فيما وراء الموصل نفسها مثل ماردين ونصيبين(٥) . وأصبحت الإمارة الصورانية أقوى إمارات كردستان ولم يبق أمامه للسيطرة الكاملة على الكرد سوى القضاء على الإمارة البابانية فى السليمانية . وكان سليمان بابان ينظر إلى نمو

(١) محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ١٥٠ – ١٥١ .
عباس العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٧ : ٣٢ .
Porter : Travels in Georgia, Persia, Armenia and Ancient Balylonia, London 1822. Vol. II. pp. 470-471.

(٢) الدملوجى : بهدينان : ٤٠–٤٤–٤٥ .

(٣) Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 47. pp. 25-28 (15 Jan. 1832).
Extracts of various letters to Pol. Agent. 12-14 Nov. 1831 (Ibid. p. 29-35).

(٤) Extract fr. various letters to Pol. Agent. 12-14 Nov. 1831 (Ind. O.R., F.R., PP. G. Vol. 47. pp. 29-35).

(٥) صديق الدملوجى : إمارة بهدينان : ٤٤–٤٧ .

هذه الإمارة الصورانية السريع بكل خوف فلجأ سليمان إلى الفرس على عادة البابانيين وتعاون معهم على إرسال حملة مشتركة ضد ميركور أمير راوندوز إذ كانت الحكومة الفارسية هى الأخرى تخشى من هذه الإمارة الفتية . وكانت حوادث الحدود – بين الإمارة الصورانية والدولة الفارسية – تزيد من حدة التوتر بينهما وتطورت المنازعات إلى اشتباكات مسلحة . وشدد الفرس الضغط على الإمارة الصورانية إلى الدرجة التى اضطرت ميركور إلى أن يطلب النجدات من باشا بغداد (١) .

كان على رضا هو الآخر يخشى من توسع ميركور ومن امتداد نفوذه إلى الدرجة التى أصبحت تهدد الموصل، بل وتهدد الجيش العثمانى الذى كان يحاول الوقوف على قدميه دون جدوى أمام الجيش المصرى فى الشام ، ولكن ظروف القتال بين ميركور والفرس كانت تقتضى من والى بغداد أن يحافظ على كل شبر من الأراضى العراقية بعيداً عن متناول أيدى الفرس . ومن ثم كانت الضرورة ملحة فى أن يقف على رضا إلى جانب تابعه ميركور وبعث إليه بقوة تشد أزره(٢) ، وكانت السلطات البريطانية هى الأخرى ضد أية تحركات فارسية معادية للعثمانيين خلال محنتهم أمام القوات المصرية(٣) ، فتكاتفت هذه العوامل على وقف القتال بين الأطراف المتصارعة وكان وقف القتال من مصلحة ميركور بسبب تفوق أعدائه عليه(٤) .

ويقول محمد أمين زكى إن والى بغداد تعاون مع الفرس فى حملتهم المذكورة ضد ميركور(٥) وأغلب الظن أن محمد أمين زكى الكاتب

(١) Taylor to Sec. Comm. July 29, 1833 (Ind. O.R., F.R., P.P.G. Vol. 49. p. 540-1).
تقرير درويش : ص ٣٩ – ٤٠ .

(٢) Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 49. pp. 540-541.

(٣) انظر الفصل الخامس .

(٤) Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 49. p. 240 (7 Oct. 1833).
وانظر تقرير درويش : ٣٩–٤٠ .

(٥) محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ١٥٦

الكردى اعتقد أن تحالف سليمان بابان مع الفرس معناه تحالف بين والى بغداد والفرس على اعتبار أن سليمان بابان تابع لوالى بغداد وما يُقدم عليه التابع يمكن أن يلصق بالولاية . ولكن المعروف أن حكام السليمانية من آل بابان تعودوا منذ زمن طويل التحالف مع الفرس ضد أعدائهم . وعلى وجه العموم لم يكن من مصلحة الدولة العثمانية — حتى فى تلك الظروف العصيبة التى كانت تجتازها — أن تعطى الفرس فرصة ذهبية للتوغل فى الأراضى العثمانية بموافقتها هى(١) .

لم يلبث ميركور أن تعرض لخطر كبير من جانب العثمانيين . فقد تفرغ العثمانيون بعد صلح كوتاهية لتصفية الإمارات الكردية تأميناً لظهر الجيش العثمانى عندما تبدأ الجولة الثانية بينه وبين الجيش المصرى فى الشام . فقد بعثت الدولة العثمانية لأول مرة منذ القرن السابع عشر والياً عثمانياً لحكم شهرزور (١٨٣٣ م) . وقدر ميركور هذه الخطوة . وبدأ بالتحرش بالوالى الجديد لشهرزور . وكان هذا الوالى الجديد هو محمد إينجة بيرقدار . ويبدو أن السلطات العثمانية أدركت أن الظروف فى كردستان غير ملائمة لتعيين والٍ عثمانى فى كركوك . حيث إن بيرقدار لم يكن تحت يده من القوات العسكرية أو من القوات المحلية ما يمكنه من تثبيت أقدامه فى هذا المحيط الكردى وسرعان ما نقل الباب العالى محمد إينجه بيرقدار من ولاية شهر زور إلى ولاية الموصل بعد أن طرد من الأخيرة يحيى باشا الجليلى(٢) .

ولم يكد بيرقدار يستقر فى ولايته الجديدة (الموصل) ويسيطر على الموقف فيها حتى بدأت السلطات العثمانية تحثه وتحث القوى العثمانية المجاورة للإمارة الصورانية على التجمع لتوجيه ضربة قاضية لها . وكانت الخطوات العثمانية الأولى ضد الإمارة ترمى إلى السيطرة على الطرق المؤدية إلى قلب الإمارة وضرب أطرافها . فأخضعت القوات العثمانية — التى كانت تحت

(١) Corancez : His. de Bagdad. Paris. 1909. p. 20.

(٢) Taylor's Memo, File. 1835. India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gulf. Vol. 53 p. 799.

قيادة الصدر الأعظم السابق رشيد باشا — العشائر اليزيدية التى كانت تحت حكم ميركور . ثم قبض العثمانيون بيد من حديد على نصيبين وماردين . وأدت هذه الحركات إلى أن يصبح العثمانيون قادرين على تنفيذ خطة واسعة النطاق لغزو الإمارة الصورانية (١) .

وضع العثمانيون خطتهم على أساس أن يزحف كل من على رضا وبيرقدار ورشيد — كل على رأس قواته — فى هجوم من ثلاث شعب على الإمارة الصورانية . وبدأت القوات العثمانية تتحرك من قواعدها صوب هذه الإمارة وفى هذا الوقت أراد الفرس أن يقحموا أنفسهم فى المعركة المقبلة ضد ميركور . فقد عرض أمير النظام (قائد الجيش الفارسى) على كل من رشيد باشا — قائد عام الجيش العثمانى — وعلى باشا رضا (والى بغداد) وحاكم أرضروم أن يتعاون معهم فى حملة مشتركة ضد ميركور . واتصلت السلطات الفارسية بالمسئولين الإنجليز فى هذا الصدد فرحبوا بهذا العرض بل وزكوه لدى العثمانيين . وبعث السفير البريطانى بونسنبى Ponsonby أحد رجاله الدبلوماسيين وهووود Richard Wood(٢) قنصل بريطانيا فى حلب إلى السلطات الفارسية والعثمانية لتنسيق التعاون بين هذه الأطراف . واتصل وود Wood بالقواد العثمانيين مباشرة ليحثهم على التعاون مع الفرس ، وسلم إلى رشيد باشا خطاب أمير النظام فى هذا الشأن .

رأى رشيد باشا فى هذه الوساطة البريطانية تدخلا فى أمور الدولة كما رأى فى العرض الفارسى مناورة خطيرة يهدف الفرس من ورائها إلى الحصول على حق التدخل فى أمور كردستان . وكانت السلطات الفارسية منذ وقت ليس بالقصير تطالب بأن يكون لها رأى فيمن يسند إليه حكم السليمانية . ولذلك صدرت التحذيرات من جانب العثمانيين إلى السلطات الفارسية

(١) Ibid.

(٢) كان ريتشارد R. Wood قنصل بريطانيا فى حلب واشتهر بمقاومته العنيفة ضد النشاط المصرى . وكان يتصل بالعناصر المناوئة للمصريين فى الشام ويوزع المنشورات خلال الصراع بين القوات المصرية من جهة والقوات العثمانية والأوربية من جهة أخرى (١٨٤٠–١٨٤١) .

بعدم التذرع بتطورات القتال ضد ميركور بقصد الاشتراك فيه حيث إن ذلك من صميم أعمال الحكومة العثمانية ولا شأن للفرس فيه . وحذر حاكم أرضروم العثمانى أمير النظام الفارسى من دخول القوات الفارسية أرضاً عثمانية تحت ستار التعاون ضد ميركور(١) .

وبرغم هذه التحذيرات الشديدة من الجانب العثمانى ، لم يتورع الفرس عن العمل من وراء ستار ، فقد شرعوا فى حث ميركور على إعلان الولاء للشاه لينقذ نفسه من الجيوش التى أحاطت بإمارته(٢) . ويهدف الفرس من وراء ذلك إلى إيجاد السند القانونى الذى يسمح لهم بالتدخل فى أمور كردستان . وهذا الأسلوب الذى اتبعته السلطات الفارسية ليس بالنسبة لأزمة الإمارة الصورانية فقط ، بل إن هذا الأسلوب هو سياسة أتقنها الفرس فى جميع المناطق الواقعة على الحدود بين الدولتين . استخدموه فى هذه الحالة ، واستخدموه خلال الصراع الطويل بين الأمراء البابانيين والمماليك، واستخدموه كذلك فى أزمة التنازع حول المحمرة فيما بعد . كانوا فى كل هذه الحالات يدفعون الحكام — الذين يتعرضون لضغط من جانب الحكومة العثمانية — إلى إعلان الولاء للشاه فتدخل الجيوش الفارسية فى أعقاب ذلك الأراضى العراقية ويصبح من العسير إخراجها ، ولكن ميركور كان — على العكس من الأمراء البابانيين— لايلجأ إلى الفرس إذ كان يعتقد أن إعلان الولاء للفرس الشيعة خيانة للمذهب السنى وللخليفة المسلمين . ولذلك لم تجد مناورات الفرس ولم يصغ إليهم ميركور على الإطلاق .

ومن ناحية أخرى كانت السلطات البريطانية التى أيدت من قبل فكرة التعاون بين الفرس والعثمانيين لا تسمح للفرس بمتابعة مثل تلك المناورات فى بلاط الأمير الصورانى حتى لا تحدث ارتباكات عنيفة على الحدود

(١) Sheil's Report. Enclos. No. 1 to the Despatch No. 16 fr. Mc. Neill to Palmerston 13 Oct. 1836. (Ind. O.R.F.G., P.P.G., Vol. 54 of 1836. Ellis to Palmerston. July 13, 1836. F.O. 195-113. Ellis to Sheil - July 13, 1836 F.O. 195—113 .

(٢) Wood to Ponsonby. Sep. 3,1836. (Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 54 p. 679-95) .

تؤدى إلى تعقيدات دولية تحطم السياسة البريطانية الخاصة بالمحافظة على الاستقرار على طول الحدود الفارسية العثمانية . ولما كان الإنجليز قد فشلوا فى إيجاد ذلك التعاون بين الفرس والعثمانيين ضد ميركور فإنهم عزموا على التدخل فى المشكلة برغم معارضة القيادة العثمانية لذلك .

فقد كانت السلطات البريطانية تخشى أن يعمد ميركور فى فترة من فترات اليأس إلى أن يضع إمارته تحت الحكم المصرى نكاية فى العثمانيين إذا ما أطبقوا على إمارته(١) . وكان الإنجليز يعملون على عدم إشراك المصريين أو غيرهم فى هذه المشكلة حتى لا يتطور الصراع إلى أزمة كبرى ، خاصة إذا كان هذا التدخل من جانب قوة مناهضة للمصالح البريطانية الاستعمارية فى العراق .

وفى هذه المرة اتصلوا مباشرة بالأمير الصورانى وبعثوا إليه بريتشار وود R. Wood وكانت مهمته تقضى بأن يبذل أقصى الجهد فى سبيل إقناع ميركور بعدم الاستماع إلى التحريضات الفارسية التى تدعوه إلى إعلان الخضوع ويعلن للشاه بأن الخضوع للسلطان ويقدم نفسه مستسلماً للقوات العثمانية على أمل أن تسعى السفارة البريطانية فى الآستانة لدى الباب العالى لاستصدار العفو عنه وإعادته معززاً مكرماً إلى إمارته ليحكمها مرة أخرى بفرمان من السلطان(٢) .

والواقع كان موقف ميركور من الوجهة العسكرية يتدهور بسرعة . فقد سقطت التون كوبرى فى يد جيش على رضا . وأعقبتها أربل الحصينة بعد حصار استغرق ثلاثة أشهر . وعندما دخلت القوات العثمانية المدينة أعملت السيف فيها وفى حاميتها . ثم أخذت القوات العثمانية تتقدم فى قلب الإمارة الصورانية نفسها حتى أصبحت على بعد ساعتين ونصف الساعة من العاصمة راوندوز . وأخذ أعوان ميركور يتخلون عنه حيث إن فرمان السلطان بعزله كان له مفعول السحر فى تفكيك قواه ، وأدرك ميركور أن

(١) Farren to Sec. Comm. Aug. 16, 1836. (Ind. O.R., F.R., P.P. G., Vol. 54. p. 675-95).

(٢) Ponsonbv to Palmerston. Oct. 12, 1836. Ibid. p. 675-678. Ibid.

الأمور تتطور بسرعة ضد مصالحه(١) ووجد أن الاستسلام خير له من متابعة المقاومة ، لعله يحصل على عفو من السلطان ويعود إلى مقر إقامته معززاً مكرماً حسب ما وعد به ريتشارد وود .

ويرى على سيد الكورانى أن استسلام مير كور كان نتيجة استغلال المعسكر العثمانى للعلاقة الطيبة التى كانت بين مير كور ورشيد باشا ، وأن هذه العلاقة استغلت فى إقناع الأمير بالكف عن مقاومة جيش السلطان وبعدم الخروج عن إجماع المسلمين . فرضخ الأمير لهذه النداءات حقناً للدماء وإبقاء على صداقته مع رشيد الذى يمكن أن يحصل بوساطته على العفو من السلطان . وزين له رشيد طريق الاستسلام وأن يذهب إلى الآستانة ليقدم فروض الطاعة للسلطان حتى يمكن استصدار فرمان بالعفو عنه(٢) . واقتنع مير كور بذلك وكان له فى عفو السلطان عن داود أسوة(٣) واستسلم إلى رشيد فعلا(٤) . وعندما سمع على رضا باستسلام مير كور إلى رشيد باشا ثار على هذا الإجراء . واعتبر ذلك تحدياً له وتعدياً على حقه فى تصريف أمور راوندوز التابعة لباشوية بغداد ، مع أن القيادة العامة كانت معقودة لرشيد باشا . وعلى أى حال لم يأخذ رشيد باحتجاج على رضا فى هذا الصدد وبعث بمير كور مكرماً إلى الآستانة وحدث بعد ذلك أن توفى رشيد باشا . فزالت بذلك القوة التى كانت تؤمن حياة مير كور . واستطاع على رضا أن يقنع سلطات الآستانة بضرورة إعدامه ونفذ فيه

---

(١) كذلك سقطت حرير وكويسنجق فى يد القوات العثمانية .
Taylor to Sec. Comm. Aug. 16, 1836. (Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 54. pp. 9-10.

(٢) يقول إن فتوى صدرت بأن «من يحارب جيش الخليفة غير مؤمن وزوجته طالق» وأن هذه الفتوى كانت ذات أثر كبير فى انفضاض الناس عنه . (انظر على سيد والكورانى من عمان إلى العمارية . مطبعة السعادة ١٩٣١ . القاهرة : ص ١٣٣–١٣٤) .

(٣) تمرد داود باشا – آخر المماليك فى العراق – على السلطان وحارب جيوشه ومع ذلك عفا عنه السلطان وقد درسنا هذا الموضوع بالتفصيل فى كتابنا «داود باشا» .

(٤) Wood to Ponsonby. Sep. 3, 1836. (India. O.R.,F.R., P.P.G., Vol. 54. pp. 679-695). Ponsonby to Palmerston : Oct. 12, 1836. (Ibid. pp. 675-678).

الحكم فعلا(١) خوفاً من أن يعود إلى إمارته فى تلك الظروف العصيبة التى كانت تجتازها الدولة العثمانية .

عين على رضا باشا على راوندوز كتخداه(٢) لعله يستطيع أن يفرض الحكم المباشر فيها . وكان فرض هذا النوع من الحكم يحتاج إلى إخضاع كامل للعصبيات المحلية وإلى إدخال النظم الإدارية الكفيلة بتثبيت هذا الحكم . وهذا لم يكن متوفراً لعلى باشا رضا ولكتخداه فى ذلك الوقت ولذلك أسند والى بغداد حكم راوندوز إلى «رسول بك» أخى مير كور .

وحاول رسول بك أن يستعيد ما كان لأخيه من استقلال ذاتى ، ولكن تصدى له بقوة والى بغداد نجيب باشا (١٨٤٢–١٨٤٧) . فاضطر رسول إلى الفرار إلى إيران ١٨٤٦(٣) ومن هناك أخذ يثير المتاعب فى وجه حكام راوندوز من قبل نجيب باشا، ولكن دون أن يصل إلى نتيجة ما. وعندما دب اليأس فى نفس رسول عمد إلى التفاهم مع نجيب على أساس أن يعيش فى بغداد وعفا الله عما سلف . وكان ذلك التفاهم بوساطة القنصل البريطانى(٤) . ولعل هذه الوساطة أطمعت رسول بك فى أن يستعيد حكم مدينته عن طريق

---

(١) ويقول أحد المراقبين لتطور الأمور فى العراق إن أمير راوندوز بينما كان آتياً فى طريقه من الآستانة خرج عليه من قتله « انظر : محفظة ٢٥٦ عابدين وثيقة ٢٦ – ٢ فى ٣ محرم ١٢٥٤ هـ – ٣١ مارس ١٨٣٨ م ويقال إن ثورة وقعت فى الإمارة عندما علم الأهالى بمصرع مير كور (نفس الوثيقة) وأن عثمان باشا – أحد إخوة مير كور – أعلن الثورة على العثمانيين (انظر محفظة ٢٥٦ عابدين – وثيقة ٢٣–٢٦ ٢ فى ١٨ من أبريل ١٨٣٨ – ٢١ من محرم ١٢٥٤ هـ . وانظر على الكورانى : ص ١٣٤ .

(٢) Rawlinson to Wellesley. Feb. 3, 1847. F.O. 195—272 & Rawlinson to Comely, 23 June 1847. Ibid.

(٣) استقر رسول أولا فى أشنو بالقرب من الحدود الفارسية العثمانية فكان قادراً على إثارة المتاعب فى وجه العثمانيين وكان ذلك من أسباب عرقلة لجنة الحدود المشتركة (العثمانية – الفارسية – الروسية – البريطانية) عن عملها فتدخل المسئولون الإنجليز لدى البلاط الفارسى لنقل رسول إلى طهران بعيداً عن الحدود .

(٤) Sheil to Palmerston. Sep. 26, 1846. (Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 85, p. 103-105) .
Rawlinson to Sheil. Sp. 21. 1847. (Ibid. Vol. 86. pp. 617-622). & Sheil to Palmerston, May 22, 1847. (Ibid. 86. pp. 613-614).

الإنجليز أيضاً ، ولكن أدرك نجيب باشا خطورة إعادته إلى الحكم من حيث إن ذلك يهدد سياسة إعادة الحكم المباشر التى يتبعها فى كردستان ، كما أن عودة رسول بوساطة إنجليزية تقوى من النفوذ البريطانى هناك . وكان نجيب يعمل على الحد من هذا النفوذ بقدر الإمكان . ولا شك أن نجيب كان حصيفاً حين اشترط أن يقيم رسول فى مكان يقع غربى دجلة بعيداً عن الكرد وأن يستمر ثلاث سنوات فى هدوء حتى يمكن النظر فى أمر إسناد حكم مدينة إليه(١) . وكان رسول هذا هو آخر حكام راوندوز من الأمراء الصورانيين وخلصت المدينة من بعد للعثمانيين تماماً . ومهد سقوط الإمارة الصورانية إلى سقوط إمارات صغيرة أخرى مثل الإمارة البهدينانية فى العمادية والبوتانية فى جزيرة ابن عمر وإمارة نور الله فى حكارى . فبعض هذه الإمارات كان تحت حكم ميركور عندما بلغت قوته ذروتها .

سقوط الامارة البهدينانية :

فى الوقت الذى كانت فيه الإمارة الصورانية تتلقى الضربات العنيفة من الجيوش العثمانية كانت الإمارات الكردية الصغيرة تسقط بسرعة فى يد العثمانيين . وكانت الإمارة البهدينانية تحكم العمادية قبل الفتح العثمانى ويقال إن نسبهم يرتفع إلى العباسيين (٢) ولكنهم لم يستطيعوا إنشاء إمارة كبيرة لهم فى كردستان نظراً لأن هذه البلاد الكردية كانت معظم الفترة بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر قسمة بين البابانيين والصورانيين مما اضطرهم إلى الخضوع تارة لهؤلاء وأخرى لأولئك . وعندما ضعفت الإمارة البابانية استولى ميركور — أمير راوندوز — على العمادية ففر إسماعيل البهدينانى المطالب بحكم العمادية ، إلى محمد إينجه بيرقدار والى الموصل الذى كلف بالتعاون مع « على رضا ورشيد » فى القضاء على حكم ميركور(٣)

(١) Rawlinson to Sheil, 21 Ap. 1847. (Ibid. Vol. 86. pp. 617-622).
ويبدو من الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع أن نجيب كان ينوى فى حالة إعادته إلى أحد المناصب أن يكون ذلك فى مدينة غير راوندوز . Ibid

(٢) شرفخان البدليسى : شرفنامه : جـ ١ : ١٠٢ — ١٠٣ .

(٣) عباس العزاوى : تاريخ : جـ ٧ : ٣٥ — ٣٧ .

ولما استسلمت العمادية للقوات العثمانية تمكن إسماعيل البهدينانى من أن يتولى الحكم فيها وترك «على رضا» مقاليد الأمور فى العمادية فى يد إسماعيل حتى يضمن هدوء هذه المنطقة خلال العمليات العسكرية ضد ميركور . وبعد استسلام ميركور وجه « على رضا » نشاطه نحو القضاء على الأسرة البهدينانية وطرد « على رضا » هذه الأسرة من الحكم فى سبتمبر ١٨٣٩ م(١) ولكنه اضطر مرة ثانية إلى أن يعيد إسماعيل إلى الحكم إذ كانت الظروف العامة لا تسمح بتطبيق الحكم المباشر حتى لا يثير فى وجهه متاعب ضخمة فى وقت كانت فيه الدولة مهيضة الجناح عقب نكبتها فى نزيب . كما أن إسماعيل كان رجلاً طموحاً فأخذ يتدخل فى شئون الموصل ويستعدى العشائر الكردية ضد واليها(٢) . ولذلك صمم محمد بيرقدار والى الموصل — بعد أن وطد أقدامه فى الحكم — على التخلص من الإمارة البهدينانية فحاصر العمادية حتى سقطت فى يده(٣) وقضى على هذه الإمارة واستمرت العمادية تابعة للموصل حتى ١٨٤٩ ثم أضيفت إلى « وان » فى هذا التاريخ ولم تعد إلى الموصل إلا فى نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر (٤) .

سقوط الامارة البوتانية :

وفتح سقوط الإمارة البهدينانية الطريق نحو سقوط الإمارتين الصغيرتين المشاغبتين : الإمارة البوتانية بزعامة آل بدرخان فى جزيرة ابن عمر ، وإمارة حكارى تحت حكم نور الله بك . وكان بيرقدار أيضاً معنياً كل العناية بأن يرث الإمارة الصورانية . فكما قضى على الإمارة البهدينانية وضمها إلى ولاية الموصل عمل على ضم جزيرة ابن عمر إلى ولايته أيضاً برغم اعتراض والى أرضروم . فرفع بيرقدار الأمر إلى الباب العالى مطالباً بضم جزيرة ابن عمر إليه . وحصل بيرقدار على ما أراد . وطالب بيرقدار حكام

(١) Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 62. pp. 391-4 & Vol 66. p. 353.

(٢) Taylor to Sec. Comm. May 24, 1842. (Ibid. Vol. L.p. 47-50).

(٣) do - do. Oct. 1842. (Ibid. pp. 105-108).

(٤) وقد استفادت الدولة العثمانية من خبرات إسماعيل البهدينانى وعينته متصرفاً على كربلاء وتوفى فى ١٨٧٢ (محمد أمين زكى : مشاهير الكرد : جـ ١ : ص ١١٠) .

جزيرة ابن عمر بأن يدفعوا الضرائب إليه مباشرة . ولكن الأمير البوتانى بدرخان أدرك نيات بيرقدار ، فوطد صلاته مع نجيب باشا (والى بغداد) وحصل منه على تثبيته فى حكم الإمارة(١) وكان نجيب يعتقد أن أزماته العصيبة مع فارس ومع الإمارات الكردية تتطلب عدم الاندفاع فى الحال ضد الإمارة البوتانية وتأجيل ذلك إلى ظروف أكثر ملاءمة ، ولكن لم يلبث أن واجه بدرخان خطراً جديداً من جانب النمو المتزايد فى قوة النساطرة المجاورين له . وكان هذا النمو فى قوة النساطرة نتيجة لاستغلال هذه الأقلية لقوانين التنظيمات العثمانية ولاعتمادها على الحماية البريطانية وعلى المبشرين الأجانب . فأوقع بدرخان بالتعاون مع نور الله بك (أمير حكارى) بالنساطرة مما أحرج مركز الباب العالى أمام الدول الأجنبية . ولتثبت الدولة حسن نيتها أمام الأجانب عزلت نور الله بك وبدرخان وجردت عليهما الجيوش وأوقعتهما فى الأسر وانتهت بذلك إمارتهما(٢) . ولم يبق بعد سقوط تلك الإمارات سوى الإمارة البابانية فى كردستان .

سقوط الامارة البابانية :

بدأ نجم هذه الإمارة يلمع منذ منتصف القرن السابع عشر عندما منح السلطان العثمانى سنجق قره جوالان إلى أحمد ، أحد أحفاد فقيه أحمد به (بابان) ، الذى تنسب إليه هذه الإمرة . وكان وجود الدولة الفارسية المتربصة على الحدود الشرقية لهذه الإمارة سبباً فى أن يشعر البابانيون بأن هناك قوة يمكن أن يعتمدوا عليها إذا ما شقوا عصا الطاعة على السلطان العثمانى . وكانت إيران مستعدة فى معظم الأحيان لأن تمد اللاجئين إليها من آل بابان بقوات فارسية ليدخلوا على رأسها إلى كردستان . وأخذت هذه الإمارة تتوسع على حساب الإمارات الكردية الأخرى . وامتد نفوذها إلى كركوك التى كانت قاعدة إياله شهر زور . ويرجع إلغاء هذه الإيالة من التقسيمات الإدارية للعراق إلى أن الإمارة البابانية أصبحت هى القوة البارزة

(١) Rassam to Taylor : 21 Nov. 1842. F.O. 195-204.

(٢) تفصيل الصراع بين آل بدرخان من ناحية والنساطرة والعثمانيين من ناحية أخرى فى ص ٣١٠ إلى ص ٣١٣ .

فى تلك الجهات . ونظراً لاتساع هذه الإمارة خلال الجزء الأخير من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر أصبح يطلق على الحاكم البابانى : اسم باشا كردستان . وكانت السليمانية — التى اتخذت مقراً لهذه الإمارة منذ ١٧٨٤ م — أكبر مدن كردستان ومنها كانت تدار سياسة الإقليم ، وتضاءلت إلى جانبها كركوك (١) .

ويرجع نمو هذه الإمارة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلى الضعف الذى دب فى حكومة المماليك منذ الغزوة الفارسية للعراق فى ١٧٧٥—١٧٧٩وإلى استشراء الفوضى فى البلاد حتى تولية سليمان الكبير الحكم (١٧٧٩ — ١٨٠٢م) . وشعر البابانيون أن الفرصة سنحت ليتنصلوا من التبعية لمماليك بغداد ، بل وأن يطالبوا لأنفسهم بحكم بغداد نفسها . ولكن الباب العالى ما كان ليسمح لبابانى بأن يتولى حكم بغداد لما عرف عن البابانيين من ميل سريع إلى فارس . ولذلك فضل الباب العالى أن يظل الحكم فى يد المماليك بل وأن تظل كردستان تحت إشراف الوالى المملوكى . ونظراً لتوالى ضعف المماليك بسبب الصراع فيما بينهم استخدم بعض الطامعين فى الولاية من المماليك القوة البابانية للوصول إلى أغراضهم (٢) .

فالمعروف أن داود باشا فر من بغداد إلى كردستان ليستعين بقوات البابانيين فى قتال سعيد باشا والى بغداد لطرده من العاصمة وليفرض نفسه على المماليك وليثبت للباب العالى أنه الشخصية القوية القادرة على السيطرة على الأمور حتى يكون جديراً بمنصب الولاية . ولقد نجح داود فى تنفيذ خططه بفضل المعونات التى قدمها له محمود باشا بابان(٣) .

وبرغم هذا المظهر الذى يوحى بأن الإمارة البابانية قد بلغت درجة

(١) محمد أمين زكى : تاريخ السليمانية : ٦٠ — ٦١ .

(٢) حاول الزعيم الكردى عبد الرحمن بابان الحصول على منصب والى بغداد منتهزاً ضعف الوالى المملوكى ورغبة الباب العالى فى التخلص من مماليك بغداد . انظر (جودت باشا : ج ٩ : ص ٢٥٣ — ٢٦٠ ، مختصر مطالع السعود : ص ٤٠ ، محمد أمين زكى : تاريخ السليمانيةص :١١٧ عباس العزاوى : تاريخ العراق : ج ٦ : ص١٤٧ ، عشائر : ج٤ :ص١٣٩) .

(٣) جودت : ج ١١ : ص ٢٣ — ٢٥ .

كبيرة من القدرة على توجيه أمور كردستان وبغداد فإنها كانت تتدهور بسرعة ، وخاصة منذ أن تولى محمود باشا حكم السليمانية فى ١٢٢٨ هـ — ١٨١٣م . وكانت بداية حكم محمود هذا سيئة ، إذ أنه تولى الأمر برضاء من الشاهزارة محمد على ميرزا ولى عهد فارس . فقدكانت فارس تسعى إلى أن يصبح الأكراد جميعهم تحت حكمهم تمهيداً للسيطرة على العراق بأسره وحاول محمود بعد ذلك أن يتخلص من الضغط الفارسى دون جدوى برغم استعانته المرة بعد الأخرى بداود باشا والى بغداد . ويرجع فشل محمود فى التخلص من الفرس إلى أنه كان يستعين بهم كلما شعر أن داود باشا — والى بغداد — يريد أن يستعيد سيطرته على كردستان . وكانت سياسة داود هى أن يضرب محمود بأخيه عبد الله أو بأخيه الآخر سليمان . وكان الباشا البابانى المهزوم يلجأ إما إلى بغداد أو إلى كرمنشاه . وفى أواخر عهد داود تفوق سليمان على أخويه وتمكن من دخول السليمانية وظل سليمان فى الحكم بعد عزل واستسلام داود لجيش السلطان(١) .

ولم يكد على رضا يستقر فى بغداد حتى بدأت المصادمات بينه وبين سليمان بابان . ويبدو أن سليمان كان على علاقة طيبة بالفرس الأمر الذى جعل «على رضا» يتحين الفرص لعزله منذ البداية . فبرغم أن سليمان صرح « لعلى رضا » بأنه امتنع عن الاتصال بهم بعث « على رضا » سراً بحاكم من قبله على السليمانية ليتولى طرد سليمان منها ، وكان على رضا قد زود رجله بقوة من الجيش تشد أزره ، ولكن سليمان تغلب على هذه القوة وهدد بالزحف على بغداد نفسها . وشعر على رضا بالمحنة إذ كانت هناك ثورة عزيز أغا فى الجنوب وثورة يحيى الجليلى فى الموصل وثورة عشائر شمر الجربا فى الصحراء . ولكى يمول «على رضا» مطالب الدفاع عن بغداد اضطر إلى جمع الأموال بقسوة من الأهالى فثاروا عليه . ولم ينقذه من هذه الأزمة سوى تفاهم على رضا مع سليمان وعدول سليمان عن متابعة الزحف(٢) .

(١) Taylor to Sec. Comm. Jan. 5, 1832 Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 47. p. 17-23.

(٢) Intelligence from Bagdad Contained in a report for Wood Aug. 2, 1832. F.O. 78—210.

وكانت خطة على رضا هى أن يترك الأمور على ما هى عليه حتى يمكن التخلص من هذه العصبيات الحاكمة فى ظروف مناسبة . ولذلك ثبت سليمان فى الحكم ، ورفض أن يستمع إلى طلبات السلطات الفارسية الخاصة بالعفو عن محمود بابان وإعادته إلى حكم السليمانية (١) . ويعتبر عهد سليمان هذا أهدأ العهود التى مرت على السليمانية منذ وقت طويل ولاشك أن ذلك يرجع إلى ابتعاد محمود بابان عن العراق(٢) وإلى انشغال القوى العثمانية فى العراق فى قتال الثوار المماليك وكذلك الإمارة الصورانية . ولاشك أن قيام القوات العثمانية بالقضاء على ميركور — أمير راوندوز — كفل الأمن والطمأنينة للإمارة البابانية حيث إن الإمارة الصورانية كانت تهدد بالقضاء على البابانيين .

تولى أحمد بابان (ابن سليمان) الحكم بعد وفاة أبيه فى ١٨٣٨ وكان رجلاً طموحاً راغباً فى تقوية جيشه على النظم الحديثة ونجح إلى حد ما فى هذا الشأن . وكانت ظروف أحمد مغايرة إلى حد كبير لظروف أبيه . فقد عاد عمه محمود إلى العراق ليعاود محاولاته التى لاتهدأ لاستعادة حكم السليمانية . وكان محمود مغامراً جريئاً لاتوهنه الهزائم . كان لايتورع عن كسب الأعوان سواء من العراق أو من إيران . كذلك واجه أحمد مطالباً جديداً بالحكم وهو على بن محمود . وكان على — على خلاف أسرته — قد اعتنق المذهب الشيعى . وقدم له المسئولون الفرس إمكانات عسكرية مناسبة ليستخدمها فى التغلب على «أحمد» وليتولى حكم السليمانية نيابة عن شاه فارس . ولم يصبر أحمد طويلا أمام هذه التحرشات المتعددة فأخذ يضرب المواقع الرئيسية التى كانت تتجمع فيها القوات المعادية له حتى ولو كانت هذه المواقع فيما وراء الحدود الفارسية(٣) .

أدت العمليات العسكرية التى قام بها أحمد بابان عبر الحدود الفارسية إلى إحراج مركز الباب العالى أمام الاحتجاجات الفارسية وكانت الظروف

(١) Ibid.

(٢) Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 47. p. 367-71. Vol. 68, pp. 33-34.

(٣) Taylor to Sec. Comm. June 1840. Ibid. (Vol. 69. pp. 29-34).

الدولية تستدعى توطيد الأمن والهدوء على طول الحدود الفارسية العثمانية حتى تتمكن لجنة الحدود الرباعية(١) — المكونة من ممثلى بريطانيا وروسيا والدولتين العثمانية والفارسية — من وضع خط للحدود تعترف به الدولتان الإسلاميتان منعاً لتكرر وقوع المنازعات بينهما . ومع أن اللوم وجه إلى أحمد بسبب تعديه على الأراضى الفارسية إلا أن الفرس والعثمانيين على السواء وضعوا العراقيل الشديدة أمام اللجنة بسبب مبالغاتهم الصارخة فى المطالبة بضم أراض من الطرف الآخر . وأدت هذه المبالغات إلى أن تكثر حوادث الحدود عن ذى قبل نظراً لأن كلا من الدولتين حاولت أن تثبت بأى شكل تبعية هذه البقعة أو تلك لها . وقام أحمد بابان بدوره بالضغط على عشائر الحدود حتى تعلن ولاءها للدولة العثمانية ونظرت السلطات العثمانية إلى الإمارة البابانية على أنها القوة القادرة على القيام بالمناورات السياسية والعسكرية اللازمة فى ذلك الوقت . كما كانت الإمارة البابانية الملجأ الأكثر أمناً لدى العشائر التى تفر من وجه الضغط الفارسى ، وقام أحمد فى هذا الصدد بأعمال كثيرة أضجرت الجانب الفارسى كل الضجر حتى إن الفرس كرروا طلب عزله وتعيين محمود بابان مكانه(٢) ، بل عمد الفرس إلى إحراج مركز أحمد بأن قووا من قواعدهم العسكرية فى زهاو وزحفوا صوب خانقين وحملوه تبعة هذه الاضطرابات على الحدود (٣) . ويبدو أن معظم نشاط أحمد ضد الفرس كان بغير علم السلطات العثمانية . ولذلك وجد نجيب باشا والى بغداد (١٨٤٢—١٨٤٧) أن عزله قد يفيد من حيث تهدئة الأمور على الحدود والتمهيد لإلغاء الحكم البابانى وحكم السليمانية حكماً مباشراً . وصدر قرار عزله فعلا فى مارس ١٨٤٢ بحجة أنه تعدى على أراض خارج نطاق حكمه(٤) .

(١) تفصيل تشكيل هذه اللجنة وعملها فى الفصل الثامن .

(٢) Taylor to Sec. Comm. June 14, 1841. (Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 73. pp. 339-349).

(٣) Ibid. Vol. 77. pp. 59-207-210.
Ibid. Vol. 82. pp. 189-92

(٤) Taylor to Sec. Comm. Ap. 24, 1842. (Ind. off. Pol. & Sec. Dept. Vol. 13,. pp. 46. & Mch. 24, 1842. pp. 33-37).

وبطبيعة الحال قرر أحمد مقاومة الجيش الذى بعث به نجيب باشا — والى بغداد — لطرده من السليمانية . وكان هذا الجيش تحت قيادة عبد الله — وهو أخو أحمد — الذى أسندت إليه حكومة السليمانية . ويقول راولنسون إن جيش أحمد كان أكثر تنظيماً وأقوى تسليحاً وأنه كان يفوق جيش بغداد الزاحف عليه من وجوه عديدة . وأن الهزيمة التى نزلت بأحمد لم تكن بسبب قوة جيش خصمه وإنما بسبب حظه العاثر . فقد حدث قبيل المعركة الفاصلة أن دوى فى المعسكر الكردى طلق نارى أعقبته فوضى مروعة فى المعسكر ، وطفق رجال أحمد بابان يطلقون النيران على بعضهم وبسرعة تشتت الجيش البابانى وسقط المعسكر بسهولة فى قبضة جيش بغداد بما فيه من مدفعية وذخائر . ودخل عبد الله السليمانية(١).

غادر أحمد السليمانية بعد عزله إلى فارس ليطلب من السلطات الفارسية أن تمده بالقوات اللازمة ليستعيد الحكم ، ولكن أحمد لم يجد ترحيباً من حاجى ميرزا أغا سى الصدر الأعظم الفارسى ، بل إن العثمانيين احتجوا بشدة على وجود أحمد فى مدينة « سنه » القريبة من الحدود ، إذ من هذه المدينة يستطيع أحمد أن يثير المتاعب الشديدة فى وجه العثمانيين وفى وجه أخيه عبد الله (٢) . وتاريخ أحمد هذا يكشف لنا عن التيارات الظاهرة والخفية التى كانت توجه علاقات الفرس والعثمانيين والإنجليز بالنسبة للإمارة البابانية بصفة خاصة وكردستان بصفة عامة . فقد كانت السياسة البريطانية تهدف إلى استتباب الأمن فى المناطق الواقعة بين الدولتين ومنع وقوع اشتباكات على طول الحدود . ولذلك أيدوا المطالب العثمانية الخاصة بإبعاد أحمد بابان عن مناطق الحدود حتى لا يتمكن من إثارة المتاعب فى وجه لجنة تحديد الحدود وفى وجه أخيه عبد الله الحاكم الجديد للسليمانية . ولقد حاول أحمد بابان فعلا القيام بهجوم مفاجئ على كردستان ليسترد حكمه ولكن دون جدوى (٣) .

(١) Rawlinson to Canning. Aug. 27, 1845, (Ind. O.R. Pol. Dept. Recs., Letters fr. Consul Gen. in Turk. Arabia. Jan. 1844-Nov. 1852.

(٢) Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 82. pp. 189-192.

(٣) Sheil to Aberdeen. July 31, 1842. Ibid. Vol. 82. do - do Aug. 29. 1845. (Ibid. Vol. 82. pp. 189-192).

ومع أن أحمد فشل فى تلك المحاولة التى كانت فى نظر العثمانيين غزواً فارسياً للأراضى العثمانية كان راولنسون يميل إلى أحمد ويدعو حكومته إلى الأخذ بيده لتعيده إلى حكم السليمانية . والمعروف أن الفرس كانوا خلال المفاوضات الدائرة مع الحكومة العثمانية لعقد معاهدة أرضروم الثانية يطالبون بضم السليمانية إلى أراضى الشاه . وكان القنصل البريطانى على الأقل ميالا إلى أن تكون كردستان بعيدة عن أيدى العثمانيين بشكل ما ، وذلك عن طريق تثبيت الأسرة البابانية فى الحكم وتقويتها حتى تستطيع أن تحافظ على نفسها بين الدولتين الكبيرتين : الفارسية والعثمانية . وبمعنى آخر ، كان راولنسون — القنصل البريطانى العام فى بغداد — يحرض أحمد على أن يعمل على تكوين كيان واضح شبه مستقل للكرد . وهى خطة سار عليها من قبل ريتش خلال محادثاته فى ١٨٢٠ مع محمود باشا البابانى(١) . فخلال ١٨٤٥—١٨٤٦ قام أحمد بمحاولات مستميتة لانتزاع الحكم من أخيه دون جدوى . وكان راولنسون يعطف على هذه المحاولات وكان يقول إن أحمد لو نجح فى إحدى محاولاته فى استرداد السليمانية فستنشب ثورة كردية عامة تنتهى باستقلال كردستان عن الدولة(٢) . والمعتقد أن تطوير فكرة الثورة ضد الدولة إلى فكرة الاستقلال عنها كانت من توجيهات القناصل الإنجليز . فلديهم لم تكن حركات أحمد ضد السليمانية سوى محاولات لاسترداد الإمارة بينما كانت فى نظر العثمانيين غزواً فارسياً(٣) ولقد عامل الإنجليز حوادث مماثلة على أنها عدوان خطير على الحدود . ولكن نظراً لميل راولنسون إلى أحمد كان يكتب التقارير بما يخفف من وقع أعماله لدى الحكومة البريطانية . ولقد بالغ راولنسون فى الدفاع عن أحمد حتى إنه كان يدافع عنه بعد أن قام بمحاولاته فى ١٨٤٥ وفى ١٨٤٦ من الأراضى الفارسية لاسترداد الحكم دون جدوى . فقد اقترح أن يذهب أحمد بنفسه إلى الآستانة ليعلن الولاء

(١) ريج : رحلة ريج فى العراق : ص ٦٧—٦٨—١٠٢—١٠٤—٢٢٤

(٢) Rawlinson to Canning June 24, 1846. F.O. 195—237. Do-do 8 July 1846 No. 36 Ibid - do-do Sep. 29. 1846 do-do Aug. 6, 1845 Ibid. - do-do. Dec. 10, 1845. F.O. Ibid.

(٣) Rawlinson to Aberdeen No. 4 (June 26, 1846). F.O. 78—656.

للسلطان وليطلب منه العفو وأن يعيده إلى السليمانية (١) ، مع أن هذه السياسة كانت تتعارض كل التعارض مع السياسة العثمانية الهادفة إلى إعادة الحكم المباشر إلى السليمانية . خاصة وأن إعادة أحمد إلى الحكم قد تغرى غيره من زعماء العصبيات الأخرى المبعدين عن البلاد إلى استمرارهم فى الثورة للعودة إلى الحكم . ولقد فشل أحمد فى أن يستعيد الحكم فى عهد نجيب واقتنع أخيراً من أن متابعة المحاولات لن تجدى ، خاصة وأن الفرس نفضوا يدهم من البابانيين بعد أن قرروا التخلى عن كل مطالبهم فى لواء السليمانية عند عقد معاهدة أرضروم الثانية .

وبرغم ذلك ظل راولنسون معلقاً الآمال على عودة أحمد إلى الحكم . وكان يرى فى عودته خدمة كبرى للمصالح البريطانية ، خاصة خلال حرب القرم . فقد دعا راولنسون حكومته إلى احتلال العراق العربى إذا حدث واتفقت الدول الكبرى على تقسيم الدولة العثمانية وفى هذه الحالة تصبح الإمارة البابانية وعلى رأسها أحمد بابان — صديق القنصل ورجله المفضل فى كردستان — هى الحد الشمالى لهذه المستعمرة البريطانية الجديدة(٢) . ولكن كل هذه الآمال ضاعت فى خضم العمليات العثمانية المنظمة نحو القضاء على حكم العصبيات الحاكمة . وبدأت الخطوات التنفيذية الأخيرة بالنسبة للبابانيين بعد عقد معاهدة أرضروم وفى أيام ولاية عبدى باشا (١٨٤٩) .

قرر عبدى باشا أن يقضى على الإمارة البابانية دون إثارة معارك ضد الكرد فاستدعى عبد الله إلى بغداد وعين مكانه ضابطاً من أصل كردى . ولعله قصد أن يكون أول حاكم يحكم السليمانية حكماً مباشراً من أصل كردى ليتعود الأكراد تدريجياً على الحكم المباشر . ولكن الأهالى اعتادوا — برغم استنزاف البابانيين لأموالهم — أن يحكمهم واحد من هذه الأسرة وخشوا — فى حالة إبعاد هذه الأسرة عن الحكم — ألا يجدوا من يحميهم من مظالم الترك أو من الجندية والضرائب فاستعان كرد السليمانية بعشائر

(١) Rawlinson to Canning No. 36. July 8, 1846. F.O. 195— 237. do-doSep29. 1846. F.O. 195-237.

(٢) Rawlinson to Addington. Jun. 14, 1853. F.O. 78—957.

الجاف لإسناد الحكم إلى محمد أمين ابن أحمد باشا . وفى الوقت نفسه كان عبد الله يتصل بالأكراد الموجودين فى الجيش ويحرضهم على الثورة . فأرسل عبد الله إلى الآستانة ووجهت القوات ضد الثوار الكرد . وانتصر العثمانيون ، ولكن تأججت الثورة مرة أخرى على يد عزيز بك بابان إلا أن ثورته لم تقو على الصمود أمام قوات العثمانيين المتزايدة فاضطر إلى أن يفر إلى الأراضى الفارسية ومن هناك أخذ يثير المشكلات فى وجه الحكم العثمانى دون جدوى وضاعت كل المجهودات البابانية من بعد . وتهيأت فرصة أخيرة لعبد الله لاسترداد إمارته عندما نشبت حرب القرم واستعانت به الدولة لجمع جيش لمقاومة الغزو الفارسى المنتظر(١) فقد كان العثمانيون يخشون من أن ينضم الفرس إلى روسيا خلال حرب القرم .

إلا أن رشيد الكوزالكلى — والى بغداد — رفض إعادته خشية أن ينتهز الأكراد ظروف حرب القرم العصيبة وينقلبوا ضد الدولة . كما خشى رشيد أن يفهم من إعادة عبد الله إلى الحكم أن الحكم العثمانى فشل فى إدارة السليمانية(٢) .

العشائر الكردية :

مهد سقوط الإمارتين الصورانية والبابانية أيضاً لتقوية قبضة الحكومة على العشائر الحافية(٣) وكانت هذه العشائر تقع على الحدود بين الدولتين

(١) Kemball to Canning. No. 6 (Feb 27, 1850) & No. 8. (Mch. 15, 1850) &, No. 19, June. 17, 1850) & No. 21 (July 3, 1850). F.O. 195—334.
وانظر متاعب حكومة بغداد مع فارس بسبب ثورة عزيز بك .
Sheil to Kemball. Aug. 28, 1850 F.O. 195—334 .Kemball to Canning No. 40. Nov. 20, 1850. Ibid.
وقد صدرت الأوامر لحاكم كرمنشاه بطرد عزيز بك من الأراضى الفارسية أو القبض عليه فتحرك عزيز بك إلى زهاو وربما لجأ إلى سعدون شيخ العبيد .
Kemball to Canning No. 40 Nov. 20, 1 850. F.O. 195-334.
وهكذا كانت معاهدة أرزروم من العوامل التى قضت على آمال بابان فى استرداد الحكم .

(٢) Ibid

(٣) انظر أقسام الجاف فى سياحتنامه : ص ٢٥١ ، عباس العزاوى : عشائر : ج ٢ ٧٧ وانظر كذلك تقرير درويش : ٢٩ — ٣٣ .

العثمانية والفارسية وكانت من العشائر التى أثارت الكثير من الأزمات بينهما قبل عقد معاهدة أرضروم ١٨٤٧ م ، ولكن بعد هذه المعاهدة حافظت على الهدوء النسبي . ويرجع هذا الهدوء أيضاً إلى ميل هذه العشائر إلى الزراعة ، فالاستقرار يوهن قوى العشائر ، ويمكن الحكومة منها . وساعد على تمكين الحكومة من السيطرة على هذه العشائر أنها لم تكن تحت قيادة واحدة وإنما كانت تحت حكم ثلاثة أمراء(١)، ولعل النزوع نحو الاستقرار كان العامل الرئيسى فى عدم وجود صراع أسرى بين أفراد البيت الحاكم . وقدرت الحكومة العثمانية مجهودات هؤلاء الأمراء فكانت تمنحهم الرتب (البكوية والباشوية) الأمر الذى كان يزيد من ارتباط هؤلاء الأمراء بالحكومة العثمانية(٢) . ومما لاشك فيه أن هذه العشائر الحافية — إذا ما قيست بغيرها من العشائر الكردية — كانت رزينة غير مشاغبة ومعنية بتنمية ثرواتها وكانت منطقة حلبجة من أهم المناطق التى استقرت فيها مجموعات كبيرة من العشائر الحافية لتعمل فى الزراعة ، ولكن ظل قسم من هذه العشائر على بداوته ، وكان بطبيعة الحال مثيراً للمتاعب. وقد استمرت هذه العشائر البدوية على بداوتها ولكنها خلال الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين أخذت تتحول بسرعة نحو الاستقرار والزراعة(٣) .

ولأمر ما بالغ عباس العزاوى فى الأمراء الحافيين ، لدرجة أنه يرى « أن هؤلاء ملائكة ... وهم فوق ماوصفت »(٤). حقيقة كانوا أقل العشائر متاعب للعثمانيين ، ولكنهم كانوا مثل غيرهم من عشائر الأكراد ينضمون أحياناً للفرس(٥) ويثورون ضد الدولة . ولقد أثارت هذه العشائر المتاعب

(١) هؤلاء الأمراء هم محمد بك ابن أحمد بك وقادر بك وكيخسرو بك . وكان الأخير أقوى الأمراء الثلاثة وكان نصف العشائر الجافية تحت إمرته : سياحتنامه : ٢٥١ .

(٢) عباس العزاوى : عشائر : ج ٢ : ٤٤—٤٥ .

(٣) Longrigg : Iraq 1900-1950. pp. 26,53, 57.
خلاصة تاريخ الكرد : ٢٨٨ — ٢٩٣ ، عباس العزاوى : عشائر : ج ٢ : ٤٤—٤٥ .

(٤) عباس العزاوى : عشائر : ج ٢ : ٤١.

(٥) خورشيد : سياحتنامه : ٢٥١ ، تقرير درويش : ص ٣٠ .

للدولة العثمانية غير مرة . فخلال حرب القرم كانت الدولة العثمانية تعمل على أن تستمر فارس على الحياد ، ولكن العشائر الجافية لم تراع سياسة الدولة فقد قامت قوات مسلحة من العشائر بمهاجمة أراض فارسية فى يوليو ١٨٥٣ ثم فى يوليو ١٨٥٤ مثيرة الفوضى هناك ، الأمر الذى يتيح لعملاء الروس أن يجدوا ثغرات يستطيعون الدخول منها إلى عشائر العراق لإثارة الفتن ضد الدولة العثمانية ، ونتيجة لذلك اضطرت الدولة العثمانية إلى أن تسمح للفرس بضرب هذه العشائر الجافية طالما كانت داخل الحدود الفارسية على ألا تتبع القوات الفارسية العشائر الجافية إلى ما وراء الحدود العثمانية(١).

وكما كانت عشائر الجاف نازلة فى المناطق المشتركة غير الواضحة الحدود بين الدولتين الإيرانية والعثمانية كانت كذلك عشائر البلباس . إلا أن الأخيرة كانت أشد بأساً وأكثر خطورة على الأمن فى منطقتها وكانت من عوامل إثارة الأزمات السياسية العنيفة بين الدولتين . وأغلب الظن أن ظهور إمارات كردية ذات عصبيات قوية فى منطقة كردستان والسليمانية أدى إلى أن تفضل عشائر البلباس توسيع نطاق أرضها على حساب الأقاليم الفارسية المجاورة . وعندما نشب الخلاف على أشده بين سلطات فارس والدولة العثمانية على تحديد الحدود بين البلدين كانت الغالبية العظمى من هذه العشائر قد فرت من وجه محمد باشا أمير راوندوز واستقرت فى أراض مشكوك فى تبعيتها للشاه ، لذلك بذل كل من خورشيد ودرويش باشا مندوبى الدولة فى لجنة الحدود مجهودات كبيرة — دون جدوى — لإثبات تبعية العشائر البلباسية للدولة العثمانية . ومع أن المفاوض العثمانى تنازل جزئياً عن التمسك بالبلباس فلا شك أن معاهدة ١٨٤٧ عقدت الموقف إذ قسمت هذه العشائر قسمين فى مقاطعة لاهيجان :

١ — القسم الشرقى تحت تصرف طائفة ماش ومنكور تحت حكم فارس .

Thomson to Clarendon. 22 July 1854. (Ind. O.R., F.R., P.P.G., (١)
Vol. 108 P; 594-602).
Thomson to Clarendon 21 Aug. 1854. Ibid. p. 703. & Vol. 105. pp. 101-113.
Rawlinson to Redcliffe. Aug. 9, 1853. F.O. 195-367.
„ „ „ 1 June. 1853. No. 14. F.O. 195—367.

٢ — القسم الغربى تحت تصرف طائفة « بيران ويرمك » البلباسية التابعة لكوى سنجق تحت حكم الدولة العثمانية (١) . وكل من القسمين كان يشتى فى أراض تابعة للسليمانية ويصيف فى فارس ، ولكن درويش باشا (٢) عدها كلها من توابع « كوى سنجق » أصلا وقدم فى تقريره من الروايات ما استدل منه على أن الحكومات الفارسية كانت منذ أيام نادرشاه تعتبرهم معتدين على الديار الإيرانية وأنه منذ ١٢١٥ هـ — ١٨٠٠ م أخذت سيطرة الحكومة الإيرانية تشمل جزءاً من العشائر البلباسية .

وليست العشائر البلباسية — مثل الجاف — تحت أسرة حاكمة واحدة وإنما يتولى كل عشيرة منها رئيس . ومن ثم كان التفكك فى البلباس أوضح وأعمق منه فى أية عشيرة أخرى (٣) وهذا التفكك فى الرياسة ووجود هذه العشيرة على الحدود الإيرانية العثمانية أدى إلى أن يشتد الخلاف بين الدولتين الفارسية والعثمانية على تحديد تبعية العشائر البلباسية وأصبحت مهمة إثبات هذه التبعية مجهدة للسلطات فى الدولتين ولقد ركز درويش (٤) اهتمامه فى أن يثبت أن طائفة منكور كانت عشيرة بلباسية عراقية تابعة لباشوية السليمانية على اعتبار أن الدولة الإيرانية كانت ترسل الجيش أثر الجيش ضد عشيرة منكور . ولكن السلطات الإيرانية غيرت هذه السياسة وتوددت إلى عشيرة منكور حتى وضعت يدها عليها وأعلنت تبعيتها لطهران فقضت

(١) تقرير درويش باشا : ٣٥—٣٦ .

(٢) قسم درويش باشا العشائر البلباسية إلى :

١ — منكور : قدرها درويش باشا بـ ١٢٠٠ بيت .
٢ — مامش : قدرها درويش باشا بـ ٤٠٠ بيت .
٣ — بيران : قدرها درويش باشا بـ ١٠٠ بيت .
٤ — سن : قدرها درويش باشا بـ ٤٠٠ بيت .
٥ — رمك : قدرها درويش باشا بـ ١٢٠ بيتاً .
٦ — هولمزبار : ذكرها العزاوى ولم تزد فى تقرير درويش باشا ولا فى سياحتنامه حدود انظر تقرير درويش باشا : ص ٣٦ — ٣٧ .

(٣) عباس العزاوى : عشائر العراق : ج ٢ : ص ١٢٢ .

(٤) مبعوث الباب العالى لمسح منطقة الحدود العراقية الإيرانية وتأكيد المطالب العثمانية هناك .

بذلك على حجج رجال الباب العالى . وكان الموقف فى يد أغا العشيرة . فهو الذى يستطيع أن يعلن تبعيته لإيران أوللدولة العثمانية وقد حاول درويش أن يتصل بالأغا قبل أن يعلن الأخير ولاءه النهائى للشاه . ولم ينجح درويش فى مهمته ، ويبدو أن أغا العشيرة – وقد شعر بالمطالب العثمانية تشتد – عمل على أن يقوى علاقاته بالسلطات الإيرانية(١) ومنذ ذلك الوقت وهى تحت الحكم الفارسى .

وتشترك عشائر الكلهر (٢) مع عشائر البلباس فى أنهما موضع نزاع شديد بين إيران والدولة العثمانية فعشائر الكلهر أيضاً تنزل مناطق الحدود ، وتفر إلى إحدى الدولتين كلما شعرت بضغط عليها . وكانت ثوراتها ضد حكام كرمنشاه الإيرانيين تقطع الطرق فى تلك الجهات ، وكانت بعض هذه العشائر تصل فى تقدمها شتاء حتى زهاو وهذه الهجرات الموسمية كانت عاملا رئيسياً فى وقوع العشيرة تحت رحمة الدولتين (٣).

العشائر اليزيدية :

إلى جانب هذه العشائر الكردية السالفة الذكر توجد مجموعة أخرى من العشائر الكردية جمعتها فكرة دينية واحدة تعصبت لها كل التعصب وهى مجموعة العشائر اليزيدية(٤) . وتختلف هذه العشائر اليزيدية عن بقية العشائر الكردية من حيث إنهم غالوا فى الأمويين وحقهم فى الخلافة حتى

---

(١) درويش باشا : ٤٠ – ٤١ .

(٢) سياحتنامه : ١٧٠ – ١٧٢ .
وانظر تاريخ هذه العشائر فى القرن السادس عشر والسابع عشر فى شرف خان البديسى شرفنامه : جـ ١ ص ٣١٣ – ٣١٨ .

(٣) لقد قصرنا البحث هنا على عشائر الجاف والبلباس والكلهر دون العشائر الأخرى العديدة نظراً لأن الصورة التى رسمناها لهذه العشائر تعتبر نموذجاً لتاريخ غيرها من العشائر الكردية النازلة على الحدود المشتركة بين الدولتين الفارسية والعثمانية .

(٤) يوجد اليزيديون فى العراق وفى فارس والشام وروسيا، وأما فى العراق فيتركزون فى منطقتى شيخان وسنجار : وأهم عشائرهم هى : الخوركان والجوانا والليبوات والخاتونية .
انظر الدملوجى : اليزيدية : ٢٢٦–٢٢٧ .
Layard : Discoveries. pp. 247-248.
Ainsworth : A Personal, Vcl. II, p. 327.

قيل إنهم ينسبون إلى يزيد بن معاوية . والمؤسس الأول لهذه النحلة رجل تقى يدعى عدى بن مسافر رحل من الشام إلى منطقة العشائر اليزيدية وأخذ يدعوهم إلى الدين القويم . وخلال مجهوداته هذه دعا الناس إلى مقاطعة اللعن تمهيداً لمنع هذه البدعة التى كان يتمسك بها الشيعة .

وقد تبعه عدد كبير من الكرد وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم اليزيديين . ولكن بعد وفاة عدى بن مسافر تولى الدعوة من لم يكن على علمه ولذلك دخل الغلو طريقة عدى . فحرم على اليزيدية اللعن كما حرم عليهم نطق أية كلمة تتشابه مع كلمة لعن أو تؤدى معناها . ثم رفعوا عدى بن مسافر وكبار دعاتهم إلى مصاف الملائكة ، بل إن عدياً فى نظرهم حلت فيه روح من الله . وكان على رأس هؤلاء الملائكة طاووس ملك . وطاووس ملك هذا اسم أطلقوه على إبليس لأن كلمة إبليس وشيطان محرمة عليهم حيث إن إبليس والشيطان ملعونان .

وكانوا يعتقدون أن إبليس على جانب كبير من القوة لأنه استطاع أن يعصى أمر الله له بأن يركع لآدم . ومن ثم كان إبليس فى نظرهم هو القادر على أن يصيب الناس بالأذى وأنه هو الذى يجب أن يتجنبوا غضبه . فقدسوه وعملوا له تماثيل (سناجق) كانوا يطوفون بها بين العشائر اليزيدية لجمع التبرعات .

وينقسم اليزيديون إلى عدة طبقات تتميز كل طبقة منها عن الأخرى تماماً وهذه الطبقات هى طبقة البير والبسمير والكواجك والمريدين . وعلى رأس هؤلاء الأمير وبابا شيخ . والأمير هو رئيس الملة وقدوتهم فى الأحكام الدينية وينحدر الأمير من أسرة تتصل ببيت عدى بن مسافر وسلطته مطلقة وكلمته لاراد لها ويحصل على منصبه بانتخاب على نطاق ضيق لا يشترك فيه سوى أسرته فقط . ويجمع الأمير فى يديه السلطتين الزمنية والدينية . وزاد من قدسيته أنهم يعتقدون أن جزءاً إلهيا من عدى بن مسافر يحل فى جسد الأمير . ولكن هذا لم يكن يمنع من وقوع صراع من وقت لآخر بين الطامعين فى الإمارة ، والدافع الأول لنشوب هذا الصراع هو الطمع فيما يحصل عليه الأمير من الأموال التى تجمع باسم طاووس ملك من اليزيديين ، كذلك من

الصدقات والتبرعات ودخل القرى الموقوفة على الشيخ عدى كما يحصل على مهر الفتيات اللائى يتزوجن وليس لهن من يتولاهن وتدفع له الغرامات التى تفرض على من يخالف الشريعة والرسوم المفروضة على رعاة الأبقار فى بعض القرى . والمتعارف عليه ألا يراجع أحد الأمير فى مصروفاته ، على أنه مسئول عن أضرحة عدى وغيره من شيوخ اليزيدية كما يدفع بعض الأموال للمعوزين(١) .

ولما كانت سلطة الأمير القضائية مطلقة ولا يمكن مناقشة أحكامه كان منصب الإمارة بما يحوطه من أبهة وسلطان ودخل وفير نسبياً محط آمال أسرة الإمارة وسبباً فى فتن أوهنت قوى اليزيديين (٢) .

وأغلب الظن أن الإمارة ظلت منحصرة فى الأسرة العدوية من ذرية الشيخ حسن حتى مطلع القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) وحتى وقعت اضطرابات فى منطقة أربل أدت إلى جلاء يزيدية تلك المنطقة إلى « شيخان» واستطاع واحد من أسرة الشيخ أبى بكر أن ينتزع الإمارة من بيت الشيخ حسن الذى أصيب بضعف أعجزه عن المحافظة على مكانته . فكان هذا سبباً فى أن يصبح أبو بكر رأس الأسرة الحاكمة الجديدة(٣).

والبسمير يلى الأمير مباشرة . وهيئة البسميرية بمثابة مستشارى الأمير . فهم المسئولون عن القيام بالمراسيم الدينية فى مختلف القرى . ولما كانت موارد البسمير أقل من موارد الأمير وأقل من موارد الطبقات الدينية الأخرى أصبح البسمير فى مكانة ضعيفة ، وأخذت أعدادهم تتناقص حتى لم يعد يبقى منهم فى القرن العشرين إلا عدد قليل . ونزح بعضهم إلى روسيا .

والطبقة الثالثة هى طبقة الشيوخ . وهؤلاء يعتقدون أن جزءاً إلهياً من يزيد بن معاوية يحل فيهم . وأنهم لذلك كانوا على مقدرة كبيرة فى

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ اليزيدية : ٩١ ، الدملوجى : اليزيدية : ١٦–١٨–٣٦ .

(٢) صديق الدملوجى : اليزيدية : ١٦–١٨ العزاوى : تاريخ اليزيدية ٩١ .

(٣) صديق الدملوجى : اليزيدية : ٢٠–٢١ .

توجيه الأمور . وينحصر الشيوخ فى أسر ثلاث حرم عليها أن تتزوج ممن عداها(١) .

والشيوخ يقومون كذلك بإنشاء التربية بالعراتيل وهم وحدهم المصرح لهم بقراءتها . ويرتدون ملابس بيضاء فيما عدا قطعة من القماش الأسود فى عمامة الشيخ ويتمنطقون برباط أحمر وأصفر ليتميزوا به عن بقية الطبقات . وهم خدام وحراس مزار الشيخ عدى ويعنون باستمرار اشتعال النار فيه ويستقبلون الحجاج ويبيعون الأشياء المقدسة لهم(٢) .

وعلى رأس هؤلاء المشايخ « بابا شيخ » أوالشيخ الأكبر . ويحصل على منصبه هذا بعد موافقة الأمير . وهو بمثابة المستشار الدينى له . ويتولى أمر سجادة تنسب للشيخ عدى لايخرجها إلا فى أيام خاصة ، مثل عيد الجماعية عندما يذهب بها إلى مرقد عدى فيتسابق اليزيديون فى تقديم العطايا لها .

ومن وظائفه الإشراف على زاوية الشيخ عدى وإعمار ما تهدم منها . ولبابا شيخ وحده الرأى فى الأمور الدينية كتحديد الصوم والصلوات والتحريم إلى غير ذلك (٣) حتى إن البعض يقول إن من لايطيع أوامره يستباح بيته وأمواله (٤) .

ويلى الشيخ فى المرتبة طبقة كوجك وأكثرهم فى سنجار وقلة منهم فى شيخان . وهؤلاء الكواجك يتبعون «بابا شيخ» وهو الذى يدبر أمرهم ويعلن أحقية اليزيدى فى أن يكون « كوجك» . ويعتقد اليزيديون أن لدى الكواجك القدرة على الاتصال بالملكوت الأعلى(٥) .

وبطبيعة الحال كان مجال الاندفاع فى ميدان الشعوذة واسعاً أمام الكوجك

---

(١) وهى أسرة أوانى وأسرة شمسانى وأسرة قاتانى .

الدملوجى : اليزيدية : ٣٧–٤٤ .

(٢) Layard : Nineveh and its Remains. Vol. I. pp. 303-304.

(٣) بعض المؤلفات تقول إن الشيوخ طبقة وإن هناك طبقة أخرى تسمى «البير» وقد تبين لنا أنه ليس هناك طبقتان وإنما طبقة الشيوخ هى طبقة البير .

(٤) الدملوجى : اليزيدية : ٤٠ .

(٥) سليمان صايغ : تاريخ الموصل ج ١ : ٢٩٧ .

بسبب طبيعة مهمته إذ كان المعتقد أنه قد يظهر منهم المهدى . وبمرور الزمن أصبحت لهم مكانة خطيرة فى النفوس ويمكننا أن نشبههم بما لدينا الآن من (شيوخ عرافين)(١) . ونظراً لأن الكوجك هو القادر على إثارة نفوس اليزيدية كان منهم زعماء الثورات(٢) .

والطبقة الأخيرة من رجال المذهب اليزيدى تتألف من القوالين . والقوال هو الفصيح وهو الذى يقوم بترتيل الأناشيد فى الحفلات والمواسم والزيارات وعند دفن الموتى . وكان فى عهد عدى بن مسافر يسمى بالحاوى .

ونظراً لأنهم يصاحبون سناجق طاووس فى تطوافه بين قرى اليزيدية وعشائرها المتناثرة أصبحوا على دراية بأحوال الناس وعلى مقدرة فى التفاهم معهم . فاتخذهم الأمراء سفراء لهم لدى عشائر اليزيدية البعيدين عن سنجار (٣). وينحصر القوالون فى أسرتين واقتصروا على التزاوج فيما بينهم حتى أصبحوا مهددين بالانقراض مما دعا بابا شيخ إلى أن يفتى بإباحة تزوجهم من صنف المريدين (٤) . والقوالون من أنشط رجال المذهب اليزيدى وهم يقومون بتعليم اليزيديين مذهبهم . وهم وحدهم الذين يطلقون أنغام الناى ودقات الدفوف . والقوالون يدربون أطفالهم على الناى والدف منذ وقت مبكر ليمهروا فيه (٥) .

ودخل القوالين يأتيهم من التزام السنجق (طاووس ملك) وكذلك من بيع (البراه) وهى فى حجم (الحرزة) يصنعها القوالون من تراب مرقد الشيخ عدى إذ يحتم على كل يزيدى أن يحمل (براة) ليدفع بها الضر عن نفسه ويقبلها فى الصباح وفى المساء .

أما المريد فهو خارج عن صفوف الروحيين ، وعليه قيود شديدة

---

(١) الدملوجى : اليزيدية : ٥٤ – ٥٦ .
(٢) العزاوى : تاريخ اليزيدية : ١٨٠ .
(٣) الدملوجى : اليزيدية : ٥١ – ٥٢ .
(٤) الدملوجى : اليزيدية ٥٢ .
(٥) Layard : Nineveh & its Remains. Vol. I. pp. 304-305.

فقد فرض عليه الخضوع للطبقات الروحية حتى يمهدوا لهم الطريق ليصبحوا من زمرة يزيد الناجية (١) .

ولليزيديين مزاراتهم العديدة المنتشرة فى كردستان، ولكن يعتبر قبر عدى بن مسافر أقدس هذه المزارات . ولقد جعلوا طقوس زيارته مشابهة إلى حد كبير لحج المسلمين إلى مكة وزيارة المدينة (٢) .

تلك كانت الأحوال المذهبية لهذه العشائر اليزيدية . ومعظم تقاليدهم المذهبية تؤدى إلى أن يجعلوا من أنفسهم طائفة ممتازة تسمو على بقية البشر . وأما طوائف العراق وأهله بصفة عامة فكانوا يكرهونهم . فشيعة العراق تكرههم لأنهم ينتسبون إلى يزيد بن معاوية ولأنهم يميلون إلى الأمويين . وسنيو العراق يبغضونهم لخروجهم عن مبادئ الإسلام . وصدرت ضدهم بسبب ذلك فتاوى استحلت دماءهم وعدتهم طائفة كفرت بالإسلام . وقد نكبهم العثمانيون والمماليك ودار صراع شديد بين اليزيديين وجيرانهم من الأكراد والعرب فزاد ذلك من عزلتهم فى جبالهم ومن عمق التباغض بينهم وبين بقية الناس .

ونحن حين نتعرض لتاريخ اليزيدية نجد أنفسنا أمام كتلتين يزيديتين يختلف تاريخ كل منهما ويتشابه إلى حد ما . وتفصل الموصل ونهر دجلة بين الكتلتين . الأولى : هى يزيدية شيخان ، والثانية : هى يزيدية سنجار. ولما كانت السلطات الحاكمة فى كل من بغداد والموصل والآستانة تنظر إلى اليزيدية فى المنطقتين على أنهما كتلة واحدة رأينا أن ندمج تاريخى شيخان وسنجار معا .

استطاعت العشائر اليزيدية أن تثبت فى وجه الهجمات التى كان يشنها

---

(١) اليزيدية ٥٣ .
(٢) انظر Layard : Nineveh & its Remains. Vol. I. pp. 282-300.
Layard : Discoveries. pp. 82-83.
عباس العزاوى : تاريخ اليزيدية : ٨١–٨٦ .
سليمان صايغ : تاريخ الموصل : جا : ٢٩٩ – ٣٠١ .
الدملوجى : اليزيدية : ٢٠٣–٢١٠ .

عليهم ولاة بغداد وولاة الموصل من وقت لآخر . ولم يكن الغرض من وراء هذه الحملات إعادتهم إلى الإسلام بقدر ما كانت لوقف تعدياتهم على خطوط المواصلات بين العراق والشام والأناضول التى كانت تحت رحمتهم(١) .

ومع تعدد المعارك بينهم وبين الإمارات الكردية المجاورة لهم لم تدر فى أرجاء العراق سوى معركتهم مع عبد الباقى الجليلى والى الموصل فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى (أوائل القرن التاسع عشر الميلادى) فى عهد سليمان الكبير والى بغداد (١٧٧٩–١٨٠٧) ، كذلك توالت الحملات التى شنها ولاة المماليك حتى عهد داود باشا . وبعد عهد داود باشا تعرضت اليزيدية لخطر شديد .

فقد كان على بك — أمير اليزيدية — متمتعاً باستقلاله الذاتى خلال الأيام الأخيرة لداود باشا وبعد انتهاء حكمه ، ولكن بدأت قوة راوندوز تقوى خلال تلك الفترة وكان أن شرع ميركور فى التوسع على حساب الإمارة البابانية جنوباً كما توسع شرقاً ديار اليزيدية فى شيخان فاصطدم بقوة اليزيدية وتطور النزاع إلى أن استجار أحد الأكراد بميركور من عدوان اليزيدية فجرد ميركور جيشاً كبيراً زحف به إلى شيخان(٢) وكان تفوق الجيش الراوندوزى فى العدد واضحاً فقضى على يزيدية أربل (خريف ١٨٣٢ م — ١٢٤٨ هـ) وأخذ يدمر القرى اليزيدية الواحدة إثر الأخرى بينما كانت جموع اليزيدية تسرع الخطا نحو الموصل لتحتمى بها ، وكان والى الموصل حينذاك محمد سعيد باشا الذى فتح — لأمر ما — القنطرة المقامة على دجلة والموصلة إلى المدينة فتجمع اليزيديون على الضفة اليسرى للنهر وحول تلال كويونجيك(٣) ولحق بهم أمير راوندوز هناك . ومن أعلى أسطح منازل الموصل شاهد السكان مذبحة مروعة كان فيها الضحايا

(١) خورشيد — سياحتنامه : ٣١٢ .

(٢) الدملوجى : اليزيدية : ٤٦١–٤٦٤ .

(٣) المنطقة الأثرية التى ينقب فيها لايارد Layard

يتوسلون إلى الموصليين أن ينقذوهم دون جدوى . ويفسر لنا لايارد السبب فى الموقف السلبى الذى وقفته السلطات المسئولة إزاء هذا التعدى من جانب ميركور على سلطات الموصل بأن المسلمين والمسيحيين كانوا مغتبطين بنهاية هذه الجماعة الكافرة(١) . أضف إلى هذا أن سوء سمعة اليزيديين ومصرع أحد ولاة الموصل منذ وقت غير بعيد على يدهم وخوف محمد سعيد باشا والى الموصل من أن ينساب تيار الجيش الراوندوزى إلى الضفة اليمنى للنهر، كل هذا كان من العوامل التى سدت فى وجوههم سبل الإنقاذ من هذه النكبة التى يقال إنهم فقدوا فيها ١٠٠ ألف نسمة وأن ٥٪ من هذه الكتلة اليزيدية هو الذى استطاع أن ينجو منها (٢) وحتى على بك وقع فى الأسر وأعدمه أمير راوندوز (٣) .

أصيبت ديار اليزيديين بتدهور اقتصادى كبير بعد نكبة ميركور لهم . ومن سوء حظهم أن الدولة العثمانية قررت القضاء على ميركور وكانت الخطوات الأولى لضرب الإمارة الصورانية هى ضرب العشائر الواقعة على أطراف الإمارة كمقدمة لغزو الإمارة نفسها . وفعلا وجهت الضربة الأولى إلى العشائر اليزيدية الخاضعة لميركور »(٤) ومع ذلك ظلت العشائر اليزيدية — حتى بعد مصرع مير كور — تؤرق مضاجع العثمانيين فى وقت كانت فيه الجيوش العثمانية تستعيد قواها لخوض المعركة الحاسمة ضد الجيوش المصرية فى الشام . فبعث رشيد باشا وحافظ باشا — قواد الجيش العثمانى — بحملات متتالية فى (١٨٣٤م — ١٢٥١ هـ) و (١٨٣٥ م — ١٢٥٢ هـ) وبعث

(١) Layard : Nineveh & its Remains. Vol. I. pp. 276-277.

(٢) يقول الدملوجى إن الأمير على فر إلى الجبال حتى قبض عليه إينجه بيرقدار وأعدمه كخطوة من خطة للقضاء على زعماء الكرد ولا أدرى مصدره فى هذه النقطة بينما لايارد المعاصر للحادثة يخالفه — الدملوجى : اليزيدية : ٤٦٩ .

(٣) Layard : Nineveh & its Remains. Vol. I. pp. 267-277.

(٤) Layard : Discoveries. pp. 46.

سليمان صايغ : تاريخ الموصل ج ١ : ٣١١ .

محمد اينجه بيرقدار – والى الموصل – بحملة ضد اليزيديين فى ١٨٣٨ م ١٢٥٥ هـ كانت شديدة الوطأة عليهم (١) .

كذلك تابع ولاة الموصل حملاتهم ضد اليزيديين لتقوية قبضتهم عليهم وإخضاعهم للتنظيمات العثمانية وخاصة التجنيد . وكانت حملات كريتلى محمد باشا أعنف الحملات ضدهم (٢) وتلتها حملات طيار باشا (١٨٤٥). هذا إلى أن العثمانيين بدأوا فى تطبيق القرعة العسكرية عليهم .

وأراد اليزيديون أن يجدوا لأنفسهم مخرجاً من هذه التكاليف الجديدة عن طريق إظهار أن معتقداتهم تحول دون تجنيدهم . فقد ادعوا أن اللون الأزرق – وهو لون زى الجند العثمانى الجديد– محرم لديهم . كما ادعوا أن العقيدة اليزيدية تحرم أن يستحم يزيدى مع مسلم وأن بعض الأغذية محرمة عليهم(٣) .

وجد زعماء اليزيديين أن أنجح وسيلة للتهرب من الجندية هى الاستعانة بذوى النفوذ من الإنجليز فى سبيل توصيل التماسهم إلى السلطان فى الآستانة ؛ وتولى حمل هذا الالتماس القوال يوسف (صديق لايارد) . والتقت البعثة اليزيدية بهنرى لايارد فى الآستانة . فأسرع «لايارد» إلى عرض المسألة على كاننج S. Canning السفير البريطانى الذى قدم تقريراً عن متاعب اليزيديين للباب العالى .

ويحدثنا لايارد Layard عن أن هذه الوساطة تمخضت عن صدور فرمان يحررهم من القيود غير القانونية ومن بيع أطفالهم كعبيد وعن منحهم حرية العبادة ومساواتهم بغيرهم من طوائف الدولة العثمانية . ويقال إن هذا الفرمان وعد باتخاذ تدابير تخلص اليزيديين من الكثير من قوانين التجنيد .

(١) Layard : Nineveh & its Remains. Vol. I. pp. 277-279.
الدملوجى : اليزيدية : ٤٩٨ – ٤٩٩ .
سليمان صايغ : تاريخ الموصل : جـ ١ : ٣١٧ .
(٢) Layard : Discoveries. p. 425.
(٣) Layard : Discoveries. p. 3.

وبغض النظر عن مبالغة لايارد فى إبراز الدور الذى لعبه الإنجليز لصالح اليزيديين فإن موقف لايارد من القضية اليزيدية ودفاعه عنهم كان له أثره البالغ من حيث شدة احترامهم له وفى ارتفاع النفوذ الإنجليزى بين اليزيديين إلى درجة كبيرة(١) .

كان نشاط لايارد يرمى إلى توحيد قوى اليزيديين وهى سياسة دأب الإنجليز على اتباعها إزاء طوائف العراق وعصبياته لتكون أدوات يستغلونها فى الوقت المناسب (٢) .

وتسكت المراجع عن أنباء اليزيديين وكان الجبل قد تمتع بهدوء شامل طيلة السنوات التى أعقبت ١٨٥٠ حتى ١٨٦٣–١٨٦٤ عندما عاد اليزيديون إلى السلب والنهب . وأغلب الظن أن الولاة قبل مدحت أهملوا تمرد اليزيديين مما أدى إلى أن يزداد هؤلاء فى غيهم سنة بعد أخرى وظلوا على هذا النحو زهاء خمس أو ست سنوات حتى جاء مدحت باشا إلى الموصل وقرر أن يطهر خطوط المواصلات من عبثهم وأن يأخذ منهم اللائق للجندية وأن يخضعهم لقوانين الدولة . ولذلك انتهز مدحت فرصة غدر اليزيديين فى سنجار باثنين من القصابين فجرد حملة على سنجار باسم المطالبة بالقتلة.

جمعت القوات من الموصل وماردين وشهرزور وكانت معها بعض قطع المدفعية فلما وصلت الحملة إلى جبل سنجار اضطرب رجالهم وكانوا يعتقدون أن عسكر اليوم مثل عسكر الأمس ينهبون ويحرقون ويهتكون . ولكنهم لم يلبثوا أن أدركوا أن الأمر غير ذلك وأن المطلوب هو الجناة فقط .

لم يسع اليزيديين هذه المرة إلا أن يسلموا الجانين للعسكر وأخذ عدد من القادرين على الجندية ووضعوا فى سلك النظام بطريق القرعة كما حصّل منهم مدحت باشا ماعليهم من أموال للحكومة فكانت هذه أنجح حملة وأغلب الظن أن وجود ٤ مدافع كان هو العامل الحاسم فى الموضوع (ربيع الأول ١٨٦٩) .

(١) Ibid. p. 4.
(٢) Ibid. pp. 250-266.

وجد مدحت أن المنطقة تحتاج كذلك إلى تعديل إدارى يسهل على الحكام السيطرة على هذه المنطقة الخطرة ولذلك وضع قوة عسكرية دائمة فى تلعفر كما كان يرى ضرورة تحويل تلعفر إلى قائمقامية وأمر بأن يجدد مبنى دار الحكومة فيها(١) .

وظلت هذه الأقلية اليزيدية تعيش تحت الحكم العثمانى المباشر متمسكة بتقاليدها برغم المجهودات التى بذلت لتحويلهم عن عقائدهم(٢) .

اختلفت نتائج المجهودات العثمانية للسيطرة على الإمارات الكردية عنها بالنسبة للعشائر الكردية . فلقد خضعت الإمارات الكردية تماماً للعثمانيين وتولى الحكم فيها موظفون من الأتراك وأدخلت الإدارات الجديدة إلى هذه الإمارات ، أما بالنسبة للعشائر فكل ماطرأ عليها هوأنها أصبحت أكثر خضوعاً للحاكم العثمانى ، ولكن ظلت المشيخة موجودة لدى العشائر الكردية وكذلك ظل الأمير هو الحاكم فى العشائر اليزيدية فظلت هذه العشائر عصبيات واضحة فى العراق .

وكانت الحكومة العثمانية بعد أن تقضى على الإمارة الكردية تنفى رجال البيوتات الحاكمة إلى بغداد أو إلى الموصل أو الآستانة وترصد لهم مرتبات منتظمة من خزانة الولاية ليعيشوا عليها حتى لايتطلعوا إلى العودة إلى المطالبة بحقهم فى الحكم . أما أمور الإدارة فكانت تسند إلى الموظفين الترك وإلى جند « الهايتا » (٣) وذلك فى المدن فقط نظراً لأن سيطرة الحكومة على العشائر الكردية كانت ضعيفة جداً . وتركت أمور العشائر الداخلية لنفسها . وجنت الحكومة العثمانية من وراء القضاء على الإمارات الكردية عدة فوائد هامة :

١ — أصبح التدخل الفارسى أقل من ذى قبل والتزمت حكومة الشاه بدرجة أكبر بنصوص الاتفاقات المعقودة بين البلدين . وأصبح كل نزاع بين سلطات فارس وسلطات العراق يرفع مباشرة إلى مستوى المفاوضات

(١) عباس العزاوى : تاريخ : ٧ : ١٧٣—٤ .
(٢) المصدر السابق : جـ ٨ : ١١٩—١٢٠ .
(٣) يسمون كذلك الباشبوزق وهم من الجند المرتزقة .

الدولية دون أن تترك الأمور — كما كان عليه الأمر من قبل — للسلطات المحلية لعلاج هذه الأمور بأساليبهم التى درجوا عليها خلال القرون الماضية .

٢ — كان القضاء على هذه الإمارات من العوامل الرئيسية التى خففت مجهودات الولاة العسكرية التى كانت تبذل سنويا فى قتال الإمارات الكردية المتمردة .

٣ — إن عودة الحكم المباشر إلى المدن الكردية فرق كلمة الكرد أكثر من ذى قبل ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يوحد كلمتهم بالتدريج تحت هدف معين هو التخلص من الحكام الترك .

٤ — كان إضعاف نفوذ شيوخ العشائر الكردية والأمراء الكرد من العوامل الرئيسية التى ضيقت مجال نشاط الدبلوماسيين الإنجليز وبالتالى كان هذا من عوامل إضعاف النشاط السياسى الأجنبى فى داخل البلاد . بينما أصبحت البلاد الكردية مفتوحة على مصراعيها أمام المبشرين .

سيطرت الدولة العثمانية سيطرة قوية على كردستان وطبقت فيه نظم الحكم المباشر على أن الحكم أصبح بيد باشا عثمانى يعاونه عدد من الموظفين على رأسهم متصرف وكاتب وقاض ومحاسب دون أن يصاحب هذا التغير تبديل جوهرى فى حياة البلاد الاقتصادية أو السياسية . ويمكن القول بأن الأفندية الترك حلوا محل البكوات وحلت قوة تركية محل القوة الوطنية .

وليس معنى هذا أن الأسرات الحاكمة انعزلت تماماً عن المشاركة فى الحياة الاقتصادية أوالاجتماعية فى بلادها . إذ أنها خدمت بلادها والدولة العثمانية فى عدة ميادين واستخدمتها الدولة أدوات لتثبيت حكمها . فبعض أفراد الأسرة البابانية والأسرة البوتانية شغلوا مناصب عديدة فى العراق نفسه وفى الآستانة وغيرهما من كبريات المدن العثمانية .

والمعروف أن شخصيات بابانية عديدة لعبت أدواراً عظيمة الشأن فى تاريخ العراق حيث عملوا كوزراء فى الحكومات الملكية العراقية . وفى

ميدان الصحافة والأدب وكان لتلك الأسرات باع طويل فى تطوير الاتجاهات نحو الوطنية العراقية(١) .

وكانت أول صحيفة كردية تصدر فى استانبول ١٣١٥ هـ — ١٨٩٧ م بفضل مدحت بك حفيد بدرخان الثائر المشهور(٢) .

فهل أدت تصفية الإمارات الكردية والقضاء على الأسرات الحاكمة فى السليمانية والعمادية وراوندوز وجزيرة ابن عمر إلى حل نهائى للمشكلة الكردية بصفة عامة ؟

الملاحظ أن الصراع بين الإمارات الكردية وحكام بغداد ، ذلك الصراع الذى كان أمراً عادياً خلال الحكم العثمانى حتى منتصف القرن التاسع عشر ، أصبح قليلاً جداً . ويمكننا أن نقول إن كردستان دان للعثمانيين وهدأت أموره واستقر وكف رجاله عن المغامرات العسكرية . ومن ثم كان الفضل للحكم المباشر فى أن ينشر السكينة فى تلك الربوع . ولكن كان هناك تطور يعمل عمله فى توجيه التفكير بين الأكراد . فقد أدت السيطرة العثمانية على

---

(١) من هؤلاء الذين خدموا الدولة العثمانية بعد القضاء على إمارتهم محمد رشيد باشا بابان وهو ابن سليمان بابان . ولد فى ١٢٣٧ هـ — ١٨٢٤ م وتنقل فى الوظائف حتى صار متصرفاً على ألوية الحله والمنتفق وتعز ودير الزور ثم والياً على بتليس (١٢٩٩ هـ — ١٨٨١ م) ثم أحيل إلى المعاش فى ١٣٠٣ هـ — ١٨٨٥ م وتوفى بالآستانة فى ١٣١٣ هـ — ١٨٩٥ م .

انظر : محمد أمين زكى : مشاهير الكرد وكردستان : جـ ٢ : ص ١٥٥ .

ومنهم قادر باشا بابان الذى عينه نجيب باشا — والى بغداد — حاكماً على الإمارة البابانية بعد ترحيل أحمد باشا إلى الآستانة .

انظر : المرجع نفسه : جـ ١ ص ١١١ .

ومنهم ابن أحمد باشا سالف الذكر . عين مدرساً للجغرافيا والتاريخ فى المدرسة الإعدادية العسكرية بعد تخرجه فى المدرسة الحربية فى الآستانة فى ١٢٧٧ هـ — ١٨٦٠ . ثم عين عضواً فى لجنة التحكيم بقلعة أرضروم . وعمل بعد ذلك فى السلك الدبلوماسى العثمانى فى لندن وفى باريس ، كما عين سفيراً فى طهران ١٣٠٢ هـ — ١٨٨٤ م ووالياً على أطنه . واستقال ثم نفى فى ١٣١١ هـ — ١٨٩٣ م .

انظر : محمد أمين زكي مشاهير الكرد وكردستان : جـ ١ : ٨٨ .

(٢) بعد مرضه أصدرها أخوه عبد الرحمن فى القاهرة ثم فى جنيف ثم صدرت فى فولكستون ولندن وأخيراً ظهرت على يد ثريا بك بدرخان فى الآستانة .

انظر : محمد أمين زكى : خلاصة تاريخ الكرد : ٣٧٠ .

كردستان إلى أن يظهر إلى الوجود بلاد كردية متحدة تحت حكم عثمانى وهذا ما لم يحدث إلا بعد النصف الأول من القرن التاسع عشر . ولم يعد الكردى مرتبطاً بالعصبية التى كانت تحكمه على تلك الصورة التى مرت بنا ، بل أصبح مرتبطاً برباط قوى بكردستان وبالكرد كله بصفة عامة . وبدأ الجنس الكردى يشعر بوجوده وكيانه وبتميزه عن بقية العناصر البشرية فى العراق سواء الحاكمة منها أو المحكومة . ولذلك بدأت الحكومة العثمانية تواجه نمواً مطرداً فى الروح القومية الكردية فى الوقت الذى كانت فيها القوى العثمانية عاجزة عن أن تتغلب على الحركة العربية المنتشرة فى الشام والعراق .

ولما دخل الإنجليز الحرب ضد العثمانيين (١٩١٤) عملوا على كسب الكرد إلى جانبهم ووعدوهم بدولة كردية . وهكذا مهد القضاء على الإمارات والعصبيات الكردية فى منتصف القرن التاسع عشر إلى نمو الروح القومية بين الكرد ليستغلها الاستعمار فى العمل على تفكيك العراق إلى قوى داخلية متناحرة .

الفصل الرابع

مشكلة العشائر العربية فى العراق

١ — دراسة لأهم العشائر العربية

٢ — الصراع بين الحكومة العثمانية
والعشائر العربية ١٨٣٠ — ١٨٦٨ م .

الفصل الرابع

مشكلة العشائر العربية فى العراق

دراسة لأهم العشائر العربية :

كانت العشائر العربية موطن القوة تارة لحكومة العراق العثمانية عندما تتعاون معها ضد أى خطر خارجي وموطن ضعفها تارة أخرى بسبب تعدد ثوراتها . فملأت أحداثها أسماع الشرق الأدنى . ثم بدأت هذه الأحداث فى التاسع عشر تثير انتباه أوربا . إذ أصبحت هذه العشائر تسيطر على أحد طرق التجارة والبريد والمواصلات . وكانت طرق المواصلات بين الشرق والغرب عبر العراق قد دخلت ميدان التنافس الدولى من أوسع أبوابه(١) .

ولأحوال العشائر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أهمية خاصة لأنها تشكل أغلبية سكان البلاد وصادفت تجربة التحول من المجتمع البدوى إلى الريفى خلال القرن التاسع عشر بعد تلك القرون الطويلة من التمسك بالعصبيات البدوية القوية . والفترة التى نحن بصددها فترة انتقال — بالنسبة لعدد كبير من العشائر — إلى الريف . وكانت فترة عصيبة للبدوى . فهو بتقاليده يكره

---

(١) عنى عدد ليس بالقليل من الأوربيين والعرب والأتراك بدراسة أحوال هذه العشائر فى الفترة بين ١٨٣٢–١٨٧٢ وقدموا لنا مجموعة قيمة من هذه الدراسات . فصدرت عدة مؤلفات هامة فى القرن التاسع عشر عن عشائر العراق بعضها وأهمها من تأليف بعض الرحالة من ذوى الأهداف السياسية أو العلمية من أمثال : خورشيد باشا صاحب كتاب سياحتنامه حدود ، ودرويش باشا صاحب التقرير المشهور عن الحدود . وكلاهما تركيان ومن الإنجليز جسنى ولايارد وجونز والإنجليزية آن بلنت F.R. CHESNEY; H. LAYARD; JONES; A. BLUNT والفنلندى ليكلاما LYCLAMA NIJHOLT والقنصل الفرنسى فونتانييه FONTANIER وسنحاول أن نقدم دراسة متكاملة عن أوضاع هذه العشائر فى ولاياتها المختلفة مع الاحتفاظ بالتسلسل التاريخى لأحداثها خلال الفترة التى نحن بصددها .

الفلاحة وأهل الحضر ، وأهل المدن يحذرونه ولا يعاملونه إلا بميزان الربح والخسارة(١) . وكانت طبيعة العراق تزيد من ذلك التنافر لا بين البدوى وأهل الأرياف والمدن فحسب ، بل كذلك بين العصبيات البدوية نفسها . فى العراق مراعى الكلأ القصير تعيش عليها الأغنام . وأطلق على رعاتها اسم « الشاوية » وبالقرب من المستنقعات ودجلة والفرات وروافدهما وفروعهما العديدة تنمو أعشاب الكلأ الطويل الذى ترعاه قطعان الجاموس . ورعى هذه القطعان كان محتقراً جداً لدى معظم البدو ، بل أدى هذا إلى أن تتبرأ عشائر عراقية من الصلبة — رعاة الجاموس — ورموهم بأصول فارسية أوهندية (٢) .

وعلى أطراف الأرياف كانت تموج عشائر الصحراء فى حركة منتظمة خلال الشتاء لوفرة العشب ثم يأتى الصيف وتقوم العشائر « بالغزو » لتسد حاجتها ، ولأن الصيف يرغم معظم العشائر على أن تضرب خيامها فى بقعة معينة فيسهل تدبير الهجوم عليها (٣) . وقد تستطيع العشيرة البدوية أن تصد الغزو ، ولكن يصعب ذلك على أهل الأرياف كما أن الإدارة المحلية كانت أضعف من أن توقف هذا العدوان بشكل حاسم . ومن ثم كان التحول إلى الزراعة

(١) عبر حافظ وهبة عن رأيه فى البدوى فى القرن العشرين بقوله: «ليس للبدوى قيمة حربية تذكر ، ولذا كان اعتماد الأمراء على الحضر فهم الذين يصمدون للقتال . والبدوى إذا لم يجد سلطة تردعه يرى من حقه نهب الغادى والرائح ويحتقر الحضرى مهما أكرمه ، كما أن الحضرى يحتقر البدوى» . (حافظ وهبة : جزيرة العرب : ص ١١—١٢) .

وقال متعب آل الرشيد لبالجراف «إن من يعتمد على بدوى كمن يبنى بيتاً على سطح الماء . إن البدو لا يمكن أن يلعبوا إلا دوراً ثانوياً فى حرب هامة متطاولة . تعوزهم الأسلحة . غير قادرين على اتباع أساليب الضبط والطاعة العسكرية . تفرقهم الإحن المريرة وتمنعهم عن التعاون فى اتجاه عمل مشترك . ليس للبدوى غد . تشغلهم أمورهم الشخصية . أصدقاء اليوم أعداء الغد» .

انظر (Palgrave : Une Anneé Vol. I, pp. 172-173)

(٢) عباس العزاوى : عشائر : ج ١ : ص ٣٣ .

يقول Field إن بدو الفراتين والنيل — رغم الغزوات العديدة — احتفظوا بأصلهم Old Mediterranean or Proto Mediterranean

انظر Arabs of Iraq. pp. 52-53.

(٣) عبد الجليل الطاهر : البدو : ٦٠ وما بعدها .

والاستقرار غير هين ، فضلا عن أن المظهر الواضح لهذا التحول هو الضعف عن مقاومة المعتدين ، حيث اضطر أهل الأرياف فى كثير من البقاع إلى دفع مبالغ سنوية للعشيرة الكبيرة المجاورة أو إلى هجرة مقارهم الحديثة التكوين إلى أماكن أكثر أمناً (١) . ولذلك تحولت مساحات واسعة كانت خصبة إلى أرض بور ترعاها قطعان البدو . وإذا ماقويت الحكومة تأخذ أراضى البدو فى التقلص حتى يعودوا إلى صحاريهم . ونتج عن هذا صراع عميق الجذور بين الحكومة والعشائر البدوية . فإن كل قرش يدفعه البدوى للحكومة هو فى نظره سهم موجه إليه لإبعاده عن العشب والماء الوفير . وقس على هذا التجنيد والتنظيمات الإدارية التى تفرض عليه تبعات لم يكن قادراً على التوفيق بينها وبين مصالحه وتقاليده (٢) . فكان فى انتقال العشيرة من مرعى لآخر وفى القيام بالغزوات ودوى صيحتها التقليدية وذكريات أيامها تتعارض كل التعارض مع نظم الحكومات الحديثة . الحكومة تريد من العشائر أن تستقر ، بينما لم يكن حينذاك للأرض والوطن المحدود أى ارتباط فى ذهنها . وطنها بلاد العرب وليس تحت حكومة أجنبية . وهذا يفسر لنا ضعف شعورها بالمواطنة تحت الحكم العثمانى . كانت العشائر تسعى إلى كف تدخل الموظفين فى أمورها ، إما بقوة السيف أو بالاتفاق على مبلغ سنوى من المال (٣) ، محتفظة بذلك بشيخها وعصبيتها . وبالتالى ساعد الحكم العثمانى على تقوية هذه العصبيات وعلى شدة تعلق البدوى بعشيرته وشيخه . وأصدق شاهد على عمق وقوة التماسك داخل العشيرة ماتعارف عليه البدو من تقسيم العشيرة إلى بطون وأفخاذ . وما الأفراد إلا خلايا تموت إن خرجت

(١) وكان هذا من أسباب احتقار البدوى القح للعربى المستقر فى الزراعة على اعتبار أنه قادر على رد العدوان بسيفه ولا يخضع لحكومة .

(٢) Murray : Sons of Ismael. London. 1935. pp. 271. f.f. Bul. of Faculty of Arts uniu of Alexandria. Vol. XIV. pp. 4-11.

مقالة طيبة عن أحوال البدو .

ويقول موراى أيضاً إن البدوى «يقضى وقته فى التدخين وشرب القهوة وعمله الوحيد رعى الجمال . وفيما عدا ذلك من رفع الخيام ونصبها ورعى الماعز والخراف فتقوم به زوجته » Ibid

(٣) Layard : Discoveries, pp. 73-77.

عن جسم العشيرة(١). فالبدوى فى داخل هذه العصبية تتلاشى فرديته. عشيرته تأخذ بحقه وثأره وحاكمه من ذوى قرباه، ويفخر بهذا الحكم العربى على من وقعوا تحت حكم الباشوات والأفندية. حتى إن بعض الشيوخ عندما نوى أن يبنى مقراً له توخى أن يكون موقعه بعيداً عن معاقل الحكومة (٢).

ولم تكن عشائر البدو فى مرتبة واحدة، فعنزة تعتبر نفسها الطبقة الأرستقراطية فهى أكبر مجموعة عشائرية تنتشر فى نجد والعراق والشام وخرجت منها البيوت الحاكمة فى الكويت والبحرين وقطر ونجد، وتفوقت بذلك على منافستها شمر التى ينتسب إليها بيت حاكم واحد فى حائل وبيت آل محمد فى شمر الجربا. فكانت شمر تعيش فى خضم محيط عنزى. ويبدو أن نجد ظلت تغذى صحراء الشام بعشائر عنزية حتى منتصف القرن التاسع عشر(٣) وكان استمرار تدفق العشائر النجدية إلى العراق وصحارى الشام يجدد المشكلات العشائرية. وكانت الأوضاع المناخية فيما بين دجلة والفرات تغرى عشائر نجد بالهجرة إليها لتعيش فى ظروف رعوية أكثر ملاءمة مع احتفاظها بطابعها وتقاليدها.

كانت طبيعة الأوضاع الاقتصادية تحتم الصدام بين العشائر حول المرعى. وملأ هذا الصراع تاريخ العشائر الكبرى والصغرى (٤). وكان عدد كبير من العشائر الصغرى يفضل أن يعيش فى حمى عشيرة كبيرة فى مقابل مبلغ سنوى. وأحياناً تتحول هذه الحماية إلى استغلال يضطر العشيرة الصغيرة إلى الفرار من ديارها (٥).

---

(١) تقسيم العشائر فى عبد الجليل الطاهر : البدو : ٧١.

(٢) هكذا فعل الشيخ فهد السعدون عندما بنى مقره بعيداً عن سوق الشيوخ.

Loftus : Op. cit, p. 135.

(٣) Blunt, Bedouin : Vol.11, p. 180.

(٤) على أن المعارك التى كانت تدور بين العشائر والتى كان يتغنى بها الشعراء ويتحدث عنها الناس كانت غير دموية، ضحاياها قليلة، والأسلاب خير نتيجة وليس القتل. حيث إن القتل يولد الثأر والثأر لابد أن يؤخذ، وأما النهب فيمكن أن يسوى بطريقة أخرى أيسر وهى مقابلة المثل بالمثل أو بالتعويض.

(٥) كانت عشيرة الشرابين تحت حماية الجبور وأرادت أن تنتقل إلى حماية طى فمنعتها الجبور بالقوة.

Layard : Discoveries. pp. 242, 296.

وهناك نوع آخر من التجاء عشيرة لأخرى له قيمته الكبرى فى حل مشكلات البادية، خاصة إذا وقعت الحرب بين عشيرتين. فكثيراً ماينشق فخذ عن عشيرته ويلجأ إلى عشيرة أخرى معادية لبنى عمومته. ويندمج الفخذ فى العشيرة وتصبح «وحدة الدم» رابطة قوية تتغلب على الروابط الأولى. ولذلك نجد أحياناً أن قوات شمر الجربا ليست كلها شمرية وكذلك قوات عنزة لم تكن هى الأخرى عنزية خالصة(١).

وكما كان التجاء عشيرة لأخرى يوجد كذلك التجاء الفرد لآخر أو لعشيرة. وهذا ما يعرف باسم «الدخالة». وهى مقدسة لدى البدو حتى ولو كان الدخيل قاتل أخى حاميه(٢). كما كان من التقاليد المحترمة إكرام «الرديف». والرديف هو ذلك الشخص الذى يترك عشيرته وينضم لأخرى ويصبح أخاً لواحد منها. كان الرديف يقدم لعشيرتى عنزة وشمر خدمات ذات قيمة كبرى إذ كان الرديف وساطة بين الطرفين المتعادين. فهو الذى يتولى فك الأسرى. ولهذا السبب كان أفضل رديف هو من كان من أشد العشائر عداوة(٣). هذا إلى أن مهمة الرديف وقت الحرب لم تكن بأقل أهمية من مهمته وقت السلم. فهو يحارب خلف أخيه على ناقته، ولايقل عنه حماسة حتى لوكان يحارب عشيرته التى خرج منها(٤).

---

(١) انظر Layard : Discoveries. pp. 268-269.

(٢) عبد الخالق الطاهر : البدو : ٢٥ – ٢٦ وهناك أمثلة عديدة على شهامة العرب وتمسكهم بمبادئ الدخالة. فكان الشمرى يقبل دخالة أى عنزى شاركه طعامه. كما أن شمر لم تكن تنهب القوافل التى تمر بخيامها لأنها أصبحت تحت حماية العشيرة وفق مبدأ الدخالة : Ibid p. 319. كما روى لنا لايارد قصة طريفة فى هذا الصدد. فقد حدث أن أوقعت عشيرة البريج بقوة عثمانية. ولجأ أحد الأتراك إلى خيمة زعيم شمرى من البريج ولما لم يكن فى خيمته تولت زوجته حمايته. وطاردت لذلك أحد الفرسان العرب الذين أرادوا إيذاء التركى اللاجىء Ibid. p. 318 أما الترك فقصص تعذيبهم للنساء عديدة ومشينة. انظر عباس العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٧ : ص ١٢–١٤.

(٣) من هذا القبيل أن المدعو خريف من عنزة كان رديفاً لشيخ عشيرة البريج الشمرية.

(٤) المحارب الذى له رديف لا يناله أذى إذا وقع فى الأسر. وإذا أسر أحد أقارب الرديف يحميه هذا من أى ضر. ولقد استغل لايارد هذا العرف البدوى عندما اتخذ خريفاً – رديف أحد الشيوخ الشمريين – حامياً له عندما أراد المسير فى أرض عنزية. Ibid. pp. 236-7.

إلى جانب عصبية وحدة الدم توجد عصبية وحدة المصالح أو وحدة التحالف، مثل تلك التى كونت عشائر المنتفق تحت زعامة آل شبيب دون أن يجمعها نجار واحد ؛ وكعصبية عشائر الهندية(١) التى تعاونت غير مرة ضد الحكومة دون أن يجمعها سوى وحدة المصالح . وكان التزاوج بين الأسرات الحاكمة يساعد على تقوية هذه الارتباطات(٢) .

كان لكل عشيرة شيخها وهو فى الحقيقة الأول بين أقرانه (Primus ... Inter Pares) . وفى العشائر الكبرى يطلق على شيخ العشيرة اسم شيخ الشيوخ إذا ما كانت العشائر الواقعة تحت حكمه ضخمة مثل عشائر المنتفق وشمر الجربا . ومهمة الشيخ غير يسيرة . فإن عليه أن يتصل بالحكومة وأن يكون على اتصال مستمر « بباب العرب »(٣) ، حتى يستطيع الوالى عن طريقه أن يسوى أموره مع الإدارات العثمانية من ناحية ومع العشائر المعادية له . وهو الذى يحدد مضارب العشيرة وترحالها، وأيام غزوها وضرورة نكوصها، وهو الذى يعقد الأحلاف ويعلن الغزو . وهو قائدها الأول . ومن المعتاد أن يخلف الابن الأكبر أباه فى منصب المشيخة . إلا إذا لم يكن الابن الأكبر متحلياً بالصفات اللازمة لملء مكان أبيه . فتسند المشيخة إلى أبرز رجال العشيرة من بيت الرياسة غالباً . والواقع أنه كانت لوراثة الرياسة فى ذلك الوقت فائدتها الكبيرة . فلم تكن هناك مدارس لتعليم أساليب الحكم ، والتعامل مع الحكام وشيوخ العشائر الأخرى سوى خيمة شيخ العشيرة . إذ كانت للابن الأكبر مكانة خاصة . كان يتحمل المسئوليات فى وقت مبكر ، ويلازم أباه منذ الصغر ويجلس فى اجتماعاته الرسمية ، ويصحبه فى غزواته . ويذهب معه إلى مقر الحكومة . مدرسة هو عليها مواظب ، وفيها يتدرب على تحمل المسئوليات عندما يطلب منه ذلك . فهو بخبرته

(١) فصلنا الحديث عنها فى ص ١٧١—١٧٣.

(٢) Layard : Discoveries. pp. 260, 275. ومن ذلك زواج شيخ البريج من أخت شيخ عشيرة العبيد . Ibid, 260

(٣) منصب أنشأه حسن باشا – والى بغداد – للتفاهم مع العشائر وجعل إدارته مرتبطة بالوزارة رأساً : العزاوى : عشائر : ج ٤ : ص ١٣ وانظر العزاوى : تاريخ العراق : ج ٨ : ٢٨٤ .

هذه يبز سائر أقرانه عند المفاضلة فى أغلب الأحيان . ويتم تعيين الشيخ بوساطة الوالى وبموافقته . وكان من مصلحة الوالى أن يضع يده على مطالبين بالمشيخة ليرهب هذا بذاك . وكانت هذه الظروف مواتية تماماً فى أكبر عشيرتين قويتين فى العراق هما شمر الجربا والمنتفق . وفى ظروف خاصة كان تعيين الشيخ يصدر من الآستانة(١) .

ولشيخ العشيرة سلطة مطلقة فى الظاهر . وفى حقيقة الأمر هناك ما يقيد هذه السلطة . فكم من مرة نشاهد اجتماع كبار رجال العشيرة للتدارس فى حل مشكلة معينة ويصدر القرار ضد الشيخ القائم . بل صدر من مثل هذا المجلس قرار بأن يتخلى « صفوق » شيخ شيوخ شمر الجربا عن منصبه(٢) .

وبتتبع تطور سلطة شيخ العشيرة خلال القرون الثلاثة الأخيرة نتبين أن منصب شيخ العشيرة تطور خلال القرن التاسع عشر إلى حاكم مطلق مستبد لا تستطيع حركة من داخل العشيرة أن تعزله . ويرجع هذا التحول أساساً إلى تزايد قوة الحكومة المركزية التى منحت — طائعة أو مرغمة — شيوخ العشائر الكبرى سلطات تعادل سلطات حكام السناجق ، بل وسلطات الوالى أحياناً . إذ كان من مصلحة هذه الإدارات أن تبقى على الشيخ الموالى لها ، فتؤيده وتدعم سلطته ، وهو من جانبه — وقد فقد إلى حد كبير الاعتماد على قوة العشيرة فى فرض نفسه على الحكومة — يتمسك بتلك العلاقة القوية بالحكومة . ومثل هذا التطور واضح فى بيت آل السعدون حكام المنتفق وآل محمد حكام شمر الجربا .

ويساعد الشيخ فى إدارة أمور العشيرة القاضى وكبار رجال العشيرة يفضون المنازعات بين الأسرات والأفراد(٣) . وكان القاضى يختار من

(١) خلال أزمة الحروب الشامية بين محمد على والسلطان جاء فى أحد الفرمانات «وقد تعين من طرف البادية شيخ الشيوخ صفوق الجربا» انظر محفظة ٢٣١ عابدين وثيقة ٢٨ فى ١٤ من أبريل سنة ١٨٣٢ م ، ١٢ ذى القعدة ١٢٤٧ هـ .

(٢) Kemball to Coxley : Sep. 29, 1847. F.O. 195-272.

(٣) عبد الجليل الطاهر : البدو والعشائر : ص ١٧ ويقال إنه لا يجوز تغيير حكم العارفة (انظر لغة العرب السنة الثانية ص ٥٦٧ — ٥٧١) .

ذوى الأخلاق والسمعة الطيبة . ويمتاز « الملا » بمعرفته للقراءة والكتابة وأنساب العشيرة . وهو مندوب شيخ العشيرة لدى الحكومة . أما بين العشائر الشيعية فينتشر نوع من القضاء يطلق عليهم « السيد » أو « المؤمن » أو « العالم » . وهم لنسبهم الشريف ذوو تأثير كبير على الناس. إذ يطيعونهم ويتقبلون أحكامهم . وكان لبعض هؤلاء السادة فى بعض النواحى ضريبة معينة تسمى « الخمس » (١) .

ولما كانت مقاليد أمور العشيرة بيد شيخها عملت الحكومة على استمالة هؤلاء الشيوخ إلى جانبها عن طريق منحهم الرتب والنياشين والمناصب العليا . ويبدو أن أول شيخ يحصل على منصب البكوية فى العراق » هو « وادى » شيخ زبيد (٢) ، وحصل منصور وناصر السعدونيان — من الأسرة الحاكمة فى المنتفق - على عدة رتب ونياشين ، كما تولى ناصر ولاية البصرة — برتبة الوزارة — بعد تشكيلها فى أعقاب مغادرة مدحت العراق (٣) . ونال رتبة الباشوية كذلك « فرحان بن صفوق » شيخ عشائر شمر الجرباء (٤) . وهذه الخطة جزء من سياسة عامة استهدفت صبغ العراق من جميع نواحيه بأساليب الحكم الحديث ومظاهره وتفكيك الروابط العشائرية القوية القديمة ، وجعل هؤلاء الشيوخ يتطلعون إلى حكومة الآستانة التى رصدت إلى جانب تلك الألقاب مرتبات شهرية لهم فكانت هذه الخطوة ذات أثر كبير فى ربطهم بالحكومة حفاظاً منهم على استمرار وصول هذه المرتبات النقدية . وسنرى كيف تطورت أحوال فرحان ومن ورائه جزء كبير من شمر الجربا إلى عشائر هادئة نسبياً بفضل هذه السياسة (٥) . وقد نجحت الحكومة فى السيطرة على عشائر متعددة بدرجات متفاوتة بهذه الطريقة السلمية .

---

(١) عبد الجليل الطاهر : البدو : ١٧ .

(٢) كان ذلك على عهد نجيب باشا ١٨٤٢—١٨٤٧ .

(٣) الزوراء عدد ٥٧٥ فى ١١ من رمضان ١٢٩٢ هـ — أكتوبر ١٨٧٥ م .

(٤) العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٨ : ٣٩ .

(٥) Blunt : Bedouin Tribes. Vol. I. pp. 197- 199. وتحدثنا آن بلنت عن حب البدوى للنقود كثيراً وتؤكد دائماً أن السبب الرئيسى الذى سهل للحكومة السيطرة على العشائر استخدامها الأموال لكسب ولاء الشيوخ Ibid. II. pp. 208-9.

أدرك أحمد فارس الشدياق — صاحب الجوائب — أهمية التقريب بين شيوخ العشائر العربية والحكومة عن طريق منحهم الألقاب وطالب حكومته « بإمعان النظر فى تقريب مشايخ العرب فى اليمن والشام والحجاز والعراق ... بأن يغرو على الحضور إلى دار الخلافة ... ويشرفون بالمثول بين يدى مولانا المعظم ... فيخلع عليهم ... ويقلدهم نياشين ... ثم تؤخذ عليهم العهود والمواثيق فى تأمين الطرق وفى كف عشائرهم عن التعدى » (١) .

وفى العراق تسع كتل عشائرية كبيرة (٢) على رأسها شمر الجربا (٣) التى تموج بين بغداد والموصل والتى استطاعت — بعد أن هجرت مواطنها فى نجد بسبب الضغط الوهابى — أن تسيطر على مساحات واسعة من الأراضى وعلى عدد ليس بالقليل من العشائر ، كما واجهت عداوة كثير من العشائر التى وقفت فى وجهها مثل طى والعبيد (٤) .

ويمكن أن نفسر عدم قيام تعاون عسكرى بين شمر العراق وشمر الجبل بالعوامل التالية :

١ — أن أسرة الرشيد فى حائل أصبحت همزة الوصل بين العراق والحجاز وارتبطت مصالحها بالقصيم ونجد والكويت والجوف وهى ميادين لا مصالح فيها لشمر الجربا .

---

(١) أحمد فارس الشدياق : الجوائب الآستانه العدد ٣٩٨ — ١٠ من ربيع الآخر ١٢٨٦هـ ١٨ من يوليو ١٨٦٩ .

(٢) شمر الجربا — عنزة — المنتفق — بنولام — زبيد — الخزاعل — الدليم — الصفير .

(٣) راجع أصل الاسم فى العزاوى : عشائر : جـ ١ : ١٢٧ — ١٣٢ .

(٤) محب الدين الخطيب : اتجاهات : ص ٨ ، العزاوى : عشائر : جـ ١ : ٢٣١ .
وانظر الصراع بين العبيد وشمر وكذلك بين طى والجبور وشمر فى
Cuinet : Op. cit, Vol. II, p. 24-25, Layard : Discoveries. pp. 171-172.
وعشائر العراق : جـ ١ : ١٤٧ . وظلت شمر الجربا على علاقات اقتصادية وسياسية مع بنى عمومتها فى نجد فيحدثنا خورشيد — قائد حملة نجد المصرية — أن شمر تفر إلى جبل شمر إذا ضغطت عليها القوات من نواحى العراق (محفظة ٢٦٧ عابدين حمراء ١٦٣ فى ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ هـ وكذلك حدثنا لايارد عن أن لشمر الجربا أراضى زراعية فى جبل شمر
Discoveries, p. 541

وانظر ضخامة القوة العسكرية لشمر الجربا لو اتحدت مع شمر الجبل .
Blunt, Bedouin, Vol. I. p, 285.

٢ – مراعى الجربا أصبحت فى شمال العراق وتفصلها عن جبل شمر عشائر قوية مثل الصفير والدليم .

جمعت عشائر شمر تحت لوائها عدداً كبيراً من العشائر ولذلك يقال « إنها لم تكن جداً أى جداً جامعاً يجمع الكل فى الاتصال »(١). فهذا الاختلاط واضح فى عشائر الخرصة وسنجاره وزوبع والصايح الطائية ، وفى مجموعة العشائر القحطانية (السنعرسية) .

لم يكن فى استطاعة شمر الجربا أن تتوغل فى الصحراء غرباً بسبب عشائر عنزة وكانت عانة ونهر الحى أقصى ما تستطيع أن تصل إليه جنوباً ورفض الولاة أن يسمحوا لها بالتوغل جنوباً حفاظاً على العشائر التى استقرت فعلاً (٢) . وهذا يفسر لنا هجرة عشائر شمرية إلى أورفه (٣) . وأما عبور نهر دجلة فكان محرماً على شمر وعنزة على السواء (٤) . ويمكن تصور خطورة هاتين العشيرتين على المناطق الريفية إذا علمنا أن تعداد شمر حوالى ٣٥ – ٥٠ ألف نسمة وأن عنزة تبلغ ثلاثة أضعاف هذا العدد (٥) . هذا فضلاً عن أن شمر الجربا كانت مسيطرة على مجموعة كبيرة من العشائر والجماعات الأخرى . وقدر تيلر Taylor هذه العشائر البدوية الخاضعة لشمر الجربا بحوالى ١٣٥٠٠ خيمة أى حوالى ٨١,٠٠٠ نسمة ومن العشائر الريفية ٥١٦٠٠ نسمة ، هذا فضلا عن بعض العشائر التركمانية والكردية(٦) .

(١) عباس العزاوى : عشائر : ج ١ : ٢١٥ .

(٢) Jones : Selections, pp. 369-370.

(٣) كان ذلك بزعامة عبد الكريم أخو فرحان .

Blunt, Bedouin Tribes. Vol. II pp. 189-190.

(٤) رصدت بعض العشائر لمراقبة ذلك

Jones : Selections. pp. 254-55

Layard : Discoveries. pp. 218-235.

ويبدو أنه لم يكن فى استطاعة الحكومة أن تبقى قوة عشائرية رادعة لشمر الجربا دائماً فكان هذا من عوامل استشراء الفوضى فى شمال العراق .

Layard : Nineveh & Remains. Vol. I, p. 58; Discoveries. p. 219.

(٥) Chesney : Expedition, Vol. I. pp. 719-724; Blunt, Bedouin. Vol. II p. 187.

(٦) Taylor's Travels in Kurdistan (J.R. G. S. 1865. XXXV. p. 55)

وكلما زاد عدد العشيرة زاد تفككها وصعب على شيوخها جمع كلمة العشيرة تحت قيادة واحدة . ولذلك كانت عشائر شمر الجربا تحت قيادة صفوق وحده حتى ١٨٤٧ . وبعد مصرعه فى ذلك التاريخ توزعت شمر الجربا بين أولاده . ومع أن المشيخة أسندت إلى فرحان بن صفوق(١٨٤٨م) غدت مهمة السيطرة على عشائر الجربا بأسرها صعبة جداً أمام فرحان ، بل كان يتحمل تبعة ما تقترفه عشائر شمرية لا سيطرة له عليها . وكان فرحان يقع فى حرج شديد أمام الحكومة كلما ارتكب أحد إخوته عملاً لا ترضى عنه الحكومة (١) .

كانت شمر الجربا تحصل على دخل له قيمته من عدة نواح وأهمها :

١ – بيع الإبل والجياد والصوف .

٢ – إتاوات ممن يعبر أراضيها .

٣ – إتاوات على المدن .

٤ – غنائم الغزو .

٥ – ما يدفعه العقيل لشيوخ شمر لضمان سلامة القوافل فى الأراضى الشمرية .

٦ – ضرائب تدفعها العشائر الواقعة تحت سيطرة الجربا .

٧ – المساعدات الحكومية لصد عشائر عنزة عن العراق أو للعمل على إقرار عشائر شمرية فى أراض زراعية (٢) .

وإذا كانت شمر الجربا عشائر عراقية خالصة فعشائر عنزة قسمة بين العراق والشام ونجد. وكانت تتخذ من الموصل سوقاً كبيرة لها . وكان حكام الموصل غالباً يأملون فى قيام علاقات طيبة مع شيوخ عنزة ضماناً للدخل الحكومى بها من جهة وحتى لا تتعرض المدينة وتوابعها لهجمات من عنزة(٣) :

(١) Layard : Discoveries. pp. 220-235, 268-269.

(٢) Layard : Discoveries pp. 242, 266, & Chesney: Expedition. p. 687.

(٣) خورشيد : سياحتنامه : ص ٣١٦ .

ومع أن ميادين تحركات عنزة كانت تمتد من ديار بكر والموصل وماردين وبيله جك ودير الزور وبغداد إلى الحلة أحياناً وإلى ما وراء ذلك إلى نجد ، فمما لا شك فيه أن الحكومات العثمانية فى هذه الإيالات أو المتسلميات لم تفكر يوماً فى وضع سياسة معينة موحدة لعلاج مشكلة عنزة ، وتركت العشائر لنفسها . فمرة تموج شرقاً لتضغط على بغداد والموصل وشمر الجربا . ومرة تنسحب فى ود وسكينة ، وأخرى يدور فيها القتال العنيف الذى جعل من مناطق عامرة فى الأيام السالفة صحارى لا حياة فيها ولا مدنية إلا ذكريات معارك دموية تتغنى بها شمر تشفياً فى عنزة أو تتغنى بها عنزة تشفياً فى شمر .

واستمر الصراع بين عنزة وشمر — خاصة كل صيف — حتى تدخلت الدولة بعد حرب القرم بقصد وقف تحركات عنزة عند حد معقول . فقد زحف عمر باشا والى حلب على طول وادى الفرات واستولى على ديرالزور التى لم تستطع الصمود أمام مدفعية القوات العثمانية . وبنى عمر باشا فى دير الزور ثكنات وبنى مراكز حراسة بين دير الزور وحلب . وأصبحت دير الزور باشوية تحت حكم والى حلب واضطرت عشائر عنزة إلى أن ترفع يدها عن المدن فى تلك الجهات(١) .

الكتلة العشائرية الكبرى الثالثة هى « عشائر المنتفق »(٢) . وهذه المجموعة عبارة عن تحالف كامل بين ثلاث عشائر كبرى هى :

(١) بنومالك : فى منطقة سوق الشيوخ والبصرة والقرنة والبوصالح ، والديوانية وبعض نواحى الجزيرة . وتمتد بعض عشائرها حتى الخليج العربى وشرقاً إلى الأهواز.وفى الربيع تهاجر إلىالصحراءالشامية.وهذه

(١) Blunt : Bedouin. Vol. II. p. 181-182.

(٢) أصل الكلمة فى رأى البعض متفق وحرفت إلى منتفق . ويرى عباس العزاوى أن الكلمة سابقة لوقوع التآلف بين عشائر المنتفق الثلاث (بنومالك والأجود وبنو سعيد) ويعتقد العزاوى أن الكلمة بمعنى من يدخل النفق وهو اسم جدهم الأعلى . انظر سياحتنامه : ص ٥٥ ، ح . العزاوى : عشائر : حـ ٤ : ص ١٦ .

العشائر لا ترجع إلى جد واحد وإنما انضمت إليها عشائر عديدة بعضها وفد من الأحساء (١) .

(ب) بنوسعيد : فى الجزيرة . وهى مختلطة(٢) .

(حـ) الأجود : وكانت الأحساء بيدهم فى القرون السابقة ، استولوا عليها من القرامطة (٨٢١ هـ — ١٤١٨ م) حتى استولى عليها العثمانيون وتمتد أراضيهم بين الدراجى (عند السماوة)وكوت المعمر (قرب سوق الشيوخ) فى جانبى الفرات إلى الناصرية وحول السماوة ونهر الحى .

ويمكن أن تقسم هذهالعشائر المنتفقيةحسب أعمالها إلى الأقسام التالية :

(١) عشائر بدوية : وهم أصحاب خيل وجمال ورعى وغزو .

(ب) فلاحون : يقتسمون الإنتاج الزراعى مع البدو .

(حـ) الشاوية : وهم رعاة ومعظمهم بدو وجزء صغير منهم زراع .

(ى) المعدان : فى المستنقعات رعاة وتجار (٣) .

وهذه العشائر المنتفقية عدنانية فى معظمها ، وجزء قليل منها يرجع إلى أصول قحطانية (زبيدية أو حميرية) . وأطلقت كلمة المنتفق على كل ماهو ضمن هذه العشائر . واستطاعت أسرة شبيب السعدون أن توحدها تحت حكمها . وباستثناء بيت شبيب الحاكم كانت عشائر المنتفق شيعية . وكانت ضمنها مجموعة من العشائر فى العمارة والبصرة والديوانية . وتعيش هذه العشائر تحت حماية شيخ المنتفق وتدفع له ضريبة سنوية . كانت هناك بعض العشائر المتحالفة مع المنتفق مثل الضفير وبعضها متردد بين التحالف والعداوة مثل البودراج .

ومع أن عشائر عفك وجليحة من العشائر المنتفقية إلا أن أحداثها خلال الفترة التى نحن بصددها كشفت عن أنه لم تكن لشيخ المنتفق سلطة عليها

(١) خورشيد : سياحتنامه : ٥٦ — ٥٧
عباس العزاوى : عشائر جـ ٤ : ٣١ ، ٦٩ — ٧٢ .

(٢) خورشيد : سياحتنامه : ٥٦ — ٥٧. Jones : Selections : p. 378.

(٣) خورشيد : سياحتنامه : ٥٨ — ٦٠ .

إطلاقاً . وأخذت عشائر عفك وجليحة طريقها الخاص فى التعامل مع الحكومة فكانت أشد العشائر عنفاً فى صراعها مع ولاة بغداد (١) .

وبين البصرة والنجف حتى دير الزور وبدره وجسان كانت تموج عشائر الضفير العنزية النسب(٢) . وهى مثل شمر الجربا فرت من الجزيرة العربية أمام الضغط الوهابى . وكانت عشائر المنتفق قد شوقت عشائر الضفير على المجيء إلى العراق لتكون عوناً لها ضد تيار الوهابيين الجارف . ولما كانت مراعيها كثيراً ما تكون محل نزاع بينها وبين شمر الجربا كان العداء بين هاتين المجموعتين شديداً ولذلك كانت الضفير حليفة المنتفق كلما اندلعت الحرب بيين المنتفق وشمر الجربا . ونظراً لوجود هذه العشائر عند رأس الخليج العربى الذى أخذ أهمية كبرى فى مجال المواصلات العالمية ، كانت دراية عشائر الضفير بالسياسة الدولية أحسن من غيرها . وكان شيوخها يدركون حقيقة أهداف الدول الاستعمارية نحو الدولة العثمانية والعراق ويعرفون أن روسيا تسعى إلى تقسيم البلاد العثمانية بينها وبين الدول الأوربية الأخرى ، وأن الإنجليز وضعوا أعينهم على العراق . والغريب أن جونز Jones يقول إن الضفير لم يكن يعنيهم أن يكون حكامهم من العثمانيين أومن الإنجليز . وأغلب الظن أن جونز Jones روى هذا لخدمة أغراضه ومصالح بلاده فى تلك البلاد (٣) .

وعلى العكس من الضفير كانت مجموعة عشائر بنى لام (٤) شيعية ومشكلتها عثمانية فارسية .وكانت مواطنها الأولى فى اليمن ووفدت إلى العراق فى القرن الثامن الهجرى (الثالث عشر الميلادى) . ونظراً لأنها كانت تنزل منطقة من أغنى مناطق الزراعة والرعى فى العراق كانت ثرواتها كبيرة فكانت تدفع ٨٠٠ ألف قرش سنوياً لخزانة بغداد . ولأنها كانت عشائر قوية

(١) عباس العزاوى : عشائر : ج ٤ : ١٥٥ - ١٥٦ - ١٦١ .

(٢) انظر أقسامها فى العزاوى : عشائر : ج ١ : ص ٢٩٧ - ٣٠٣ .

(٣) Layard : Early. Vol. II. pp. 189-190. & Discoveries pp. 541-545.
Jones : Selections pp. 75-76, 370.

(٤) اشتق اسمها من« لم » .

استخدمتها الحكومة كوساطة للتفاهم مع بقية العشائر فى تلك الجهات . وكانت الحكومة تمنح لواء بنى لام إلى هذه العشائر بطريق الالتزام . فكان ذلك من أسباب طغيان عشائر بنى لام على بقية العشائر المجاورة لها (١) .

وكانت مشكلات بنى لام أكثر تعلقاً بجارتها القوية إيران . التى يعيش فيها بنو عمومتهم الذين فروا إليها إثر خلاف فى داخل العشيرة . ويهمنا جزء بنى لام فى العراق .وهذا الجزء انقسم هو الآخر إلى قسمين إذ انتهز داود باشا فرصة شقاق فى البيت الحاكم ، وجعل ماكان من العشيرة على يمين دجلة لشيخ وما كان عن يساره لآخر. واقتطع من أراضى بنى لام جزءاً بين نهر « أم الجمل » و« القرنه » وأعطاه للمنتفق . وكان يحدهم عن يسار دجلة الخط المار بدويرج وبدره وجسان وترساق (طرسخ) وزرباطية . وإلى جانب هذا كان فى استطاعتهم أن يتجولوا دون موانع فى إيران (٢) . ومعنى هذا أن الحدود كانت لفترات طويلة مفتوحة على مصراعيها وغير واضحة . وحين تقع الأزمة تصبح الدولتان أمام إشكال عويص . فالعشيرة الواحدة تعيش فى الدولتين ، والحدود تغيرت ، والدولتان — علاوة على هذا — أتقنتا فن المساومة على الحدود وفن دفع العشائر فى الطرفين إلى اتخاذ أساليب معينة لإثبات أحقية الدولة فى قطعة من الأرض ، فتكون النتيجة تعقيد المشكلة عن ذى قبل .

كانت فارس لا تتوانى عن إرسال الحملة إثر الحملة ضد بنى لام لتأديبهم على اعتبار أنهم من رعاياها . وكانت العشائر تفر من وجه الجيش الإيرانى تاركة وراءها مراعيها عند سفوح لورستان . لتتجمع على شواطئ نهر دجلة فى الأراضى العثمانية وذلك لأنها كانت تعتقد أن جيوش الشاه

(١) Blunt : Bedouin. Vol. II. pp. 38, 379-381. ; Jones : Selections. P. 380.
خورشيد : سياحتنامه ؛ ص ٩١ - ٩٢ ، ١٠٥ ، عباس العزاوى : عشائر : ج ٣ : ٢١٠ - ٢١٢ ، ٢٢٥ - ٢٣٧ .

(٢) خورشيد باشا : سياحتنامه حدود : ٩١ - ٩٢ ويحدد جونز أرض بنى لام بما يلى : من الدجلة شرق الحى وكوت العمارة إلى الحى .
Jones : Selections. p. 380.

لا تجرؤ على عبور النهر (١) . وكان هذا هو المتبع غالباً . ومع أنها كانت عشائر شيعية متعصبة كانت تلعب بالشاه وبالسلطان فى آن واحد إذا ما وقع عليها ضغط من أحدهما . فكانت إذا ضغطت عليها حكومة بغداد فرت إلى الأهواز فى داخل الأراضى الإيرانية (٢) . وكانت هذه العشائر من ناحية أخرى تكيد لفارس بأن كانت تؤوى لديها الثوار على الشاه . كما كانت فى صراع شبه متواصل — قبل معاهدة أوضروم ١٨٤٧ — مع عشائر الفيلى الكردية . وكان تمسك بنى لام بتقاليدهم البدوية من العوامل التى عقدت مشكلة تحديد الحدود بين الدولتين العثمانية والفارسية لأنها كانت تنتقل من فصل لآخر عبر الحدود بينهما(٣) .

ويبدو أنه منذ القرن التاسع عشر طرأ تحول على هذه العشيرة من حيث الانتقال من حالة البداوة إلى الاستقرار فى الأرياف والإنتاج الزراعى . ولكنه كان تحولاً بطيئاً . فقد كانت هذه العشائر حينذاك فى مرحلة انتقال . فلقد تضاربت الأقوال بشأن هذا الانتقال فيقول خورشيد باشا — مندوب لجنة الحدود — أنه قد حفرت قنوات كثيرة من هذا النهر (نهر طرسخ) حيث يزرع أراضيها قبائل بنى لام (٤) . ولكن ظلت مجموعات كبيرة منها على بداوتها ، ولم تتجه إلى الزراعة مع أنها كانت تعتمد على الإنتاج الزراعى فى تنمية دخلها فقد كانوا يشجعون الفلاحين اللوريستانيين النازلين بالقرب منهم على زراعة السهل الواسع دون أن ينزعوا هم إلى الزراعة (٥) .

ونظراً لضخامة عدد بنى لام كانت ثوراتهم خطيرة على حكومة بغداد لأنهم شيعة شديدو التعصب ولأنهم كانوا يستطيعون أن يلقوا فى المعركة بخمسة آلاف فارس ، وإذا اتحدت أنزلت خمسة عشر ألف فارس .

---

(١) Layard : Early. II. pp. 217-220, 324, Lycklama : Op. cit. III. p. 230.

(٢) Jones : Selections. p. 380.

(٣) خورشيد : سياحتنامه : ص ١٠٥ وانظر كذلك :
Layard : Early. II. p. 324.

(٤) خورشيد : سياحتنامه : ص ١٠٥.

(٥) Jones : Selections. pp. 380-381.

وهو رقم يثير الخوف فى دوائر بغداد ، خاصة أن عشائر بنى « لام » تستطيع فى سهولة أن تعطل الملاحة فى دجلة تماماً . فهى حتى فى أوقات السلم تأخذ إتاوات على كل قارب يمر بها (١) . ويبدو أن ممثلى بريطانيا فى العراق أدركوا خطورة بنى لام على مصالحهم الملاحية فى دجلة . فسعوا إلى الاتفاق معهم على ضمان سلامة مرور السفن والبواخر البريطانية من منطقة بنى لام ، ولكن الإنجليز لم يصلوا إلى غرضهم فى هذه الناحية . ففى معظم المؤلفات الإنجليزية هجوم شديد على بنى لام . وخاصة على شيخها « مذكور » . ويبدو أن هذا العداء الذى كان بين مذكور والإنجليز يرجع إلى ما كان لدى الشيعة من كراهية للأجانب وللمسيحيين بوجه خاص وهى كراهية تفوق ما كان لدى السنة . ولم يكن اعتناق المذهب الشيعى هو الأثر الإيرانى الوحيد على هذه العشائر وإنما مالت بعض ثقافة هذه العشائر على بساطتها للثقافة الإيرانية وللتفكير الإيرانى ، ولكن دون أن يطغى ذلك على عروبتهم . ونظرة سريعة على أسماء شيوخ بنى لام (٢) تدل دلالة واضحة على هذا.

وفى وسط العراق الجنوبى تنتشر عشائر الخزاعل وزبيد(٣) . ومن زبيد عشيرة البومحمد الصعبة المراس والتى كانت تسيطر على المنطقة من شمال القرنة وعلى ضفاف دجلة حتى نهر الحى . وأما عشائر زبيد الصغير فأهم أقسامها الجبور والدليم .

وعشائر الجبور سية وتلعب دوراً رئيسياً فى تموين بغداد بالفحم الخشبى

---

(١) Ibid.

(٢) من أسماء هؤلاء الشيوخ : عبد الشاه ، عبد الخان ، على خان وهى كلها صفات فارسية ربطت بأسماء عربية : انظر العزاوى عشائر ص ٤ ص ١٨٨ .

(٣) تنقسم زبيد إلى قسمين : زبيد الأكبر وزبيد الأصغر . وتنقسم زبيد الأكبر إلى : البوسطان ، الجحيش ، السعيد ، بنوعقيل ، المعامرة ، العمار . هذا بجانب عشائر زبيدية حميرية مثل : آل حميد وبنى زيد والسواعد وآل زبرج والبومحمد .(عشائر العراق : جـ٣ : ص ٣٣ — ١٩٦ ، وانظر كذلك
Jones : Selections : pp. 357-358.

خاصة بوساطة العائلات الجبورية النازلة عند تكريت ودير الزور (١) . كما كانت ثوراتها خطيرة حتى إنها بلغت فى اجتياحاتها للبلاد — ثأراً لاعتقال والى بغداد لشيخها — حتى أبواب بغداد نفسها (١٨٤٧) . ومع هذا يبدو أنها كانت تتحول بسرعة إلى الاستقرار فى الأرياف بين الموصل والخابور وعلى دجلة وعند سامراء (٢) . ولكن كان جزء ليس بالقليل منها لا يزال على بداوته وقد تضطره الظروف المناخية أحياناً إلى الاتجاه صوب نصيبين (٣) . وقد وجد لايارد فى رجال الجبور خير من يعمل معه فى عمليات التنقيب عن الآثار . ويجب أن نشير هنا إلى أنه توجد عشيرتان باسم الجبور إحداهما تخرج من عشائر المعدان وتنزل فى نواحى الحلة (٤) .

وتعتبر الدليم من أغنى عشائر العراق . وتفرقت إلى أقسام عديدة خلال فترة الانتقال من البداوة إلى الاستقرار ، ومعظمها ينزل المنطقة بين هيت والفلوجة فى مواجهة بغداد (٥) . ولا تزال منطقتها تعرف حتى الآن باسم لواء الدليم (٦) . ونظراً لأن أراضى الدليم تمتد حتى دير الزور وفى أطراف العراق كانت بعيدة عن متناول حكومات بغداد والموصل وحلب ودير الزور كما أنها كانت تتعرض لمطالب باشا حلب من وقت لآخر. وما كان والى حلب ليستطيع أن يجمع منها الضريبة إلا بعد إرسال حملة قوية ضدها (٧) إلا أن معظم ارتباطاتها كانت بوالى بغداد (٨) .

(١) يبلغ عدد خيامها ٥٣٧٠ وتضم ١٠٨١٠ راجلا و ١٥٢٥ فارساً وعدداً كبيراً منهم يزرع على ماء دجلة .
Lycklama Nijholt : Op, Cit. III p. 218-9.

(٢) From Ross to Layard : Ross Letters (Dec. 9, 1847.) p. 134.

(٣) Layard : Nineveh. II. p. 66.

(٤) Walpole : Op. cit. II. p. 8-12; Layard : Discoveries. p. 548.

(٥) Jones : Selections. p. 271.

(٦) انظر خرائط العراق الحديثة . وانظر كذلك عباس العزاوى : عشائر : ج ٣ : ١٠٥ — ١٠٧ .

(٧) Layard : Discoveries. p. 297

(٨) كانت تساكن الدليم عشائر أخرى مثل البقارة (قرب دير الزور) والعقيدات والفتلة (خلفة جمعة) والعبيد والعزة (عباس العزاوى : عشائر : ٣٣ — ١٩٦) وأخذت عشيرة العزة تسير نحو الاستقرار فى الزراعة تدريجياً خلال منتصف القرن التاسع عشر
(Jones : Selections. pp. 120-124.)

واشتهر من شيوخ زبيد « وادى » الذى لعب دوراً هاماً فى سياسة الولاة الداخلية . وكانت زبيد تنزل بين دجلة والفرات شمالى نهر الحى حتى قناة الشقلاوة إلى مستنقعات عملك فى الشمال الغربى من بغداد (١) . وكانت فى دور الانتقال من الحياة البدوية إلى الحياة الريفية وكانت تقوم فى ذلك الوقت — لقوة شكيمتها — بمهام حكومية خطيرة . كما كانت ثوراتها ضد الحكومة تهز كيان الحكام .

وتعتبر عشائر المعدان من زبيد . وبسبب ما تقوم به من تربية للجاموس أثارت موجة من التخبط حول عروبتها . وقيل إن أصولها هندية أو إيرانية وإنهم يرجعون إلى أصول سومرية. وينفى عباس العزاوى هذه الأقوال ويؤكد أنها عربية. وليس فى تربية الجاموس ما يدل على أصل غير عربى (٢). وهم مثل الخزاعل يعيشون فى مناطق المستنقعات حيث الفيضانات التى تهدم قراهم فيضطرون من وقت لآخر لبناء منازلهم على أماكن مرتفعة وعند الجفاف يحفرون القنوات لرى أراضيهم (٣) . ويبدو أن عدداً من هذه العشائر ترك منطقةوسط العراق الجنوبى إلى نواحى النجف وكربلاء (٤). وعشائر الخزاعل (٥) من أعنف عشائر العراق (٦) ورجال هذه

(١) Jones: Selections, pp. 357-373.

(٢) عشائر العراق : ج ٣ : ٦٦ .

(٣) سياحتنامه : ٩٢ . وكانت على شىء من الثراء
Jones : Selections. p. 381.

(٤) Blunt : Voyageen Arabie. p. 402.

(٥) وكانت الشنافية هى مقر هذه العشائر .
Loftus : Op. cit. p. 46.

وقد قسم خورشيد طوائف خزاعل إلى الأقسام التالية :

(أ) طوائف خزاعل : طوائف خزاعل أصلية ، طوائف الغوار ، جليحه (مجموعها ٢٣٠٠ ذكر) .

(ب) الطوائف الكائنة فى الشامية ومنسوبة للخزاعل : طوائف زياد — بنى تميم — الشبل — الفرلان — الثلا ل — وهمية (وعدد ذكورها ٢٩٥٠ ذكرا) انظر سياحتنامه : ١١٥ .

(٦) هناك قصة طريفة عن الخزاعل تقول إنهم عندما كانوا حراس الكعبة باع شيخهم مفاتيح الكعبة فى مقابل زجاجة خمر فشاعت عنهم هذه فى العراق .
Layard: Discoveries. p. 542.

العشيرة اشتهروا بأجسامهم التى اتخذت أشكالا تتلاءم مع طبيعة الحياة فى المستنقعات هناك . فأرجلهم رفيعة وطويلة ، كما أن مبانيهم لها ميزاتها التى تساعد على الحياة فى هذه المستنقعات . وقراهم عرضة لفيضانات مفاجئة تهدم منازلهم ، فكان أن بنوا منازلهم من طين ومواد خفيفة سرعان ما تتهدم وسرعان ما تعاد إلى سابق حالتها دون تكاليف تذكر (١) .

ويقول لايارد إنه لم يجرؤ أحد من الأوربيين على اجتياز أراضى الخزاعل حتى ١٨٥٠ ، سوى لوفتس Loftus . ويبدو أن الخزاعل متمسكون بتقاليدهم القديمة ولم يتطوروا بمثل ما تطورت إليه العشائر الأخرى وأن رجالها مازالوا يعيشون فى مناطق المستنقعات واتخذت أجسامهم أشكالا تتلاءم مع هذه البيئة وبنوا منازلهم بطريقة يسهل إعادتها إذا ما هدمتها الفيضانات المتكررة . وتعتبر العشائر الخزاعلية النازلة فى منطقة الهندية من أكثر العشائر تمرداً (٢) . وهذه العشائر لم تكن تقيم وزناً كبيراً للحكومة ، ولكن ليس معنى هذا أنها كانت تفضل الأوروبيين على العثمانيين (٣) . والملاحظ أن عشائر جنوب ووسط العراق كانت أشد العشائر فى ثورتها على العثمانيين حتى خروج هؤلاء من العراق وعلى الإنجليز خلال فترة الانتداب . ولقد كان من الصعب على الولاة أن يقوموا بتأديب هذه العشائر لصعوبة عبور جيش قوى لتلك المستنقعات . ولذلك كان الأسلوب الوحيد لدى باشا بغداد للوصول إلى مكامن هذه العشائر هو إقامة سد يحجز اندفاع

(١) Helfer : Adventures. Vol. I. pp. 285-286.

(٢) قدر تعدادها بحوالى ١٤٧٥٠ نسمة (سياحتنامه : ١١٥ – ١١٧ (وكان مقرها فى الشنافية) Loftus : Op. Cit. p. 46 (وانظر أقسامها فى كتاب العزاوى وسياحتنامه ١١٥) واعتبر خورشيد جليحه منها وهى فى نظره قسمين : خزاعل الأصلية ومنها جليحه وطوائف الأغوار وخزاعل الشامية المنسوبة فقط إلى هذه العشيرة (سياحتنامه ١١٥ – ١١٧) وانظر أقسامها فى الهندية فيه أيضاً .

وانظر حديث هلفر عنهم فى Layard : Discoveries. p. 541-545.

Helfer : Op. cit. I, pp. 285-86.

(٣) يقول لايارد إنها كانت تميل للإنجليز .

Layard : Discoveries. pp. 541-5.

المياه فتجف الأراضى فيتمكن الجيش من التقدم صوب معسكرات العشائر . ومن هذه السدود التى لعبت أدواراً كبيرة فى هذه المعارك سدة الهندية (١) وكانت العشائر تهدم السدود التى تقيمها الحكومة فتترتب على ذلك خسائر فادحة لإمكانات الإنتاج الزراعى (٢) .

وهناك من عشائر العراق الجنوبى ما أثار الدهشة فى نظر الباحثين من حيث طباعهم وأصولهم . ومن هذه العشائر «الصليب» أو «الصلبة» . واسمهم نفسه يثير الحيرة . فمنهم فى الوقت المتأخر من اعتنق المبادئ الوهابية السلفية (٣) ، ومنهم من ترك أصول دينه ، واتبع أساليب وثنية ، وفقد بعضها الصفات التى تشترك فيها العشائر العربية القوية منها أو الضعيفة . فهى لا تحمل السلاح فى وجه أحد ، وتبتعد عن مواطن الاحتكاك مفضلة المستنقعات وحر الصحراء على مناجزة عشيرة مكانها . ورجالها يعملون فى الطب وكذلك نساؤها . ويستخدمون النباتات فى العلاج ويعيشون على صيد الغزلان فمنها لباسهم وطعامهم ومن جلودها مأوى لهم . وفى بيوتهم حمر وحشية ، ومراعيهم بعيدة عن ملاجئ العشائر وعن الطرق المعروفة ، ومع ذلك فهم أعرف الناس بمسالك البلاد عبر الصحارى وبمنازل الأمطار . وهم يكرهون السرقة أو المخاتلة فى معاملاتهم مع الناس ، ولكن لا يستقرون فى مكان وإنما يسعون وراء الرزق وإلى من يريد العلاج . والعلاقة بين الزوجة وزوجها قوية ، هى ساعده الأيمن فى الاستقرار والترحال وفى العمل ، ولكنهم متهمون بأشنع الاتهامات الخلقية والدينية ، وينكر العزاوى هذا كله ويقول إنها تخرصات مسيحية (٤) .

إلى جانب هذه العشائر توجد عشائر عربية علوية بكاملها . ونقول علوية تجاوزاً إذ أن عدداً ليس بالقليل منها مشكوك فى صحة نسبه أو على

(١) Ibid. p. 478.

(٢) Bode : Travels in Luristan II. p. 120.

(٣) عباس العزاوى : عشائر ج ١ : ٣١١ – ٣٢٦ .

(٤) العزاوى : عشائر ج ١ : ٣١١ .

الأقل شوه توالى القرون صحة النسب . وتحقيق هذا الموضوع قد لا يجدى . ومن أشهرها عشيرة (الحديديين) وهناك السادة فى العمارة الذين وفدوا إلى العراق فى ١٢١٨هـ – ١٨٠٠م من الحجاز ، وكان لهم مكانة لدى نامق باشا ومن رجال السادة من دخل مجلس إدارة بغداد . وكان بعضهم يلتزم بعض الأراضى من الحكومة (١) .

وإلى جانب هذه العشائر يوجد عدد كثير من العشائر الصغيرة تغاضينا عن ذكرها هنا نظراً لأنها لم تقم بدور له قيمته فى الفترة التى نحن بصددها (٢) .

الصراع بين العشائر العربية والحكومة العثمانية (١٨٣٠ – ١٨٦٨) :

عندما شرع على رضا فى التقدم صوب بغداد لطرد داود منها تطلع إلى أن تنضم إليه العشائر العربية الكبرى لتكون عوناً له . وكان من اليسير عليه أن يكسب تحالف عشائر شمر الجربا التى كانت تحت قيادة صفوق . فقد كان صفوق على علاقات سيئة جداً بداود خلال السنتين الأخيرتين من حكمه ، بل كانت القوات الشمرية تستعد لحصار بغداد فى ١٨٣٠ . وعند ما نجحت قوات على رضا فى دخول بغداد واستتب له أمر المدينة كان عليه أن يبسط سيطرته على مناطق العشائر القوية فى وسط وجنوب العراق . وكان من اليسير على « على رضا » أن يحصل على ولاء عشائر وسط العراق لأن هذه العشائر كانت غالباً ما تحاول أن تسوى أمورها بالتفاهم مع الوالى الجديد . حتى يحين ميعاد جمع الضرائب فتأخذ فى التمرد والمشاغبة . هذا إلى أن على رضا لم تكن تحت يده من القوات ما يكفى لإرسالها إلى وسط وجنوب العراق لفرض سيادتها بالقوة على العشائر . ولذلك عمل على تثبيت كل شيخ فى مشيخته . ولقد فعل ذلك حتى مع شيوخ بعض العشائر التى ظلت موالية لداود حتى آخر لحظة ، ومن هؤلاء عقيل السعدون شيخ عشائر المنتفق .

---

(١) العزاوى : عشائر : جـ ٤ : ص ٢٢٩ – ٢٤٩ .

(٢) قدم لنا العزاوى تقسيماً تفصيلياً للعشائر فى القرن العشرين ، أماخورشيد باشا فقدم لنا تفصيلات غير منظمة عن تقسيمات العشائر فى منتصف القرن التاسع عشر . والدراسات الأجنبية فى القرن التاسع عشر مضطربة ومضللة فى أحوال كثيرة جداً .

على أن على رضا فى الوقت نفسه ترك أعداء عقيل السعدون يتجمعون ضده تحت قيادة صفوق شيخ عشائر شمر الجربا . وأخيراً دارت المعركة بين صفوق وحلفائه من بيت السعدون (١) من جهة وعقيل من جهة أخرى . وشعر عقيل أن أعداءه أكثر منه قوة فاستنجد بشيخ عشائر كعب وكذلك بشيخ الكويت . وأغلب الظن أنهما لم يقدما له مساعدة تذكر . وخاض عقيل المعركة وحده . وخسرها وسقط فيها صريعاً . فأسند على رضا الحكم إلى أحد آل السعدون من أعداء عقيل وهو ماجد بن حمود (٢) . ولكن لم يلبث على رضا أن وجد أن ماجداً هذا لا يصلح لحكم عشائر المنتفق لضعفه فعزله وأسند المشيخة إلى عيسى الذى يعتبر من أقوى شيوخ عشائر المنتفق فى النصف الأول من القرن التاسع عشر (٣) . وبينما هدأت أمور عشائر المنتفق خلال حكم عيسى هذا ، وعاشت متفاهمة مع الحكومة إلى حد كبير نجد صفوق شيخ عشائر شمر الجربا ينقلب بسرعة ضد على رضا .

وترجع أسباب تمرد صفوق ضد على باشا رضا إلى أن الظروف السياسية فى منطقة الشرق الأدنى كانت تشير إلى أن الدولة العثمانية سترکع على قدميها أمام القوات المصرية المنتصرة وأصبح صفوق فى مفترق الطرق . هل يلبى نداء السلطان له بأن يزحف بعشائره إلى الشام لقتال القوات المصرية أو ينقلب على العثمانيين منتهزاً هذه الفرصة الذهبية ليصبح « سلطان البر » وسيد العراق العربى . واختار صفوق الطريق الثانى ورفض تنفيذ أوامر السلطان ، بل وهاجم العشائر الموالية لعلى رضا . وأغلب الظن أن صفوق استاء من فرار قطاعات كبيرة من عشائر عنزة من وجه القوات المصرية صوب العراق إلى أراضى ومراعى شمر الجربا ، وكان على رضا بطبيعة

---

(١) وهو البيت الحاكم فى سوق الشيوخ .

(٢) Taylor: to the Bombay Govrt. Oct. 6, 1831. No 76. Saldanha : Precis of Turkish Arabia. Parg. 127. & Lorimer : Op. cit. Vol. I. part. I. p. 1313.

وانظر كذلك : عثمان بن بشر : جـ ٢ : ص ٤٠ – ٤١ ، صلاح المختار : جـ ١ : ٢٤٧ .

(٣) Taylor: to Sec. Comm. July 13, 1832.)Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol.49

الحال يرحب بهذه العشائر لتكون مثلا لغيرها من العشائر وليستخدمها من بعد فى الدفاع عن العراق ضد أى هجوم مصرى (١) .

عندما قرر صفوق أن يسلك طريق الثورة ضد العثمانيين وجد إلى جواره قوة مناهضة للعثمانيين فى الموصل ومتعاونة مع المصريين بطريق غير مباشر على الأقل . ونقصد بذلك يحيى الجليلى الذى استولى على الموصل من أيدى العثمانيين ليحكمها باسم المصريين (٢) . ولذلك كان تحالفهما أمراً طبيعياً . خاصة إذا لاحظنا أن الإشاعات كانت تتردد بأن المصريين كانوا فى معسكر صفوق يحرضونه على العمل ضد القوات العثمانية فى بغداد (٣) ، ولا نستبعد أن يكون المصريون قد أعانوا صفوق على ثورته بأن أرسلوا إليه مستشارين عسكريين . كما كان من الطبيعى أن يستعين صفوق فى ثورته بأعداء الحكم العثمانى فى بغداد . وخاصة بفلول المماليك(٤) الذين كانوا يبحثون عن كل عدو لعلى رضا لينضموا إليه وليشنوا حرباً يائسة ضد هذا الوالى الذى قضى على حكمهم وذبح إخوانهم .

تقدمت قوات شمر الجربا — تحت قيادة صفوق — صوب بغداد وأطبقت على الطرق المؤدية إلى المدينة حتى غدت المدينة فى حالة حصار تقريباً . ووضعت والى بغداد فى وضع شديد الحرج ، ولكن القوات العشائرية لم تكن لديها إمكانات فتح المدن أو خوض حروب طويلة المدى . فبدأت وطأة الضغط الشمرى على العاصمة تخف رويداً رويداً ، بل أخذت الأمور تتطور لصالح على باشا رضا والى بغداد . فقد كان والى بغداد ماهراً فى انتهاز الفرص المناسبة لضرب أعدائه كل على حدة . فبينما كان

(١) مرسوم على باشا والى الشام فى ١٢ من ذى القعدة ١٢٤٧ هـ م من أبريل ١٨٣٢ م محفظة ٢٣٣ عابدين وثيقة رقم ٢٨ ، من إبراهيم يسفن إلى السر عسكر باشا : محفظة ٢٣٩ عابدين وثيقة رقم ٩ فى أكتوبر ١٨٣٢ م / جمادى الأولى ١٢٤٨ هـ

(٢) محفظة ٢٣٩ عابدين — وثيقة رقم ٩ فى ٩ جمادى الأولى ١٢٤٨ هـ / ٤ أكتوبر ١٨٣٢ م

(٣) Taylor: to Sec. Comm. Oct. 26, 1833)Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 49. pp. 785-92.

(٤) Taylor: to Pol. Dept. July 22, 1835)Ibid. Vol. 49. pp. 541-543)

صفوق بعشائره يهدد بغداد عزل يحيى الجليلى وسلط ضده بعض القوات العثمانية . وكان يحيى الجليلى مكروهاً من أهل الموصل الأمر الذى جعله فى مركز مزعزع فاضطر إلى طلب النجدة من صفوق . فغادر الرجل معسكره قرب بغداد ورحل شمالا لإنقاذ حليفه . ومن ناحية أخرى وجد صفوق نفسه فى مواجهة عشائر عنزية قوية وفدت إلى العراق هاربة من الشام من وجه القوات المصرية التى كانت تفرض على العشائر السكينة والاستقرار أو القتال . ولم يكن فى استطاعة مجموعات كبيرة من العشائر العنزية أن تقاوم فغادرت الشام إلى العراق علّها تجد المساعدة من والى بغداد والتفاهم مع عشائر العراق على اقتسام المرعى (١) . واستغل على باشا رضا هذه الظروف أحسن استغلال . فرحب بعشائر عنزة حيث إنها تستطيع أن تعينه على الدفاع عن العراق ضد الغزو المصرى المنتظر . وعلى توجيه ضربة قوية إلى شمر الجربا . فالمعروف أن بين عنزة وشمر ثأراً لا يهدأ وحروباً سنوية . وبهذه الطريقة وضع على رضا عشائر شمر فى موقف حرج إذ أصبحت بين نارين : القوات العثمانية فى بغداد من جهة الشرق وعشائر عنزة من جهة الغرب ، مما اضطره إلى أن يرفع الحصار عن بغداد وأن يسرع شمالا لمعاونة حليفه يحيى (٢) .

كان على رضا قد اتفق مع عشائر عنزة على أن تقوم بقتال شمر الجربا حتى تبعدها عن بغداد وأن تحصل عنزة فى مقابل هذه الخدمة على مكافأة مناسبة . ونظراً لأن عشائر شمر الجربا انسحبت دون قتال تنصل على رضا من اتفاقه بينما تمسك شيوخ عنزة بحقهم فى المكافأة على اعتبار أن انسحاب عشائر شمر لم يكن إلا نتيجة لخوفها من جحافل عنزة . ولما أصر على رضا على موقفه ، انقلبت عليه عنزة هى الأخرى وأخذت تعيث فساداً فى نواحى بغداد .

(١) Taylor: to Sec. Dept. 22 July 1835 (Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 52. p. 846) & Helfer : Op. cit. I. p. 118.

(٢) Taylor: to Pol. & Sec. Dept. July. 22, 1835)Ind. O.R., F.R., P.P. G., Vol. 52. p. 846) & Vol. 49. p. 541-3, 777-779, 784-792 Sep. & Oct. 1833. Lorimer : Op. cit. Vol. I. pt.I., p. 1315-1316. & Helfer : Op. cit. I. p. 118

وبرغم ما كانت تبدو عليه أحوال على باشا رضا من تدهور فإنه واجه هذه الأزمات الطاحنة بثبات وعرف كيف يخرج منها منتصراً . فقد كانت العداوة بين شمر الجربا وعنزة من العمق للدرجة التى تجعل الأولى تعمل بكل الوسائل على مقاومة توغل عنزة فى العراق . ولذلك سرعان ما وقع تقارب بين على رضا وشمر الجربا . واستطاع على رضا فى هذه الظروف أن ينفذ عزله لصفوق شيخ شمر الجربا وأن يرفع إلى المشيخة منافساً له وأسرع الشيخ الجديد إلى خوض المعركة ضد عنزة ، ولكن عنزة كانت أكثر عدداً من شمر . كما كانت شمر منقسمة على نفسها . فدارت الدائرة على شمر الجربا ولقى شيخها الجديد مصرعه فى ميدان القتال (١) . وهكذا عجزت عشائر شمر الجربا — وهى القوة الحقيقية القادرة على صد عنزة عن العراق — عن القيام بهذه المهمة ، ولكن عشائر عنزة لم تكن تريد شيئاً من المدن العراقية . وكل مطالبها تنحصر فى الحصول على أكبر مبلغ من الإتاوات والأموال وأكبر مساحة ممكنة من المراعى حتى تعود إلى مراعيها الرئيسية فى بادية الشام . ولذلك لم تلبث عنزة أن انسحبت من العراق بعد وقت وجيز .

حقيقة زال خطر عنزة ، ولكن لم ينس باشا بغداد أو القيادة العثمانية العامة فى ديار بكر الحرج الذى سببه صفوق للعثمانيين خلال معارك الشام . وكانت الخطة العثمانية العامة بعد صلح كوتاهية تستهدف القضاء على القوى الوطنية العديدة الموجودة فى الأناضول وكردستان والعراق العربى . وكان صفوق هدفاً رئيسياً للعثمانيين حيث إنه اتخذ موقفاً أعان فيه المصريين — إعانات غير مباشرة — على زحفهم فى الشام حين امتنع عن مساندة الجيش العثمانى وتحالف مع يحيى الجليلى فى الاستيلاء على الموصل من أيدى العثمانيين ، بل ثبت أن صفوقاً كان بصدد اتخاذ إجراءات لها أهميتها الكبرى . فقد كان على اتصال بمحمد على باشا (٢) ؛ وبرغم أنه لم يعثر على محتويات

(١) Lorimer : Op. cit. Vol. I, Pt. I. pp. 1315-1316 & Taylor to Sec. Comm. 7 Dec., 1837.)Ind. O.R.,F.R.,P.P.G., Vol. 51, pp. 547-555, 420, 1-3.

(٢) جاء فى جرنال الحوادث « ولقد وردت من طرف سفوك شيخ عشيرة سنبر بجزيرة بغداد خادم ومعه قطعة بها قائمة لتقدم إلى ولى النعم » محفظة ٢٤٩ عابدين وثيقة ٧ — ١ حوالى ٣ محرم ١٢٥٠ هـ/ ١٣ من مايو ١٨٣٤ م .

هذه الرسالة . فأغلب الظن أن صفوق كان يرمى إلى أن يتفاهم مع قوة مصر الفتية وطرح التبعية العثمانية . وكان العثمانيون فى الوقت نفسه ينظرون فى أمر صفوق فى دقة وإمعان . وكان من رأى الباب العالى أن يرسل مبعوثاً خاصاً لدراسة أسباب تقاعس صفوق عن نصرة السلطان . وبعث فعلا أحد كبار رجال الحكومة للعمل على كسب ولاء صفوق وعشائره للسلطان . فى هذا الوقت كان كل من على رضا باشا ورشيد باشا — قائد عام الجيش العثمانى — يدبران من الحيل ما مكنهما من إلقاء القبض على صفوق (١٨٣٤ م) وبعث به رشيد إلى الآستانة ، ومعه ابنه فرحان (١) . وهناك عامله السلطان ورجاله معاملة طيبة ، وتحملوا أخلاقه البدوية . ولما لم يكن من بين شيوخ العشيرة من يستطيع أن يجمع كلمتها تحت قيادة واحدة سوى صفوق فضلت سلطات الآستانة أن تعفو عنه وأعادته إلى مشيخته (١٨٣٧ م) (٢) على أن يتولى قيادة رجاله فى المعركة الفاصلة المقبلة بين الجيش المصرى والعثمانى (٣) . ويبدو أنه شارك مشاركة مظهرية فى معركة نزيب الأمر الذى أدى إلى أن تطارده القوات المصرية بعد انتصارها (٤) وأن يغضب عليه على رضا فيعزله عن المشيخة فتمرد صفوق (٥) وظل فى تمرده حتى أسندت الولاية إلى نجيب باشا ١٨٤٢ (٦) .

جاء نجيب باشا إلى العراق وهو يضمر تطبيق الحكم المباشر فى كل جزء من أجزاء البلاد بالتخلص من جميع الزعامات والعصبيات الوطنية ، وخاصة

(١) انظر تفاصيل القبض عليه فى Ind. O.R., F.R., PPG., Vol. 64. p. 47. Feb. 5, 1839. تاريخ لطفى : جـ ٤ : ١١٢ — ١١٣ ، عباس العزاوى : عشائر جـ ١ : جـ ١ : ١٥٤ ، تاريخ العراق ٧ : ٢٨ — ٢٩ .

(٢) العزاوى : عشائر : ١ : ١٥٥ — ١٥٦

(٣) انظر ص ٢٠٦ إلى ص ٢٠٧ من الفصل الخامس .

(٤) Taylor: to Secret. Comm. Mch. 31, 1840)Ind. O.R., F.R., PPG., Vol. 68. pp. 33-34).

(٥) Taylor: to Secret. Comm. 17 Aug. 1842. F.O. 195-204.

(٦) Taylor: to Secret. Comm. June 22, 1842. Pol. & Sec. Dept. Recs., Letrs fr. Per. Gulf. Vol. 13. p. 63-65.

تلك التى لعبت بالسلطان خلال أزمة حروب الشام (١) أو أحرجت مركزه فى ذلك الوقت وخاصة صفوق ، وسليمان الغنام شيخ عشائر العقيل .

وكشفت لنا أعمال نجيب عن أنه كان لا يتورع عن استخدام أساليب الخداع للتخلص من زعماء العرب . فقد قتل سليمان الغنام — شيخ العقيل — بحجة تلكئه فى المثول أمامه عقب وصوله إلى مقر الباشوية (١٨٤٢ م) (٢) . وحذر صفوق من أن يقع فى المصيدة (٣) . فبعث بابنه فرحان إلى نجيب باشا للتهنئة فرد عليه نجيب بإعادته إلى المشيخة (٤) . وأغلب الظن أن نجيب فضل الأساليب السياسية على الحملات العسكرية بقدر الإمكان للتغلب على صفوق إذ أثبتت الحملات عدم جدواها إزاء تحركات شمر السريعة وكرها وفرها الذى اشتهرت به . وكان من مصلحة الحكومة تفكك شمر . فاتبع الباشا السياسة التقليدية وهى تأييد مطالب بالمشيخة ينادد صفوق . وما كان أكثر المطالبين بالمشيخة . ولا شك أن الأيام تقدمت بصفوق وفقد كثيراً من مواهبه كقائد مطلق لشمر فى معاركها . إذ نراه يتخلص من منافسه بما يتنافى مع التقاليد العربية حيث قتله فى مجلسه (٥) . ومن دلائل ضعف مركزه أنه سعى لدى القنصل البريطانى تيلر Taylor ليتوسط له عند نجيب باشا (أكتوبر ١٨٤٣م) (٦) .

ولا شك أن تحالف صفوق مع بدرخان — أمير بوتان — فى ثورته

(١) do - do. Ibid, pp. 115-117 (Nov. 24, 1842).

(٢) Taylor: to Sec. Comm. (Nov. 24, 1842) Pol. & Sec. Dept. Recs., letrs. fr. Pol. Agt. Bagd. Vol. 13. p. 115-7. do-do. Nov. 24, 1842. F.O. 195-240.

(٣) أساء مقتل الغنام إلى سمعة نجيب باشا

(٤) Taylor: to Sec. Comm. Aug. 17, 1842. F.O. 195-204.

(٥) Ross : Letters. pp. 50-51; Kemball to Cowely. Sep. 29, 1847. F.O. 195-272.

(٦) انظر مظاهر هذا التفكك فى Ross to Layard : (Ross Letters. p. 61;) Layard : Nineveh & its Remains. Vol. I, p. 87-114 ; Walpole : Op. cit. Vol. I, pp. 327-28.

وانظر متاعب شمر الجربا مع عنزة فى Jones : Op. cit. pp. 369-70; Rawlinson to Canning. Sep. 17, 1845-. F.O. 195-237.

الفاشلة ضد الدولة زادت من حرج مركزه وقوَّت من إصرار نجيب باشا على التخلص منه : وشعر شيوخ شمر الجربا أن وجود صفوق على المشيخة يعرضهم لمتاعب متزايدة فعقدوا مجلس العشيرة وقرروا عزله وإسناد المشيخة إلى عيوضة المطالب الجديد بها (١) ، ولكن صفوق لم يرضخ لقرار المجلس وانقسمت العشائر بين المتنافسين ودارت بينهما المعارك . وتبين لصفوق أنه لن يحرز النصر دون الاستعانة بقوات الحكومة (٢) . فالتمس ذلك من نجيب الذى رحب بما عرضه وبعث إليه بقوة من الجيش تعينه على منافسه ، وعندما دارت المعارك استل الضابط سيفه وصرعه وعاد برأسه إلى بغداد(٣) .

فرَّ « فرحان » عندما علم بمصرع أبيه إلى عشائر عنزة بينما أسند نجيب المشيخة إلى عيوضة ولكن تبين نجيب أن الحكم لن يستقر فى شمر إلا إذا تولاه شيخ من « آل محمد » بيت الرياسة . وأغلب الظن أن نجيب خشى من أن يواجه تحالفاً بين شمر الجربا وعنزة فعزل عيوضة وأسند المشيخة لفرحان (٤) .

يعتبر مصرع صفوق وإسناد المشيخة لفرحان نقطة تحول رئيسية فى تاريخ عشائر شمر الجربا . كان فرحان ابن سيدة حضرية ، وأثرت فيه مظاهر الحضارة والتقدم خلال إقامته منفياً مع أبيه بالآستانة من ١٨٣٤ — ١٨٣٧ (٥) . فكان أكثر اقتناعاً من غيره بقيمة التفاهم مع الحكومة ، والاستقرار فى الأرياف . ورحبت الحكومة بهذه الميول وأعانته على السير

(١) Ross : Letters. pp. 49-50.

(٢) Kemball to Cowley. Sep. 29, 1847: F.O. 195-272.

(٣) انظر تفاصيل مصرعه فى عباس العزاوى : عشائر : ج ١ : ١٥٥ — ١٥٨ . أما « روس » فيقول إن صفوق ذهب دخيلا لدى عنزة ثم التجأ إلى نجيب الذى اعتقله وأسند المشيخة لعيوضة

Ross : Letters. Dec. 19, 1847. p. 135, 148.

وكان مصرعه سبباً فى رثاء البدو له وأسفهم عليه فى أناشيد كثيرة . وكان لزوجته عمشة دور فى تاريخه البطولى .

Layard : Nineveh & Remains I.p. 100-103.

(٤) Kemball to Cowely : Sep. 29, 1847. F.O. 195-272 & do-do Oct. 27, 1847. Ibid.

في هذا الطريق فرتبت له راتباً شهرياً ليسد به حاجاته دون الالتجاء إلى الغزو(١) . وأقامت معسكراً عند قلعة وضعت فيها قوة من الجند لمساعدته على السيطرة على مختلف العشائر الشمرية (٢) . كما تغاضت الحكومة عن جمعه « الخوه » من القوافل التي تمر بأراضيه (٣) . وهذا لا يعني أنه خرج عن اتفاقاته مع الحكومة ، وإنما كانت الفترة فترة انتقال لا يمكن أن تلغى فيها النظم والحقوق دفعة واحدة حتى يمكن الوصول إلى الأهداف البعيدة دون مشقة .

ثبت نجاح هذا التعاون بين فرحان وحكومة بغداد في عدة مواقف ؛ فقد طارد عشيرة الحمود الشمرية لأنها استولت على قافلة حكومية (٤) ؛ وتعاون مع شبل — أحد ضباط نامق — على جمع غرامة فرضت على بعض عشائره التي غزت بعض القرى (٥) . ولا شك أن هذا النجاح أغرى عدداً من كبار شيوخ العشائر الأخرى ، إذ نجد شيخ الضفير يطلب من الحكومة أن تدفع له راتباً ليعالج جراح عشيرته إثر ضغط القوات الوهابية عليها(٦) ؛ ومعنى هذا أن سياسة دفع الرواتب(٧) كانت خطوة لها قيمتها نحو ربط العشائر بالحكومة وتمهيداً للسيطرة عليها .

كانت هذه الاتجاهات الجديدة في العلاقة بين شيوخ العشائر والحكومة تلقى مناهضة شديدة من جانب عدد كبير من الشيوخ شأنها شأن أي تجديد في مجتمع متطور من البداوة إلى الاستقرار . وتزعم إخوة (٨) فرحان

(١) Taylor : Travels in Kurdistan (J.R.G.S. 1865. Vol. XXXV. p. 54)

(٢) Ellis : Op. cit. Vol. I.p. 117-118.

(٣) Lycklama : Op. cit. Vol. III. p. 217.

(٤) Ross : Letters. p. 61. & Walpole : Op. cit. Vol. I. pp. 339-340.
Layard : Discoveries. ; pp. 268-269.

(٥) Rassam to Bulwer: June 20, 1863. F.O. 195-752.

(٦) Kemball to Bulwer. No. 27, Sep. 25, 1861. F.O. 195-676.

(٧) يبدو أن دفع هذه الرواتب لم يكن منتظماً شأنه شأن غيرها من رواتب الموظفين في ذلك الوقت.
Kemball to Bulwer: No. 27, (Sep. 25, 1871) F.O. 195-676.

(٨) هم عبد الكريم ونايف وعبد الرازق انظر :
Consul at Bagdad to Bulwer: 30 Jan. 1861. No. 2. F.O. 195-676.

من أولاد عمه (١) حركة مناهضة له . وبرز منهم عبد الكريم . وكان أن وجد له أنصاراً بين أهله . ونمت قوته حتى غدا في ١٨٦٣ قادراً على أن يعارض قرارات فرحان والحكومة (٢) ، وأن يبدو من خلال ذلك بطلاً من أبطال آل محمد بيت الرياسة ، الأمر الذي سيؤدي إلى حوادث جسيمة خلال ولاية مدحت على العراق ؛

كان من الطبيعي أن تختلف سياسة نجيب باشا نحو العشائر البدوية مثل شمر الجربا عن سياسته نحو العشائر الريفية أو شبه الريفية في وسط وجنوب البلاد . كانت هذه العشائر الأخيرة مصدر دخل كبير للخزانة (٣) ، ومن الصعب على الجيش أن يفرض سيطرته عليها . فبينما كان استيلاء الحكومة على قلعة الأمير الكردي تكفي لإلغاء إمارته كان اجتياح الجيش لأراضي عشيرة عربية لا يعني سوى خراب البلاد وضياع محصول العام بإغراق الأرض بالمياه وانتقال العشيرة من أراضيها إلى أماكن أخرى مثيرة الفوضى في فرارها وعودتها . ومن ثم كان من الصعب على نجيب باشا أن يعمل على فرض نظام الحكم المباشر على العشائر العربية والإمارات الكردية في آن واحد . فركز جهده في كردستان وترك أمر وسط وجنوب العراق في يد شيوخ العشائر الكبرى الموالية له ليجمعوا أموال الحكومة . فكان قصير النظر حين وضع عشائر بني لام والمعدان تحت حكم شيخ المنتفق حيث كانت بنو لام عدوة المنتفق ، فثارت على هذا الوضع وكانت ظروفها ومواقعها على الحدود الفارسية العراقية تعينها على أن تستمر مدة طويلة في ثورتها كذلك أساء الاختيار عند ما قرب إليه « وادي » شيخ زبيد ومنحه لقب البكوية وأطلق يده لجمع الأموال من عشائر الهندية . فاغتر الرجل بالسلطة التي حصل عليها

(١) انظر وصف آبلنت لها
Bedouin Tribes. Vol. I. pp. 315-316.

(٢) عندما فرضت غرامة على العشائر الشمرية لتعديها على القرى رفض عبد الكريم أن يجمع فرحان شيئاً من العشائر التي تحت حكمه
Rassam to Bulwer: June 20, 1863. F.O. 195-272.

(٣) تعاقد نجيب مع الباب العالي على أن يدفع سنوياً ٣٥٠٠ كيس .
Rawlinson to Canning: May 1849. No. 17. F.O. 195-334.

والجاه الذى أحيط به واشتط فى جمع الأموال حتى بلغ ما جمعه ستة أضعاف المبلغ المطلوب . وتجلت بذلك سيئة من مساوئ نظام الالتزام وهو اشتطاط الملتزم فى جمع الضرائب دون أن تكون هناك سلطة عليا تردعه . فبرغم شكايات الفلاحين العديدة لم يستجب لها نجيب لأن وادى كان يقدم مبالغ كثيرة للخزانة . فلم تصبح أمام عشائر الهندية سوى الثورة على هذه المظالم الصارخة(١) .

كانت ثورة عشائر الهندية ضدّ طغيان وادى ونتيجة للعرف العام المتبع بين العشائر وهو أن لا سيادة لعشيرة على أخرى . وقد تكون سيطرة جند الحكومة على العشائر أيسر من سيطرة عشيرة على أخرى . وكان هذا من مصلحة الحكومة العثمانية حيث إنها تجمع الضرائب دون جهد وأن الصراع بين العشائر يعين الحكومة على السيطرة فى النهاية على جميع العشائر ، ولما كانت قوة « وادى » لا تستطيع وحدها أن تخضع العشائر اضطر نجيب إلى أن يصدر أوامره إلى قائد الجيش السادس عبدى باشا لإخماد الثورة بحد السيف . وكانت هذه أول مرة تسند فيه إلى الجيش مثل هذه المهمة بعد فصل السلطتين المدنية والعسكرية فى العراق .

وصل عبدى باشا إلى مواقع الثوار وهنا لمس أن الثورة لم تنشب إلا بسبب اشتطاط وادى فى معاملة الرعية واغتصاب الأموال منهم . واقتنع عبدى بشكاوى الناس فأحجم عن أن يشهر السيف فى وجههم وكتب إلى نجيب بحقيقة الأمر . لم يقبل نجيب اعتراض قائد الجيش على أوامره ورأى فى ذلك تعدياً من القيادة العسكرية على المسئوليات المدنية وعلى حق الوالى فى التصرف فى أمور البلاد . فرد عبدى عليه بأنه إنما ينفذ الأوامر التى تلقاها من الباب العالى والتى تقضى بأن يستقصى القائد حقيقة الموقف قبل أن يلجأ إلى السيف ، وردد عبدى أن للعرب حقوقاً هضمتها الحكومة فثاروا ؛ وأن التفاهم مع المتمردين هو الطريق السوى لتسوية الأزمة(٢) .

(١) Loftus : pp ; 6-7, 147.

(٢) كانت هناك أسباب شخصية أدت إلى الصراع بين نجيب والعشائر انظر :
Loftus : Notes of a Jour. fr. Bagdad to Bassorah)Roy. Geog. Scc. Lond.XXVI p. 137,141 -182.; Loftus : Op. cit. p. 149-53, 89-90.

تمسك كل من نجيب باشا وعبدى باشا بموقفه ، فاتفقا على إرسال مندوبين من قبلهما للتحقيق فى الموضوع . وما يكادوا يشرعون فى العمل حتى اصطدموا ببعضهم وتمسك كل مندوب بوجهة نظر رئيسه . واحتج نجيب على عبدى لتدخله فى الإدارة واحتج عبدى لتدخل نجيب فى أمور الجيش ووقعت فرقة لا يمكن أن يتغلبا عليها إلا برفع الأمر إلى الباب العالى فرفع كل منهما مذكرة بوجهة نظره (١) .

أدى هذا التضارب بين السلطات إلى انضمام عشائر جديدة إلى الثورة ، فقطعت عشائر بنو لام المواصلات النهرية وتمردت المعدان وشمر طوقه وعفك والخزاعل والعبيد والدليم والضفير ، وربما كان للمنتفق ضلع فى استشراء حركة التمرد . وشعر عبدى أن هذه المسئولية تقع على كاهله فعمد إلى التفاهم مع زعماء العشائر الثائرة . ونجح فى مفاوضاته إلى حد كبير وأعلنوا أنهم ما خلعوا طاعة السلطان وإنما ثاروا ضد طغيان نجيب ووادى (٢) بل أبدى شيوخ العشائر المتمردة استعدادهم لدفع الضرائب ودفعوا من المبالغ ما كان يفوق المبلغ المسجل فى سجلات الحكومة . وبطبيعة الحال كانت هذه المدفوعات أقل كثيراً عن مطالبات وادى . ويبدو أن نجيب شعر أن هذا صفعة شديدة له فقرر أن يتخلى عن مسئولية الإدارة فى المناطق التى يبدو أن السلطات العسكرية مسيطرة على أمورها ، وانتهز فرصة نزاع بين الحامية والجالية الفارسية فى كربلاء وسحب الحاكم المدنى محملاً السلطات العسكرية تبعة ما يقع هناك ، كما أخطر نجيب الجالية الفارسية بأنه غير مسئول وأن عليهم أن يتولوا أمر المحافظة على مصالحهم وأنفسهم . ولا شك أن تخلى نجيب عن مسئولياته فى كربلاء يدل على قصر نظر حيث إن مثل هذا الموقف قد يؤدى إلى منازعات على الصعيد الدولى بين الفرس والعثمانيين .

ومع هذا استطاع عبدى أن يتغلب على الأزمة فى كربلاء ، ولكن طول

(١) Ibid ، أبو الثناء الآلوسى : غرائب الاغتراب ٤٠ .

(٢) Rawlinson to Canning: June 6, 1849. (No. 19) Precis of Turk. Arabia. parag. 131) .

فترة المنازعات بين السلطتين العسكرية والإدارية شجع عدداً من العشائر لتوجيه ضربة شديدة لقوى نجيب ووادى ، فاستولت عشيرة عفك على قلعة الدغارة التى كان يتحصن بها عدد من رجال وادى بك ، وأعملوا فيهم السيف (١) .

ولعل الباب العالى أدرك أن تغييراً فى أسلوب معاملة العشائر بإسناد الولاية إلى عدى — صاحب السياسة الجديدة فى التفاهم مع العرب — قد يجدى (٢) . على أن الثورات استمرت بالعنف نفسه الذى كانت عليه فى عهد نجيب فى كردستان وفى العراق العربى . حتى إن عبدى اضطر إلى أن يستدعى عرب شمر الجربا لتخدم كقوة عسكرية فى الولايات بدل القوات التى أرسلت إلى كردستان . فكان هذا الإجراء فى حد ذاته من أسباب تفاقم الأزمة نظراً لأن عبدى ترك لشمر أمر تموين نفسها بنفسها من القرى التى تمر بها فهرب أهل القرى وعم الخراب البلاد الواقعة على دجلة حتى كوت العمارة (٣) . وتبين من أساليب حكم عبدى أنه ربما كان قديراً على الأعمال العسكرية لا على الأعمال الإدارية التى ثبت فشله فيها ، خاصة عندما أسندها إلى أحد الملات الجهلة (٤) . وتجلت مظاهر فشله إزاء العرب إذ حكم بالإعدام على وادى بك وأسند المشيخة لابنه الضعيف (٥) . هذه

(١) Ibid

(٢) Lorimer : Op. cit. Vol. I, Pt. I.p. 1365 وصف أبو الثناء الآلوسى العراق عندما تسلم عبدى الحكم بقوله إن الأخير كان « يهوى قلبه البقاء فى العسكرية .. لأنه نشأ فيها.. على أنه يعلم أن علم السياسة أدق من عمل الإكسير والفتق الذى فتقه سلفه يعجز عن رتقه دقيق التدبير .. » والمعروف أن الآلوسى كان فى نزاع مع نجيب لأمور سنذكرها بالتفصيل فى ترجمة حياته . انظر غرائب الاغتراب : ٣٩ — ٤٠

(٣) زاد الصراع بين فارس ومنصور المتنفقيين من الفوضى وأدت إلى تعطيل التجارة البريطانية مما عرض الباشا للحرج إزاء القنصل البريطانى .
Kemball to British Ambassador at Consple. Oct. 20, 1850, No. 42. Precis of Turkish Arabia. Parag. No. 132.

(٤) Loftus : Op. cit. p. II. Ibid. ومن دواعى فشله كذلك فى جنوب العراق أن السد الذى أقامه فى الهندية انهار بعد الانتهاء منه .

(٥) Layard : Discoveries. p. 489, 575 ; Jones : Selections. pp. 273-275 ; Lorimer, Op. cit. Vol., I, Pt. I. pp. 1394-96.

المساوئ تفسر لنا سرعة عزل عبدى وإسنادها إلى نامق باشا بالإضافة إلى قيادة الجيش(١) .

استمر وادى بك فى تمرده ، واستطاعت قوات الثوار أن تحرج موقف حامية الديوانية . وسرت بسبب ذلك روح التذمر بين ضباط الجيش. وكان نامق عنيداً فى سياسته إزاء العشائر معتقداً أن القوة كفيلة يوماً ما بأن تخضع العشائر لأوامر الحكومة ، ولكن فشلت حملاته مثلما فشلت حملات غيره فى تلك المناطق التى يصعب على الجيش اجتيازها ، ولذلك لجأ نامق إلى الأساليب المعهودة وهى التفاوض مع شيوخ العشائر وتوسيط رجال الدين فى إقناعهم بوضع حد لهذه الفتن . ودارت المفاوضات بين الحكومة والثوار ، ولكن نامق استبعد وادى عن هذه المفاوضات . ولعله كان يهدف من وراء ذلك عزل وادى عن بقية الثوار لينفرد به ، ولكن نفوذ وادى كان قوياً على بقية الشيوخ الثائرين فباءت المفاوضات بالفشل(٢) .

وساء الموقف العام بالنسبة للحكومة لا بسبب استمرار تلك الفتن ، ولكن كان كذلك بسبب انتهاز عشائر عنزة ثورة وادى بك لمصلحتها الخاصة. فعبرت نهر الفرات وتعاونت مع عشائر الدليم الكبيرة وعاثت فى مناطق الجزيرة العراقية فساداً وقطعت خطوط المواصلات ، وأطبقت على الفلوجة (المواجهة لبغداد) وعلى هيت ، وعجزت قوات الحكومة عن إنقاذ المدينتين ومابينهما بسرعة لا بسبب قوة هذه الحركات العشائرية العنزية والدليمية فقط ، بل أيضاً بسبب تخوف القيادة العسكرية فى بغداد من القذف بالقوات ضد الثوار فى وقت كانت فيه عشائر شمر الجربا غير مأمونة الجانب. فدخول شمر الجربا فجأة فى القتال إلى جانب الثوار سيؤدى إلى عجز كامل لجيش بغداد عن إخماد الثورات وإلى استشراء الفتن فى بقاع جديدة(٣) . ومع أن شمر الجربا

(١) Rawlinson to Sec. Comm. Feb. 2, 1852. Pol. & Sec. Dept. Recs. letrs. fr. Per. Gf. Vol. 14, p. 241-246.

(٢) Rawlinson to Sec. Comm. Feb. 2, 1852)Pol. & Sec. Dept. Recs., Ltrs. fr.Per. G., Vol. 14 pp. 241-246) & Rawlinson to Ross : July 27, 1852. No. 2ç Precis of Turkish Arabia. Parag. No. 131). & Rawlinson to Canning. Ap. 21, 1852 No. 14, F.O. 78-907.

(٣) Rawlinson to Canning. 14 July 1852. No. 22. F.O. 78-907.

وقفت تقريباً على الحياد خلال تلك الأزمة وحتى ذلك الوقت ، فإن استفحال الثورات جاء من جانب عشائر المنتفق والخزاعل .

كانت عشائر المنتفق خلال عهد على رضا (١٨٣١ – ١٨٤١ م) ، على علاقات طيبة إلى حد ما بالحكومة ، حيث إن الحكومة تجنبت الاصطدام بها (١) . وكذلك فى عهد نجيب الذى تفاهم بالمفاوضة تارة والتهديد أخرى مع شيوخ المنتفق على تقديم الأموال والقيام ببعض الأعمال النافعة (٢) .

وأغلب الظن أن بندر – شيخ المنتفق فى الأربعينات – وجد أن الوالى يتابع باستمرار الضغط عليه وتزايدت مطالب الحكومة منه . فتطلع إلى الثورة ووجد فى ثورة وادى – ضد الحكومة (٣) خير حليف له . ولذلك كان بندر متعاوناً مع وادى فى ١٨٤٨(٤) . وأصبح «وادى» أمل بعض شيوخ عشائر المتمردين على الحكومة العثمانية والطامعين فى الوصول عنوة إلى الحكم فى سوق الشيوخ . وكانت أمور المنتفق قد أسندت بعد وفاة بندر إلى فهد العلى ١٨٤٨ م . وبعد وفاته تنافس كل من فارس ومنصور على الحكم ودارت

---

(١) عندما دخل على رضا بغداد كان عقيل السعدون هو الحاكم فى سوق الشيوخ ، ولكن انتصرت عليه قوات شمر الجربا والقوات المنتفقية المعادية له ، وتسلم ماجد السعدون الحكم . ولكنه لم يرق فى عين على رضا فعزله ورفع عيسى إلى الحكم وعندما أرسل على رضا حملة إلى جنوب العراق والمحمرة كان فى نيته أن يرسل حملة ضد سوق الشيوخ ، ولكنه عدل عن ذلك .
Ind. O.R., F.R., P.P. G., Vol. 49. pp. 207, 224, 249-253, 303-305. (Jan. a1832-Mch. 1833).

(٢) فقد اتفق نجيب مع شيخ المنتفق – عقب إسناد الولاية إليه – على أن يقوم الشيخ بشق بعض الترع وإصلاح بعض السدود لتوجيه العشائر إلى الاستقرار فى الزراعة ولزيادة الإنتاج الزراعى .
Rawlinson to Sec. Comm. 26 Oct. 1844 (Pol. & Sec. Dept. Recs., letrs. fr. Pol. Agts. & Consls., Vol. 14. pp. 37-47).

وعندما عمل نجيب على إضعاف شوكة المنتفق باقتطاع أجزاء من ديرتهم وبعث ابنه أحمد لهذا الغرض وجد أحمد صعوبة فى ذلك ففضل التفاهم مع شيخ المنتفق على زيادة الضريبة السنوية من ١٠٠ – ٢٠٠ ألف شامى .
Rawlinson to Canning. Dec. 10, 1845, F.O. 195-237. do-do. 4 Feb. 1846، Ibid.

(٣) انظر هذا الفصل ص : ١٧٢

(٤) Rawlinson to Canning. Aug. 16, 1848. F.O. 195-318.

بينهما معارك طاحنة . وكان الأول هو مرشح الحكومة فكان فارس هو الثائر ضد الحكومة . ووجد منصور – مثل سلفه بندر – فى ثورة وادى فرصة كبرى لتحقيق هدفه . فتحالف مع وادى واستنجد بعشائر كعب ، وتمكن من بعد أن يوجه ضربة حاسمة إلى منافسه فارس الذى لم يجد بداً من الاستسلام لمنصور فما كان من الأخير إلا أن حكم عليه بالإعدام (١) .

ولا شك كان تحالف وادى مع منصور – المطالب بمشيخة المنتفق – أخطر تحالف واجهه نامق إذ أن عشائر زبيد أكبر وأقوى عشائر وسط العراق والمنتفق سيدة الجنوب ، وانضمت الخزاعل المسيطرة على وسط العراق إلى الثورة كذلك . وكل هذه العشائر تسيطر على خطوط المواصلات العالمية والمحلية وتستطيع أن تحرج موقف الوالى أمام الباب العالى وأمام القنصل البريطانى . وتتبين خطورة هذا التحالف بين وادى ومنصور من أن الأخير – وقد قوى جانبه – هدد بحرق البصرة إن استمر نامق مؤيداً لمنافسه الجديد صالح العيسى . ولقيت تهديدات منصور صدى قوياً فى دوائر البصرة حتى إن متسلمها معشوق باشا اضطر إلى الاعتراف بمنصور شيخاً على المنتفق . وعندما علم نامق بهذا التصرف من جانب متسلم البصرة رفض الاعتراف بالأمر الواقع واعتبر منصوراً – الذى طرد صالح العيسى من سوق الشيوخ – ثائراً ضد الحكومة(٢) .

كانت انتصارات منصور نذيراً بتقلص السيطرة العثمانية على جنوب ووسط العراق عندما انضمت عشائر الخزاعل إلى وادى ومنصور . فاستقدم نامق قواته من كردستان وطلب تعاون شمر الجربا وبنى لام لخوض المعركة ضد قوات التحالف العربى . وكان النجاح الأولى الذى صادفه الثوار وطول فترة تمرد زبيد وعجز الحكومة عن كسب نصر يشد أزرها فى حرب الدعاية

---

(١) Kemball to Canning Dec. 1850. No. 118 F.O. 195-334. & Ap. 1850 No.14 & Aug. 1850. No. 27 & 24 Sep. 1850. No. 33 & Dec. 5, 1849. No 32 & Rawlinson to Sec. Comm. Mch. 1,1852)Pol. & Soc. Dept. Recs. ltrs. fr. Per. G., Vol. 14. pp. 273-276. & Rawlinson to Malmesbury)Principal Sect. of State for Foreign Affs. F.O. 78-957.

(٢) Saldanha : Precis of Turkish Arabia Parag. 140.

سبباً فى أن تنشط العناصر المعادية للحكم العثمانى فى كربلاء والنجف وحوصرت القوات العثمانية بداخلهما .

وتناقلت الدوائر السياسية الفارسية والبريطانية أنباء هذه الثورات بكل اهتمام حيث إنها تهدد سلامة التجار والحجاج الفرس وتؤثر على التجار البريطانية ، وظهر رد فعل إيجابى خطير لدى هذه الدوائر الفارسية إذ عرض الفرس على نامق أن يرسلوا قوات إليه تعينه على إخماد الثورات ، وطالب التجار الإنجليز أن ترسل الحكومة البريطانية باخرة لحماية سفنهم من هجمات العرب عليها ، ولكن نامق — والحق معه — رفض الطلبين لأنهما ضد سلامة البلاد وأعلن أنه يتخذ الإجراءات اللازمة لفرض السكينة فى جميع الجهات(١) .

وباءت مجهودات نامق فى جنوب العراق بفشل ذريع حيث ظلت العشائر الثائرة مستمرة فى ثورتها مكبدة اقتصاديات البلاد أشد الخسائر ، بل إن عشائر المنتفق اشتبكت مع قوة عثمانية فهزمتها وقتلت قائدها تركجه بيلمز فى ١٨٥٣ على يد مشارى السعدون(٢) . ومن ثم فالمعتقد أن هذا الفشل كان السبب الرئيسى فى عزل نامق عن بغداد وإسنادها إلى رشيد باشا الكوزلكلى ١٨٥٣ فى وقت أعلنت فيه حرب القرم .

ولا شك أن إعلان حرب القرم كان عاملاً رئيسياً فى أن تنظر حكومة الآستانة إلى الثورات فى العراق نظرة جديدة وأن تغير سياستها إزاءها

(١) Rawlinson to Canning. 24 Feb. 1852. No. 7, F.O. 195-367. & May 5, 1852. No. 15. & June 16, 1852. No. 19 & July 14, 1852. No. 22 & Aug. 1852 No. 20 Ibid.

جاء فى كتاب الصدر الأعظم الفارسى لنامق باشا المؤرخ فى مايو ١٨٥٢ أنه فى حالة حدوث اضطرابات ضد الحكومة يجوز للدولة المجاورة أن تقدم المساعدات اللازمة انظر :

Sheill to Malmesbury)Ind. O.R., F.R., P.P. G., Vol. 101. pp. 221-226).

وكان شيل — المبعوث البريطانى فى طهران — يعتقد أن هذا العرض الفارسى يكشف عن روح ودية تهدف إلى تحسين العلاقات بين الدولتين .

do-do. 31 May 1852. (Ibid. p. 217).

(٢) محمد رشيد السعدى : قرة العين : ١٢٥ .

للحيلولة دون استفادة القوى المعادية من هذه الأزمات ضد الدولة ولكى تستفيد هى من قوى العراق عند اللزوم .

ولذلك كان رشيد الكرزلكلى مكلفاً بمهام أخطر من تلك التى كان يكلف بها عادة حكام العراق فكان عليه أن يعد قوى العراق الاقتصادية والعسكرية لصد أية محاولة انتهازية من جانب الحكومة الفارسية للهجوم على البلاد خلال حرب القرم ، وأن يضع إمكانات البلاد فى حالة وقوع هجوم فارسى أو روسى تحت تصرف القيادة العثمانية البريطانية ، وأن ينسق العمليات مع ما كان يعتزمه الإنجليز من إرسال حملة هندية إلى العراق . وواضح من هذا أن أية من هذه الخطط المشتركة ما كانت لتحرز أى تقدم إلا إذا كانت الجبهة الداخلية متماسكة والتعاون وثيقاً بين عشائر جنوب ووسط العراق مع السلطات العثمانية والقيادة البريطانية .

ثبت رشيد الكوزلكلى منصوراً فى مشيخة المنتفق وبذلك وجد تحت يده قطاعات هامة من الجيش يستطيع نقلها بسرعة إلى الحدود الفارسية العراقية عند الضرورة . واستطاع رشيد أن يكسب تعاون منصور معه طيلة مدة حكمه . ولا شك أن هدوء المنتفق ساعده على أن يتفاهم مع بقية العشائر وأن يحصل منها — بأساليب غير مكلفة — على الضرائب السنوية وبعض المتأخرات التى كانت الخزانة فى أمس الحاجة إليها فى تلك الظروف (١) . كما أن هذا الهدوء منح الكوزلكلى فرصة لاتخاذ خطوات إيجابية نحو تصفية الموقف فى ديرة المنتفق لصالح الحكم المباشر منتهزاً التفاهم بينه وبين منصور السعدون(٢) .

وبدأ الكوزلكلى خطته باقتطاع قضاء السماوة من ديرة المنتفق وضمه إلى لواء الحلة . ويبدو أن منصوراً كان يأمل فى أن يتراجع الباشا عن متابعة سياسة الاقتطاع والضغط على عشائر المنتفق متى رفع لواء العصيان كما هو المعتاد . ولكن الكوزلكلى كان حقيقة يدرك أن الفرصة لا تعوض لتوجيه

(١) Rawlinson to Redchiff. Aug. 3, 1853. F.O. 195-367.

(٢) Rawlinson to Malmesbury (1853) F.O. 78-957.

ضربة عسكرية قوية لهذه الإمارة إذ كانت العشائر الكبرى الأخرى ساكنة وهذا يفسر لنا انتصار الجيش انتصاراً سريعاً على قوات منصور ودخوله سوق الشيوخ نفسها لأول مرة فى تاريخ العراق فى ١٤ من شعبان ١٢٧٢ هـ — ١٨٥٦ م . وطبق رشيد نظام الحكم العثمانى فألغى بعض ما كان يجبيه شيوخ المنتفق من ضرائب غير شرعية مثل ضريبة الحيوشية (١) كما أسند منصب القائمقامية إلى أحد قواد جيشه وهو حسين باشا . وكان من المنتظر أن تتمخض هذه الحركة الناجمة عن إدخال سوق الشيوخ نهائياً فى نظام الحكم العثمانى مثلها مثل بقية المدن العراقية ، ولكن شاء القدر أن يحطم المجهودات التى بذلها رشيد إذ توفى بعد ذلك بحوالى ثلاثة أشهر فقط وتركت أمور العراق مدة دون وال يحكمها حتى دخل عمر باشا الوالى الجديد بغداد فى فبراير ١٨٥٨ م . وكان عمر هذا يخالف الكوزلكلى فى سياسته نحو العشائر إذ سحب القوات من سوق الشيوخ وأسند القائمقامية إلى الشيخ منصور (١٢٨٦ هـ — ١٨٥٩ م) الذى التزم ديرة المنتفق . وأغلب الظن أن ضعف الدولة فى أعقاب حرب القرم هو الذى جعل والى بغداد يتجنب استخدام الجيش فى هذه الأحوال للتقليل من النفقات ، كذلك طريقة الالتزام تضمن للحكومة دخلاً دون أن تبذل جهداً ما (٢) .

فى ١٨٦٠ م وضعت ديرة المنتفق فى المزايدة فرست على بندر ببدل قدره ٤٩٠٠ كيس (ربع مليون قرش تقريباً) وبدأ هذا الأسلوب الجديد الذى كان يرفع قيمة بدل الالتزام بسرعة (٣) . وكانت مدة الالتزام ثلاثة أعوام ، وعندما شارفت مدة الالتزام على النهاية أوعز نامق إلى منيب باشا (قائمقام البصرة) أن يقبض على بندر . وفعلا قبض عليه . ويقال إن بندر دفع رشوة كبيرة لمنيب فى مقابل إطلاق سراحه مما كلف «منيب» منصبه .

(١) شبيه بجمرك لسوق الشيوخ .

(٢) عباس العزاوى : تاريخ : ج ٧ : ص ١٠٥/١٠٦/١١٠/١١٧ ، عشائر : ج ٣ : ١١٧ / ١١٩ — مباحث عراقية : ج ١ : ٧٢ — ٩٠ ، ٢٥٥ — ٢٥٧ .
Ind. O.R., P.P.G., Vol. 49. pp. 207, 249-253, 303-305.

(٣) المرجع السابق . فى هذه المزايدة اقتطع كذلك من ديرة المنتفق : أبو الخصيب وباب سليمان وشطرة العمارة (المرجع نفسه) .

شاء القدر أن يحقق لنامق هدفه إذ توفى بندر فى ١٣ من نوفمبر ١٨٦٣ . فانتهز نامق الفرصة واتفق مع منصور على أن يتولى الأخير منصب القائمقامية دون أن يسمى شيخاً وحدد له مرتباً شهرياً قدره ٣٠ ألف كيس ، وكان منصور مرحباً بهذه الخطوة التى يمكن أن تعتبر إلغاء للمشيخة (١٨٦٣م—١٢٨٠هـ) (١) .

كان إلغاء منصب المشيخة أحد مظاهر الإدارة الجديدة ، ولاستكمال مظاهر هذه الإدارة بعث الوالى بسليمان فائق — المتحمس لإلغاء المشيخة — إلى سوق الشيوخ محاسباً . وحددت الحكومة الضرائب بما هو مطبق على غيرها ، فألغيت ضريبة النكال (ضريبة الدم) ومنع منصور من مزاولة حق الإعدام . كما صدرت الأوامر بإنشاء مجلس فى سوق الشيوخ يتألف من كبار الملاك والأعيان والتجار . كما أخرج عملية إقامة سد الجزاير من التزام شيخ المنتفق نظراً لأن شيوخ المنتفق كانوا يستخدمون السخرة لتنخفض مصروفاتهم عليه (٢) .

أثار ذلك التغيير فى أسلوب الحكم جذباً وتنافراً بين أنصار القديم والحديث . والفترة كانت فترة انتقال عرضة لهزات عنيفة يمكن أن توقظ كوامن الروح العربية القومية برغم الاتجاهات الإسلامية العامة الواضحة فى ذلك الوقت . فالحكم الجديد يقوض تقاليد عربية امتدت جذورها إلى عصور سحيقة ومجدها فحول الشعراء وتغنت بها الشاديات وملأت الأهازيج والأناشيد أسماع الشباب والفرسان بذكريات الشيوخ وحكمتهم ومجالسهم وقراراتهم التى يطيعها كل موقد نار . ولذلك انطلقت حركة عربية بزعامة ناصر السعدون دعت العرب إلى وقفة (٣) يدافعون فيها عن استقلالهم ولكف الحكومة عن التمادى فى إلغاء المشيخات العربية . وكان من الطبيعى أن يلقى هذا النداء استجابة من بعض العشائر الكبرى مثل البو محمد والخزاعل (١٨٦٤ م) .

ومع أن منصوراً استنجد بنامق ليعينه ضد ناصر ، اعتقد نامق أن

(١) Precis of Turkish Arabia. Parag. No. 141.

(٢) Ibid.

(٣) A stand for Arab independence.

منصوراً يلعب به ، فعزله (١) . وأعد حملة لإعادة قبضة الحكومة على ديرة المنتفق ، وليضع حداً للتدخل البريطانى فى أمورها حيث كان القنصل البريطانى يصر على أن يتصل مباشرة بالثوار لفتح الطريق أمام مد خط البرق (٢) .

وبينما كان نامق يعد لوازم الحملة وردت إليه برقية من القيادة العامة تطلب منه التريث قبل الدخول فى المعركة واستكمال الاستعدادات (٣) . وأغلب الظن أن للقنصل البريطانى فى بغداد وللسفير فى الآستانة دوراً كبيراً فى إرسال هذه البرقية إلى نامق. فحملة نامق ضدّ منصور كانت كذلك موجهة ضد النفوذ البريطانى المتصاعد بسرعة فى جنوب العراق (٤) . واضطر نامق إلى أن يؤجل الحملة ، ولكنه عزل منصوراً الذى يعطف عليه القنصل البريطانى(٥) . على أن قوى منصور أخذت تنهار أمام قوات منافسه «فهد العلى» التى كانت تساندها البواخر العثمانية . ففر إلى الكويت ومنها إلى نجد وكان فهد شيخاً صعب المراس فلم يتعاون كل التعاون مع نامق، بل تقاعس عن معاونة جيش الحكومة ضد الخزاعل (٦) .

وتؤكد لنا حوادث ثورة الخزاعل والمنتفق أن القنصل البريطانى كان ينفذ سياسة مناقضة لسياسة نامق . كان كمبال Kemball يريد التفاهم مع العشائر بعكس نامق المتمسك بالسيطرة العسكرية عليها . وقد بلغت صلات كمبال بالشيوخ الثائرين أن أصبح واسطة التفاهم بينهم وبين نامق حتى إن

(١) Kemball to Erskine: Jan. 13, 1864. No. 1. Precis of Turk. Arb. Parag. 142 &. Lorimer : Op. cit. Vol. I., Pt. I, pp. 1427-28, 1432-33, 1463.

(٢) Ibid p. 1427-28. ، مباحث عراقية : ج ١ : ٧٢ — ٩٠

(٣) عباس العزاوى : عشائر : ج ٤ : ١١٦ .

(٤) فى هذا يقول كمبال Kemball :

The example of Lebanon after the occupation of Syria by Ibrahim Pacha had determined him to decline foreign intervention on all occasions and in any form. Kemball to Bulwer : May 4, 1864. Prc. Trk. Arb. p65) do-do-June 29, 1864 No. 36. Ibid.

(٥) عباس العزاوى : عشائر ج٤ : ١١٧ .

(٦) do - do. No. 50 dated Sep. 7, 1864. do - do. No. 39. dated July 13, 1864 (Ibid. p. 68-9).

منصور (الشيخ المنتفق الثائر) ومطلق آل كريدى (شيخ الخزاعل) طلبا من كمبال أن يضمن سلامتهما لما اتفق على أن يذهبا لمقابلة الوالى لتسوية الخلافات مع الحكومة (١) . فكان من الطبيعى أن يتبع نامق سياسة هينة لينة مع المنتفق فى سبيل الحصول على الأموال الأميرية فلجأ إلى الطريقة المتبعة وهى المزايدة فى نهاية التزام فهد العلى ١٨٦٦ م حيث كانت هى الطريقة المجدية فى هذه الظروف (٢) واتبع أيضاً طريقة إفراز قطع جديدة وزيد بدل الالتزام بحوالى الثلث تقريباً (٣) مما حمل الفلاحين أعباء ثقيلة حقاً . نظراً لأن الملتزمين كانوا يرفعون من قيمة المطلوبات من الفلاحين حتى يستطيعوا الوفاء بالتزاماتهم . وزاد من هذه الأعباء أن الباشا تمسك بأن يدفع بدل الالتزام كله نقداً . وكان من قبل يدفع نصفه عيناً والنصف الآخر نقداً (٤) . واستمرت الأوضاع هكذا حتى أسندت ولاية بغداد إلى مدحت باشا الذى قرر أن يخطو خطوات حاسمة نحو تطبيق الحكم المباشر فى ديرة المنتفق . على نحو ما سنفصله فى فصل تال .

(١) انظر كتاب مطلق آل كريدى إلى القنصل البريطانى كمبال فى حوالى أكتوبر ١٨٦٤ . F.O. 195-803 A.

(٢) انظر نص الوثيقة ق ى . سركيس : مباحث ج ١ : ٧٢ — ٩٠ .

وجاء فى وثيقة الالتزام هذه «.... وجب وضع (ديرة المنتفق) فى المزايدة بعد إفراز بعض المقاطعات المجاورة للبصرة فقرر المجلس الكبير إفراز المقاطعات المسماة ... الفياضة ، العامية ، يوسفان ، كوت الفرنجى (المعقل) ، كباس الكبير ، كباس الصغير ، باغات الصفارية» المرجع نفسه ٢٥٨ / ٢٦٤ .

(٣) يقول كمبال إن المزايدة رست على ناصر السعدون بمبلغ قدره ٣٦٠٠ كيس سنوياً بزيادة قدرها ٢٢٠٠ كيس سنوياً عن العقد المبرم مع فهد العلى ١٨٦٣ م وأبدى فهد رأيه فى هذا الالتزام بأنه مجحف كل الأجحاف بالناس .

Kemball to Lyons. Jan. 23, 1867. F.O. 78-1958.

(٤) يعقوب سركيس : مباحث عراقية : ج ٢ : ٢٦٢ — ٢٧٢/٢٦٣ .

الفصل الخامس

أثر التوسع المصرى على العراق ١٨٣١ - ١٨٤١

١ - العلاقات بين مصر والعراق قبل التوسع المصرى (١٨١٨-١٨٣١) .

٢ - أثر التوسع المصرى فى الشام على العراق (١٨٣٢-١٨٣٩) .

٣ - أثر التوسع المصرى فى الشام على شبه الجزيرة العربية على العراق (١٨٣٧ - ١٨٣٩) .

٤ - تطورات الموقف فى العراق بعد نزيب (١٨٣٩ - ١٨٤١) .

الفصل الخامس

أثر التوسع المصرى على العراق

١٨٣١ - ١٨٤١

العلاقات بين مصر والعراق قبل التوسع المصرى :

كانت العلاقات بين ولايتى بغداد ومصر واهنة حتى ظهرت الحركة الوهابية . فقد أسند السلطان مهمة إخضاعها أولا إلى مماليك بغداد ففشلوا فى المهمة . فطلب السلطان من محمد على أن يخضعها فنجح واستولى على الحجاز ثم على نجد .

وبعد ذلك أخطر إبراهيم أباه أنه من الضرورى أن تتقدم قوات الحملة إلى الأحساء والقطيف (١) اعتقاداً منه أن هذه العملية ضرورية لإكمال الهدف الذى أرسلت من أجله الحملة وهو تقويض المراكز التى يمكن أن يعتمد عليها الوهابيون . وكانت الأحساء والقطيف فى الواقع ذات مصادر طبيعية وبشرية كبيرة يمكن أن تمنح الوهابيين فرصاً كبيرة لمتابعة المقاومة . وفى الوقت نفسه كان داود باشا والى بغداد (١٨١٧ — ١٨٣١ م) يقدر أهمية مد سيطرته إلى الأحساء ، كما قدر خطورة وصول قوات محمد على إليها وهى الولاية التى ارتبطت بالعراق منذ تقسيمه إلى ولايات عثمانية ، وعلى أرضها دارت المعارك بين عشائر المنتفق وبنى خالد ضد الوهابيين خلال المحاولات الأولى التى بذلتها حكومة العراق للقضاء على الحركة الوهابية (٢) .

---

(١) محفظة ٥ معية سنية — بحراً براً — وثيقة ٩٤ من إبراهيم إلى محمد على فى ١٤ من رمضان ١٢٣٦ هـ .

(٢) جودت : جـ ٦ : ١٠١ ، جـ٧ : ٢٦ -- ٢٩ .

عبد الحميد البطريق : ذكرى البطل الفاتح : ص ٣ ، عباس العزاوى : تاريخ : جـ ٦ : ١٢٢ — ١٢٣ .

هذا إلى أن الجيش المتقدم صوب الأحساء هو جيش محمد على الذى دبر مذبحة المماليك فى مصر وقوّض هذا النظام الذى يحكم شبيهه فى العراق. ومن ثم فإن وصول قوات الحملة إلى الأحساء لن ينظر إليه على أنه مجرد عملية عسكرية ضرورية وإنما على أنه سيؤدى إلى تصادم بين نظامين على طرفى نقيض (١) . ولا شك أن داود قدر كذلك أن وجود قوات هذا الباشا القوى بجواره يهدد سلامته إلى حد كبير . فقد يستخدم السلطان يوماً ما هذه القوات المجاورة له إذا ما أراد بداود شراً . والمعروف فى تاريخ السلاطين أنهم كانوا كثيراً ما يرمون والياً بآخر خدمة لأغراضهم . ولهذه الأسباب أسرع داود بإرسال قوات من عشائر المنتفق وقوات بنى خالد — حكام الأحساء (٢) — لتطهيرها من الوهابيين . وليحكموا هذه البلاد من قبله . وقامت هذه القوات بمهمتها بسهولة نظراً لتشتت قوى الوهابيين فى أعقاب استسلام الدرعية ، ولكن لم تلبث أن ظهرت القوات المصرية فى الأحساء (١٨١٨) . وغدا الصدام وشيك الوقوع بين هاتين القوتين العثمانيتين .

لم يتوان إبراهيم عن رفع يد عمال داود عن الأحساء ، ولم يستمع إلى احتجاجاتهم . وعند ما علم داود بالأمر تجنب الاصطدام بقوات إبراهيم حتى لا يفتح على نفسه جبهة قتال جديدة وهو المشغول بالثورات الداخلية ومقاومة التدخل الفارسى المسلح فى العراق . هذا إلى أن هذه الأمور جرت ولم يكن داود قد ثبّت أقدامه بعد فى الحكم . ففضل داود أن يرفع المشكلة إلى السلطان صاحب الأمر فى تحديد مستقبل الحكم فى الأحساء ، وأن الأولى على حد تعبير داود نفسه : « أن يشرب العاقل من أعلى النهر »(٣) فطلب داود من السلطان أن يرفع يد رجال إبراهيم عن الأحساء وأن يسندها إليه . ويقول عثمان بن سند — مؤرخ حياة داود — إن السلطان بعث بفرمان إلى محمد على يأمره فيه بأن يخلى الأحساء وأن يسلمها لرجال داود (٤) .

(١) جودت : ج ١١ : ٥٨ — ٥٩ .
(٢) عشائر بنو خالد من أقوى عشائر الأحساء وكان الحكم فيها خلال معظم العهد العثمانى
(٣) مختصر مطالع السعود : ٥٠
(٤) المرجع نفسه . وبالبحث فى الدار الأهلية للوثائق السرية لم يعثر على هذا الفرمان .

فهل صدر حقيقة فرمان بهذا المعنى إلى والى مصر ؟ إن الشواهد تؤكد أن إبراهيم حين تقدم إلى الأحساء كان يهدف إلى القضاء على القواعد الوهابية التى يمكن أن تستغل لمتابعة المقاومة ضد الحملة . ولم يكن يُعنى بأن يستقر فى حكمها إذ أنه لم يترك فيها حامية مصرية بعد انسحابه منها ومن نجد . وبعد انسحابه من الأحساء عاد حكمها إلى حكامها السابقين من بنى خالد . وهؤلاء كانوا أقرب إلى العراق منهم إلى القوة المصرية التى وفدت منذ وقت قصير على هذه البلاد . كما أنهم كانوا عمال داود من قبل فى حكم الأحساء قبل وصول الحملة إليها . ومع ذلك عندما استعاد السعوديون الحكم فى نجد وبدءوا يضغطون على الأحساء اضطر هؤلاء إلى أن يطلبوا المعونة من القوات المصرية فى الحجاز دون أن يطلبوها من داود (١) . ولعل أزمة الحربَ بين الدولتين الفارسية والعثمانية وتقدم القوات الفارسية إلى العراق شغلت داود عن إرسال نجدات إلى بنى خالد فتطلع هؤلاء إلى القوات المصرية وكان محمد بن مشارى آل سعود قد بدأ هذا الضغط على الأحساء حتى عادت إلى آل سعود مرة أخرى .

وهكذا لم تقطع عودة « بنو خالد » إلى حكم الأحساء وانسحاب قوات محمد على من سواحل الخليج ونجد الصلة بين المصريين والخليج العربى . فإلى جانب تطلع « بنو خالد » إلى حكومة القاهرة ليساعدوهم فى الصمود أمام الضغط الوهابى كانت حكومة القاهرة ترقب بعين القلق تطور العمليات العسكرية البريطانية ضد إمارات الخليج ، وخاصة البحرين (٢) وضد عشيرة البوعلى(٣) وضد مخا (٤) . فلقد كان النشاط الإنجليزى كبيراً فى ذلك الوقت فقد قام الأسطول البريطانى فى ١٨١٩ بضرب القوى العربية البحرية فى الخليج العربى وأرغمت معظم إمارات الخليج على توقيع معاهدة ١٨٢٠ التى منحت بريطانيا اليد العليا فى تلك الجهات . فقد حرمت هذه المعاهدة

(١) دفتر ٤ عابدين وجه ٥٣ عين ١٦٩ فى ١٣ جمادى الآخرة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ .
(٢) دفتر ٧ عابدين — معية تركى مسلسل ٢٨٢ فى ٢٧ من شوال ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠
(٣) دفتر ٧ عابدين — معية تركى مسلسل ١٧٥ فى ٢١ رجب من ١٢٣٦ هـ .
(٤) محفظة ١٦ عابدين بحراً براً وثيقة ٨٢ حوالى ١٦ من أغسطس ١٨٢٠ .

على الإمارات الموقعة عليها أن تقوم بأعمال السلب والقرصنة وألزمت المعاهدة الموقعين عليها بأن يرفعوا أعلاماً خاصة بهم على سفنهم وأن تقدم الأوراق الدالة على جنسيتها كلما طلبت منها سفينة بريطانية ذلك . كما نصت هذه المعاهدة على أن تجارة الرقيق من أعمال القرصنة واستخدمت بريطانيا مواد هذه المعاهدة فى إثبات أن الإمارات الموقعة عليها إمارات مستقلة لا يصح لدولة أخرى أن تتدخل فى شئونها . وبهذه الوسيلة اعترفت بريطانيا باستقلال هذه الإمارات فى الوقت نفسه الذى احتفظت فيه بحق التدخل العسكرى والسياسى فى أمورها (١) .

كانت حكومة بغداد والقاهرة معنيتين كل العناية بتلك التطورات . وكانت حكومة القاهرة تخشى من أن تمتد عمليات الإنجليز إلى الاستيلاء على السويس (٢) وكانت حكومة داود فى بغداد تخطر الباب العالى بتلك التطورات ليأخذ حذره من الأهداف الاستعمارية البريطانية (٣) . ولكن عناية بغداد والقاهرة بأحداث الخليج الدامية فى ١٨١٩ — ١٨٢٠ كانت عناية سلبية لم تتعد دراسة التطورات هناك وإخطار الباب العالى بها .

كان فتح نجد من العوامل التى جعلت أمور العراق تلقى عناية أكبر من المسئولين فى حكومة القاهرة لأن ما يحدث فى العراق أصبح له أثره على تلك البلاد الواسعة من شبه الجزيرة العربية التى دخلت تحت الحكم المصرى . ولذلك عندما نشبت الحرب الفارسية — العثمانية تطلع السلطان العثمانى إلى تابعه القوى محمد على المجاور للعراق لينقذ بغداد من براثن الفرس ، ولكن محمد على كان مشغولا بفتوحاته الإفريقية ولم يكن العراق قد دخل بعد فى

(١) انظر نصوص المعاهدة فى
Hurewitz : Diplomacy in the Near & Middle East. Vol. I. pp. 88-90

(٢) دفتر ٤ معية تركى ص ٦٣ فى ١٣ رمضان ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ .

(٣) انظر محفظة ٦ معية سنية . مسلسل ٢٠٨ فى ٢٦ من ذى الحجة ١٢٣٤ من الصدر الأعظم إلى محمد على .
محفظة ٧ معية سنية مسلسل ٢٠٩ فى ٩ من جمادى الآخرة ١٢٤٦ هـ .
محفظة ٧ معية سنية مسلسل ٢١١ فى ٢٢ من ربيع الأول ١٢٣٦ هـ .

مشروعاته ، ولذلك تقاعس عن تلبية رغبة السلطان فى إرسال جيشه إلى بغداد حتى انتهت الحرب بعقد معاهدة أرضروم ١٨٢٣ م (١) .

أثر التوسع المصرى فى الشام على العراق :

ويمكن تفسير سياسة محمد على إزاء العراق حينذاك بأن التطورات السياسية والاقتصادية — المحلية منها والدولية — كانت تكشف بقوة عن أن الشام ومصر يجب أن يعيشا تحت حكومة واحدة . فركز محمد على جهوده لتحقيق هذا الهدف وعمل على أن يضم الشام إلى حكمه . وكانت الأزمات بين محمد على والسلطان تعجل من وقوع الحرب بينهما . فقد أبى محمد على بعد دخول السلطان الحرب ضد روسيا بعد نكبة نوارين ١٨٢٧ أن يقدم المساعدات التى طلبت منه للعثمانيين . كما أنه بدأ يتخذ لنفسه سياسة تختلف عن سياسة السلطان . وطالب محمد على السلطان غير مرة بأن يمنحه الشام حسب وعده له من قبل دون جدوى ، ولكنه لم يحصل إلا على كريت . وأخذت العلاقات تتوتر بسرعة بين الطرفين . وصمم « محمد على » على أن يستولى على الشام عنوة . وليأمن محمد على شر هجوم على الجيش المصرى فى الشام من جانب العراق عبر الصحراء الشامية سعى إلى أن يتولى حكم بغداد بكر بك الكوكركلى أحد كبار العراقيين اللاجئين إلى مصر والفارين من وجه داود ، ولكن الباب العالى لم ير فى بكر بك الرجل الكفء لبغداد (٢) . وأغلب الظن أن الباب العالى كان قد بلغ به الضيق من محمد على كل مبلغ وقدر خطورة وجود باشوات عثمانيين يدورون فى فلكه ، إذ يستطيع والى مصر أن يحركهم دفعة واحدة فى ثورة عارمة تقضى على سيادة السلطان فى تلك الولايات الحيوية . هذا إلى أن تولية بكر بك — وهو من الأعيان الوطنيين العراقيين — كانت تتنافى مع سياسة السلطان العامة حينذاك وهى إعادة الحكم العثمانى المباشر إلى ولاياته . وإبعاد الوطنيين عن المناصب الكبرى فى ولاياتهم .

(١) انظر ص ٤١—٤٢ .

(٢) دفتر ٤٠ معية تركى وثيقة ٦٨٣ ووثيقة ٥٤٨ فى يناير ١٨٣١ . ثم استدعى بكر بك إلى الآستانة انظر تاريخ لطفى : ج ٤ : ٧١ . وسيلعب دوراً فى تعبئة الجهود ضد المصريين سنة ١٨٣٩ م .

ومن ثم كان انتصار على باشا رضا على داود (١٨٣١) غير مرغوب فيه لدى دوائر القاهرة إذ أصبح احتمال توجيه إمكانات العراق لمقاومة الجيش المصرى – عندما يتقدم فى الشام – قوياً جداً ، خاصة وأن على رضا – عندما بدأت الجيوش المصرية زحفها – كان لا يزال والياً على حلب مضافة إلى بغداد. بل كان يأمل أن تسند إليه دمشق قبل أن يستولى عليها المصريون(١) . وبدأت مجهودات على رضا ضدّ مصر بأن طلب من أبى الثناء الآلوسى – مفتى بغداد – أن يقوم بدعاية لجمع كلمة الناس حول السلطان فكلفه بأن يشرح « البرهان فى طاعة السلطان » (٢) وبأن يقوم بالاتصال ببعض الجهات المشكوك فى ولائها للسلطان ليدعوها إلى التمسك بالولاء له . فقد استخدمه فى تحرير المكاتبات إلى بعض تلك الجهات. ومن هذا القبيل ما كتبه الآلوسى على لسان على باشا رضا إلى محمد بن عون – شريف مكة – قائلا : «من خروج محمد على باشا المصرى ، المصر على ما يسيء ويزرى ...... حيث أراد حسب زعمه بدهائه الفصل بين الشجر ولحائه ...... فقد ذهب كثير من الأئمة الأخيار إلى أن قتال البغاة أفضل من جهاد الكفار » (٣) . فكان ذلك بداية لحرب الدعاية بين المسئولين فى العراق وحكومة القاهرة .

كانت ظروف العراق المضطربة لا تسمح لعلى رضا بأن يواجه العاصفة الجديدة فى الشام . ولذلك أسرع الباب العالى إلى أن يسند ولاية حلب مع سر عسكرية (٤) عربستان (٥) وسواحلها (٦) إلى محمد اينجه بيرقدار (٧)

---

(١) India office Records ; F.R., pp. G. Vol. 47.

(٢) حديقة الورود : ورقة ١٢ – ١٣٪١٦ .

(٣) حديقة الورود : ورقة ١٧١ – ١٧٢ .

(٤) لم يستمر فى هذا المنصب إلا وقتاً قصيراً حيث تولى القيادة العامة على باشا .

(٥) بلاد العرب تقابلها باللغة التركية لفظ عربستان والكلمة تعنى بلاد الشام وفلسطين فقط (محفظة ٢٣٦ عابدين رقم ١١١ فى ١٩ صفر ١٢٤٨٪١٨ يوليو ١٨٣٢) .

(٦) كانت ظروف العراق مضطربة للغاية . وكانت أقاليم كردستان خارجة عن سيطرة على رضا ، والعشائر العربية متمردة ، والأهالى متمردين فى بغداد والعقيل ثائرين عليه
Ind. O.R.F.R., PP G., Vol. 47, pp. 291-9.
Farren to Sec. Comm. May 2, 1832. (Ind. O.R., F.R., PPG, Vol. 47, pp. 247-266)

(٧) لعب محمد اينجه بيرقدار دوراً له قيمته فى مقاومة التقدم المصرى (الخورى بولس قرالى : ج ١ : ص ٢١) .

الذى كان قائمقام على رضا فى حلب . وكان من الطبيعى أن تتصور القيادة المصرية نتيجة لذلك أن تعاوناً ينسق بين على رضا ومحمد اينجه بيرقدار لصد التقدم . ولذلك نشطت المخابرات المصرية فى جمع المعلومات عن إمكانات العراق العسكرية لتدبير ما يشغل هذه القوات عن تقديم أية مساعدة لجيوش السلطان (١) .

والواقع أن القيادة العثمانية قررت عدم إدخال القوات التى كانت تحت قيادة على رضا فى العراق ضمن إمكاناتها العسكرية وركزت اعتمادها فقط على أكبر قوة عشائرية ضاربة عراقية وأقصد بها قوات عشائر شمر الجربا تحت قيادة شيخها صفوق . إذ جاء فى فرمان إسناد ولاية الشام إلى على باشا :

« أنه تعين شيخ شيوخ آل شمر الشيخ صفوق الفارس الجربا ، وقد وصل الخابور ، وما زال متوجهاً إلى معاونتنا بكافة عشائره وجيوشه كالجراد المنتشر قد ملأ الفضاء والبر » (٢) .

جمع صفوق رجاله وقدروا بحوالى ٣٠–٤٠ ألف مقاتل (٣) ولكنه لم يشترك فى القتال ، بل تمرد على والى بغداد وتعاون مع يحيي الجليلى المطالب بحكم الموصل (٤) كما رأت عشائر عنزة فى اجتياح الجيش المصرى للشام فرصة للقيام بحركات عدائية ضد الطرفين .

كان يحيي الجليلى قد أخذ جانب القضية المصرية . وأغلب الظن أنه

---

(١) محفظة ٢٣٤ عابدين رقم ٨١ مسلسك ١٤٢ أصلية ١٩ من ذى الحجة ١٢٤٧ هـ / ٢١ من مايو ١٨٣٢ .
محفظة ٢٤٦ عابدين ، وثيقة ١٧٩ (بدون من تارنخ حوالى ١٢٤٧ هـ/١٨٣٢) .
محفظة ٢٣٨ عابدين . وثيقة ١١٢ فى ١٣ من ربيع أول ١٢٤٨/٩ سبتمبر ١٨٣٢ .
محفظة ٢٣٩ عابدين . وثيقة ٩ فى جمادى الأولى ١٢٤٨/ ٤ أكتوبر ١٨٣٢ .
محفظة ٢١٠ أمر رقم ١٧٣ فى ١٧ من جمادى الأولى ١٢٤٨/ ١٢ أكوبر ١٨٣٢ .

(٢) محفظة ٢٣١ عابدين – وثيقة (٢٨) فى ١٢ من ذى القعدة ١٢٤٧ هـ : ١٤ من أبريل ١٨٣٢ م .

(٣) محفظة ٢٣٤ عابدين – وثيقة (١٧) فى ٤ من ذى الحجة ١٢٤٧ هـ/٦ مايو ١٨٣٢ م

(٤) محفظة ٢٤٦ عابدين – وثيقة (١٧٨) غير مؤرخة ، (١٧٩) غير مؤرخة .

اعتقد أن جيوش مصر الفتية ستدق عن قريب أبواب العراق المتداعية وأن الحكم العثمانى فيه سينهار . ولس من قبيل المبالغة أن يكتب إبراهيم يكن لإبراهيم باشا :

« إن يحيى باشا بعد أن فر من حلب استولى على الموصل بمساعدة صفوق، ولما إحتج المتسلم المنصوب من قبل « على باشا رضا » على « يحيى باشا » رد عليه بأنه استولى على الموصل بأمر من « إبراهيم باشا » (١) .

وشعر على رضا بأن تيار الأحداث أقوى منه ، وأن انتصارات المصريين المتتالية لن تسمح له بأن يوجه حملة سريعة ضد يحيى فى الموصل . ففضل أن يسند الحكم إليه حتى تحين فرصة مواتية للتخلص منه . وعندما وضعت الحرب أوزارها بين محمد على والسلطان وبعد أن عقدت معاهدة كوتاهية بدأ على رضا يعمل على طرد يحيى من الموصل . فأصدر أمراً بعزله فى ديسمبر ١٨٣٣ . وبدأت العمليات العسكرية ضد الموصل ، ولكنها كانت غير مجدية إذ كانت عشائر صفوق الجربا القوية تحميه (٢) ، ولم يستطع على رضا أن يقضى على الحكم الجليلى فى الموصل إلا بعد أن ألقى القبض بالخديعة على صفوق . فبعد ذلك أصبح الطريق ممهداً أمام ضرب يحيى الجليلى ونجحت الحملة ضده وعادت الموصل إلى ا لحكم المباشر العثمانى ، لتستخدم قاعدة من القواعد السياسية والعسكرية ضد المصريين فى الشام . فقد أسند الحكم فيها إلى محمد اينجه بيرقدار الذى كان على خبرة كبيرة بأساليب قتال المصريين . فقد كان قائمقام حلب عندما زحفت القوات المصرية صوبها . وبعد هزيمة الجيوش العثمانية لجأ إلى العراق . وأخذ يؤرق مضاجع المصريين

---

(١) محفظة ٢١٣ وثيقة ٢٣٩ فى ٩ من جمادى الأولى ١٢٤٨ ﻫ : من أكتوبر ١٨٣٢م .
انظر ماذكره الوكيل السياسى البريطانى من أن أحد الأحزاب المتنافسة فى الموصل أخذت جانب مصر
Taylor to Sec. Comm. Aug. 15, 1832. (Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 49. p.p. 212).

(٢) كانت قوات شمر الجربا تهاجم بغداد فى ذلك الوقت وطلبها يحيى لحمايته ويقول تيلر إن صفوق عندما هاجم بغداد كان ذلك بإيعاز محمد على والى مصر
Taylor to Sec. Com. May 14, 1833 (Ibid. 49. p. 487)
Campbell to Rig. Hon. Charles Grant. Tehran. Jan. 29, 1834. (Ibid. Vol 50. p 53-8)

ويتصل بأهل حلب ليثيرهم على الحكم المصرى حتى إنه كان يقول إنه اتفق مع أهل حلب وأن أمر السيط ة عليها أصبح عليه يسيراً (١) .

وهناك عصبية أخرى دار حولها جدل بشأن حقيقة موقفها من التوسع المصرى وما قيل عن تضامنها مع القوات المصرية الزاحفة فى الشام . والمقصود بذلك هو ميركور بك الكردى الطموح . وكان ميركور أمير الأسرة الصورانية الحاكمة فى راوندوز وكان يسعى إلى السيطرة على كردستان كما كان يشكل خطراً شديداً على مؤخ ة الجيش العثمانى المقاتل فى الشام أو المعسكر فى ديار بكر . وكانت حركات ميركور تنقل أنباؤها باستمرار إلى القيادة المصرية فى الشام وفى القاهرة . وكانت حركاته التوسعية تلقى ترحيباً لدى القيادة المصرية ولكن هل حدث تعاون صريح بين ميركور والقوات المصرية فى الشام ؟

يحدثنا الكاتب الكردى حسين حزتى المكريانى أن محمد على باشا اتفق مع محمد بك راوندوز على أن تتقدم القوات المصرية فى الشام والقوات الراوندوزية إلى ماردين وديار بكر بقصد اقتطاع البلاد الكردية والعربية من الدولة (٢) . ولا ندرى على أى أساس ساق المكريانى هذه الأخبار . حقيقة كان التوسع الراوندوزى من مصلحة القيادة المصرية فى الشام (٣) حيث إنه يشغل القوات العثمانية فى العراق ويهدد مؤخرة القوات العثمانية فى الشام والموصل وديار بكر ، ولكن أغلب الظن أنه لم تكن هناك اتصالات بين الأمير الراوندوزى والقيادة المصرية على تلك الصورة التى صورها المكريانى.

---

(١) دفتر ٢١٠ عابدين وثيقة ١٧٣ فى ١٧ من جمادى الأولى ١٢٤٨ ﻫ — ١٢ أكتوبر ١٨٣٢ م .
محفظة ٢٥٥ عابدين وثيقة ٧٩
محفظة ٢٥٦ عابدين وثيقة ٩٩–٢٦

(٢) على سيدو الكورانى : ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٣) جاء فى تقرير وحيد أفندى : « أن أكراد بك راوندوز النازلين على الحدود بين بلاد العجم وبغداد قد ثاروا واستولوا على كركوك واربل والسليمانية (والتون كوبرى) ... وأن الخبر القائل بأنهم يريدون الاستيلاء على بغداد صحيح « محفظة ٢٣٨ عابدين — وثيقة ٦٨ ، محفظة عابدين وثيقة ١٧٨/، ١٨٩ فى ١٢٥٦ ﻫ/١٨٣ م محفظة ٢٣٥ عابدين وثيقة ٥١ فى ١٢٤٨ﻫ/١٨٣٢ م .

ومما لاشك فيه أن الانتصارات المصرية كانت خير دعاية لمصر فى العراق فجعلت هؤلاء الأمراء يتطلعون إلى مصر . كذلك يبدو أن سلطات القاهرة بعثت بمن يبث الدعاية لها فى العراق أو أن هناك من تطوع من تلقاء نفسه لتأييد القضية المصرية (١) .

وعلى وجه العموم قدرت القيادة المصرية قيمة كسب أهل العراق إلى جانب القضية المصرية . وكان إبراهيم أسرع من أبيه من حيث الاستجابة للأنباء المتواترة عن ثورات فى العراق أو فى مختلف أجزاء الإمبراطورية العثمانية . وكانت مصر حينذاك محط آمال الشعوب التى تنبهت إلى الخطر الأوربى المحدق بها . فقد كانت مصر أمل ثوار البوسنة وأشقودرة (٢) وشاه فارس (٣) ومسلمى الروسيا (٤) . وبالنسبة للعراق ، بعث إبراهيم بكتبه إلى كبريات المدن العراقية : بغداد والبصرة وكربلاء والنجف والزبير (٥) وكان لدى كل واحدة من هذه المدن أسبابها الخاصة التى تدعوها إلى التمرد . فلم يكن أهل بغداد قد وضعوا بعد ثقتهم فى واليهم على رضا (٦) . وكان الحزب العربى فى البصرة يقاوم عودة الحكم العثمانى المباشر إليها (٧)

---

(١) Farren to Sec. Comm. 2 may 1832 Ind. O.R., F.R., Per. Gulf. Vol. 47. pp. 247-266).
Information of capture of Acre and the delivery of Damascus to the troops of Ibrahim Pasha .... This intelligence seems to be pleasing to the people of this city particularly as the entrance of Ibrahim Pasha into Damascus produced immediate fall in the price of provision. , (Ibid. Vol 49. p. 207).

(٢) محفظة ٢٣٥ عابدين وثيقة ٤٦ فى ٧ من محرم ١٢٤٧ هـ/١٨٣٢ .

(٣) Palmerston to Channicarde. Oct. 29, 1839 No. 153.

(٤) من ذلك أن ابن أمير تفليس وكان منفياً فى فارس استحث إبراهيم ليرسل حملة لتخليص جورجيا من أيدى الروس .
محفظة ٢٥٥ عابدين – وثيقة ٢٥/١٨١ – ٣ ، ٢٥/٢٨٣ فى من ٥ يناير ١٨٣٨ م، ٧ من شوال ١٢٥٣ هـ .

(٥) Taylor to Pol. Dept. No. 55 (Ind. O.R,F.R.P.P.G. Vol. 49. pp. 207) July, 25, 1832.

(٦) انظر الفصل الأول ص ٤٥١–٤٥٣

(٧) Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 49. p. 207, 224, 249-253, 303-305. (Jan 1832-1833).

أما كربلاء والنجف فكانتا تتمتعان بحكم ذاتى حتى لقد بلغ الأمر أن وصفت كربلاء بأنها مستقلة عن باشا بغداد (١) . وكذلك كانت الزبير – بسكانها النجديين ذوى الصلف الشديد – ذات رغبة قوية فى الاستمرار فى ممارسة نوع من الحكم الذاتى برغم أنف والى بغداد وتابعه متسلم البصرة . (٢) .

كان إرسال هذه الكتب إلى أهل العراق جزءاً من خطة عامة هدفت إلى إشعال نيران الثورات فى مختلف أجزاء الإمبراطورية العثمانية توهيناً لقوة السلطان ، كما كانت هذه الاتصالات رداً عملياً على الدعايات التى كان يروجها الباب العالى ضد والى مصر .

فماذا كان صدى وصول هذه الكتب إلى أهل العراق ؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال يجدر بنا أن نلقى نظرة سريعة على الموقف هناك . كان الشعب قد بدأ يشعر بوطأة الحكم المباشر . وكان فجر هذا الحكم دموياً صحبته مآسى الطاعون والفيضان والحروب ومذبحة المماليك . وكانت الأداة الإدارية والعسكرية أعجز من أن ترتفع بسرعة إلى مستوى الأحداث الجسام التى هزت الشرق الأدنى منذ التوسع المصرى . بل ما كان تحت يد على رضا من قوة عسكرية فعبارة عن جيش معظمه من الباشبوزق غير النظاميين تحت قيادة ضباط لا يقلون شراهة عن جندهم إلى النهب . فأثاروا مشاعر الناس بفظاعتهم . وإنه لأمر ذو مغزى أن تنشب ثورة عبد الغنى جميل فى بغداد ضد الحكم العثمانى فى ٢٧ من ذى الحجة ١٢٤٧ هـ فى اليوم التالى لسقوط عكا فى يد الجيش المصرى (٣) ، وأن يتفاءل محمد على بهذه الثورة إلى الدرجة التى يقول فيها :

« إننا فتحنا قلعة حلب ... واستولينا على الشام ... وأهل بغداد طردوا الوالى المنصوب عليهم من طرف الدولة وأقاموا من بينهم والياً إيذاناً بالميل لمصر » (٤) .

---

(١) انظر أزمة كربلاء واستيلاء نجيب باشا عليها فى الفصل الثانى .

(٢) Report of the Basra Trade. Rawlinson to Malmesbury)May 23 1852) No. 8.

(٣) تفاصيل هذه الثورة فى ص ١٦٢

(٤) دفتر ٤٠ معية تركى : وثيقة ٨٢٣ فى ٩ من صفر ١٢٤٨ هـ ، ٨ من يوليو ١٨٣٢ م .

وتؤكد مختلف المصادر أن مشاعر أهل العراق كانت حقاً إلى جانب المصريين (١) .

ومع أن الثورات كانت عديدة ضد الحكم العثمانى فى العراق إلا أن القيادة المصرية فى الشام والقاهرة لم تستغل هذه الثورات إلا فى حرب الدعاية فقط . ومع أن هذه الثورات كانت عنيفة إلا أنها لم تكن تحت قيادة موحدة تنسق أعمالها وانتظرت القيادة المصرية أن تنجح هذه الثورات من تلقاء نفسها فى قلب حكومة السلطان فى بغداد بدون أن تقدم لها المساعدات التى كانت ضرورية لتحقيق هذا الغرض (٢) . وأغلب الظن أن كل ما استفادته القيادة العسكرية المصرية من هذه الثورات هو شغل قوات على رضا تماماً عن أن تشترك فى المعارك .

أدت الانتصارات المصرية فى الشام والأناضول فى ١٨٣٢ إلى أن تصبح مفاتيح العراق الشمالية (٣) والغربية (٤) فى يد القيادة المصرية . أو على الأقل أصبح العراق معزولا عن الدولة العثمانية . وأعلن فعلا « ريس أفندى » (٥)

(١) Farren to Sect. comm. 2 May 1832. (Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 47, p. 247-66). Taylor to Govt. Bombay. 29 Ap. 1832. (Ibid. pp. 359-65). Campbell to Sec. Comm. Tehran. Ap. 1834 Ibid. O.R.,F.R., P.P.G., Vol. 50 p. 245-9.
Mendaville to Palmeston 26 Oct. 1832. F.O. 78-212 Taylor to Sec. Comm. (Ind. O.R.,P.P.G., Vol. 49. p. 207 Quest. & Answers inclos. in Taylor's despatch to Sec. Comm. 22 June 1834)Ind. O.R.,E.R., P.P.G., Vol. 50. p. 419). Taylor to chief Sec. to Govrt. Bombay. 10 Mch. 1834. F.O. 195-113.

(٢) محفظة ٢٣٥ عابدين وثيقة ٨٤ فى ١٢ من محرم ١٢٤٨ هـ/١٨٣٢ م

(٣) محفظة ٢٣٥ عابدين وثيقة ١٩٨ فى غاية محرم ١٢٤٨ هـ/١٨٣٢(٢٩ يونيو) .

(٤) أمر إبراهيم باشا بأن يتولى بيره بك حكم ديار بكر وأورفه وماردين . وكانت كلها تحت حكم العثمانيين . عابدين وثيقة ١٤٩ ، ١٥٠ – ١٢ سبتمبر ١٨٣٢ م) .

(٥) ثبت أنه كان فى استطاعة جيش مصرى أن يسير مباشرة عبر الصحراء إلى العراق وأن يتغلب بسهولة على مقاومة عشائر عنزة :

Skinner : op. cit. Vol. II. pp. 82-83, 120 (April 1832)

وانظر شدة خوف العشائر العنزية من القوات المصرية فى

Ainsworth : A Personal Narr. Vol. I. pp. 257-58.

وانظر

Foreign Quarterly Review. No. XIVII. Jan. 1840. p. 411.

(٦) بمثابة وزير الخارجية .

عجزه عن أن يدبر إمكانات للدفاع عن العراق وعن أن يلبى طلبات على رضا بشأن تزويده بإمدادات سريعة لصد الهجوم المصرى المتوقع . وصرح ريس أفندى بأنه ليس لديه من وسيلة سوى أن يرسل مبلغاً قليلا من جيب السلطان الخاص (١) . ومن ثم يمكننا أن نقول إن الباب العالى ترك واليه فى بغداد دون خطة واضحة لمواجهة احتمالات ذلك الموقف ، وترك له حرية التصرف بما تمليه عليه الظروف .

وفى غمرة هذا اليأس سعت الحكومة العثمانية إلى أن تقوى من علاقاتها بالحكومة الإنجليزية لتعينها ضد هذه القوة الناشئة . ولقيت هذه الاتجاهات استجابة قوية فى دوائر لندن السياسية . إذ كانت أهداف بريطانيا ترمى إلى المحافظة على الوضع الراهن بقدر الإمكان ورد القوات المصرية إلى قواعدها فى مصر حتى لا تصبح الطرق المؤدية إلى الهند تحت رحمة هذه القوة الجديدة. ولذلك نجحت مساعى الباب العالى لدى ستراتفورد كاننج – السفير البريطانى فى الآستانة – ليقوم بدور الوساطة فى إقناع الحكومة الفارسية بالتزام سياسة الحياد خلال هذه الأزمة الطاحنة التى يجتازها الباب العالى ، إذ كان الباب العالى يخشى تماماً أن تنتهز فارس الفرصة وتبتلع العراق كما طلب الباب العالى من ستراتفورد كاننج أن يتعاون الكولونيل تيلر – الوكيل السياسى البريطانى فى بغداد – مع على باشا رضا فى مساندة وتقوية الحكم العثمانى فى العراق(٢) .

قدر ستراتفورد كاننج منذ بداية أزمة الشام خطورة التوسع المصرى على المصالح البريطانية وصور لوزارة الخارجية فى لندن أهداف التوسع المصرى وآثاره بشكل يكشف لنا عن تلك الإمكانات الكبيرة التى كانت تستطيع كل من العراق ومصر أن تستخدمها فى تحرير الشرق من الاستعمار والضغط الأوربى . فقد حذر كاننج حكومته من أن نجاح مصر فى أن تضم إليها الشام ثم العراق سيجعلها قادرة على التدخل فى أمور كرمان وكابل

(١) S. Canning: Memoranda on the Turko-Egyptian Quest. 1832.

(٢) Canning : Memorand on the Turko-Egyptian Quest. 1832.
Canning to Campbell: Aug. 2. 1832 ; No. 60. Enclos of a letr. fr. Canning to Palmerston. F.O. 78-211., Ind. O.R.F.R., P.P.,G., Vol. 49. pp. 237.
Memo. Concerning a settlement in the Bay of Scanderoun (without date) (Ind. O.R.,F.R.,P.P.G., Vol. 48.)

وإيران والهند (١) وهى مناطق كانت السياسة البريطانية قد قررت أن تنفرد بها دون أن تنافسها فيها أية قوة شرقية كانت أو غربية (٢) . وفى ضوء هذه الفكرة بدأت الدوائر الدبلوماسية البريطانية فى الشرق الأوسط تجمع المعلومات لتحدد بكل دقة الفرص التى يمكن أن تستغلها القيادة المصرية والثغرات التى تستطيع القوى المصرية أن تنفذ منها إلى تلك المناطق .

وإلى جانب المجهودات التى كان يقوم بها القناصل والوكلاء السياسيون البريطانيون ، استخدم عدد من ضباط جيش شركة الهند الشرقية للتجول فى العراق والشام والخليج العربى والبحر الأحمر ومصر لوضع تقارير دقيقة عن أحوال هذه البلاد ومدى تطور النفوذ المصرى فيها . ومن هؤلاء (٣) فرانسيس راودن جسنى F.R. Chesney الذى حوله ستراتفورد كاننج S. Canning من العمل فى صفوف الجيش العثمانى فى الجبهة الروسية فى حرب ١٨٢٨ إلى دراسة نواحى القوة والضعف فى إمكانات مصر وإلى دراسة مقارنة بين نهرى النيل والفرات من حيث مدى صلاحيتهما للملاحة البخارية(٤) . ولدى الضباط والممثلين الدبلوماسيين البريطانيين من المقدرة ما يجعلهم يربطون بين ما يكلفون به من مهام بالمصالح البريطانية فى الظروف التى تواجههم . وعلى هذا النحو أمطر

---

(١) أشار فارن فى بعض مكاتباته إلى أن اتصالات جرت بين المصريين وعشائر كعب والمنتفق وأمير شيراز

Farren to Sec. Comm. June 15, 1854 (Ibid. Vol. 50 pp. 391-2)

(٢) Canning : Memoranda on the Turko-Egyptian Quest. 1832.

لست بصدد التعرض لسياسة بريطانيا فى تلك الجهات ولكن كشفت لى وثائق India Office & Pub. Rec. Off. أن بريطانيا بذلت مجهودات شاقة فى سبيل تحقيق هذه الأهداف فى أفغانستان وفى إيران . وكان مجرد وجود حاكم مناوئ لها فى تلك المناطق يكلفها حملة سريعة ضده .

(٣) هناك عدد من الرحالة وضباط شركة الهند الشرقية الذين عملوا فى الشرق الأدنى فى ذلك الوقت تحت إشراف الممثلين السياسيين البريطانيين ، ومن أشهرهم فريزر Fraser صاحب المؤلفات والتقارير الهامة عن العراق وإيران والخليج العربى . وأوضح كاننج فى إحدى مكاتباته أنه هو الذى وجه جسنى إلى دراسة نهر الفرات .

Canning to Palmerston: Paris. Dec. 19, 1832. F.O. 78-211.

(٤) Ibid.

القناصل والوكلاء والمأجورون وزارة الخارجية البريطانية بوابل من التقارير عن احتمال سقوط العراق فى يد الجيش المصرى إن آجلا أو عاجلا إن لم تمنع القوة البريطانية ذلك . وفكر كل من تيلر Taylor (١) والسفير البريطانى فى الآستانة — ستراتفورد كاننج — فى استخدام القوة المسلحة البريطانية للدفاع عن العراق ضد الهجوم المصرى المنتظر . إلا أن كاننج Canning خشى من أن تتذرع كل من فرنسا وروسيا بهذه السابقة للقيام بعمليات عسكرية توسعية شديدة الخطورة على الإمبراطورية البريطانية (٢) .

وحاولت الدبلوماسية العثمانية أن تكسب تحالفاً عسكرياً مع بريطانيا ضد الوالى الثائر ، ولكن السياسة البريطانية ترددت طويلا فى الأمر . وأغلب الظن أن ظروف أزمة استقلال البلجيك وغيرها من المشكلات الأوروبية الخطيرة هى التى منعت بريطانيا من أن تفتح على نفسها جبهة جديدة فى الشرق الأوسط قد تثير ارتباكات دولية جديدة . وأدى ذلك إلى أن يضع السلطان يده فى يد القيصر الروسى الممدودة إليه . فعقدت معاهدة خنكار سكله سى . ومما لا شك فيه أن روسيا رأت فى هذه المعاهدة وسيلة لمنع القوات المصرية من التوسع شرقاً فى العراق ولوضع حد للنشاط المصرى المتزايد بين مسلمى القوقاز الذين نشطوا فى مقاومة الحكم القيصرى معلقين الآمال الكبار على أن تتابع مصر مهمتها فى تحرير الشرق الإسلامى بأسره من ظلام التأخر ومن الاستعمار الأجنبى (٣) .

أدت هذه التطورات السريعة فى منطقة الشرق الأدنى إلى أن تجد بريطانيا نفسها أمام عدة تكتلات كبيرة فى سبيلها إلى الظهور والنمو . فالتحالف بين الدولتين الروسية والعثمانية فى حد ذاته تكتل خطير كل

---

(١) اقترح تيلر على حكومته أن تعمل على إدخال ضباط بريطانيين فى جيش والى بغداد

Farren to Sec. Comm. 26 Jan. 1834
Ind. O.R., F.R., P.P.G. Vol. 50 pp. 391-392).
Taylor to Sec. Comm. Aug. 1837. No. 7.)Ibid. Vol. 57. pp. 179-218).

(٢) Canning's Memo on the Turco-Egyptian Quest, 1832.

(٣) Taylor to Sec. Comm. Mch. 14, 1834. (Ind. O.R.,F.R., P.P.G. Vol. 50. p. 193-204).

الخطورة على المصالح البريطانية سواء فى العراق أو فى مصر أو فى الشام والأناضول أو فى البحر المتوسط بصفة خاصة . كذلك كان قيام هذه الدولة العربية الناشئة فى مصر والشام وشبه الجزيرة العربية والسودان يشكل خطراً داهماً على خطوط المواصلات البريطانية عبر الشرق الأوسط إلى الهند . وهذه الدولة العربية ستصبح على جانب عظيم من الخطورة على المصالح البريطانية إذا ما ارتكزت على العراق فضلا عن الشام . فهذه الدولة العربية الناشئة دولة إسلامية متجددة النشاط ستثير فى المسلمين روح التحرر والتعاون وقد تدخل إيران معها فى حلف يضع بريطانيا فى مأزق حرج (١) .

كانت تلك هى النظرة المتشائمة من نمو القوة المصرية فى الشرق الأوسط لدى المسئولين الإنجليز . وكانت هناك نظرة أخرى متفائلة تدعو إلى الاستفادة من قوة مصر الفتية . فربما أبدت هذه الدولة الإسلامية العربية الفتية استعدادها للتعاون مع بريطانيا ضد المشروعات الروسية الموجهة صوب الهند والشرق الأدنى . وقدر بعض المشتغلين بالسياسة البريطانية فى الشرق أن هذا التعاون بين مصر وبريطانيا قد يكفى بريطانيا مؤونة إعداد جيش كبير للوقوف فى وجه روسيا فى هذه المناطق . وتوقع البعض أن حكومة مصر قد تدعو شاه إيران للتعاون معها ضد روسيا والدولة العثمانية (٢) . وكانت العلاقات بين الشاه ومحمد على فى ذلك الوقت طيبة (٣) . ولقد سعى محمد على فعلا إلى إقناع المسئولين الإنجليز بأن توسعه لا يضر بالمصالح البريطانية . ولكن بالمرستون — وزير الخارجية البريطانية — كان يحمل محمد على تبعة عقد السلطان معاهدة خنكار سكلمه سى وتعريض الشرق الأدنى لنزول القوات الروسية فيه . فالسلطان لم يعقد هذه المعاهدة عبثاً . وبعد حين ستنشب الحرب وقد لا تستطيع القوات المصرية الصمود أمام

(١) Copy of a Translation of a Persian Letter fr. His Majs. the King of Persia to H.H. Moh. Ali Pasha of Egypt. July 1833. F.O. 78-25b.

(٢) Ellis : Memorandum on Mohamed Ali Jan 9, 1833. F.O. 78-233.

(٣) انظر رسالة محمد شاه إلى محمد على : فى يوليو ١٨٣٥

الجيوش العثمانية — الروسية المشتركة ، فتضطر إلى التراجع إلى الساحل السورى . ولما كانت المنطقة الواقعة بين الأناضول وبغداد مجرد فراغ — فى نظر بعض المسئولين الإنجليز — فإن سيطرة الروس على هذه المنطقة سيكون أمراً يسيراً . ولا شك أن نشوب القتال بين الروس والعثمانيين من جهة والقوات المصرية من جهة أخرى سيضطر الروس — بحكم الضرورات الاستراتيجية — إلى التدخل فى أمور العراق ، الأمر الذى يهدد بسقوط هذه البلاد بعد وقت قصير فى قبضة الروس . وهذا ما كان يخشاه الإنجليز تماماً (١) .

ولقد أثار على باشا رضا مخاوف الإنجليز من هذه الناحية فقد كان من الطبيعى أن يظهر الرجل ميله إلى الروس تمشياً مع السياسة الجديدة لحكومته ، الأمر الذى أقض مضاجع الوكيل السياسى البريطانى (٢) وجعله يتحرش بالوالى ويحرض حكومته على السعى لدى الباب العالى بأحد كبار رجاله للتحقيق فى الأمر . واتضح له أن الوكيل البريطانى هو الذى يثير المشكلات فى وجه الوالى (٣) .

قدر كل من كاننج وبونسونبى خطورة الموقف فى العراق فى ضوء الصورة التى كان يرسمها تيلر فى تقاريره . وأخذ كاننج ينقب عن وسيلة لخلق مصالح بريطانية جديدة فى العراق يمكن أن تفتح المجال فى المستقبل القريب لاستخدام القوة المسلحة والدبلوماسية البريطانية معاً فى مقاومة المصريين إذا ما تقدموا صوب العراق . وتجنب فى الوقت نفسه إنزال قوات مسلحة علانية باسم الدفاع عن العراق وإنما عمد إلى طريقة ملتوية تدل على مهارة وعمق فى التفكير السياسى والعسكرى . فقد اكتشف كاننج

(١) Taylor to Sec. Comm. 10 Oct. 1834 (Ind. O.R., P.P.G., Vol. 51. p ; 357-360).

(٢) Quest. & Ansewers : Taylor's Dep. to Sec. Comm. 22 June 1834) Ibid) Taylor to Sec. Comm. Mch. 14, 1834 Ibid. Vol. 50 p. 193.

(٣) Taylor to Cormac Mch. 23, 1834 Ibid. 50. p. 223.
Taylor to Sec. Comm. Feb. 4, 1834)Ibid p. 213-220)
Report de Raghib Eff., Chargé d'une Consul de l'Engleterre en cette ville F.O 78-240. & Taylor to Ponsonby 4 July 1834. F.O. 78-237.

أنه يستطيع أن يبعث إلى العراق بباخرتين مسلحتين إذا ما حصل من الباب العالى على فرمان يسمح للإنجليز باستخدام أنهار العراق للملاحة البخارية وهو المشروع الذى كان ينادى به جسنى Chesney لربط أوربا بالهند بهذه الوسائل الحديثة للمواصلات .

حصل كانتج على الفرمان فى ١٨٣٤ (١) وسارت الباخرتان «الفرات ودجلة» فى نهر العاصى. وفى نهر الفرات صعدت الباخرة الفرات نهر دجلة وسارت فى نهر كارون . فكان ذلك أول نجاح بريطانى فى وضع قوة مسلحة فى العراق باسم تنشيط التجارة فى تلك الجهات . ويبدو أن السياسة البريطانية قررت أن يكون الفرات الحد الشرقى للبلاد الواقعة تحت الحكم المصرى حتى تحتفظ بالنفوذ البريطانى قوياً فى العراق وعلى طول نهر الفرات ولذلك ضغطت بريطانيا — تعاونها روسيا — على حكومة القاهرة حتى اضطرتها إلى الانسحاب من أورفه ومن بيله جك (٢) . وبذلك أصبح طريق الفرات أكثر أمناً — بالنسبة للإنجليز — عن ذى قبل . والحق أن الحكومة البريطانية كانت منذ نشوب أزمة الحرب الشامية الأولى تود من صميم قلبها أن تظل طرق المواصلات المؤدية إلى الهند بعيدة عن متناول المصريين . ولذلك كان بالمرستون مغتبطاً من سير المفاوضات التمهيدية التى دارت بين حكومتى القاهرة والآستانة لعقد الصلح بعد انتصار الجيش المصرى فى قونيه . وذلك لأن الشروط التى كانت معروضة على محمد على حينذاك كانت تقتصر على منحه ولاية عكا فقط فيحرم من دمشق ومن حلب وهما الطريق المؤدى

---

(١) انظر تفاصيل استصدار الفرمان وبعثة جسنى فى الفصل التالى .

(٢) محفظة ٢٤٠ عابدين — وثيقة ١٤٨ من سليم بك إلى إبراهيم باشا فى ٢٣ يوليو ١٨٣٤ م/١٥ ربيع أول ١٢٥٠ هـ .

محفظة ٢٣٩ عابدين — وثيقة ١٤٨ فى ٧ من ربيع ثان ١٢٥٠ هـ

محفظة ٢٥٠ عابدين — وثيقة ٢٥٠ فى ٢ شعبان ١٢٥٠ هـ/ ٥ ديسمبر ١٨٣٤ م

محفظة ٢٥٠ عابدين — وثيقة ٢٤٠ فى ٣ ديسمبر ١٨٣٤ .

محفظة ٢٥٠ عابدين — وثيقة ٢٩٠ فى ١٢ شعبان ١٢٥٠ هـ / ١٥ ديسمبر ١٨٣٤ م

دفتر ٢١١ عابدين — وثيقة ٣٢١ فى ٩ جمادى الأولى ١٢٥٠هـ/ ١٤ سبتمبر ١٨٣٤

دفتر ٢١١ عابدين — وثيقة ٤١١ فى ٢٣ رجب ١٢٥٠ هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٨٣٤ ..

إلى العراق» (١) . ولا شك فى أن خط سير بعثة جسنى حتى شط العرب يمثل الحد الأقصى الذى كان من الممكن أن تسمح به الدبلوماسية والاستراتيجية البريطانية للقوات المصرية بأن تصل إليه . ولذلك اصطدمت المصالح البريطانية مع الأهداف المصرية نحو مقاومة الاستعمار الأوربى للشرق . وغنم العثمانيون من وراء هذا الصدام بين الإنجليز والقيادة المصرية فى الشام وحكومة القاهرة . وعمل العثمانيون على أن يجعلوا من العراق — فى الجولة القادمة مع المصريين — قوة إيجابية لا سلبية . ولتحقيق هذا الهدف نشطوا فى تصفية الإمارات الكردية المناوئة للحكم العثمانى (٢) . وعنوا بالموصل كقاعدة لمشاكسة القوات المصرية فى الشام (٣) ، وبعث الباب العالى ببعض القوات النظامية إلى العراق . وكلف على رضا بتكوين جيش من أهل العراق . وتوالت الاجتماعات بين القيادات العسكرية فى بغداد والموصل وديار بكر لتنسيق التحركات ، واجتمعت قطاعات من جيوش هذه القيادات الثلاث فى سيوه رك (٤) عندما اقتربت الأزمة العثمانية — المصرية من ذروتها فى مارس — أبريل ١٨٣٩ . الأمر الذى جعل القيادة المصرية تشدد الرقابة على تحركات كل من على باشا رضا — والى بغداد — ومحمد إينجه بيرقدار والى الموصل وتتقصى حركاتهما بكل دقة (٥) ؛

---

(١) ذكرى البطل الفاتح : ص ٣٦٠ .

(٢) انظر الفصل الثالث .

(٣) انظر الفصل الثانى .

(٤) كانت سيوه رك فى مفترق الطرق مما جعل القيادة المصرية فى حيرة من أمر الجهة التى ستزحف إليها القوات العثمانية المعسكرة فيها .

من إسماعيل عاصم إلى الجناب العالى : ٢٨ من ذى الحجة ١٢٥٤ هـ / ١٥ من مارس ١٨٣٩ م : محفظة ٢٥٧ عابدين الوثيقة رقم ٣ بمرفق رقم ١٤ والوثيقة ٢٣/٢٧ — ٧ فى ١٦ من مارس ١٨٣٩ ومحفظة ٢٥٦ عابدين وثيقة ٣١٤ سلخ ذى القعدة ١٢٥٤ هـ/فبراير ١٨٣٩

(٥) انظر استجواب القيادة المصرية للمسافرين الوافدين على الشام من العراق لاستقصا أنباء تحركات القوات العثمانية فى العراق فى :

محفظة ٢٥٦ عابدين — وثيقة ٣٢٤ فى ١٧ من ذى الحجة ١٢٥٤/ ٤ من مارس ١٨٣٩ ووثيقة ٢٦٦ فى ١٨ من شوال ١٢٥٤ (١٥ من يناير ١٨٣٩) .

وعنيت القيادة المصرية فى الشام باستقصاء حقيقة الإمكانات العراقية التى ستستخدم ضد القوات المصرية وتمكن أحد المصريين من أن يتصل بعبد لعلى باشا رضا نفسه واستدرجه فى الحديث ليعلم منه خط سير القوات من العراق حين تذهب إلى المعركة المقبلة فى الشام واستفسره عن مقدرة على رضا «ومكانته فى التدبير» (١) .

وتبينت القيادة المصرية فى الشام أن جيش على رضا ليس خطيراً إذ أنه كان عبارة عن عساكر الباشبوزق (٢) ولكن الخطر كان يكمن فى عشائر الحربا تحت قيادة صفوق الذى غادر معتقله فى الآستانة منذ وقت وجيز على أمل أن يدفع بعشائر شمر الحربا فى المعركة المقبلة . وكان إبراهيم باشا يعتقد أنه إذا « اجتاز على باشا الفرات إلى ضفته الواقعة من ناحيتنا فيطلق العرب الآنفة الذكر إلى حماة وحمص ودمشق حينئذ تصير جهة المشرق من المعرة إلى الشام خراباً بلقعاً لا يبقى فيها أى خير (٣) » . ويبدو أن هذه الثغرة لم تكتشف إلا فى الأشهر القليلة السابقة لموقعة نزيب . فكان التخوف منها شديداً حيث إن الجيش المصرى كله كان قد احتشد لمواجهة الهجوم الرئيسى العثمانى لدرجة أن إبراهيم أخطر أباه أنه لا مفر من هذه الأزمة إلا «بتسليح عمال الورش وتدريبهم على الأعمال العسكرية» (٤) .

وجاءت الأنباء إلى القيادة المصرية بالشام أن عشائر شمر الحربا وفى أعقابها عشيرتا «سبعة» و« الفدعان » تقترب من حلب (٥) . وأن القوات الشمرية زودت بالطرابيش ليظهروا بمظهر الجند العثمانى . وكان حافظ باشا – قائد الاردو (الجيش) العثمانى – يفخر بأن على رضا باشا ومحمد

(١) محفظة ٢٥٦ عابدين – وثيقة ٣٣٦ فى ٢٧ من ذى الحجة ١٢٥٤هـ/ ١٤ مارس ١٨٣٩م

(٢) محفظة ٢٥٧ عابدين – وثيقة ٥١–٢٧ – ١ فى ١٥ من صفر ١٢٣٥ هـ أول مايو ١٨٣٩ م .

(٣) الوثيقة السابقة .

(٤) الوثيقة السابقة .

(٥) محفظة ٢٥٧ عابدين – وثيقة ٦٤–٢٧ فى ٢٦ من مايو ١٨٣٩ م – ٢١ صفر ١٢٥٥ هـ

إينجه بيرقدار فى طريقهما إليه على رأس ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس (١) .

ولما كانت الجبهة الشامية الصحراوية التى ستعمل فيها عشائر شمر الحربا لا تسمح باستخدام القوات النظامية بنجاح طلب إبراهيم من أبيه أن يبعث إليه بالمزيد من القوات العشائرية العربية من مصر لأنها أقدر من غيرها على قتال عشائر شمر الحربا ، ولكن القيادة المصرية ظلت تحت خطر التعرض لهجوم متعدد الشعب فى وقت واحد حتى إنها وضعت خطتها – فى هذه الحالة – على أساس أن يتولى إبراهيم قيادة طوابير خفيفة تتألف من عشائر عربية وكتائب من الجيش المرابط فى حماة ليفاجئ بها الجيش العثمانى بعيداً عن المدينة ويقذف به فى الفرات . ثم يعود إلى حلب لضرب الطوابير العثمانية التى سلكت الطرق الأخرى . وفعلا أخذت العشائر العربية تفد من مصر إلى الشام لتشد أزر الجيش النظامى هناك (٢).

وبينما انفتحت ثغرة خطيرة فى الجبهة السورية بتولى صفوق قيادة عشائره فى المعركة القادمة انكشف جنوب العراق أمام الجيش المصرى بقيادة خورشيد باشا يعاونه خالد آل سعود (٣) ولذا يجدر بنا أن نعود إلى الوراء قليلا لدراسة حملة خورشيد صوب الخليج العربى (٤) فى ١٨٣٨ حتى قبيل معركة نزيب .

(١) محفظة ٢٥٧ عابدين وثيقة ١١٥–٢٧ فى ٢٦ من مايو ١٨٣٩ هـ–٢١ صفر ١٢٥٥هـ ويقال إن ٥٠٠ خيال شمرى انضموا إلى الجيش العثمانى على الأقل (محفظة ٢٥٧ عابدين – وثيقة ١١٥–٢٧ – ٣٧ فى ٢٧ من مايو ١٨٣٩–١٢ ربيع أول ١٢٥٥ هـ)

(٢) محفظة ٢٥٧ عابدين وثيقة ٥١–٢٧–١ فى ١٥ من صفر ١٥٢٥ هـ – أول مايو ١٨٣٩ م محفظة ٢٥٧ عابدين وثيقة ٥١–٢٧– ٤ فى أول مايو ١٨٣٩ – انظر الإرادة المدونة عليها دفتر ٦ عابدين وثيقة ١٠٠ فى ٢٧ من مايو ١٨٣٩ م – ١٢ من ربيع أول ١٢٢٥ هـ . دفتر ٦ عابدين وثيقة ١٠٩ فى ٣ من يوليو ١٨٣٩ م – ١٩ من ربيع أول ١٢٥٥ هـ .

(٣) كان ممن أرسلوا إلى مصر بعد سقوط الدرعية وعاش هناك . وكان أكثر آل سعود تفاهماً مع الحكومة المصرية وحصل على رتبة البكوية .

(٤) للخليج العربى أهمية سياسية واستراتيجية واقتصادية كبيرة . فأول حملة أوربية وجهت إلى الهند كانت عبر الخليج . وبعد فشل المحاولات المملوكية المصرية ثم العثمانية فى كسر شوكة البرتغاليين فى مياه الهند انطلقت السفن البرتغالية فى الخليج العربى والبحر الأحمر. وأصبحت تلك المياهميادين تتصارع فيها الأساطيل الأوربية حتى انتهى الأمر بالتفوق التام البريطانى فى

أثر التوسع المصرى فى شبه الجزيرة العربية على العراق :

بعد انسحاب القوات المصرية من الأحساء ومن نجد إلى الحجاز فى ١٨١٨–١٨١٩ أصبح الجو ممهداً أمام تركى بن عبد الله آل سعود ليعيد تأسيس الدولة السعودية الثانية (١٨٢٠ م) . واستولى على الحكم فى نجد ثم الأحساء ودون أن يثير عليه نقمة الحكومة المصرية وعنى كل العناية بتثبيت أقدام الحكم السعودى الجديد فى نجد ونجح تركى فى ذلك حتى إنه بعد مصرعه على يد مشارى بن سعود لم يكن هناك صعوبة كبيرة فى أن يستعيد فيصل بن تركى الحكم من يد مشارى هذا بعد وقت وجيز (١٢٤٦هـ ١٨٣٠م) .

حقيقة كان ذلك الصراع الأسرى بين آل سعود مضعفاً لقوتهم ، ولكن خلال هذه الأزمات كان السعوديون فى تفوق وتوسع مستمرين الأمر الذى أقلق حكومة القاهرة ، ولكنها كانت منهمكة فى إعداد الحملة الكبرى على الشام ولم يكن لديها من فائض القوات ما يمكن أن ترسله إلى شبه الجزيرة العربية لشن حملة جديدة على الإمارة السعودية النامية فى نجد ، هذا إلى أنه من سوء التدبير أن تفتح القيادة المصرية جبهتين فى وقت واحد فى الشام وفى نجد . ولذلك صدرت الأوامر من القاهرة إلى شريف مكة بأن يوجه النصح إلى تركى بن عبد الله وأن يحثه على إعلان الخضوع لمصر (١) .

استمر تفوق وتوسع آل سعود تحت قيادة فيصل بن تركى دون أن تتمكن القيادة المصرية من وقف نشاطه بسبب حروب الشام . ولما وضعت الحرب أوزارها مؤقتاً فى أعقاب معاهدة كوتاهية ١٨٣٣ أصبحت الفرصة سانحة لإرسال حملة جديدة إلى نجد . وتقدمت القوات المصرية إلى نجد تحت قيادة

= أعقاب الحروب النابليونية ولذلك نجد الأسطول البريطانى يوجه حملته المشهورة ضد شيوخ الإمارات العربية على الخليج بين شبه جزيرة قطر وعمان فى ١٨١٩ دون أن تعترضها قوة بحرية عثمانية و فارسية بينما كانت القوة البحرية العربية الكبيرة – وهى سلطنة مسقط – تؤيد هذه الحملة . حقيقة فكر داود فى بناء سفن وفى تجديد البصرة ولكن دون أن تتخذ خطوات عملية تنفيذية . وقد درسنا هذا بالتفصيل فى كتابنا « داود باشا »

(١) من الجناب العالى إلى شريف مكة : دفتر ٤٠ معية تركى – وثيقة ٤١٢–٤١٣ ٢٧ صفر ١٢٤٦ – أغسطس ١٨٣٠ .

إسماعيل بك ولكنها لم تلبث أن وقعت فى كمين وأصيبت القوات بالهزيمة وتراجعت إلى الحجاز (١٨٣٧) . فتقرر أن ترسل حملة جديدة وفى هذه المرة وضعت تحت قيادة خورشيد باشا . وتقدمت القوات المصرية – تؤازرها قوات عربية تحت قيادة خالد بن سعود – صوب نجد وانتصرت فى المعارك الأولى التى خاضتها ضد العشائر النجدية (١٨٣٨) .

وتعتبر سنة ١٨٣٧ السنة التى بلغت فيها الحرب الدبلوماسية ذروتها بين الباب العالى وحكومة القاهرة وغدت محاولات تسوية الأزمة بين العدوين موكولة إلى السيف بعد أن فشلت المفاوضات العثمانية – المصرية التى تولاها صارم أفندى وكان من مصلحة الباب العالى أن يخضد شوكة القوات المصرية فى أية جبهة من الجبهات ولذلك عندما شن خورشيد هجومه على نجد لم يصادف فى هذه المرة مقاومة عسكرية من جانب آل سعود فقط وإنما دخل على رضا الميدان بصورة غير مباشرة أيضاً .

فقد بعث على رضا برسالة إلى فيصل بن تركى يقول له فيها :

« إنك لمن المنتمين إلى جانب الدولة العلية ... وإننا نكره المزاحمة لك على الديار ... وإن ... لم تطق لرد العدو ومنعه ... أفدنا عما يناسب حالك وفيه تقويتك ونجاح أموركم ومصلحتك وتجزم بحقك الطاف الدولة العلية وزيادة مودتنا لك » (١)

واستغل على رضا ما بين عرب العراق وعرب الجزيرة العربية من أواصر القربى والعصبية النجدية بأن أوعز إلى سليمان الغنام – شيخ عشيرة العقيل – أن يحث فيصلا على مكاتبة حكومة بغداد وعلى إعلان الطاعة للسلطان (٢) كما أوحى إلى عبد الله الفداغ – أحد الشيوخ العرب – بأن يبعث برسالة لفيصل جاء فيها :

«إن أفندينا (على رضا باشا) يود النصر وأرسل لك طارشاً على طريق

(١) من على محافظ بغداد والبصرة مؤرخاً فى ٢٢ من شعبان ١٢٥٣هـ–٢١ من نوفمبر ١٨٣٧ م محفظة ٢٦٤ عابدين – المرفق العربى للوثيقة التركية ٢٦١ حمراء .

(٢) من سليمان غنام إلى فيصل بن تركى فى ٢٢ من شعبان ١٢٥٣ هـ – المرجع السابق .

الكويت ووعده عبد الله الفداغ بفرمانات تقرأ بين الحضر والبدو ومكة ... والمدينة ... بأنكم طوارف الدولة حتى ترتفع عنكم مواد محمد على باشا » (١) .

علم خورشيد بأمر تلك المكاتبات التى بعث بها على رضا ورجاله إلى فيصل وطلب منه أن يبعث بها إليه فأرسلها مشفوعة برسالة برر فيها علاقته بحكومة بغداد بأن على رضا كف عنه أذى عشائر المنتفق والضفير وقال إنه « بهذا السبب يا أفندينا حصلت الصداقة بيننا وبينه »(٢) ونفى دخوله تحت طاعة والى العراق نفياً باتاً وبدا من رسالته أنه كان يرجو أن يمنحه خورشيد فرصة للتفرغ لضرب عشائر الضفير والمنتفق (٣) .

لا شك أن حكومة القاهرة قدرت أن فيصل يستطيع أن يلعب بالطرفين . كما تبين خورشيد أن موضوع «نجد » ليس مجرد إسناد حكمه إلى هذا من آل سعود أو ذاك بقدر ما كان محاولة لحماية البلاد العربية من الاستعدادات السياسية والدبلوماسية والعسكرية العثمانية ولتكوين جبهة قوية عربية تعتمد على مصر فى تلك الجهات ضد المشروعات البريطانية هناك .

ومع افتقارنا إلى وثائق تكشف عن علاقة بين توقيت حملة خورشيد بنجاح بعثة حسنى فى الوصول إلى الخليج العربى فلا شك أن استمرار تقدم القوات المصرية صوب جنوب العراق والخليج فى الوقت الذى كانت

(١) من عبد الله الفداغ إلى فيصل بن تركى المرجع السابق وثيقة رقم ٦٦ حمراء فى ١٦ من رمضان ١٢٥٣ هـ/ ١٥ من ديسمبر ١٨٣٧ م .

ومع أن تيلر Taylor كان متخوفاً جداً من تقدم حملة خورشيد فليس لدينا ما يؤكد أن هناك تعاوناً بينه وبين على رضا ضد الحملة وإن اشتركا فى العمل ضدها . واقترح تيلر على حكومته أن تعمل على الحيلولة بين الحملة والخليج والعراق بأن تعين الباب العالى على إثبات حقوقه فى الكويت والقطيف والبحرين على اعتبار أنه لم يكن لا للمصريين ولا للوهابيين حقوق فى تلك الجهات حيث إنها وقعت تحت حكمهما فترة قصيرة . أما إمارات الخليج الأخرى فكان يرى أن معاهدة ١٨٢٠ اعتبرتهم حكاماً مستقلين

Taylor to Sec. Comm. Nov. 8, 1837 (Ind. O.R., P.P.G. Vol. 57, pp. 179)

(٢) من فيصل بن تركى آل سعود إلى خورشيد : ١٩ من محرم ١٢٥٤هـ–١٦ من أبريل ١٨٣٨ م محفظة ٢٤٦ عابدين وثيقة .

(٣) المصدر نفسه .

فيه بريطانيا تحول بين المصريين والفرات يوحى بأن هناك علاقة بين حملة خورشيد وبعثة حسنى وأنها أرسلت لمراقبة النشاط البريطانى فى جنوب العراق والخليج العربى .

وضعت هذه الظروف فيصل بن تركى بين أمرين :

١ — أن يخضع للقوة المصرية فيتخلى بالتالى عن الإمامة والفكرة الوهابية . فيفقد مكانته بين عرب نجد ويمنح الفرصة لأى منافس آخر ليتغلب عليه ، خاصة وأنه فى هذه الحالة يصبح فى مكانة أقل من مكانة خالد بن سعود المتعاون كل التعاون مع حملة خورشيد والمرشح المصرى لتولى الحكم مكانه .

٢ — أن يقاوم الحملة دون معونة بغداد حيث كان الخضوع لأية قوة عثمانية معناه أن الحركة الوهابية فقدت عنصراً جوهرياً من العناصر التى تعتمد عليها وهو الطابع العربى النجدى . ولقد حاول فيصل أن يتبع طريقاً وسطاً فاعتمد على نفسه فى مقاومة حملة خورشيد .

وعند ما شعر خورشيد أن فيصل قرر الاستمرار فى حكم نجد أنذره بأن ينسحب « من الرياض والعودة إلى الأحساء »(١) وشرع خورشيد فى الزحف شرقاً نحو الخليج العربى .

وكان طبيعياً — وقد أسفرت العداوة بين والى بغداد ووالى مصر عن وجهها — أن يتعاون خورشيد مع القوى العربية الراغبة فى التخلص من الحكم العثمانى وتطلعت إلى استعادة سابق مجدها مثل « بنو خالد » الذين فقدوا الأمل فى استعادة حكم الأحساء بوساطة على رضا ، فغادر محمد ابن عريعر العراق وثبت أقدامه فى الأحساء معلناً تبعيته للحكم المصرى وأنه ما ملك تلك البقاع إلا انتظاراً لوصول الحملة المصرية . وهكذا وجد فيصل بن تركى نفسه بين المطرقة والسندان : بين خورشيد ومحمد

(١) من خورشيد إلى محمد على : ٢٢ من ربيع أول ١٢٥٤ هـ — ١٧ من مايو ١٨٣٨ م محفظة ٢٤٦ عابدين — وثيقة ٢٦١ — ٢٣ حمراء ٢٣ أصلى .

ابن عريعر (١) وفشلت محاولات فيصل فى استعادة الأحساء من يد محمد بن عريعر .

وأخذت الحملة المصرية تطبق على فيصل بشدة عندما استطاع خورشيد أن يكسب عبد الله بن الرشيد — شيخ جبل شمر — إلى جانبه . فانفصل الرجل « عن مولاه فيصل » وأسند خورشيد الإمارة إلى ابن الرشيد . وكان خورشيد يقدر تماماً المهارات السياسية والعسكرية التى امتاز بها أمير جبل شمر فيقول إنه « كان فى الزمن السابق رئيساً لعساكر العقيل من أهالى نجد ... وسينفعنا فى شئون نجد ، والأحداث التى ستقع فى المستقبل فى سائر الجهات » (٢) .

كانت خطة العثمانيين أيضاً هى أن يوقعوا خورشيد بين شقى الرحى ، عن طريق إشعال ثورة فيما وراء الخطوط المصرية فى عسير . وكانت أوضاع عسير مهيئة تماماً للثورة . ونشبت الثورة فعلا فى عسير وأخذ على رضا يعمل على تنسيق العمل بين فيصل بن تركى وثوار عسير واشترك فى ذلك موظفو الباب العالى فى مكة والمدينة (٣) . وعمل على رضا على كسب القوة الناشئة فى حائل إلى جانبه وبعث العثمانيون إلى جبل شمر بالأموال لهذا الغرض كما أرسل على رضا عدداً من كبار الشخصيات العربية ومن

---

(١) من خورشيد إلى محمد على ١٧ من ربيع أول ١٢٥٤هـ—٢٢ يونيو ١٨٣٨م : محفظة ٢٤٦ عابدين — وثيقة ١٧ حمراء . محفظة ٢٤٦ عابدين وثيقة رقم ١٦ حمراء — ٥٠ أصلية ١٣ من رجب ١٢٥٤ هـ — ١٣ من أكتوبر ١٨٣٨ م .

Taylor to Sec. Comm. Nov. II, 1838)Ind. O.R., F.R.,P.P.G., Vol. 62 pp. 375-376).

(٢) من خورشيد إلى محمد على : محفظة ٢٦٤ عابدين — وثيقة ٢٤ أصلى — ٢٦٤ حمراء وانظر الإدارة رقم ١٥ التى تمنح عبد الله الرشيد مرتباً شهرياً فى ظهر الوثيقة السابقة .

(٣) دفتر ٢١٤ عابدين — وثيقة ٢٢٠ فى ١٧ من أغسطس ١٨٣٨ م — ٢٥ من جمادى الأولى ١٢٥٤هـ محفظة ٢٦٣ عابدين — وثيقة ٣٢ أصل — ١٤٥ حمراء فى ٦ من يناير ١٨٣٩ م وثيقة ٣٤ حمراء — ١٨ أصلية محفظة ٢٦٤ عابدين — وثيقة ٣٩ حمراء — ٣٢ أصلية فى ١٧ من يوليو ١٨٣٨ م .

محفظة ٢٦٤ عابدين — وثيقة ٥٥ حمراء — ٢٥ أصلية .

كبار تجار الكويت إلى العشائر الكبرى لإثارتها ضد المصريين (١) . ووعد على رضا الثوار بأنه سيأتيهم بجيش كبير وفرمانات من السلطان تثبت حقوقهم (٢) . وحرض العشائر على قطع خطوط مواصلات الحملة وبذلك بدا واضحاً أن القوات المصرية أصبحت تعانى من المؤامرات الصادرة عن العراق من الموصل فى اتجاه حلب ومن البصرة فى اتجاه نجد والحجاز . وبلغت هذه المؤامرات درجة كبيرة من الخطورة ومن الاتساع جعلت القيادة المصرية تفكر فى إرسال قوات من الشام إلى نجد (٣) .

فى هذه الظروف تقدمت القوات المصرية ودخلت الحناكية التى أصبحت مقر القيادة المصرية الجديد (٢٤ من محرم ١٢٥٤ هـ — ٢١ من أبريل ١٨٣٨ م) ، ثم خضعت على التوالى الرياض وعنيزة . وتوافد شيوخ عشائر الأحساء والقطيف وعتيبة على خورشيد لإعلان الولاء له وللتفاهم معه على مستقبل إدارة البلاد (٤) . أما فيصل فقد تراجع إلى آخر معقل كان لديه وهو مدينة « دلم » التى شحنها بالرجال والعتاد وصمم على أن يخوض من وراء أسوارها المعركة الأخيرة . وبعث فيصل كتاباً إلى تركجه بيلمز — قبطان البصرة وعدو خورشيد اللدود — طالباً النجدة وحذر فيصل

---

(١) محفظة ٢٦٦ عابدين — وثيقة ٦٣ حمراء — ٣ أصلية فى ١١—٤—١٨٣٩—٢٥ من محرم ١٢٥٥ هـ

محفظة ٢٦٣ عابدين — وثيقة ٦٤ حمراء — ١٨ أصلية .

(٢) من خورشيد إلى صاحب الدولة : ٣ جمادى الأولى ١٢٥٤ هـ محفظة ٢٦٤ عابدين وثيقة ٣٣ أصلية — ٦٦ حمراء .

(٣) من محمد على إلى الباشا السرعسكر : ١٧ من أغسطس ١٨٣٨ — ٢٥ من جمادى الأولى ١٢٥٤ هـ . محفظة ٢٦٤ عابدين — وثيقة ٢٢٠ .

(٤) محفظة ٢٦٤ عابدين — وثيقة ٩٤ حمراء — وانظر تقرير خورشيد فى ٢٨ من صفر ١٢٥٤ هـ وتقرير عسكرى عن تطور معارك نجد فى ٤ من ربيع الأول ١٢٥٤هـ—٢٩ من مايو ١٨٣٩ م فى المحفظة ٢٦٤ عابدين وثيقة رقم ٢٠٨ زرقاء . ، ومن سلطان بن ربيعان إلى محمد على باشا فى ١٥ من ربيع الأول ١٢٥٤ هـ — ٩ من يونيو ١٨٣٨ م محفظة ٢٦٤ عابدين المرفق العربى للوثيقة ٢٦١ حمراء ، من خورشيد إلى صاحب الدولة فى ٢٣ من رجب ١٢٥٤ هـ ١٨٣٨ م ومحفظة ٢٦٤ عابدين وثيقة ٥٣—٥٤ أصلية ١٤٣ حمراء .

القبطان من مغبة التقاعس عن نجدته فى هذه الأزمة ومن أن سقوط « دلم » سيفتح الطريق أمام القوات المصرية إلى الأحساء والبصرة .

وقعت هذه الأحداث فى وقت كانت فيه القوات العثمانية تحتشد فى منطقة ديار بكر ونزيب لخوض المعركة الفاصلة وكانت القوات الرئيسية العثمانية فى العراق قد صعدت إلى الشمال لتقوم بدورها فى المعركة المنتظرة وتأمين ظهر القوات العثمانية من جهة كردستان . ولذلك لم تكن هناك قوات كافية يمكن أن تتحرك بين الشمال والجنوب للدفاع عن طرفى العراق . ويبدو أن على رضا لم يكن يدرك أن موقف فيصل سيتدهور بسرعة أمام خورشيد على تلك الصورة ، فلم يترك فى بغداد أو فى البصرة من القوات ما يمكن أن يبعث بها على جناح السرعة للاشتراك فى معركة « دلم » . ولم يكن هناك تحت يد تركجه بيلمز ما يمكن أن يرسله لفيصل فاعتمد على الأساليب المنمقة وكلمات التشجيع وترك فيصل لمصيره أمام خورشيد(١) .

ولم تكن أحوال خورشيد هى الأخرى بأحسن من أحوال أعدائه فقد نفدت منه الغلال وقاربت الذخائر على النفاد . وكانت الخزانة خاوية . وأغلب الظن أن نقطة التحول فى هذه المعركة كان انتصار القوات المصرية على قطاعات قوية من القوات الوهابية أتت من الأحساء لمساعدة فيصل فى « دلم » (٢) ، إذ لم يلبث فيصل أن أدرك أن لا جدوى من متابعة القتال واستسلم لخورشيد .

خلال حصار « دلم » أدرك خورشيد قيمة الأحساء والكويت والبصرة من حيث تزويده بالحبوب اللازمة لجيشه . ولما كان خورشيد يعلم تماماً أن حكام العراق لن يسمحوا للمصريين بشراء الحبوب من تلك الجهات فضل خورشيد أن يسعى إلى عقد قروض من البصرة والكويت ليشترى

(١) من الحاج محمد قبودان (تركجه بيلمز) إلى الشيخ فيصل – المرفق العربى للوثيقة العربى للوثيقة التركية رقم ٤٨ حمراء – ٩ أصلية المؤرخ فى رجب ١٢٥٤هـ–أكتوبر ١٨٣٨ .

(٢) محفظة ٢٦٤ عابدين – وثيقة ٦٦ حمراء – أصلية ٥٠ ٢٣ من رجب ١٢٥٤ هـ
١٣ من أكتوبر ١٨٣٨ م
محفظة ٢٦٤ عابدين – وثيقة ١١ حمراء – أصلية ٥٨ ٤ من شوال ١٢٥٤ هـ .

بها المؤن اللازمة من السفن البريطانية (١) . كما تبين أن إدخال هذه الجهات (الأحساء) فى حوزة الحكومة من شأنه رواج المصلحة ولذلك أخطر سلطات القاهرة أنه عقد العزم على القيام « بإعداد بعض الجنود ... وإرسالهم قبل فوات موسم الشتاء » (٢) .

فهل كانت خطة التقدم إلى ما وراء نجد صوب الأحساء والبحرين والكويت وعمان وجنوب العراق موضوعة قبل إرسال الحملة ؟ وكما يبدو من الفقرة السابقة أن خورشيد هو الذى اقترح الاستمرار فى التقدم شرقاً نتيجة للظروف السياسية والاستراتيجية والاقتصادية التى أصبح فيها بعد انتصاره فى « دلم » . وقد حدثنا خورشيد كثيراً عن الدوافع التى جعلته يصر على بلوغ تلك الجهات وهى :

١ – « أن وجود سفينتين مسلحتين هناك (القطيف) مفيد للمصلحة وجلب الذخيرة من جهتى البصرة والكويت » (٣) ومن ثم أصبحت السيطرة على الأحساء من مقتضيات ضمان وصول الإمدادات إلى الجيش المصرى .

(١) محفظة ٢٦٤ عابدين وثيقة ٥٣ أصلية – ١٤٣ حمراء ، راشد الفرحان : ص ٦٤–٦٧ وقد يبدو هذا غريباً لأول وهلة ولكن خلال دراستى لأحوال العشائر فى العراق والخليج وجدت أنه فى كثير من الأحيان تكون العشيرة أو الإمارة فى نزاع مع إحدى السلطات الكبرى (بغداد – فارس – نجد – الإنجليز) فى الوقت نفسه الذى تكون فيه العلاقات التجارية مستمرة على يد التجار من الجهتين . فكان هؤلاء التجار هم الواسطة فى كثير من الأحيان لعقد الصلح وتسوية الأزمات . وربما اكتسبوا لهذا السبب احترام الخصوم غالباً . هذا إلى أنه يبدو لى أن العشيرة كانت ترى أن من حقها أن تدبر أمورها الداخلية حسب مصالحها طالما كانت تدفع الضريبة السنوية . ومع ما كان يبدو عليه العراق من أنه مركز مقاومة للنشاط المصرى فالوضع الرسمى له أنه ولاية من ولايات الدولة مثل مصر ولرعايا الدولة حق عقد قروض من رعايا أية ولاية .

(٢) من خورشيد إلى صاحب الدولة فى ٢٣ من رجب ١٢٥٤ هـ – ١٣ من أكتوبر ١٨٣٨م محفظة ٢٦٤ عابدين وثيقة ٦٦ حمراء – ٥٠ أصلية ، وفى ٢٢ من شعبان ١٢٥٤ هـ – ١٠ من نوفمبر ١٨٣٨ م .
محفظة ٢٦٤ عابدين ٥٣ – ٥٤ أصلية – ١٤٣ حمراء (٢) من ميرمران خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوى فى أول يناير ١٨٣٩–٤ من شوال ١٢٤٥ هـ محفظة ٢٦٤ عابدين وثيقة ٥٨ أصلية – ١١ حمراء وكان خورشيد يردد فى مكاتباته إلى القاهرة أن هدف الحملة هو جمع الجمال اللازمة للحملة التى تعد ضد ثوار عسير . انظر الوثائق السابقة .

(٣) من خورشيد إلى باشمعاون الخديوى : أول يناير ١٨٣٩ م – ٤ من شوال ١٢٥٤ .

٢ – « أنه بسبب سوء تصرف بعض المصريين فى الماضى بقتلهم من كان يفد عليهم بعد فرارهم لا يزالون فى خوف منا .... ومنهم حتى اليوم من كان بالعراق ..... وأن ..... أكثر نجد ...... نزع إلى بغداد والبصرة وسوق الشيوخ والكويت والبحرين وعمان ..... وبعضهم يعود فيقاتل ثم يلجأ إلى تلك الجهات » (١) بتحريض من على رضا وتركجه بيلمز (٢) والقوى المعادية فى سواحل عمان .

٣ – « أن الانجليز يرمون منذ خمسين أو ستين سنة إلى الاستيلاء على مقدار من سواحل بلاد العجم (٣) حتى يأمنوا شر الدولة الروسية وحولوا أغراضهم إلى الاستيلاء على سواحل عمان والبحرين والأحساء والقطيف والكويت والبصرة لتكون عقبة أمام الدولتين الروسية والإيرانية . هذا هو ما يضمرونه فلا يبقى من جزيرة العرب ولا بغداد خبر . أما البحرين فهى بمثابة مفتاح خليج العجم إذا استولت عليه الإنجليز فإنها فى خمس عشرة سنة تصير عظيمة ومعمورة مثل جزيرة مالطة » (٤) .

وهكذا كان خورشيد يدرك حقيقة ما ستتطور إليه الأمور إن لم تأخذ

(١) محفظة ٢٦٧ عابدين وثيقة حمراء ١٦٣ فى ٢٩ من جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ-١٢ من أغسطس ١٨٣٩ م ، ومحفظة ٢٦٦ وثيقة ٤ أصلى – ٨٩ حمراء – فى صفر ١٢٥٥ هـ – أبريل ١٨٣٩ م من ضرب خورشيد لقصر العمايد التابع للبحرين . وانظر كذلك فرار البدو الممنوعين من دخول القرى الداخلة تحت الطاعة (المصرية) مالم يقدموا جمال الرحلة فى محفظة ٢٦٤ عابدين وثيقة ٧ (أصلية) ٥٠ (حمراء) .

(٢) بعث على رضا وتركجه بيلمز بالمكاتبات إلى العشائر النجدية والأحسائية يدعونها إلى هجرة مواطنها إلى العراق . وكان على رأس العشائر التى هاجرت عشائر مطير الكبيرة بزعامة الدرويش (محفظة ٢٦٦ عابدين – وثيقة ٥ أصلى ، ٩٨ حمراء فى ٩ من صفر ١٢٥٥ هـ – ٢٥ ن أبريل ١٨٣٩) . وهذه الخطة نفذت بنجاح من قبل على يد سليمان باشا الكبير – والى بغداد بين ١٧٧٩-١٨٠٢ – عندما جلب إلى العراق عشائر شمر الجربا والضفير خلال أزمة الضغط الوهابى على العراق ليستخدم هذه العشائر فى القيام بهجمات مضادة على نفس الأسس الاستراتيجية التى تعتمد عليها عشائر نجد .

(٣) يشير خورشيد إلى حملة الإنجليز على الساحل الفارسى ٣٧-١٨٣٨ م .

(٤) من خورشيد إلى صاحب الدولة : ٢٩ من رمضان ١٢٥٥ هـ-٢٧ من فبراير ١٨٣٩ محفظة ٢٦٧ عابدين وثيقة ٤٠ (أصلية) ١٠ حمراء وانظر الإدارة بنفس التاريخ رقم ٣٧ .

مصر على عاتقها مهمة تحرير تلك الجهات من الاستعمار البريطانى المتربص بها والدفاع عنها ضد ما يدبره لها الإنجليز .

كتب خورشيد بهذه التفاصيل إلى حكومته محذراً من التقاعس فى هذه المهمة فرأت القاهرة أن « يمنح أهل الأحساء الأمان وليس من الجائز إرسال حملة عليهم والتقدم إلى الأمام بهذا القدر والقوات فى حالة تفرق » ولكن وافق المسئولون فى القاهرة على إرسال سفينتين إلى القطيف « طالما كان من المتعذر إرسال المؤن عن طريق المدينة المنورة » (١) وكان محمد على فى ذلك الوقت فى السودان . وكان يصرف أمور مصر فى ذلك الوقت ابنه عباس الذى كان يتولى منصب الكتخدا . وأغلب الظن أن عباس – وهو الذى أصدر أوامره تلك إلى خورشيد – لم يكن يعتقد أن السلطات البريطانية ستعارض إرسال أية سفن مصرية إلى الخليج العربى . فلا يكاد هذا الموضوع يعرف لدى الإنجليز حتى ضغطوا على عباس وأرغموه على إلغاء أوامره السابقة لخورشيد دون أن يشير إلى أن الإنجليز هم الذين اضطروه إلى العدول عن أوامره السابقة (٢) .

وأما خورشيد فقد عجب لعدول عباس عن إرسال السفن إليه وطلب منه أن يفسر له الظروف التى جعلته يعمد إلى ذلك برغم ما فى ذلك من تهديد بقطع المؤن عن قوات الحملة . وبعث إلى عباس باشا بكتاب قوى قال فيه إنه لا يدرى شيئاً عن تلك المحظورات التى جاءت فى كتاب عباس وطالبه بأن يوضح له الأمر (٣) .

وأخطره بأنه :

« ولكوننا من خمسة أشهر لا علم لنا بأحوال تلك الجهات ، فإننا لا نعلم ما هى المحظورات التى جاء ذكرها فى كتاب حضرة المشار إليه وبما أننا مربوطون بكل شىء بذلك الطرف كما هو معلوم للجميع فإننا

(١) محفظة ٢٦٤ مرفق الوثيقة رقم ١١ فى ٢٨ يناير ١٨٣٩ م – ١٢ ذى القعدة ١٢٥٤هـ

(٢) من خورشيد : ٥ أبريل ١٨٣٩ م – ١٩ محرم ١٢٥٥ هـ محفظة ٢٦٧-٤ أصلية-٣٨ حمراء .

(٣) خورشيد إلى صاحب الدولة ١٩ من محرم ١٢٥٥ هـ – أبريل ١٨٣٩ م .

نرجو منكم أن تتفضلوا وتوضحوا لنا تلك المحظورات حتى نأخذ حذرنا منها » (١) .

فكتب عباس إليه بصراحة أن الإنجليز لا ترضى بإرسال سفن من جدة إلى خليج البصرة . ولم يكتف عباس بذلك فقط ، بل قرر أن يجمد حملة خورشيد وأن يحول بينه وبين متابعة العمل ضد الاستعمار البريطانى فى تلك الجهات بطريق مباشر بأن أصدر إليه الأوامر « بألا يعرض نفسه ، بل يترك الكلام على عاتق خالد بك » (٢) وفى الوقت الذى كانت فيه السلطات البريطانية تعارض بشدة إرسال سفن نقل شراعية مصرية إلى الخليج كانت تبنى فى موانئ بريطانيا بواخر مسلحة ثلاث لإرسالها إلى العراق من جهة البصرة وتفكر فى إرسال قوات عسكرية إلى آسيا الصغرى لحماية الدولة العثمانية من انهيار مفاجئ (٣) .

حقيقة كان ريس أفندى قبل ذلك بعامين قد طلب من السفير البريطانى بالآستانة أن يتوسط فى أمر تزويد حكومة الهند لوالى بغداد ببعض المواد الحربية اللازمة للدفاع عن العراق (٤) . ولكن تجاهلت السلطات البريطانية هذا الطلب . والمعتقد أن ذلك كان لأن هذه السلطات عزمت على أن تستغل محنة الباب العالى لمصلحتها بأن تتولى هى مهمة الدفاع عن العراق بأساليبها الخاصة التى تخدم المصالح البريطانية أولا . فبينما لم نسمع عن وصول إمدادات من حكومة الهند إلى والى بغداد نجد الحكومة البريطانية ترسل السفينة أورانيا

---

(١) خورشيد إلى صاحب الدولة : ١٩ من محرم ١٢٥٥ هـ – أبريل ١٨٣٩ م محفظة ٢٦٧ عابدين وثيقة ٤ أصلية – ٣٨ أصلية .

(٢) الوثيقة السابقة .

(٣) تباحث اللورد جرانفيل Granville والكونت سباستيانى Sbastiani والأمير استرهازى Esterhazy والكونت بوزو دى بويو Pozzo de Boyo فى يونيو – يوليو فى أمر إرسال قوات بريطانية إلى آسيا الصغرى .

Granville to Palmerston: July 3, 1838. No. 247. F.O. 27-557.

(٤) كتب السفير البريطانى إلى وزارة الخارجية يقول :

I have the honour to enclose her ewith an application from the Minister of Foreign Affairs Akif Eff. I presume you will be glad to give any assistance in your power to the Ottoman Porte & particularly when the object is to increase the warlike means of this Government . (Ind. O.R.F.R., P.P.G., Vol. 5b. P. 471-2. Ap. 8,1836).

Urania منذ منتصف ١٨٣٩ عن طريق رأس الرجاء الصالح لتصل إلى جزيرة خرج فى سرية كبيرة فى أواخر أكتوبر ١٨٣٩ ، وأنزلت حمولتها المكونة من ثلاث بواخر مدرعة بمدفعيتها ، ركبت على عجل وصعدت فى نهرى الفرات ودجلة (أوائل ١٨٤٠) تحت قيادة لينش Lynch المنفصلة عن قيادة الخليج العربى لاستخدام هذه البواخر فى احتلال جنوب العراق إذا ما أصبح ذلك هو الوسيلة الوحيدة لحماية المصالح البريطانية فى تلك الجهات (١) .

وبذلك أصبحت فى العراق أربع بواخر مسلحة بريطانية . ولم تصرح الدوائر الرسمية البريطانية بحقيقة الأهداف الكامنة وراء إرسال هذه السفن فى تلك الظروف إلى العراق . وإنما ادعت الحكومة البريطانية أنها أرسلتها لنقل البريد بين الهند وبغداد والساحل السورى (٢) . وأنه لأمر يثير الدهشة حقاً أن تستخدم أربع بواخر فجأة لنقل البريد من شط العرب إلى أعلى الفرات مع أن الموضوع كان لايزال فى مهده . هذا إلى أن هذه البواخر لم تستخدم فى نقل البريد إلا على نطاق ضيق وتحولت إلى دراسة أنهار العراق وعقبات الملاحة سواء فى دجلة والفرات أو فى كارون وفروعه . ومعنى هذا أن مهمة نقل البريد لم تكن هى المهمة الأولى لهذه البواخر .

---

(١) From Secrt. to Bombay Govrt. to Lynch. Oct. 30, 1839 (Ibid. Vol. 67p. 495-7 & Rawlinson to Addington June 14, 1853. F.O. 195-957 Lynch Commander of Euph. Expedition. Nov. 30, 1839 . Ibid. p. 499.From Edmonds ,Assistant Resident in Persian Gulf. Nov. 2, 1839 (Ibid. p. 500-2) Lynch to Secrt. Comm. Mch. 15, 1840. (Ibid. Vol. 68. pp. 95-97).

وقد أعد مرفأ ماجيل ليكون قاعدة للبواخر وأنشئت على عجل الثكنات اللازمة وقدم المسئولون العثمانيون مساعدات كبيرة فى هذا الشأن (انظر الوثائق السابقة) .

وانظر

Asiatic Journal. xxxcI.N.S. Pt. II, 72 & Low : op.cit, Vol. II p. 45.

وهذه البواخر الثلاث هى :

Assyria, Nitocris, Nimrod.

(٢) F.O. 424-137. p. 126.

Memo. setting forth the right of British Vessels to the navigation of the waters of the Euphrates and Tigris from the Persian Gulf to Bagdad. F.O. 424-137 pp. 19-20, 73-74.

إن ظروف إرسال هذه البواخر فى أعقاب نكبة الجيش العثمانى فى نزيب وشروع بريطانيا ودول معاهدة لندن (١٨٤٠) فى الضغط العسكرى على القوات المصرية فى الشام يؤكد لنا أن هذه البواخر المسلحة أرسلت للمساهمة فى الدفاع عن العراق إذا تقدمت القوات المصرية صوبه . ومن ناحية أخرى لو لم يكن هدف الإنجليز هو استخدام هذه البواخر لأغراض استراتيجية لما تكتم الانجليز أمر إرسالها ذلك التكتم الشديد . وفضلا عن تلك السرية التى أحاطت بإرسال تلك البواخر المسلحة فإن المسئولين الإنجليز أرسلوها عن طريق رأس الرجاء بينما أرسلت بعثة الفرات من قبل عن طريق الساحل السورى . وأغلب الظن أن الإنجليز تجنبوا طريق الساحل السورى – الفرات حتى تفاجأ القيادة المصرية بظهور هذه البواخر فى الفرات ولا شك أن الحكومة العثمانية رحبت بوصول هذه البواخر لتعينها على المصريين إذا دعت الحاجة . وأبلغ دليل على أن هذه البواخر أرسلت لمقاومة المصريين أنها سحبت من مياه العراق فى أعقاب انتهاء الأزمة المصرية (١٨٤٢).

وبوضع تلك البواخر فى دجلة والفرات أغلق الإنجليز الطريق أمام أية قوة معادية تريد أن تنفذ إلى الخليج عن طريق أنهار العراق . ولتتم حلقة الحصار البحرى اعترض الإنجليز على العلاقات التى أقامها خورشيد مع آل خليفة – حكام البحرين – ومع آل الصباح فى الكويت (١) .

وكان الوكيل البريطانى فى الخليج متتبعاً بدقة كل ما دار بين خورشيد وآل خليفة . فقبل انتصار خورشيد فى « دلم » حذر هنل Hennell – المقيم البريطانى فى بوشهر – حكومته من أن خورشيد سيسعى إلى ضم البحرين . واتصل القنصل العام فى مصر – المستر كامبل Campbell – ببوغوص بك محذراً السلطات المصرية من نتائج مهاجمة البحرين (٢) . ومع هذا بعث

(١) Hennell to Willougly: May 7, 1839, No. 41. Ind. O.R., F.R.,Enclos-ures to Secret Letters Records from India.)

(٢) Boghos to Campbell: Jan. 22, 1839. (Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. b4. pp. 29-30).
Taylor to Secret Comm.: Mch. 21, 7839 (Ibid. p. 423).

خورشيد بأحد ضباطه (محمد افندى) إلى البحرين ليطالب الشيخ بالأموال التى كان يدفعها من قبل لآل سعود . فادعى الشيخ أن الأموال دفعت لفارس على اعتبار أن الجزيرة تابعة للشاه ، ولكنه مع هذا دفع جزءاً من المبالغ المطلوبة منه . ويبدو أن شيخ البحرين استنجد بالشاه . ويقول تيلر Taylor إن خورشيد نتيجة لذلك هدد بإنزال قواته فى الجزيرة بمساعدة أسطول مسقط الذى كانت تخشاه البحرين تماماً وكانت إمارة البحرين تخشى حدوث تعاون بين مصر ومسقط (١) . ومع أننا نستبعد وقوع مثل هذا الاتفاق فمما لا شك فيه أن اتخاذ خورشيد إجراءات بحرية ضد البحرين كان يتوقف على المساعدة التى يمكن أن يقدمها أسطول مسقط . إلا أن السيد سعيد كان يخشى التفوق المصرى وتجنب الاحتكاك العسكرى بالمصريين (٢) ومع هذا استطاع خورشيد أن يقنع شيخ البحرين بأن ينفض عن نفسه الارتباط ببريطانيا وأن يعلن تبعيته لنجد ، ووافق الشيخ على عقد اتفاقية مع خورشيد على هذا النحو . (٣) فأثارت هذه الاتفاقية ثائرة القوى المعادية للمصريين فتعرض شيخ البحرين لضغط من جانب الفرس والعثمانيين والإنجليز لإرغامه على التنصل من هذه الاتفاقية . وعبر خورشيد عن هذه الضغوط بقوله :

(١) Extracts of Taylor's Private letter. Mch. 31, 1839. F.O. 78-371.

(٢) وأشيع أن سفناً مصرية فى فبراير ١٨٣٩ ستتعاون مع الحملة ضد البحرين
Hennell to Sec. Comm.: Feb. 28, 1839.)Ind. O.R., F.R.,P.P.G., Vol. 64, pp. 187-189).

(٣) انظر المكاتبات المتبادلة فى هذا الشأن وأهمها تقرير يشمل على ماهو واقع ومشاهد من الأمور والمواد عن جزيرة البحرين : محفظة ٢٦٧ عابدين وثيقة ٧ أصلية – ٥٠ حمراء ، محفظة ٢٦٧ عابدين وثيقة حمراء ١٣٧ – ٢٨ من جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ – ٣١ من يوليو ١٨٣٩ ، محفظة ٢٦٧ عابدين وثيقة ٧ أصلية – ٥٠ حمراء ،

ويقول الوكيل الوطنى لبريطانيا فى البحرين إن شيخ البحرين عندما أعلن ارتباطه مع خورشيد اعترض عليه عدد من شيوخ الساحل على اعتبار أن] بريطانيا أكثر قوة من مصر فرد عليهم الشيخ بقوله : « إن أنسب حكومة لنا هى الحكومة المصرية » .
«no such thing, the Egyptian Government. is the best for us».

١ — « إن شيخ البحرين امتنع عن الدخول فى دائرة الأمان بسبب إغواء حكومة بغداد له » (١) .

٢ — « إن كان من غير الممكن بقاؤها (أى البحرين) فى حوزتنا فلا أقل من أن تبقى لالنا ولا للإنجليز والأولى أن تترك مستقلة لآل خليفة » (٢) .

أما فارس فكان موقفها غامضاً . فيقول أحد الكتاب إن قوة نظامية فارسية وصلت إلى البحرين لتقيم بجانب المندوب الفارسى فى الجزيرة وأن بريطانيا وقفت بجانب فارس ضد النشاط المصرى فى البحرين (٣) . ومع أن خورشيد تحدث عن المطالب الفارسية فى البحرين وعن ادعاء شيخ البحرين أنه يتبع الحكومة الفارسية (٤) ، فليس من المعتقد أن الفرس بعثوا بقوة ما إلى البحرين . إذ أن الإنجليز ما كانوا ليسمحوا بذلك على الإطلاق . ولا شك أن كل ما فعله الفرس هو ترديد مطالبهم فى البحرين .

وإذا كان خورشيد قد حذر النشاط الذى قام به على رضا ضد مجهوداته فى البحرين فإن العدو الأقوى كان الأسطول البريطانى ، خاصة عند ما بعث هنل Hennell بمدرعة إلى البحرين أرغمت شيخ البحرين على التنكر للاتفاقية . واضطر خورشيد إلى أن ينتظر التعليمات من حكومة القاهرة (٥) . وكانت سياسة القاهرة تقضى بعدم الاصطدام بالإنجليز فى البحرين . فكان من الطبيعى وقد حرمته حكومته من المعونة البحرية اللازمة ومن التأييد الدبلوماسى أن تفشل مجهودات خورشيد فى البحرين (٦) . كما فشلت

(١) محفظة ٢٦٧ عابدين وثيقة ٧ أصلية — ٥٠ حمراء فى ٢١ من محرم ١٢٥٥هـ — ٧ من أبريل ١٨٣٩ م .

(٢) من خورشيد إلى صاحب الدولة ١٩ من رمضان ١٢٥٥ هـ — ٢٧ من فبراير ١٨٣٩ م ، محفظة ٢٦٧ عابدين — وثيقة ٤٠ أصلية — ١٠ حمراء .

(٣) Faroughy : Bahrein pp. 82-83.

(٤) دهش هنل من حديث خورشيد عن المطالب الفارسية فى البحرين لأنه كان يستبعد ذلك .
Hennell to Secretary to Govrt. Bombay. 3 May 1839.)Ind. O.R., F.R., P.P G., Vol. 65. pp. 139-159).

(٥) Memo. on an interview between Mohamed Eff. and Cap. Hennell Karrak May 23, 1839.)Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 65, pp. 139-159).

(٦) يقال إن سفينة مصرية أبحرت من الحديدية ووصلت القطيف حاملة الذخائر والأسلحة للقوات المصرية فى نجد (نوفمبر ١٨٣٩) . وأغلب الظن أنها إشاعة .
= Selection fr. Bombay Govrt. No. XXIV. p. 156.

مجهودات سعد بن مطلق — قائد القوات السعودية — فى نواحى البوريمى وعمان بسبب الإنجليز (١) .

كانت الكويت كذلك مجال المناورات السياسية البريطانية . فقد دخلت الكويت فى المشروعات البريطانية بصورة قوية منذ أزمة التوسع المصرى . وعملوا على خلق مصالح سياسية واقتصادية فيها ، وخاصة فى أعقاب وصول بعثة الفرات (بعثة جسنى) إلى شط العرب . فقد طلب الإنجليز من شيخ الكويت أن يرفع العلم البريطانى على سفنه حتى يحصل على مكاسب مادية وفيرة من وراء التجارة مع الهند . واستأذنوا الشيخ فى إقامة بناء لهم ، فرفض أن يسمح لهم بما طلبوا (٢) . ومع ذلك ظل الاتجاه قوياً فى الدوائر البريطانية نحو السيطرة على الكويت ، وخاصة عندما تقرر انسحاب القوات البريطانية من « خرج » بعد تحسين العلاقات الفارسية البريطانية وتقدم

= انظر كذلك ما قاله أحد الجواسيس الإنجليز من أن سفينة مصرية محملة بالبنادق وصلت القطيف لتزويد الحملة المصرية بها .
Abstract of Contents of a dspt. to Sec. Comm. 24. 12. 1839. No. 133. (Ind. Off. Sec. Dept. Enclos. to Sec. ltrs. fr. India 24 Dec. 1839. News Letter. 25 Oct. 1839. Vol. 17)

(١) كتب هنل فى هذا الصدد يقول :
To maintain their own independence I am fully aware of the difficulties attending the taking an island district like the one alluded to, directly under our protection, and as justly observed by the Rig. Hon. the Governor General, to do so, would be doing beyond the prnciple upon which our relations with the other chieftans in the Coast have been established. I would therefore by no means advise the adoption of so decided a measure. I have been careful in my communications with the Chiefs of Brymee to use no language which could lead them to the belief they were under British Protection (Hennell to Chief Sec. to Govrt. Bombay. Oct. 17, 1839 No. 102 Secr. Dept. Enclos. to Sect. letrs fr. India. Vol. 18).

(٢) عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت : الجزء الأول : قسم أول : ٦٦—٦٧ .
انظر زيارة جسنى للكويت ليدرس إمكانات استخدامها بداية لخط البريد .
Chesney : Narr. p. .29.6
وانظر Edmonds to Sec. to Govrt to Bombay. Dec. 2, 1839. (Ind. O.R., F. R., P.P.G., Vol. 19.)
كذلك زار هنل — المقيم البريطانى فى بوشهر — الكويت فى ١٨٣٩ فشعر على رضا بأن الإنجليز افتاتوا على حقوق السلطان فى تلك الجهات .
Lorimer : Vol. I. Pt. I. p. 1110.

المفاوضات بشأن أزمة « غيلان » و « خرج » (١) . وأصبحت بريطانيا ترى أن سيطرتها على الكويت ليس فقط بديلا لخرج ، بل كذلك إغلاقاً للمنفذ الرئيسى أمام الحملة المصرية فى نجد .

كانت حكومة بغداد قصيرة النظر فى سياستها إزاء الخليج حيث إنها ركزت جهودها فى إخراج المصريين من نجد والخليج ، دون أن تعمل على توقف التدخل البريطانى فى أمور البلاد العربية . حقيقة كان لها بعض نشاط فى هذه الناحية ، ولكنها كانت مجهودات غير منظمة وليست مستمرة ، مما منح الإنجليز فرصاً ذهبية كسبوا منها السيطرة على البحرين تماماً وعلى مياه العراق . والمعتقد أن على رضا ترك أمر الدفاع عن جنوب العراق والخليج ضد المصريين للإنجليز حيث إنه غادر بغداد إلى شمال العراق لشد أزر الجيش الرئيسى العثمانى (٢) ، وعنى بالعمل على كسب عشائر الجربا (٣) وعنزة (٤) للقذف بها فى المعركة الفاصلة بين الجيش المصرى والعثمانى . دون أن يقدم جهداً مماثلا لمقاومة التوسع المصرى المحتمل صوب العراق من ناحية نجد .

تطورات الموقف فى العراق بعد نزيب (يونيو ١٨٣٩) :

فماذا قدم على باشا رضا من إمكانات عراقية للقيادة العامة العثمانية لتخوض بها المعركة المنتظرة حين ترك أمر العراق الجنوبى والخليج للإنجليز ؟

حقيقة ذهب على باشا رضا بما كان تحت يده من قوات إلى الشمال أى إلى كردستان ، ولكنه انهمك فى حصار أربل التى ثارت عليه ، وشغل محمد اينجه بيرقدار بالقلاقل فى ولاية الموصل . ويبدو أن صفوقاً – شيخ عشائر الجربا – هو الذى قدم خدمة لها قيمة للجيش العثمانى خلال

(١) احتلت القوات البريطانية خرج خلال أزمة التوسع الفارسى صوب هراه .
Lorimer : Vol. I. Pt. I. p. 1110.

(٢) انظر ص ١٩٣–١٩٤ من هذا الكتاب .

(٣) انظر ص ١٩٣ من هذا الكتاب .

(٤) تاريخ لطفى : جـ ٦ : ٢٥ – ٢٦

معركة نزيب (١) للدرجة التى جعلت إبراهيم باشا بعدها يصدر أوامره بمطاردة عشائر الجربا التى أسرعت بالعودة إلى ما بين النهرين قبل أن تدركها القوات المصرية (٢) .

كذلك تبين أهل ماردين – مسلمين ومسيحيين – أن الانضمام لمصر الفتية أجدى لهم من البقاء فى الدولة العثمانية فكاتبوا القيادة المصرية فى الشام وسألوها أن تتولى أمر المدينة إلا أن بيرقدار – القائد العثمانى – سرعان ما وجه جيشه ضد المدينة وسيطر عليها وعزل الزعماء المناوئين والأساقفة المؤيدين للقضية المصرية . وبذلك تحقق ما كان يأمله تيلر – قنصل بريطانيا فى بغداد – من انتصار بيرقدار حتى يغلق هذا الطريق فى وجه القوات المصرية (٣) .

وكان الموقف بعد نزيب يتطور فى جنوب العراق من سيئ إلى أسوأ بالنسبة للعثمانيين . كان خورشيد الطموح يرى أن الوقت قد حان لطرد العثمانيين من العراق وأكد لمحمد على أنه كفيل بذلك . وكانت العشائر العربية والقوات العثمانية فى جنوب العراق مستعدة من تلقاء نفسها للتعاون مع خورشيد . وفعلا فرت كتيبة عثمانية على سفن كويتية من البصرة لتنضم للحملة المصرية (٤) وأرسل مشايخ العربان القاطنين بجوار بغداد إلى (خورشيد) كتباً قالوا فيها : « لقد ... شق علينا الظلم والاعتداء ونريد

(١) محفظة ٢٥٧ عابدين وثيقة ١١٥ – ٢٧ ٣٧ فى ٢٧ من مايو ١٨٣٩–١٢ ربيع أول ١٢٥٥ هـ ،
محفظة ٢٥٧ عابدين وثيقة ٢٠٦–٢٧ – ١٥ فى ٢ من جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ .
محفظة ٢٥٨ عابدين وثيقة ٧٦–٢٨ – ١٤ فى ١٧ من سبتمبر ١٨٣٩–٧ من رجب ١٢٥٥ هـ .
محفظة ٢٥٨ عابدين وثيقة ٧٦–٢٨ – ١١ فى ٢٩ من جمادى الثانية ١٢٥٥ هـ .

(٢) إلى معجون بك : ٧ من رجب ١٢٥٥ هـ–١٧ من سبتمبر ١٨٣٩م محفظة ٢٥٨ عابدين ٧٦–٢٨ – ١٤ .

(٣) Werry to Ponsonby: May. 4, 1839. F.O. 78-371.

(٤) محفظة ٢٦٧ عابدين وثيقة ٧ حمراء ط ١٧ من يونيو ١٨٣٩م – ٣ من ربيع ثان ١٢٥٥ هـ .

أن ننتقل إلى تلك الجهة » (١) . واتصل زعماء عشائر المنتفق بأحد العلماء الموثوق بهم لدى خورشيد باشا واتخذوه سفيراً لهم ليأخذ الأمان منه وحمل رسالة ودية من عيسى السعدون — شيخ عشائر المنتفق — إلى خورشيد ، كما كلف هذا الرجل بنقل رغبات أهل البصرة فى أن يصبحوا تحت الحكم المصرى (٢) .

وهكذا أصبح الطريق إلى جنوب العراق مفتوحاً وأصبح الضغط المصرى فى جنوب العراق قوياً ، وهذا أدى إلى أن تسرع القيادة العثمانية إلى تدعيم الدفاع عن هذه المنطقة فأسرعت بإرسال آلايين من الجند النظاميين (٣) إلا أن خورشيد لم يترك حر التصرف فى الموقف حيث صدرت الأوامر من القاهرة « بأن ليس الوقت وقت المصلحة التى تصورها وأملها ... ثم بعد إتمام ما ذكر يقوم ويأتى لهذا الطرف ويغلق باب المصروفات الذى فتح لنجد » . (٤) ولكن لم يترك محمد على الموقف هكذا . وإنما اتبع الأساليب الدبلوماسية فى سبيل التأكد من أن والى بغداد يسير وفق أهدافه . فقد كان محمد على يعمل على أن يكون حاكم بغداد متفاهماً مع حكومة مصر ولذلك بعث محمد على بمندوب من قبله إلى كل من على رضا ومحمد اينجه بيرقدار ليسلم إلى كل منهما كتاباً من لدنه . ومع أننا لا نملك نص أحد هذين الكتابين فلا شك أنهما يحتويان مضمون ما جاء فى كتاب ثالث موجه إلى والى قونية من تهديد بالغزو إن تقاعس عن أن يأخذ جانب مصر (٥) .

(١) محفظة ٢٦٦ عابدين وثيقة ١٣٠ حمراء — ١٤ أصلية ٢٨ من يوليو ١٨٣٩م—١٥ من جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ .

(٢) من خورشيد إلى الباشمعاون : ١٢ من أغسطس ١٨٣٩ — غرة جمادى الثانية ١٢٥٥ هـ : محفظة ٢٦٧ عابدين — وثيقة حمراء (٤) والوثيقة المرفقة (جورنال يحتوى على أجوبة وأخبار عن جهات البصرة والزبير والمنتفق) وكتب عيسى شيخ السعدون ورجال المنتفق إلى خورشيد فى ٩ من ربيع الثانى ١٢٥٥ هـ .

وانظر كذلك Fontanier : op. cti, T.IIp. 43

(٣) محفظة ٢٥٧ عابدين وثيقة ٢٠٦— ٢٧ فى ١٥ من يوليو سنة ١٨٣٩ — ٢ من جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ .

(٤) محفظة عابدين — تركية — حمراء ١٣٧ فى ٢ من رجب ١٢٥٥ هـ . إرادة رقم ٢١

(٥) دفتر ٦ عابدين — وثيقة ٢١٥ فى ٢٦ من أغسطس ١٨٣٩—١٤ جمادى الثانية ١٢٥٥ هـ .

ويحدثنا مندوب محمد على إلى كل من على رضا وبيرقدار عن مقابلته لكل منهما فيقول إن باشا بغداد صرح له :

« لماذا أرسل إلى أفندينا هذا الخطاب . ألم يكن ينبغى أن يأتى هو » (١) .

ومع ما نعتقده من أن المندوب نمق أو أضاف إلى أقوال على باشا رضا ، فلا شك أن موقف الرجل كان عصيباً ، فالطريق بين بغداد والآستانة كان تحت رحمة القيادة المصرية . والبصرة كانت فى متناول يد خورشيد والصحراء مفتوحة بعد أن خطب صفوق ود القيادة المصرية ، والدولة الفارسية تتحرش بالعراق وتتقرب من حكومة القاهرة تقرباً أقلق الحكومتين العثمانية والبريطانية كل القلق (٢) .

كان لكل من حكومتى لندن والآستانة سياستها الخاصة لمنع العراق من الوقوع فى يد المصريين . ولما كان الإنجليز يخشون من أن تنطلق القوات المصرية فى العراق فيرد الروس على ذلك بالزحف عبر الأناضول فتتدخل كل من فرنسا وإيران وغيرهما من الدول فى الأزمة فضل القنصل البريطانى فى مصر أن يحصل من « محمد على » على وعد منه بعدم القيام بغزو العراق (٣) .

أما الحكومة العثمانية فاتبعت سياسة عاطفية دينية لتحول بين وقوع اتفاق فارسى مصرى فكتبت إلى محمد على تقول : « إن أعداء الدين والوطن قد طمعوا فينا من جميع الجهات ولا سيما أن الإيرانيين انتهزوا الموقف الحالى فرصة للتفكير بتدبير هجوم على بغداد بأسباب مصطنعة وأن الأمر قد يؤدى إلى حرب بين الدولتين العثمانية والإيرانية » (٤) .

(١) محفظة ٢٥٨ عابدين — وثيقة ١٠٠—٢٨ — ٢ فى ١٨ من سبتمبر ١٨٣٩ — ١٨ من رجب ١٢٥٥ هـ .

(٢) Taylor's letter in Secret Dept. Enclos. to Secrt. letrs. fr. India Oct. & Nov. 1839 No. 21. News Letter 25 Oct. 1839. Vol. 17. & Copy of a Trans. of a Parsian letter fr. His Maj. King of Persia to H.H. Mehemet Ali Pacha of Egypt F.O. 78-256 July 1835.

Extract fr. Hennell's Letter. Mch. II, 1839)Ind. O.R.,F.R., P.P.G., Vol. 64. pp. 503-5).

(٣) Campbell to Sec. Comm. Aug. 5, 1839)Ind. O.R., F.R., P.P. G., Vol. pp. 37-38).

(٤) محفظة ٢٥٨ عابدين — وثيقة ١٠٠—٢٨ ٢ فى ٢٨ من سبتمبر ١٨٣٩ م — ١٨ من رجب ١٢٥٥ هـ .

وكانت المكاتبات الصادرة عن قنصلى بريطانيا فى كل من بغداد وبوشهر تؤكد للحكومة البريطانية أن هناك علاقة وثيقة بين حكومتى طهران والقاهرة لتنظيم عمليات عسكرية ضد العراق (١) واتهم تيلر -- قنصل بريطانيا فى بغداد — الفرنسيين والروس بأنهم يحرضون الشاه على غزو العراق (٢) . ولا شك أن نكبة نزيب كانت فرصة للفرس ليثأروا لضياع المحمرة من يدهم على يد على رضا وليلقنوا الدولة درساً فيما يجب أن يكون عليه سلوك الجار المسلم نحو زميله المشتبك فى حرب مع الأجانب . فالمعروف أن حملة على رضا على المحمرة كانت طعنة من الخلف للدولة الفارسية التى كانت تقاتل فى أفغانستان وفى الخليج العربى ضد الإنجليز فى آن واحد . وقد اتبع الشاه سياسة ماهرة للتمهيد لعقد وفاق مع حكومة القاهرة فلعب بالعاطفة الدينية ليكسب محمد على إلى صفه وليجس نبضه حيث جاء فى كتابه إليه :

« إن تقوية الجامعة الإسلامية وإحكام رابطة الصداقة والمودة منوطة باتحاد الأفكار والآراء .... » .

وأضاف الشاه لكتابه جملة خفية المعالم تنم عن رغبته فى عقد تحالف مع حكومة القاهرة إذ قال :

« وإنه إذا اقتضت المصلحة بمطالبتنا بأى تعضيد ومظاهرة فإننا مستعدون لأدائها » (٣) .

---

(١) انظر Hennell to Sec. Dept. 26 July 1839 (Ind. O.R., F.R., P.P. G., Vol. 65. p. p. 695-6).

(٢) وليس من قبيل المصادفة أن يستطرد تيلر – بعد حديثه عن التحريضات الفرنسية الروسية للشاه ضد العراق – مشيراً إلى أنه ينتظر وصول البواخر البريطانية إلى بغداد . فلا شك أنه كان يرى فى هذه البواخر الأداة الفعالة لصد الهجوم عن العراق سواء من الجانب الفارسى أو من الجانب المصرى .

Taylor to Sec. Dept. June 1.1840 (Ind. O.R.,F.R.,P.P.G., Vol. 69, pp. 36-39)

كما أشار تيلر فى كتاب آخر له إلى أن « التحريضات الموجهة من الشاه ...... لم تكن بأقل من تحريضات روسيا » .

Taylor's Letter Enclos. to Secret. letrs. fr. India Oct. & Nov. 1839. Vol. 17).

(٣) الدار الأهلية : محفظة ٢٥٨ عابدين – وثيقة ١٨٣ – ر مضان ١٢٥٥ هـ – نوفمبر ١٨٣٩ م .

إننا لانستبعد قط أن الشاه كان يريد الوصول إلى تفاهم مع مصر الفتية ضد العدو الحقيقى المشترك وهو بريطانيا . فبريطانيا وقفت فى وجه المصريين فى البحرين وفى الشام وفى العراق وعمان ، وهى التى وقفت فى وجه الشاه فى خرج وهراه وغيلان .

ولكننى أعتقد أن تلك المظاهرة الفارسية ما كان ليقدر لها أن تتحول إلى عمل عسكرى صريح نظراً لأن عجز فارس أمام هراة وأمام الحملة البريطانية فى الخليج العربى لم يكن ليسمح لها بأن تخوض تجربة أخرى قاسية مع الإنجليز .

ومما لاشك فيه أن الدبلوماسية البريطانية لعبت دوراً رئيسياً فى أن تقف إيران على الحياد من الصراع المصرى العثمانى . فقد قدر بالمرستون أن الشاه قد يغتنم فرصة نكبة الدولة العثمانية فى نزيب وفى سلطانها محمود الثانى وينقض على العراق ، ولذلك وجه النصح إلى الشاه بعدم اتخاذ أية تدابير عسكرية ضد بغداد ورفع المشكلات التى تقع بين فارس والعراق إلى مستوى المفاوضات بين البلاطين العثمانى والفارسى . وهو نصح أعتقد أنه فى ثوب التهديد (١) . وفعلا لم تتدخل الدولة الفارسية فى أمور العراق خلال هذه الأزمة .

وأغلب الظن أن تفكير عدد من المسئولين الإنجليز فى أن تحتل القوات البريطانية البحرين والبصرة بقصد وقف التيار المصرى المندفع نحوهما كان وليد هذه الظروف (٢) :

على أن التطورات الدولية أدت إلى أن يضطر محمد على تحت الضغط العسكرى فى الشام إلى أن يسحب الجيش المصرى من شبه الجزيرة العربية دون أن يحدث صدام بين القوات المصرية والعثمانية هناك ، وإنما حاول على رضا أن يغرى خورشيد بالتخلى عن حكومته والانضمام إليه ليستخدمه فى إدارة تلك البلاد التى أبدى مهارة كبيرة فى حكمها خلال المدة القصيرة

---

(١) Palmerston to Marq. Channicarde. Oct. 29, 1839. No. 156. Home Corresp. 1839 Vol. I. pp. 413-420.

(٢) D'Avril : L'Arabie Contemporaine, p. 24.

التى قضاها فى نجد ، ولكن خورشيد لم يستمع إلى نداءات على رضا ونفذ أوامر الانسحاب (١) . وقبل أن يتم انسحاب القوات المصرية من الأحساء ومن نجد أسند خورشيد حكم الأحساء إلى صهره أحمد بن مبارك — أحد كبار شيوخ بنى خالد — وترك خالد بن سعود على حكم نجد تشد أزره بعض القوات المصرية (٢) . ولم يقع صدام مع الإنجليز مع أن الإنجليز أرسلوا مدرعة لحصار سواحل الأحساء ولقتال القوات المصرية هناك إذا لزم الأمر (٣) .

والمعروف أن محمد على كان قد وعد الإنجليز بأنه سيمتنع عن القيام بغزو العراق . ومع ذلك فهناك أقوال كثيرة عن أنه كان يريد الاستيلاء عليه . فهل كان يريد ذلك حقاً ؟

ذكر بعض المؤرخين والكتاب أن محمد على كان يريد الاستيلاء على العراق . فقد صرح محمد على لأحد الفرنسيين بقوله : « إننى أستطيع أن أفتح عكا ودمشق وبغداد بكلمة واحدة منى ... وابنى المنتصر سيتوجه فى أقل من عام ليحقق مقاصدى على ضفاف دجلة والفرات لأنها حدود ثابتة للدولة التى أسعى إلى إنشائها » (٤) ، وكانت تصريحات إبراهيم كذلك تشير إلى أنه يريد أن يحمل العرب على استعادة حقوقهم وأن يأخذوا نصيبهم فى إدارة أمور البلاد والجيش . ويعزى إلى إبراهيم قوله إنه سيسير قدماً فى فتوحاته إلى كل بقعة « يتكلم الناس ... باللسان العربى » (٥) ، ويؤيد هذا الاتجاه ما قاله رفاعة الطهطاوى من أن تلك الحروب « لم تكن من محض العبث ولا من ذميم تعدى الحدود ، إذ كان جل مقصوده تنبيه أعضاء ملة عظيمة تحسبهم أيقاظاً وهم رقود » (٦) .

(١) Taylor to Sec. Comm. 24 Nov. 1841. F.O. 195-113.

(٢) Taylor to Sec. Comm. Ist. July 1840 (Ind. O.R.,F.R., P.P.G., Vol. 69. pp. 25-27).

(٣) Hennell to Welloughby. Feb. 8, 1840 No. 11 (Pol. & Sec. Enclosures to Secret letters received from Bombay Vol. 21).

(٤) ذكرى البطل الفاتح : ٢٩٣ انظر مقالة عبد الرحمن زكى بعنوان حماة الشام الأولى والثانية .

(٥) الرافعى : محمد على : ١٩٠

(٦) ذكرى البطل الفاتح : ٢٨٥ انظر مقالة عبد الرحمن زكى فى الكتاب المذكور

أما بالنسبة للعراق بالذات فهناك عدة شواهد تجعلنا نعتقد أن حكومة القاهرة استبعدت العراق عن مشروعاتها السياسية . وليست هذه أول مرة تتجنب حكومة القاهرة أن تزج بنفسها فى مشكلات العراق . فعندما طلب السلطان من محمد على أن يسرع إلى إنقاذ العراق من براثن الفرس ، تقاعس عن تلبية هذا النداء (١٨٢٠ — ١٨٢٢) (١) . وبعد أن فتحت القوات المصرية الشام كانت حكومة القاهرة ترى دائماً كما جاء فى كتب محمد على لابنه إبراهيم أن نهر الفرات هو حدها من الشرق (٢) . ومعنى هذا أن العراق يقع خارج مجال المنافسات بين مصر والدولة العثمانية . ولم يكن العراق فى نظر حكومة القاهرة سوى ورقة يمكن اللعب بها على مائدة المفاوضات التى دارت لعقد صلح كوتاهية . وكان هذا هو رأى إبراهيم . فقد طلب من محمد على فى فبراير ١٨٣٣ أن يطلب — وهو فى أوج انتصاراته — من السلطان ولايات أضاليا وأدنه وقبرص وتونس وطرابلس، وأما إذا طلبت بغداد فلا مانع من طرح هذه المسألة على بساط البحث على أن تتنازل عنها (الحكومة المصرية) فى المستقبل لأن هذه الولاية لا تنفع شيئاً .. و.. بعيدة جداً عن مصر وتتطلب نفقات باهظة (٣) .

ويؤكد هذا الاتجاه لدى حكومة القاهرة أن محمد على بعد نزيب صرح للقنصل البريطانى بأنه لا ينوى الاستيلاء على بغداد أو على البصرة(٤). كما فهم المسيو فونتانييه Fontanier من محمد على أنه لن يسعى إلى ضم العراق إليه (٥) .

ومما سبق يتضح أن العراق لم يكن من أهداف حكومة القاهرة وأنه

(١) انظر الفصل الأول .

(٢) محفظة ٢٥٧ عابدين — وثيقة ١٥٥ فى ٢٥ من يوليو ١٨٣٩ م—١٢ من جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ .

(٣) من إبراهيم إلى محمد على : ٣ من فبراير ١٨٣٣م — ١٣ من رمضان ١٣٤٨ هـ ذكرى البطل الفاتح : ص ٣٥٩ .

(٤) Campbell to Sec. Comm. Aug. 5, 1839 (Ind. O.R., F.R., PPG, Vol 66 p. 37-38.

(٥) Fontanier : Op. cit. T. I. p. 16.

كان فقط مجرد ورقة يريد أن يلعب بها فى مفاوضاته مع الباب العالى ومع الدول الأوربية المعنية بأمور الشرق الأوسط ، على أن تكون حكومة بغداد فى الوقت نفسه متفاهمة مع حكومة العراق . ولكننا نجد من قواد الجيش المصرى من كان يتطلع بصدق إلى أن ينضم العراق إلى مصر والشام . ومن هؤلاء القواد خورشيد باشا قائد الحملة المصرية فى شبه الجزيرة العربية . كان خورشيد مؤمناً بأن مهمته ليست مقصورة على نجد وإنما تمتد إلى تحرير أكبر مساحة ممكنة من الخليج العربى والعراق من براثن الإنجليز والعثمانيين على السواء وبالتعاون مع العشائر العربية العراقية وأهل العراق الذين رغبوا من تلقاء أنفسهم فى التعاون مع المصريين (١) . ولم يعمد خورشيد إلى استخدام القوة فى كسب العرب إلى جانب قضيته ، وإنما نجح فى ذلك بالتفاهم معهم ومن ذلك أن شيخ الكويت ظل موالياً للمصريين مع أن خورشيد لم يبعث إليه سوى ضابط واحد لتسوية مصالح المصريين فى تلك الجهات ، حتى إن الشيخ وقف موقفاً صلباً جداً من الإنجليز ومن على رضا وتعاون مع المصريين كل التعاون (٢) .

وهكذا كان لحكومة القاهرة سياسة معينة إزاء العراق والخليج العربى تختلف عن سياسة خورشيد فقد كان حكام القاهرة ينظرون إلى الموقف نظرة شاملة ، وكانوا تحت ضغوط سياسية دولية قد لا يشعر بها خورشيد فى الميدان الذى يعمل فيه . وهذا الخلاف بين وجهتى النظر يرجع إلى أن القائد المنتصر يريد أن ينطلق وأن يستغل انتصاره إلى أقصى درجة ممكنة . بينما هذا الانطلاق يكون فى نظر الساسة خطراً شديداً على مستقبلهم . فخورشيد كان يعالج الموقف وفق الظروف المحلية التى كان يعمل فيها فى الخليج العربى وجنوب العراق وفى شبه الجزيرة العربية . وكان هذا المجال

---

(١) Taylor to Sec Dept. Nov. 13, 1839. (Ind. O.R., F.R., PPG, Vol. 67p. 237-239).

(٢) محفظة ٢٦٧ عابدين – مرفق بالوثيقة ١٣٧ حمراء .
Precis of Corresp. Regd. Aff. Per. G. 1801-53. Calcutta 1906 by Saldanga. pp. 203-4, 213-5, & Edmonds Report on his mission to Koweit 5. II. 1939 Ind. O.R., F.R., P.P.G. Vol. 68.

واحداً من مجالات متعددة كانت تدخل فى الاعتبار عندما تتخذ حكومة القاهرة حينذاك أية خطوة سياسية .

ولذلك كان كامل باشا مصيباً تماماً حين قال إن خورشيد هو الذى طلب من محمد على سفناً للاستيلاء على العراق وأنه هو الذى جعل محمد على يتطلع إلى الاستيلاء على العراق فى الوقت الذى كان محمد على فى حقيقة الأمر عزوفاً عن ذلك (١) . ومن ثم فمن الصعب أن نتبين الأساس الذى بنى عليه لايارد Layard – عندما أصبح فى الثمانينات سفيراً لبريطانيا فى الآستانة – قوله بأن محمد على عرض على السلطان أن يتخلى عن مصر ويتولى حكم بغداد (٢) .

بعد انسحاب المصريين من شبه الجزيرة العربية عملت السلطات العثمانية والبريطانية على أن ترث الحكم المصرى فى شبه الجزيرة العربية . فبالنسبة للعثمانيين أصبحت أهمية شبه الجزيرة العربية – بسبب تلكم الأحداث الجسام التى مرت خلال التوسع المصرى واضحة فى أذهانهم . وأصبحت الصلة بين العراق وشبه الجزيرة أقوى . فكان على العثمانيين أن يعودوا إلى شبه الجزيرة مرة أخرى . وكان من مظاهر هذا أن أسند السلطان العثمانى ولاية جدة وتوابعها (الأحساء ونجد) إلى على باشا رضا (٣) .

ولما كانت الحكومة العثمانية متعاونة مع الحكومة البريطانية على قتال المصريين وإعادتهم إلى مصر عمل على رضا على استغلال هذه الظروف ليستعين بالبحرية البريطانية لإرسال نائبه إلى جدة . فقد طلب من الوكيل السياسى البريطانى فى بغداد أن يذهب نائبه إلى جدة على ظهر باخرة بريطانية مسلحة لتمنع بالقوة السفن المصرية إذا حاولت التعرض له (٤) . وهذا أمر لم يخطر على بال محمد على الذى نفض يده بعد ١٨٤٠ من شبه الجزيرة

---

(١) كامل باشا : تاريخ سياسى : جـ ٣ : ١٤٥–١٥٠ .

(٢) Layard to Salsbury 12 June 1878. F.O. 78-2791.

(٣) عباس العزاوى : تاريخ العراق : ص ٧ : ص ٦٠

(٤) Taylor to Sec. Comm. 24 Nov. 1840. F.O. 195-113.

العربية ومن مشكلاتها . وهكذا عندما حاول العثمانيون العودة إلى شبه الجزيرة العربية كانوا يعودون ومعهم النفوذ البريطانى .

ومن ناحية أخرى لم يعمل على رضا على أن يرث الحكم المصرى وراثة فعلية . فقد ترك الأوضاع التى تخلفت بعد الانسحاب المصرى على ما هى عليه . ترك خالداً على نجد ، وأحمد بن مبارك على الأحساء وثبتهما فى مركزيهما . وكانت هذه هى سياسته فى تلك الجهات بصفة عامة . ولم يعمل على إدخال نظم الإدارة العثمانية فى هذه البلاد وعاملها المعاملة نفسها التى كان يعامل بها مشيخات الكويت والزبير وسوق الشيوخ . وكان فى هذا خطر كبير على مستقبل هذه الجهات ارتكبه على رضا وعدد كبير من ولاة العراق العثمانيين . إذ تركوا هذه المشيخات المطلة على الخليج عرضة للضغوط البريطانية المختلفة الأشكال . ولقد تعرضت كذلك الكويت والساحل الأحسائى لضغط استعمارى شديد فى أعقاب انسحاب القوات المصرية من تلك الجهات . فقد تطلع الإنجليز إلى أن يرثوا هم المصريين على المناطق الساحلية . فقد رأى فارن Farren — القنصل البريطانى فى دمشق والمكلف بإعداد تقرير عن الأوضاع فى جنوب العراق والخليج — أن الكويت وقد أصبحت من المراكز الرئيسية فى ١٨٤٦ يجب أن تدخل تحت السيطرة البريطانية . وتزعم فارن Farren القول بأن الكويت مستقلة وطالب حكومته بالدخول فى مفاوضات مع الباب العالى لبسط السيادة البريطانية على الساحل وعلى الكويت بصفة خاصة . وكان الاعتراف باستقلال الكويت هو الخطوة الأولى نحو وضعها تحت السيطرة البريطانية وفق خطة فارن Farren . فهذا الاعتراف سيمكن بريطانيا — مثلما مكنها مثيله بالنسبة للبحرين وغيرها من إمارات الخليج — من أن تمنع تدخل أية دولة من الدول المجاورة فى أمورها فتنفرد بريطانيا بها . ومن أجل ذلك تتبع فارن Farren تاريخ تبعية الكويت للباب العالى ، وأخطر حكومته بنتيجة بحوثه ، وملخصها أن الكويت لم تتبع الدولة العثمانية إلا خلال حكم سليمان الكبير للعراق (١٧٧٦ — ١٨٠٢ م)(١) .

(١) Farren to Aberdeen. 28 Aug. 1841. L (F.O. Caisse No. 15 File of 1841 List IV. P. 113-114.

حث فارن Farren حكومته على الاعتراف باستقلال الكويت والدخول فى مفاوضات مع الباب العالى للحصول على نوع من السيطرة البريطانية على طول الساحل حتى القطيف . وليثير حماس حكومته كشف لها أنها إذا بسطت سيطرتها على الساحل الأحسائى تستطيع أن تمد نفوذها قوياً إلى دلتا العراق (شط العرب) حيث تستطيع أن تستغل ظروفاً مشابهة لتلك التى أعانت خورشيد على تقوية الروابط مع عشائر جنوب العراق (١) .

أثارت هذه العلاقات البريطانية بالكويت مخاوف الحكومة العثمانية التى بعثت بمذكرة إلى الحكومة البريطانية تحتج فيها على هذا التدخل فى أمور البلاد التابعة للدولة . فأجابت اللجنة السرية لشركة الهند الشرقية Secret committee على ذلك بأنها لفتت أنظار حكومة بومباى إلى تجنب إثارة مثل هذه الأزمات واتخاذ جانب الحيطة عند اتخاذ أية إجراءات قد تمس بسيادة السلطان على المقاطعات التابعة له قبل التوسع المصرى(٢) .

وستمضى السياسة البريطانية فى الخليج العربى على أساس الانفراد بأموره والسيطرة على كل بقعة يمكن أن تسلخ من جسم الدولة العثمانية فى تلك الجهات وهذا ما سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد .

(١) Farren to Aberdeen. 28 Aug. 1841. Caisse No. 15.Fiel of 1841 List XXIV. p. 113-114.

(٢) Ibid.

الفصل السادس

التنافس الدولي على خطوط المواصلات عبر العراق

١ ــ خطوط البواخر العالمية .

٢ ــ بعثة جسني

٣ ــ تفوق الملاحة البخارية البريطانية
في نهري دجلة والفرات .

٤ ــ خطوط السكك الحديدية والبرقية .

الفصل السادس

التنافس الدولى على خطوط المواصلات عبر العراق

خطوط البواخر :

كان العراق خلال الفترة التى نحن بصددها ميدان تنافس شديد بين الدول الأوروبية والعثمانية حول الاستئثار بمشروعات خطوط المواصلات العالمية لربط الشرق بالغرب عبر العراق .هذه المشروعات بدأت بخطوط البواخر وتلتها مشروعات لمد خطوط للسكك الحديدية والتلغرافية . ودخلت بريطانيا الميدان أولا وحازت قصب السبق وعملت الحكومة العثمانية على أن تنافس الخطوط البخارية الأوروبية بخطوط عثمانية وعلى أن تحد من نشاط الخطوط البريطانية ، ولكن الفرمانات التى منحت للإنجليز لاستخدام البواخر فى أنهار العراق كانت سلاحاً قوياً فى وجه العثمانيين ومنحت هذه الفرمانات الإنجليز فرصاً واسعة لاحتكار الملاحة البخارية والتجارية فى دجلة .

وترجع العناية الكبرى من جانب الدول الأوروبية بالبلاد الواقعة بين البحر المتوسط والخليج العربى إلى أن حملة بوناب ت على مصر جعلت الإنجليز يتخذون إجراءات إيجابية لمقاومة المشروعات الفرنسية للوصول إلى الهند عبر الشرق الأدنى .

والمعروف أن حملة بونابرت على مصر أدت إلى أن يستخدم الإنجليز طريق العراق لفترة محدودة إلى الهند وإلى أن يرفعوا من مستوى التمثيل الدبلوماسى فى العراق لمراقبة النشاط الفرنسى وللإشراف على نقل البريد عبر العراق إلى أوربا وبريطانيا . على أن ازدياد حاجة الهند والشرق الأقصى إلى المنسوجات الرخيصة وغيرها من البضائع التجارية ورغبة

الإنجليز فى اتخاذ وسائل أسرع للنقل التجارى ولتوصيل الأنباء والبريد أدى إلى أن يفكر المسئولون فى حكومة لندن فى استخدام البواخر ، ولعل أول مظهر حكومى يدل على رغبة بريطانيا فى اتخاذ خطوات إيجابية نحو استخدام البواخر فى الطرق المؤدية إلى الهند هو توجيهها أنظارمديرى شركة الهند الشرقية إلى واجبهم فى هذا الميدان الذى أصبح من مجالات التنافس الدولى .

وكان طبيعياً أن يتجه التفكير البريطانى أولا إلى مجرد إحلال البواخر محل الشراع فى طريق رأس الرجاء الصالح الذى تسيطر عليه قطع الأسطول البريطانى . إلا أن التجارب أثبتت أن طول الرحلة وحدوث تلف فى الأنابيب والمراجل من وقت لآخر وعدم توافر محطات متقاربة لإصلاحها ولتشحيم الماكينات أدى إلى التفكير فى استخدام أحد الطريقين القصيرين : البحر الأحمر أو العراق (١) . وأخذت المقالات الصحفية والكتب تظهر مؤيدة هذا الطريق على ذاك . ونظراً لأن حاكمى بومباى فى العشرينات كانوا من مؤيدي الطريق عبر مصر نشطت التجارب فيه ومنذ الانتصارات الروسية على الفرس ١٨٢٦ وعلى الدولة العثمانية ١٨٢٨ — ١٨٢٩ ، ومنذ الخطوات الكبيرة التى اتخذت لاستخدام البواخر فى أنهار روسيا والنمسا بقصد تسهيل النقل التجارى بين المراكز الصناعية فى روسيا والنمسا ومراكز الاستهلاك فى الدولتين العثمانية والفارسية وفى بلاد العرب والهند نشطت المجهودات البريطانية لاستخدام البواخر لتحقيق الهدف الاقتصادى العام وهو التفوق التجارى البريطانى فى تلك الجهات ولتحقيق هدف جديد هو تقوية قواعد المقاومة فى تلك الجهات ضد أى نفوذ سياسى أو اقتصادى أوروبى هناك (٢) . وظهرت مشروعات بريطانية لربط نهر العاصى بالفرات ولربط الخليج العربى بنهر السند (٣) ومع أنها مشروعات نظرية إلا أنها كانت

(١) Hoskins : opcit. p. 90-102.

(٢) Selected Committee on Steam Navigation to India Parl. Reports & the Commit tees. XIV. Memo. resp. the application of steam naving. to the internal and external communication of India App. No. 1. pp. 2-10.

(٣) Hansard's Parl. Dep. 3rd. Session. Vol. XXXI. p. 614 (House of Commons. Feb. 19. 1836).

التمهيد الطبيعى للخطوات العملية نحو تنفيذ هذه المشروعات البريطانية لمد خطوط البواخر بين الشرق والغرب عبر العراق . كانت هذه المشروعات مقدمة لمشروعات عديدة فى مجال المواصلات العالمية . فقد تلتها مشروعات مد خطوط السكك الحديدية ، ومد خطوط البرق . هذه المشروعات تبرز قيمة العراق كرابطة بين الشرق والغرب . وفى الوقت نفسه كان العراق لا يستطيع أن يتفوق فى مجال المواصلات العالمية على مصر . كان العراق طريقاً بديلا لطريق مصر فى نظر الإنجليز خلال فترات طويلة ، لذلك سرعان ماكانوا يتخلون عنه كلما حصلوا على تسهيلات فى طريق مصر .

كان باركر Barker — قنصل بريطانيا فى حلب — من أوائل الدبلوماسيين الإنجليز الذين اكتشفوا قيمة استخدام البواخر فى مياه العراق لربط الشرق بالغرب وحث فعلا البحرية البريطانية على إرسال باخرة لاختبار طريق العراق (يوليو ١٨١٦) . وكتب كذلك إلى روبرت تيلر Rubert Taylor — الوكيل السياسى فى البصرة — عن مزايا نقل الوكالة البريطانية فى البصرة إلى الكويت (يناير ١٨٢٢) لما ستصبح عليه هذه المدينة الناشئة من أهمية بالغة فى ميدان خطوط المواصلات العالمية وكنهاية لخط ملاحى تجارى بين البحر المتوسط والخليج العربى (١) . وهذه التوصيات دخلت مرحلة الدراسة الميدانية على يد جيمس تيلر James Taylor أخى روبرت تيلر الذى كان هو الآخر متحمساً كل التحمس بمشروع مد خط ملاحة تجارية عبر العراق . ولقى المشروع من داود باشا كل تشجيع لما سيدره على الخزانة من أموال كثيرة ولا شك أن موقف داود ومجهودات روبرت تيلر كانت من العوامل التى شجعت جيمس تيلر على أن يحول نشاطه من طريق البحر الأحمر إلى طريق العراق ، خاصة وأن حكومة بمباى تبنت مشروع البحر الأحمر (٢) . وكانت مدرسة الهند تؤيد طريق البحر الأحمر دائماً .

رحل ج . تيلر إلى العراق فى ١٨٣٠ وصعد دجلة إلى بغداد التى كانت

(١) Barker : Egypt. & Syria Vol. I. p. 124 Vol. II. 196 & Hoskins : opcit. pp. 134-6 & Chesney : Narrative p; 144.

(٢) Hoskins : opcit pp. 118-119.

تعانى أسوأ أيام عاشتها فى القرن التاسع عشر فى نهاية حكم داود باشا وقام كذلك بدراسة الفرات صاعداً النهر حتى الموصل (سبتمبر ١٨٣٠) .

ويقول هوسكنز Hoskins إن تيلر حصل من داود باشا على امتيازات تجارية تتضمن :

« الملاحة الفعلية للبواخر فى دجلة لمدة عشر سنوات واحتكار تموين البلاد بسلع معينة ، وخاصة تزويد الباشا بالعتاد الحربى » (١) .

ولانستبعد موافقة داود باشا على مثل هذا الامتياز نظراً لأنه كان دائماً يطلب من الإنجليز تزويده بالأسلحة اللازمة (٢) وكان يؤكد لهم أنه سيقدم التسهيلات الضرورية لإنشاء خط بخارى وقدسجل ذلك المبشر البريطانى جروفز Groves فى مؤلفه (٣) .

وما كاد ج . تيلر يغادر الموصل حتى سقط قتيلاً بيد جماعة من العرب (٤) ، ومع هذا لم يتوقف نشاط الداعين لمشروع خط بواخر العراق ولكن بدوافع أخرى . فبينما كانت دوافع ج . تيلر شخصية وتجارية ، كان ستراتفورد كاننج Stratford Canning — سفير بريطانيا فى الآستانة — يقدر تماماً أن مشروع الملاحة البخارية بين الشرق والغرب لايجب أن يترك فى يد رجال الأعمال وإنما يجب أن تتولاه الحكومة البريطانية حيث إن تطورات التنافس البريطانى الروسى الفرنسى فى الشرق الأوسط كانت تنذر فى ١٨٢٩ — ١٨٣٠ بأحداث خطيرة فقد نزلت الجيوش الفرنسية فى الجزائر ووقعت الحرب الروسية العثمانية وبدأت المنازعات بين محمد على والسلطان تشتد ..

بعثة جسنى :

وفى هذه الظروف حول المسئولون الإنجليز مجهودات الضابط جسنى Chesney من العمل فى صفوف الجيش العثمانى ضد الروس إلى دراسة

(١) Hoskims : op. cit 117

(٢) Ibid. pp.151-2

(٣) Groves : op. cit. p. 11.

(٤) Hoskins : op. cit. p. 118.

إمكانات استخدام البواخر فى نهر الفرات وكتابة تقرير عن جوانب القوة والضعف فى إمكانات مصر (١) . كذلك طلبت منه حكومة الهند أن يفاضل بين الطريقين : طريق الفرات وطريق البحر الأحمر فسافر . أولاً إلى مصر وهنا اكتشف قيمة تنفيذ مشروع توصيل البحرين الأحمر والمتوسط . ونظراً لأن محمد على كان يخشى من نتائج جعل مصر معبراً بين الشرق والغرب ، ولأن نفقات تنفيذ المشروع كانت ضخمة جداً وضع جسنى Chesney المشروع جانباً ورحل إلى الشام (أواخر ١٨٣٠) لينفذ الشطر الثانى من مهمته التى يمكن تلخيصها فى النقاط التالية :

١ — دراسة الطرق بين الإسكندرية واللاذقية وانطاكية وحلب .

٢ — دراسة الطرق بين حلب والبصرة عبر الصحراء .

٣ — دراسة الطرق بين آسيا الصغرى وبغداد .

٤ — طبيعة الأنهار وأساليب النقل فيها وإمكانات استخدام البواخر .

٥ — التجارة ومستقبلها فى تلك الجهات ، وخاصة إمكانات التوسع الاقتصادى البريطانى .

٦ — الظروف السياسية والاجتماعية فى تلك الجهات (٢) .

وصل جسنى إلى الفرات الأعلى وهبط متجهاً صوب عانة التى بلغها فى ديسمبر ١٨٣٠ ومنها إلى الفالوجة فبغداد .

ثم تابع جسنى رحلته إلى بغداد والبصرة (١٠ من أبريل سنة ١٨٣١) ومنها إلى بوشهر ثم إلى المحمرة ليصعد نهر كارون إلى شوشتر وليغادر إيران إلى بريطانيا (١٨٣٢) . وقدم جسنى تقاريره إلى كاننج — سفير بريطانيا فى الآستانة — وأشار فيها إلى أن صعوبات الملاحة لا تسمح باستخدام

(١) Chesney : Narrative. pp. 154. 5 & Ibid.

(٢) كان هذا المشروع من وضع عدد من العلماء الذين صحبوا الحملة الفرنسية على مصر بقيادة بونابرت ولكن أخطأوا فى حساب ارتفاع مستوى سطح البحرين الأحمر والمتوسط . إذ اعتقدوا أن أحدهما أعلى من الآخر ولذلك لم يشرع العلماء الفرنسيون فى تنفيذ مشروع توصيل البحر الأحمر بالبحر المتوسط .

البواخر فى نهر الفرات (١) .

وفى ذلك الوقت بدأت القوات المصرية تكتسح القوات العثمانية فى الشام وكانت بريطانيا تتبع سياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية ومنع وقوع خطوط المواصلات العالمية عبر الشرق الأدنى فى يد مصر أو غيرها من الدول . كما أن بريطانيا خشيت من أن يصل هذا التوسع المصرى إلى الحدود الفارسية . ولذلك صممت الحكومة البريطانية على أن تقاوم التوسع المصرى .

وزاد من تلهف بريطانيا على اتخاذ خطوات إيجابية وبسرعة فى هذا الشأن أن أزمة التوسع المصرى لم تكن مقصورة على الشام وإنما شملت الشرق الأوسط بأسره فجندت بريطانيا رجالها لدراسة الموقف من زاوية خطوط المواصلات العالمية عبر الشرق الأوسط ، وخاصة عبر العراق أو فارس ، وتحديد الطرق الممكن استخدامها فى حالة الاصطدام بروسيا أو بمصر . وبذلك أصبح العراق منطقة حساسة مؤثرة على الاتجاهات السياسية فى القاهرة وبطرسبورج تأثيراً لم يكن ملحوظاً من قبل (٢) .

وأصبح على بريطانيا أن تتخذ خطوات فعالة لتكون لها اليد العليا على خطوط المواصلات العالمية عبر الشام والعراق .

فاقترح ستراتفورد كاننج Statford Canning — سفير بريطانيا فى الآستانة — على حكومته لمواجهة هذا الموقف أن تتخذ الخطوات التالية أو بعضها :

١ — إضعاف جانب مصر بسحب الفنيين الإنجليز العاملين فيها .

٢ — القيام بمجهودات دبلوماسية فى كل من طهران وبغداد لمقاومة المصريين .

٣ — الحصول على حق استخدام الفرات للملاحة البخارية البريطانية .

(١) Hoskins : opcit. p. 154.

(٢) Chesney : Narrative. pp. 1-10, 50, 56, 61, 80-82, 363-4; Parl. Pap., 1843. No. 478 App. 8. pp. 36-40 App. 16. pp. 60-61, 92-93 & from Canning to Palmerston. Dec. 19., 1832. F.O. 78-211. Guedalla : Palmeston. p. 175.

ولتحقيق ذلك كان لابد من إقناع المسئولين الإنجليز بصلاحية نهر الفرات ، وإقناع الباب العالى بأهمية المشروع للبلاد .

وكتب كاننج لحكومته يقول إن المعونة التى تقدمها بريطانيا للسلطان فى محنته (١٨٣٢) ستجعله يقدم تضحية معقولة فى مقابلها . ولما كان الباب العالى مكبلا بالامتيازات التى تتيح للدول الكبرى مشاركة بريطانيا فى أى امتياز تحصل عليه بريطانيا ، عمل كاننج Canning على الحصول على امتياز الملاحة البخارية فى الفرات بطريقة لا تستطيع بها أى دولة أوروبية أخرى أن تطالب بالحقوق نفسها (١) .

فى هذه الظروف لوحظ أن جسنى عدل عن آرائه التى سبق أن أبداها من قبل لستراتفورد كاننج فى ١٨٣١ وكان هذا التحول تحت تأثير من ملك الإنجليز بصفة خاصة وأخذ جسنى يردد أن الفرات من أنسب الطرق لربط الشرق بالغرب بخطوط منتظمة من البواخر.

وانتهز الساسة الإنجليز هذا الرأى الجديد ونادوا بأن الوقت حان لاختبار صلاحية نهر الفرات للملاحة . وما هدفوا من وراء ذلك إلا خدمة لأغراضهم الاستراتيجية . ولكن الحملة الكبيرة التى تزعمها جسنى للمشروع لم تشر إلى هذه الأهمية الاستراتيجية وإنما ركزت الدعاية فى النتائج الاقتصادية والنواحى السياسية العامة (٢) .

وكانت حجج المتحمسين للمشروع هى :

١ — انخفاض تكاليف النقل والسفر فى طريق الفرات عنها فى البحر الأحمر .

٢ — الاتصال بالهند سيكون فى وقت أقل .

٣ — ستعين البواخر على أن يستقر العرب الرحل وسيستعيد العراق ماكان عليه من ازدهار فتنمو بذلك التجارة البريطانية نمواً كبيراً .

(١) S. Canning Memo: on. the Turco-Egyptian Ouest. Aug. 1832.

(٢) Hoskins : opcit. p. 154.
Lane-Poole : Life of Chesney. p. 265.

استجاب بالمرستون Palmerston بعد وقت وجيز للدعايات التى كان ينشرها جسنى عن المشروع ورحب بالفكرة عندما تأزمت أمور الشرق الأدنى فى فبراير سنة ١٨٣٣ ودخل المشروع مجلس العموم وشكلت لجنة برلمانية لدراسته ومقارنة طريق الفرات بطريق البحر الأحمر (٩ من يناير سنة ١٨٣٤). واستجوبت اللجنة كل من له خبرة بطريق المواصلات عبر الشرق الأدنى واستعرضت الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للعراق والبلاد على طول الطريق المقترح (١). وأوصت اللجنة بالعمل على تحديد مدى صلاحية الفرات أولا خلال فترات انخفاض مستوى المياه فيه (نوفمبر — فبراير) ونصحت باستخدام الطريقين عبر العراق أو عبر البحر الأحمر فى آن واحد نظراً لأن الرياح الموسمية تعرقل الملاحة فى خط البحر الأحمر من يونيو إلى سبتمبر وهى فترة يكون فيها مستوى الماء فى نهر الفرات ملائماً تماماً للملاحة البخارية.

كما أوصت اللجنة بمد خط البواخر البريطانية بين بورتسموث وفالتا حتى موانى سوريا ومصر. وقدرت التكاليف بعشرين ألف جنيه استرلينى لإرسال سفينتين بخاريتين إلى الفرات على أن تسهم شركة الهند الشرقية بخمسة آلاف جنيه.

والواقع كان هناك خلاف بين الحكومة البريطانية وإدارة شركة الهند الشرقية حول مشروع خط بواخر الفرات فقد كانت الشركة تضع الاعتبارات المادية فى المرتبة الأولى. ولذلك لم تكن تميل إلى هذا المشروع لأنه كان لا يؤدى إلى تحقيق مكاسب مالية حيث كانت المكاسب المنتظرة منحصرة فى النواحى السياسية والاستراتيجية. أما حكومة لندن فكانت معنية — فى الدرجة الأولى — بتحقيق هذه الاعتبارات السياسية والاستراتيجية قبل الاعتبارات المادية.

---

(١) Sel. Comm. on Stm. Navig. to Ind. (Parl. pap. Rprts. Comms. XIV. Memo. Resp. Application for Stm. Navigt. To Inter. & External Communication of Ind. App. No. 1. pp. 2-10) Remarks on the proposed Comm. between India & England either through Red Sea or Egypt or the Persian Gulf. Euph., and Deant. Parl. pap. XIV. (Memo. Resp. Applic. of steam Navig. app. No. 1. pp. 2-10); Hoskins : cit; pp. 156-158.

تقدم السفير البريطانى إلى الباب العالى طالباً إصدار فرمان بتسهيل الملاحة البخارية فى نهر الفرات لربط الشرق بالغرب وتردد الباب العالى فى منح الفرمان متعللا فى أول الأمر بأن لا سيطرة له على العشائر التى ستمر بها البعثة فى العراق وأنه لا يستطيع لهذا السبب أن يتحمل مسئولية سلامتها وصرح ريس أفندى بأن الباب العالى مستعد لإصدار الفرمان إذا ما تحملت بريطانيا مسئولية الدفاع عن الباخرتين. وقبل الإنجليز هذا الشرط فى مقابل(١) أن تكون الباخرتان مسلحتين. ومع ذلك ظل الباب العالى متردداً فى إصدار الفرمان فهدد الإنجليز الباب العالى بأنهم سيستخدمون طريق مصر إذا تلكأ السلطان أكثر من ذلك(٢)، وبذلك عرف الإنجليز كيف يستغلون ظروف النزاع بين السلطان ومحمد على لمصلحتهم.

والواقع أن الباب العالى وقع بين شقى الرحى:

١ — الضغط البريطانى بمطالبه المتعددة (٣).

٢ — الضغط الروسى المتزايد بعد «خنكار سكله سى» وهى معاهدة التحالف الروسية العثمانية.

فقد كانت روسيا تعتقد أن منح الفرمان سيلقى بالعراق غنيمة باردة فى يد الإنجليز وأنهم سيجعلون منه قاعدة لمقاومة التوسع الروسى فى جنوب غرب آسيا. وكانت لدى الروس حجة قوية، فقد امتنع الباب العالى لفترات طويلة امتناعا باتا عن أن يمنح الإمبراطورية النمساوية حرية الملاحة فى الدانوب. وهاهو ذا الباب العالى يريد أن يمنح امتيازاً للإنجليز فى نهر الفرات لا يشاركهم فيه أحد (٤). ولكن الضغط البريطانى كان شديداً على الباب العالى الذى كان يخشى أن تصبح مصر هى المعبر بين الشرق والغرب المفضل لدى الإنجليز .. هذا إلى أن العثمانيين كانوا فى حاجة إلى إرضاء

---

(١) Note for his Exc. the Reis Eff. Nov. 11, 1834 (F.O. 78-240).

(٢) (Taylor toSec. Dept. Nov. 23, 1834 (Ind. OR., F.R., P.P.G., Vol. p. 51, 493). & Chesney to Palmerston. 8 Sep. 1834. Ibid.

(٣) Ponsonby to Palmerston. 17 Nov. 1834. F.O. 78-240.

(٤) , , , 16. Dec. 1834. F.O. 78-240.

الإنجليز ليكسبوهم إلى جانبهم ضد مصر . ولم ينتظر الباب العالى أخذ رأى باشا بغداد فى الموضوع وأصدروا الفرمان فى ١٨٣٤ ، وقدسمح الفرمان بأن يستخدم الإنجليز باخرتين بقصد تسهيل التجارة بين الشرق والغرب(١) .

ولم تكد تقترب الاستعدادات من نهايتها حتى برزت مشكلة جديدة فى وجه البعثة . فقد كان اللورد اللنبره Ellenborough يعتقد أن البعثة ستذهب عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى الخليج العربى إلى البصرة . ولما كان جسنى Chesney مقتنعاً بعدم قدرة باخرتى البعثة على الصعود فى وجه تيار الفرات الشديد فى أماكن عديدة من مجراه أصر على أن تبدأ الباخرتان عملهما نازلتين فى الفرات لا صاعدتين فيه (٢) . وعلاوة على الصعوبات الفنية التى ذكرها جسنى قال إن الصعود من البصرة يوحى للمواطنين بأن هناك غزواً للعراق (٣) وهذا التمسك من جانب جسنى بأن تكون بداية الرحلة من الشاطئ السورى يدل على بعد نظره السياسى . وذلك لأن سيادة الإنجليز على إمارات الخليج العربى وسمعة الإنجليز الاستعمارية ورغبتهم فى الاستيلاء على بقاع جديدة كل هذا يجعل الناس سريعاً مايعتقدون أن الإنجليز — وقد أقبلوا ببواخرهم المسلحة من قواعدهم فى الخليج — ما جاءوا إلا ليستكملوا مد نطاق سيادتهم على الساحل حتى قمة الخليج . أما مجىء البعثة من نواحى الشام بعد أن تمر عبر أراضى السلطان وباشا مصر فلا يثير مثل تلك الشكوك . وأصر جسنى على فكرته ونجح فى الحصول على الموافقة عليها . وفى الوقت نفسه قرر مجلس إدارة شركة الهند الشرقية India Board (٤) أنه فى حالة تعذر نقل مهمات البعثة عبر مرتفعات سوريا وصحاريها إلى الفرات تشحن الباخرتان بحراً إلى بومباى ومنها إلى الخليج

---

(١)
Hoskins : opcit. p.
Campbell to F.O. Nov. 1,1834 F.O. 78-240.
Lettre de Pacha de Bagdad (Ali Riza) a son agent à la Porte Habib Eff. en date du 21 Rajab. 1250 (22 Nov. 1834) F.O. 78-252.

(٢) Hoskins : opcit. pp. 163-164.

(٣) Chesney : Narrative. pp. 155-157.

(٤) Par. Pap. 1834. No. 478. pp. 60-63 & Jour Roy. Geog. Soc, Lond. Vol. IV pp. 374-375.

العربى فشط العرب ولعل اللنبره كان يعتقد أن محمد على باشا لن يسمح للبعثة بالمرور فى المنطقة الواقعة تحت حكمه فى الشام فتضطر فى هذه الحالة إلى أن تدور حول رأس الرجاء الصالح إلى بومباى (١) .

وهكذا بعد تلك العقبات العديدة تقرر إرسال باخرتين إلى الفرات عن طريق — جبل طارق — مالطة إلى الشاطئ السورى مفككتين (٢) على ظهر السفينة الشراعية George Canning وتقرر أن تصل الباخرتان إلى الفرات فى وقت ذوبان الثلوج ليكون ارتفاع المياه مناسباً .

وأخيراً صدرت التعليمات النهائية بإبحار البعثة فى (أبريل ١٨٣٥) وحدد ولنجتن — رئيس الوزراء — مهمة البعثة فى رسالة بعث بها إلى جسنى على النحو التالى :

١ — أن يقوم جسنى بدراسة الفرات لتحديد مدى صلاحيته للملاحة البخارية لفتح طريق سريع إلى الهند ولتنمية التبادل التجارى .

٢ — مدى سرعة نقل البريد بواسطة البواخر بطريق الفرات بين الهند وبريطانيا .

٣ — التعاون مع السلطات العثمانية فى سبيل إنجاح البعثة .

٤ — تجنب الاشتراك فيما بين العشائر من منازعات وعدم استخدام العنف إلا إذا استلزم الأمر المحافظة على أرواح رجال البعثة .

---

(١) Chesney : Narrative. pp. 157-158.
وماكاد جسنى يخرج من هذه الأزمة حتى وقع فى أخرى عند ما تلقى أمراً بوقف تنفيذ المشروع بحجة أن الباب العالى غير موافق على التصريح للبعثة ثم اتضح له بعد ذلك أن لا أساس للخبر من الصحة . ويتهم جسنى اللورد اللنبره باختراع هذه القصة للقضاء على البعثة ..

(٢) تولت إحدى الشركات بناء الباخرتين اللتين عرفتا باسم دجلة والفرات فكانتا السادسة والسابعة فى ترتيب البواخر التى صنعت من هذا الطراز ، بل كانتا أولى البواخر المسلحة المسطحة التى يكفل بناؤها سهولة الإبحار فى مياه مثل نهر الفرات ومقاومة هجمات العشائر العربية وقد صممت آلات الباخرتين بطريقة تلائم تشغيلها بالفحم أو بالخشب كوقود وكان طاقم الباخرة دجلة مؤلفاً من ٣٢ رجلا بين ضابط وبحار وفنى ، أما طاقم الباخرة الفرات فكان مؤلفاً من ٣٣ ضابطاً وبحاراً وفنياً ومعهم دكتور هلفر وزوجته وكانا فى طريقهما إلى الشرق وكانت الباخرة الفرات أطول من زميلتها وأكبر حجماً كما أن ماكينات الباخرة كانت أقوى من ماكينات الباخرة دجلة .

غادرت السفينة George Canning لفربول فى فبراير سنة ١٨٣٥ فوصلت مالطة حيث انضم إلى رجال البعثة رسام C. Rassam الموصلى المسيحى الذى صار فيما بعد نائباً للقنصل البريطانى فى الموصل ، وكذلك اثنا عشر ملطياً ليسهلوا عملية الاتصال بالعرب. وتابعت السفينة سيرها حتى بلغت فى ٣ أبريل سنة ١٨٣٥ السويدية . وكانت بعثة الفرات قد فضلت السويدية على ميناء الإسكندرونة حيث إن الأولى أحسن مناخاً وأسهل فى مواصلاتها مع أنطاكية . وهناك فى السويدية وجدت البعثة فى استقبالها ه . لينش H. Bloss Lynch الذى كان يقوم خلال شتاء ١٨٣٤ — ١٨٣٥ بمجهودات كبيرة بين العرب لتهيئة الجو أمام البعثة ولإعداد وسائل نقل المهمات من الشاطئ السورى إلى مرفأ فورت وليام Fort William على الفرات وقد أعد هذا المرفأ لاستقبال قطع البواخر المفككة لتركيبها هناك .

وفى أعقاب وصول البعثة إلى السويدية (٤ من أبريل سنة ١٨٣٥) أسرع جسنى فى العمل على إنزال مهماتها للصعود فى نهر العاصى وهنا اعترضته مشكلة خطيرة وهى اعتراض السلطات المصرية فى الشام على نزول مهمات البعثة. فمحمد على لم يبلغ رسمياً بوصول البعثة وإنما كتب المستر فارن Farren — قنصل بريطانيا فى دمشق — إلى محمد شريف باشا — حاكم الشام — وإلى إبراهيم باشا — سر عسكر القوات المصرية هناك — عن قدوم سفينة محيطية بآلات البعثة وأن العمل قد بدأ فعلا فى تسهيل إنزال ونقل المهمات من السويدية إلى حلب بأقصى سرعة ممكنة (١) .

فأصدر محمد على أوامره بمنع إنزال مهمات البعثة عند السويدية بحجة أنه لم يخطر من قبل بفرمان السلطان ، ولما كان محمد على يخشى من أن يتلاعب الإنجليز برجاله فى الشام حذرهم من الغفلة ومن أن الإنجليز قد يوهموهم « زوراً » أن حكومة القاهرة « صرحت لهم بالمرور » (٢) وطلب محمد على

---

(١) دفتر ٢١١ عابدين وثيقة رقم ٥٤٧ من محمد على إلى إبراهيم فى ١٤ من مارس ١٨٣٥ — ١٤ من ذى القعدة ١٢٥٠ ه .

(٢) دفتر ٢١١ عابدين وثيقة رقم ٥٦٦ من محمد على إلى شريف فى ٩ من شوال ١٢٥٠ ه — ٨-١-١٨٣٥ .

من شريف باشا « البحث عن الوسائل الممكنة ليحولوا بينهم (أى بين الإنجليز) وبين وسائل النقل » (١). وتجاهلت السلطات المصرية مطالب كامبل Campbell الخاصة بمد طريق بين أنطاكية وبيره جك لتسهيل عمليات نقل مهمات البعثة بين الساحل السورى وفورت وليام Fort William (٢) .

أدهشت هذه التصرفات المسئولين الإنجليز نظراً لأن كامبل كان يؤكد لحكومته أن محمد على باشا سيقدم أكبر المساعدات لبعثة الفرات (٣) . وكانت نقطة الخلاف الوحيدة كما كان يبدو من المحادثات بين كامبل ومحمد على — هى أن الأخير تمسك بصدور فرمان من الباب العالى موجه إليه يطلب منه فيه مساعدة البعثة (٤) . وكان محمد على يريد من وراء ذلك أن يحمل الباب العالى مسئولية ما يترتب على وصول البواخر إلى العراق . أما الباب العالى فامتنع من أن يصدر الفرمان المطلوب على اعتبار أن فرمان السلطان الممنوح للبعثة موجه إلى كل باشوات الدولة بدون استثناء (٥) ولقد أساءت السلطات البريطانية فهم الأسباب التى جعلت دوائر القاهرة والقيادة المصرية فى الشام تقاوم البعثة . واعتقدت أن محمد على ينتقم من بريطانيا التى أرغمته على

---

(١) محفظة ٢٥١ عابدين ٤١ فى محرم ١٢٥٠ ه وانظر الرد على رسالة عونى أفندى . محفظة ٢٥٠ عابدين وثيقة ٣٣٤ ه ٢ رمضان ١٢٥٠ ه — ٢٥-١-١٨٣٥ من شريف إلى سامى كبير معاونى الجانب العالى .

(٢) Precis de Demandes Contenues dans la note officielle presentée par la Col. Campbell le 21 Oct. 1834, et documents annexées. F.O. 78-247.

(٣) Campbell to Ponsonby. Dec. 8, 1834. F.O. 78-247.

قال كامبل : «Anything and everything which the Pacha can do to meet their wishes in the proposed steam navigation on the Euphrates will be most readily and willingly done by him, and that every aid ... in the power of the Pacha will be contributed in furtherence of the success of this understanding».

Campbell to Palmerston. 9 Oct. 1834. F.O. 78-247.

(٤) Ponsonby to Willington. Mch. 24, 1835. F.O. 78-252. & Ponsonby to Palmerston. May 27, 1835. F.O. 78-253. & do-do. June 30, 1835. Ibid. & From F.O. to Campbell No. 2. July 1835. Ibid. & Campbell to Palmerston. Jan 27 1835. F.O. 78-257 & do-do. Feb. 27, 1835. F.O. 78-257.

(٥) من إبراهيم إلى الجانب العالى فى ٢٢ من ذى الحجة ١٢٥٠ ه — ٢١ من أبريل ١٨٣٥ . محفظة ٢٥٠ عابدين وثيقة تركية ٥٠٣ .

الانسحاب من أورفه لتضم للسلطان . والواقع كان محمد على يخشى من أن يتفوق طريق الفرات على طريق البحر الأحمر الأمر الذى يصيب خزانة مصر بخسارة كبيرة . كما كان يخشى على الأراضى الواقعة تحت حكمه فى الشام من استخدام الإنجليز لها كمعبر بين الساحل السورى والعراق .

وقد عبر محمد على عن رأيه فى هذا الموقف بقوله : « إن بعثة الفرات أعظم مصيبة على الأمة الإسلامية وقبلنا الملامة واللعنة إلى يوم القيامة ولذلك لا يمكن أن نوافق .. حتى لو بلغت الروح الحلقوم (١) » .

لم يستمر محمد على فى موقفه هذا الشديد من بعثة جسنى . وإنما بدأ يتراجع أمام الضغط البريطانى المتواصل عليه .. وعمل على أن يتجنب الصدام بالإنجليز بأن يسمح للبعثة بالمرور عبر الشام إلى ساحل الفرات وأن يتخلى عن الأراضى الواقعة على الضفة الشرقية للفرات منعاً للاصطدام بالبعثة ، ملقياً تبعة ذلك على الباب العالى ولكن اختلف إبراهيم مع أبيه فى هذه النقطة وعد ذلك من ضروب التهرب من المسئولية . ورأى إبراهيم فى خطة أبيه هرباً من مواجهة الحقيقة وتمسك بضرورة الإبقاء على روم قلعة وعلى بيره جك — الواقعتين على الضفة الشرقية للفرات — فى قبضة القوات المصرية إذ أن هذين المركزين الاستراتيجيين كانا يضمنان البقاء للقوات المصرية فى تلك المناطق (٢) . هذا إلى أنهما يسيطران على الطريق المؤدى إلى بغداد ، ذلك الطريق الذى ارتفعت قيمته الاستراتيجية والسياسية إلى درجة كبيرة بسبب وصول بعثة الفرات وما لابسها من ظروف .

وأخذ إبراهيم يتصور ما سيئول إليه الحال إذا وصلت سفينتان مسلحتان بالمدافع إلى قلب العراق وعلى حد تعبيره : « إن الإنجليز قد جاءوا ومعهم عساكرهم ومدافعهم ومهماتهم وذخائرهم فإذا بنوا سفنهم وهجموا على بغداد متخذين من العرب ذريعة لهم لهذا الهجوم ... وجلبوا على الأمة

(١) من الجناب العالى إلى إبراهيم فى ١٤ من ذى القعدة ١٢٥٠ ﻫ دفتر ٢١١ عابدين وثيقة رقم ٥٤٧

(٢) من إبراهيم إلى محمد على ٢٢ من ذى الحجة ١٢٥٠ ﻫ–٢١ من أبريل سنة ١٨٣٥ م محفظة ٢٥٠ عابدين وثيقة رقم ٥٠٣ .

الإسلامية داهية دهياء يتهمنا الناس قائلين أنت الذى فعلت هذا وأنت الذى أذنت لهم بالمرور من أرضك وأنت الذى تسببت لهذه المصيبة التى نزلت بنا دون أن يعلم أحد أن الدولة هى التى أذنت لهم فمروا » (١) . فعمل محمد على تحت ضغط إبراهيم على إقناع الباب العالى بخطورة البعثة على الشام وعلى العراق . ولاشك أن الباب العالى شعر بتلك المسئولية وخضع للضغط المصرى وللضغط الروسى وأخذ يعيد النظر فى مسألة بعثة الفرات فى ضوء هذا التحذيرات الجديدة (٢) .

إزاء موقف الحكومة المصرية من البعثة أصبح أمام جسنى طريق من ثلاثة طرق لمتابعة السير فى مهمته :

١ — أن يعود أدراجه إلى مالطة حتى تتخذ حكومته إجراءات حاسمة .

٢ — أن يعود ليدور حول إفريقية إلى البصرة وفق التعليمات التى زوده بها اللورد اللنبره Ellenborough .

٣ — أن يواجه السلطات المصرية فى الشام فى تحد سافر معتمداً على ما لديه من فرمانات سلطانية سارية المفعول فى طول الإمبراطورية وعرضها وعلى قوة مساندة دولته له .

قرر جسنى أن يتبع السبيل الأخير وتجاهل السلطات المصرية واستمر رغم احتجاجها فى إنزال فى المهمات إلى البر (٣) .

بينما استخدم إبراهيم كل ما لديه من نفوذ فى سبيل عرقلة وتجميد البعثة حيث هى وصدرت الأوامر مشددة بمعاقبة كل من يجرؤ على التعاون معها بأى شكل من الأشكال(٤) . ولكن جسنى كان عنيداً وبلغت به الجرأة أن صرح لمتسلم أنطاكية بأنه سينقل المهمات سواء أذنتم أو لم تأذنوا وبدأ فعلا فى تركيب أجزاء إحدى البواخر استعداداً لصعود نهر العاصى(٥) ،

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) Chesney : Narrative. p. 137.

(٣) Ibid. pp174, 178, 388.

(٤) رسالة عونى أفندى : المحفظة ٢٥١ عابدين وثيقة تركية رقم ٤١

(٥) من الحاج خلف متسلم أنطاكية إلى دولة الباشا سر عسكر فى ١٤ محرم ١٢٥١ محفظة ٢٥١ عابدين وثيقة رقم ٣٧ .

فرد إبراهيم على ذلك بأن طلب من أبيه أن يعلن بطلان فرمان السلطان الخاص بمنح الإنجليز حق الملاحة البخارية فى الفرات وأن يجيبهم إجابة قاطعة بعدم الإذن لهم فى تسيير السفينة .

أما محمد على ففضل الأساليب الدبلوماسية وحث السلطان على سحب الفرمان الذى سبق أن أصدره لإنقاذ العراق مما بيته له الإنجليز ، وتآزرت هذه المجهودات مع الضغط الروسى على الباب العالى لتجميد الفرمان وصدرت فعلا تعليمات من الباب العالى لمصر بأن تحجز الآلات الموجودة فى السويدية حتى يصل الرد من «لندن» وطبعاً أسرع محمد على إلى تنفذ هذه الأوامر وامتنعت السلطات المصرية فى الشام عن تقديم مساعدة للبعثة (١) . فكان أن استغلت الصحافة البريطانية وحدة الهدف لدى كل من حكومتى القاهرة وسان بطرسبورج فى مقاومة بعثة الفرات وأثارت الصحافة البريطانية دعاية لا أساس لها على الإطلاق كانت تقول إن وفاقاً روسياً مصرياً قد تم بقصد القضاء على المصالح البريطانية فى الشرق الأوسط (٢) .

وركزت الحكومة والصحافة البريطانية هجوماً على محمد على بالذات ولعل هذا يرجع إلى أن بريطانيا قد حصلت على موافقة السلطان على إرسال البعثة وستضطره على الوفاء بتعهداته إن آجلا أو عاجلا ، أما محمد على فهو القوة المعرقلة للبعثة . ووضعت الدبلوماسية البريطانية والقوة البحرية البريطانية خطتها على أساس تهديد محمد على باشا بتوجيه ضربة مباشرة إليه إن ظل متمسكاً بتجميد البعثة ولذلك أصدرت حكومة لندن أوامرها إلى كامبل القنصل البريطانى فى مصر بأن يطلب فى الحال من محمد على أن يصدر الأوامر الكافية التامة لإبراهيم باشا بتقديم المساعدات للضباط الذين أرسلوا إلى نهر الفرات ..... «وإذا ما اعترض محمد على باشا على

(١) من المعية إلى السر عسكر إبراهيم باشا : فى ٢٣ من ربيع أول ١٢٥١–١٩ من يوليو ١٨٣٥ دفتر ٢١٢ صحيفة ٢٥٤ رقم ١١٧ .

(٢) Rubert Taylor : Memorandum on the actual Position of the Pachalik of Bagdad. Feb. 1836. (India. O.R., F.R., P,P.G., Vol. 53, p. 799.)

إصدار مثل هذه الأوامر فعليك (أى على كامبل) أن تخبر الأميرال رولى .. Rowely بأقصى سرعة حتى يتمكن من تنفيذ التعليمات التى كانت قد أعطيت له لمواجهة مثل هذه الظروف » وكانت هذه التعليمات تقضى بأن يغادر كامبل والقطعة الحربية البريطانية بقيادة رولى Rowely الإسكندرية معلناً للوالى أن الأميرال سيتخذ التدابير الكفيلة بصيانة حقوق بريطانيا . وكانت الخطوة الأولى التى سيتخذها فى هذا الصدد هو منع خروج أو دخول أى وحدة بحرية ترفع العلم المصرى من الإسكندرية حربية كانت هذه الوحدة أو مدنية وأى سفينة تصر على خرق هذا الحصار تؤسر وترسل إلى مالطة . (١)

وقد عرف الإنجليز كيف يختارون ظرفاً ملائماً كل الملائمة لتنفيذ هذا التهديد إذ أن محمد على كان قد أرسل أسطوله إلى كريت . وبذلك وقفت قطع الأسطول البريطانى لتحول بين الأسطول المصرى وميناءه الإسكندرية(٢). وكان من الطبيعى أن يتراجع محمد على أمام هذا التهديد الخطير الذى يعرض مكاسبه خلال السنوات السابقة إلى الضياع . فأمر بأن تترك البعثة تمر عبر الشام إلى بيره جك ، بل أن يسرع فى نقلها(٣) ولعدم الاحتكاك مرة أخرى بالإنجليز فى هذه الناحية طلب من إبراهيم أن يغض الطرف عن نقلهم للأدوات الحربية كالمدافع والبنادق وسائر المهمات (٤) .

وقد ساعد على سرعة انتقال البعثة من الأراضى الواقعة تحت حكم محمد على أن رشيد باشا كان قد أرسل إلى رجال البعثة من ديار بكر دواب النقل فوصلت البعثة بفضل هذه المساعدات إلى بيره جك .

ومع أن محمد على نفض يده فى الظاهر من بعثة الفرات وتركها تعبر

(١) F.G. to Campbell. June 30,1845
انظر الأرشيف الانجليزى F.O فى دار الوثائق التاريخية
F.O. Caisse No. 20. File, No. 85. pp. 21-22

(٢) Ibid

(٣) محفظة ٢٥١ عابدين وثيقة رقم ٢٧٤ من إبراهيم إلى سامى .

(٤) من الجناب العالى إلى السر عسكر فى ٢٧ محرم ١٢٥١ هـ . دفتر ٢١٢ عابدين صحيفة ٧ رقم ٢٧ .

أراضيه إلى فورت وليام Fort William فلم يكف عن مراقبة حركاتها وتتبع أنبائها (١) ، ويرجع هذا إلى خوفه من أن يقع العراق فى يد الإنجليز وتصبح البلاد الواقعة تحت حكمه مهددة بالإنجليز من الجانبين من العراق ومن البحر المتوسط . هذا فضلا عن أن اتخاذ الإنجليز لمنطقة شمال الشام معبراً إلى العراق سيعرض تلك الجهات لخطر داهم وربما فكرت سلطات القاهرة فى أن تجد منفذاً جديداً لمراقبة البعثة ومنافستها إذا أشيع أن المصريين ينوون إنزال قطعة بحرية فى نهر الفرات (٢) .

بعد أن نقلت مهمات بعثة الفرات إلى فورت وليام ركبت الباخرتان «دجلة والفرات» ، وأنزلتا إلى مياه نهر الفرات وبدأتا رحلتهما صوب البصرة فى منتصف مارس ١٨٣٦ (٣) .

سارت الباخرة «الفرات» ومن ورائها «دجلة» بينما أخذ الفنيون يرسمون خريطة تفصيلية للنهر ويرصدون تياره وعمقه وما يصادفونه من عقبات طبيعية ويدونون ما يلاحظونه على ضفة النهر من نبات ونشاط بشرى ومستوى حضارى . وفى بيليس اتخذ جسنى بعض التدابير لإقامة محطة للبواخر ومركز تجارى يمكن استخدامه إذا قدر لطريق الفرات أن يستخدم على نطاق واسع .

وعند ما بلغت البعثة دير الزور (٤) بدأ جسنى تجربة جديدة ذات

(١) من منيب أفندى إلى إبراهيم باشا فى ١١ من شعبان ١٢٥٢ هـ . محفظة ٢٥٢ وثيقة ١١٨.

(٢) Werry to Ponsonby. July 16, 1836. F.O. 78-293.

(٣) Helfer : opcit. Vol. I. pp. 182-186.

Hcskins, Op. cit., p. 167.

(٤) انظر تفاصيل رحلة الباخرتين الفرات ودجلة فى

Chesney : Narrative of the Euphrates Expedition : The Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris.

Helfer : Travels of Dr. & Mme Helfer in Syria Mesopotamia

Ainsworth : A Personal Narrative of the Euphrates Expedition.

١ — قبل أن تصل البعثة إلى دير الزور وصلت إلى جسنى Chesney فى أول أبريل سنة ١٨٣٦ أنباء تؤكد أن النية صحت على إلغاء البعثة وحلها فى ٣١ من يوليو ١٨٣٦ ومعنى هذا أن البعثة لم تتمكن من تحقيق الأهداف الرئيسية وأنها بعد تلك المجهودات المضنية وئدت فى مهدها . ولكن جسنى كان مصراً على متابعة البعثة سواء أكان المعترض هو محمد على باشا=

أهمية خاصة . فنظراً لقلة وجود الفحم اللازم للبواخر فى العراق كان على جسنى Chesney أن يجرب استخدام البيتومين فى إدارة ماكينات الباخرة . وكما هو معروف كان البيتومين متوافراً فى العراق وعلى طول نهر دجلة ومناطق إنتاجه منتشرة من أقصى شمال العراق إلى أقصى جنوبه . وقد قام جسنى بالتجربة ونجحت إلى حد كبير . وبذلك يعتبر جسنى Chesney أول من استخدم هذا النوع من الوقود فى إدارة آلات باخرة فى العراق .

ولم تكد باخرتا البعثة تبتعدان عن دير الزور عدة أميال حتى هبت عاصفة مفاجئة هوجاء أغرقت فى الحال الباخرة دجلة ومعها الكثير من الخرائط والمعدات والآلات العلمية الهامة(١) فكان غرقها كارثة شديدة لها صداها فيما بعد . إذ تصور المسئولون الإنجليز أن العواصف عقبة جديدة خطيرة تواجه الملاحة البخارية ولذلك عنى جسنى Chesney بتبرير الكارثة فكان يؤكد فى غير مكان أنها حادثة عارضة لا تعنى أبداً أن الفرات غير صالح للملاحة(٢) .

تابعت الباخرة الفرات نزولها فى النهر وبدأ جسنى — بدخوله أراضى العشائر العربية العراقية — اتصالاته بالعشيرتين الكبيرتين المسيطرتين على الجزيرة العراقية وعلى بادية الشام ، شمر الجربا وعنزة . وكانتا فى صراع محتدم عجز باشا بغداد عن أن يضع حداً له ، بل عجز عن أن يفرض سيطرته بقوة فى معظم الأوقات على أى من هاتين الكتلتين العشائريتين الضخمتين .

ولم يكن من المستطاع أن ينفذ مشروع مد خط ملاحة بخارى فى الفرات إلا إذا وقفت شمر الجربا وعنزة موقفاً مسالماً من بعثة الفرات وإلا إذا

=أم السلطان أم روسيا أم سلطات بريطانيا نفسها . ولذلك كتم الأمر عن رجاله وبعث بشكوى قوية للمسئولين فى لندن مطالباً بضرورة تمكين البعثة من إتمام مهمتها وأقنعت الرسالة سلطات لندن ووافقت هذه السلطات على مد أجل بعثة الفرات إلى أول يناير سنة ١٨٣٧ م .

(١) Chesney : Narrative. pp. 248, 271.

Ibid pp. 260, 281.

(٢) Hoskins : British Routes. p. 169.

وضع حداً لذلك الصراع المتطاول بين العشيرتين . واستطاع جسني بأساليبه السياسية التي تعضدها مدفعية الباخرة الفرات أن يعقد اتفاقية مع شيخ عشائر عنزة باسم ملك بريطانيا وبعث بها إلى بالمرستون فرحب بعقدها حيث إنها كانت تمكن الإنجليز من التدخل في أمور الصحراء الشامية وإنها تجعل من عنزة عضداً لهم ضد أي هجوم على العراق(١) .

ومع أن بعثة الفرات لم تصادف مقاومة تذكر من عنزة وشمر الجربا — وربما كان هذا بسبب الاتصالات البريطانية المبكرة بهما(٢) — فإن البعثة لقيت مقاومة عنيفة من جانب العشائر الصغيرة(٣) . وترجع هذه المقاومة إلى عوامل دينية وسياسية . كما ساعدت أعمال جسني نفسه على أن تهب بعض العشائر إلى مقاومة البعثة . فمع أن الأوامر التي صدرت إلى جسني كانت تقضي بتجنب الاصطدام بالعشائر إلا في الظروف القاهرة وبعدم الاشتراك فيما بين العشائر من منازعات ، فقد أطلق جسني مدافع باخرته على عشيرة عربية لأنها هاجمت شيخاً عربياً كان في ضيافة جسني(٤) .

وعند ما وصلت الباخرة إلى الحلة كانت أنباؤها قد ملأت الأسماع . وكان أهل الحلة يدركون خطورة هذه البعثة على مستقبل البلاد والإسلام فالحلة مدينة كبيرة مرت بتجارب كثيرة . فدبر أهلها مقاومة شعبية على قدر ما كانت تسمح به إمكانات التسلح الشعبي حينذاك . وكان على رأس ما دبروه إغلاق النهر في وجه الباخرة فامتنعوا عن فتح الكوبري معتقدين أنه حاجز يكفي لإرغامها على أن تعود من حيث أتت ، ولكن الباخرة استمرت في طريقها وحطمت الكوبري واجتازته في هدوء واقتربت الباخرة من الشاطئ وهددت المدينة بضربها بالمدفعية إذا قاومت البعثة .

---

(١) جاء في هذه الاتفاقية :

Henceforth there shall be perpetual peace, and good feeling between all the subjects of H.Maj... and the Tribe of Aniza.,
Palmerston to Ponsonby: July 28. 1836 No. 63. F.O. 195-130.
Translation of the Agreement signed in Mohrm. 1252-Ap. 1836. Ibid.

(٢) Chesney : Narrative p. 201-204.

(٣) Ibid. p. 238-239.

(٤) Ibid. pp. 231-233.
Anisworth : Personal. Vol. I. pp. 266-267.

على أن مقاومة عشيرة بني حكيم لبعثة الفرات يمكن أن نعتبرها المقاومة الأولى الجدية التي صادفت البعثة وكانت هذه العشيرة تنزل بمنطقة الخضرة(١) . وقبل ان تصل الباخرة الفرات إلى هذه المنطقة كانت هذه العشيرة قد جمعت رجالها لوقف تقدم الباخرة . فتسلح رجالها ببنادقهم القديمة وبسيوفهم اللامعة واصطفوا قرب النهر وأقاموا حاجزاً خشبياً من جذوع الأشجار والنخيل لمنع الباخرة من متابعة السير وعندما اقتربت الباخرة منهم أخذوا يطلقون رصاص بنادقهم الضعيفة عليها فأطلقت الباخرة قنابلها عليهم فسببت بينهم خسائر فادحة في الأرواح (٢) . وكان لعشيرة بني حكيم قلعة قرب مجرى النهر حصّنوها استعداداً لضرب الباخرة عند مرورها فدارت معركة غير متكافئة بين رجال العشيرة ومدفعية الباخرة .

ويتهم أنزورث Ainsworth القنصل الإفرنسي فيكتور فونتانييه Fontanier بأنه هو الذي أوحى إلى العرب بخطة مقاومة البعثة(٣) . أما جسني فيعلل هذه المقاومة من جانب عشيرة بني حكيم بأن البعثة قطعت خطأ شجرة مقدسة عندهم ثم هو يقرر من بعد ذلك أنه كلما تقدمت البعثة جنوباً من سوق الشيوخ زادت مقاومة العشائر العربية ، لإعادتها من حيث أتت ومنعها من متابعة سيرها في الفرات حتى لا تصعد نهر دجلة(٤) .. بل إن شيخ المنتفق أصدر أوامره فعلا بعدم التعاون مع البعثة وعدم تموينها بالفحم أو المؤن اللازمة(٥) .

وإننا لا نستبعد أن يكون فونتانييه قد نبه شيخ المنتفق إلى الخطورة الكامنة وراء وجود باخرة بريطانية مسلحة في أنهار العراق . والمعروف أن هذه العشائر أكثر دراية من غيرها من عشائر العراق بأحداث العالم وبنوايا الإنجليز الاستعمارية وبمشكلات الخليج العربي السياسية منها

---

(١) Chesney : Narrative pp. 289-290.

(٢) Fontanier, op.cit. T. I. p. 280-297 Ainsworth; A Personal. II. p. 75-76 Chesney: Narrative, pp. 289-290, Helfer: Op. cit. Vol. I. pp. 285-286.

(٣) Ainsworth : A Personal. Vol. II. pp. 94-96.

(٤) Ibid. pp. 75-76.

(٥) Chesney : Narrative. pp. 309-315.

والاقتصادية وبدور الإنجليز وأسطولهم فى الخليج ومن ثم كانت مقاومتها لبعثة الفرات تقوم على أساس قوى لا لمجرد إثارة فونتانييه لمشاعر شيخها. هذا إلى أن العاطفة الدينية لعبت دوراً كبيراً فى ذلك الحماس الذى اجتاح منطقة العراق الجنوبى لمقاومة البعثة والقضاء عليها.

فقد صادف فى ذلك الوقت وصول مبشر بريطانى متهوس يدعى صمويل Samuel على الباخرة «الهايلاندساى» التى تحمل البريد الذى سيسلم للباخرة الفرات، وقام ذلك المبشر بدعوة العرب إلى ترك دينهم والدخول فى المسيحية(١)، فكان لتتابع هذه الأحداث أثره الكبير فى اشتداد مخاوف الناس من نيات الإنجليز نحو العراق. وأصبح العرب ينظرون إلى هذه البعثة على أنها حملة عسكرية سياسية اقتصادية وصدق فى ذلك العربى الذى عبر عن حقيقة مشاعره نحو الإنجليز حين قال: «إن الإنجليز كالنمل لا تكاد تصل نملة حتى يتوافد جيش من رفاقها فى أعقابها»(٢).

وقد بلغ الأمر بشيخ المنتفق أن هدد بأنه سيحرق الباخرة إذا مرت بديرته ولم يثن الشيخ عن متابعة مقاومة البعثة سوى خشيته مما سيترتب على ذلك من صدام مع حكومة بغداد.(٣)

ومع أن مقاومة العشائر العربية للبعثة كانت واضحة فيما كتبه جسنى Chesney نفسه فإنه كان يردد أن العشائر العربية فى العراق أعلنت ميلها لبريطانيا وأن عدداً منها طلب الحماية البريطانية(٤) وإن كنا

(١) انظر ص ٣٠٨ من هذا الكتاب و ١٦١ Hoskins : op. cit. p.

(٢) Ibid. p. 193

(٣) Fontanier : op. cit. Vol. I. pp. 337-340 & Ainsworth : A personal I. pp. 198-199.
Chesney : Expedition. Vol. II. pp. 600-603.
Chesney : Narrative. pp. 313-318.
Escourt to Werry : May 27, 1836. F.O. 78-293.
Fitzjames to Chesney. July 15, 1836. (Ind. Off. Recs., Dept. Parl. Branch. Account & Papers. 5, Colonies. Session 31 Jan-17 July Vol. XLIII (1837). Papers Relating to Euphrates Expedition.

(٤) Escourt to Werry : May 27, 1836. F.O. 78-293.
Chesney : Narrative. pp. 313, 317-318.
Chesney : Expedition. Vol. II. pp. 600-603.

لا نستبعد وقوع شيء من هذا القبيل فالمعتقد أنها حالات فردية لا تنم أبداً عن شعور عام وأن كلمة «حماية» التى يستخدمها جسنى فى هذا المقام لم يكن لدى العرب إدراك لمعناها السياسى الخطير الشائع بين الدوائر السياسية الأوربية حينذاك. ولو كان هناك تأييد حكومى لمقاومة البعثة لكانت مقاومة العشائر على صورة أعنف وأكثر إيجابية ولطلعت علينا بصورة لا تقل عن تلك التى شاهدناها لدى عشائر شمال الشام عندما أوعزت إليها السلطات المصرية بالامتناع عن مساعدة البعثة.

ومن العوامل الرئيسية التى أضعفت مقاومة العشائر للبعثة عدم وجود قيادة عليا تنسق أساليب المقاومة(١). والحق أن بعثة جسنى كانت تثير مخاوف الدوائر المحلية والسياسية الدولية على السواء من حيث إنها تجاوزت الخطوط التى رسمها فرمان ١٨٣٤ الخاص بها. فقد نص هذا الفرمان على أن تبحر الباخرتان الإنجليزيتان فى نهر الفرات فقط. ومع ذلك أبحرت الباخرة الفرات فى أنهار دجلة والبهماشير وكارون. والواقع كانت المكاتبات المتبادلة بشأن البعثة تتحدث فقط عن استخدام نهر الفرات. ثم صدرت الأوامر فجأة إلى جسنى بأن يصعد فى نهر دجلة(٢). وكانت هذه الأوامر فى نظر جسنى غير متوقعة(٣) وفعلا صعدت الباخرة «الفرات» فى نهر دجلة حتى بغداد وتجاوزتها ثم هبطت النهر إلى البصرة على أمل استلام البريد الهندى. وفعلا وصلت القرنة مرة ثانية وتسلمته وشرعت فى صعود نهر الفرات ولكن عجزت الباخرة عن متابعة الملاحة

(١) Helfer : op. cit. Vol. I. pp. 208-211, 237, 240.

(٢) Low: opcit. II. p. 41. & Chesney: Narrative. p. 302-9 & Fontanier: opcit. I. pp. 347-349. Ind. Off. Rec. Dept., Parl. Branch. Accnt. & Pprs. 5, Colns., Sess. 31 Jan-17 July 1837. Vol. XLIII (1837). Pprs. Rltng. to Euph. Exped. From Estcourt to Hobhouse. 20 Dec. 1836. (Papers Relating to Euphates Expedition. Ind. Off. Rec. Dept. Parlm. Brch. Account & Papers. 5 Colonies, Sessions 31 Jan-17 July 1837 Vol. XLIII p. 54.

(٣) General Statement of the labours and proceedings of the condition to the Euphrates under the commander of colonel Chesney 13 Sep. 1836. (Pepers Relating to the Euphrates Expedition - Ind. O.R., Dept., Parl. Branch Accoant & Papers 5, Colonies, Sessions 31 jan-17 July 1837. Vol. XLIII p. 76-8).

فى الفرات ففضل جسنى أن يرسل البريد مع بعض رجاله بالطريق البرى إلى الساحل السورى حتى يمكن توصيله إلى بريطانيا . وفعلا وصل البريد إلى بريطانيا ولكن تأخر ثلاثة أشهر عن ميعاده الأمر الذى أساء كثيراً إلى البعثة(١) .

كانت التعليمات تقضى بحل البعثة فى آخر يناير ١٨٣٧ ولكن جسنى قرر أن يبذل كل مافى وسعه للإبقاء على الباخرة الفرات فى مياه العراق ولمدأجل البعثة ومهمتها . وسافر لهذا الغرض إلى بومباى دون أن يلقى نجاحاً فى مهمته فرحل إلى بريطانيا ؛ وبينما كان رجال البعثة يستعدون للإبحار بالباخرة الفرات إلى بومباى وفقاً للتعليمات الصادرة إليهم من حكومة لندن جاءتهم الأوامر بالعدول عن ذلك والبقاء فى العراق حيث إن مجلس المديرين (Court of Directors) اشترى الباخرة الفرات من الحكومة البريطانية وقرر أن يبقى عليها فى مياه العراق(٢) .

ويجدر هنا أن نناقش النتائج التى توصلت إليها البعثة وكما هو المعتاد من وقوع خلاف كبير عند تقييم مثل هذه البعثات السياسية الاقتصادية العسكرية . فهناك نتائج عامة واضحة وعلى رأسها إدخال الملاحة البخارية فى العراق ليكون ذلك مقدمة لمشروعات كبيرة فى هذا الميدان ، وكشف للعثمانيين أيضاً قيمة البواخر فى مياه العراق فى تقوية قبضتهم على البلاد كما نبهت الأهالى إلى قيمة الملاحة البخارية فى النقل البحرى(٣) . ومع أن الحكومة والأهالى أدركوا خطورة وجود بواخر أجنبية فى قلب البلاد إلا أنهم لم يضعوا خطة عملية مضادة للنشاط الملاحى البريطانى إلا بعد فوات الوقت المناسب .

وعند تقييم هذه البعثة يجب أن نضع فى اعتبارنا أنها كانت التجربة الأولى وأنها أرسلت لتنزل فى الشرق الأوسط فى ظروف متناهية فى الدقة

---

(١) Fontanier : opcit. I. pp. 341-342. Asiatic Jour. XXII. N.S. Pt. II. pp. 116-261 Low : opcit. Vol. p. 41 Oct. 1836.

(٢) Low : opcit. Vol. II. p. 41 (Oct. 1836).

(٣) انظر دور الأهالى فى النقل البحرى فى : عباس العزاوى : تاريخ : حـ٧ : ص ٢٢٨

وفى وقت كانت فيه السلطات البريطانية فى كل من بريطانيا والهند تتردد بين تأييدها أو إلغائها من وقت لآخر(١) . ومن ثم كان وصول البعثة إلى الخليج العربى فى حد ذاته عملا له قيمته التاريخية الكبرى .

ويؤكد جسنى — نتيجة لبعثته ودراسته — أن نهر الفرات صالح للملاحة البخارية وربط الشرق بالغرب بخط بواخر عن طريق الفرات . ولكن العقبات التى واجهت البعثة أثبتت أن نهر الفرات غير صالح للملاحة البخارية إلا تحت حكومة مستنيرة تستطيع أن تقوم بمشروعات متعددة على طول النهر لإزالة العقبات الطبيعية التى تحول دون استخدام البواخر(٢) . ومن ناحية أخرى ، قدمت البعثة دراسات اجتماعية لسكان العراق من مدروبر(٣) ودراسات اقتصادية فتحت أمام دوائر الهند مجالات تجارية مربحة لا فى العراق فقط ، بل فى فارس كذلك عن طريق نهر كارون وفروعه(٤) . وظهرت بوضوح أهمية هذه الدراسات خلال حملتى بريطانيا ضد الدولة الفارسية فى ١٨٣٧—١٨٣٨و١٨٥٧—١٨٥٨ .

ومن أهم النتائج التى توصلت إليها البعثة ما قدمته من معلومات جغرافية عن الطريق عبر نهر العاصى إلى الفرات إلى الخليج العربى(٥) ، وعن الأهمية التجارية لقناة الشقلاوة التى يمكن أن تربط بين الفرات ودجلة ؛ بل إن جسنى وضع مشروعاً لتحقيق هذه الفكرة(٦) .

---

(١) قرر Supreme Court at Calcutta أن المشروع غير عملى بينما صدرت الأوامر من بعد ذلك بالإبقاء على الباخرة الفرات فى العراق . انظر :
Chesney : Narrative pp. 328-331. Asiatic journal : XXII. Pt. II. p. 276.
Hoskins : opcit. p. 175.

(٢) واضح هذا من التقارير التى أوعز جسنى إلى ضباطه بكتابتها عن صلاحية نهر الفرات للملاحة البخارية وقد أورد نص هذه التقارير فى نهاية كتابه .

(٣) انظر ماكتبه جسنى وانزورت Ainsworth وما كتبته مدام هلفر Helfer وكذلك Fontainer

(٤) Chesney : Narrative. pp. 302-304.

(٥) انظر رحلات Felix-Jones & Lynch & Campbell

(٦) Geog. Journ. XLI (1913). pp. 246-248.
Chesney : Expedition, Vol. I. p. 33.

وأعقبت البعثة دراسات ميدانية لأنهار الفرات الحالية والمندثرة(١) . وعلى أثر الرحلات التى قام بها ضباط الأسطول الهندى وضعت مواصفات لأنسب باخرة تمخر مياه العراق طول العام وتستخدم الخشب والبيتومين كوقود (١٨٤٠)(٢) .

كما وضعت هذه البعثة بين أيدينا تراثاً من الرحلات والدراسات والمؤلفات يعتبر من أهم ما كتب عن العراق من جميع جوانبه وفى طليعة هذه المؤلفات ما كتبه جسنى وزميله انزورث Ainsworth وفونتانييه Fontanier والسائحان هلفر وزوجته والسياسى فريزر Fraser(٣) . كذلك وضعت بعثة الفرات أساس احتكار بريطانيا للملاحة فى أنهار العراق(٤) .

والنقد الحقيقى الذى وجه إلى هذه البعثة هو أنها عطلت لفترة ما استخدام الطريق بين الشرق والغرب عبر مصر ، على أن هذا التعطيل كان لفترة غير طويلة إذ عنيت الحكومة البريطانية باستخدام طريق مصر منذ نزول البعثة فى الشام سنة ١٨٣٥–١٨٣٦م ، وفعلا اتخذت حكومة لندن خطوات جدية نحو استخدام طريق مصر متجاهلة أى ميزات لطريق الفرات . وزاد من استخدام طريق مصر نجاح مشروع خط السكة الحديدية فيها والتسهيلات التى كانت تبديها حكومة القاهرة للإنجليز فى عهد عباس الأول .

تفوق الملاحة البريطانية فى نهرى دجلة والفرات :

ربحت السياسة البريطانية من وراء البعثة أرباحاً سياسية واقتصادية بعيدة المدى . وعلى رأس هذه الأرباح فرمان ١٨٣٤ ، إذ استغلت الدبلوماسية البريطانية الفرمان أكبر استغلال فاستبقوا الباخرة الفرات فى مياه العراق تحقيقاً

(١) Layard : Discoveries. pp. 23· وانظر رحلات Jones & Rawlinson. ومؤلفاتهما العديدة فى هذه الدراسات .

(٢) Chesney : Expedition. Vol. I. pp. 696-700. ،لونكريك : ص ٢٨٠

(٣) انظر مؤلفاتهم الآتية :

Helfer, Travels: Fraser : Mesopotomia, Fontanier : Voyage dans l'Inde, Ainsworth: A personal Narrative.

(٤) أصبح هذا الاحتكار مشكلة سياسية واقتصادية عويصة استمرت مدة طويلة .

لأغراض سياسية فى أنهار دجلة والفرات وبهماشير وكارون ولنفس هذه الأغراض السياسية أرسلت ثلاث بواخر إلى شط العرب فى ١٨٣٩ بقصد مقاومة التوسع المصرى(١). فهل كان لدى الإنجليز حجة قانونية تخول لهم حق الإبحار فى نهر دجلة وغيره من الأنهار ؟ ثم كيف حصل الإنجليز على حق الإبحار فى نهر « دجلة » مع أن الفرمان لا يتضمن أبداً إلا نهر الفرات . جاء فى هذا الفرمان بعد أن خاطب جميع ولاة وموظفى الدولة ، الذين ستمر بهم بعثة الفرات أن سفير بريطانيا اللورد بونسونبى قدم مذكرة رسمية للباب العالى ظهر منها أن الحكومة البريطانية تطلب السماح بأن يبحر قاربان بخاريان على التوالى فى نهر الفرات الذى يجرى على بعد قليل من بغداد لتسهيل التجارة ، وأن هذه الملاحة يمكن أن تستمر ما دامت نتائجها ملائمة »(٢) .

وبعد دراسة مقارنة لنصوص فرمان بعثة الفرات الصادر فى ٢٩ من ديسمبر ١٨٣٤ يتضح أنه لا توجد أية إشارة إلى منح الإنجليز حق تسيير بواخر لهم فى نهر دجلة . وكل النصوص تبين أن موافقة السلطان كانت تنصب على استخدام نهر الفرات دون أى غموض . وإذا كان هناك التباس فى الجملة التالية « نهر الفرات الواقع فى جانب بغداد » الواردة فى النص العربى والتى يقابلها فى النص الإنجليزى At a small distance from the city of Bagdad فلا جدال أن هذا لا يعنى أبداً حصولهم على حق الإبحار فى دجلة .

إن الحكومة البريطانية لم تبحث فى نهاية الثلاثينات عن أى سند قانونى يعطيها حق الملاحة فى دجلة إلا بعد انسحاب محمد على باشا من الشام .

(١) انظر الفصل الخامس

(٢) انظر النص العربى فى جريدة الرقيب البغدادية الصادرة فى ٥ من محرم ١٣٢٨ العدد رقم ٠٨١ انظر العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين : حـ٧ : ٥٧ .

انظر النص الذى نقله بونسونبى ليرسل أجزاء منه إلى الفيكونت بالمرستون فى :

F.O. 78-240. From Lord Ponsonby to Vis. Palmerston. No. 211.

وانظر

Aitchison: A Collection of Treatics, X, p. 15.

والنص الإنجليزى فى

Hurewitz: Diplomacy, Vol. I. p. 109-110.

إذ قبل ذلك كانت الظروف مهيأة الإبحار فى نهرى دجلة والفرات دون اعتراض يذكر من جانب ساطات الباب العالى أو حكومة على رضا فى بغداد . فقد كان على رضا فى تلك الفترة — كما بينا — فى حاجة ماسة إلى معونة بريطانية — مثله فى هذا مثل الباب العالى — ليقف على قدميه أمام الهجوم المصرى المنتظر حينذاك . وكان على رضا من الموافقين على مشروع الملاحة البخارية فى أنهار العراق فتجاوز على باشا رضا — وربما كان هذا بعلم الباب العالى — عن إبحار الباخرة الفرات فى نهر دجلة . ولربما كان على رضا يجهل النتائج السياسية الخطيرة المترتبة على هذا التجاوز فقد كانت هذه سابقة خطيرة تمسك بها الإنجليز وأدت إلى نتائج لم تكن الحكومة العثمانية تتوقعها أبداً وأدركت الدول الأوربية، وخاصة فرنسا ما وراء ذلك الفرمان من حقوق ستستخدمها بريطانيا إلى أقصى درجة ممكنة .

ولذلك رفضت فرنسا التسليم بما حصل عليه الإنجليز من امتيازات فى أنهار العراق . فضغط جيزو على حكومة لندن مطالباً بحرية الملاحة لجميع الدول فى تلك الأنهار وعبر مصر(١) ولكن بالمرستون رد على جيزو فى ٢١ من فبراير سنة ١٨٤١ بقوله : «...... إن من أهم ما وجه إلى السياسة البريطانية منذ ١٥ من يوليو ١٨٤٠ من انتقادات أنها أرادت اغتنام فرصة المسألة المصرية لحصر طرق النقل فى يدها» ولم يغلق بالمرستون باب السعى أمام الدول الأوربية للحصول على حقوق الملاحة على طول طرق المواصلات العالمية،ولكنه فى الوقت نفسه أكد أن بريطانيا ستعمل دائماً على ضمان مصالحها فى كل اتفاقية تتعلق بالممرات العالمية المؤدية إلى الهند(٢) . وكانت هناك مشروعات فرنسية موجودة فعلا لربط نهر العاصى بالفرات ، ولكن هذه المشروعات الفرنسية وهذه المعارضات السياسية

---

(١) فى مذكرة شفهية طالب جيزو — السفير الفرنسى — بالمرستون بحرية طريق السويس — البحر المتوسط — البحر الأحمر وطريق البحر المتوسط — سورية — الفرات — البصرة (١٣ من يناير ١٨٤١) .
جان بيشون : بواعث الحرب : ٦٠-٦١

(٢) المرجع السابق : ٦١-٦٢ .

الدبلوماسية لم تجد أمام صلابة موقف بريطانيا وقوة أسطولها . وبذلك تكون بريطانيا قد خرجت من أزمة التوسع المصرى وهى تضمن غلق المضايق فى وجه روسيا كما قضت على سيطرة دولة عربية فتية على خطى المواصلات العالميين عبر الشرق الأوسط إلى الهند كما ركزت مشروعات الملاحة البخارية فى يد الإنجليز ذوى الخبرة باقتصاديات العراق ، دون منافسة أخرى فلا غرو أن كانت أول شركة للملاحة البخارية هناك شركة بريطانية وظهرت هذه الشركة تحت إدارة أحد ضباط بعثة الفرات وهو H.Bloss Lynch(١) . ويرجع تحمس ه . ب . لينش إلى إنشاء خط ملاحة تجارية إلى أنه خلال عمله فى بعثة الفرات وبعدها اكتشف الإمكانات التجارية التى يمكن الحصول عليها من ورائه فضلا عن الامتيازات السياسية التى ستكسبها دولته(٢) . ومن ناحية أخرى كانت الحكومة البريطانية قد قررت سحب البواخر الثلاث التى أرسلتها إلى العراق سنة ١٨٣٩ بقصد مقاومة التوسع المصرى لانتهاء الغرض الذى أرسلت من أجله . ولكن الحكومة البريطانية كانت من ناحية أخرى تريد الإبقاء على احتكارها للملاحة البخارية فى مياه العراق بصورة أو بأخرى حتى بعد أن فضلت طريق مصر على طريق العراق . ويرجع ذلك إلى الأسباب الآتية :

١ — أن بريطانيا لقيت ما لقيت من متاعب فى سبيل الحصول على فرمان بحق الملاحة البخارية فى العراق وليس من السهل عليها أن تستصدر فرماناً آخر فى المستقبل .

٢ — أن خروج البواخر البريطانية من العراق يحدث فراغاً قد تسرع إحدى الدول المنافسة لبريطانيا لتملأه فتكون النتيجة أن تغلق أنهار العراق فى وجه بريطانيا .

٣ — أن وجود قطع من الأسطول البريطانى فى أنهار العراق يمثل قوة يجب أن تحترمها كل من فارس والدولة العثمانية ويضمن السلام

---

(١) Pichon: Les Origines Orientales de la Guerre Mondiale. P. 82-89.

(٢) Hoskins : op. cit. p. 423.

لبريطانيا فى هذه المنطقة ، كما يفرض على كل من فارس والدولة العثمانية اتباع سياسة تتلاءم وأهداف السياسة البريطانية هناك .

٤ — أن فرنسا كانت تسعى نحو الحصول على موضع قدم فى مياه الخليج أو على شواطئه فى العراق ، كما كانت الحكومة الفارسية تسعى إلى أن تنادد القوة البريطانية فى الخليج بقوة أوربية لذلك رأى راولنسون Rawlinson(١) أن من واجب الحكومة البريطانية الإبقاء على أسطول بريطانى فى الخليج وفى أنهار العراق تكون له القوة لسد جميع المنافذ والثغرات فى وجه الدول المنافسة(٢) . وكان من الحجج التى رددها دعاة إنشاء خط ملاحة بخارية فى دجلة أن بريطانيا لو أنشأت الخط فإن حجم التجارة البريطانية سيكبر عن ذى قبل . وتصبح لبريطانيا فى العراق من المصالح السياسية والاقتصادية ومن النفوذ ما يمنحها الإمكانات التى تجعلها قادرة على ردع النفوذ الروسى الزاحف الى الشرق الأوسط وصوب الهند . وأن استخدام هذا الطريق الجديد سيكون حلقة تربط بين قطع الأسطول البريطانى فى الهند ومياه الخليج العربى بالأسطول البريطانى فى البحر المتوسط ؛ كما تربط بين الدوائر الدبلوماسية البريطانية فى الهند والبحر المتوسط (٣) .

ونتيجة لهذه الاقتراحات اتخذت التدابير نحو استخدام بواخر تجارية فى دجلة . فى الوقت نفسه أفاقت الدولة العثمانية لأهمية دجلة ولخطورة المشروعات البريطانية فيه وعملت على أن تكون هى التى تتولى أمر تسيير البواخر فى مياه العراق .

فقد تقدم نجيب باشا — والى بغداد — طالباً من الحكومة البريطانية أن تزوده بباخرة مجهزة بالرجال والعتاد لتعمل تحت القيادة العثمانية لحين أن تجهز بالبحارة والخبراء العثمانيين . وعرض نجيب المشروع على تيلر Taylor وأضاف إلى ذلك طلب إعادة الكابتن لينش Lynch ليتولى أمر الباخرة فور

(١) القنصل البريطانى فى بغداد .

(٢) Lorimer : Gazetteer : Vol. I. Pt. I. p. 1383, 1899-1900.

(٣) H.B. Lynch : Note on Steam Communications, England and India. Bagdad. Aug. 1837. India off. Recs., Fact. Recs., Per. & Per. Gulf Vol. 57. p. 245.

وصولها (مارس ١٨٤٣) فرحب تيلر بالمشروع ووعد بتذليل الصعوبات التى تعترضه(١) .

وفى أعقاب ذلك وقع صدام شديد بين تيلر من جهة ولينش والتجار الإنجليز من جهة أخرى بسبب تأييد تيلر لمشروع نجيب(٢) . واتهم التجار الإنجليز قنصلهم بأنه فضل المصالح العثمانية على البريطانية(٣) . وفى هذه الظروف أوعزت السلطات البريطانية إلى التجار الإنجليز فى العراق أن ينشئوا خطاً للملاحة البخارية فى دجلة(٤) وذلك لهدم مشروع نجيب — تيلر .

كما صدر قرار بنقل تيلر من بغداد إلى أرضروم وحل محله هنرى راولنسون Rawlinson كقنصل لبريطانيا فى العراق (Turkish Arabia) وأحبط راولنسون مشروع نجيب ولم نسمع من بعد عن ظهور مشروع آخر عثمانى مماثل وإنما رددت المكاتبات تفاصيل نزاع مستمر ومتجدد بين نجيب وراولنسون ، وكان طبيعياً إذن أن يقف نجيب بالمرصاد لكل خطوة يخطوها الإنجليز لاستخدام بواخرهم فى مياه العراق . فعندما أنزل بعض التجار الإنجليز الباخرة كربلاء فى نهر دجلة اعترض الوالى على هذا الإجراء فطالب السلطات البريطانية بأن تتحول هذه الباخرة إلى باخرة عثمانية ترفع العلم العثمانى . فلما رفضوا طالبهم بالحصول على فرمان من السلطان يمنحهم حق استخدامها فى مياه العراق كما طالبهم بأن تدفع السفن البريطانية ضريبة الطلبية التى تجمعها الحكومة باسم تكاليف حماية السفن من عدوان العشائر

(١) Taylor to Sec. Comm. Mch 14, 1843. (Pol. & Sec. Dept. Recs. Letrs. fr. Pol. Agt. Bagd. Vol. 13. p. 157). do-do. Mch 7, 1843. Ibid. pp. 159-162.

(٢) Board Drafts to Governor General of India in Council. June 29, 1438 (Pol. & Sec. Dept. Sec. Despatches. Board Draft. Vol. 39. p. 303).

(٣) Taylor to Sec. Comm. Mch 14, 1843 (Pol. & Sec. Dept. Recs., letrs. fr. Pol. Agt. Bagd. Vol. 13. p. 157 & do-do Mch 7, 1843. Ibid. pp. 159-162.

(٤) Lorimer : opcit. Vol. I. Pt. I. pp. 1383, 1899-1900.

العربية ، وبعدم رفع العلم البريطاني طالما كانت في مياه العراق(١) .

ردت المؤسسات الإنجليزية في بغداد على اعتراضات نجيب بأن رفعت شكاواها إلى المسئولين في لندن مبينين لهم أن الطلبية كانت تدفع طالما كانت الحكومة تقوم بواجبها نحو الدفاع عن السفن ضد عدوان العرب ولكن في عهد نجيب لم تعد تستخدم في هذا الغرض ، بل إن العرب كانوا يحصلون على إتاوات من السفن برغم أن هذه الضرائب المفروضة وهذه الإتاوات لاتتمشى مع بنود معاهدة بلطة ليمان (١٨٣٨) . واشتركت سفارة بريطانيا في هذه المعركة مؤيدة التجار الإنجليز . ودخل كاننج — سفير بريطانيا بالآستانة حينذاك — في مفاوضات لتسوية الأزمة بين الطرفين وبعد مداولات مع الباب العالى أصدر الباب العالى قراراً من الصدر الأعظم في ١٨٤٦ ينص على النقاط الرئيسية التالية :

١ — حرية قيام البواخر البريطانية بالأعمال التجارية في النهرين (الفرات ودجلة) .

٢ — لا تطبق هذه القوانين على السفن الآتية من الخارج أو التي تذهب إلى أقطار أجنبية وإنما تؤخذ عليها الجمارك وضريبة قدرها ٥ قروش نظير رسو السفينة(٢) .

وقد فسر الإنجليز هذا القرار الوزارى على النحو التالي :

١ — للإنجليز أن يرفعوا العلم البريطاني على سفنهم خلال قيامها بالأعمال التجارية في داخل العراق وخارجه على حد سواء .

٢ — أن الضريبة تفرض على كمية البضائع وفق اتفاقية بلطة ليمان .

٣ — أن تفرض الضرائب الواردة في معاهدات الامتيازات على البضائع المنصوص عليها في تلك المعاهدات فقط .

---

(١) Lorimer: opcit. Vol. I. pt. I. pp. 1383, 1898-1900, 1404 Canning to Aberdeen. Consple. Mch. 8, 1846, F.O. 424-137. p. 46 Rawlinson to canning. Sep. 3, 1845. Ibid. p. 47 Rawlinson to. Canning sep. 21, 1847 (Pol. & Sea. Dept. Recs., letrs. fr. pol. Agt. And Consuls. Vol. 14 pp. 125-131).

(٢) Lorimer, op. cit, Vol. I, Pt. I, p. 1889-1900.

٤ — ليس هناك تفرقة بين السفن الشراعية والسفن البخارية . من حيث تطبيق هذا القرار .

٥ — أى سفينة بريطانية بنيت في العراق ويملكها بريطانيون وتحمل العلم العثماني وإن كانت تحت قيادة بريطانية لا تدفع إلا ما تدفعه أى سفينة عثمانية(١) .

ولقد كان قرار ١٨٤٦ ضربة قوية لنجيب باشا لم يستطع من بعدها أن يستمر في مقاومة مشروعات الملاحة البخارية البريطانية حتى عزل عن بغداد (١٨٤٧) .

صادف هذا الإخفاق الذى منى به مشروع نجيب باشا شعوراً قوياً لدى السلطات العثمانية في الآستانة بخطورة ما سيتطور إليه النشاط البريطاني البحرى في مياه العراق والخليج العربي . ولاشك أن تاريخ الاستعمار البريطاني على يد شركة الهند الشرقية كان ماثلا أمام المسئولين في الآستانة حين فكروا في تخطيط أبعد مدى مما كان يدور في رأس نجيب . ففي ١٨٤٧ بعث الباب العالى راغب بك إلى البصرة لدراسة الإمكانات المتوافرة واللازمة لإنشاء قوة بحرية عثمانية في جنوب العراق والخليج العربي وتأسيس ترسانة في البصرة تتحمل مسئولية نشر النفوذ العثماني بهذا الأسلوب الجديد في تلك المناطق(٢) .

ودخلت المشروعات العثمانية حيز التنفيذ بتشكيل الشركات البحرية في

---

(١) Lorimer, op. cit., Vol. I. pt. I, p. 1390. وقد وصف Bulwer الكتاب الوزارى لسنة ١٨٤٦ على اعتبار أنه اتفاقية .

«Relating to the navigation of Mesopotamia Rivers by British steam Vessels & Boats & confirming the arrangement of 1846., (Bulwers' Despatch dated 15 Jan. 1861).

(٢) Rawlinson to Wellesley. Mch. 31, 1847. F.O. 195-272.

على مجهودات العثمانيين في هذا الشأن بأن وجود بواخر عثمانية في تلك المناطق سيكون على جانب من الأهمية إذا صادف وفشلت المفاوضات الدائرة لعقد معاهدة بين الدولتين الفارسية والعثمانية لتحديد الحدود بينهما . ومع اعتقادى أن هذا التعليق صادق من هذه الناحية إلا أننى أعتقد أيضاً أن وجود هذه البواخر كان ضد المصالح البريطانية وأنه يمكن اتخاذ الأزمات المتوقعة بين الدولة العثمانية وفارس ذريعة لمنع إنزال قطع بحرية تنادد القطع البريطانية فسياسة بريطانيا دائماً هى عدم السماح بقدر الإمكان بوجود أساطيل غير بريطانية في الخليج العربي .

كل من الآستانة وبغداد . فقد تألفت فى بغداد شركة ملاحة بخارية وطنية نصف رأسمالها للحكومة والنصف الثانى يشترك فيه التجار والأعيان ونجح رشيد الكوزلكى — والى بغداد — فى أن يجمع المبالغ المطلوبة وأن يكلف إحدى المؤسسات البلجيكية(١) ببناء باخرتين وهما اللتان عرفتا فيما بعد باسم الباخرة بغداد والباخرة البصرة . فى الوقت نفسه صدر مرسوم فى الآستانة بإنشاء شركة ملاحية باسم جلالة السلطان برأسمال قدره مائة وستون ألف كيس وبامتياز لمدة ثلاثين سنة على أن تعمل فى البحر الأحمر وتتردد على الموانى الكائنة بسواحل الحجاز واليمن ومصوع وسواكن والقصير والبصرة(٢) .

ووصلت الباخرتان — بغداد والبصرة — إلى العراق فى ١٨٦١ للعمل فى دجلة والفرات وأسند نامق باشا إلى أحد المهندسين البلجيكيين مهمة التغلب على عقبات الملاحة فى الفرات ودجلة(٣) واستعار نامق أحد مهندسى الباخرة البريطانية كوميت Comet(٤) ويقول لوكلاما Lycklama إن الباخرتين كانتا تقومان بنقل المسافرين والبضائع ، ولكن صدرت الأوامر فى أوائل الستينات بأن تقتصر الباخرتان على الركاب والبريد والذهب والأموال(٥). وأغلب الظن أن هذا كان نتيجة ضعف آلاتهما وعجز فى الكفاءات الفنية(٦) . ولم يتوان نامق عن زيادة عدد البواخر إلى أقصى درجة ممكنة فأمر فى ١٨٦٧ ببناء ثلاث بواخر جديدة هى : « الموصل والرصافة والفرات »(٧) .

(١) وأعتقد أنه ليس من قبيل المصادفة أن يفضل العثمانيون بلجيكا فى بناء سفن لهم على بريطانيا ذات الشهرة العالمية فى هذا الفن الصناعى . وإنما قصد العثمانيون ذلك لسوء ظنهم بنوايا الإنجليز أو على الأقل تجنباً لهم بقدر الإمكان .
عباس العزاوى : تاريخ : جـ ٧ : ١١٠-١١٤ .

(٢) تقويم وقائع : العدد ٥٤٧ فى ١٦ ربيع الآخر ١٢٧٣ هـ-١٨٥١ م .

(٣) Lycklama Nijholt : opcit. Vol. III. p. 192.

(٤) Ann Blunt : Bedowin. Vol. II. p. 443 Budge : By Nile. Vol. I. pp. 213-214.

(٥) Lycklama Nijholt : opcit. Vol. III. p. 190.

(٦) Cuinet : op. cit. T. III. p. 244.

(٧) Lorimer : op. cit. Vol. I. Pt. I. p. 1448.

خلال ذلك كانت شركة لينش Lynch تتوسع بسرعة حتى كسبت ثقة عدد من أصحاب رءوس الأموال فى لندن فتألفت فى ١٨٦٠ شركة كبيرة بعنوان :

Messrs. Lynch of the Euphrates and Tigris Steam Navigation Company (L.E.T.S.N.C.)

وأصبح بيت لينش وكيل هذه الشركة فى بغداد فاعترض نامق باشا والسلطات العثمانية على نقل امتياز شركة لينش — الذى حصلت عليه وفق اتفاقية ١٨٤٦ — إلى الشركة الجديدة ، ولكن استطاع السفير البريطانى أن يقنع الباب العالى بحقها فى ذلك وصدر كتاب من الصدر الأعظم إلى والى بغداد فى ١٥ من يناير سنة ١٨٦١ يؤكد اتفاقية ١٨٤٦ ويعطى للإنجليز الحق فى استخدام بواخرهم فى دجلة والفرات(١) .

وأنزلت الشركة أولى بواخرها City of London فى ١٨٦٢ وعندما أرادت الشركة إنزال باخرة أخرى اعترض نامق على ذلك بأن فرمان ١٨٣٤ ينص على أن المسموح به هو باخرتان فقط فرد الإنجليز على ذلك بأن فرمان ١٨٣٤ متعلق بالبواخر الحكومية . بينما اتفاقية ١٨٤٦ وكتاب الصدر الأعظم فى ١٨٦١ متعلقان بالبواخر غير الحكومية وأخطر الباب العالى أن الباخرة Comet حكومية بينما سيتى أوف لندن تابعة لشركة L.E.T.S.N.C. فالتحديد بباخرتين لا يمكن أن يطبق عليها . واقتنع الباب العالى بذلك وأصدر أوامره لنامق باشا بأن يسمح للشركة بإنزال باخرة ثانية (٢) ولكن سلطات بغداد والآستانة تمسكت بأن يكون مجال عمل البواخر جنوبى بغداد دون الصعود إلى الموصل(٣) ولم تتشبث الشركة البريطانية بالحصول على هذا

(١) W.H. Hall : (Ed.). Reconstruction in Turkey. (New york). p. 86-87. Hoskins : op. cit. p. 425.

(٢) Telegram fr. Lynch & Comp. dated Bagd. June 17, 1883. & Lord Fits-maurice to Lynch June 22, 1883 & Memo. Inclos. No. 13. F.O. 424-137. p. 5.

(٣) Layard : Autobiography. I. p. 331, Budge : By Nile : Vol. I. p. 215.
نقلا عن Hoskins : op. cit. p. 427.

الحق وأغلب الظن أنها تهاونت فى هذا الشأن لأن مكاسبها كانت وفيرة فى مجالها بين البصرة وبغداد وأن السفن الشراعية التابعة للبريطانيين وللوطنيين كانت كافية لنقل متاجرهم بين الموصل وبغداد .

حقيقة انتهت المنازعات بين نامق من جهة والمؤسسات البريطانية من جهة أخرى حول إنزال باخرة ثانية بصدور القرار الوزارى سالف الذكر ولكن هذا القرار أثار فى الثمانينات من القرن التاسع عشر أزمات خطيرة . فقد فهم الإنجليز من هذا القرار أن العثمانيين يريدون التخلص من اتفاقية ١٨٤٦ فتعمدوا فى قرار ١٨٦١ الجمع بين الحقوق الممنوحة فى فرمان ١٨٣٤ بالحقوق الواردة فى اتفاقية ١٨٤٦(١) ولكن مقاومة العثمانيين للاحتكار البريطانى الفعلى لخط الملاحة البخارى لم تجد نظراً لأن تهاون على رضا والباب العالى كان كبيراً للدرجة التى جعلت الإنجليز يقدمون أسانيد تاريخية وقانونية قوية تدحض الحجج العثمانية بسهولة خاصة وأن الأسطول البريطانى ما كان ليسمح للعثمانيين باتخاذ أية خطوة إيجابية ضد البواخر البريطانية . واستند الإنجليز إلى الحجج التالية :

١ — أن السفن البريطانية كانت تبحر فى مياه العراق رافعة العلم البريطانى منذ منتصف القرن السابع عشر دون اعتراض من جانب السلطات الحاكمة فى العراق .

٢ — أنه منذ حوالى ١٨٢٠ كانت ترابط سفينة أمام المقيمية البريطانية ببغداد .

٣ — أن فرمان ١٨٣٤ سمح لباخرتين بالعمل فى الفرات . ثم أبحرت السفينة الفرات فى ١٨٣٦ ثم ثلاث بواخر أخرى بين ١٨٤٠—١٨٤٢ فى أنهار دجلة وكارون دون معارضة عثمانية .

٤ — استبقت الحكومة البريطانية الباخرة نيتوكريس فى نهر دجلة ولم تعترض السلطات العثمانية عليها(٢) .

(١) Brant : Memorandum Respecting the Navigation of the Tigris & Eph. (Printed for the use of F.O. Ap. 1913. Conf. 10207. Pt. III. pp. 2-3.).

(٢) وانظر كذلك Telegram fr. Lynch & Comp. Dated June 17, 1883 Ibid (Bagdad) F.O. 424-137.

هذه الحقوق البريطانية كانت تتنافى مع معاهدات الامتيازات ومع الشرط الذى يمنح الدول الكبرى الامتيازات التى تحصل عليها أية دولة أخرى(١) . ولكن موقع العراق وضعف أساطيل الدول المنافسة لبريطانيا وعدم ارتفاع مستوى المنافسات الفرنسية إلى أعالى الخليج واقتصارها على مسقط وعمان كان يثبت هذه الحقوق يوماً بعد يوم .

لم ينجح العثمانيون فى اعتراضاتهم على نشاط الملاحة البخارية فى مياه العراق وفى خضم هذه الأزمة بين الإنجليز والعثمانيين تقدمت شركة فرنسية (١٨٦٤) بمشروع لمد خط بواخر فى نهر دجلة ترفع بواخره العلم العثمانى . وكان المفروض أن يرى نامق باشا فى هذا العرض فرصة ليضرب الإنجليز بالفرنسيين ولكنه رفض المشروع الفرنسى . ولاشك أن هذا يرجع إلى أن الباب العالى — وقد أصبح أكثر تأثراً بالتوجيهات البريطانية — ترك لشركة لينش Lynch وحدها حق الملاحة البخارية فى أنهار العراق . فأثار هذا الموقف أشجان الفرنسيين وطالبوا بتطبيق نصوص معاهدات الامتيازات Capitulation التى تنص على منح أية دولة كبرى نفس الامتيازات نفسها التى تحصل عليها دولة أخرى . وبذلك انتقل ميدان المناورات السياسية والدبلوماسية إلى الآستانة وانتهت الضجة التى أثارها المشروع الفرنسى إلى لا شىء نظراً لأن ميدان الاهتمام الفرنسى فى ذلك الوقت كان مركزاً فى قناة السويس وسوريا والمكسيك والجزائر والصومال والشرق الأقصى ، أما الميدان العراقى فكان الفرنسيون يستخدمونه فى المناورات الدبلوماسية أكثر من استخدامه فى المشروعات العملية الثابتة(٢) .

واستمرت المجهودات العثمانية نحو تقوية خط البواخر العثمانى فى مياه العراق ولكن هذه المجهودات لم تتخذ شكلا قوياً إلا على يد مدحت الذى توسع فى مشروعات الملاحة بشكل ملحوظ .

(١) الواقع أن شركة L.E.T.S.N.C. لم تعلن أبداً أنها احتكرت الملاحة البخارية فى دجلة والفرات وأنها كانت تردد أنها تؤيد استخدام الدول الأخرى لمياه العراق إلا أن السياسة البريطانية سارت على أساس منع وجود منافسة أوربية فى تلك المياه .

(٢) Lorimer, op. cit. Vol. I. part. I. p. 1484.

خطوط السكك الحديدية والبرقية :

لم يكن التنافس على الفوز بمد خطوط الملاحة فى العراق هو الميدان الوحيد الذى تنافس فيه العثمانيون والإنجليز والفرنسيون فى سبيل السيطرة على خطوط المواصلات العالمية . فقد احتدمت المنافسات حول مد خطوط السكك الحديدية عبر العراق بدرجة لا تقل عن احتدام المنافسات حول مشروعات الملاحة البخارية فيه . وساهمت الأوضاع السياسية فى وسط آسيا وفى الشرق الأوسط على تقوية رغبة الإنجليز فى مد خطوط سكك حديدية عبر العراق حيث أدت التطورات فى الخليج العربى وفى أفغانستان إلى أن ترسل بريطانيا حملة ضد فارس فى أعقاب تدخل فارس فى أمور أفغانستان بشكل هدد النفوذ البريطانى فى تلك المنطقة الحساسة بالنسبة للإمبراطورية الهندية (١٨٣٧) فاستولت القوات البريطانية — التى صعدت نهر كارون فى ظهر قوارب مسلحة — على الأهواز(١) . وكان لهذه الحملة أثرها الكبير فى أن يضطر شاه فارس إلى أن يتخلى عن مشروعاته التوسعية فى و سط آسيا(٢) . وبعد ذلك نشبت ثورة الهند فى ١٨٥٧ التى أدت إلى أن ينظر الإنجليز إلى طريق العراق كقاعدة لمواجهة هذه الضرورات العسكرية وكطريق بديل ينافس مشروع قناة السويس الذى كان يسير بخطى سريعة أزعجت الإنجليز(٣) . وفى هذه المرة برزت أهمية استخدام السكة الحديدية فى العراق . ويرجع التفكير فى مشروعات السكك الحديدية عبر العراق إلى سنة ١٨٤٠ م(٤) .

ومن الناحية الاقتصادية كانت ظروف التنافس التجارى بين روسيا وبريطانيا تدعو الإنجليز إلى إنشاء خط مواصلات سريع ومباشر عبر العراق وإلى الهند للتغلب على النجاح الذى كانت تصادفه السلع الروسية(٥) .

(١) ساعدت الباخرة المسلحة كوميت Comet — التابعة للقنصلية البريطانية فى بغداد — الحملة البريطانية فى كارون .

(٢) Sykes : Hist. of Persia : Vol. II. p.

(٣) Hoskins : op. cit. pp. 326-327.

(٤) Foreign Quarterly Review. No. XLVIII. Jan. 1840. pp. 408-409.

(٥) Layard : Discoveries. pp. 5-9.

وأغرى جسنى حكومته بأن زراعة قطن « السى ايلند » فى منطقة الموصل على يد رسام Rassam(١) ستنتشر بسرعة فى أعقاب تنفيذ المشروع . هذا إلى جانب كميات كبيرة من القمح والصوف والشعير وهى غلات ذات أهمية للصناعة وللتجارة البريطانية(٢) .

صاحب هذه المشروعات مشروع مد خط تلغراف بين أوربا والهند عبر العراق على طول خط السكة الحديد واقترح أن تتولى مده شركة المواصلات البرقية الهندية الأوربية . ولكى ينجح هذا المشروع كان لابد كذلك من الحصول على موافقة حكومتى لندن والآستانة على المشروعين معاً: مشروع الخط الحديدى والخط البرقى وعلى موافقة السلطان على ضمان رأس مال الشركة التى ستقوم بتنفيذ المشروع .

وقد أصبحت هذه المشروعات مجال منافسات دولية حامية عندما تقدمت جماعة فرنسية بمشروع يعارض المشروع البريطانى دون أن تتمسك بالحصول على ضمان السلطان لرأسمالها . وكانت الأموال اللازمة متوافرة نظراً لأن أسرة نابليون وحكومته ووزراءه كانوا سيسهمون فى المشروع بأموالهم ونفوذهم فأدى ذلك إلى أن يصبح الباب العالى فى حيرة من أمره إذ أصبحت أمامه مشروعات فرنسية وبريطانية فى مصر والعراق وكلها متعددة الجوانب متباينة الأهداف(٣) .

ودارت المفاوضات بين فرنسا وبريطانيا لتسوية المنافسات بينهما وشعر المفاوض الفرنسى بخطورة منافسه الإنجليزى واقترح أن تتوحد جهود الدولتين فى هذا الميدان ليكونا جبهة منيعة أمام الروس . إلا أن بريطانيا كانت معتقدة تماماً أن مشروعات الفرنسيين حكومية أو بإيعاز حكومى فرنسى تخشى على الهند من فرنسا حتى بعد حرب القرم(٤) . وتابعت

(١) Chesney : Expedition : Vol. II. p. 694.
Lorimer : op. cit. Vol. I, Pt. I. pp. 1807-1808.

(٢) F. Chesney : Report on the Euphrates Valley Railway. London. 1857. pp. 1-7.

(٣) Lane—Poole : Chesney. pp. 443-40.

(٤) Chesney : Narrative. p. 354. & Hoskins : opcit. pp. 334-335.

الشركة البريطانية مساعيها وتعللت الشركة فى طلب ضمان الحكومة لرأسمالها أنها ستحقق للحكومة مكاسب سياسية واسعة»(١) ، فضلا عن أن مد الخط سيعالج أزمة التفوق الإيرانى فى الخليج العربى بعد استيلاء قوات الشاه على بندر عباس من يد العرب(٢) . وبرغم ما تبدو عليه هذه الحجج من قوة تجنب بالمرستون تأييد المشروع البريطانى الذى تقدم به « أندرو » لمد خط سكة حديد عبر العراق لأن أندرو طالب بأن تضمن الحكومة البريطانية رأس مال الشركة القائمة بالمشروع واعتبر بالمرستون ذلك تدخلا فى شئون الدولة(٣) .

ومن ناحية أخرى أظهر المسئولون فى الحكومة البريطانية أن أساس السياسة البريطانية نحو المشكلة الشرقية هو ضمان استمرار تعاون الدول الأوربية الكبرى إزاءها وأن تدخل الحكومة البريطانية فى شئون الدولة العثمانية لضمان رأس مال الشركة سيقضى على هذا الوفاق الأوربى. هذا إلى أنه عندما عرضت مشكلة قناة السويس على مجلس العموم فى السنة نفسها– وقبل عرض مشروع خط حديد الفرات على المجلس– أكد رئيس الحكومة أن مشروع قناة السويس غير عملى ولن يدر أرباحاً اقتصادية وأن من مصلحة بريطانيا معارضته على اعتبار أنه يهدد سلامة الهند . فقياساً على هذا يجب على الحكومة معارضة المشروعين عبر العراق وعبر مصر حيث إنه إذا تولت بريطانيا مشروع خط حديد الفرات وتولت فرنسا مشروع قناة السويس قضى تماماً على الكونسورتو الأوربى الأمر الذى كان يهدد بوقوع اضطراب دولى غير مأمون العاقبة . ورأت الحكومة البريطانية أيضاً أن خط حديد الفرات لن تكون له قيمة بعد افتتاح قناة السويس وأن قيمته ستصبح تافهة إذا تم تنفيذ مشروع مد خط تلغرافى على طول نهر الفرات(٤) .

(١) Old Indian : A traveller : Euphrates Valley Route tc India. London 1856. p. 27.

(٢) Andrew : Scinde. pp. 58-59.

(٣) Hans. par. Deb. 3rd. Ser. Vol. C XLVII, pp. 1659-1664.

(٤) Hans. Parl. Deb. 3rd. Ser. CXLVII. pp. 1663-1683.

وإذا كان بالمرستون قد قضى على مشروع سكة حديد الفرات فإنه فى خضم المناقشات التى دارت حوله أعلن تأييده لمشروع مد خط تلغرافى على طول وادى الفرات وكانت قد تألفت شركة لهذا الغرض تحت اسم European and Indian Junction Telegraph Company . وكانت حركة من خطوط التلغراف قد نشطت فى الخمسينات فى الهند وفى أوربا وتطلع الإنجليز إلى خط يربط بريطانيا بمستعمراتها ، خاصة أنه بعد انتهاء حرب القرم بقليل مدت بعض خطوط التلغراف تحت الماء فى البحر المتوسط ولما قامت الحرب الإيرانية الإنجليزية والثورة الهندية شعر الإنجليز بأن الضرورة أصبحت ملحة لمثل هذا الخط التلغرافى(١) .

ومن ناحية أخرى شعرت الدولة العثمانية خلال الخمسينات بميزات الخطوط البرقية كوسيلة ذات أثر فعال فى تقوية قبضة الحكومة على الإمبراطورية المترامية الأطراف ، وقررت أن تمد خطاً من الآستانة عبر آسيا الصغرى إلى بغداد ، على أن تقوم الحكومة البريطانية بمد هذا الخط من العراق إلى الهند . وقد زاد اهتمام السلطات البريطانية بهذا المشروع على أثر إخفاق المحاولات المضنية التى بذلت فى سبيل مد وتشغيل الخط التلغرافى فى طريق البحر الأحمر إلى الهند .

وانتهت المفاوضات بين الدولتين البريطانية والعثمانية على مد خط برقى تقوم بنفقاته الدولة العثمانية وتقدم الحكومة البريطانية المساعدات الفنية لها (٢) (١٨٦٣) .

كما تمخضت المفاوضات عن عقد اتفاقيتين أخريين إحداهما بين بريطانيا والدولة الفارسية لمد خط تلغرافى بين خانقين وطهران وخانقين وبوشير ووضع الخط تحت إشراف مكتب هندسى إنجليزى . أما الاتفاقية الثانية فكانت بين السلطان والشاه بخصوص مد خطوط التلغراف إلى خانقين ،

(١) Fitzgerald : The Canal at Suez. Vol. I. pp. 97-98.
Sykes : Hist. of Persia. II. pp. 367-8.

(٢) Hoskins : British Routes. pp. 367-376.
Aitchison: Collection. Vol. XI. pp. 29-30.

ووضع القواعد الأساسية التى ستتعامل فى ضوئها الدولتان بخصوص خطوط التلغراف(١) .

ونفذ المشروع(٢) وأصبح العراق هو الرابطة بواسطة الخطوط البرقية بين الشرق والغرب وهكذا استخدمت البواخر والمواصلات البرقية فى العراق دون السكك الحديدية . وحتى البواخر كان استخدامها على نطاق محلى فى العراق لا لربط الشرق بالغرب فكانت خطوط المواصلات البرقية هى الوسيلة الوحيدة لربط الشرق بالغرب عبر العراق . ولم تقم الدولة العثمانية بخطوات إيجابية نحو استخدام طريق العراق لربط الشرق بالغرب إلا على يد مدحت .

(١) Aitchison : op. cit. Vol. X. p. 82-83.

(٢) ولكى تكمل الحكومة البريطانية الخطوات الدبلوماسية الكفيلة بمد خطوط التلغراف فى الخليج العربى عقدت اتفاقية مع رؤساء عشائر القواسم والعجمان وربى نضمان سلامة ماسيمد من خطوط تلغرافية .كما عقدت معاهدة لنفس الغرض مع ثوينى بن السيد سعيد سلطان مسقط ١٨٦٥ .

الفصل السابع

النشاط الأجنبى فى العراق ١٨٣٠ – ١٨٧٢

١ – النشاط السياسى الأجنبى فى العراق .

٢ – المقيميات والجاليات البريطانية فى العراق .

٣ – التبشير .

٤ – التنقيب عن الآثار .

الفصل السابع

النشاط الأجنبى

النشاط السياسى الأجنبى فى العراق :

وجدت فرنسا فى الدولة العثمانية حليفاً لها قوياً ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وعقدت فرنسا مع الدولة العثمانية معاهدة ١٥٣٥ م Capitulations وأخذت المصالح الأوربية تنمو فى ولايات الدولة . ومنحت الدولة العثمانية الدول الأوربية الأخرى امتيازات مماثلة للامتيازات الفرنسية . ولم تصبح هذه الامتيازات خطراً على كيان الدولة العثمانية إلا بعد أن وضح ضعفها أمام الدول الأوربية . وأخذت هذه الدول من جانبها تستغل هذه الامتيازات إلى أبعد الحدود وتتنافس فى الحصول على المركز الممتاز فى الدولة العثمانية .

وبدأت التيارات الأوربية المتضاربة المتنافسة تصل إلى العراق خفيفاً فى القرن الثامن عشر ، خاصة فى نصفه الثانى عندما نشبت حرب السنوات السبع . إذ استخدم الإنجليز طريق العراق إلى الهند خلال هذه الحرب . كذلك أنشأ الإنجليز فى البصرة مقيمية فى ١٧٦٤ . على أن الحملة الفرنسية على مصر كانت أقوى حافز للإنجليز على تقوية تمثيلهم الدبلوماسى فى العراق لمراقبة النشاط الفرنسى النامى فى الشرق الأدنى .

ونتيجة لهذه التطورات أنشأ الإنجليز لهم فى بغداد مقيمية سنة ١٧٠٢ إلا أن العلاقات العثمانية — البريطانية لم تلبث أن توترت وتفوق النفوذ الفرنسى بسرعة فى بلاط السلطان على يد مبعوث نابليون المسيو سباستيانى . وبدأت يد الفرنسيين تطارد النفوذ البريطانى فى ولايات الدولة . وفى العراق كانت تزكية سباستيانى لسليمان الصغير من الأسباب الرئيسية التى رفعته إلى منصب الولاية فى ١٨٠٨ .

أدرك الإنجليز خطورة هذا التفوق الفرنسي وعملوا على مقاومته سواء فى بلاط السلطان أو فى بلاطات الولاة . فبعثوا إلى بغداد فى تلك السنة (١٨٠٨) بقنصل جديد هوكلاوديوس جيمس ريتش Clauduis J. Rich الذى ناصب سليمان الصغير العداء ثم اصطدم بداود باشا . حقيقة استطاع داود أن يطرد ريتش Rich ولكن لم يكن فى استطاعته أن يتجاهل الامتيازات التى حصل عليها الإنجليز بمقتضى المعاهدات . فقد كان الوقت وقت استغلال الدول الأجنبية لهذه الامتيازات إلى أقصى درجة ممكنة . ومن ناحية أخرى كانت التجارة الهندية – التى هدد الإنجليز بوقفها – تشكل دخلا وفيراً للخزانة . ولهذه الأسباب دارت مفاوضات لعقد تسوية بينه وبين السلطات البريطانية انتهت بتوقيع داود لاتفاقية مع الإنجليز(١) . وتحسنت العلاقات بين داود والوكيل السياسى البريطانى الجديد تيلر R. Taylor حيث إنهما تفاهما على استخدام نهر الفرات كطريق لربط الشرق بالغرب بالبواخر . ولكن حكومة داود سقطت قبل أن يدخل المشروع حيز التنفيذ .

وكانت علاقة على رضا – الباشا الجديد – بالإنجليز طيبة منذ البداية . فقبل أن يقوم على رضا بحملته على بغداد كان قد وعد ف . جسنى F. Chesney – صاحب مشروع المواصلات البخارية عبر العراق – بأن يقوم بالأعمال التمهيدية لتنفيذ المشروع(٢) . كما أن على رضا أصدر – فى أعقاب استتباب الأمر له فى بغداد – بيورولدى لصالح الإنجليز فى ٢ من أكتوبر ١٨٣١ يؤكد فيه العمل وفق المعاهدات المعقودة بين الدولتين العثمانية والبريطانية(٣) .

كانت المصالح البريطانية فى العراق التجارية منها والسياسية من العوامل الرئيسية التى أعانت الإنجليز على أن يكون لهم نفوذ كبير هناك . ولتقوية هذا النفوذ كانوا يستغلون تفكك العراق إلى عصبيات متناحرة ومتعادية فى

(١) انظر نص الاتفاقية فى
Actchison : opcit. Vol. XI. p. 12-14.

(٢) Chesney : Expedition. I. p. 447.

(٣) Translation of a Boyoorooldi for, his Highness Hajee Ali Reza, Pasha Bagdad, Aleppo, Diarebekir and Mousul to the Political Agent at Bussora 27 Rubeeoussance 1247. or 2nd Oct. 1831.
Aitchison : opcit. Vol. XI 1 p 12-14.

كثير من الأحيان للحكومة . كما كانت الظروف السياسية المتعلقة بالتوسع المصرى فى الثلاثينات والضغط الفارسى المتواصل على العراق من العوامل التى فتحت مجالات كبيرة للتدخل فى أمور البلاد . إلى جانب ذلك عمل الإنجليز على معاونة المبشرين البروتستانت لوقف تيار التبشير الكاثوليكى الفرنسى فدارت منافسة قوية بين الفرنسيين والإنجليز فى هذا المجال كما دارت هذه المنافسة بينهما فى المجالات الأخرى السالفة الذكر .

وكان سقوط حكومة المماليك من العوامل التى أعانت على استمرار نمو النفوذ البريطانى فى العراق . وتعتبر الفترة الواقعة بين ١٨٣٠ – ١٨٧٦ فترة تفوق فيها النفوذ البريطانى تفوقاً كبيراً فى الدولة العثمانية طغى خلالها على النفوذ الفرنسى والروسى ، باستثناء الفترة القصيرة التى أعقبت عقد معاهدة خنكارسكله سى . وأدى هذا التفوق البريطانى فى الآستانة إلى أن يتفوق كذلك القناصل الإنجليز فى العراق(١) وساعد على ذلك الصراع بين محمد على ومحمود الثانى فلقد كانت التطورات السياسية فى الآستانة ذات صدى قوى فى العراق .

فخلال فترة القتال فى الشام ١٨٣١ – ١٨٣٣ كان الباب العالى فى حاجة إلى التأييد البريطانى وكان الإنجليز يخشون من التوسع المصرى . فكان أن التقت مصالح العثمانيين والإنجليز ولذلك طلب السفير البريطانى فى الآستانة من روبرت تيلر أن يقدم المساعدات الممكنة لعلى رضا ليوطد أقدامه فى الحكم وليقاوم الغزو المصرى المنتظر وليقاوم المشروعات الروسية فى أعقاب خنكارسكله سى . فبعد هذه المعاهدة ركز روبرت تايلور Rubert Taylor (الوكيل السياسى البريطانى فى بغداد) اهتمامه فى مراقبة النشاط

(١) أسند منصب المقيم فى الفترة بين ١٨٢٢–١٨٧٤ إلى أربعة هم :
١٨٢٢–١٨٤٢ روبرت تيلر Rubert Taylor
وقد تولى القنصلية فى ١٨٤١ وكان من قبل فى منصب الوكيل السياسى البريطانى فى بلاد تركيا العربية . وكل من جاء بعده قناصل .
١٨٤٣ – ١٨٥٥ هنرى راولنسون Henry Rawlinson
١٨٥٥ – ١٨٦٨ Kemball
١٨٦٨ – ١٨٧٤ Herbet

الروسى فى دائرة اختصاصه ، كما راقب الخطوات التى يمكن أن يقوم بها على رضا للتعاون مع الروس ضد القوات المصرية . فقد كان على رضا — بطبيعة هذه الظروف الجديدة — يميل إلى الروس بدرجة أكثر من ميله إلى فرنسا وبريطانيا اللتين تقاعستا عن إنقاذ الدولة من محنتها أمام التفوق المصرى. وخشى تيلر من أن يقتنص الروس الفرصة لخلق نفوذ لهم فى العراق فهول — منذ عقد خنكارسكله سى — من الخطر الروسى تهويلا شديداً دون أن يكون هناك ما يدعو إلى ذلك . وليواجه تيلر هذه الظروف الطارئة اقترح على حكومته أن تنظر فى أمر تعزيز إمكاناته المالية حتى يستطيع شراء الجواسيس وكسب صداقة الزعماء وشيوخ العشائر الكبرى وإحباط المناورات التى يقوم بها أعداء المصالح البريطانية(١) .

واتخذ التدخل البريطانى فى هذا الوقت صورة جديدة خطيرة فقد طالب تيلر بأن يحترم رأيه عند تعيين النقيب والقاضى وبعض كبار رجال الحكومة فى البصرة . ولكن على رضا لم يستمع إلى هذه المطالب كما تغاضى عن نقل تيلر للبضائع التابعة لبعض التجار تحت اسمه هو حتى لا تجبى عليها الضرائب المقررة كما تغاضى على رضا عن الأبهة والعظمة التى كان يذهب بها تيلر لسراى الحكومة . إذ كان يمتطى صهوة جواد عربى أصيل وأمامه فرقة موسيقية وحوله حرس المقيمية وفرسان على خيول مطهمة . ولكن سياسة اللين من جانب على رضا قوبلت بضغط متواصل من جانب المقيمية البريطانية. وبرغم ذلك ظل على رضا محتفظاً بعلاقته الطيبة بالمستر روبرت تيلر(٢) . إلا أن الأخير منذ خنكارسكله سى أخذ يكيل التهم لعلى رضا وينسب إليه الإهمال الذى يهدد بسقوط البلاد فى يد أول كتيبة مصرية تتقدم صوبها(٣) وطالب تيلر حكومته أن تسعى لدى الباب العالى لعزل على رضا من منصبه . وأدت هذه الأمور إلى وقوع فرقة بين المقيمية والسراى .

---

(١) Private letter fr. Taylor to Major Larmac on Bagdad Affairs (Ind. O.R., F.R., P.P.G., Vol. 50, p. 223 March 1834).

(٢) Rapport de Raghi Eff. (F.O. 78-240) (1834).

(٣) Taylor to Ponsonly. Juby 4, 1834 (F.O. 78-237).
Rapport de Raghib Eff. F.O. 78-240 (1834).

وتطور النزاع بين تيلر وعلى رضا إلى أن اتخذ شكلاً عنيفاً إذ اصطدم رجال المقيمية برجال الباشا(١) وليست هذه هى أول مرة تحدث فيها أزمة بين المقيمية والسراى كلما حدث تصادم فى المصالح بين الطرفين . حدث ذلك فى عهد سليمان الصغير ١٨٠٨—١٨١٠ ، وحدث كذلك مع داود . ولذلك يمكن القول بأن المقيمية كانت تتعمد هذه الأزمات لإحراج مركز الولاة الذين لا يتبعون طريقاً ملائماً للمصالح البريطانية . ومع أن تقرير راغب أفندى — مبعوث الباب العالى لدراسة أسباب النزاع بين على رضا وتيلر — أثبت أن تيلر هو المخطئ طلب الباب العالى من على رضا أن يتجنب مثل هذه الأزمات مع الوكيل السياسى البريطانى وأن يعاقب أولئك الذين وجهوا إهانات للوكيل السياسى(٢) والواقع أن الباب العالى كان فى حاجة إلى توثيق علاقته بالإنجليز خلال أزمة التوسع المصرى فى الشام وشبه الجزيرة العربية وقد انتهز روبرت تيلر هذه الظروف وأخذ يعرض على على باشا رضا أن يتولى ضباط إنجليز قيادة جيشه ، وأن يوافق على استقدام قوة بريطانية من الهند . كما أوصى تيلر حكومته بأن تقوم بإمداد والى بغداد وباشا السليمانية بالأسلحة . ليقاوموا الغزو المصرى المنتظر .

ولو نظرنا إلى كل المشروعات البريطانية التى اقترحها تيلر والتى عرض بعضها على باشا بغداد لأدركنا أنها تثير كل الشك فى أغراضها وتدعو المرء إلى الاعتقاد أن وراءها استعمار بريطانى للعراق . وهذه المشروعات هى :

١ — مشروع إنشاء مستودعات فحم على طول الفرات على أن تتولى قوات بريطانية حراستها(٣) .

٢ — مشروع استقدام قوة من الهند(٤) .

---

(١) Taylor to Ponsonby. July 4, 1834. F. 0. 78-237.

(٢) Rapport de Raghib Eff. (F.O. 78-240) 1834.
Taylor to Ponsonby. Juby 4, 1834, (F.O. 78-237).

(٣) Fontanier : opcit. I. pp. 309, 347, 356-359.

(٤) Ainsworth : A personal. II. pp. 97-98.

٣ – مشروع إنشاء وكالات بريطانية فى المدن الكبرى(١) .

٤ – مشروع الخط الحديدى بين الكويت والساحل السورى(٢) .

٥ – مشروع عقد معاهدة مع شيوخ عشائر شمر الجربا وغزة(٣) .

كذلك سعى تيلر إلى كسب صداقة شيوخ العشائر الكبرى العراقية حتى يؤثر عليهم ويوجههم الوجهة التى تخدم المصالح البريطانية . وكانت صلاته قوية بشيوخ عشائر كعب وشمر الجربا وعنزة والمنتفق وشيخ الكويت . وقد حذر فونتانيه Fontanier على باشا رضا من خطورة ذلك النشاط البريطانى كما حذره من نشاط بعثة جسنى بين العشائر . ومن ناحية أخرى رد فونتانيه على ذلك بأن أقنع على رضا بضرورة إرسال حملة على عربستان (خوزستان) وجنوب العراق لتقوية قبضته على تلك الجهات حتى لا تسقط فى يد الإنجليز(٤) .

كما نجح فونتانيه القنصل الفرنسى فى إثارة عرب بنى حكيم ضد بعثة الفرات إلى الدرجة التى جعلتهم يقاومون الباخرة الفرات بالقوة(٥) . ونشط فونتانيه خلال وجوده فى العراق ٣٦ – ١٨٣٨ فى تسقط أخبار الإنجليز لينظم من سقطاتهم حملة تشهير واسعة النطاق . وكانت الفرص واسعة أمامه فى هذا الميدان لما كان لدى الإنجليز من مصالح متعددة فى الميادين التجارية والسياسية والتبشيرية(٦) وهى مصالح تتضارب فى كثير من الأحيان مع مصالح أهل العراق وحكامه .

فكما حذر فونتانيه المواطنين العراقيين من خطر البواخر البريطانية حذرهم من الامتيازات التجارية التى استأثر بها الإنجليز ومن النشاط التبشيرى البروتستانتى الإنجليزى(٧) . وعلى هذا النحو استمر فونتانيه يقاوم كل

(١ و ٢ و ٣) Chesney : Narrative. pp. 239-241, 299.

(٤) Ainsworth : A Personal. Vol. II. pp. 94-95.

(٥) Fontanier : opcit. Vol. I. p. 296, Vol. II. p. 5, 75-76.

(٦) Fontanier : opcit. T. pp. 224-221, 349-350.

(٧) Fontanier : opcit. I.P. 339-340. Oppert : opcit. Vol. I.P. 118.

المشروعات البريطانية فى العراق . وما كانت مجهودات فونتانيه لتجدى فى وقف نمو النفوذ البريطانى فى العراق نظراً لأن التمثيل السياسى الفرنسى فى العراق كان ضعيفاً . ففونتانيه لم يقض سوى مدة قصيرة (حوالى سنة ونصف) فى العراق وغادره دون أن يخلفه قنصل فرنسى على مقدرته . هذا إلى أن حكومة فرنسا ركزت جهدها فى الحصول على مركز ممتاز فى مصر دون العراق على اعتبار أن مستقبل خطوط المواصلات العالمية سيكون لمصر لا للعراق . هذا فضلا عن أن الإنجليز كانوا يسيطرون فعلا على مياه الخليج العربى المؤدية إلى أنهار العراق دون أن تكون هناك أية قوة لدولة أخرى تستطيع أن تنادد القوة البريطانية .

وبعد عزل على رضا من بغداد وإسنادها إلى نجيب باشا ظل النفوذ البريطانى متفوقاً دون مقاومة . وذلك لأن نجيب منذ أول أيام حكمه فى بغداد تفاهم مع تيلر على أن يتعاونا على أمور كثيرة وعلى رأسها مد خط ملاحة بخارية فى دجلة. ولما كان ذلك ضد المصالح البريطانية عزلت الحكومة البريطانية تيلر وأسندت المنصب إلى هنرى رولنسون Henry Rawlinson(١) .

ووصل رولنسون Henry Rawlinson إلى بغداد فى ديسمبر ١٨٤٣ وهو يحمل لقب قنصل عام لبريطانيا فى بغداد وتركيا العربية :
Consul General at Bagdad and Turkish Arabia

وكان رولنسون واسع الآمال مغرقاً فى سياسة استعمارية بعيدة المدى. وتشابه فى هذا مع كلاوريوس جيمس ريتش C. J. Rich المقيم البريطانى فى بغداد من ١٨٠٨ – ١٨٢١ . وكان رولنسون مثل أسلافه يعتقد أن أساليب العظمة والكبرياء والتعالى على الباشا والموظفين تهيئ الظروف لاستعمار العراق .

وفكرته عن أهل العراق هى « أن عقول العراقيين فى عيونهم وأنهم يحكمون على قوة الشخص بمظهره » . ومع أن حسن المظهر من الأسس اللازمة

(١) Lorimer : op. cit. Vol. I. p. 1892, 1386

لكل ذى مكانة فى كل وقت وزمان فإن ما يقصده رولنسون من مظاهر ليس مجرد الملابس الزاهية وإنما كان يرمى إلى مظاهر القوة المحاطة بالأبهة والبذخ . فكان معنياً بأن يكون فى المقيمية قوة من الحرس الهندى Seapoys وأن يكون فى نهر دجلة باخرة بريطانية مسلحة تقف أمام المقيمية تحرسها باستمرار . وكانت أفكاره تدور حول تدبير وتهيئة الظروف لاستعمار العراق حيث إن الوقت فى نظره قد أزف لأن تقدم حكومته على هذه الخطوة أو على الأقل أن تستولى على المنطقة المثلثة الواقعة بين أضلاع ثلاثة تمتد بين عانه والزاب والخليج العربى (١) .

واتبع رولنسون الأساليب نفسها التى اتبعها أسلافه فى استغلال العصبيات فى العراق فعمل على كسب ثقة عدد من زعماء الإمارات الكردية وخاصة أكراد بابان وزهاب(٢) . أما علاقاته بأحمد بابان فكانت من القوة للدرجة التى جعلت رولنسون يدافع عنه فى الوقت الذى كان فيه يشكل خطراً عنيفاً ضد الدولة العثمانية ويستعين بالفرس ضد العثمانيين . ولا شك أن هذه العلاقات بين رولنسون وزعماء الأكراد بالإضافة إلى علاقاته المريبة بزعماء الطوائف فى البلاد أزعجت نجيب باشا وجعلته يقاوم نشاط القنصل ما استطاع إلى ذلك سبيلا (٣) .

وتبادل كل من نجيب ورولنسون التهم . كان رولنسون يعمل على ربط المسيحيين فى العراق بالمقيمية ليخدموا المصالح البريطانية . واعترض نجيب باشا على هذا التدخل المستمر من جانب القنصل حتى ضج رولنسون من هذه الاعتراضات .

ويقول رولنسون إن نجيب يضع العقبات أمام أية تسوية يريد أن يصل إليها معه وأن نجيب سرعان ما يرفع كل أزمة إلى الباب العالى والواقع أن الحكم المباشر العثمانى يمثل تجربة جديدة . فالولاة بعد عهد المماليك لم تكن لهم تلك

(١) Lorimer : opcit. Vol. I. Part I, pp. 1406, 1892.
Shephard : opcit. pp. 158-159.

(٢) Oppert : opcit. Vol. I, p. 102.
Jones : Selections. pp. 137, 146.

(٣) Lorimer : opcit. I, Pl. I. p. 1406.

السلطات المطلقة تقريباً التى كانت لباشوات المماليك . كان الباشا المملوكى يستطيع أن يطرد القنصل من البلاد وأن يعقد تسوية مع السلطات البريطانية مباشرة دون تدخل يذكر من جانب الباب العالى . ولكن ولاة الحكم المباشر أصبحوا مقيدين بالبيروقراطية العثمانية فكان عليهم أن يرفعوا مثل هذه الأمور إلى الباب العالى وكان ممنوعاً عليهم عقد أية تسوية مع الدول الأجنبية إلا بعد عرض المشكلة على الباب العالى(١) .

ووجد القنصل الفرنسى فى العراق فى توتر العلاقات بين نجيب ورولنسون فرصة لكسب ثقة نجيب والتعاون معه فى توهين النشاط البريطانى فظهرت المقالات العديدة بأقلام فرنسية فى صحيفتهم Journal de Constantinople — التى تصدر فى الآستانة — تمدح موقف نجيب من الإنجليز(٢). على أن الموقف السياسى الدولى كان يتحكم فى معظم الأحيان فى العلاقات الخارجية لوالى بغداد . فقد كانت حكومة الآستانة واقعة تحت ضغط بريطانى شديد متواصل كان يمنعها فى كثير من الأحيان من أن توقف نمو المصالح البريطانية فى ولايتها ، رغم المجهودات التى كانت تبذل فى سبيل الوصول إلى هذا الهدف . وكانت الدولة العثمانية غالباً ما تتراجع أمام المطالب البريطانية ولذلك لم يستطع نجيب أن يمنع رولنسون من التدخل فى أمور الولاية . ومن حسن حظ الإنجليز فى العراق أن الحكومة الفرنسية — بعد ثورة ١٨٤٨ — لم تعن بأمر العراق إلا قليلا . ولم تلبث هذه الحكومة أن أصدرت قراراً فى ١٨٤٨ بإلغاء القنصلية الفرنسية فى الموصل وتحولت القنصلية إلى مجرد مقيمية(٣) .

(١) Rawlinson to Canning: 19 July 1848. F.O. 195-318.
" " " 16 Aug. 1848. "

(٢) Lynch to Rawlinson: 24 Feb. 1849. No. 9. Inclos. No. 7. F.O. 195-334.
Ross: Letters fr. the East. p. 54
Lloyd : Foundations. p. 150.

(٣) كان هذا الوكيل السياسى الفرنسى يدعى M. Lysimaqu Caftandji Oghlo Tavernier وكان موجوداً فى بغداد حتى صيف ١٨٥٤ وتوفى فى أكتوبر ١٨٥٨ م .
Oppert: opcit. T. I. pp. 87-88.

وتولى مصالح الفرنسيين فى العراق وكيل سياسى بيد أنه كان من أهل البلاد . وما كان لأمثاله أن ينجحوا فى مراقبة النشاط البريطانى ومقاومته بالدقة نفسها التى كان يقوم بها الممثلون الدبلوماسيون الفرنسيو الأصل ، ولكن صادف أن احتدم النزاع بين المنقبين الفرنسيين والإنجليز الذين وفدوا إلى العراق بحثاً عن الآثار .

وأدت هذه المنافسات إلى أن تعيد الحكومة الفرنسية النظر فى قرارها الخاص بإلغاء القنصلية الفرنسية فى الموصل وعادت إلى افتتاحها وعين بها القنصل الفرنسى Palace فى ١٨٥١(١) وهو أحد علماء الآثار الفرنسيين . مما يؤكد لنا أن النشاط السياسى الفرنسى فى العراق كان فى مرتبة أقل لدى الفرنسيين من التنقيب عن الآثار مما اضطر فرنسا إلى تقوية تمثيلها الدبلوماسى فى العراق بعد ذلك .

وكما وقف نجيب باشا ضد نشاط رولنسون وقف نامق باشا ضد نشاط هذا القنصل وضد خلفه كمبال Kemball . ولذلك تشابهت التقارير التى كتبها كل من رولنسون وكمبال عن نجيب ونامق . ولم يتركا عملا أقدم عليه هذان الواليان إلاوانتقداه أشد انتقاد . وبرغم الضغط البريطانى المتواصل على نجيب ونامق ظلا فى الحكم مدداً طويلة . فقد حكم الأول ست سنوات والثانى مثلها تقريباً الأمر الذى يؤكد لنا أنهما حظيا برضاء الباب العالى برغم تشويه الإنجليز لسمعتيهما ، بل وقف الباب العالى إلى جانب نامق ضد رغبة الإنجليز فى زيادة عدد موظفى القنصلية البريطانية . فقد حدث أن استخدم كمبال Kemball مسيحياً يدعى ميشيل ميناس منذ ١٨٥٩ فى منصب وكيل قنصل فى بغداد . وكان قبل ذلك يشغل منصب ترجمان القنصلية ، وعرف بأنه أضر بكثير من مصالح أهل البلاد فى سبيل خدمته للقنصل البريطانى وضجر نامق من أعماله مما اضطره إلى أن يطلب من القنصل تغيير ميناس هذا برجل آخر . ولكن كمبال تمسك بميناس . وأصر نامق على تغييره ، وحتى ينفذ رأيه أبى أن يعترف به إلا كترجمان للقنصلية فقط وهو عمله الأول .

(١) Lloyd : Foundations. pp. 164-166.

ولما رفعت المشكلة إلى الباب العالى أيد الباب العالى نامق فى موقفه . ومع ذلك اضطر الباب العالى إلى أن يخضع إلى حد ما للضغط البريطانى عليه فى هذا الشأن إذ قبل بعد ذلك أن يعترف بميناس كوكيل وطنى للإنجليز Native Agent فكان هذا حلا وسطاً(١) .

الجاليات البريطانية فى العراق :

ومن مراكز إشعاع هذا النفوذ البريطانى المقيمية البريطانية فى بغداد والوكالتان البريطانيتان فى البصرة وفى الموصل . كانت مقيمية بغداد تطل على نهر دجلة . ومن أمامها رست باخرة يرفرف عليها العلم البريطانى وتطلق المدافع تحية للقنصل من وقت لآخر وعليها بحارة من السيبوى . ولقد كانت مهمة هذه الباخرة فى نشر النفوذ البريطانى لا تقل أهمية عن مهمتها فى حماية المصالح البريطانية فى العراق . وكان ذلك من العوامل التى جعلت العثمانيين يعملون على موازنة هذا النفوذ الذى تنشره الباخرة البريطانية وغيرها من البواخر بالأسلوب نفسه . فبعثوا بباخرة عثمانية رست على مقربة منها . ولكن الباخرة العثمانية لم تكن على ذلك النظام الدقيق والقيادة المحكمة اللذين كانا ملاحظين على الباخرة البريطانية(٢) .

أما حرس المقيمية من الجنود السيبوى فكانوا كذلك على نظام عسكرى دقيق ويرتدون ملابس زاهية ويقومون باستعراضات جميلة على أنغام الفرق الموسيقية الملحقة بالمقيمية فى المناسبات الوطنية والدينية . وكان رولنسون يعتقد أن الاعتماد على مشاة السيبوى لا يفى بحاجات المقيمية ونجح فى أن يستقدم من الهند قوة من الخيالة قوامها عشرون فارساً . ولكن فى ١٨٦١ — ١٨٦٢ خفضت القوة لأسباب اقتصادية(٣) .

ومع أن اتفاقية ١٦٧٥ بين الدولتين العثمانية والبريطانية كانت تنص

(١) Lorimer : opcit Vol. I, Pt. I. p. 1474.

(٢) كانت نيتوكريس هى باخرة المقيمية حتى ١٨٤٩ ومن بعدها كوميت .

(٣) Lorimer : opcit. Vol. I, Pt. I, pp. 1396.
Ussher : opcit. p. 446.

على ألا يزيد عدد خدم القناصل على عشرة فإن المقيمية كانت تضم عدداً أكثر من هذا . ومما كان يثير الهيبة والرهبة فى نفس الزوار للمقيمية تلك الحيوانات المفترسة التى روضها رولنسون وبثها فى جنبات المقيمية . فكان عند قدميه أسد رابض وفى مكان آخر نمس يملأ المقيمية بصياحه(١) .

وكان فى المقيمية طبيب خاص بها ، ولكنه كان يقوم بعلاج بعض كبار رجال البلاد مما يمنح الإنجليز فرصاً للحصول على مكاسب سياسية من وراء ذلك . وفى المقيمية كذلك عدد من السكرتيرين والتراجمة ، وهؤلاء كانوا يقومون بأعمالهم فى نظام وترتيب لم تعهده الإدارات الحكومية العثمانية فى العراق حينذاك . كما كانت مرتباتهم العالية تجعلهم يظهرون فى مستوى اقتصادى أعلى من أثرياء العراق(٢) .

وكانت الوكالة البريطانية فى كل من الموصل والبصرة صورة مصغرة من المقيمية البريطانية فى بغداد . على أن نشاط وكالة الموصل كان فى نواحى التنقيب عن الآثار وفى النواحى الاقتصادية والدينية أكثر من النواحى السياسية والاقتصادية التى كانت الشغل الشاغل للوكيل السياسى البريطانى فى البصرة .

ويرجع اهتمام الدوائر السياسية البريطانية بأن يكون لها تمثيل سياسى فى الموصل إلى فترة الصراع بين محمد على ومحمود الثانى . ولا شك أن إنشاء الوكالة البريطانية فى الموصل فى أعقاب موقعة نزيب كان مرتبطاً كل الارتباط بأحداث الشام وخطط الإنجليز ضد المصريين هناك . فقد أصبح الإنجليز فى حاجة إلى عين لهم تراقب النشاط المصرى صوب الموصل بدقة وأغلب الظن أن سقوط الموصل بسرعة فى يد يحيى الجليلى فى أعقاب استيلاء الجيش المصرى على حلب فى ١٨٣٢ كان درساً وعاه المسئولون الإنجليز . وخشوا من أن تتكرر المسألة بعد نزيب فعملوا على أن يكون تمثيلهم الدبلوماسى فى الموصل حلقة اتصال بين قناصل بريطانيا فى الشام وقناصلها فى العراق والأناضول . وكان كريستيان رسام Christian Rassam أول من

(١) Helfer : opcit. I. p. 264; Lorimer : opcit. I. Pt. I. p. 1396.

(٢) Llyod : Foundations. p. 107.

تولى وكالة الموصل (فى ديسمبر سنة ١٨٣٩)(١) .

وكانت مواهب رسام قد أعدته للقيام بالمسئوليات السياسية والثقافية والتبشيرية التى وكلت إليه . فقد كان يتقن الأدبين السريانى والكلدى وهما الشائعان لدى مسيحيى العراق حينذاك وكان مشغوفاً بالمخطوطات النادرة ومحتفظاً بأنساب العشائر العربية التى كانت تموج فى نواحى الموصل . هذا إلى أنه تزوج من السيدة بادجر Badger ذات الثقافة والنشاط الكبيرين فى سبيل نشر وتوطيد النفوذ البريطانى(٢) .

ومن أسباب نجاح رسام فى مهمته كوكيل سياسى بريطانى فى الموصل أنه كان مواطناً عثمانياً كلدياً من أهل حلب(٣) وأصبح مصطبغاً بالصبغة الإنجليزية من حيث التفكير السياسى والعاطفى والدينى إذ تحول إلى المذهب البروتستانتى(٤) . ولوحظ أن كريستيان رسام كان يقوم بأعمال تجارية خلال قيامه بمهام عمله كوكيل لبريطانيا . كان يلتزم ضريبة بعض القرى التابعة للموصل . وكان يتولى نقل متاجره على اكلاك تصنع لحسابه حتى يتجنب دفع أموال « لملتزمى المعابر »(٥) . ولذلك كان يقع بينه وبين الحكومة العثمانية الكثير من المنازعات حول ذلك ولكن لم تعترض الحكومة على قيامه بالأعمال التجارية(٦) . وظل كريستيان رسام Christian Rassam

(١) Lorimer : op. cit. Vol. I. Pt. I, p. 237.
Oppert : op. cit T. I. P. 69.

(٢) Oppert : opcit. T.I. p. 69.

(٣) تعلم رسام فى الأزهر ثم أخذه المبشرون إلى مالطة ليسهم فى ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية ثم عاد مع بعثة جسنى إلى العراق وساهم فى عمليات نقل باخرتى بعثة جسنى من شواطئ البحر المتوسط إلى بيله جك على الفرات وساهم بنصيب كبير فى تسهيل أعمال البعثة لإتقانه اللغة العربية والإنجليزية . وكان يتقن اللغة الإنجليزية أكثر من إتقانه للعربية وكوفئ فى مقابل ذلك بتعيينه فى وكالة الموصل سنة ١٨٣٩ .

(٤) Ross : Letters. pref. VIII.
Lorimer : opcit. Vol. I. part. I. p. 293.

(٥) وهو شخص يلتزم بدفع مبلغ سنوى للحكومة فى مقابل جمعه تعريفة معينة على من ينقل بضائعه عبر النهر عند حد معين .

(٦) Kemball to Alison. Feb. 3, 1858. No. 3. F.O. 78-1359 & Rassam to Canning. Aug. 2, 1852. F.O. 195-394.

يشغل منصبه فترة طويلة للغاية امتدت من ١٨٣٩ حتى توفى وهو فى منصبه فى مايو ١٨٧٢ . وبعد وفاته طلب هربرت – القنصل البريطانى العام فى بغداد – من حكومته أن تسند المنصب الشاغر إلى موظف بريطانى الأصل حتى لايتفوق القنصل الفرنسى على الممثل البريطانى فى الموصل(١) .

أما وكالة البصرة(٢) – وكانت هى الأخرى تحت إشراف الوكيل السياسى فى بغداد – فكانت تتفوق على وكالة الموصل فقط من الناحية السياسية الاقتصادية إذ كانت على اتصال اقتصادى مباشر بالهند وكانت البصرة قد أصبحت نهاية لمشروعات خطوط المواصلات العالمية عبر العراق . ويصور لنا فونتانييه Fontanier المدى الذى بلغته وكالة البصرة من أهمية ومكانة فيقول إن العلاقات بين الوكيل البريطانى والمتسلم بلغت إلى الدرجة التى أصبحت فيها شخصية الوكيل تطغى على شخصية المتسلم(٣) وأن تعيين متسلم البصرة كان يتوقف على أخذ رأى الوكيل البريطانى هناك . وساعد فى ذلك أن حجم التجارة البريطانية مع البصرة تزايد إلى درجة كبيرة . وأدت هذه المصالح التجارية البريطانية – التى استغلت ضعف الدولة إلى أبعد حد – إلى أن يعمد بعض متسلمى البصرة إلى مقاومة هذا التفوق البريطانى . وكان مما يؤلم نفس الحكام والشعب على السواء منظر السفن البريطانية وهى تمخر عباب أنهار العراق رافعة أعلامها البريطانية ويرفرف عليها الصليب ، فكان ذلك يوحى إلى الناس بأن وراء ذلك استغلالا اقتصاديا ورغبة كامنة يهدفون من ورائها إلى تنصير أهل العراق . وقد بلغ الغضب فى ١٨٤٨ من متسلم البصرة أن أنزل بالقوة العلم من إحدى السفن البريطانية ولكنه جوزى بسبب ذلك جزاء قاسياً تحت ضغط الحكومة البريطانية .

(١) Ibid Herbert to Elliot. July 3, 1822. No. 21. F.O. 195-996.

(٢) كانت تقع فى كوت الفرنجة على بعد ساعة من البصرة وهى محاطة بأسوار ولها مرسى للسفن ومخازن : سياحتنام حدود : ١٨

(٣) Fontanier opcit I. p. 170 ليس فونتانييه وحده هو الذى تحدث عن تفوق النفوذ البريطانى فى البصرة فقد تحدث غيره أيضاً عنه ولكن ليس على تلك الصورة من المبالغة التى وردت فى مؤلفات فونتانييه انظر Samuel : opcit. p. 257.

ويبدو أن خوجه برسيغ يوحنا Kohja Perseigh Johannes (الوكيل البريطانى) الذى خلف تايلور منذ نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر كان على جانب كبير من الذكاء ومن الدراية بمشكلات العراق الداخلية ويستغلها لمصلحة بريطانيا حيث كان هذا الوكيل أرمنى الأصل وظل فى منصبه حتى توفى ١٨٥١ . فخلفه جيمس روبرت تيلر James Rubert Taylor ابن القنصل البريطانى السابق فى بغداد . وكان جيمس ر. تيلر أول وكيل من أصل إنجليزى يتولى وكالة البصرة منذ استقالة مانستى Manesty فى ١٨١٠ من منصبه كوكيل سياسى بريطانى البصرة .

وكانت سيرة جيمس تيلر سواء فى البصرة أو لدى السلطات البريطانية سيئة للغاية . أما من جاء بعده من وكلاء القناصل فى البصرة فكان معظمهم مرتبطين بشركة لينش Lynch بعلاقات اقتصادية كشركاء فى هذه الشركة الهامة . ولعل هذا كان من عوامل تذليل كثير من الصعوبات التى واجهت هذه الشركة .

وفى ١٨٧٣ أصبح وكيل البصرة يسمى Assistant Political Agent وكان من قبل يسمى British Agent (١) . وتحت حماية المقيميات البريطانية قامت الجالية البريطانية بنشاط ملحوظ فى العراق فقد لعبت الجالية البريطانية فى العراق دوراً مهماً فى تقوية النفوذ البريطانى وكان على رأس الجالية البريطانية فى الأربعينات والخمسينات والستينات هنرى لايارد H. Layard وفيلكس جونز Felix Jones وآل رسام والتاجران البريطانيان روس Ross Christian and Hurmus Rassam وهكتور Hector والمؤسسات التجارية البريطانية الناشئة وعلى رأسها مؤسسة Lynch للملاحة البخارية . كان لايارد Henry Layard مغامراً بريطانياً من ذلك الطراز الذى عرفه الشرق خلال القرن التاسع عشر والعشرين . كان

(١) Fontanier: T. I. p. 185, 191 وهذا لأنه لم توجد فى بغداد مقيمية أخرى غير بريطانية إلا فى ١٨٨٠ : opcit. pp. 88, 89.

يعمل لحساب المخابرات البريطانية فى العراق وفارس وتدرج من بعد ليصبح عضواً فى البرلمان البريطانى ثم سفيراً فى الآستانة فى السبعينات . كان وصوله إلى جنوب العراق فى ١٨٤٠ فى أعقاب الحرب الفارسية — البريطانية ١٨٣٧—١٨٣٨ وتسوية الأزمة المصرية ١٨٤٠ — ١٨٤١ وأمضى فى العراق حوالى عشر سنوات بدأت فى ١٨٤٠ ، وكتب عن العراق مجموعة كتب فى الوصف العام والعلاقات السياسية والاقتصادية وأحوال الطوائف المسيحية واليزيدية والصابئة والعشائر العربية ، وخاصة شمر الجربا . ومن هذه الكتب يتضح لنا ما يلى :

١ — أن لايارد كان يختار المناطق التى كانت فيها السلطة المركزية واهية وفيها عصبيات محلية تنزع إلى الاستقلال وعلى الأقل إلى الاستقلال الذاتى . ونقصد بذلك نشاطه فى المناطق التالية :

(أ) عشائر البختيارى الفارسية .

(ب) عشائر كعب .

(ج) عشائر شمر الجربا .

(د) العشائر اليزيدية .

(هـ) وديان النساطرة .

٢ — أوضح فى كتاباته ميله القوى نحو مساعدة عشائر البختيارى على الاستقلال ، وفتح بلادهم عن طريق نهر كارون وعربستان وكعب للنشاط الاقتصادى البريطانى(١) .

٣ — كان يميل ميلا واضحاً نحو الطائفة اليزيدية ويؤازرهم فى سبيل التخلص من التزاماتهم أمام الحكومة . وكان يفتح الطريق أمامهم للاتصال المباشر بالسفير البريطانى فى الآستانة . وأصبح فعلا محبوباً جداً من زعماء العشائر اليزيدية(٢) .

(١) Layard : Early : Vol. I. pp. 455-459.

(٢) Layard : Discoveries pp. 565-566 Layard : Early. II. p. 170.

Jones : Selections p. 133.

٤ — عنى لايارد بعقد أواصر الصداقة مع صفوق شيخ عشائر شمر الجربا لحماية مواقع التنقيب التى يشرف عليها . والمعروف عن لايارد أنه اشترى بأمواله وأموال حكومته خدمات شيوخ الجبور والبوسلمان(١) . فلا نستبعد أن يعمد لايارد إلى شراء خدمات صفوق ، فى وقت كان فيه صفوق فى أحرج الظروف لا من حيث القوة المقاتلة فقط ، بل كذلك بسبب القحط الذى نشر الفقر فى عشيرته(٢) ، وكسب ثقة صفوق لم يكن هدف الإنجليز فى هذا الوقت فقط ، بل سعى جسنى قبله إلى الهدف نفسه .

كان هذا النشاط من جانب لايارد فى غضون المهمة الرئيسية التى كان يذهب من أجلها إلى العراق وهى التنقيب عن الآثار القديمة . وخلال عمليات التنقيب التى قام بها استطاع أن يعقد عملات قوية مع مجموعة من العشائر العربية(٣) . فلقد عقد لايارد صداقة قوية مع مذكور — شيخ بنى لام(٤) . وكان لايارد يكسب هذه الصداقات بسهولة لأنه كان يقدم مبالغ نقدية لهؤلاء الشيوخ . وكانت النقود عزيزة فى ذلك الوقت . إن هذه الأساليب التى اتبعها لايارد تعتبر نموذجاً لكثير من أمثاله من الإنجليز الذين ساحوا فى بلاد المشرق وعاشوا فيه لخدمة مصالح بريطانيا بصفة غير رسمية . وهؤلاء ظهروا فى الميدان السياسى على أنهم كانوا يخدمون تلك البلاد الشرقية وادعوا أنهم بذلوا الجهد والمال لصالح هذه البلاد . وساعدهم على ذلك أن الهيئات الحاكمة كانت تتودد إلى الشخصيات البريطانية لعلها تشفع لها لدى الحكومة البريطانية ، أو تؤدى لها خدمة . فأصبح العمل الميدانى بين الجماهير العربية مفتوحاً أمام هؤلاء المغامرين الأجانب .

صورة أخرى من النشاط الفردى البريطانى نجدها فى فيلكس جونز Felix Jones قائد إحدى البواخر البريطانية فى أنهار العراق . وقد استخدم رحلات باخرته ومهمته فى مسح العراق جغرافيا واجتماعيا وسيلة لعقد

(١) Layard : Discoveries pp. 78, 168-169.

(٢) Layard : Nineveh & Remains. Vol I pp. 82, 85, 87-93.

(٣) Layard : Nineveh & Remains Vol. I, p. 72-74.

(٤) Layard : Early. Vol. p. 193, 220-220.

سياسية مع شيوخ العشائر العربية . وكان الرجل ينادى بأن تتخذ الإجراءات لجلب رءوس الأموال الأجنبية وكذلك المهاجرين الأجانب لاستعمار العراق. وكان عدد آخر من ضباط البواخر البريطانية الحكومية أو التابعة لشركة لينش Lynch Co. يعملون فى الاتجاه نفسه وللأهداف نفسها(١) .

كانت الجالية الهندية فى العراق ، وخاصة فى بغداد وفى العتبات المقدسة من أدوات نشر النفوذ البريطانى وخدمته بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر . فبعضهم قدم للإنجليز خدمات كبيرة خلال الحرب الفارسية — البريطانية (٥٦ — ١٨٥٧) ومن ملوك الهند من أعطى سلاحاً خطيراً فى يد الإنجليز لنشر نفوذهم فى العراق . ومن هؤلاء ملك أوده Oude الذى توفى فى الهند فى ١٨٤٩ وأوقف مبالغ ضخمة لمجتهدى العتبات المقدسة . وأسند أمر توزيعها على مستحقيها إلى القنصل البريطانى فى بغداد الأمر الذى جعل المسئولين العثمانيين يخشون من ذلك كل الخشية . فعرضت السلطات البريطانية حلا لهذه المشكلة يقضى بأن يسافر اثنان من مجتهدى النجف إلى بومباى لتسلم الأموال ليقوموا من بعد بتوزيعها .

وحدث خلال المفاوضات العثمانية — الفارسية حول مشكلات الحدود أن أصبحت الحرب قاب قوسين أوأدنى فى إحدى مراحل هذه المفاوضات . وعلم الشيعة فى العتبات المقدسة بخطورة هذا التوتر واستعدوا للأمر وأنفقوا من وقف اوده على تسليح أنفسهم لمساعدة الشاه ضد السلطان . ولم تقع الحرب ، ولكن غضبت السلطات العثمانية من ذلك الموقف أشد الغضب واعتقدت تماماً أن وجود الأموال فى أيدى هؤلاء المتمردين هو الذى منحهم الفرصة لشهر السيف فى وجه جيش السلطان . فطالبوا القنصل البريطانى بوقف توزيع هذه المبالغ واقترح أن تعاد مهمة توزيعها إليه على اعتبار أنه أقدر المسئولين على توزيعها بحيث لا تستغل هذه المبالغ إلا للأغراض التى

(١)
Layard : Discoveries pp. 565-566.
Jones : Selections. p. 133.
Lorimer : op. cit. Vol. I. Pt. I. pp. 1403-1404.
Ussher : opcit pp. 494-495.

رصدت من أجلها وهى أغراض دينية فقط(١) .

وكانت منحة أوده توزع قبل ١٨٦٠ على هنود ومجتهدى كربلاء فقط ، ولكن منذ هذه السنة أدخل تغيير على طريقة التوزيع إذ أصبحت توزع على العتبات المقدسة (النجف وكربلاء) وعلى الكاظمية كذلك . ولهذا الغرض كلف ثلاثة موظفين لمهمة التوزيع أطلق على كل منهم اسم وكيل شرف وكان القنصل البريطانى هو الذى يعينهم . ومع هذا استمرت المشكلات تصادف القائمين على توزيعها بسبب التهافت على الحصول على الأموال وبسبب عدم وضوح وصية ملك أود نفسها(٢) .

وكان العمل على كسب ثقة طوائف العراق من الأسس السياسية التى اتبعها القناصل والوكلاء الإنجليز والفرنسيون على السواء للحصول على نفوذ فى البلاد . فقد تنافس القناصل من الدولتين تنافساً شديداً فى هذا الميدان ، ولكن الملاحظ أن التنافس الفرنسى كان مركزاً فى ميدانى التبشير والتنقيب عن الآثار بينما الإنجليز يعملون فى مجالات أخرى لم يطرقها الفرنسيون . فقد أهمل الفرنسيون المسألة الكردية ومشكلة العشائر العربية فانفرد بها الإنجليز(٣) . وسنعنى فيما يلى بالتناقض الفرنسى الإنجليزى فى ميدانى التبشير والتنقيب عن الآثار .

التبشير :

كان العراق أرضاً بكراً للنشاط التبشيرى . حقيقة بدأ الفرنسيون نشاطهم هناك منذ أوائل العهد العثمانى ، ولكنه لم يكن يلفت نظر الحكومة العثمانية ولذلك تركوا المبشرين الدومانيكانيين والكبوشيين الكاثوليك يعملون دون أن يتعرض لهم أحد . وكانت مهمة هؤلاء المبشرين الكاثوليك هى تحويل أكبر عدد من الطوائف المسيحية إلى اعتناق المذهب الكاثوليكى وأهم الطوائف المسيحية فى العراق غير الكاثوليك هى :

(١) Rawlinson to Palmerston. No. 5, Enc.l. No. 2, Feb. 2, 1852.
F.O. 195- 367. Substance to an Enclos. in deptch. No. 5. Ibid. Feb. 2. 1852
Lorimer : opcit Vol. I, Pt. I. pp. 1409-1414, 1474-1475.
(٢) Lorimer : I, Pt. I. pp. 1481-4.
(٣) انظر الفصلين الرابع والسادس .

اليعاقبة : أو السريان الغربيون : جزء تحول إلى الكاثوليكية وعرف باسم السيريان . وظل الآخر على مذهبه . وكرسيهم البطريركى فى الموصل(١).

النساطرة : ولهم بطريركيتان إحداهما فى آمد (دياربكر) Church of Amedia والثانى فى منطقة جبال طيارى . وكان للبطريك سلطات مدنية واسعة إلى جانب سلطاته الدينية . وكانت الدولة معترفة بذلك . بل كانت ترحب بهذه الأوضاع حيث إن هؤلاء البطاركة كانوا يتولون إدارة أتباعهم ويجمعون منهم الأموال الأميرية دون أن يكبدوا الدولة متاعب كثيرة وقد تحولت مجموعة منهم إلى الكاثوليكية .

الكلدان : هؤلاء خرجوا عن المذهب النسطورى . ولغتهم وطقوسهم باللغة الكلدية وهم فى نظر أوبر Oppert من أشد الطوائف المسيحية جهالة(٢).

وإلى جانب هذه الطوائف المسيحية كانت توجد مجموعات أخرى منها قليلة الشأن منها طائفة الأرمن الكاثوليك واللاتين الكاثوليك . ولقد دار التنافس بين المبشرين الإنجليز والفرنسيين حول الطوائف التى لا تدين بالكاثوليكية ، وخاصة « النساطرة والكلدان والسريان واليعاقبة » . وهذا التنافس لم يكن خالصاً لله وإنما كانت العوامل السياسية تؤجج هذا التنافس . فلا غرو أن التنافس الإنجليزى الفرنسى فى ميدان التبشير كان يزداد شدة كلما ارتفعت قيمة العراق فى المجال الدولى .

ويمكن أن يعتبر عهد المماليك فى العراق فترة انتصارات متتالية لحركة التبشير الكاثوليكى بين مختلف الطوائف المسيحية فى العراق . فقد كانت البعثة التبشيرية الكرملية – التى بدأت نشاطها منذ منتصف القرن الثامن عشر فى العراق – والبعثة التبشيرية الدومينيكانية – التى ترجع إلى

(١) Oppert : opcit. I. pp. 55, 58-59 & Fletcher : opcit. vol. I. pp. 152-154.
Quinet : opcit. vol. II. p. 770.
Badger : Nestorians. Vol. I. pp. 46-69.

(٢) Quinet : II. p. 769. & Ibid. I. pp. 344-365.
Oppert : opcit. I. p. 104.

القرن الرابع عشر – والبعثة الكبوشية فى الموصل وآسيا الصغرى كلها كانت على جانب كبير من النشاط حتى اندلعت نيران الثورة الفرنسية وما أعقبها من حروب الثورة وحروب نابليون فأهملت العناية بالحركة التبشيرية الكاثوليكية الفرنسية فى العراق وإن لم تخل المنطقة هناك من وجود مبشرين ذوى نشاط كبير مثل Pierre A. Couppric الذى توفى عام ١٨٣١م والذى جاء من بعده المبشر الفرنسى تريوش L.Trioch الخبير بأمور العراق والذى رسم فى بغداد فى ١٥ من أغسطس ١٨٣٧ وتولى منصب قنصل فرنسا فى العراق ورقى إلى منصب رئيس أساقفة Archeveque وعنى بالبعثة الكرملية فى البصرة . وكان تريوش Trtoch(١) أول رئيس أساقفة فى العراق وكان له أكبر الأثر فى إحراز انتصارات كاثوليكية كبيرة هناك عقب نكسة حروب الثورة ونابليون . إذ دخل فى الكاثوليكية عدد ليس بالقليل من النساطرة واليعاقبة والأرمن(٢) .

وقد خطا تريوش Trioch خطوات جريئة نحو السيطرة على الكلدان فقد كان من المعتاد أن ينتخب المطران الكلدى من بين قساوسة الكلدان فى العراق ، ولكن تريوش Trioch أراد أن يجعل تولية المطران من قبل بابا روما وبذلك يبسط عليهم النفوذ البابوى بقوة حتى لا تنفذ إليهم البروتستانتية . وبطريقة ما نجح فى إقناع البطريق القائم بالاستقالة واستصدر قراراً بتولية المطران يوسف من قبل بابا روما . وهنا وقع اضطراب شديد بين الكلدان . وأغلب الظن أن للإنجليز دوراً فيه . فهب البطريق المعزول معارضاً ليوسف هذا ومهاجماً فرنسا بكل قوة . ويقال إن الكلدان كتبوا إلى البابا أنه إن هو استمر فى التدخل فى شئونهم الداخلية وفى انتخاب البطريق أو إذا رفض اعتماد البطريق الذى انتخبوه فإنهم قد يلجئون إلى قطع علاقاتهم بالبابا وإلى إعلان

(١) غادر تريوش العراق فى ١٨٥٠ فى مهمة رسمية دينية ولم يعد إليه ، وتوفى فى ١٨٨٧ م.

(٢) قام بيوليه Piolet بدراسة مفصلة لمسيحيى العراق والبعثات الكاثوليكية خلال القرون التى سبقت القرن التاسع عشر ، وهو يعتبر من أهم مصادر دراسة الحركات الكاثوليكية فى العراق انظر كتابه :
La France au Dehors. Les Missions Catholiques Françaises au XIX e Sc. 2 Tomes. Paris.

جماعتهم مستقلة بنفسها . كما هددوا بأن يرفعوا أسقف دياربكر إلى كرسى المطرانية وكان هذا الأسقف من أشد أعداء تريوش .

برغم تلك التهديدات استمر تريوش Trioch فى خطته إذ كان الرجل عنيداً . فأقيم حفل تنصيب المطران يوسف سراً فى يناير ١٨٤٨ واكفهر الجو بين الكلدان والفرنسيين . ويظهر مع ذلك أن يوسف استطاع أن يفرض نفسه على الكلدان بالسياسة والتودد وشعر الإنجليز فى العراق أن الفرنسيين سيكسبون هذه الجولة فرفعوا المشكلة إلى الباب العالى . فأرسل الباب العالى وجدى باشا باسم تطبيق مبادئ التنظيمات فى الموصل لدراسة مشكلة انتخاب بطريك للنساطرة . وقد استبعد وجدى بك البطريك مار شمعون لأنه فر إلى إيران ، كما استبعد مرشحاً آخر ولم يعترف بالبطريك يوسف . ثم شرع فى إجراء مشاورات مع رجال الدين المسيحى ومع موظفى القنصلية البريطانية فى الموصل سراً دون علم الفرنسيين وأغلب الظن أن هذه السرية كانت ترجع إلى سببين رئيسيين :

١ – أن معرفة الفرنسيين بمهمته ستورطه فى مشكلات قد تصبح دولية .

٢ – عدم اعترافه بالبطريق يوسف معناه أنه أخذ جانب البريطانيين ويخشى من وقوع أزمة .

وانتهى الرجل من مشاوراته إلى العمل على إعادة انتخاب بطريق غير أولئك كلهم. وكتب وجدى باشا لأسعد باشا والى الموصل بأن يستدعى أساقفة الجزيرة وماردين وديار بكر ليطلعهم على أوامر السلطان الخاصة بانتخاب بطريق جديد وتم ذلك تحت إشراف السلطات العثمانية(١) .

ويمكن أن نفسر سياسة العثمانيين إلى رفع بطريك ثالث إلى المنصب بأنهم كانوا يعملون على سلب الفرنسيين بعض أساليبهم فى نشر المذهب الكاثوليكى . حيث إن انتشار هذا المذهب يجلب وراءه نفوذاً أوربياً خطراً على البلاد . وفى انتخاب بطريرك تحت إشراف السلطات العثمانية يكفل لها – إلى

(١) Ross : Letters From the East. 20 Mars. 1848. p. 147, 59, 135.

حد ما – تقوية قبضتها على هذه الطوائف ويثبت وجود السلطات العثمانية فى هذا المجال الدينى .

بعد رحيل تريوش عن العراق تولى المبشرون الإيطاليون الدومانيكانيون فى الموصل مهمة نشر المذهب الكاثوليكى . وكان مرسياى P. Merciai من أنشط أولئك المبشرين الناجحين خلال الفترة بين ١٨٤٠ – ١٨٥٦ م من حيث نجاحه فى إدخال عدد كبير من اليعاقبة فى الكاثوليكية (١) .

ركز مرسياى Mecriai نشاطه لا فى تحويل اليعاقبة فقط إلى الكاثوليكية ولكن كذلك فى تحويل نساطرة الشمال إليها(٢). على أن مجهودات مرسياى Merciai هذه لقيت مقاومة أشد وأعنف وذلك لأن القوى التبشيرية الأخرى تنبهت إلى خطورة النجاح الفرنسى والنجاح الكاثوليكى على وجه العموم وخيل لهم أن الكاثوليك سيبتلعون مسيحيي العراق . وقد شارك المسلمون المسيحيين فى هذه المقاومة العنيفة(٣) فكان أن فشلت المجهودات الفرنسية فى كثلكة اليعاقبة(٤) فى الوقت الذى كسبت فيه العقيدة البروتستانتية أنصاراً بين هؤلاء اليعاقبة(٥) ولعل هذه النكسة التى حدثت للقوة التبشيرية الكاثوليكية على يد القيادة الإيطالية وفتور همم المبشرين الفرنسيين من بعد تريوش هى التى أدت إلى أن تعيد الكنيسة الكاثوليكية فى روما النظر فى وسائل نشر الكاثوليكية

(١) ، (٢) وكان نشاط هؤلاء الإيطاليين قد زاد منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، إذ على يد هذه البعثة أعلن ١٧٨٠ مار يوحنا بطريق النساطرة فى ميزوبوميا – والمقيم فى القوش – نفسه كاثوليكيا وتبعه أكثر نساطرة الموصل . وفى ١٨٢٩ أنشأت روما بطريركية الكلدان لتحل محل بطريركية نساطرة العراق وكردستان. واستمرت هذه المجهودات نحو كثلكة مسيحيى العراق مستمرة خلال الفترة التى نحن بصددها .
Piolet : opcit. T. I. pp. 259-260.

(٣) Oppert, opcit, I.p. 106. فيحدثنا عن أن المسلمين هاجموا الرهبان الدومينيكان فى الموصل وهاجموا القنصل الفرنسى نفسه عندما تدخل لصالحهم . ولم ينقذ الموقف سوى تدخل الباشا . والمعروف أن بوتا Botta كان من الذين أثاروا مشكلة مفاتيح كنيسة العذراء فى بيت المقدس التى أثارت حرب القرم .
Ross · Letters fr. East. p. 24.. (Ross to Mary. 20 Oct. 1844)

(٤) From Ross to Layard. Ibid. pp. 53-54, Oppert, opcit. I. p. 55.

(٥) Fletcher : Opcit. I. p. 152-4.

فى الشرق وإعادة قوتها الفعالة إلى ما كانت عليه . إذ نلاحظ أن البابا بيوس التاسع أصدر قراراته بنقل قيادة البعثة التبشيرية الدومينيكانية فى العراق إلى دومينيكانيين فرنسيين فى ١٨٥٦ . وكذلك تنبهت الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية إلى الكرمليين فى العراق بعد أن ظلت قيادتهم مهملة من جانب سلطات فرنسا الدينية حتى ١٨٥٨ عندما عين فرنسى لقيادتهم ، وكان يتولاها من قبل رؤساء دينيون غير فرنسيين(١) .

ولقد ساعد على نمو الحركات الكاثوليكية فى فرنسا أن وكلاء فرنسا السياسيين فى بغداد أو فى البصرة أو الموصل من أمثال فيجورى وفونتانيه وبوتا وروسو Vigoureau, Botta, Rousseau, Fontanier. كانوا يركزون نشاطهم فى الميدان الدينى الكاثوليكى أكثر من تركيزهم له فى الميدان السياسى . وكان النشاط التبشيرى الفرنسى ، والكاثوليكى منه بوجه خاص ، أعرق وأوسع تنظيماً فى الشرق الأدنى من النشاط التبشيرى البروتستانتى البريطانى .

وكانت تلك الحركات التبشيرية الكاثوليكية تلقى مقاومة من الرؤساء الدينيين المحليين ، ولكنها كانت حركات مقاومة مفككة تعجز عن الوقوف على قدميها أمام البعثات التبشيرية البابوية الفخمة بما يحوطها من ألقاب ومظاهر عظمة ، ومن فتح مدارس وقراءة فى كتب مطبوعة واتصالات شاملة بين إيران وبغداد والبصرة وأرمينيا وآسيا الصغرى والآستانة وروما وباريس ومارسيليا . لذلك كانت مقاومة الزعامات الدينية المحلية تعتمد على الدفاع فقط دون أن ترد الهجوم التبشيرى التعليمى الكاثوليكى بمثله بسبب جهل رجال الدين المسيحى فى العراق إذا ما وضعوا فى مجال المقارنة مع رجال الدين الأوروبيين .

ولم تصادف الحركة الكاثوليكية مقاومة فعالة إلا عندما التفتت السلطات الدينية الإنجليزية والأمريكية إلى أهمية تحويل مسيحيي الشرق إلى المذهب البروتستانتى . وكان الوكلاء السياسيون البريطانيون هم الذين يقاومون

(١) Piolet : opcit. T. I. p. 247.

اتساع الحركة الكاثوليكية فى العراق(١) ولكن مقاومتهم كانت سلبية غير مجدية لأن مقاومة حركة دينية لا تتم غالباً بنجاح فى ذلك الوقت إلا بحركة دينية مضادة فبدأ وصول المبشرين البروتستانت الإنجليز إلى العراق فى نهاية العشرينات من القرن التاسع عشر .

لقد كان المبشرون البريطانيون — إلى جانب القناصل والسلطات البريطانية عموماً فى العراق — يثيرون مخاوف الحكومة البريطانية من احتمال سيطرة الفرنسيين على الشرق . وأن على الإنجليز أن ينشطوا فى سبيل عقد أواصر الصداقة مع مسيحيي العراق قبل أن يسبقهم الفرنسيون فى هذا المضمار(٢) فقد كانت السلطات البريطانية تعتقد — عن حق — أن كل موظف علمانى فرنسى هو مبشر كاثوليكى رومانى فى الوقت نفسه . وأن كل البعثات الكاثوليكية متمتعة بالحماية الفرنسية وأنه عندما تنهار الدولة العثمانية ستجد فرنسا من هؤلاء قوة سياسية تعينها على أن تضع يدها على أكبر رقعة من الدولة العثمانية مزاحمة بذلك بريطانيا مزاحمة خطيرة(٣) .

ولذلك بدأت البعثات التبشيرية البروتستانتية تغزو العراق منذ نهاية حكم المماليك وكانت قد أحرزت نجاحاً كبيراً فى وجه مقاومة كاثوليكية عنيفة فى الشام لدرجة أزعجت السلطات البابوية فى روما وطالبت قسسها هناك بمضاعفة المجهودات لمقاومة النشاط البروتستانتى الأنجلو — أمريكى .

وكان جروفز أول مبشر بروتستانتى يصل إلى العراق (١٨٢٩) ، وكان هذا فى نهاية حكم داود باشا فى العراق . وقام الرجل بمجهودات واسعة شملت فيما شملت البصرة وبغداد والموصل وهى معاقل الكاثوليكية فى العراق(٤) وكانت آمال هذا المبشر واسعة ، ولكن دهمته حروب داود مع السلطان وكوارث ١٨٣٠—١٨٣١ فترك العراق إلى الهند فى ١٨٣٢(٥) .

(١) Alexander : Bagdad Bygone Days p. 227.
(٢) Fletcher : opcit. Vol. I. p. 365.
(٣) انظر رحلة المبشر الإنجليزى البروتستنتى فلتشر
Fletcher : opcit. vol. I. p. 139-140.
(٤) Anderson : opcit. Vol. I. p. 367-368, 374.
(٥) Skinner: opcit. Vol. II. p; 245.

وبينما كانت بعثة جسنى تنزل دجلة كان ينزل فى البصرة من الباخرة البريطانية Highlinsday المبشر الإنجليزى صمويل Samuel . وكان نشاطه أولا فى البصرة ثم انتقل إلى بغداد وهناك كان يسير فى شوارع المدينة ويوزع كتبه المسيحية فى الأسواق ، فاستشاط المسلمون غضباً . واكفهر الجو فى بغداد فى ظروف حرجة ولذلك ساهم الإنجليز فى بغداد على إخراجه بسرعة من العراق حتى لا يثير فتنة هناك(١) فى الوقت الذى كانت فيه بعثة الفرات هناك . ومن السهل جداً أن يربط بين مجىء البعثة ومجىء المبشر صمويل وحوادث اصطدام بعثة الفرات بالمقاومة العربية فى جنوب العراق . فقد رأى الناس فى حضور المبشر صمويل وفى تحمسه الزائد فى وقت وصول بعثة الفرات جزءاً من خطة عامة نحو احتلال البلاد الإسلامية وتحويل المسلمين إلى المسيحية ولذلك أخرج صمويل من العراق بسرعة وألقيت كتبه — على قول فونتانييه — فى النهر(٢) .

وليس ربطنا الحركة التبشيرية البروتستانتية بالذات بموضوع ربط الشرق بالغرب بطريق سكة حديد أو بالبواخر من قبيل الظن والتخمين . فإن الهيئات التبشيرية فى فرنسا وبريطانيا وفى الولايات المتحدة رأت فى فتح هذا الطريق عبر العراق فتحاً جديداً أمام قواها التبشيرية لتنطلق فى تلك الميادين . فالوكيل السياسى البريطانى فى الشام المستر باركر Barker يرى فى مستقبل نهر العاص كجزء من الطريق المؤدى إلى الهند من العوامل الرئيسية لتنشيط الحركة التبشيرية البروتستانتية البريطانية والأمريكية على حد سواء(٣) .

كذلك كانت جماعة سان سيمون فى فرنسا تشجع مد خطوط المواصلات الحديدية وترى أنها من الواجبات الدينية المقدسة(٤) وظهر واضحاً من كتاب لايارد Layard أن الإنجليز كانوا يعدون العدة للقيام بنشاط

(١) إن رحلته مليئة بالنشاط الذى يقترب من الهوس أحياناً انظر كتابه :
Journal of a missionary
Fontanier : op. pp. I. pp. 155-158.
(٢) Ibid: p. 157-158.
(٣) Barker : Egypt & Syria : Vol. II. p. 283-284.
(٤) الأهرام العدد ٢٦٨٩١ السنة ٧٦ بتاريخ ٢٨ من مايو ١٩٦٠ .

تبشيرى واسع النطاق عن طريق فتح العراق فى الوقت نفسه الذى كان فيه المبشر الإنجليزى البروتستانتى صمويل يقوم بمجهوداته فى البصرة ، وفى بغداد ثم فى المحمرة وبوشير كان المبشر الأمريكى البروتستانتى جرانت فى طريقه إلى العراق من الولايات المتحدة فوصل العراق فى صيف ١٨٣٩ وكان يعتقد أن العمل التبشيرى فى العراق سيكون أنجح منه فى إيران وأنه مكمل للنشاط التبشيرى الأمريكى بين نساطرة إيران(١) فقد كان هدف جرانت هو تحويل نساطرة العراق إلى البروتستانتية(٢) .

وقد ذهب جرانت أولا إلى ماردين وهناك وجد الشعب الماردينى وقد ملأ الغيظ قلبه ضد البعثة التبشيرية الأمريكية التى كانت قد استقرت بينه وهاجموا مقرها . ففضل جرانت أن يترك المدينة إلى ديار بكر حيث وجد روح العداء للأوروبيين لا تقل شدة عما صادفه فى ماردين ويرجع ذلك على حد قول جرانت نفسه إلى أن المسلمين كانوا يعتقدون تمام الاعتقاد أن كارثة نزيب لم تقع إلا بسبب النظم الأوروبية التى سار عليها العثمانيون فى الجيش وفى الملبس . وكان الاعتقاد السائد أن الأوروبيين لا يسعون إلا إلى أن يفنى المسلمون بعضهم بعضاً حتى يسود الأوروبيون بلاد الشرق الإسلامى (يوليو ١٨٣٩) وبسبب ذلك الموقف المضطرب المنذر بالخطر ترك جرانت ديار بكر وذهب إلى الموصل حيث وجد النساطرة هناك قد تحولوا فعلا إلى الكاثوليكية وكان لهم « بطريق » مستقر فى بغداد ولهم دير مشهور هو دير الربان هرموز(٣) .

وسعى جرانت من بعد ذلك إلى أولئك النساطرة الذين لم يتحولوا بعد إلى الكاثوليكية وهم نساطرة الجبال الكردية فى بلاد طيارى وتكوما Tkoma ليعمل على تحويلهم إلى المذهب البروتستانتى .

رأى جرانت فى نساطرة طيارى الميدان الذى يستطيع أن يعمل فيه ، فقام بينهم واعظاً وطبيباً يداوى المرضى وطلب منه قساوسة النساطرة أن

(١) Southgate : opcit. I. p. 288-9 & Grant : Nestorians p. 3-19.
(٢) Ibid: pp. 20-21, 22-28-0 Grant : opcit. p. 22.
(٣) Ibid: p. 38, 46-47. 7.

يبنى لهم مدرسة لتعليم الشعب وكانت العاطفة الدينية قد ربطت بقوة بين البطريق وجرانت وأخذ البطريق يستفسر عن الأسباب التى تؤخر احتلال أوروبا للدولة العثمانية(١). واشتدت قوة النساطرة كلما اتجهت آمالهم إلى قرب احتلال أوروبى للدولة العثمانية، وكان وصول جرانت بين نساطرة الطيارى السبب الرئيسى فى تحول هؤلاء من الدفاع عن أنفسهم ضد الأكراد إلى الهجوم عليهم . فيحدثنا أحد الرحالة أن هؤلاء النساطرة شمخوا بأنوفهم بسبب تحريض الأوروبيين لهم بأن يستقلوا عن الدولة العثمانية استقلالا تاماً . وأن النساطرة قبل ذلك كانوا يعيشون فى هدوء تحت حماية الكرد فى مقابل دفع جزية سنوية(٢). وبدأ مارشمعون بطريق النساطرة يلعب بالأسرات الكردية الحاكمة فى تلك المنطقة وعندما شعر بقوته نفض الولاء لنور الله بك أمير حكارى واتخذ بعض الخطوات نحو الاستقلال بشعبه(٣) ثم عمد إلى الاتصال بسليمان بك عدو نور الله . وفاتح مارشمعون سليمان بك فى أن يعملا معاً على القضاء على نور الله بك على أساس أن يوافق على استقلال النساطرة . وكان سليمان بك من أولئك الذين يقبلون أى شروط يمكن أن ترفعه إلى منصب الإمارة . واستطاع سليمان بك من جانبه أن يجتذب عدداً من الأكراد وفى هذه الظروف أقدم جرانت على عمل جد خطير فى مخبره وبسيط فى مظهره فقد كان الرجل يبنى مركزاً تبشيريا فى قرية نسطورية وليس فى هذا ما يثير ، ولكن كلما ارتفع البناء ارتفعت الشكوك والمخاوف من هذا المركز . إذ كان يظهر يوما بعد يوم على أنه سيصبح قلعة لا بيتاً لله فجداره سميك وأسواره عالية سميكة ، والمخازن كثيرة ، والفناء متسع وفوق هذا وذاك بنى فى الأسوار مزاغل لتحتمى وراءها فرق لإطلاق نيران البنادق . فانزعج نور الله بك من هذا البناء أكثر من انزعاجه من ثورة النساطرة عليه إذ رأى فى بناء تلك القلعة خطوة فعلية نحو سيطرة الأوروبيين على البلاد(٤) .

(١) Layard : Nineveh & Remains. Vol. I. pp. 173-240.

(٢) X.H. De Hell : Voyage : Vol. II. pp. 23-24.

(٣) From Ross to Mary. 19 Nov. 1847.
(Letters from the East. pp. 64-66).

(٤) Ross : Letters fr. the East. pp. 65-66, 89.

وقرر نور الله أن يخوض الحرب ضد النساطرة ، ولكن خشى نور الله بك من أن يفشل أمام النساطرة فتكون طامة على إمارته ونهاية لها . ولذلك طلب معاونة أمير بوتان – بدر خان بك – وهو الزعيم الكردى النشط فى ذلك الوقت والذى اتسعت أملاكه خلال الثلاثينات(١) . لم يتوان بدر خان بك عن اتخاذ الخطوات السياسية والعسكرية التى تمهد لضرب النساطرة . فطلب من والى الموصل (محمد أينجه بيرقدار باشا) – وهو المنوط بتلك الأقاليم – أن يتولى هو تأديب هؤلاء الخارجين عن سلطة الدولة . فوافق محمد باشا على أن يقوم بدر خان بالمهمة . ويقول روس Ross إن محمد باشا لم يمنح موافقته هذه إلا ليضرب عصفورين بحجر واحد . فقد كان النساطرة خطراً يهدد سيادته ومكانته ويهدد المسلمين يجب القضاء عليه ، كما كانت خطة محمد اينجه بيرقدار التى سار عليها فى ولايته فى الموصل هى القضاء على الأمراء الأكراد أينما كانوا ، وكان بدر خان أميراً ناشئاً وخطيراً على مستقبل ولاية الموصل . فإذا ما نزل فى معركة كبيرة ضد النساطرة وهنت قوى الطرفين وأمكن لوالى الموصل من بعد ذلك أن يسيطر على الإمارة البوتانية وعلى النساطرة فى آن واحد(٢) .

زحفت قوات بدر خان إلى بلاد الطيارى ولم تكد تنزل قوات بدر خان أراضى الطيارى حتى أصيبت القوات النسطورية بتفكك شديد وفر مارشمعون من بلاده تاركاً القيادة لمن يريدها كما أنه وضع نفسه تحت الحماية البريطانية بينما نكل بدر خان بالنساطرة وقتل وأسر عدداً ليس بالقليل منهم(٣).

وبغض النظر عن تفاصيل المعارك التى دارت والتى كانت تنتهى بتغلب القوات الكردية وإسالة دماء المقاومة النسطورية فى طيارى فمما لا شك فيه أن الانتصار الكردى كان سهلا وسريعاً وكانت الخسائر مروعة .

(١) Ross to Mary : 19 Oct. 1847. Ross : Letters. p. 66.

(٢) Ross to Mary : 19 Oct. 1847. Ross : Letters. p. 66.

(٣) والواقع أن الدور الذى لعبه بيرقدار فى هجوم بدرخان على النساطره لايزال غامضاً
Rassam to Taylor: Aug. 3, 1843. (Pol. & Sec. Dept. Ross; Letrs. fr. Per. G., Vol. 13. pp. 207-213-Rassam to Taylor Aug. 3, 1843. Pol. & Sec. Dept. Ross: Letters. fr. Per. G.V. 13. Ross : To Layard : Ibid. pp. 53-54.

ولم يكتف بدر خان ونور الله بتلك الانتصارات ، بل عزما على أن ينزلا بنساطرة تكوماً Tkoma مثل ما نزل بنساطرة طيارى ، ويقول لايارد إن نساطرة تكوما وقد أحدق بهم الخطر استنجدوا بباشا الموصل والظاهر أنه لم يفعل شيئاً . وترك الكرد فى عملياتهم الاجتياحية فى تكوما وفى طيارى فأخذوا يستولون على أموال المسيحيين ، بل إنهم أخذوا أعداداً كبيرة منهم من طيارى ومن تكوما أسارى رجالا ونساء وأطفالاً (١). وهنا يجب أن نقرر أنه لم تحدث للمسيحيين مذابح فى العراق من قبل . والسبب الرئيسى فى العنف الذى تميز به إخضاع النساطرة هو التدخل الأوروبى فى تلك الجهات. هذا التدخل الأوروبى هو الذى جلب على هذه الطوائف المسيحية سخط المسلمين .

وعلى أى حال ، ضجت الأوساط الأوروبية فى العراق لتلك النكبة التى حلت بالنساطرة ورفعت التقارير السريعة إلى ستراتفورد ردكليف سفير بريطانيا لدى السلطان ، تصف ما وقع للنساطرة ، ولا شك أن التقارير بالغت كثيراً فى إعداد القتلى والأسرى . فكان أن اتسعت المشكلة لدى الباب العالى لأن سفير بريطانيا لم يكن وحده الذى احتج على تلك النكبة وإنما أيده فى احتجاجه هذا سفراء الدول الكبرى فى الآستانة . فقرر الباب العالى أن يعزل بدرخان وصدرت الأوامر بالزحف عليه إن هو رفض قبول الأوامر السلطانية ولكنه تمسك بإمارته .

وعندما احتشدت القوات العثمانية لإرغام بدر خان بك على ترك إمارته لتحكم حكماً مباشراً من قبل السلطان انضم نور الله بك إلى العثمانيين ضد حليفه معلناً ولاءه للسلطان واستعداده لتقديم المساعدات العسكرية للجيش العثمانى الزاحف على « بدر خان » وقذف بكل قواته ليقطع خطوط تقهقر بدر خان صوب إيران ، فكان هذا بالإضافة إلى رفض إيران قبوله لاجئاً من العوامل الرئيسية التى أدت إلى وقوع بدر خان فى قبضة الجيش العثمانى . على أن نور الله بك لم يلبث أن وقع فى قبضة العثمانيين ونفى هو الآخر (٢).

---

(١) Hell : Voyage en Turquie I. II. p. 24.

(٢) From Ross to Mary. Oct. 19. 1847. Ross Letters: pp. 68-69,52-53,46, 49, 38, 83 Layard : Nineveh & Remains Vol. I. pp. 238-239. Layard : Discanens p. 383.

لم يكتف ستراتفورد ردكليف بذلك ، بل بعث المستر R. Stevens – قنصل بريطانيا فى ساموس – إلى العراق ، وأرسل الباب العالى معه شاكر بك ليقوما بدراسة مشكلة النساطرة فى الموصل وفى بغداد والعمل على فك أسر النساطرة الذين لا يزالون فى قبضة الكرد . ويبدو أن ستيفنز Stevens هدد باستخدام بريطانيا للقوة المسلحة إذا ما وقف الكرد فى وجه مهمته التفتيشية بين القرى بحثاً عن الأسرى النساطرة فلا غرو أن كتب بعد ذلك العالم الأثرى البريطانى المستر Budge أن النساطرة يحبون بريطانيا والكنيسة البريطانية وأن يكون لدى رئيس أساقفة كنتربرى الرغبة فى أن يمد الكنيسة النسطورية بالمساعدات المادية .

والواقع أن النكبة كانت من الناحية الاقتصادية شديدة عليهم وأغلب الظن أن هجرات النساطرة من بعد ذلك إلى الموصل بحثاً وراء العمل كان يرجع إلى ما أصاب بلادهم من تخريب ودمار(١)

كما أن بعض النساطرة فى العراق فر إلى فارس ليعيش مع النساطرة هناك ، على أن الضغط عليهم من جانب الكرد استمر حتى بعد تدخل جيوش السلطان لحمايتهم ، ولعل ترحيب البعثات التبشيرية – وخاصة الأمريكية منها – بالفارين إلى إيران كان من العوامل التى شجعت على فرار النساطرة إلى فارس(٢)

فمن بعد مذابح النساطرة تلك عنيت الجمعيات التبشيرية بتلك المنطقة وخاصة الجمعيات التبشيرية البروتستانتية الإنجليزية والأمريكية . فبعثت الهيئات الإنجليزية بالمستر بوين Bowen ليدرس أحوال الكنيسة الشرقية فى يونيو ١٨٥٠(٣). كما بعثت الهيئات التبشيرية الأمريكية بالمستر بركنز Perkins

---

(١) Ross : Letters. pp. 38, 83; Bndge By Nile. II. pp. 248-249. Walpole : op.cit. Vol. II. pp. 6-8. Jones : Selections pp. 6-8.

(٢) Southgate : op.cit. Vol. I. pp. 288-289. Layard : Discoveries. p. 374-375.

(٣) Layard : Discoveries. p. 364, 407.

إلى آسيا الصغرى والموصل وعينتاب(١) وكذلك بالمبشر الأمريكى فورد Ford إلى الموصل. وزاد هذا النشاط البروتستانتى بعد أن نجح ستراتفورد ردكليف فى ١٨٤٨ فى أن ستصدر فرماناً باعتبار البروتستانت جماعة قائمة بنفسها مستقلة عن بقية الجماعات المسيحية الأخرى(٢) .

كذلك عنيت هذه البعثات التبشيرية الأمريكية بالكلد وفتحت المدارس لتعليمهم كما أحضرت لهم مطبعة طبعت كتباً تعليمية دينية بلغتهم الكلدية(٣) .

على أن السلطات العثمانية من جانبها قامت أيضاً بحماية المسيحيين فى العراق (١٨٤٧) وخاصة عندما اشتدت الأزمة فى الشام وروعت دمشق وحلب بالمذابح المشهورة التى وقعت بها فيحدثنا أوبر Oppert عن أن باشوات ديار بكر والموصل حالوا دون اعتداء الكرد على المسيحيين عند ما جاءت أنباء مذابح حلب ، وأن أسعد باشا والى ديار بكر جمع الزعماء الأكراد وهددهم بالإعدام إن تحرك كردى واحد ضد المسيحيين. ولا شك أن هذا الموقف كان له أثره على الأكراد التابعين للعراق لأنه لم يحدث أى تحرش بالمسيحيين هناك ١٨٥٢(٤) .

وعند ما وقعت حوادث الستين أصدر السلطان أمراً عاماً إلى ولاة كردستان والموصل وبغداد وغيرها من ولايات الدولة الشرقية فى ذى الحجة ١٢٧٦ — يوليو ١٨٦٠ بأن يتخذوا فى الحال الإجراءات الكفيلة بمنع وقوع أية حادثة تعكر صفو العلاقات بين المسيحيين والمسلمين وأعطوا للولاة حق تجنيد ما يكفى من القوات المحلية لمواجهة الموقف دون استئذان فى العدد

---

(١) Ibid : 238,406.

(٢) Layard : Early: Vol. I. PP. 326-327 & Layard: Discoveries pp. 406, 434 ·Ussher : opcit. p 396.

واهتمت هذه البعثات التبشيرية الأمريكية بالموصل فأقام فيها المبشر الأمريكى الدكتور حزقيل وزوجته حيث شيدا مدرسة ثم غادرا المدينة بعد بنائها وتركاها فى عهدة قسيس من أولئك الذين تحولوا إلى الكنيسة المصلحة Reformed Church فى ديسمبر ١٨٦٤ .

(٣) Layard : Nineveh & its Remains Vol. I p. 268.

(٤) Oppert : op.cit. Vol. I. p. 54.

اللازم(١)، وهذا إجراء فى الواقع اعتقد أنه كان من العوامل الرئيسية التى وضعت حداً لانتشار المذابح فى الولايات العثمانية . وفعلاً لم تقع حوادث فى البلاد العراقية .

والحق أن المسيحيين فى العراق تمتعوا بمعاملة أحسن بكثير من أى معاملة عوملوا بها فى أية ولاية من ولاياتالدولة العثمانية فيما عدا مصر . كان التعصب موجوداً ، ولكنه لم يكن خطراً ولايدانى تلك الأوضاع التى أصبحت ولايات الشام تعانيها منذالانسحاب المصرى . والمسيحيون منجانبهم كانوا يتمتعون هم واليهود بامتيازات لم يتمتع بها أبداً إخوانهم فى الدين فى الولايات العثمانية الأخرى فالضريبة الوحيدة المفروضة عليهم هى ضريبة « الخراج » السنوية التى لا يدفعها إلا الذكور البالغون . هذه الضريبة أعفتهم من الأعباء الأخرى وحتى إننا نستطيع أن نقول إن الأعباء التى كانت ملقاة على كاهل المسلمين كانت أضعاف ما كان ملقى على كاهل المسيحيين لا من حيث الجندية فقط ، بل من حيث الضرائب كذلك(٢) .

وننقل هنا كذلك ماكتبه Oppert العالم الأثرى الفرنسى — الذى عاش فترة غير قصيرة فى العراق فى الخمسينات — عن الحرية الدينية فى العراق فيقول : « ليست هناك بلاد أخرى تتمتع فيها العقيدة الكاثوليكية بمثل ما تتمتع به فى بلاد الدولة العثمانية الآسيوية » وقد بين أنه لا توجد هناك أى قوانين تحد من القيام بالطقوس الدينية أو تهدد ممتلكات الكنيسة وأنه ليس فى بغداد اضطهاد دينى(٣). كذلك يقول فلتشر إنه تحت حكم محمد اينجه

---

(١) نقلا عن مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان ج ٢ : ١٢٧٦–١٧٧ .

(٢) Jones : Selections. p. 361. & Lorimer, op.cit. Vol. I.pt. Ip. 1369-1370.

ويجدر هنا أن ننقل ما جاء فى رسالة مصطفى فاضل باشا إلى السلطان عبد العزيز « يظن الأوروبيون أن المسيحيين هم الذين اختصوا فى الدولة العلية بالظلم والهوان .. إن بعض الظن إثم. فالمسلمون لايجدون من ينصرهم من دولالغرب أشد الاماً وأتعس حالا،والواقع أن الأمر كان أكثر منهذا . كان حرماناً سياسياً للمسيحى وحرية وامتيازات اجتماعية واقتصادية واسعة. أما المسلم فلا هذا ولا ذاك باستثناء المجموعة الارستقراطية التركية » : من أمير إلى سلطان : ٧–٨.

(٣) Oppert. oc.pit. T. I. p. 104.

بيرقدار فى الموصل عاش المسيحى إلى جوار المسلم فى هدوء(١) ، هذا فضلاً عن النشاط التجارى الكبير الذى كان يقوم به المسيحيون .

ولقد ساهم مسيحيو العراق على اختلاف طوائفهم فى النهضة الأدبية فى العراق ، ومن أولئك الذين كان لهم نصيب وافر فى هذا الميدان البطريق السريانى اغناطيوس ميخائيل جبروه المتوفى ١٨٠٠ م والبطريق الكلدانى يوحنا هرمزد المتوفى ١٨٣٨ م والأب الكلدانى دنبو المتوفى ١٨٣٢ والبطريق الكلدانى أود المتوفى ١٨٧٨ م وغيرهم(٢) وأقليميس يوسف داود الذى ولد فى الموصل وتعلم فى بيروت وأتم دراسته فى روما وعاد كاهناً إلى الموصل ١٨٥٥ وكان أول من زود العراق بالمصنفات المدرسية فى النحو والعروض والخطابة والمواد الاجتماعية والأدب(٣) .

وكان يهود العراق مجالاً للتنافس البريطانى الفرنسى السياسى والتبشيرى على السواء . حقيقة لقى اليهود بعض الضغط فى العراق ، ولكن ذلك كان نتيجة لسوء سلوكهم وكثرة تآمرهم على الولاة خاصة فى عهد المماليك . فقد دبروا مؤامرة أظهرت سعيد باشا والى بغداد (١٨١٣–١٨١٦) على أنه خارج على السلطان . وتحالفوا مع الوكيل السياسى فى بغداد ك . ريتش Rich ضد داود والى بغداد (١٨١٧–١٨٣١)(٤) .

ونظراً لذلك التنافس الشديد الذى كان بين القنصل الفرنسى فونتانييه وممثل بريطانيا فى العراق سعى فونتانييه إلى أن يخوض ضد الإنجليز حرباً لجمع الأتباع وبسط الحماية على أكبر عدد ممكن من اليهود(٥) (أواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر) .

(١) Fletcher : II. p. 50.

(٢) الأب لويس شيخو : الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ج ١ : ٥–٦، ٧٤–٧٥ ج ٢ : ٦٢–٦٣ وتاريخ نصارى العراق : ١٤٣ .

(٣) الأب لويس شيخو : الآداب العربية : ج ٢ : ١٠٧–١٠٨ ، تاريخ نصارى العراق ١٤٨ .

(٤) درسنا ذلك بالتفصيل فى رسالتنا كتابنا « داود باشا » .

(٥) بسط فونتانييه الحماية الفرنسية على عدد من الصابئة على حد قوله هو : انظر Fontanier: opcit. T.I.p. 201-202, 270

وكان اليهود يرحبون بأن يكونوا تحت حماية أية دولة أوروبية حتى يحصلوا على امتيازات أكثر وحتى تكون أمامهم فرص أوسع للإثراء وخاصة أنهم على دراية بأمور العراق وأهله . ولذلك كان من السهل على فونتانييه أن يجد من اليهود من يدخل تحت حمايته ليثبت للإنجليز أن الفرنسيين مرغوب فيهم فى العراق مثلهم مثل الإنجليز تماماً وأن الفرنسيين يستطيعون أن يفرضوا الحماية وأن يجمعوا حولهم الأتباع(١) .

وهدأت المنافسة الفرنسية فى ميدان كسب الأعوان من اليهود بسبب رحيل فونتانييه عن العراق بينما نشطت المجهودات البريطانية من بعد ذلك ولكن بصورة جديدة لم يسبق لها مثيل فى العراق . فقد بدأت عملية تبشير بين اليهود تولتها جمعيات بروتستانتية . وأخذت هذه الجمعيات التبشيرية ترسل المبشرين إلى يهود العراق .

وقد أسندت هذه المهمة أول ما أسندت إلى المبشر الإنجليزى البروتستانتى صمويل Samuel الذى تحول عن اليهودية إلى المسيحية . ونزل فى البصرة فى ١٨٣٦ واصطدم مع كبار رجال الدين اليهودى فيها فى عنف . إذ كان الرجل عنيداً ويريد أن يجادل اليهود فى عقر سيناجوجهم فى البصرة . ولكن اليهود أوصدوا الباب فى وجهه ثم هزئوا منه وآذوه حتى اضطر إلى أن يترك البصرة إلى بغداد . وهناك لقى الرجل من اليهود أكثر مما لقيه منهم فى البصرة . فبعد أن قام بالوعظ فى السيناجوج اليهودى فى بغداد علم الباشا أن اليهود يضمرون القضاء عليه وقامت فتنة شديدة فى بغداد ففضل الباشا إبعاد الرجل عن بغداد إلى البصرة على أن يخرج من العراق بسرعة . كما أن متسلم البصرة أصدر أمراً بعدم التحدث مع صمويل إطلاقاً(٢) .

ومع فشل مجهودات صمويل بين يهود العراق استمرت هذه المحاولات وتولى المهمة بعده فى بغداد عدد من البولنديين الذين تحولوا من اليهودية

(١) Ibid : I. p. 201-212.

(٢) Fontanier: opcit. Vol. I. pp. 339-340.
Samuel: opcit. pp. 231,-245, 260-261, 306-309.

إلى المسيحية وكانوا ينالون تشجيع الإنجليز فى العراق . ولكن Ussher الذى زار العراق فى ١٨٦٤ يحدثنا أنه ذهب لزيارة المنزل الذى يشغله المبشرون من جمعية المتحولين اليهود(١). إن هذه الجمعية نمت إلى الدرجة التى أصبحت فيها جديرة بأن تكون كنيسة(٢)، الأمر الذى يجعلنا نعتقد أن التبشير بين اليهود أحرز بعض النجاح .

ولقد كانت طائفة الصابئة(٣) — مثل اليهود — مجالاً للتنافس الإنجليزى الفرنسى أيضاً ، وخاصة عند مجىء بعثة جسنى التى كانت من العوامل الرئيسية التى نبهت أذهان أوربا إلى الصابئة . فقد كتب عنهم جسنى Chesney فى مؤلفاته(٤) . وأخذ الأفراد يتوافدون على الصابئين لدراسة أحوالهم . كما أخذت المجهودات السياسية البريطانية منذ ذلك الوقت تسعى إلى كسب الصابئة إلى جانب بريطانيا شأنها فى ذلك شأن السياسة البريطانية إزاء طوائف الدولة العثمانية على وجه العموم .

وكان من الطبيعى أن ينافس فونتانييه Fontanier غريمه تايلور فى هذا الميدان أيضاً، ولذلك نجده يسعى إلى أن يبسط حمايته على بعض هؤلاء الصابئة(٥) . على أن هذه المنافسة كانت مؤقتة بينما استمر الإنجليز على

---

(١) Society of the conversion of the Jews.

(٢) Ussker, opcit. p. 442.

(٣) وهم أقرب طوائف العراق للمسيحية . ويعتقدون أن سيدنا عيسى خليفة يوحنا المعمدان ويوحنا هو نبيهم . واشتهروا بمهارتهم فى صناعة الميناء والحلى .

(٤) من أولئك الذين عنوا بدراسة أمورهم :
١ — هنرى لايارد H. Layard
٢ — بترمان Peterman الذى أقام بينهم فترة من الزمان فى منتصف القرن التاسع عشر .
٣ — لوفتس Loftus عضو بعثة تحديد الحدود الإيرانية — العثمانية .
٤ — وليام اف قارص رئيس بعثة تحديد الحدود الإيرانية — العثمانية . ويقال إنه استصدر فرماناً من شاه إيران يعطيه حق حمايتهم .
٥ — وقد عنى روبرت تايلور R. Taylor — الوكيل السياسى البريطانى فى بغداد خلال الثلاثينات — بدراسة أحوالهم الاجتماعية ولغتهم ودرس كتبهم وتاريخهم. انظر كتابى جسنى Chesney : Expeditions. & Narrative

(٥) Fontanier : opcit. I.p. 270.

اتصالهم بالصابئة فى عربستان وفى العراق على حد سواء . فيقول لنا لايارد إن الصابئين كتبوا له شاكين طالبين من ملكة بريطانيا حمايتهم مما ينزل بهم من عذاب . ولا شك أن هذه الشكوى على تلك الصورة لم تقدم إلا بإيعاز من لايارد بالذات . وقدمت هذه الشكوى إلى ستراتفورد كاننج — سفير بريطانيا فى الآستانة — ثم رفعت هذه الشكوى إلى أبردين Aberdeen لترفع من بعد ذلك إلى بلاط الملكة(١) . وبعد ذلك بعدة سنوات استصدر فرماناً بحمايتهم(٢) .

كان طبيعياً أن تزداد علاقة الصابئة بالإنجليز بمرور الوقت . وفى منتصف القرن التاسع عشر وفى النصف الثانى منه ظهرت شخصية يحيى شيخ الصابئة الميال تماماً إلى الأوربيين بصفة عامة والإنجليز بصفة خاصة(٣) . فذهب إلى الهند ، وبعد عودته أكثر من الاتصال برجال الدين والمبشرين الكاثوليك والأنجليكان . وأدى ذلك إلى حدوث تصدع بين رجال الدين الصابئى . إذ عاب عليه عدد من الشيوخ وعلى رأسهم داموق Damouk وداود تلك الاتصالات . وكان من الطبيعى أن يستند داموق وزميله إلى الحكام العثمانيين الذين كانوا يعملون فى ذلك الوقت على وضع حد للنفوذ البريطانى المتزايد بين الطوائف . رد يحيى على ذلك بأن خفض رسوم التعميد والزواج وغيرها من الرسوم الدينية(٤) ليكسب الشعب إلى جانبه . أما داموق وزميله فحضا مراد أفندى قائمقام كوت العمارة على نفيه . وفعلا نفاه إلى سوق الشيوخ (أوائل ١٨٦٧) ومع أن نامق باشا — والى بغداد — عفا عنه إلا أن مركزه كان قد ضعف أمام خصميه(٥) .

وبرغم هذه المجهودات السياسية والتبشيرية — وخاصة تلك التى قام بها قساوسة الموصل والرهبان البروتستانت خلال القرن التاسع عشر — فإنهم

---

(١) Layard : Early. Vol. II. pp. 170-171.

(٢) Ibid : Vol. II. pp. 170, 171, 177, 357, 358.

(٣) Herbert to Elliot No. 40. Aug. 19. 1823. F.O. 195-1030.

(٤) خفض رسوم الزواج من ٥٥ شاميا إلى ٣٠ شاميا فقط .

(٥) Lycklama Nijholt : opcit. III. p. 236-238.

لم يتركوا أثراً محسوساً فى العقائد الصابئية وظل الصابئون متمسكين بمذهبهم إلى وقتنا هذا .

التنقيب عن الآثار :

تسابق الإنجليز والفرنسيون كذلك فى البحث والكشف عن الآثار تسابقاً لا يقل أهمية عن تنافسهم فى ميدان التبشير . ويرجع الفضل إلى ك.ج. ريتش Rich فى توجيه أنظار المهتمين بالآثار والتاريخ إلى كنوز العراق وإيران المدفونة تحت رمالها . وكان هذا فى أعقاب نقل مجموعته الأثرية إلى المتحف البريطانى فى ١٨٢٥ م واستطاع من بعد هذا المستر جروتفند Grotefend أن يضع ألف باء أشورية وتمكن هنرى رولنسون H.G. Rawlinson من متابعة هذه الدراسة وسنحت له فرصة طيبة خلال عمله فى القوات المسلحة البريطانية فى الخليج العربى فى أن يقوم بدراسة آثار برسيبوليس(١). وفى صيف ١٨٤٠ وصل إلى العراق هنرى لايارد(٢) فى رحلته المشهورة إلى إيران وكان من أهدافها الكشف عن الآثار وهناك التقى ببعثة فرنسية تضم الفنان الفرنسى المصور فلاندان Flandin ومساعده كوسته Coste وكانت البعثة تقوم بدراسات أثرية بتكليف من الحكومة الفرنسية(٣) . وهناك بدأ أول صدام بين رجال الآثار الفرنسيين والإنجليز فقد شك كل من الطرفين الفرنسى والبريطانى فى أن بعثات التنقيب عن الآثار لم تكن للعلم . وأخذ كل يدس للآخر مما اضطر لايارد إلى أن يترك المكان للفرنسيين ويعود إلى بغداد فى صيف ١٨٤١ .

وقد أدى هذا التنافس بين الأثريين البريطانيين والفرنسيين وما ذاع فى أوروبا عن الثروات الأثرية الضخمة المدفونة إلى أن تجد فرنسا فى ميدان الآثار والكشف عنها مجالاً جديداً للمنافسة العلمية لبريطانيا، وهذا فى حقيقة الأمر صورة من صور الصراع السياسى بينهما(٤) .

(١) Llyod : Fundation p. 91.
(٢) Ibid: p. 110.
(٣) Ibid: pp. 113.
(٤) Ibid: pp. 115-116.

وقدرت هيئات فرنسا العلمية والسياسية أهمية التوسع فى عمليات التنقيب عن الآثار فى العراق فأنشأت الحكومة الفرنسية قنصلية لها فى الموصل واختارت لها ب . بوتا P. Botta العالم الأثرى المعروف (١٨٤٢)(١) .

فكان من الطبيعى أن يقع الصدام بين لايارد وبوتا وأن يدس كل منهما للآخر لدى السلطات العثمانية . وانتقلت المنازعات بين لايارد وبوتا Botta إلى محاكم الموصل فى ١٨٤٧ حول تحديد المنطقة التى يجب أن يعمل كل منهما فيها(٢). وزاد نشاط لايارد فى عمليات التنقيب عندما قرر المتحف البريطانى أن يعطيه منحة تساعده على التنقيب(٣) .

وظهر فى أوائل الخمسينات نشاط بريطانى فى ميدان التنقيب فى جنوب العراق فى منطقة بابل وتولى العمل فيها « لوفتس Loftus » . ولم يكن لوفتس موفداً فى مهمة للتنقيب وإنما كان عضواً فى لجنة الحدود العثمانية الفارسية . فترك أعضاء اللجنة يرحلون إلى مناطق الحدود وذهب هو إلى مناطق الآثار فى منطقة بابل المشهورة . ولما التقى لوفتس برئيس لجنة تحديد الحدود وهو الكولونيل وليامز Col. Williams عرض عليه لوفتس ضرورة القيام بالتنقيب فى منطقة « ورقه » الأثرية على أن ينفق على هذه العمليات من خزانة اللجنة البريطانية لتحديد الحدود . فوافق وليامز على ذلك . وشرع لوفتس فى التنقيب . وكان يساعده فى هذه العمليات كيرلينش Kerr Lynch أحد أصحاب شركة لينش للملاحة البخارية . وكان هدف هذه العمليات هو نفسه هدف لايارد من قبل وهو العثور على أكبر كمية من الآثار بأقل المصاريف وبأسرع وقت (٤) .

(١) هو ابن مؤرخ فرنسى ، صاحب محمد على باشا فى رحلته إلى السودان ، وعين قنصلا فى الإسكندرية ومنها قام برحلة إلى اليمن ، ثم توجه إلى مقر عمله الجديد فى الموصل (صيف ١٨٤٢) ثم عين قنصلا عاماً فى بغداد ١٨٥٢ ثم قنصلا فى بيت المقدس فى طرابلس ١٨٥٧ وتوفى عن خمسة وستين عاماً فى ١٨٧٠ م .
(٢) Ross : Letters. p. 132-134.
(٣) Hilprecht : Exploration. p. 103-8.
Layard : Nineveh. I. p. 82-85.
(٤) Lloyd : Foundations. p. 160-169.

فعمل الفرنسيون على منافسة الإنجليز فى البحث عن الآثار فى جنوب العراق وأرسلوا بعثة برياسة بالاس V. Palace . وكان بالاس عالماً أثرياً ومهندساً معمارياً وزود باعتمادات مناسبة فكانت بذلك إمكانياته أحسن من إمكانات بوتا Botta . وكان أعضاء البعثة الفرنسية كذلك من أشهر علماء الآثار الفرنسيين . وعلى رأسهم الأسماء التى لمعت فى هذا الميدان من أمثال : أوبروفرسنل وتوماس Oppert, Fresnel, Felic Thomas ولكن هذه البعثة صادفت متاعب جمة ولم تتمكن من القيام بمهمتها فى جنوب العراق بسبب الثورات الجامحة التى اجتاحت وسط وجنوب العراق فى عهد نامق باشا خلال ولايته الأولى على بغداد . وبعد عودة هذه البعثة هدأت حركة التنقيب الفرنسية هى الأخرى ولم تنشط — مثل الحركة البريطانية — إلا فى السبعينات من القرن نفسه(١) .

تمت عمليات الكشف عن آثار العراق فى الفترة التى نحن بصددها بطريقة غير علمية ، ومن ناحية أخرى تمت لأغراض تجارية حيث إن بعض بيوت بيع الآثار فى لندن موّلت بعض عمليات التنقيب . فكان هذا ضغثاً على إبالة . كان هرموز رسام ينقل أطنان القطع الأثرية إلى بريطانيا دون أن يشير إلى مكان العثور عليها . واستخدمت طرق للنقل خشنة أضاعت معالمها الحقيقية فوقع العلماء فى حيرة من أمر تاريخها(٢) ، وكان طابع المكتشفين بصفة عامة هو العجلة والسرعة فى الوصول إلى كشوف ضخمة . وكان من اليسير على المنقبين أن يعثروا على كميات هائلة من التماثيل والأوانى بعد مجهود بسيط . فقد كانت التلال الأثرية عديدة جداً فى البلاد ، ومجرد إزاحة بعض التراب تظهر المعابد والتماثيل الكبيرة . وكان لايارد معنياً كل العناية بالكشف عن الآثار بشكل يثير حوله ضجيجاً صحفياً لينال ثقة المسئولين فى لندن وقصب السبق على الفرنسيين . ولذلك لم يستقر لايارد فى مكان معين ، ولكنه كان ينتقل من تل أثرى إلى آخر بحثاً وراء الكشوف الكبيرة الحجم . وهذا النوع من التنقيب فى أرض بكر لم ينقب بها أحد

(١) Lloyd: Foundation. pp. 161-164, 170, 171, 177 Pillet : opcit. p. 5-6,8.

(٢) Lloyd : Foundations. pp. 170-171.

من قبل يعتبر من أسهل العمليات ، وفى الوقت نفسه من أسوئها إذا نظرنا إليها من ناحية المنهج العلمى . وفعلا حصل لايارد على شهرة واسعة جداً لا فى ميدان التنقيب فقط ، بل أيضا فى الميدان الدبلوماسى ، فقد عين فى السفارة البريطانية فى الآستانة ليتدرج فى المناصب العليا ليصبح من بعد سفير بريطانيا فى الآستانة خلال أزمة مؤتمر برلين(١) .

كما أصبحت كتبه العديدة عن آثار العراق وعن الأوضاع السياسية والاجتماعية من الكتب التاريخية والأثرية الرئيسية فى دراسة تاريخ العراق الحديث .

وإلى جانب البعثات الفرنسية والبريطانية للتنقيب فى العراق أرسلت الحكومة العثمانية بعثة لتلقى بدلوها هى الأخرى فى هذا الميدان . وأغلب الظن أن أول من لفت الأنظار إلى قيمة الثروة الأثرية فى العراق هو خورشيد باشا فى كتابه سياحتنا مه حدود . فقد عنى خورشيد بالكتابة عن المزارات الإسلامية والمسيحية واليهودية كما عنى بالكتابة عن الآثار القديمة بالدرجة التى كانت تسمح بها معلوماته التاريخية البسيطة(٢) . وأما البعثة الأثرية العثمانية فلم تكمل عملها ولم تقم بما يستحق الذكر(٣) وأغلب الظن أن السبب فى ذلك يرجع إلى عدم وجود وعى حقيقى لدى السلطات العثمانية التى أرسلت البعثة ، فضلا عن قلة الخبراء والإمكانات . ولعل الدافع الرئيسى لإرسال البعثة العثمانية هو محاولة القيام بمثل ما يقوم به الأوربيون والمحافظة ما أمكن على هذه الثروات الأثرية . ولكن نظراً لعدم وجود عناية منظمة لتحقيق هذه الأهداف أصبح لدى الأوربيين فرص واسعة للاستيلاء على هذه الثروات وإرسالها إلى متاحفهم حتى غصت بها ، وأصبح من العسير على دارس فى تاريخ إيران أو فى تاريخ بابل وآشور أن يتم بحوثه على خير وجه إن لم يدرس الآثار العديدة عن هاتين الإمبراطوريتين القديمتين المحفوظة فى المتاحف البريطانية والفرنسية وخاصة المتحف البريطانى .

(١) Lloyd : Foundations. pp. 134, 142-145, 153-156.
Layard : Early. Vol. II. pp. 450-451.

(٢) خورشيد : سياحتنامه : ٢٨٧

(٣) Lloyd : Foundation. p. 164-169.

وهناك نوع آخر من النشاط البريطانى فى العراق وهو الدراسات الطوبوغرافية والجغرافية للبلاد . وكانوا يكسبون من وراء تلك الدراسات نفوذاً له قيمته . فخلال موقعة نزيب تبين أن ثلاثة من العلماء الإنجليز كانوا فى معسكر حافظ باشا — قائد الجيش العثمانى — وفروا بعد الهزيمة تاركين أمتعتهم ومعداتهم . الأمر الذى يجعلنا نعتقد أن هؤلاء العلماء مثل غيرهم من الإنجليز كانوا يمزجون بين المهام الموفدين إليها والمصالح البريطانية السياسية والعسكرية(١) .

واستمرت عمليات مسح العراق وبلاد الخليج العربى التابعة للدولة العثمانية دون أن تدرى السلطات العثمانية بهذا النشاط ، ولكن بمرور الوقت بدأت هذه السلطات تشك فى حقيقة أهداف هذه العمليات ، وشكت فى أن وراء هذا النشاط هدفاً سياسيا خطيراً ولذلك اعترض العثمانيون على نزول فرقة من المساحين الإنجليز إلى الساحل الأحسائى لأنهم كانوا يعملون دون علم المسئولين(٢) .

(١) محفظة ٢٥٨ وثيقة ٩٧ — ١٨٦ رجب ١٢٥٥ هـ — ٢٨ من سبتمبر ١٨٣٩ م ، ٩٧ — ١٢ بنفس التاريخ .

(٢) Low : Hist. of the Indian Navy. II. p. 408-417.

الفصل الثامن

أثر العلاقات الفارسية العثمانية على العراق
١٨٣٠ — ١٨٦٨

١ — تطور النزاع بين الدولتين الفارسية والعثمانية حول العراق

٢ — النزاع حول عشائر كعب

٣ — لجنة الحدود

٤ — معاهدة أرضروم

وهناك نوع آخر من النشاط البريطاني في العراق وهو الدراسات الطوبوغرافية والجغرافية للبلاد . وكانوا يكسبون من وراء تلك الدراسات نفوذاً له قيمته . فخلال موقعة نزيب تبين أن ثلاثة من العلماء الإنجليز كانوا في معسكر حافظ باشا – قائد الجيش العثماني – وفروا بعد الهزيمة تاركين أمتعتهم ومعداتهم . الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن هؤلاء العلماء مثل غيرهم من الإنجليز كانوا يمزجون بين المهام الموفدين إليها والمصالح البريطانية السياسية والعسكرية(١) .

واستمرت عمليات مسح العراق وبلاد الخليج العربي التابعة للدولة العثمانية دون أن تدري السلطات العثمانية بهذا النشاط، ولكن بمرور الوقت بدأت هذه السلطات تشك في حقيقة أهداف هذه العمليات ، وشكت في أن وراء هذا النشاط هدفاً سياسيا خطيراً ولذلك اعترض العثمانيون على نزول فرقة من المساحين الإنجليز إلى الساحل الأحسائي لأنهم كانوا يعملون دون علم المسئولين(٢) .

---

(١) محفظة ٢٥٨ وثيقة ٩٧ – ١٨٦ رجب ١٢٥٥ هـ – ٢٨ من سبتمبر ١٨٣٩ م ، ٩٧ – ١٢ بنفس التاريخ .

(٢) Low : Hist. of the Indian Navy. II. p. 408-417.

الفصل الثامن

أثر العلاقات الفارسية العثمانية على العراق ١٨٣٠ – ١٨٦٨

١ – تطور النزاع بين الدولتين الفارسية والعثمانية حول العراق

٢ – النزاع حول عشائر كعب

٣ – لجنة الحدود

٤ – معاهدة أرضروم

الفصل الثامن

تطور النزاع بين الدولتين الفارسية والعثمانية حول العراق

كان العراق طيلة العصور التاريخية أمل حكام فارس لما كان يتميز به من خيرات زراعية تفتقر إليها الهضبة الإيرانية ، ولأن العراق هو منفذ فارس إلى البحر المتوسط . وزادت أهمية العراق لفارس فى العصور الإسلامية لوجود العتبات المقدسة (النجف وكربلاء) فيه . وأصبح هذا العامل الدينى من الأسباب الرئيسية التى جعلت حكام فارس — سواء الصفويون أو القاجاريون — يعملون على الاستيلاء على العراق . فقد كان العراق مركز الجاذبية السياسية والاقتصادية خلال مختلف العصور . ودار صراع متطاول بين الفرس والعثمانيين منذ أن استولى الصفويون على العراق (١٥٠٨) وتبادل الفرس والعثمانيون العراق ، غزا الفرس العراق فى الثلاثينات من القرن السابع عشر وفى الأربعينات من القرن الثامن عشر وفى العشرينات من القرن التاسع عشر بمعدل غزوة كل قرن ، هذا فضلا عن حوادث الحدود المتكررة . ومع أن هذه الحروب انتهت بمعاهدات سلم فى ١٦٣٩ ، ١٧٤٦ ، ١٨٢٣ إلا أن المنازعات ظلت مستمرة ، وذلك لأنه كان يعين الفرس على اقتحام العراق وعلى التدخل فى شئونه أن نصف سكانه تقريباً من الشيعة ، وأن أعداداً كبيرة من الفرس كانت تقيم — ولا تزال — فى العتبات المقدسة ، إما إقامة دائمة أو لفترة قصيرة خلال الحج إلى هذه العتبات . وكان يعين العثمانيين على طرد الفرس من العراق أن النصف الثانى من أهل العراق من السنة . وكل من الطرفين الفارسى والعثمانى كان يستغل العصبيات فى العراق فى الدفاع عن مصالحه . وكانت هذه العصبيات إلى جانب ذلك لها سياستها الخاصة بها وهى سياسة كانت تتعارض فى أكثر الأحوال مع الحكومة المركزية . ومعظم عشائر وسط العراق وجنوبه

شيعة سريعة التأثر بفارس، وخاصة العشائر النازلة شرق شط العرب ودجلة . وفى شمال العراق وكردستان عشائر كردية تتنقل بين الدولتين مثيرة لمشكلات حدود معقدة تصحبها فى أوقات عديدة تعديات على قوافل التجار والحجاج الفرس إلى العتبات المقدسة وقوافل جثث الموتى من الشيعة الذين يحملون ليدفنوا بجوار تلك العتبات . وكانت أشد مناطق الاحتكاك بين الدولتين فى السليمانية وعربستان (خوزستان) وزاد من تعقد المشكلة فى هاتين الناحيتين أنهما كانتا موطن إمارتين : إمارة بابان الكردية وإمارة كعب العربية . وكانت إمارة بابان سنية المذهب جبلية فى الشمال الشرقى من العراق . وأما إمارة كعب العربية فهى شيعية المذهب مصالحها بحرية مرتبطة بتجارة الخليج العربى وتقع فى دلتا نهر كارون على منفذ فارس إلى الخليج العربى . إلا أن المصالح السياسية والاقتصادية كانت تتغلب على العقيدة والمذهب فالسنيون البابانيون كانوا يستولون على الحكم — برغم أنف بغداد — على أسنة الرماح الفارسية الشيعية . وكانت حكومة فارس ترحب فى أغلب الظروف باستصراخات البابانيين لمساعدتهم ضد حكومة بغداد لعل ذلك يؤدى إلى ضم العراق إلى الدولة الفارسية .

فقد كان عنصر المبادرة فى الهجوم دائماً بيد الفرس نظراً لأن الفرس كانت لهم أطماع متعددة فى العراق بينما لم يكن لدى العثمانيين الرغبة فى التوسع على حساب الدولة الفارسية .

وقد كان من أسباب زيادة تعقد هذه المشكلات تدخل الدول الأوربية خاصة منذ أوائل القرن التاسع عشر بين الدولتين الفارسية والعثمانية حتى تطورت الأزمات إلى حرب مكشوفة بينهما ١٨٢٠ م ، فالإنجليز يلقون تبعة هذه الحرب على التحريضات الروسية لشاه فارس . وكانت كفة الفرس فى أوائل الحرب هى الراجحة . إذ تقدمت القوات الفارسية فى قلب العراق صوب بغداد، ولكن اجتاحت الكوليرا الجيش الفارسى ، ولم يلبث أن انسحب من العراق ودارت المفوضات بين الطرفين حتى عقدت معاهدة أرضروم الأولى ١٨٢٣ م(١) .

(١) درسنا هذا الجانب بالتفصيل فى كتابنا (داود باشا) .

نصت هذه المعاهدة على عقد اجتماعات بين السلطات الفارسية والعراقية للاتفاق حول المبالغ التى يجب أن تدفعها العشيرة التى تعبر الحدود طلباً للمرعى . وأعفت المعاهدة المسافرين والحجاج من أية ضرائب . وأنه إذا كان الحاج أو المسافر يحمل بضائع بقصد المتاجرة تؤخذ ضريبة ٤ ٪ على البضائع وهى القيمة التى اتفق على أن تفرض على متاجر الطرفين الفارسى والعثمانى . وحتى لا يطالب التاجر بالضريبة أكثر من مرة واحدة نصت المعاهدة على إعطاء التاجر تذكرة بقيمة ما دفعه . وحددت المعاهدة طريقة التصرف فى تركة من يتوفى من الفرس فى الدولة العثمانية .

ومن أهم نصوص المعاهدة النص الخاص بتبادل التمثيل السياسى بين الدولتين بأن يمثل كلا من الدولتين وزير لدى الأخرى . ولتصفية الموقف بين الدولتين تقرر عدم المطالبة بتعويضات والسماح لمن انضموا للطرف الآخر خلال الحرب بالعودة إلى بلادهم مزودين بالعفو عما اقترفوه من خيانة . على ألا تقبل أية من الدولتين فى المستقبل اللاجئين الفارين إليها من الأخرى(١) .

على أن افتقار الدولتين إلى الخرائط الدقيقة للحدود وعدم إمكانهما وضع مثل هذه الخرائط كان من الأسباب الرئيسية لتجدد المنازعات على طول الحدود . ومن ناحية أخرى لم تلتزم الحكومة الفارسية بنصوص معاهدة ١٨٢٣ م وظلت محتفظة بزهاو تحت حكمها . ونظراً لعدم وجود الثقة بين الدولتين ولأن الحكم فى كل منهما كان موزعاً على حكام لهم سياستهم شبه المستقلة عن سياسة الحكومة المركزية . استمرت المؤامرات نشطة بين العصبيات الحاكمة الفارسية والعراقية . هذا فضلا عن عمق الكراهية المذهبية بين الشيعة والسنة . وأخيراً يرجع إخفاق تلك المجهودات إلى عدم وضع الفريقين أيديهم على الداء نفسه . فمع أن الدولتين التزمتا عدم التدخل فى شئون الأخرى وعدم قبول اللاجئين لم يعملا على دراسة أسباب هذا التدخل وأسباب فرار الناس إلى هذا الجانب أو ذاك .

(١) Hurewitz : Op. cit. Vol. I. p. 91.

حقيقة عجزت معاهدة أرضروم الأولى ١٨٢٣ م عن تهيئة الجو أمام الدولتين للقضاء على المشكلات بين البلدين ، ولكنها منحتهما فرصاً واسعة للتفاهم على مواجهة ما يجد من مشكلات . ونتيجة لهذا خفت حدة الأزمات بينهما ولم تنتهز فارس الفرصة التى سنحت عندما كان جيش على رضا يقاتل جيش داود باشا وعندما كان إبراهيم باشا بقواته المصرية يكتسح الشام . بل إنها سلمت عزيز أغا – الثائر المملوكى – إلى على رضا ١٨٣٢ . وكانت الدولة العثمانية من ناحيتها تعمل على التفاهم مع الحكومة الفارسية لتأمن جانبها فى هذه الظروف العصيبة (١) . وكانت هذه بداية طيبة للعلاقات بين الدولة الفارسية والحكومة العثمانية الجديدة فى العراق (١٨٣١م) .

ويمكن أن نعلل هذا الهدوء بين الدولتين فى الجبهة العراقية فى أوائل الثلاثينات بأن «فتح على شاه» كان فى أواخر أيامه . فلما تولى محمد شاه الحكم فى ١٨٣٤ ظهرت نياته التوسعية وتسابقت كل من بريطانيا وروسيا إلى التقرب منه بدرجة أن القنصل الفرنسى فونتانييه Fontanier قال إن الإنجليز كانوا هم الذين يمولون خزانة الشاه وأن الروس كانوا مستشاريه(٢) .

لم تلبث أن توترت العلاقات بين الدولتين العثمانية والفارسية بسبب توسع ميركور بك – أمير راوندوز – على حساب فارس(٣) . ولكن المشكلة المعقدة – التى واجهت الطرفين فى الجزء الأخير من الثلاثينات من القرن التاسع عشر – هى مشكلة عشائر كعب .

النزاع حول عشائر كعب :

فقد تزايدت قوة عشائر كعب فى منطقة عربستان (خوزستان)(٤) . وعاشت شبه مستقلة باستثناء فترات قصيرة كانت تعلن فيها خضوعها للشاه الفارسى أو لوالى بغداد عند ما تشعر أنها أضعف من أن تقف على

(١) تاريخ لطفى : ج ٤ : ص ١٧١ – ١١٢–١١٣ .
(٢) Fontanier : Op. cit.Vol. I. pp. 125-126.
(٣) انظر التفاصيل فى الفصل الثالث .
(٤) انظر تفاصيل تاريخ كعب فى الفصل الثانى .

قدميها أمام الضغط الموجه ضدها . وكان طبيعياً أن يستغل الفرس ومماليك بغداد هذه العشائر خلال المنازعات بينهما . كانت فارس تقذف البصرة بكعب ، وكانت حكومة المماليك تدفع بعشائر المنتفق لمنع توغل كعب فى أراضى العراق .

ونظراً للنمو الاقتصادى والبحرى لعشائر كعب بنى شيخ المحيسن – إحدى العشائر الكعبية – ميناء المحمرة ١٨١٢ . ونما هذا الميناء حتى هدد بالقضاء على كيان البصرة الاقتصادى ، ولذلك بعث على رضا بحملته إليها فى ١٨٣٧ م وليقوى قبضة الحكومة على جنوب العراق إذ كان النشاط البريطانى قد تزايد بدرجة كبيرة منذ وصول بعثة جسنى إلى تلك النواحى . واستولى على رضا على المحمرة ، ولكنه لم يضع فيها حامية وإنما أعاد ثامر شيخ كعب إلى المشيخة بعد أن وقع على اتفاقية اعترف فيها بتبعيته للسلطان العثمانى . وكان المفهوم لدى الطرفين أن جابراً شيخ المحيسن – صاحب المحمرة – ملزم بتطبيق نصوص هذه الاتفاقية على اعتبار أنه تابع لمشيخة كعب . ولكن جابراً كان صعب المراس . واعترض على الاتفاقية جملة وتفصيلا معلناً أن لا سلطان لثامر عليه وهدد باستقدام الفرس للدفاع عنه إذا ما حاول ثامر فرض سيطرته عليه بالقوة(١) .

وسرعان ما بدأ الفرس– وقد شعروا بضياع هيبتهم وسياستهم فى جنوب غرب فارس فى أعقاب الحملة الإنجليزية هناك ، وفى أعقاب الحملة العثمانية على المحمرة – فى تقديم الاحتجاجات ضد الحملة العثمانية على اعتبار أن المحمرة جزء من فارس(٢) . ويتهم فونتانييه – القنصل الفرنسى – الوكيل السياسى البريطانى فى بوشهر بأنه هو الذى حرك الفرس للقيام بهجماتهم المضادة وجنّد نفسه لمقاومة النشاط الإنجليزى وإثبات أن المحمرة كانت تتبع الدولة

(١) Lorimer: Op. cit. Vol. I, Pt. II. p. 1657. Memo. Dopnd. Chaab Tribes (Pr. Trk. Arb. p. 336-337)
(٢) والجدير بالذكر فى أمر هذه المباحثات أن على رضا كان يتخذ مواقف مختلفة إزاء كل مبعوث على حدة فقد عامل الأول فى عنجهية وتفاخر والثانى فى احترام زائد وضرب المندوب الثالث .
Fontanier : Op. cit. I. I. p. 383.

العثمانية(١) . حيث إن الفرنسيين كانوا فى الشرق الأوسط بالذات يقاومون النشاط البريطانى بكل وسيلة ممكنة بسبب التنافس الإنجليزى الفرنسى الشديد فى تلك المنطقة . ولم تقتصر المجهودات الفارسية على تلك الاحتجاجات ، بل كلفت معتمد الدولة بالسيطرة على منطقة جنوب غربى فارس التى تنزل فيها عشائر البختيارى وعشائر كعب(٢) . فوجه معتمد الدولة قواته أولا إلى عشائر البختيارى وأخضعها ثم تابع معتمد الدولة زحفه صوب عربستان واستولى عليها وعلى المحمرة وفر ثامر إلى العراق بعد أن أغرق البلاد(٣) .

ثم بدأ (معتمد) يتطلع إلى ما وراء عربستان والمحمرة(٤) ، ورفضت السلطات العثمانية فى بغداد والبصرة تسليم ثامر إلى معتمد فما كان منه إلا أن زحف صوب البصرة . وضغط على بنى لام فاضطرت إلى الفرار إلى داخل الأراضى العثمانية تاركة مراعيها عند سفوح جبال لورستان كما هبطت عشائر الفيلية الفارسية من جبالها منقضة على مضارب بنى لام فأشاعت الفوضى والدمار بينها(٥) .

ونظراً لما كانت عليه منطقة عربستان من أهمية للمشروعات البريطانية التجارية ولخطوط المواصلات العالمية والمحلية عنى تيلر – القنصل البريطانى فى بغداد – بإبلاغ سفير بريطانيا بالآستانة تطورات الموقف فى عربستان

---

(١) Ibid : I. pp. 381-383.

(٢) Layard : Early Vol. 2. pp. 455-459, 271-2,244.

(٣) Taylor to Sec. Comm. Nov. 24,1841.
(Ind. O.R.,F.R.,P.P.G., Vol. 47 p. 733-5).

(٤) Layard : Early. II. pp. 216 ; 271.

(٥) Taylor's Desp. to DSec. Comm. 8 July, 1842 (Pol. & Sect.
Dept. Recs., ltrs. fr. Pol. Agt. Bag. Vol. 13. p. 77-79).
Sheil's Desp. 24 June 1842. No. 20 in Parker's Memo. on Turk-Pers. Bound. Quest. 1833-1906.
Taylor to Sec. Comm. 22 Aug. 1842 (Pcl. & Sec. Dept. Recs. ltrs. fr. Pol. Agt. Bag. Vol. 13 p. 81-85).
كان الهجوم الفارسى على بنى لام شديد الوقع عليها لما تخلف عنه من سبى للنساء ودمار .
Layard : Early : II. p. 217-224, 271.

أولا بأول واستقى ستراتفورد كاننج – السفير البريطانى – أخبار تلك المنطقة من مصادر أخرى(١) ، وكان الوصول إلى حقيقة الأوضاع أمراً صعباً للغاية نظراً لأن الشيوخ الذين عينهم على رضا على الفلاحية والمحمرة بعد حملته ١٨٣٧ والشيوخ الذين عينهم « منو شرخان » (معتمد الدولة) ١٨٤٠–١٨٤٢ بعد حملته سالفة الذكر على عربستان لم يستطيعوا الصمود أمام ثامر شيخ كعب أو جابر شيخ المحمرة ولعب ثامر وجابر بالفرس والترك كلما عنّ لهما ذلك فى سبيل الاحتفاظ ببلادهم بعيدة عن متناول أيدى الدولتين الطامعتين فيها . واضطرت السلطات الفارسية والعثمانية على السواء أن تستخدم ثامراً أوجابراً فى سبيل تأكيد سلطتها فى المنطقة(٢) .

وفى ١٨٤٢ حمى وطيس المناورات الفارسية والعثمانية حول عربستان . ولاشك أن تسوية المسألة المصرية ١٨٤٠ – ١٨٤١ جعل الدولة العثمانية تتفرغ بدرجة أكثر لمشكلات الحدود الفارسية العراقية . وكانت تولية نجيب ولاية بغداد مقدمة لاحتدام النزاع بين الدولتين الفارسية والعثمانية حول عربستان ، خاصة بعد فرار ثامر إلى العراق للمرة الثانية ، وحول السليمانية التى كان الفرس يطالبون بها هى الأخرى .

وكان نجيب باشا (١٨٤٢–١٨٤٧) شديداً فى معاملته للثوار على الدولة العثمانية ومصراً على أن يكافح من أجل فرض السيادة العثمانية على كل جزء من الأجزاء المشكوك فى ولائها للسلطان . وعقب استلامه العمل فى بغداد لوحظ أن متسلمه على البصرة أخذ يساند بقوة مطالب ثامر فى حكم المحمرة . فرد الفرس على ذلك بأن طالبوا بعربستان حتى القرنة . وفى أعقاب ذلك وقع

---

(١) Layard : Early, Vol. II pp. 366-367,370.

(٢) Taylor to Sec. Dept. 24 Ap. 1842. F.O. 195-204.
Taylor to Sec. Comm. 24 Nov. 1841. (Ind. O.R.,F.R.,P.P.G., Vol. 74).
« « « « 22 Feb. 1842. (Pol. & Sec. Dept. Recs.,ltres. fr. Pol. Agt. Turk. Arb. Vol. 13 pp. 23-25).
« « « « 27 Feb. 1842 Ibid. pp. 27-29.
« « « « 24 Ap. 1842 Ibid. pp. 44-45.
Molla Firajoollah : Governor of Dizful to Governor of Bassura (Ind. O.R., .R.,P.P.G., Vol. 77 pp. 291-293).

نزاع بين جابر شيخ المحمرة مع الفرس ثم فر جابر إلى الأراضى العراقية . وشعر الفرس بأن العثمانيين سيتابعون ضغطهم على كعب والمحمرة فبنوا قلعة على أسوار المحمرة . فاحتج العثمانيون على هذا الإجراء على اعتبار أن المحمرة تتبع البصرة التى يفصلها عن الأراضى الفارسية نهر كارون وأن الحفار الذى تقع عليه المحمرة ليس منفذاً طبيعياً لنهر كارون وإنما هو قناة صناعية تابعة للدولة العثمانية . ويبدو أن جابراً وجد أنه لن يصل إلى شيء من أغراضه إلا عن طريق الاتفاق مع الفرس ، وكان الفرس هم أيضاً فى حاجة إلى جابر إذ عجز رجالهم عن إدارة ديار كعب حيث إن هجرة العشائر الكعبية — بإيعاز من شيوخهم — إلى الأراضى العراقية هدد منطقة عربستان بأن تصبح خالية من عشائرها إن لم يغير الفرس موقفهم من جابر . وفعلا نجحت المفاوضات الفارسية مع جابر وعاد إلى الحكم ومعه عشيرته(١) . وكان انتقال هذه العشائر وتلاعب الشيوخ بالدولتين سبباً فى تزايد حدة أزمات الحدود .

لجنة الحدود

وأدت هذه المصادمات بين السلطتين العثمانية والفارسية فى عربستان وكذلك فى منطقة السليمانية وبنى لام وزهاب إلى أن تستعد الحكومة الفارسية لخوض حرب مع العثمانيين . وهددت السلطات الفارسية بإرسال جيش لاحتلال البحرين والكويت(٢) ، وطالبت بلواء السليمانية وبعربستان حتى القرنة(٣) ، وبإبعاد الأمراء الفرس الذين كانوا يتآمرون ضد الشاه عن بغداد(٤) . فردت السلطات العثمانية بتعبئة قواتها على الحدود ودعت

---

(١) Rawlinson to Sec. Comm. Sep. 26, 1846. No. 59-60. (Saldanha: Précis of Turkish Arabia. p. 60-68.

(٢) Sheil to Aberdeen 22 Aug. 1842. No. 42. F.O. 60-20.

(٣) Saldanha : Pr. Trk. Arb. pp. 60-68 (1842).

(٤) كان هؤلاء الأمراء خطراً جسيماً على الشاه . كانوا يتعاونون مع الإنجليز خلال حرب ١٨٣٧ . وكانت الإشاعات تؤكد أن الإنجليز يعملون على رفع أحد هؤلاء الأمراء إلى العرش الفارسى (يونيو ١٨٤٠) هذا إلى أن الدولة العثمانية كانت تدفع مرتبات لعدد من هؤلاء الأمراء وكان الإنجليز يدفعون لبعضهم كذلك .

Layard : Early. Vol. II. p. 229-230, 237,272.

المنتفق وبنى لام والبابانيين(١) لخوض المعركة المقبلة وبدأت المناوشات العنيفة فعلا على الحدود خاصة فى منطقة السليمانية (٢) . ولكن ضغطت روسيا وبريطانيا على فارس والدولة العثمانية وأرغمتاهما على قبول وساطتهما(٣) لحسم ما بينهما من خلاف ، وعلى تشكيل لجنة رباعية تضم مندوبين من الفرس والترك والروس والبريطانيين لهذا الغرض . فقد دأبت بريطانيا — منذ حركة التوسع المصرى فى الشام ونجد والخليج العربى — على أن تمنع الدولتين الفارسية والعثمانية من الاشتباك فى حرب حتى لا تتعرض المنطقة لهزات سياسية أو عسكرية شديدة من شأنها أن تقلب ميزان القوى فى الشرق الأدنى مما يكلف بريطانيا الاحتفاظ بجيش وأسطول قويين على أهبة الاستعداد باستمرار لا لمواجهة نيات فارس العدائية فقط ، بل كذلك للحد من النشاط الروسى المتزايد فى تلك المنطقة(٤) . وتشكيل هذه اللجنة سيحول كل أزمة بين الدولتين إلى مجال الدراسة والمفاوضة والمساومة والضغط الدبلوماسى حتى تتلاشى نذر الحرب وتحل الأزمة ، بطريقة أو بأخرى ، ولذلك كانت المهمة الرئيسية لهذه اللجنة هى وضع خريطة دقيقة للحدود يمكن الرجوع إليها عند اللزوم .

وكان أول مشروع بريطانى للحدود من وضع لايارد(٥) . وفى هذا المشروع جعل لايارد المحمرة تابعة للدولة العثمانية وجعل نهر بهماشير المنفذ المائى الوحيد لفارس فى عربستان مؤكداً أن الحفار قناة صناعية معترضاً على أى حق للدولة الفارسية فى الملاحة فى شط العرب لأن بهماشير — فى نظره —

---

(١) Sheil to Taylor. 22 Aug. 1842. (Pol. & Sec. Dept. Recs., ltrs. fr. Pol. Agt. Bagd. Vol. 13. pp. 90-94).

(٢) Lorimer : Op. cit. Vol. I, Pt. I.p. 1374; IBID.

(٣) كان السلطان معترضاً فى أول الأمر على تدخل الدولتين الروسية والبريطانية فيما بينه وبين الشاه من منازعات على اعتبار أن هذه أمور تخص المسلمين وحدهم ولا شأن للدول المسيحية فيها .

Parker's Memo. (4 Jan. 1907). Conf. 41871. p. 1-3.

(٤) كانت العلاقة بين الدولتين الفارسية والروسية قوية منذ الثلاثينات .

(٥) رحالة إنجليزى مغامر له نفوذ كبير فى الدوائر السياسية البريطانية وتولى منصب سفير بريطانيا فى الآستانة فى الثمانينات من القرن التاسع عشر .

يسد حاجات الفرس كمنفذ لفارس إلى الخليج العربى(١) .

وكان كانتج Canning مقتنعاً بوجهة نظر لايارد ورشحه ليمثل بريطانيا فى اللجنة الرباعية ، واستغلت السلطات العثمانية المشروع وضغطت قدر طاقتها على حكومة بريطانيا لتأخذ به . ولكن تحطمت كل هذه المجهودات أمام اعتراضات أبردين Aberdeen الذى كان مقتنعاً بوجهة النظر الروسية الخاصة بضم عربستان للدولة الفارسية(٢) . ويرجع هذا الاتفاق فى الآراء إلى أن روسيا كانت تريد أن تؤيد المطالب الفارسية بصفة عامة وكانت بريطانيا تسعى إلى فتح منطقة كارون وجنوب شرقى فارس للمشروعات التجارية والملاحية .

اتخذت لجنة الحدود مدينة أرضروم مقراً لها . وأخذت تجمع الوثائق المتعلقة بالحدود وتعمل على استدعاء من يستطيع أن يعاونها على أداء مهمتها ، ولذلك قامت اللجنة باستدعاء ثامر — شيخ كعب وكان لاجئاً فى البصرة — لمناقشته فى الوضع القديم والجديد فى منطقة المحمرة(٣) ، وكلفت اللجنة فى الوقت نفسه المستر جونز Felix-Jones (٤) بأن يتولى وضع خريطة تعين اللجنة على تحديد خط دقيق للحدود(٥) .

كان أول اجتماع للجنة الحدود فى ١٥ من مايو ١٨٤٣ ولم تستمر الأعمال التحضيرية سوى أيام قليلة توقفت بعدها أعمال اللجنة بسبب توتر العلاقات إلى درجة شديدة الخطورة بين الدولتين العثمانية والفارسية على أثر هجوم قوات نجيب باشا على كربلاء(٦) واستيلائه عليها عنوة وتطبيق نظم الحكم العثمانى فيها (١٨٤٣) . وهوّل الفرس من عدد القتلى الشيعة فى معركة كربلاء كى يستغلوا ذلك سياسياً على مائدة المفاوضات المعقودة لتحديد الحدود

(١) Layard : Early. Vol. I pp. 407, 433-436.
(٢) Lorimer : Op. cit. Vol. 1, Pt. 1, p. 1375.
(٣) Felix-Jones : Selections. p. 136.
(٤) قبطان إحدى البواخر البريطانية فى العراق وسيصبح فيما بعد قنصلا فى الخليج العربى .
(٥) Felix Jones : Selections. p. 136.
(٦) تفصيلات أزمة كربلاء فى الفصل الثانى

بين الدولتين الفارسية والعثمانية . وبعد أن درس الإنجليز والعثمانيون الأزمة على الطبيعة تبين لهم أن الفرس فعلا هوّلوا فى الموضوع وأنه لم يكن يستحق هذه الضجة الكبرى . ومع ذلك تقدمت فارس بمطالب شديدة إلى الحكومة العثمانية . وأهم هذه المطالب :

١ — أن يدفع السلطان تعويضاً لمنكوبى كربلاء .

٢ — أن يعلن الباب العالى عدم رضاه وعدم موافقته على حملة نجيب على كربلاء وأن نجيباً لم يحصل على التصريح بذلك .

٣ — أسف الباب العالى لإسالة الدماء .

٤ — أن يعيد نجيب ما تخرب من العتبات المقدسة .

٥ — أن يحكم بالعدل ويحمى الفرس فى المدينة والحجاج إليها .

٦ — أن يهدد نجيب بالعزل إن هو أساء التصرف فيما بعد .

٧ — أن تعلن هذه القرارات لجميع السفراء .

أما عن طلب الفرس أن يعزل نجيب باشا عن ولاية بغداد فلم يوافق عليه الباب العالى ولا السفير البريطانى فى الآستانة . ومن اليسير أن يفهم هذا الرفض . فالباب العالى وافق على شروط فيها ما يكفى لترضية فارس . وأما عزل الوالى ففيه تدخل صارخ فى شئون الدولة لا يرضى الباب العالى عنه حتى لو كان نجيب قد أساء التصرف(١) .

بعد أن توصلت الدول الأربع إلى تصفية أزمة كربلاء عادت لجنة الحدود إلى النظر فى مواد النزاع . وكانت المطالب الفارسية على النحو التالى :

١ — إعادة الأمراء الفرس اللاجئين إلى الأراضى العثمانية إلى البلاد الفارسية ، وامتناع السلطات العثمانية عن مساندة أمثالهم فى اتخاذ الأراضى العثمانية قواعد لإثارة الفتن ضد الشاه .

(١) Ibid. p. 1358.
Sheil to Aberdeen. 31 Oct. 1843 (Ind.O.R.,F.R.,P.P.G., Vol. 78 pp. 481-491).
Canning to Aberdeen. 17 Sep. 1843. No. 17 F.O. 78-521.
ويبدو أن هذه التوصيات كانت من اقتراح ستراتفورد كاننج .Ibid

٢ – حق اشتراك الشاه مع السلطان فى تعيين حاكم على السليمانية .

٣ – حق الشاه فى تعيين قناصل فى الدولة العثمانية وأن يمنح القنصل الفارسى حق حماية الرعايا الفرس سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين . وأن يسمح لهؤلاء القناصل بمغادرة البلاد والعودة إليها وقتما يشاءون .

٤ – احترام رعايا الشاه الذين يوجدون فى الدولة العثمانية وعدم توجيه الإهانات إليهم والمساواة بين السنى والشيعى فى الدولة العثمانية . وتسهيل أمر التزاوج بين السنى والشيعى .

٥ – إعادة العشائر الفارسية التى هاجرت إلى الأراضى العثمانية .

٦ – دفع تعويضات عن :

(ا) هجوم راوندوز بك على الأراضى الفارسية .

(ب) الخسائر التى منى بها الفرس خلال أزمة كربلاء سنة ١٨٤٣ .

(ح) » » » » » فتح «على رضا» المحمرة.

٧ – معاقبة العشائر العثمانية التى تهاجم الأراضى الفارسية .

٨ – تسهيل الحج وحريته لحجاج الفرس إلى العتبات المقدسة فى العراق وإلى الأراضى المقدسة فى الحجاز .

٩ – تخفيض الضرائب المفروضة على الفرس فى الطرق التى تربط بين فارس وطرابزون .

١٠ – إلغاء الضرائب المفروضة على دفن الجثث فى العتبات المقدسة وعلى عبور الأنهار ودخول الخانات أو عند الحصول على جواز السفر (تذكرة السفر) . وإلغاء أية ضريبة داخلية فيما عدا ٤ ٪ المفروضة على البضائع الواردة إلى الدولة العثمانية . ورفع كل الضرائب غير المشروعة التى فرضت على الفرس .

١١ – دفع متأخرات إيجار الرعى فى الأراضى الفارسية .

١٢ – رفع القضايا بين الفرس والعثمانيين إلى محاكم تأخذ بالشريعة الإسلامية وحتى القضايا التجارية يجب أن ترفع إلى مثل تلك المحاكم لا إلى المحاكم التجارية التى تطبق القوانين العثمانية الجديدة .

أما مطالب السلطان فكانت أقل عدداً ، ولكن أكثر تعقيداً وخطورة . فقد طالب بانسحاب الفرس من المحمرة وعن زهاب(١) وأن يوافق الشاه على معاهدة بلطة ليمان المعقودة بين الدولتين العثمانية والبريطانية . واحترام المواد الواردة فى معاهدات ١٦٣٩ ، ١٧٤٧ ، ١٨٢٣ . كذلك طالب السلطان بأن يدفع الشاه تعويضات عن الخسائر التى منيت بها بلاد لواء السليمانية من جراء الهجمات الفارسية عليه . هذا فضلا عن تحديد تبعية مجموعة من العشائر النازلة على الحدود وإعادة بعض العشائر الموجودة فعلا فى الأراضى الفارسية إلى حظيرة الدولة العثمانية .

وطالب العثمانيون بأن تكون لهم وحدهم تبعية مجموعة من العشائر الكردية والعربية المتنقلة عبر الحدود وأهم هذه العشائر هى :

سنجابى والهورامان والكلهر والجاف ومحاسن ومنكور وبنولام(٢) .

ولكن خلال المفاوضات تبادل المندوبون الفرس والعثمانيون أشد الكلم .

ويبدو أن الدولتين الوسيطتين شعرتا بأن عمل اللجنة أصبح عبثاً بعد أن تطورت المناقشات خاصة بين المندوبين الإيرانى والعثمانى إلى تبادل الاتهامات ومجرد ادعاءات ادت إلى تشعب الموضوعات بدلا من أن تكشف عن حقيقة الأوضاع(٣) .

وبسبب هذه التطورات عمدت الدولة العثمانية إلى أن تخطو خطوة جريئة لسلب فارس مكاسبها فى منطقة كارون وعربستان بأن أرسلت سفينة حربية فى ١٨٤٦ لترابط عند مدخل الحفار لا لتحمى السفن العثمانية من عدوان

---

(١) كانت زهاب تشرف فى ذلك الوقت على آخر طريق استراتيجى بين فارس والعراق وذلك بعد أن أصبح طريق مندلى – فارس – المحمرة فى يد الفرس . فسيطرة الفرس على طريق زهاب يعرض العراق لأخطار كثيرة . (انظر تقرير درويش : ٢٣ – ٢٤) .

(٢) Turco-Persian Boundaries Negotiations. Despatch from the British Commissioners with Protocols and Various Documents Relating to the Conference of Erzeroum

Part I : 1843-1844. F.O. 420-7 B
Part II : 1844-1845. F.O. 420-7 C
Part III : 1845-1852. F.O. 420-7 D

(٣) تقرير درويش : ٢٣–٢٤ .

Lorimer : Op. cit. Vol. I.Part I. p. 1377

كعب عليها فقط(١) وإنما لتحويل تجارة المحمرة إلى البصرة ، خاصة وقد أصبحت معظم التجارة الهندية وتجارة البحرين ومسقط وجدة ومكة مع المحمرة(٢) وكانت هذه السفينة ترغم القوارب الذاهبة إلى المحمرة على أن تصعد النهر أولا إلى البصرة لتدفع ما عليها من رسوم جمركية ثم لتذهب بعد ذلك إلى حيث شاءت واحتجت الحكومة الفارسية على هذا الإجراء وأيدتها فى ذلك الحكومة البريطانية . ولم تقبلا المبررات التى قدمتها السلطات العثمانية القائلة بأن وضع السفينة عند مدخل الحضار لن يؤثر على تجارة المحمرة(٣) . بل ادعت السلطات . العثمانية أن السفينة تمنع من استشراء القرصنة، ولكن ظل الإنجليز متمسكين بأن وجود السفينة يخالف لما تسعى إليه الدول المعنية نحو حرية الملاحة فى شط العرب ، واستمروا يضغطون على الباب العالى حتى اضطر إلى أن يصدر أوامره إلى نجيب باشا (والى بغداد) بأن يسحب السفينة إلى مكان يقع شمالى الحفار . وبذلك أصبح الطريق أمام السفن إلى المحمرة سالكاً لا يعترضه معترض(٤) .

معاهدة أرضروم ١٨٤٧ :

ولما وجدت الدول الأربع أن مشكلات الحدود ستحتاج إلى وقت طويل للبت فيها حتى يمكن أن يُرسم خط واضح بين الدولتين يقضى على أى نزاع فى المستقبل ويحدد تبعية كل عشيرة على وجه الدقة فضلت الدول أن تعقد معاهدة تنص على حل لبعض المشكلات القائمة وأن يترك البعض الآخر تحت الدراسة والتسوية وعلى هذا الأساس قدمت المعاهدة التى عرفت باسم

(١) Richard Rogers- British Agent at Bassora-to Con. Gen. at Bagdad. 17 Jan. 1861. F.O. 195-676. & Ind. O.R., F.R.,P.P.G., Vol. 85. p. 15-18)26 Aug. 1846).

(٢) Rawlinson to Sec. Comm. 27 Ap. 1846 (Pol. & Sec. Dept. Recs., ltrs. fr. Pol. Agt. & Consb. Vol. 14 pp. 125-131).

(٣) Lorimer : Op. cit. Vol. 1, Pt. 1 pp. 1378-1380.

(٤) Rawlinson to Wellesly 20 Jan. 1847. F.O. 195-272.
Rawlinson to Sheill 8 Jan. 1847. No. 2. Ibid.
Kemball to Sheill 6 Aug. 1847. Ibid.
Rawlinson to Wellesly. Mch. 31, 1847 No. 20 F.O. 78-681.
Wellesly to Palmerston. May, 1,1847. No. 150. Ibid.

معاهدة أرضروم الثانية للحكومتين الإيرانية والعثمانية لإبداء الرأى فيها(١) .

اتفق فى هذه المعاهدة على أن يكون لفُرس قناصل فى الدولة العثمانية لهم نفس الحقوق التى حصل عليها قناصل الدول الأخرى . كما تحددت قيمة الضرائب والجمارك المفروضة على التجار الإيرانيين بما كان متفقاً عليه من قبل فى اتفاقية أرضروم الأولى . ونصت المادة الثانية من هذه المعاهدة(٢) على أن « تتعهد الحكومة الإيرانية بأن تترك للحكومة العثمانية جميع الأراضى المنخفضة ... الكائنة فى القسم الغربى من منطقة زهاب وتتعهد الحكومة العثمانية بأن تترك للحكومة الإيرانية القسم الشرقى منه أى جميع الأراضى الجبلية من المنطقة المذكورة » . فوضعت بذلك حداً لمشكلة زهاب التى استمرت حوالى ربع قرن . وكان هذا التقسيم فى الواقع عادلا ، فقد تركت الأقاليم الجبلية المكملة للهضبة الإيرانية لإيران فى معظم المناطق ، والسهول ظلت ضمن العراق وذلك لارتباطها بداخل العراق أكثر من ارتباطها بداخل إيران .

كما نصت مسودة المعاهدة على أن تعترف الدولة العثمانية بسيادة الحكومة الفارسية على :

أولا : ١ — مدينة المحمرة ومينائها .

٢ — جزيرة الخضر (جزيرة عبادان) .

٣ — الأراضى الواقعة على الضفة الشرقية من شط العرب من مصبه إلى اتصال حدود الدولتين قرب المحمرة (عند التقاء كارون بشط العرب) .

ثانياً : وعلى أن تتنازل الحكومة الفارسية عن كل ما لديها من ادعاءات فى مدينة السليمانية ومنطقتها وبعدم التدخل فى شئون هذه المنطقة .

(١) انظر نصوص هذه المعاهدة فى المراجع التالية :
(ا) قضية الحدود العراقية الإيرانية . والنص هنا باللغة العربية .
(ب) Aitchison : Collection of Treaties.
Hurewitz : Diplomacy in the Near and Middle East. 2Vols.

(٢) وانظر العزاوى : تاريخ : ٧ : ٢٩٦ .

واتفق الطرفان كذلك فى هذه المعاهدة على تشكيل لجان مشتركة(١) من الجانبين المتعاقدين لتسوية المشكلات التى تنشأ بين البلدين ، وعلى تبادل تسليم المجرمين والفارين .

وعندما قدمت المعاهدة فى صورتها النهائية إلى الباب العالى ، ادعى أنه تنازل عن ميناء المحمرة فقط وأن ما حولها من أراض فهو تحت السيادة العثمانية . فرد المندوبان الأوروبيان على هذا الاعتراض بأن المحمرة تقع على ضفتى قناة الحفار وأن كليهما سيكونان ضمن الأراضى الفارسية، وكذلك الأراضى الواقعة شرقى شط العرب . وأن الفرس لن يحصلوا على أية بقعة على الضفة الغربية لشط العرب حتى لو كانت فيها عشائر فارسية(٢) . ومع أن هذا الحل كان عادلا لتسوية الأزمة بعد أن أعلنت الدولة العثمانية تنازلها عن المحمرة فقد تمادت الدولتان الإسلاميتان فى المطالبات المتطرفة على طول الحدود . ولذلك قررت الدول أن توقع الدولتان الإسلاميتان المعاهدة على أساس تسوية المشكلات المعلقة فيما بعد . ووقعت المعاهدة ونص فيها على أن تؤلف لجنة لتحديد الحدود بين الدولتين ، وعلى أن تقتسم الدولتان منطقة زهاب بالطريقة سالفة الذكر وعلى أن تتنازل فارس عن أية مطالب لها فى السليمانية فى مقابل تنازل السلطان عن المحمرة وجزيرة الخضر وأن تكون الضرائب المفروضة على التجار الفرس ٤ ٪ . ثم شكلت لجنة لتسوية مشكلات الحدود كلها من مصب شط العرب حتى الحدود المشتركة عند الأناضول(٣) . وأخذ المسئولون العثمانيون بدورهم يحددون خط الحدود حسب مطالبهم ليعارضوا المطالب الفارسية ، مستخدمين لتحقيق ذلك كل الوسائل الممكنة لتدعيم

---

(١) تألفت لجنة الحدود المشتركة من (ا) الكولونيل وليامز بطل قارص Williams of Kars. (ب) الكولونيل Tcherikoff (ج) درويش باشا المندوب العثمانى وكان يعرف لغة أوروبية والكيمياء وعالم فى اللغة Loftus: Op. cit. p. 3 (د) ميرزا جعفرخان المندوب الإيرانى وكان يعرف لغة أوربية . انظر المصدر السابق .

(٢) انظر مذكرة «السيد محمد أمين على» – مندوب الدولة العثمانية فى وضع وتوقيع معاهدة أرضروم الثانية المؤرخة ٢٩ جمادى ١٢٦٣ هـ – ١٨٤٨ م .

(٣) Loftus : Op. cit. pp. 282-285.

وجهة نظرهم(١) .

وإذا بالموقف على الحدود يعود إلى أسوأ مما كان عليه قبل توقيع المعاهدة ١٨٤٧ واستمرت روسيا تؤيد مطالب الشاه وبريطانيا فى صف السلطان ، وتبادلت هذه الأطراف الاتهامات، وخاصة عندما وضعت الحكومة الفارسية حامية فى جزيرة الخضر (عبادان) دون أن تستشير اللجنة أو الدولتين الأوروبيتين الوسيطتين (١٨٥١)(٢) .

وهكذا استمرت اجتماعات لجنة الحدود خلال ١٨٤٩ – ١٨٥١ دون جدوى حتى اقترح بالمرستون أن تدور المفاوضات بين حكومات هذه العواصم بدلا من أن يترك أمر فض المنازعات إلى لجنة الحدود وحدها . فانتقلت المفاوضات إلى عواصم الدول الأربع بينما لجنة فنية قامت بدراسة الحدود ووضع خريطة لها .

وخلال قيام اللجنة بعملها نشبت حرب القرم فتوقفت اللجنة عن العمل .

---

(١) فيما يلى بيان مفصل عن الوسائل التى استخدمت لإثبات الحقوق العثمانية فى المناطق المتنازع عليها .

١ – أقوال الناس والمأثور عن القدامى وما يوقعون عليه من رغبتهم فى أن يكون تحت حكم السلطان .
٢ – الفرمانات والبيورولديات والأوامر الصادرة عن الولاية والموظفين .
٣ – الحجج الشرعية والقضائية .
٤ – سجلات (دفاتر) الضرائب .
٥ – محفوظات خزانة البصرة .
٦ – تاريخ المنطقة .
٧ – المراجع التركية (مثل دوحة الوزراء) والفارسية مثل (تاريخ وصولى) .
٨ – مذهب العشيرة .
٩ – وحدة العشيرة .
١٠ – خطوط تقسيم المياه .
١١ – ذرا الجبال .
١٢ – الأنهار وروافدها وفروعها وتاريخها .

(٢) Sheil to Palmerston. Aug. 16, 1861. (Pol. & Sec. Dept. Recs., letters fr. Agnts. & Cnsls., Vol. 98. pp. 175-178).

ويبدو أن حكام الولايات الواقعة على الحدود اعتقدوا أن حكومة طهران ستدخل الحرب فى صف روسيا(١) . والواقع أن الشاه صرح أنه لن يطعن أخاه العثمانى المسلم من الخلف(٢) . ولكنه اتخذ بعض الإجراءات العسكرية لحماية حدوده ولمواجهة هذه الظروف الحرجة . فأشيع أنه سيدخل الحرب ضد السلطان وأخذت الاستعدادات، تجرى بسرعة فى الجانبين(٣) .

كان رشيد باشا الكوزلكى — والى بغداد — مقدراً تمام التقدير للخطر الساحق الذى يتعرض له العراق لو دخلت إيران الحرب بجانب روسيا . فانهمك فى جمع الأموال اللازمة(٤) لتمويل القوات التى كان يعبئها لتتعاون مع القوات التى بعث بها الباب العالى من الأناضول لتنضم إلى العشرة آلاف جندى نظامى التى كانت فى العراق(٥) . فقد طلب رشيد من عشائر عنزة وشمر تقديم خيالتها لمواجهة الغزو المنتظر ، كما استدعى عبد الله بابان من منفاه فى الآستانة ليتولى تجميع القوات الكردية والدفاع عن منطقة السليمانية . وبعث كذلك « برسول بك » — آخر الأمراء الصورانيين — إلى كركوك لتعزيز الدفاع هناك ، ورصد عرب المنتفق لمواجهة قوات حاكم شوشتر(٦) وسيّر إلى زهاو زهاء ٣ — ٤ آلاف مقاتل(٧) وطلب من شيخ الكويت أن يواجه الهجوم المنتظر من جهة « خرج »(٨) . كما اتصل رشيد باشا بجابر شيخ المحمرة وتفاهم معه على خطة مشتركة لمواجهة

(١) Chesney : Narrative. pp. 111-113.

(٢) Thomson to Clarendon: 23 Jan. 1853)Ind. O.R.,F.R., P.P.G., Vol. 107. p. 127-131,135-42).

(٣) Lorimer : Op. cit. Vol. 1, Pt. 1. p. 1386.

(٤) Kemball to Redcliffffe: 5 Mch. 1856, No. 12. F.O. 78-1178.

(٥) Rawlinson to Rose: Jan. 24, 1953 & 26 Jan. 1853. F.O. 195-367.

(٦) Rawlinson to Redcliffe: 13 Dec. 1853. No. 36. Ibid.

(٧) Sheil to Russell: 24. Feb. 1853.)Ind. O.R.,F.R.,P.P.G., Vol. 103 p. 463).

(٨) Kemball to Thomson : 15 Dec. 1853.)Ind. O.R.,F.R.,P.P.G., Vol. 107. p. 83-90).

أى هجوم فارسى من المحمرة صوب البصرة(١) . وعلى وجه العموم استخدم كل ذى نفوذ أو قوة لتتكامل الإمكانات كلها لمقاومة الغزو المنتظر .

كانت الحكومة البريطانية تعمل على أن تقف الحكومة الفارسية على الحياد خلال حرب القرم . ولذلك ضغطت باستمرار على الشاه لتمنعه من الانسياق وراء الوعود الروسية . بعثت فى الوقت نفسه القطعتين البحريتين أوكلاند وأكبر Akbar ، Aukland إلى شط العرب لتتعاونا مع الباخرة البريطانية « كوميت » الراسية أمام المقيمية البريطانية فى بغداد فى مظاهرة بحرية ترهب القوى الفارسية فى جنوب البلاد(٢) .

ونظراً لما كان بين الدولة العثمانية والبريطانية من تعاون وثيق فى جبهات القتال ، تعاونا كذلك فى الدفاع عن الجبهة العراقية ، فقد عرض رشيد على الإنجليز أن يستقدموا جزءاً من القوات الهندية للمشاركة فى هذه المهمة . ولم يكن يدرى أن القنصل البريطانى فى بغداد كان يحث حكومته على أن تحتل القوات البريطانية العراق مذكراً إياها برغبتها خلال أزمة التوسع المصرى فى الشام ونجد فى تنفيذ هذه الأمنية ومؤكداً أن الظروف الحالية تستوجب بدرجة أكثر احتلال بغداد(٣) ، ولا شك أن تحالف الدولة العثمانية مع بريطانيا هو الذى حال دون تحقيق هذه الرغبة فى هذه الظروف .

ولم تكد تنتهى حرب القرم حتى اشتركت بريطانيا فى حرب ضد فارس . وكانت فارس حتى ذلك الوقت أكثر تفاهماً مع روسيا وكانت حكومة بريطانيا تقول إن روسيا تحرض فارس ضد المصالح البريطانية . وعندما بعث الشاه فى ١٨٥٦ بجيشه ضد الأمير الأفغانى المتحالف مع الإنجليز أعلن الإنجليز الحرب على الشاه واتهموه بأنه واقع تحت التوجيه الروسى . ونزلت حملة بريطانية فى عربستان ولقيت هذه الحملة تعاوناً

(١) Rawlinson to British Embassy: 25 Jan. No. 2 Saldanha. Pr. Turk. Arb. Parag. No. 79.

(٢) Rawlinson to British Embassy:25 Jan. 1854. Saldanha : Pr. Turk. Arb. Parag. No. 79. & Lorimer : Op. cit. Vol. 1, Pt. 1, p. 1386.

(٣) Rawlinson to Addington (Undersecretary of State for For. Aff.)F.O. Downing st. London. June 14, 1853. F.O. 195-957.

كبيراً من السلطات العثمانية فى العراق وكان هذا طبيعياً نظراً لتحالف الدولتين منذ حرب القرم(١) .

وقبل أن تصل الحملة إلى المحمرة(٢) غادرها الشيخ جابر إلى الأراضى العثمانية . فكانت فرصة لسلطات بغداد لاستعادة هذه المنطقة ، ولكن السلطات البريطانية قبل جلائها عن الميناء أعادت جابراً للحكم وأصبح له الخيار فى تحديد الجهة التى يميل إليها . وكان الفرس يدركون أن الموقف فى يد جابر حيث إن نفوذهم فى عربستان أصبح مضطرباً للغاية فى أعقاب هزيمتهم أمام الحملة البريطانية . ولذلك ثبتوا جابراً على حكم المحمرة بل وعدوه بأن يحل محل الشيخ فارس شيخ كعب . والواقع أن جابراً كان خلال الثلث الثانى من القرن التاسع عشر أكثر ميلاً للفرس فى معظم الأحيان . وهذا يفسر لنا إصرار السلطات الفارسية على إعادته إلى الحكم فى ١٨٦٢ بعد أن وقع غدراً فى يد أعدائه . ومنذ ذلك التاريخ قوى جانب جابر وظل متعاوناً مع السلطات الفارسية(٣) .

وبعد هزيمة فارس وعقدها معاهدة باريس (١٨٥٦) مع بريطانيا عادت لجنة الحدود إلى عملها واستمرت الدراسات من ١٨٥٧ — ١٨٦٥ ووضعت خلالها خريطة للحدود من جبال أرارات إلى الخليج العربى وقدمت الخريطة ليعتمدها الطرفان ووافق كل منهما عليها . ومع ذلك لم تحسم

(١) Lorimer : Op. cit. Vol. 1, Pt. 1. p. 1386 & Pt. 11. p. 1698. &
Low : Op. cit. Vol. 1. Pt. 1 p. 1403.
Shephard : Op. cit. p. 162.

(٢) يقول لوريمر إن سقوطها فى يد الإنجليز قوبل بالابتهاج فى البصرة .
Lorimer : Op. cit. Vol. 1, Pt. 11. p. 1386.

(٣) حصل جابر على اللقب الفارسى (نصرة الملك) وظل فى الحكم حتى توفى فى ١٨٨١ وهو فى التسعين من عمره . ومنذ عودته إلى الحكم فى ١٨٦٢ كان يعمل على شراء أراض فى المنطقة الواقعة تحت حكم العثمانيين ليعيش عليها إذا ما طرده الفرس من بلاده ونال بسبب هذه الممتلكات نفوذاً كبيراً فى ولاية البصرة .
Lorimer : Op. cit. Vol. 1 Pt. 11 pp. 1682-3; 1689.
وظل جابر يحكم حتى وفاته فى أكتوبر ١٨٨١ .
Curzon : Persia & Per. G., Vol. I. p. 323-325.
وانظر كذلك
Sykes : op. cit. Vol. II. p. 365.

هذه الخريطة أزمات الحدود . ومن ذلك أن الهماوند — وهم عشيرة كردية مشاغبة — أثارت الفوضى على الحدود فشكلت لجنة على مستوى عال ، وتقرر نفى بعض زعمائهم إلى الروملى . ويبدو أن الفرس أبوا إلا تحقيق مطالب معينة فضغطت الدولتان الوسيطتان الأوربيتان على الدولتين العثمانية والإيرانية حتى اضطرتا إلى احترام الوضع الراهن . واستمرت أزمة الهماوند وغيرها من الأزمات المعتادة — ولكن بصورة مبسطة — حتى عهد مدحت فى العراق الذى شهد أول زيارة رسمية لشاه قاجارى للعراق وهو ناصر الدين شاه .

الكتاب الثاني

الفصل التاسع

عهد مدحت في العراق ١٨٦١ – ١٨٧٢

إصلاحات مدحت

١ – قانون الولايات .

٢ – المجالس .

٣ – القضاء .

٤ – محاولات مدحت للسيطرة على العشائر .

٥ – تطبيق قانون الأراضي (الطابو) .

٦ – مدحت والضرائب .

٧ – عناية مدحت ببغداد .

٨ – عناية مدحت بالثقافة والتعليم .

٩ – عناية مدحت بالجيش والأسطول .

١٠ – خطوط البواخر النهرية والبحرية .

الفصل التاسع

عهد مدحت فى العراق ١٨٦٩–١٨٧٢

نشاط مدحت قبل اسناد ولاية بغداد اليه :

لعهد مدحت فى العراق سمعة كبيرة وأهمية لدى مؤرخى تاريخ العراق فضلاً عن أن مدحت نفسه شخصية لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ الدولة العثمانية ابتداء من النصف الثانى من القرن التاسع عشر . فقد وصفه البعض بأنه مصلح العراق ، ووصف كذلك بأنه أبو الدستور العثمانى ولذلك فدراسة نشاط مدحت فى العراق لايلقى ضوءاً على فترة هامة من تاريخ هذا البلد فقط ، ولكنه كذلك يتيح فرصة لرسم صورة متكاملة عن هذه الشخصية البارزة . ودراسة تاريخ العراق خلال الأعوام الثلاثة التى حكمها مدحت فى العراق يكشف لنا عن تجربة شاملة لإصلاح أمر البلاد ، وهذه المحاولة لم تحدث فى العراق فقط ، بل وقعت فى عدة ولايات أخرى .

بدأ مدحت نشاطه فى إصلاح أمور الدولة العثمانية منذ أن أسند إليه بعض الوظائف الكبيرة فى الدولة ، وكان خلال عمله فى هذه الوظائف معنيا بتحقيق الأهداف التالية :

١ – المساواة بين رعايا السلطان :

٢ – تركيز القوة الإدارية والقضائية فى يد رجال الحكومة .

٣ – خلق الموظف الأمين الذى يستطيع أن يلائم بين مصالح حكومته والرعية .

٤ – إشراك الأهالى مع الإدارات المختلفة فى إصلاح أمور البلاد .

٥ – سد الثغرات التى تنفذ منها الدول الأجنبية للتدخل فى أمور الولايات .

كانت هذه سياسته خلال مدة ولايته فى نيش، وامتازت مدة حكمه فى هذه الولاية بإصلاحات جد قيمة فقد أسس خط عربات لنقل البريد وللسياح ، وفتح مدرسة الإصلاحخانة للأيتام ، وشق الطرق والقنوات ، وعنى باستتباب الأمن . ولنجاحه هذا عهدت إليه الحكومة بولاية برزرين فى البلقان أيضاً ، فجرد أهلها من السلاح دون أن تتدخل الحكومة ، وقسط الديون المتأخرة على الناس ونجح فى أن يدخل عدداً من الأهالى فى الجندية .

رأى كل من عالى باشا وفؤاد باشا أنه يمكن استخدام إصلاحات مدحت كأساس لنظام عام للولايات ، وتدارسا معه الموضوع واتفقوا على ضم سلستره وودين ونيش بعضها إلى بعض لتكون « ولاية الطونه » التى ستنفذ فيها أول تجربة لإصلاح الولايات يشرف عليها مدحت .

بعد دراسات عديدة وضع قانون الولايات (١٨٦٤) وذهب مدحت إلى ولاية الطونة لتطبيقه . فألف مجلس الولايات والمتصرفيات والقائمقاميات والنواحى والقرى ، وأنشأ الوظائف باختصاصاتها المحددة ، وباشر التطوير الصناعى والاجتماعى للولاية ، وألغى النظام الضرائبى القديم ، وحدد الضريبة المفروضة على كل شخص ، وقوى إصلاحاته (١) بإنشاء البنوك الزراعية ؛ ونظراً لأن روسيا كانت خطراً مباشراً على الطونة لم يعتمد مدحت فقط على الجيش العثمانى فى الدفاع عنها ، بل اعتمد كذلك على المتطوعة الذين كانوا يحصلون على مرتب من الحكومة ليصد بهم أى هجوم مفاجئ ،

(١) نلخص هنا أهم المشروعات التى نفذها مدحت :
(ا) خط ملاحى بخارى فى نهر الطونه .
(ب) إنشاء المعابر وشركة عربات .
(ج) عنى بالمستشفيات والسجون .
(د) تعليم البنات والبنين .
(ه) أنشأ صناديق التوفير لتخليص الفلاح من المرابين .
(و) بيع المحصول تعاونياً .
(ز) نظام البلديات (انظر مذكرات مدحت : ١٣٩–١٤١) .

وأنشأ لهذا الغرض نقط حراسة على طول الحدود . ولكى يكون الشعب على بينة من أعمال الحكومة أصدر أول صحيفة حكومية فى تلك الجهات . وفى ميدان التعليم ، جعل المناهج الصناعية تخدم البيئة المحلية وحاجات الإمبراطورية فى آن واحد . وبعد عودة مدحت إلى الآستانة طبق عدداً هاماً من تلك الإصلاحات فى الآستانة نفسها . ولنجاحه هذا أسند إليه منصب « رياسة مجلس الشورى »(١).

ونظراً لأن خلافات جوهرية وقعت فى ١٨٦٨ بين مدحت والصدر الأعظم نديم باشا قدم الأول استقالته فقبلها السلطان وأسند إليه إدارة أمور الفيلق السادس الهمايونى مع انضمام ولاية بغداد . (٢) ويرى « واصف » أن عالى باشا خشى من شعبية مدحت فى الآستانة فأبعده إلى ولاية بغداد ليحد من شعبية مدحت. ويقول واصف أيضاً إن فؤاد أرسله إلى بغداد لأنه كان على مقدرة كبيرة فى التعامل مع الأجانب ، وخاصة مع الإنجليز الذين كانوا يسيطرون على مقدرات الخليج العربى ، وكان لهم فى أنهار العراق مصالح عميقة الجذور يخشى منها على مستقبل العراق . وربما كان إرسال مدحت إلى العراق فى الوقت الذى صادف قرب انتهاء عمليات حفر قناة السويس مقصوداً لمواجهة النتائج الكبرى التى ستترتب على توصيل البحر الأحمر بالمتوسط . فهذه الشخصية القوية هى القادرة على توجيه أمور العراق وفق أهداف الدولة نحو تقوية قبضتها على طول السواحل العربية وفى جعل العراق طريقاً عالمياً ينادد قناة السويس . وفيما أقدم عليه مدحت من أعمال فى العراق يؤيد هذه الفكرة .

(١) بعث الباب العالى بمنشورات إلى ولاة الدولة تحضهم على اتباع أساليب مدحت الإصلاحية فى ولاية الطونه

(٢) يتخذ واصف من هذه المبالغات دليلا على أن تعيين مدحت والياً على بغداد إنما كان بقصد إبعاده فقط.
انظر Vassif : Les Mertyres Celebres.

اصلاحات مدحت فى العراق :

ومن فرمان تولية مدحت نتبين الخطوط الرئيسية لسياسته . طلب منه أن يطبق فى العراق قوانين التنظيمات التى لم تطبق بعد مثل قوانين الأراضى والولايات والبلديات . وهى قوانين تعين على إشراف الأهالى فى تنمية الإنتاج وفى إدارة أمور البلاد فى إطار استخدام الأساليب الحديثة سواء فى الإنتاج الزراعى والصناعى أو فى تنمية العلاقات التجارية المحلية والعالمية . وأن يكون فى اعتباره تطوير أمور العراق الإنتاجية بما يتلاءم مع افتتاح قناة السويس من حيث تنفيذ مشروعات لخطوط المواصلات النهرية والحديدية وتقوية قبضة الحكومة على العشائر ضماناً لسلامة هذه الخطوط ولتوجيه هذه العشائر نحو الاستقرار فى الأرياف .

قانون الولايات :

صدر قانون الولايات فى ١٨٤٦ لتنظيم عملية اشتراك الأهالى فى إدارة أمور البلاد بالتعاون مع السلطات الحاكمة والهيئات الإدارية المختلفة . كذلك قصد به ربط الإدارات الفرعية فى الولاية بمقر الوالى ، وربط الولايات كلها ربطاً منظماً بالحكومة المركزية فى الآستانة . وينقسم هذا القانون إلى ثلاثة أقسام :

(ا) التقسيمات الإدارية والموظفين .

(ب) المجالس المحلية .

(حـ) السلطات القضائية .

التنظيم الادارى والموظفين :

اعتورت ولايات العراق الأربع : بغداد — الموصل — شهرزور — البصرة كثير من التعديلات حتى ١٨٦٨ . فقد تحولت البصرة إلى مجرد متسلمية تابعة لبغداد منذ منتصف القرن الثامن عشر وتقلصت ولاية الموصل حتى أصبحت مقصورة على مدينة الموصل ومنطقة صغيرة محيطة بها . كذلك أصبحت شهرزور مجرد اسم لولاية غير واضحة المعالم وأصبحت تحت

إشراف والى بغداد . وقد جرت محاولة لإحياء البصرة فى منتصف القرن التاسع عشر ، ولكن التجربة فشلت لأن الأمور المالية والعسكرية ظلت بيد والى بغداد . وعادت البصرة لتصبح مجرد متصرفية ضمن ولاية بغداد فى ١٨٦٣(١) . ولا شك أن ضعف البصرة عن الوقوف على قدميها فى وجه عشائر المنتفق وعن القيام بمهمة نشر النفوذ العثمانى فى شبه الجزيرة العربية والخليج العربى كان من العوامل الرئيسية التى أدت إلى إنزال البصرة إلى مرتبة المتصرفية .

وبمجىء مدحت وضع تنظيم جديد للتقسيم الإدارى للبلاد . فقد شكلت ولايتان فقط هما ولايتا بغداد والموصل ، شملت الأولى ولايتى بغداد والبصرة القديمتين ، وشملت الموصل ولايتى الموصل وشهرزور . وقسمت هذه الولايات إلى الألوية والأقضية التالية :

ولاية بغـداد :

لواء بغداد : ١ — قضاء خراسان . ٢ — قضاء خانقين
٣ — قضاء الكاظمية . ٤ — » سامراء .
٥ — » الدليم . ٦ — » عانه .

لواء الحلة : ١ — قضاء الهندية . ٢ — قضاء السماوة .
٣ — » الديوانية . ٤ — » النجف .
٥ — » الشامية .

لواء كربلاء : لم تظهر له تشكيلات فى عهد مدحت .

متصرفية البصرة: وتتبعها الأقسام الإدارية التالية : البصرة — المنتفق — العمارة — الكويت — نجد .

ولاية الموصل :

(ا) لواءالموصل: ١ — قضاء الموصل . ٢ — قضاء العمارية .
٣ — » زاخو . ٤ — » دهوك .
٥ — » عقره . ٦ — » سنجار .

(١) خورشيد : سياحتنامه : ٤–٥ ، لونكريك : أربعة قرون : ٢٢٦

(ب) لواء كركوك : ١ – قضاء راوندوز . ٢ – قضاء أربل .

٣ – « صلاحية (كفرى) ٤ – قضاء كويسنجق

٥ – قضاء رانية .

(ح) لواء السليمانية : ١ – قضاء كل عنبر ٢ – قضاء بازيان .

٣ – قضاء قره طاغ ٤ – قضاء شهر بازار

٥ – قضاء مركه ٦ – قضاء الجاف

وكانت البصرة خلال عهد مدحت متصرفية وكذلك نجد . وكانت متصرفية البصرة تنقسم إلى :

(١) البصرة (ب) المنتفق (ح) العمارة .

أما متصرفية نجد فكانت تضم الكويت والأحساء وعندما أصبحت البصرة ولاية أصبحت نجد والأحساء من سناجقها .(١)

كان التقسيم إلى ولايات وإلى سناجق وأقضية خطوة ضرورية لتشكيل الإدارة الجديدة بموظفيها ذوى الاختصاصات المحددة . وعلى يد مدحت استكمل الجهاز الإدارى شكله تقريباً . وأضاف مدحت عدداً من الموظفين الجدد الذين نصت عليهم قوانين الولايات .(٢)

وكان الوالى – كما كان الحال من قبل – على رأس الجهاز الإدارى . ولكن مدحت ، بسبب الثورات التى واجهها ، وبسبب ظروف التوسع العثمانى جمع منصبى الوالى والمشيرية . وقد حددت سلطات الوالى على النحو التالى :

(١) انظر تطور الأقسام الإدارية فى :
عباس العزاوى : تاريخ العراق : ج ٧ : ١٦٨ – ٩ ، لونكريك : أربعة قرون : ص ٢٩٩
خورشيد : سياحتنامة : ١٨–٢١ ، ٢٤٦–٢٤٧ ، ٣٠٠
سالنامة الدولة العثمانية لسنة ١٢٨٠

Cuinet : Op. Cit. III. p. 216, 761.
Verney : Op. Cit. p. 7 & Ross : Letters. pp. 109-110.
Annuaire Diplomatique. pp. XXXVIII-XL.

(٢) الدستور : ج ١ : ٣٨٢–٣٨٤ ، ٣٩٨–٣٩٩ ، ٤٠٣–٤٠٥ .

١ – نظارة أمور الولاية الملكية والمالية والأمور المتعلقة بالقضايا والقوانين والحقوق العامة .

٢ – تنفيذ جميع أوامر الدولة وأحكامها .

٣ – رياسة مجلس إدارة الولاية .

٤ – توزيع قوات الضبطية على الأقضية والألوية .

٥ – تنفيذ الأحكام الصادرة من ديوان التمييز .

٦ – التفتيش على أحكام المتصرفين والقائمقامين وموظفى الدولة .

٧ – مراقبة عمليات تحصيل الأموال الحكومية .

٨ – التقيد بميزانية الولاية .

٩ – العمل على ترقية المصارف .

١٠ – وضع مشروعات اقتصادية للبلاد .

١١ – له الحق فى الظروف الاستثنائية فى القيام بأمور دون الرجوع إلى الباب العالى على أن يخطر بها الباب العالى فوراً .

وكان يعاون الوالى مجموعة من الموظفين الجدد على رأسهم معاون الوالى الذى حل محل كتخذا الوالى .

وكان المكتوبجى مسئولاً عن قلم التحريرات بالولاية فهو مكلف بتحرير المكاتبات بين الولاية والجهات الرسمية وحفظ المكاتبات والوثائق الحكومية (أرشيف) . أما الدفتردار فمسئول عن الأمور المالية ، ويعينه الباب العالى . ومدير الأمور الأجنبية هو الواسطة بين السلطات الحاكمة والدول الأجنبية ، ويعينه الباب العالى بترشيح من وزارة الخارجية . ويتولى قيادة قوات الضبطية آلاى بك(١) .

أما فى الألوية والأقضية فكان على رأس كل لواء متصرف له سلطات الوالى فى لوائه . ومرجعه الوالى ويعين من قبل الدولة . وينفذ أوامر الوالى والدولة فى لوائه ، ويرأس مجلس اللواء وهو قائد فرقة (الضبطية) فى

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق : ص ١٧٧–٢٢٧–٢٦٠–٢٦١ .

اللواء ويوزعها على الأقضية حسب أوامر الوالى . ويعاونه على تصريف أمور اللواء عدد من الموظفين أهمهم : المحاسبة جى (المحاسب) ومدير التحريرات فى اللواء ومدير الدفتر الخاقانى وقائد ضابطية اللواء .(١)

والأول والثانى يعينان من قبل الدولة . وللمتصرف معاون هو قائمقام القضاء الذى فيه مركز الولاية ويسمى معاون المتصرف .(٢)

أما الأقضية فكانت تحت حكم قائمقامين . وكان القائمقام يعين من قبل الدولة وأحياناً يمنح رتبة الميرميرانية مع القائمقامية .

وينظر القائمقام فى الأمور الملكية والمالية والضبطية ومرجعه متصرف اللواء وهو مسئول عن تحصيل واردات الدولة واستيفاء المصروفات . وهو آمر فرقة الضبطية فى قضائه ويتولى الإشراف على انتخاب مديرى النواحى .(٣)

وللناحية مدير يقوم بنشر القوانين ونظم الدولة وإعلان أوامرها على الناس وإرسال قيود المواليد والوفيات والورثة القصر والورثة الغائبين إلى مركز القضاء . وهو همزة الوصل بين مركز القضاء والمختارين . كما يقوم بإرسال المبالغ المحصلة إلى مركز القضاء ويسلم أوامر الحجز ودعاوى البروتستو لمن هى مرسلة إليه . ويقوم بإجراء التحقيقات الأولية للجنايات. ثم يخطر مركز القضاء بها وهو يرأس مجالس الدعاوى الاعتيادية ويبلغ قراراتها إلى القائمقام . وهو مسئول عن الأمن فى ناحيته ويشرف على «تحصيلدارية» الأموال . ونظراً لتشعب مهام مديرالناحية ولسنوح الفرص أمامه لاستغلال سلطته ضد مصالح الناس والدولة نصت القوانين على منحه من توقيع أى جزاء على أى فرد أو التدخل فى أمور الوظائف الأخرى .(٤) ذلك كان هو الجهاز الإدارى الذى يرعى مصالح الحكومة والأهالى .

---

(١) الدستور : ج ١ : ٣٨٦–٣٨٧ العزاوى : تاريخ : ج ٧ : ٢٦١
(٢) الدستور : ح ١ : ٣٨٨–٣٨٩ – العزاوى : تاريخ : ج ٧ : ص ٢٦١ .
(٣) الجوائب : الآستانة : العدد ٣٦٨ السنة الثامنة أول ديسمبر ١٨٦٨ م – ١٢٨٥ هـ .
تبصره عبرت : ١٨٤–١٨٦ ، الدستور : ح ١ : ٣٨٩ .
(٤) الدستور : ح ١ : ٤٠٨–٤٠٩ .

وقد نص القانون على إشراك الأهالى فى توجيه أمور البلاد مع الموظفين ولهذا الغرض أنشئت المجالس . وجعل لكل ولاية مجلس ، ولكل لواء مجلس وكذلك بالنسبة للقضاء والناحية . وهو تشكيل هرمى قاعدته مجالس الاختيارية وقمته المجلس الكبير .

المجلس :

تألف المجلس الكبير (مجلس الولاية) فى بغداد قبل مدحت ، ولكنه لم يكن قادراً على القيام بمهامه . كان أعضاؤه يوافقون على مايراه الوالى ولذلك تعطلت أعمال المجلس حتى مجىء مدحت . ويتكون المجلس الكبير من :

(ا) الوالى رئيساً .

(ب) الأعضاء المنتخبون بواقع اثنين من الأهالى ولا تتجاوز مدة انعقاده أربعين يوماً . ويجتمع مرة واحدة فى السنة وتتلخص مهامه فيما يلى :

١ – دراسة أساليب تنمية الاقتصاد الزراعى التجارى .

٢ – مناقشة ما يقدمه الوالى من اقتراحات بشأن الولاية . وعلى الوالى أن يستمع إلى أعضاء المجلس وأن يعرض عليه مايراه ضرورياً . ولكن قرارات المجلس غير ملزمة للوالى بتنفيذها إذ تبلغ قرارات مجلس الولاية إلى حكومة الآستانة فتبعث هذه بردها ويقوم الوالى بتنفيذ أوامر الحكومة .

٣ – المحافظة على الطرق وعلى المنشآت العامة وإصلاحها .

٤ – دراسة ما يتعلق بتعديل ضرائب الألوية وتوزيعها .

٥ – يقوم المجلس بالنظر فى التهم الموجهة إلى مأمورى الولاية واستجوابهم .(١)

وقد كان لكل عضو من أعضاء المجلس راتب خاص حتى لا تكون الحاجة إلى الأموال سبباً فى أن تهدم الغرض الرئيسى الذى أنشئ من أجله المجلس الكبير وهو النظر فى أمور الرعية وإصلاح حالها والتضحية بالمصالح الشخصية فى سبيل المصلحة العامة(٢) . وبطبيعة الحال كان مجلس بغداد

---

(١) الدستور : ح١ : ٣٨٥–٣٨٦–٤١١–٤١٣ .
(٢) العزاوى : عشائر : ج ٤ : ٢٤٩ .

يضم مندوبين من الأسرات الحاكمة العشائرية أو المدنية إلى جانب ممثلى الإدارات الحكومية وكان من أعضاء المجلس أيضاً بعض الأشراف (١).

وأما مجلس إدارة اللواء فيتألف من :

١ — متصرف اللواء رئيساً .

٢ — حاكم القضاء الذى هو مقر المتصرف .

٣ — مفتى البلدة .

٤ — رؤساء الأهالى غير المسلمين .

٥ — المحاسبة جى .

٦ — مدير التحريرات .

٧ — أعضاء دائمين : ثلاثة من الأهالى المسلمين وثلاثة من غير مسلمين .

واختصاصه كما يلى :

١ — النظر فى الأمور الملكية والمالية والضابطية والتحصيلية والنافعة والطابو والشئون الزراعية .

٢ — النظارة على أموال الحكومة(٢) .

وكان فى كل قضاء مجلس إدارة يتألف من ثلاثة من الأهالى المسلمين منتخبين وثلاثة من الأهالى غير المسلمين منتخبين كذلك إلى جانب عدد من موظفى القضاء .

ولكل ناحية أيضاً مجلس إدارة وتكوينه معقد نوعاً بالنسبة للمجالس الأخرى . ويتولى مدير الناحية رياسة المجلس ويضم أربعة من مجالس الاختيارية (فى القرى) ، ومكان وزمن اجتماعه يحدده قائمقام القضاء ، وهويجتمع أربع مرات فى السنة فى مركز القضاء على ألايتجاوز زمن انعقاده أسبوعاً واحداً فى كل مرة . وإصدار القرارات فيه يعتبر أهم مافى نظم تشكيله . فقد نص على إصدار القرارات بأغلبية . ولا عجب إذا عرفنا

(١) نص على عدم تدخله فى الشئون القضائية : الدستور : حـ١ : ٣٧٨ .

(٢) العزاوى : تاريخ : : حـ ٧ : ص : ٢٦٧–٢٦٨، ٢٨٤ .

أن واضع هذا القانون هو مدحت باشا أبو الدستور . إن فلسفة الحكم التى دارت فى رأسه عند ما وضع قانون الولايات يمكن أن نكشفها من دراسة مجالس الإدارة ، فهى تهدف إلى تدريب الناس على الحكم المحلى والترقى بهذا الحكم بإشراك الشعب نفسه بنفسه ، وأن يكون لأهل المكانة الرأى فى إدارة أمورهم على أن تظل للحكومة المركزية اليد العليا فى تصريف أمور الدولة(١) .

أما اختصاصات مجلس النواحى ففيها شىء من التدريب على نظم الحكم المحلى . فللمجلس — فى حدود معينة — أن ينفذ قراراته مباشرة . وإلى جانب ذلك يشرف المجلس على المؤسسات الحكومية وعلى استغلال الأشجار البرية والمراعى والمشافى المشتركة(٢) .

وأخيراً مجلس إدارة القرية (مجلس الاختيارية) . ويتكون بطريقة خاصة . فقد نص القانون على أن تقوم كل طائفة بانتخاب « مختارين » لايزيد عددهم على ١٢ ولايقل عن ثلاثة إلى جانب أئمة المسلمين ورؤساء الطوائف الروحيين غير المسلمين . وقد تم انتخاب المختارين وكانت مدة العضوية سنة ويمكن انتخابهم لمدى الحياة ومهمتهم رعاية شئون الحكومة فى القرية ورعاية مصالح الأهالى(٣) . ومن ثم كان مجلس القرية أيضا خطوة واضحة نحو ممارسة النظام الانتخابى وتدريب الأهالى على الحكم النيابى . فقد كان انتخاب المختارين يتم داخل النظام الطائفى ، فكل طائفة كانت تنتخب مختاريها ، ومن ثم كان هذا النظام يبعد المواطنين إلى حد ما عن تسلط الحكومة وضغطها على الانتخابات وتتيح حرية انتخابية أكثر(٤) .

(١) الدستور : حـ ١ : ٣٨٩ وقد نص عدم تدخله فى الشئون القضائية .

(٢) أن هذا الاتجاه هو الذى جعل حكام الآستانة يسيئون الظنون به ويعتقدون أنه يريد أن يستقل بسوريا . انظر أحمد أمين : زعماء الإصلاح : ٥٥ بل إن بشير الشهابى فى كتابه القومية العربية يقول إن مدحت شجع الحركة العربية .

(٣) الدستور : جـ ١ : ٦ ٤١–٤١٧ .

(٤) الدستور : حـ ١ : ٣٩١–٣٩٢ — لطفى : ٥ : ٣٥ .

وإذا ما استعرضنا مهام مجلس الاختيارية يتبين لنا أهمية الدور الذى كان من الممكن أن يلعبه فى ترقية شئون بلدته .

كانت هذه المهام عبارة عن :

١ – إبلاغ القوانين الواردة من طرف مدير الناحية .

٢ – تحصيل أموال الحكومة من سكان القرية وفق ماقدره المجلس الاختيارى.

٣ – توزيع تذاكر الاستدعاء التى ترسل من جانب الحكومة للأشخاص .

٤ – تبليغ أوامر الحجز والبروتستو .... الخ .

٥ – التبليغ عن المواليد والوفيات .... الخ .

٦ – التبليغ عن الجنايات .

٧ – التبليغ عن الأراضى المملوكة .

٨ – النظارة على الذين ينتخبون من طرف مجالس الاختيارية ليعينوا فى فرقة (ضبطية) القرية مثل النواطير (الخفراء) وغيرهم .

٩ – العمل على تقدم القرية من جميع نواحيها .

١٠ – المحافظة على أموال اليتامى .

١١ – إدارة المكاتب (الكتاتيب) .

١٢ – إجراء التحقيقات الأولية فى الجنايات .

١٣ – تعمير الجسور والقناطر .

ومهام المختار هى نفس هذه المهام ولذلك فدور المختار فى القرية كان كبيراً لو قام بتلك المسئوليات خير قيام .(١)

كذلك نص القانون على تشكيل مجالس بلدية فى كل مدينة . ويتكون من رئيس ومعاون وستة أعضاء ومن أعضاء فنيين فى الأمور البلدية وأمين صندوق وأعضاء منتخبين .

ويتولى المجلس الإشراف على جميع الأبنية وتصريف وتوزيع المياه

(١) الدستور : جـ١ : ٣٩١-٣٩٢-٤١٧-٤١٨ .

والإشراف على المعابر وطرق المواصلات وعلى نظافة البلدة وزينتها وعلى المقاييس والموازين والأسعار والإنارة وجمع الغرامات من المخالفين لقوانين المجلس البلدى . ويتكون دخله من :

١ – الإعانة الحكومية . ٢ – الغرامات المجموعة من المخالفين .

٣ – الرســوم .

أما المصروفات ففى النواحى التالية :

١ – على الطرق والمعابر والإنشاءات .

٢ – المصاريف الإدارية ومعاشات الموظفين به .(١)

ولقد أبقى فى بغداد على منصب « باب العرب » مع أنه لم يرد فى قوانين التنظيمات ، أو الولايات . وكان هذا المنصب موجوداً منذ أوائل القرن الثامن عشر . وكانت مهمته أن يكون واسطة بين العشائر العربية والوالى لحل المشكلات بين الطرفين . وكان المنصب موجوداً كذلك فى الموصل (١٨٤٧) .(٢)

القضاء :

تلك كانت العناصر التى قامت عليها الإدارة فى الولاية ، أما السلطات القضائية فكانت تتبع قواعد أخرى تسير على أساس الفصل بين السلطات التنفيذية والقضائية . وكان أهم هيئة قضائية فى الولاية هى ديوان التمييز . ووظيفته النظر فى الدعاوى القانونية المتعلقة بالأموال والأملاك والقضايا الجنائية التى حكمت فيها محاكم الألوية واستؤنفت .

ويتشكل ديوان التمييز من :

١ – الرئيس (وهو مفتش الأحكام) .

٢ – ستة أعضاء :

(١) الدستور : جـ ١ : ٤٢٠ – ٤٢١ .

(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٧ : ص ٢٦٧-٢٦٨ ٢٨٤ .

(أ) ثلاثة مسلمين . (١)

(ب) ثلاثة مسيحيين . (٢)

٣ – مأمور مخصوص معيَّن من قبل السلطان لينظر فى الأمور القضائية . كما كان هناك « مجلس الجنائية » وكان يؤلف من بعض أعضاء ديوان التمييز للنظر فى بعض الدعاوى الجنائية التى تحتاج إلى دقة فى البحث . (٣)

وقد حكم ديوان التمييز فى بغداد على عبد الكريم بن صفوق بالإعدام(٤) . ولكن القضاء كان معرضاً لبعض الضغوط عليه كانت تحول دون قيامه بمهمته على خير وجه فقد امتدت أيدى بعض القضاة للرشوة كما كان رجال الحكم يضطرونهم إلى إعداد الأحكام حسب هواهم(٥)، وحسب المصالح السياسية فى بعض الأحيان . فقد أوعز الوالى بإصدار أحكام قضائية لصالح آل الصباح لاسترضائهم وجلبهم إلى جانب الحكومة . (٦)

ولم يكن من حق ديوان التمييز أن ينظر فى القضايا المتعلقة بالأمور الشرعية الإسلامية لأن لها محاكمها الشرعية وكان يعين لبغداد نائباً للشرع . (٧) ولا بالأمور الدينية المسيحية لأنها تنظر أمام الإدارات الدينية المسيحية المأذونة بذلك . كما لم يكن من حقه النظر فى القضايا المتعلقة بالتجارة إذ كان لهذه مجلس خاص فى الولاية هو مجلس التجارة ، له رئيس خاص ولأعضائه طريقة معينة فى التعيين نص عليها قانون التجارة . وللسنجق الذى يوجد فيه مركز الولاية مجلس تمييز وجنايات ومجالس إدارة. (٨)

---

(١) انظر طريقة انتخابهم فى الباب الخامس من نظام الولايات .
(٢) انظر طريقة انتخابهم فى الباب الخامس من نظام الولايات .
(٣) الدستور : جـ ١ : ٣٨٤ – ٣٨٥ .
(٤) انظر الفصل الثانى عشر .
(٥) مذكرات مدحت : ١٨٤ – ٢٠٠ – ٢١٢ .
(٦) عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت . قسم أول : جـ ٢ : ٢٠ .
(٧) الزوراء : عدد ٢٩ فى ٢٤ من رمضان ١٢٨٦ هـ .
(٨) الدستور : جـ ١ : ٣٨٥ .

والحق أن الجهاز الإدارى والقضائى الجديد فى العراق كان يمر بتجربة خطيرة فهو بنظامه المتشعب وعدم كفاية موظفيه لم يكن مقدراً له النجاح التام إلا إذا وقف على رأسه وال قوى حازم يأخذ بيده . ولقد حظى بذلك فترة قصيرة جداً فى عهد مدحت .

وبعد ذلك ساءت أحوال الإدارة . (١) وليس من السهل علينا أن نتحدث عما قام به موظفو الولاية ومجالس الإدارة من أعمال لأن الفترة التى حكم خلالها مدحت العراق كانت قصيرة لا تزيد على ثلاث سنوات ، ملأتها الثورات الداخلية والمشكلات الخارجية . (٢)

محاولات مدحت للسيطرة على العشائر :

كان العقبة الكبيرة التى تواجه تطبيق قوانين الولايات فى العراق وجود عشائر عربية قوية لتنقلة تعارض بشدة إدخال هذه النظم الجديدة الإدارية وتقاوم أية محاولة من جانب الحكومة لتقوية قبضتها عليها . وعندما جاء مدحت العراق أراد أن يجمع الضرائب كاملة من العشائر . وكان من عادة العشائر أن تقاوم مطالب الحكومة بالمساومة أحياناً وبالسيف أخرى .

وكان مدحت متمسكاً بحقوق الحكومة ، وشعرت العشائر أن مدحت من طراز جديد وأنه سيعمل على تقوية سيطرة الحكومة على العشائر وتطبيق قانون الولايات الذى يقضى على حريتهم وعلى نظامهم المشيخى(٣) ، فقررت عشائر وسط العراق مقاومته بحد السيف. ولسوء حظ القوة التى بعث بها مدحت إلى هذه العشائر أنها عسكرت فى مكان يسهل تطويقها فيه . ولذلك تشتت هذه القوة بعد ثلاثة أيام من القتال وسقط القائد العثمانى ومتصرف الحلة فى الميدان وانتشرت أنباء انتصار العشائر بسرعة فى القرى والبيد .

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ : جـ ٨ : ص ٣١٢ .

(٢) هذا إلى جانب أننا لم نستطع الاطلاع على الوثائق التركية الخاصة بولايات العراق والمحفوظة فى استانبول . وفشلت كل المجهودات التى بذلت لإحضار مصورة لصحيفة الزوراء التى صدرت فى بغداد فى ١٨٦٩ .

(٣) Kemball to Elliot: 17 June, 1868. F.O. 195-803 A.
Ibid. do - do.: Aug. 6, 1868.

وتصور العرب أن الوقت حان لتحتفظ كل عشيرة بأموالها بعيدة عن أيدى الحكومة ، وانتشرت روح الثورة فى عجل وانقطعت خطوط البرق والطرق إذ أن هذه الخطوط كانت فى نظر العشائر وسائل تعين الحكومة عليهم لا لخدمة مصالح الشعب . ورأى مدحت فى هذه الثورة امتحاناً مبكراً لمقدرته وفرصة لإقناع الجميع أنه لابد من أن تحترم الرعية الحكومة . فبعث بقوات كبيرة من الجيش تؤيدها خيالة المنتفق . إلا أن العمليات الأولى كشفت عن سوء تصرف القائد العثمانى سامح باشا مما أطمع العشائر فيه . وربما كان سامح مقتنعاً بأن المفاوضة مع شيوخ العشائر أجدى حتى لا تتعرض البلاد لخسائر كبيرة . إلاأن مدحت كان يعتقد أن تنفيذ إصلاحاته تتوقف على التغلب بالقوة على هذه الثورة لأن قانون الولايات لا يمكن أن يطبق إلا مع وجود قوة فى وسط العراق الذى أصبح ذا أهمية عالمية فى مجالات المواصلات البخارية النهرية وخطوط البرق . ولذلك أصدر مدحت أمراً بعزل سامح وإسناد القيادة إلى أحمد باشا . وكانت الخطوة الأولى هى منع انسياب المياه إلى شط الكار ليتمكن الجيش من الاقتراب من تجمعات العشائر لتصبح تحت رحمة المدفعية ونجح الجيش فى إقامة السد(١) ، نظراً لأن بنادق العشائر قصيرة المدى وقيادتها ارتجالية ولاتستطيع أن تستمر فى حرب طويلة الأجل. وأخذت كفة الجيش ترجح كلما ضاقت المسافة بين القوتين وطال الزمن . وحاولت عشيرة الجبور أن تنقذ الموقف فى أدق مراحله فأعلن شيخها انضمامه إلى الجيش لينقلب عليه فجأة ، ولكن الشيخ لم يكن ماهراً فى تنفيذ الخطة وانكشف أمره ، ودب اليأس فى قلوب الثوار عند ما انتشرت أنباء انضمام عشائر شمرية كبيرة — بقيادة عبد الكريم بن صفوق — إلى الجيش وقام الثوار بهجمات عنيفة متواصلة عليهم ليحرزوا نصراً قبل وصول شمر الجربا التى كانت تتجه صوب مكان المعركة ، ولكن دون جدوى . فأخذت العشائر تطلب الأمان من مدحت الواحدة بعد الأخرى . وكلف مدحت قوة من الأكراد بمطاردة شيوخ عفك وجليحة زعماء الثورة . وقبض على بعضهم وقدمهم للمحاكمة

(١) العزاوى : تاريخ العراق : حـ ٧ : ٢١٠ — ٢١٣ .
Midhat : The Life of Midhat p. 49.

فحكم على اثنين بالإعدام الذى نفذ فيهما على جسر الديوانية كما نفى عدداً من الشيوخ الآخرين إلى الروماللى . ثم عفا عن الأهالى ومنع الجيش من التعرض لهم وركز جهده فى القبض على الشيوخ فالشائع هو « أن شيوخ العشائر يولدون هذه الفتن وأهل العشيرة متعلقون بالشيخ وأوامره »(١) .

ويحاول مؤرخو حياة مدحت التهويل من أمر الثورة ، والواقع كما يرى العزاوى(٢) أنها لا تختلف كثيراً عن سابقاتها . والفارق الواضح هو ما انتهت إليه من محاكمة وإعدام . وأغلب الظن أن مدحت نظر إلى هذه الثورة لا على أنها ثورة من ثورات العشائر المعتادة وإنما على أنها تؤثر فى المصالح العثمانية وفى العلاقات مع الأجانب ومع فارس .

ولقد سكنت العشائر بعد إخماد الثورة طيلة حكم مدحت باستثناء عشائر شمر التى كانت تحت عبد الكريم . وأغلب الظن أن عبد الكريم حينما هبط بعشائره من نواحى أورفه وشمال العراق لنجدة جيش الحكومة خلال معارك الدغارة لم يكن مخلصاً فى خدماته . وكانت الإشاعات القوية تؤكد أنه يدبر للجيش مكيدة لشدة كراهيته للترك . ويبدو أن استسلام العشائر الثائرة هو الذى منع عبد الكريم من الاستمرار فى مغامرته . وعند ما التقى مدحت بعبد الكريم رحب به وعاد معه إلى بغداد (ديسمبر ١٨٦٩) دون أن يكشف له عن مخاوفه منه(٣) .

والمعروف أن فرحان باشا كان شيخ عشائر الجربا الرسمى وكان ميالا إلى التفاهم مع السلطات العثمانية التى كانت تمنحه مرتباً شهرياً . كما كان مخلصاً فى العمل على إقرار أفراد عشيرته فى بقعة محددة لتتحول فيها إلى الإنتاج الزراعى . ولقى هذا الاتجاه مقاومة شديدة .

كان فرحان بن صفوق من زوجته الحضرية ، أما عبد الكريم فكان ابنه من عمشة زوجته العربية الشمرية ذات الصيت بين العرب بروحها المتعصبة

(١) أحمد سوسه : وادى الفرات : حـ ٢ . ٢٦٨ — ٢٦٩ .
(٢) العزاوى : تاريخ : ٧ : ٢٢٠ — ٢٢١ .
(٣) تبصره عبرت : ١١٠ — ١١٣ .

للحكم العربى المخلص ونحو رفع أحد أبنائها إلى منصب مشيخة عشائر شمر الجربا بأسرها ليقودها فى حاضرها وفى مستقبلها مثلما قادها من قبل صفوق . وكان عرب شمر حقيقة يتطلعون إلى عربى عريق بدوى على جواد أصيل أشهب اسمه رعب الحضر ومن غزواته أناشيد الرواة ، يقاتل جند الحكومة ويطالب بثأر العشيرة ، وليعود بين الفينة والفينة ومن ورائه الأسلاب إلى خيمة كبيرة ضربت فى الصحراء يجتمع أمامها شيوخ العرب وأعضاء مجلسه .

إنها فترة الانتقال تجتازها العشائر . ولابد من أن تقف العشائر على مفترق الطرق قبل أن تسير فى إحداها . تلك طبيعة الأوضاع حينذاك ، قسم أدرك قيمة الإنتاج الزراعى والهدوء والدخل المنتظم فتخلى عن خيمته إلى بناء من لبن بسيط أو ضرب خيمته فى الأرض الزراعية حتى يعى قيمة بناء منزل ريفى . وقسم نفر من الفلاحة وتمسك بالرعى والغزو وهو الذى انضوى تحت لواء عبدالكريم. وانتقد عبدالكريم أخاه فرحان بسبب المرتب الذى يتقاضاه من الترك وأعلن عبد الكريم أن عروض مدحت له الخاصة باستقرار العشيرة فى الأرياف تهدف إلى سلب العرب حريتهم . ونادى عبد الكريم بين العشائر العربية لتقف فى وجه سياسة مدحت ، ويبدو أن عبد الكريم بدأ يتلقى التأييد من بعض العشائر القوية فأعلن مدحت عن عشرة آلاف قرش لمن يأتيه به حياً ونصف المبلغ لمن يأتيه به ميتاً . ووضع مدحت خطة دقيقة وسريعة للقوات التى استدعاها من الأناضول والموصل لمطاردته . وكان من الطبيعى أن تنكسر قوة عشائر شمر الجربا التى كانت تحت قيادته ، لأن القسم المنضم إليه كان قليلا . ومن ناحية أخرى لم يكن عبد الكريم بالشيخ العربى المحنك . حقيقة اختار بمهارة وقت ثورته إذ كانت جيوش الدولة حينذاك منهمكة فى حملة الأحساء(١) . ولكن تمرده جاء بعد أن كسبت الحكومة جولتها الأولى فى الدغارة وبعد أن ضمنت ولاء القسم الأكبر من

(١) سنتحدث عنها بعد قليل ص ٤٠٤ .

عشائر الجربا تحت قيادة أخيه فرحان باشا(١) . هذا إلى أن عمليات عبد الكريم العسكرية كانت تدل على تهور إذ اجتاح مائتى قرية ونهب القوافل وأصبح بذلك فى نظر مدحت متمرداً يجب القضاء عليه(٢) .

أسقط فى يد عبد الكريم بعد أن نكبه الجيش نكبات متعددة فعبر الفرات ماراً إلى بنى عمومته فى جبل شمر إلا أن مدحت سد عليه الطريق إذ بعث بتهديد قوى لآل الرشيد إن هم آووه(٣). وما كان حكام جبل شمر ليعصوا أمر مدحت فى الوقت الذى كانت القوات العثمانية قد استولت فيه على الأحساء وتنوى التقدم نحو نجد . هذا إلى أن أوضاع الأسرة الحاكمة فى حائل كانت سيئة بسبب الصراع الأسرى المحتدم فيها . وأغلق مدحت بقية الطرق فى وجه عبد الكريم وكان جريحاً ، فسقط بسهولة فى يد ناصر باشا السعدون شيخ المنتفق الذى سلمه إلى الحكومة .(٤) وروت لنا آن بلنت Ann Blunt قصة تسليم ناصر لعبد الكريم بما يشين خلق ناصر(٥) .

(١) هناك أسباب أخرى رددها بعض المعاصرين عن ثورته وفيها أنه كان يحب فتاة من ذوى قرباه من عشيرة طى على جانب كبير من الجمال مع أنها كانت متزوجة ، فلما أراد أن يأخذها عنوة قطع الزوج زوجته إرباً أمام عينى عبد الكريم فجن جنونه منذ ذلك الوقت وطفق يهاجم البلاد .

Blunt : Bedouin. I. pp. 122-125.

ويقول هربرت إن السبب يرجع إلى نزاع بين عبد الكريم وعشيرة العقيل على الضريبة التى تدفعها القوافل التى تعبر أراضى شمر .

Herbert to Elliot: 17 July 1871 F.O. 195-949.

وهناك تفصيلات طويلة عن المعارك التى دارت بين عبد الكريم وقوات الحكومة ضربنا صفحاً عنها .

Herbert to Elliot: 2 Aug. 1871. No. 36. Ibid.
« « « 30 « « « 42 «
« « « 26 Sep. 18171 No. 46 Ibid.

(٢) وانظر تبصره عبرت : ص ١١٠ — ١١٣ .

وعبد الوهاب القيسى : حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية وتأثيرها فى العراق مجلة كلية آداب بغداد .

(٣) تبصره عبرت : ١١٠ — ١١٣ .

(٤) تبصره عبرت : ١١٠ — ١١٣ .

Herbert to Elliot: Sep. 26. 1871. No. 46. F.O. 195-949.

(٥) A. Blunt : Bedouin Vol. I. pp. 122-123.

ولكن إذا نظرنا للموضوع من جانب آخر – أى جانب القانون – وإذا حكمنا على تصرف ناصر على أساس أنه موظف من رجال الحكومة لوجدنا أنه تصرف لا غبار عليه .

قدم عبد الكريم للمحاكمة أمام مجلس التمييز فى بغداد فحكم عليه بالإعدام وأرسلت أوراق الحكم إلى الآستانة . فصدرت الأوامر بأن يرسل إلى العاصمة العثمانية ولما وصل إلى الموصل كان الجلاد ينتظره هناك ونفذ فيه الحكم شنقاً فى المكان الذى بدأ فيه ثورته(١) .

ولا شك أن القضاء على تمرد عبد الكريم لم يثبت حكومة مدحت فقط ، بل جعل مشروعاته نحو ربط العراق بالشام بخطوط برية ممكنة التحقيق. كما أشرعت الحكومة فى سياسة إقرار العشائر فى الأراضى الزراعية ، ونظراً لأن فرحان – أخا عبد الكريم شيخ شمر الجربا – قبل عروض الحكومة فى هذا الشأن ، فكر مدحت فى رفعه إلى منصب المتصرفية(٢) . ولكن لم ينفرد فرحان أبداً بحكم العشيرة كلها تحت قيادته . فإذا كان عبد الكريم قد قضى عليه فإن أمه عمشة فرت بابنها فارس وبأولاد عبد الكريم إلى جبل شمر . وهناك نشأتهم على البداوة الأصيلة وأرضعتهم لبان العداوة للترك ولفرحان حتى إذا بلغ فارس مبلغ الرجال رمت فرحان وأولاده به واستطاع أن يضمن ولاء جزء من العشيرة . ووجدت السلطات العثمانية فى دير الزور أن الأجدى هو التفاهم معه وفعلا وصل فارس إلى اتفاق حصل بمقتضاه على مرتب شهرى فى مقابل استتباب الأمن فى منطقته . وتم هذا الاتفاق برغم التحريضات القوية التى كان يصبها ولفرد بلنت فى أذنى فارس(٣) .

بعد ذلك وجه مدحت عنايته إلى ديرة المنتفق لإدخال نظم الإدارة الحديثة فيها . وكانت مهمته هنا أسهل لسببين :

الأول : أن مجهودات الولاة قبله كانت مستمرة منذ عهد رشيد الكوزلكلى لإدخال النظم الإدارية فى سوق الشيوخ.

(١) تبصره وعبرت ١١٠ – ١١٣ .

(٢) Herbert to Elliot: 30 Aug. 1871. No. 42. F.O. 195-949.

(٣) Blunt : Bedouin. Vol. I. pp. 266, 273-279, 315-332.

الثانى : أن قسما من عشائر المنتفق كان قد استقر فى الزراعة وأن الجزء الذى لم يستقر منها كان أقل .

منذ عهد رشيد الكوزلكلى أخذت الحكومة تعمل على السيطرة بقوة على ديرة المنتفق إدارياً وعسكرياً حيث أصبحت منطقة شط العرب وجنوب العراق ذات أهمية استراتيجية كبيرة بالنسبة للنزاع العثمانى على المحمرة والنزاع العثمانى البريطانى فى الخليج وبالنسبة لخطوط الملاحة البخارية ومشروعات المواصلات البرقية . وكلما وقعت ثورة منتفقية أو نهبت سفينة بريطانية أو عبرت قوة منتفقية أو كعبية شط العرب ارتفعت الأزمة إلى المستويات الدولية وأحرج مركز السلطان(١) .

وفى عهد تقى الدين باشا (١٨٦٨) تحرج مركز شيوخ السعدون بسبب تنازعهم على المشيخة من جهة ،وازدياد قيمة الضريبة السنوية من جهة أخرى، فضلا عن اقتطاع أراض منهم من وقت لآخر . وكان آل السعدون – لتغطية هذه الخسائر – يرفعون من قيمة المفروض على كل فرد حتى اضط عدد كبير من الزراع إلى هجر ديرته إلى الحويزة التابعة لفارس . فى هذه الظروف أصبح من الصعب على شيخ المنتفق أن يعتز باستقلاله الذاتى أو أن يضرب خيامه ليستضيف مئات من الزوار وتخدمهم عبيده(٢) ، وأن يظل مسيطراً بقوة على عدد من العشائر التى كانت خاضعة لشيخ المنتفق . إلا أن عشائر المنتفق كلها لم تكن قد تحولت تماماً إلى الزراعة فجزء منها أصبح من العشائر الريفية الخالصة ، وجزء نصف ريفى ،وقسم ليس بالقليل ظل على بداوته . وفى مجتمع كهذا فى مرحلته الانتقالية تضطرم فيه الآمال والذكريات وتتصادم المصالح الفردية والجماعية . فتعددت الزعامات وتغيرت خطط الحكومة من وقت لآخر نتيجة لتقلب الأوضاع بسرعة فى ديرة المنتفق . ويمكن أن نحدد سياستين للحكومة نحو تحويل ديرة المنتفق إلى متصرفية تابعة للبصرة على النحو التالى :

(١) العزاوى : تاريخ : ٧ : ١٥٦ – ١٥٧ .

(٢) Loftus Op. Cit. p. 141. وانظر وصف لوفتس لفهد الذى تولى المشيخة بعد وفاة أخيه بندر فى Ibid. p. 141-145. ووصف قوته بـ ٥٠٠ ألف مقاتل وابنه يكره الترك (١٨٥١) .

(ا) اتباع سياسة المزايدة التى سار عليها أسلاف مدحت منذ عهد رشيد الكوزلكلى مع اقتطاع أجزاء من ديرة المنتفق مما يزيد فى دخل الحكومة دون عناء ويضعف بالتدريج قوة آل السعدون . ولكن يحول دون ذلك تطبيق أساليب الحكم الجديدة .

(ب) إلغاء المشيخة وتطبيق نظم الإدارة الجديدة فوراً فى اللواء . وهذا الرأى هو الرأى الذى نادى به سليمان فائق الخبير بأمور المنتفق .

صادف وصول مدحت بغداد الأيام الأخيرة من مدة التزام ناصر ، ودارت المفاوضات بين مدحت وناصر واستطاع مدحت أن يقنع ناصر بجدوى الإصلاح الإدارى، وقبل ناصر إسناد منصب متصرف لواء المنتفق إليه وأرسل معه مدحت معاوناً ونائباً للشرع ومحاسباً وعدداً من الكتبة(١) وأصدر أوامره بتفويض الأراضى فى ديرة المنتفق بسندات الطابو ، كما اتفق ناصر مع مدحت على أن يقوم ببناء مدينة جديدة تكون قصراً للمتصرفين وشرع فعلا فى بنائها وهى التى عرفت باسم الناصرية . خططها مهندس بلجيكى وتبرع ناصر بـ ٨٥٠ كيساً لإكمال بنائها(٢) .

فهل يعتبر هذا التغيير جوهرياً من حيث تطبيق نظم الحكم المباشر فى سوق الشيوخ وديرة المنتفق ؟ إنه تغيير فى الشكل فقط . فقد أبقى مدحت المتصرفية فى بيت السعدون ولذلك لم يقض على هذه الإمارة تماماً ، وإنما كان ذلك الخطوة قبل النهائية وهذا تم بعد مدحت بسنوات قليلة . ومع هذا يمكن النظر إلى هذا الموضوع بعين أخرى ، فالتغيير الكامل نحو الإدارة العثمانية كانت تحول دونه تلك الروابط الاجتماعية التى كانت لا تزال تربط آل السعدون بقرى المنتفق . ولم تكن لدى موظفى الأقلام الإدارية من الدراية ما يمكنهم من إدارة الأمور . هذا إلى أن الأهالى — وهم لا يثقون بالموظفين

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ : حـ ٧ : ١٩٣ — ١٩٨ (الزوراء العدد — ١١ — فى ١٦ جمادى الأولى ١٢٨٦ هـ) .

Herbert to Elliot:Sep. 15, 1869. F.O. 195-949.

(٢) لغة العرب : حـ ٩ : السنة الخامسة : ص ٥٣٨ — ٩ .

Cuinet : Op. Cit. T. III. p. 298.

والجند — كانوا يرون آل السعدون كحكام أنهم أقرب إليهم عند التفاهم من الموظفين الترك ، فالأراضى الزراعية التى يملكها الناس غير واضحة الحدود والمشكلات دقيقة بين الجار والجار حول مياه الرى والقنوات وما إلى ذلك من المنازعات التى مهر آل السعدون فى حلها .

ولا شك أن هذه الفترة التى اشترك فيها الموظفون العثمانيون الإداريون مع آل السعدون كانت ضرورية للانتقال النهائى إلى نظام الإدارة الحديثة فى ديرة المنتفق فى النهاية .

ويمكن أن نحدد العوامل التى أدت إلى نجاح مدحت فى إلغاء المشيخة وفى تهدئة العشائر بصفة عامة بما يلى :

١ — أن عقد معاهدة ١٨٤٧ مع فارس جعل الحكومة فى غير حاجة إلى العشائر العربية أو إلى المنتفق للمحافظة على حدود شط العرب ضد عدوان الفرس أو ضد هجمات عشائر كعب .

٢ — لم تعد نجد قاعدة تهديد للعراق تتطلب الاعتماد على المنتفق فى مقاومة الوهابيين بسبب ما أصاب هؤلاء من ضعف.

٣ — كان اتجاه العشائر المنتفقية وعشائر عربية أخرى كثيرة إلى الزراعة وعزوفهم عن الثورات أقوى من تحريضات الزعماء . مما ربط الناس بدرجة أكثر بالأرض فقلل ذلك من القوة العسكرية لآل السعدون .

٤ — هدأت إلى حد كبير الاصطدامات بين المنتفق وغيرها من العشائر حيث أخذت العشائر تحترم إلى حد ما الحدود التى اتفقت عليها مع الحكومة .

٥ — أصبح للحكومة بواخر فى دجلة وقوات عسكرية كبيرة تستطيع أن تفرض سيطرتها، خاصة وأن مدحت نظم القوات العسكرية فى العراق وجددها .

٦ — أصبحت البصرة مرة أخرى — منذ منتصف القرن التاسع عشر— قوة ضاغطة على عشائر المنتفق وكانت من قبل هدفاً لتوسع آل السعدون.

ولذلك كانت عملية إلغاء المشيخة تماماً من ديرة المنتفق وإلغاء حكم

آل السعدون نهائياً من سوق الشيوخ أمراً غير عسير على الحكومة فى ١٨٨٠ م ١٢٩٨ هـ . وظلت أسرة السعدون من الأسرات العراقية التى اشتركت فى توجيه سياسة البلاد وأفاد منهم العثمانيون فقد عيِّن منصور باشا — آخر الحكام من آل السعدون — عضواً لمجلس الشورى فى الآستانة(١)، على أن تطبيق قانون الأراضى (الطابو) كان الأسلوب العملى لإقرار العشائر وتوجيهها إلى الإنتاج الزراعى . وهذا ما عنى به مدحت كل العناية .

تطبيق قانون الأراضى (الطابو) :

حقيقة صدر قانون الأراضى منذ ١٨٥٧ م ولكنه نفذ على نطاق ضيق جداً . كما أسيء تطبيقه . فقد حصل البعض على إقطاعاتهم الواسعة بالرشوة . وكانت تتبع طرق احتيالية للحصول على الأرض بأسعار بخسة .

وكان ذوو النفوذ فى الولاية يحصلون على مساحات شاسعة بهذه الوسائل ، وقد بلغ الأمر أن أصبح بعض الملاك يملكون قرى بأكملها ، والعائلات فى زمامه تحت رحمته . وما كان الفلاح الصغير بقادر على أن يشترى أرضاً بالطابو لارتفاع أسعار الأراضى ولأنه غير قادر على التفاهم مع السلطات الحاكمة .(٢) وهكذا كان الفلاح يعانى مرارة العيش سواء تحت نظام الالتزام أو نظام الطابو . وكان النظامان مستخدمين فى العراق جنباً إلى جنب . ورأى مدحت أن تطبيق قانون الطابو سيخلص الناس نهائياً من استبداد الملتزمين ، كما يتيح فرصة لأقرار العشائر فى أرض معينة فتخف مشاغباتها وتصبح قبضة الحكومة قوية عليها . كما أن تطبيقه سيدر على الخزانة مبالغ جديدة .

وعند ما قام مدحت بتطبيق القانون فى العراق لم يكن لديه خرائط مساحية تحدد الملكيات بوضوح . فكانت المهمة صعبة أمام مدحت . حيث إن قطعة الأرض كانت أحياناً محل نزاع بين عدة مطالبين . وكل مطالب

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق : حـ ٨ : ص ٥٨ .

(٢) Rassam to Radcliffc: 12 Feb. 1855. F.O. 195-394.
3 Dec. 1855. F.O. 195-394.
قوانين ونظامات ومقررات مالية مجموعة من : ص ٦ - ١٤ .

قدم حججاً وأسانيد وشهوداً .(١) على أن مدحت كان واسع الأفق عندما عالج المشكلات التى صادفته . وكان على رأس التعديلات التى أدخلها قانون الأراضى أنه فوض الأراضى المتروكة فى مقابل قيمتها حتى يمكن الفلاح من شراء قطعة لنفسه وحتى لا تقع الأراضى فى يد كبار الملاك أصحاب رءوس الأموال . ومن ناحية أخرى قدر مدحت أن تخفيض قيمة الأموال عن الفلاح سيمكنه من إصلاح أمر الأرض وزيادة خصوبتها فتعود عليه بأرباح كثيرة وعلى الحكومة كذلك . وفى مناطق عديدة لم يفوض الأرض بالمزايدة . وكان القانون ينص على المزايدة . ولكن مدحت كان ينظر إلى القانون بعين المصلحة الحقيقية لأهل البلاد . فإن تعارض مع إمكانات الزراع تجاوز عنه . فبالنسبة للبساتين فإنه تركها لزارعها دون أن يحصل منه سوى عشر المحصول سنوياً ، وإذا كانت البساتين حديثة الغرس أعفاها من الضريبة لمدة ست سنوات تشجيعاً لنشر البساتين . كذلك تصرف فى تطبيق القانون عند ما كافأ عشائر الهندية التى وقفت إلى جانبه ضد ثوار الدغارة بأن خفض قيمة المطلوب منهم بحوالى ٤٠٪(٢) .

إن خروج مدحت على نصوص قوانين الطابو يعتبر فى حد ذاته عملاً جليلاً ، ولكن هذا لم يمنع ظهور إقطاع زراعى واسع وما كان فى استطاعة مدحت أن يمنع من ظهور هذه الإقطاعات الواسعة وإن استطاع أن يحد من ذلك خلال حكمه فى العراق ، خاصة إذا لاحظنا أن خروجه عن قانون الطابو على تلك الصورة لم يكن مقبولا لدى سلطات الآستانة . فقد ظن المسئولون فى الآستانة أن مدحت ينوى بيع الأراضى بأسرها بأسعار زهيدة إلى الأهالى وخشى الباب العالى مغبة هذا الاتجاه . وبعد عزل مدحت من ولاية بغداد قرر الباب العالى أن يكون البيع تحت إشراف هيئة حكومية تشكل بواسطة الباب العالى . وعلى أى حال وهنت عمليات بيع الأراضى بالطابو بعد مدحت(٣) .

(١) لونكريك : أربعة قرون : ٣٠٣ .

(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق : حـ ٧ : ١٨٠ - ١٨١ ، ٢٥١ - ٢٥٧ .

(٣) على ظريف الأعظمى : مختصر تاريخ بغداد : ٢٤٣ .

ولتوسيع رقعة الأرض المزروعة ولمنح فرص أوسع للعشائر لتستقر فى الأراضى الزراعية عنى مدحت بالقنوات والترع والسدود كل العناية : فشق قناة تربط بين بغداد والفلوجه . وبذلك ضمن رى هذه المنطقة من ناحية وربط بغداد بنهر الفرات من ناحية أخرى لتكون على صلة مستمرة بخطوط البواخر التى قرر أن يمدها فى نهر الفرات . وشق قناة العثمانية وطهر عدة قنوات صغيرة وقوى من سدة الهندية ولكن لم تعش هذه السدة مدة طويلة(١) .

مدحت والضرائب :

كان تطبيق قانون الولايات وقانون الأراضى جزءا من سياسة عامة نحو تنفيذ قوانين الدولة والقضاء على بقايا الأساليب القديمة فى الحكم والإدارة وكانت الضرائب القديمة فى العراق لا تزال تجبى فى بعض النواحى فقرر إلغاء أية ضريبة لم ينص عليها فى القانون ، وخاصة تلك الضرائب التى كان يجمعها شيوخ العشائر القوية . فقد ألغى ضرائب النكال(٢) والصيحة(٣) والداوودية ،(٤) ومنع المصادرات(٥) وألغى الرسوم المفروضة على الخيول والأغنام والباج(٦) . وحدد المفروض على الإنتاج الزراعى بعشر المحصول فقط(٧). وخفف الضرائب على زراع بساتين النخيل لتشجيع الناس على غرسها(٨) .

(١) Vassif : Op. Cit. p. 29 & Kemball to Canning No. 29 (Oct. 22, 1851) F.O. 195-367.
أحمد سوسة : وادى الفرات : ح ٢ : ٢٤ – ٤٥ .

(٢) هو أن يدفع القاتل ألف شامى .

(٣) غرامة يدفعها من يعتدى على العفاف .

(٤) ضريبة موزعة على البيوت .

(٥) كان الولاة فى عهد المماليك يصادرون الأموال إذا ما أرادوا ذلك، ولكن قلت هذه المصادرات فى عهد الحكم المباشر .

(٦) على ضريبة تفرضها العشائر على من يمر بأرضها .

(٧) عباس العزاوى : تاريخ العراق : ح ٧ : ١٩٨ – ١٩٩ .

(٨) عباس العزاوى : تاريخ العراق : ح ٧ :

ويقال إنه ألغى ضريبة الاحتساب ، ويبدو أنها أعيدت بعد ذلك حيث إنها لم تلغ فى بعض الأماكن مثل منطقة المنتفق إلا فى ١٩٠٨(١) .

وعالج مدحت طريقة جمع الضريبة على النخيل بواسطة التخمين فى منطقة البصرة . وكانت القاعدة هناك أن يلتزم شخص بدفع مبلغ محدد للحكومة عن إنتاج منطقة معينة تقدر محصولاتها دون طريق التخمين . وهذا كان يؤذى المنتج أشد الإيذاء . لأن الملتزم كان يبالغ فى قيمة الإنتاج هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت تكاليف زراعة النخيل كبيرة(٢) فكان أن عزف عدد كبير من الأهالى عن زراعته هرباً من ظلم الملتزم والحكومة . ثم إن هذه المشكلة كانت مختلفة الجوانب من مكان لآخر نظراً لاختلاف الضريبة فى منطقة بغداد على النخيل ، عنها فى منطقة الخالص، عنها فى منطقة البصرة ، كما تختلف هذه المناطق فى غزارة الإنتاج وكثرة البساتين ، وتجاورها .

فدرس مدحت الموقف فى الأماكن المتعددة وقرر إلغاء طريقة التخمين فى تقدير الضريبة وعالج المشكلة حسب ظروف كل منطقة . فى منطقة بغداد ووسط العراق قرر الضريبة على إنتاج النخلة الواحدة . فالنخلة التى تنتج ٢٠ حفنة فى المتوسط تدفع ضريبة عينية قدرها حفنتان (أو ٤٠ باردة) . أما فى البصرة فرض على كل دونم ١٥ قرشاً سنوياً وأصبحت المساحة تؤجر كلها دفعة واحدة،ولذلك كان من مصلحة الزراع أن يغرسوا الأرض البور. أما المناطق البعيدة عن العمران فقد فرضت على النخلة ٤٠ باردة إلى ٣ قروش حسب الإنتاج والتكاليف(٣) . وأما فى الأحساء فقد اقتصرت الحكومة على جباية ضريبة العشر على الحاصلات .

(١) تبصره عبرت : ٦٧ ، عباس العزاوى : تاريخ : ح ٧ : ١٦٦ .
يعقوب سركيس : مباحث : ح ٢ : ٢٣٥ هامش .

(٢) ليس رى النخيل فى العراق مثله فى مصر وهناك تحتاج النخلة إلى عناية كبيرة لريها . انظر المقالة القيمة التى درست النخيل فى العراق للأستاذ الدكتور إبراهيم شريف بعنوان «التمر فى العراق» ضمن المحاضرات العامة للجمعية الجغرافية المصرية لسنة ١٩٦٠ .

(٣) تبصره عبرت : ١٠٠ .

وكانت جباية الحكومة لهذه الأعشار والزكاة والضرائب على رءوس الحيوانات وبعض الضرائب الأخرى تسد نفقات القوات العثمانية فى الأحساء ويبقى منهم قسم يرسل إلى خزانة بغداد(١) . وبعد رحيل مدحت عن العراق كان حكام الأحساء يطمعون فى واردات المنطقة ورحل الجند ، والحاميات إلى العراق ، وأقاموا بدلهم قوات كردية وبعض قوات عربية ، واستحدثوا رسوماً جمركيةوضرائب جديدة(٢) . فكان هذا من الأسباب التى مهدت للثورة الأولى التى نشبت فى الأحساء وتزعمها عبدالرحمن بن فيصل(٣).

عناية مدحت ببغداد :

كان من الطبيعى أن يعنى مدحت ببغداد ليجعلها نموذجاً تحتذيه بقية المدن من حيث إدخال الأساليب الحديثة فى المواصلات وفى الخدمات الاجتماعية،ولم تحظ بغداد منذ عهد المماليك بعناية ذات قيمة . ورأى مدحت أن المدينة تحتاج إلى إصلاحات مختلفة الجوانب لتكون جديرة بمكانتها كعاصمة لولاية بغداد التى ارتفعت قيمتها . وكانت بغداد فى حاجة إلى مشروعات صحية وإلى خدمات اجتماعية ترعى أهاليها وكذلك إلى ربطها بمواصلات سريعة مع ضاحيتها الهامة ، الكاظمية .

وجد مدحت أن ربط بغداد بالكاظمية بمواصلات أسرع سينشط التجارة وسيؤدى لاشتغال أعداد كبيرة من أهل الكاظمية بها وكانوا يستخدمون الحمير فى تنقلاتهم بين الكاظمية وبغداد . فقام مدحت بإحصاء عدد المترددين على المدينة فوجد أنه عدد يكفى لإنشاء ترام يكون مظهراً من مظاهر المدنية الحديثة فى عاصمة العراق . فاستصدر مراسيم تأليف شركة حددت أسهمها بتسعة آلاف سهم برأس مال قدره ١٥ ألف ليرة . وقامت الشركة بشراء الأدوات والمعدات من لندن وكانت جملة التكاليف ١٨ ألف جنيه فزادت التكاليف على رأس المال . ولكن المشروع تم فى عام واحد وكان

(١) تبصره عبرت : ١٧٩ — ١٨٠ .
(٢) المرجع السابق : ١٨٢ .
(٣) حافظ وهبه : جزيرة العرب ٢٢٦ — ٢٦٧ .
Midhat : The Life of Midhat. p. 59.

دخله مناسباً فبلغ ربحه فى حدود ١٨٪ — ٢٠٪ وسدد الدين . وكان من مشروعات مدحت التى تذكر له دائماً فى العراق(١) .

أما مدام ديولافوا فتعطينا صورة عن هذا الترام الذى يسير سبعة كيلومترات تجعلنا نعتقد أنه لم يؤد إلى الهدف المنشود منه فهى تقول إن طريق الترام متعرج ضيق إذا حدث وسقطت عربة أو تعطلت بسبب انتشار المياه توقف العمل فترة طويلة .(٢) والواقع أن المشروع كان الأول من نوعه . وليس من الإنصاف أن يقاس خط ترام مدحت بما كان فى أوربا من خطوط .

أنشأ مدحت مستشفى من أموال تبرع بها الأهالى نظراً لأن ميزانية الولاية لم تكن تكفى هذا المشروع وعنى بالحديقة المجيدية التى أعدها نجيب من قبل (النجيبية) وسماها المجيدية . وأحضر آلات موسيقية للجيش واستغلها فى الترفيه عن أهالى بغداد فكانت فرقة موسيقى الجيش تعزف ألحانها فى حديقة المجيدية وفى مقابل الدخول فيها والاستمتاع بالموسيقى يدفع رسم قدره مبلغ (خمسة قروش) عن كل فرد . ولكن نقم عليه رجال الدين بسبب تصريحه — على ما يقال — بشرب الخمر فى ذلك البستان(٣) .

أما فى الميدان الاجتماعى فقد قام مدحت بعدة مشروعات ناجحة ومنها إنشاء عدة محاجر أهمها فى خانقين والبصرة . وعالج مشكلة وصول قوافل الحجاج الفرس إلى العتبات المقدسة ومعهم أعداد عديدة من الموتى للدفن فى العتبات . فكانوا يثيرون روائح كريهة .

عنى كذلك مدحت بالبصرة والموصل فقد أسس فى البصرة ضاحية جديدة لتكون نواة للبصرة الجديدة ولينقل هذه المدينة بعيدة عن المستنقعات وبدأ ببناء ثكنة عسكرية ومستشفى عسكرى ومبانى الإدارات والجمرك :

(١) Blunt : Bedouin. I. p. 195.
Midhat : The Life of Midhat. p. 51.
(٢) مدام ديولافوا : ص ٩١ .
(٣) ع . ظ . الأعظمى : مختصر : تاريخ بغداد : ٢٤١ — ٢٤٥ .
Cuinet : Op. Cit. III. p. 260.

وأصبح هذا الحى الجديد أهم أحياء البصرة(١) .كما طبق مدحت التنظيمات فى الموصل وشكل المجالس وتفقد أمورها الداخلية بعناية وبنى هناك سرايا وثكنة(٢) .

عناية مدحت بالثقافة والتعليم :

ومن أبرز المجالات التى بز فيها مدحت أسلافه من ولاة العراق ميدان الثقافة والتعليم وكان الولاة من قبله لا يعنون كثيراً بإدخال النظم التعليمية الحديثة التى كانت مستخدمة فى الآستانة منذ وقت ليس بالقصير . فعنى مدحت بإنشاء المدارس الحديثة التى تخدم بيئة العراق وحاجاته بصفة خاصة . وعلى يد مدحت أنشئت أربع مدارس هى :

١ — المدرسة الرشدية المدنية .

٢ — المدرسة الرشدية العسكرية .

٣ — المدرسة الإعدادية العسكرية .

٤ — مدرسة الفنون والصنائع .

وتعد المدرسة الرشدية العسكرية الطالب للالتحاق بالمدرسة الإعدادية ليصبح من بعد ذلك ضابطاً فى الجيش العثمانى . وكانت تدرس فيها إلى جانب المواد العسكرية اللغات التركية والفارسية والعربية وعدد من العلوم الرياضية والمعارف العامة ، ومعظم معلميها كانوا من العسكريين بطبيعة الحال . أما المدارس الرشدية المدنية فكانت تعنى أكثر بتلك اللغات وبالمواد الاجتماعية والعلوم الرياضية . وامتازت المدرسة الإعدادية بأنها لم تكن مجانية فقط وإنما كانت كذلك (داخلية) . وقد خرجت هذه المدرسة خلال السنوات العشرين بين ١٨٧٠ — ١٨٩٠ عدداً من أحسن الضباط التحق معظمهم بالجيش السادس الذى كان مقره بغداد(٣) .

---

(١) Cuinet : Op. Cit. III. p. 260.

(٢) Rassam to Eliot, Aug., 23, 1869. F.O. 195-949 & May 3, 1869
Ibid.

(٣) تقويم وقائع : العدد : ٤٤٩ غرة شعبان ١٢٦٧ هـ .
Cuinct. Op. Cit. III. p. 99. وبعد مدحت انتشرت المدارس الرشدية فى العراق فى المدن الكبرى .

وكانت لغة التدريس فى هذه المدارس الثلاث وفى مدرسة الفنون والصنائع كذلك هى التركية ، وكانت اللغة العربية تدرس بالتركية وهذا ما يمكن أن نسميه بداية سياسة التتريك ، وتعتبر هذه الخطوة بداية سيئة لسياسة تعليمية فى أرض عربية . على أنها أذكت روح العروبة فى الناس(١) .

وكانت مدرسة الفنون والصنائع أكثر تلك المدارس فائدة للعراق . وعرفت فى عهد مدحت باسم « مكتب السنية » ، وخصصت ليعمل بها الأيتام . ولعل هذا الهدف النبيل هو الذى جعل أثرياء العراق يتجنبون إرسال أبنائهم إليها . ومع هذا سار مدحت فى خطته(٢)، وجعل المدرسة فى خدمة البيئة التى كانت فى أشد الحاجة إلى الأيدى الفنية والصناعية المدربة ونجح فى أن يغطى معظم مصروفات المدرسة من دخل إنتاجها .(٣) ثم ألحق عمله هذا بإنشاء مطبعة الزوار وفيها عمل الطلبة وتدربوا على هذه الصناعة الهامة . ونمت المدرسة حتى بلغ عدد تلاميذها ١٨٨٩ — ١٨٩٠ حوالى ٨٠ تلميذاً . وبعد أن ينتهى الطالب من دراسته يحصل على دبلوم . وكانت خزانة المدرسة تقدم له قرضاً مالياً بعد تخرجه(٤) ليتمكن من شراء الأدوات اللازمة لتعينه فى كسب عيشه بالحرفة التى تدرب عليها(٥) .

على أن الفضل فى تأسيس هذه المدرسة ليس لمدحت وحده ، إذ ساهم

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق : حـ ٧ : ٢٠٦ — ٢٠٧ . وقدر كينيه Cuinet مصاريف المدرستين العسكريتين الإعدادية والرشدية بأربعة آلاف جنيه عثمانى . كما قدر قيمة مصروفات المدرسة الرشدية الملكية بحوالى ١٢٠٠ جنيه عثمانى (ليرة عثمانية) .
Cuinet : Op. Cit. Vol. III. p. 100.
ولقيت حركة التعليم التركية مقاومة شديدة من عموم الناس . ومن ذلك أنه عندما شرع سعدون باشا فى تلقى العلوم بالتركية هزئ منه أقرانه وذكروه بعروبته فهجر التعليم كله . (لغة العرب : السنة الثانية : ٥٠٦) .

(٢) كان مدحت قد استقدم لهذه المدرسة مدرسين فنيين للمواد التالية :
السراجة — الحدادة — النجارة Cuinet : Op. Cit. III. pp. 99-100.

(٣) بلغ دخلها ألف جنيه عثمانى سنوياً (٢٣ ألف فرنك فرنسى) Ibid.

(٤) هذا على شرط أن تكون إقامته فى بغداد . ولعل هذا الشرط كانت تقتضيه ظروف البلاد وعدم القدرة على تحصيل هذا القرض إذا ما رحل المتخرج عن العاصمة .

(٥) Ibid.

أهل بغداد بنصيب وافر من تكاليفها(١) . ولكن للأسف لم تجد هذه المدرسة بعد مدحت من يعنى بها عناية تتناسب مع حاجة البلاد المتزايدة — بسبب مشروعات خطوط المواصلات فى العراق وتقدم الصناعات فيها — إلى هذه الأيدى الفنية .

وكما دخلت المدارس الحديثة العراق على يد مدحت دخلت الصحافة على يده كذلك . ويدور جدل طريف حول هذه النقطة : متى ظهرت أول صحيفة فى العراق ؟

يقول روفائيل بطى(٢) إن ظهور الصحافة فى العراق يرجع إلى أيام داود باشا ، وأن أول صحيفة فى العراق عرفت باسم « جورنال العراق » فى ١٨١٦ وكانت تطبع فى مطبعة حجرية باللغتين التركية والعربية وتذاع فيها أنباء العشائر والقطر وأخبار الدولة العثمانية وقوانينها وأوامر الوالى . وأما توزيعها فيقال إنه كان محصوراً بين كبار رجال السيف والقلم وأعيان وأشراف المدينة(٣) .

وهناك جدل طريف أيضاً حول حقيقة وجود مطبعة حجرية فى عهد داود . وأغلب الظن أن موضوع الصحيفة والمطبعة لن نستطيع أن نقطع فيه برأى حاسم إلا إذا عثرنا على كتب وأعداد صحف طبعت فى العراق فى تلك المطبعة . فحتى الكتاب الذى يقال إنه طبع فيها مثار جدل عنيف

(١) على رأس هؤلاء : محمد آل جميل ويوسف الكركوكلى وإقبال الدولة وناصر السعدون باشا .. انظر عباس العزاوى : تاريخ العراق : حـ ٧ : ١٧٩ .

(٢) أخذ روفائيل بطى يثبت أن الصحافة ظهرت أول ما ظهرت فى العراق مستدلا بما كتبه De Chambre ويوسفوس اليهودى والمكاتبات الديوانية على عهد حمورابى وبعده . روفائيل بطى : تاريخ الصحافة فى العراق (محاضرات) : ص ٧—١٠ كذلك يدور جدل حول أول صحيفة عربية ظهرت ، فإذا كانت صحيفة جورنال العراق قد وجدت فعلا فستكون أول جريدة عربية تظهر فى القرن التاسع عشر . وإننى لست من أنصار التشدد فى أيهما أسبق فى إصدار صحيفة والأجدى أن نكتشف مكان الصحف المدفونة فى بطون المكتبات . (المصدر نفسه) . وانظر إبراهيم عبده : الصحافة المصرية بصدد تحديد أول صحيفة صدرت .

(٣) دوحة الوزراء . باللغة التركية لرسول حادى .

للأسف الشديد عثرت على كتاب عراقى كتب فى فهرس دار الكتب أنه طبع ١٢٤٦ هـ فى بغداد فلما طلبت هذا الكتاب لم يعثر عليه .

ولا شك أن فى إصدار الجوائب فى الآستانة باللغة العربية(١) ، وظهور عدد كبير من الصحف العربية فى القاهرة والشام جعل من الضرورى أن تصدر فى بغداد صحيفة تعبر عن مشكلات الولايات العراقية .

وأياً كان الأمر فلم يكن فى العراق صحيفة حتى جاء مدحت إلى العراق . وأعد مدحت مشروع صحيفة له قبل أن يغادر الآستانة واصطحب معه عدداً من الفنيين فى إدارة المطابع والعمل الصحفى . وعقب وصوله بدأ العمل فى إخراج الصحيفة وجمعت المادة اللازمة وخرج أول عدد من الزوراء فى ٥ من ربيع الأول ١٢٨٦ هـ — ١٨٣٩ م . (٢) ويبدو أن الباب العالى كان قد أوصى الولاة بإصدار صحيفة فى كل ولاية إذ نشاهد أن تلك الفترة حفلت بظهور عدة صحف فى عواصم الولايات العثمانية التى لم يكن قد صدرت فيها صحف بعد (٣) .

وكانت هذه الصحيفة تقدم أخبار الوالى ، وحركات العشائر ، والأوامر الجديدة ، والتنظيمات الداخلية ، والأحوال الاقتصادية ، وفى خضم أخبارها كانت تعود إلى الوراء لتحكى تاريخ منطقة أو نزاع مع فارس . ومعنى هذا أنها كانت تحتوى على العناصر المكونة للصحيفة إلا أنها مثل غيرها من الصحف الحكومية فى الولايات تعرضت لنقد شديد من جانب أحمد فارس الشدياق فقد جاء فى مقال كتبه فى هذا الصدد :

إن الممالك فى الدولة العثمانية لم يكن فيها فى الأيام الخالية صحف تنتشر فيها الأخبار ثم اقتضت التنظيمات بثها فى جميع الولايات .. إلا أن جميع جرنالات الولايات المنوطة بالحكومة .. لا يمكنها أن تروى عن الولاة إلا ما يرضيهم .. والمراد منها فى الأصل .. هو إظهار الحق .. لا أن تكون

(١) ظهرت فى ١٨٦٠ لصاحبها أحمد فارس الشدياق . انظر العدد الأول من صحيفة الجوائب ، ويوسف محمد دسوقى : فى الصحافة : ص ٧٥ — ٧٦ .

(٢) روفائيل بطى : محاضرات فى تاريخ الصحافة فى العراق : ١٢ .

(٣) انظر الجوائب : الآستانة : العدد ٣٩٦ السنة التاسعة : ٢٥ من ربيع الأول ١٢٨٦ هـ انظر الجوائب : الآستانة : العدد ٤٠٥ السنة التاسعة : ٣٠ من جمادى الأولى ١٢٨٦ — ٧ سبتمبر .

راوية مديح الوالى والمجلس ولهذا كان من مصلحة الرعية أن يكون لهم صحف خاصة بهم (١) .

وهو نقد وجيه ، ولكن أين رأس المال العراقى والفكر الصحفى العراقى وأين إمكانيات هذه الطفرة الصحفية التى يريدها أحمد فارس الشدياق ؟ إن هذه البداية كانت البداية الطبيعية لظروف العراق ولظروف الولايات العثمانية على وجه العموم حتى تتهيأ الظروف للصحافة الواعية الوطنية . هذا إلى أن الصحافة لم تسر على الطريق الفاشل (٢) الذى سار فيه التعليم الحكومى فى العراق . إذ أن الزوراء صدرت فى لغتين : العربية والتركية ، فعاشت الصحيفة حتى ١٩١٤ م .

وعلى نسق الزوراء صدرت فى الموصل فى ١٨٨٥ جريدة رسمية باسم الموصل باللغتين العربية والتركية . على أن « الزوراء » و« الموصل » لم تكونا أول صحيفتين عربيتين يقرؤهما أهل العراق فقد كانت الجوائب منتشرة فى الأوساط العلمية فى العراق . ولم تظهر صحيفة عربية أهلية فى العراق إلا بعد سقوط عبد الحميد فى ١٩٠٨ ففى تلك السنة صدرت صحيفة « بغداد » باللغتين العربية والتركية أيضاً(٣) بينما اقتصرت زوراء على النسخة التركية من ١٩٠٨ — ١٩١٤ .

وكانت أولى صحف الطوائف غير الإسلامية صحيفة « روبير ميشارم » اليهودية وكانت نصف شهرية وصدرت فى ١٨٧٠ (٤) كما أن أول مطبعة أهلية هى المطبعة الكلدانية (١٨٦٥ م) (٥). ويتضح لنا من هذا أن الطوائف غير الإسلامية كانت أسرع من المسلمين فى الأخذ بأسباب الحضارة

---

(١) انظر الجوائب : الآستانة : العدد ٦٠٤ السنة التاسعة : ٨ جمادى الآخرة ١٢٨٦ — ١٤ سبتمبر ١٨٦٩ .

(٢) انظر المؤلفات العديدة عن الصحافة العراقية وقائمة بتاريخ ظهور كل صحيفة فى السيد عبد الرزاق الحسنى : تاريخ الصحافة العراقية : النجف ١٩٣٩ ، والصحف التى صدرت بالآستانة فى ١٨٦٩ — ١٨٧٠ فى الجوائب : الآستانة ٩ : العدد ٤١٤ فى ٥ شعبان ١٢٨٦ هـ — والعدد ٤٢٠ .

(٣) روفائيل بطى : الصحافة : ص ٢٢ .

(٤) الجوائب : العدد ٤٢٥ سنة ١٢٨٦ هـ فى ٢٢ من مارس ١٨٧٠ .

(٥) سليمان صايغ : تاريخ الموصل : حـ ٢ : ٢٦٥ — ٢٦٧ .

الحديثة ويرجع هذا إلى أنهم كانوا أسبق فى الاحتكاك بالأجانب والهيئات الأوربية .

وكان من الطبيعى أن تسهم الصحف العربية فى بغداد والآستانة فى فتح آفاق جديدة أمام النبوغ الأدبى العراقى . ثم أصبحت بغداد من بعد تزود الآستانة . بحاجتها من ذوى المهارات الصحفية من أهل العراق بعد أن صقلهم العمل فى صحف بغداد (١) .

عناية مدحت بالجيش والأسطول :

كانت القوة المسلحة هى أداة الحكومة العثمانية فى عهد الحكم المباشر لتقوية قبضتها على أجزاء العراق المختلفة ولبسط السيطرة العثمانية خارج العراق . وكان من الطبيعى أن يتأخر تطبيق النظم الحديثة فى العراق عنه فى الآستانة . وزاد من تعطيل تطبيق هذه النظم أزمة التوسع المصرى فى الشام وشبه الجزيرة العربية . حقيقة عمل محمد اينجه بيرقدار على تطبيق نظم التجنيد والتدريب الحديثة فى الموصل فى نهاية الثلاثينات؛ ولكن هذه الخطوات لم تستمر طويلاً بعد انسحاب المصريين من الشام . ومعنى هذا أن العناية بالإصلاح العسكرى بدأ مبكراً بسبب التوسع المصرى . كذلك أرسل الباب العالى قوات نظامية إلى العراق للدفاع عنه فكانت نواة للجيش السادس الذى صدرت أوامر تشكيله فى ١٨٤٧ على أن الولاة لم يتمكنوا من الاعتماد فقط على القوات النظامية وإنما استمرت القوات العشائرية وقوات الهابتا (غير النظامية) تشد أزر الجيش النظامى . ولكن ساعد ورود القوات النظامية من الآستانة والعمل على تطبيق نظام القرعة فى البلاد إلى التخلص تدريجياً من قوات الهابتا ولكن استمر الولاة يعتمدون على القوات العشائرية بسبب

---

(١) كانت الصلات قوية جداً بين فارس الشدياق وأديب العراق عزت الفاروق . (الجوائب : الآستانة : السنة ٩ — العدد ٣٨٦ فى ٢٨ من أبريل ١٨٦٩) .

ولعل عباس القرشى المتوفى ١٨٨٠ كان أول عراقى اشتغل بالصحافة فى الآستانة (على الخاقانى : شعراء الغزى : حـ ٤ : ٤٤٨) وانظر كذلك سليمان صايغ : تاريخ الموصل : حـ ٢ : ٢٦٠ ، كما أن السلطان أمر بأن تقرأ الجوائب فى دار المعلمين بالآستانة وتولى هذه المهمة حامد أفندى الآلوسى (الجوائب : السنة ٩ : عدد ٣١ من مايو ١٨٦٩) .

طبيعة وظروف العراق التى تعرقل عمليات الجيش النظامى فى الصحارى وفى مناطق الأهوار والمستنقعات . وبدت حاجة الحكومة واضحة إلى القوات العشائرية خلال أزمة حرب القرم عندما عبأ رشيد الكوزكلى — والى بغداد — كل قوى العراق لمقاومة الغزو الفارسى المنتظر . ولبت العشائر النداء ووقفت إلى جانب الجيش النظامى . وبعد انتهاء هذه الأزمة عكف الولاة على إعداد جيش قوى منظم يغنيهم عن القوات العشائرية . وكانت قيادة الجيش تارة فى يد مشير الفيلق وأخرى فى يد الوالى . وكانت عملية جمع الجند للجيش مرهقة حيث إن الشعب قاوم التجنيد . وقامت الثورات فى وجه الولاة بسببه (١) .

وعند ماجاء مدحت العراق قرر أن ينفذ نظام القرعة فى بغداد . وهو بذلك سار على النهج نفسه الذى سار عليه أسلافه وهو تطبيق القرعة على أهل المدن دون أهل العشائر لعجز الولاة تماماً عن فرضها عليها . وامتنع أهل بغداد عن تقديم أولادهم للجيش وأعلنت الأحياء الكبرى الثورة على مدحت فأسرع مدحت إلى استخدام الجيش وجمع الرجال بالقوة وحاكم المتمردين . (٢)

ولقد سارت الحكومة قبل مدحت وعلى عهد مدحت على التحايل على تنفيذ القرعة فى المناطق العشائرية ، فكانوا يفضلون أخذ البدل من الذين تصيبهم القرعة . والحق أن عدم تطبيق قوانين الجيش وقبول هذا

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٦ : ٣٨ ، جـ ٧ : ٢٤ بغداد كوله من : ٥١

Fontanier : Op. Cit. I. pp. 277-279, 339.
Ainsworth : Op. Cit. Vol. II, p. 353.
Layard : Early II p. 332, Discoveries p. 309-310.
Engelhardt : Op. Cit. I. p. 70-72, Flandin : Op. Cit. II. p. 497.
Taylor's Letter to Sec. Comm. 14 Nov. 1837. No. 12 (Ind. O.R.,F.R.,P.P. G., Vol. 58, p. 113).
Taylor's Memo. Ibid. p. 799). dated Feb. 1836) & Rassam to Redcliffe (Feb. 12, 1855). F.O. 78-1115.
Kemball to Alison. No. 15. (Ap., 13, 1858) F.O. 195-577.
Kemball to Alison. No. 15. (Ap., 13, 1858) F.O. 195-577.

(٢) عباس العزاوى : تاريخ : جـ ٧ : ٢٠٢ .

البدل كان من مظاهر كراهية الناس للجندية وتهافت الناس على التخلص منها بأى شكل كان ، وأقرب وسيلة هى دفع البدل .

وترجع أسباب تهرب الناس من الجندية إلى القسوة فى جمع الرجال للجيش (١) وطول مدة التجنيد التى تصل من ٤—١٢ سنة . كما أن الجند العربى كان معتاداً على العمل فى نطاق العراق فقط . كانت العشائر لا تتأخر عن تلبية نداء السلطان إذا ما دعاها لقتال الفرس (٢) لأن الهدف كان واضحاً . ولكنها كانت تتجنب الاشتراك فى عمليات عسكرية تحت قيادة غير قيادة شيوخ العشائر . وساعدت السياسة التعليمية على بغض الناس للجندية . إذ أعفت الحكومة طلبة المدارس الدينية من التجنيد كما أعفت طلبة بعض المدارس المعينة لتشجيع الطلبة على الالتحاق بها (٣) . كذلك أخذت الطوائف تتحايل على التخلص من الجندية فادعى اليزيديون أن التجنيد يتعارض مع طقوسهم الدينية (٤) ، وكانت الهيئات البروتستانتية تثير أزمات حادة كلما عمدت الدولة إلى تجنيد البروتستانت فى العراق . وكان العثمانيون فى الواقع يتجنبون تجنيد الطوائف المسيحية وكذلك الشيعة وخاصة فى الجهات العشائرية . وكانت الحكومة الفارسية — ممثلة فى وكيلها فى العراق — تقف بالمرصاد لعمليات التجنيد التى يقوم بها الولاة . وحين حاول نجيب تنفيذ قوانين التجنيد فى العراق اعترض عليه الوكيل السياسى الفارسى بحجة أنه أدخل رعايا إيرانيين فى الجيش العثمانى . وباستقصاء الحقائق اتضح لنجيب أن هناك عدداً من الفرس فعلاً جند على اعتبار أنه رعية عثمانية . ولكن تبين له أيضاً أن عدداً ليس بالقليل ادعى الرعوية الإيرانية ليتهرب من الجندية (٥) .

وبرغم هذه العقبات بلغ الجيش فى عهد مدحت درجة لم يبلغها من قبل

---

(١) Clark : Turks. pp. 170-177. Cuinet : III. p. 20.

(٢) جعفر آل محبوبة : قاضى النجوى : ٨٩ .

(٣) Layard : Discoveries. p. 3.

(٤) Locock to Granville : Feb. 5, 1874. F.O. 78-2328.

(٥) Rawlinson : To Canning. May, 23, 1848 No. 23. F.O. 78-753.

من حيث العدد والتجهيز . وعنى مدحت كذلك بإعداد ثكنات للجيش وورش للآلات فى بغداد والمدن الكبرى وكانت أول ثكنة بنيت فى العراق فى الموصل على يد اينجه بيرقدار كما أنشأ دميرخانه (دار للحديد) واستحضر معداتها من أوربا وكانت لإصلاح البنادق ومعدات السفن . ولكنها لم تستخدم استخداماً حقيقياً إلا على يد مدحت فزودت قوات الضبطية بحاجتها من الأسلحة النارية (١) .

خطوط البواخر النهرية والبحرية :

على أن مدحت عنى بالأسطول أكبر عناية . فقد استخدم البواخر العديدة التى استوردها من قبل كل من رشيد الكوزلكلى ونامق ، وأحضر عدداً آخر من البواخر لتعمل بين البصرة والسويس والآستانة وأوربا لمواجهة نمو التجارة المتبادلة بين العراق من جهة وأوربا والهند من جهة أخرى . ولذلك نظم مدحت الشركة العمانية – العثمانية التى ظهرت قبل وصوله إلى العراق بوقت قصير وعمل على أن يجعل من نهر الفرات طريقاً ينادد طريق قناة السويس يربط بين الساحل السورى وبغداد والبصرة . ولتنفيذ هذا المشروع شق طريقاً برياً يربط بين الساحل السورى ونهر الفرات . وأقام على طول الطريق نقطاً للحراسة لمنع العشائر من تهديد القوافل فى هذا الطريق . وعكف على دراسة نهر الفرات وتحديد العقبات التى تحول دون استخدام البواخر فيه واستقدم كراكات لإزالة هذه العقبات وكان يسبر غور النهر بنفسه .

كما ربط دجلة بالفرات فى أقصر مسافة بينهما (بين بغداد والفلوجه) وبذلك جعل خط البواخر فى دجلة متصلاً باستمرار بخط البواخر فى نهر الفرات (٢) . ولقد استخدم فى النهر فعلاً مجموعة من البواخر وأهمها :

١ – الباخرة بابل .

٢ – الباخرة نينوى .

(١) ع. العزاوى : تاريخ العراق : جـ ٧ : ٢٢٣ نقلا عن الزوراء .

(٢) ع. العزاوى : تاريخ : جـ ٧ : ٢١٩ .

٣ – الباخرة نجد

٤ – الباخرة آشور .

وكانت تعمل بين بغداد والبصرة والآستانة . ووفر محطات الفحم على طول هذه الطرق . ويقال إن الأرباح تزايدت من هذه البواخر زيادة كبيرة (١) . وقد لعبت هذه البواخر دوراً كبيراً فى تقوية قبضة الحكومة العثمانية فى الخليج العربى .

(١) تبصره عبرت : ٩٨ .

الفصل العاشر

السياسة العثمانية فى الخليج العربى وحملة مدحت باشا

١ – سياسة ولاة بغداد إزاء الخليج
العربى (١٨٤٠ – ١٨٧٠) .

٢ – التنافس على البحرين .

٣ – تقوية قبضة العثمانيين على الكويت .

٤ – حملة مدحت فى الخليج .
(١٨٧١ – ١٨٧٢) .

٥ – أزمة الصراع بين عبد الله وسعود .

٦ – نشاط مدحت فى قطر .

٧ – الصدام بين العثمانيين وعبد الله .

٨ – سياسة مدحت إزاء فارس .

٩ – عزل مدحت .

الفصل العاشر

السياسة العثمانية فى الخليج العربى وحملة مدحت باشا

سياسة ولاة بغداد ازاء الخليج العربى ١٨٤٠ – ١٨٧٠ :

كانت حملة مدحت فى الخليج العربى جزءاً من خطة عامة عثمانية للسيطرة على سواحل شبه الجزيرة سواء فى الخليج العربى أو فى البحر الأحمر حتى تحفظ لنفسها مكاناً ممتازاً فى مجال خطوط المواصلات العالمية فى الظروف التى لابست افتتاح قناة السويس . وقبل أن نتعرض لحملة مدحت فى الخليج سنلقى ضوءاً على أحوال الخليج منذ نهاية الأربعينات من القرن التاسع عشر .

فبعد انسحاب القوات المصرية من شبه الجزيرة العربية عمل العثمانيون على أن يرثوا الحكم المصرى هناك وفعلاً نشط على رضا فى هذا الاتجاه (١) ولكن بعد عزله فى ١٨٤١ خف اهتمام العثمانيين بأمور الخليج وإماراته . واكتفى العثمانيون باعتبار شبه الجزيرة العربية جزءاً من الدولة العثمانية دون أن يتابعوا مجهوداتهم لإدخال النظم الإدارية العثمانية فى تلك الجهات وبذلك تركوا المجال مفتوحاً أمام القوى الطامعة ، وخاصة بريطانيا وفارس .

وكان فى الخليج مجموعة من الإمارات عقدت معاهدات مع بريطانيا وأصبحت أمورها بيد الإنجليز وهى البحرين وإمارات الساحل المهادن ومسقط . وإلى جانبها فى داخل شبه الجزيرة العربية إمارة آل سعود المسيطرة على نجد والأحساء وإلى الشمال منها إمارة جبل شمر وعاصمتها فى حائل . وكانت الأخيرة لا تزال بعيدة عن الضغط الأوربى أما الإمارات الأخرى فكانت فى عرف العثمانيين تابعة للدولة العثمانية ، وكانت فارس تطالب

---

(١) انظر الفصل الخامس .

بالبحرين كذلك والسياسة الإنجليزية تحول دون أن تحرز أية من هاتين الدولتين الإسلاميتين موضع قدم فى الإمارات المتعاهدة مع بريطانيا . ومع أن شيوخ البحرين ومشيخات الساحل المهادن وقعوا معاهدة ۱۸۲۰ مع بريطانيا فقد كانت الرغبة قوية بين الأسرات الحاكمة للتخلص من هذه المعاهدة التى وضعت الإمارات تحت الإشراف البريطانى . فقد كانت العاطفة الدينية للانضواء تحت لواء الدولة العثمانية واضحة بين عدد من شيوخ هذه العشائر وسيترتب على ذلك صراع داخلى مرير فى هذه الإمارات .

وكان تراخى العثمانيين إزاء أمور الخليج العربى سبباً فى أن ينشأ فراغ كبير فى تلك الجهات فسعت إلى ملئه فرنسا وفارس وبريطانيا ، فقد حاولت فرنسا أن تجد لنفسها موضع قدم فى الخليج العربى ، وهدد الفرس — خلال منازعاتهم على الحدود العثمانية — باحتلال البحرين عن طريق الكويت(۱) وحاولت فرنسا أن تستفيد من المنازعات الفارسية البريطانية ومن العصبيات الحاكمة والإمارات فى الخليج ، وخاصة إمارة آل سعود وسلطنة مسقط ، فبعثت الحكومة الفرنسية بسفينة مسلحة إلى الخليج لتشد أزر النشاط الدبلوماسى هناك ولتثبت للقوى المناهضة للإنجليز هناك أن للفرنسيين أسطولاً يمكن أن تعتمد عليه وطلب الفرنسيون من خالد آل سعود — الذى ثبته على رضا فى حكم نجد — أن يتجنب الارتباط بعجلة الإمبراطورية البريطانية(۲) . ولكن هذا النشاط الفرنسى لم يؤد إلى نتيجة ذات قيمة لأن الفرنسيين جاءوا إلى الخليج بعد أن ثبت الإنجليز أقدامهم فيه وبعد أن عقدوا معاهدة ۱۸۲۰ مع معظم إماراته . هذا إلى أن الحكومة العثمانية لم تقاوم النفوذ البريطانى بقوة لأنها كانت تدين للإنجليز بخروج المصريين من الشام ومن

(۱) From Resident in the Persian Gulf to the Court of Directors. 6July 1842. (Pol. & Sec. Dept. Recs., ltrs. revd. fr. the E.I.C. Resident in the Persian Gulf 1842-1843, fr. Agent in Syria 1842-43. fr. Agent. with Imam of Muscat 1842-43. Vol. 12 pp. 93-94.

(۲) Taylor to Sec. Comm. Jan. 27, 1842.(Pol. & Sec. Dept. fr. Pol. Agt. Turk. Arb. 1842-3. Vol. 13 pp. 1-2, 15-18. & Resident in Persian Gulf to Court of Directors Jan. 10, 1842. Palmerston to Hobhouse. Nov. 20. 1840.Home Correspodence Vol. B; pp. 301-303.

شبه الجزيرة العربية . كما أن حكومة فارس كانت قد تلقت ضربة شديدة من الإنجليز فى ۱۸۳۷ — ۱۸۳۸ ولم تستطع روسيا أن تحمى الفرس من ضغط الأسطول البريطانى الشديد على الساحل الشرقى للخليج العربى ولذلك كانت الحكومة الفارسية لا تعتد بالحكومة الفرنسية قدر اعتدادها بالحكومة البريطانية برغم أنها كانت فى حاجة إلى قوة أوربية تستند إليها فى خضد شوكة الإنجليز فى الخليج . فلم يكن لدى الفرنسيين فى تلك الجهات من القواعد العسكرية أو التجارية ما يمكنهم من تقديم مساعدات فعالة للحكومة الفارسية ومع أن القوى الإسلامية الكبرى المطلة على الخليج (الدولة العثمانية والفارسية وسلطنة مسقط) كانت تدرك أن الإنجليز يعملون على الانفراد بالسيطرة على مياه الخليج لم تتفق هذه القوى ضد هذا الخطر المشترك ، بسبب ما كان بينها من منازعات شديدة ولأن كل طرف كان مضطراً إلى أن يحسب حساب الضغط الإنجليزى وحاجة كل طرف منها إلى كسب الإنجليز إلى جانبه . كذلك كانت الإمارات المتعاهدة مع بريطانيا فى حاجة إلى قوة كبيرة لتقف على قدميها أمام مطالب فارس ومسقط . واستغلت بريطانيا الفرصة لإرغام هذه الإمارات على العمل وفق المصالح البريطانية. كانت فارس تدعى تبعية الخليج والبحرين لها ، وكانت مسقط تتطلع احتلالها . وبينما كف إمام مسقط عن التدخل فى أمور البحرين ظل آل سعود يعملون على استعادتها تحت حكمهم فى وجه المطالب الفارسية .

وكان من الطبيعى أن تظهر فى المشيخات — الواقعة تحت النفوذ البريطانى والمتعاهدة مع بريطانيا — اتجاهات معادية للإنجليز تدعو إلى التعاون مع القوى الإسلامية وأخرى تدعو إلى التعاون مع السلطات البريطانية . ولما كان آل سعود يطالبون بالبحرين وكذلك الفرس قامت الفتن والثورات فى الجزيرة . ومن وقت لآخر ارتفع إلى المشيخة أحد زعماء آل خليفة باسم فارس أو باسم السلطان العثمانى أو بمساعدة آل سعود ، وكان الإنجليز دائماً يسقطون كل حاكم لا يميل إليهم (۱) .

(۱) Robertson(Agt. at. Per. G.,) to sec. Comm. Nov. 8,1842) Pol. & Sec. Dept. Recs., ltrs. Rcvd. fr. E.I.C. 1842-3, Vol. 12. pp. 93-96). Rawlinson to Sec. Comm. Ap. 16,1849. (Ibid. Vol. 14. pp. 173-177) .

التنافس على البحرين :

كانت فارس وآل سعود أنشط من كل من حكومتى بغداد ومسقط فى المطالبة بالبحرين فقد اعتبرتها فارس جزءاً من الدولة الفارسية وأن شيخها يعين من قبل الشاه . وكان شيوخ البحرين فى الواقع يلعبون بفارس وبالدولة العثمانية ، ولكن لم يحدث صدام بين الدولتين الإسلاميتين حول البحرين إلا بعد أن اشتدت المطالبات الفارسية بها منذ ١٨٤٤–١٨٤٥ م فإلى جانب تأييد والى بغداد لأحد المطالبين بالمشيخة دخلت عملية ضم البحرين للدولة العثمانية مرحلة التنفيذ العملى عندما كتب حاكم البصرة إلى محمد آل خليفة فى صيف ١٨٤٧ يقول : « إنك لا شك فى خدمة الدولة العلية .. وتحت ظل حمايته السنية وغيرته العربية (١) » وهكذا استغل العثمانيون العاطفة لاسترداد إمارات الخليج . كان هذا الخطاب يهدف إلى أن يقوم شيخ البحرين بتسجيل سفنه فى سجلات الدولة العثمانية . ولو فعل هذا لكان ذلك اعترافاً منه بالتبعية للسلطان . وشد العثمانيون أزر هذه المجهودات فبعثوا بسفينة عثمانية لتجوب الخليج (١٨٤٧) ولتوزع الأعلام ليرفعها من يشاء إعلاناً بالتبعية للسلطان (٢) .

وليشجع العثمانيون شيخ البحرين على ذلك أخطروه بأن شيخ الكويت رفع العلم العثمانى على سفنه وسجلها فى الإدارة العثمانية فى البصرة (٣) ، فانتهز محمد بن خليفة فرصة هذا الضغط العثمانى ليكسب على حساب التنافس الأنجلو عثمانى . فتفاوض مع السلطات البريطانية على أساس أن تخفف حكومة بومباى من الضرائب المفروضة على سفن البحرين فى موانى الهند . وهدد بإعلان الولاء للسلطان إن تلكأت السلطات البريطانية فى النظر فى هذا الموضوع . (٤) ولكن وقفت الحكومة البريطانية وممثلوها فى الخليج

(١) ولا شك أنهم استغلوا اللغة العربية فى هذه الظروف حيث إن القضية تتوقف على الجانب الذى يميل إليه العرب .

(٢) Hennell to Rawlinson,: May: 9,1847. F.O. 195-272.

(٣) Hennell tc Rawlinson: 9 May 1947. F.O. 195-272.

(٤) Selection fr. the Recs. Bombay XXIV. p. 418-419.

والعراق ضد أية محاولة لفرض سيادة فارسية أو عثمانية على البحرين . وكانت بريطانيا تتذرع بأن معاهدة ١٨٢٠ جعلت من البحرين إمارة مستقلة مرتبطة ببريطانيا بتعهدات معينة .

والملاحظ أن المطالبات العثمانية والفارسية بالبحرين اشتدت فى ١٨٤٧ وهى السنة التى عقدت فيها معاهدة أرضروم بين الدولتين الإسلاميتين فانطلقت فارس صوب أفغانستان والخليج العربى بينما اقتصر النشاط التوسعى العثمانى صوب الخليج فقط .

وجد المسئولون العثمانيون أن إهمال البصرة مسئول عن ضعف النشاط العثمانى نحو الإمارات العربية فى الخليج فوضعوا مشروع إنشاء ترسانة بحرية فيها ورفعت البصرة إلى مرتبة الولاية فى ١٨٤٩ لتكون قاعدة للبواخر العثمانية المزمع إرسالها إلى الخليج فأدى هذا النشاط إلى ظهور عدد من المطالبين بمشيخة البحرين فى كل من فارس وبغداد ونجد .

كانت القوة الوحيدة القادرة على توجيه حملة مباشرة ضد البحرين هى نجد . وكان فيصل بن تركى آل سعود معنياً تماماً بالسيطرة على الجزيرة ولأنه كان يقدر قوة الإنجليز حاول التفاهم معهم بشأنها دون جدوى . فاتبع الطريق التقليدى وهو تشجيع المطالبين بالمشيخة دون أن يوجه هو حملة ضدها (١٨٥١–١٨٥٢)(١) ، وكان فيصل يطالب بها على اعتبار أنها تدفع الزكاة سنوياً وأن هذا من علامات الخضوع للحكم الوهابى . وكان الإنجليز ينكرون أن دفع هذه الأموال يعنى الخضوع لآل سعود (٢) . وأدرك الإنجليز أن فيصل لو نجح فى السيطرة على البحرين فهذا معناه أن البحرين تدخل ضمن إطار الدولة العثمانية إذ كان فيصل يتسلم خلعة

(١) Sheil to Malmesbary: May 11,1852. Ind. O.R.,F.R.,P.P.G., Vol. 100. pp. 149-150.

(٢) يقول رولنسون فى هذا الموضوع :
«The sum is certainly paid as a douceur , to a powerful and independent Arab neighbour and not to the deligate of the Sultan».
انظر :
Rawlinson to Hugh Rose. Chargé d'Aff. Comple. No. 29. dated. Aug. 23, 1852. F.O. 195-367.

من والى الحجاز من قبل السلطان ومنح كذلك لقب قائمقام نجد (١) ، وردد فيصل أن السواحل وعمان من توابع الدولة العثمانية (٢) .

وعند ما اشتد ضغط فيصل بن تركى على البحرين استنجد حاكمها بالسلطات العثمانية والفارسية دون الإنجليز . وكان الفرس أكثر نشاطاً فوصلوا إلى الجزيرة قبل العثمانيين ورفعوا العلم الفارسى ولما وصل العثمانيون واحتجوا على ذلك اشترط عليهم محمد بن خليفة أن يأتوه بفرمان من السلطان .

بدأت السلطات الفارسية فى إعداد حملة لإرسالها إلى البحرين . فتدخلت السلطات البريطانية مهددة باستخدام الأسطول لمنع هذه الحملة حتى ولو كانت برضاء شيخ البحرين فلجأ الفرس إلى التفاهم مع فيصل ابن تركى للقيام بهجوم مشترك على الجزيرة ، ولكن فيصل تجنب التورط مع الفرس (٣) . وتابع فيصل سياسته التقليدية وهى تأييد مطالب بمشيخة البحرين من آل خليفة فردت قطع الأسطول البريطانى على محاولة من الدمام لغزو البحرين بضرب تجمعات الحملة ، ولم يقم العثمانيون بمواجهة هذه الأزمة بمظاهرة عسكرية وإنما التزموا طريق الاحتجاج على ضرب أرض عثمانية (٤) . والمعتقد أن تحوُّل البريطانيين من مجرد حماية البحرين

---

(١) .Ibid وانظر كذلك المكاتبة الصادرة من أحمد توفيق والى بغداد إلى كمبال — القنصل البريطانى فى بغداد فى ٢٥ من جمادى الأولى ١٢٧٨ فى F.O. 195-676 وكذلك النص التركى لرد كمبال على توفيق فى ٣٠ من نوفمبر ١٨٦١ فى F.O. 195-676 ويقال إن الفرس حاولوا استخدام إمكانات الوهابيين لاسترداد البحرين عن طريق الاتفاق مع فيصل آل سعود للقيام بهجوم مشترك على البحرين وأن فيصل تجنب التورط فى صدام مع الأسطول البريطانى

(٢) Rawlinson to Russell: May 10,1860.)Ind.O.R.,F.R., PPG, Vol. 15)
F. Jones to Rawlinson: May. 15, 1850. Ibid. & Sheil to Palmerston: Aug. 8,1861. and O.R., F.R., P.P.,G., Vol. 98. pp. 151-5).

(٣) Rawlinson to J. Rusell:May 10,1860. (Ind.O.R.,F.R.,P.P.G.,Vol.15)
Felix-Jones to Rawlinson: May. 15,1860. Ibid.
Lorimer : Op. cit. Vol. I., Pt. I. pp. 885-889. & Adamiyat : op. cit. pp. 163-64

(٤) Philby : Saudi: pp. 198-200, Adamiyat : op. cit. p. 141-148.
أحمد توفيق إلى كمبال فى ٢٥ من جمادى الأولى ١٢٧٨ هـ / ١٨٦١ م .F.O. 195-676
من كمبال إلى أحمد توفيق فى ٣٠ من نوفمبر ١٨٦١ م . .Ibid

مما يدبر لها من حملات إلى ضرب قواعد الهجوم الموجودة على الساحل العراق والخليج : سببه أن السلطات البريطانية كانت تخشى منذ ١٨٥٢ من قيام تعاون بين سلطات بغداد وآل سعود ضد البحرين لإرسال حملة برية بحرية إليها .

ولا شك أن مساعى آل خليفة لطلب الحماية الفارسية والعثمانية من وقت لآخر لم تكن فقط من أجل الحكم والمشيخة وإنما للتخلص كذلك من السيطرة البريطانية . ولذلك اقترح جونس Felix-Jones — القنصل البريطانى فى الخليج — إرسال قطع الأسطول إلى البحرين لإرغام شيخها على توقيع معاهدة رادعة Restrictive Treaty ، وفعلاً أعدت مسودة المعاهدة فى مايو ١٨٦٠ (١) ووقعها شيخ البحرين فى ١٨٦١ (٢) .

كان طبيعياً أن تشتد المقاومة فى البحرين ضد هذه الاتفاقيات والتعهدات الممنوحة لبريطانيا وتزعم محمد بن عبد الله آل خليفة — المطالب بحكم البحرين — حركة المقاومة وطلب من العثمانيين العمل على طرد الشيخ الحاكم . وبدأ الصدر الأعظم عالى باشا اتصالاته بالمسئولين الإنجليز فى هذا الشأن فاحتجت السلطات الفارسية على هذا النشاط العثمانى الموجه إلى البحرين وأخطرت الباب العالى فى ٢٧ من نوفمبر ١٨٦١ أن مسقط والبحرين تابعتان للدولة الفارسية ولا يتولى حاكم فيهما مقاليد منصبه إلا بتكليف من الشاه (٣) . ولكن عنصر المبادرة بالهجوم كان فى يد السعوديين من الأحساء . ولذلك كان الإنجليز أكثر نشاطاً فى مقاومة التدخل السعودى ، ولذلك ضربوا الساحل الأحسائى فى نوفمبر ١٨٦١ فى عهد فيصل ابن تركى ثم فى عهد خلفه عبد الله فى ٢ من فبراير ١٨٦٦ عندما احتشدت

---

(١) F. Jones to Ch. Sect. Govrn. Bombay. June 1,1860 (Ind. O.R.,F.R., P.P.G., Vol. 116).

(٢) نص المعاهدة فى
Saldanha. Per. G. Gaz. Pt. I. & Prec. of Bahrein

(٣) أحمد توفيق باشا إلى كمبال فى ٢٥ من جمادى الأولى ١٢٧٨ .F.O 195-676
النص التركى لرد كمبال على توفيق باشا ١٨ تشرين الثانى ١٢٧٧/٣٠ نوفمبر ١٨٦١
Ibid. Faroughy : Bahrein. p. 45, 85.

قوات معادية للبحرين فى الدمام (١) وعلى أثر النشاط السعودى الموجه ضد عمان ومسقط (٢) . وشعر عبد الله أنه أضعف من أن يقف وحده أمام الضغط البريطانى ولذلك بعث عبد الله بمندوب من قبله للتفاهم مع نامق باشا — والى بغداد — لتنسيق جهودهما ضد العدوان البريطانى المتكرر . وأدت الاتصالات العثمانية إلى توقف الإنجليز عن ضرب ساحل الأحساء وشعر نامق أن الوقت أزف لوضع الأحساء تحت الحكم المباشر ودارت بينه وبين مندوب السعوديين مفاوضات بهذا الشأن انتهت بفرقة بين الطرفين إذ تمسك كل منهما بحقه فى إدارة أمور الأحساء (٣) .

والمعتقد أن ضرب الأسطول البريطانى للدمام وفشل كل من نامق وعبد الله فى تنسيق العمل بينهما كانا العاملين الرئيسيين اللذين دفعا عبد الله ابن فيصل إلى أن يطرح العثمانيين جانباً وأن يبعث من تلقاء نفسه بتصريح للسلطات البريطانية فى الخليج العربى فى ١٨٦٦ . وهو التصريح الذى تعهد فيه للإنجليز بعدم التعرض للإمارات المتعاهدة مع بريطانيا أو لمسقط وعمان بوجه خاص (٤) .

وهكذا لم يستطع نامق أن يثبت دعائم السيادة العثمانية على الساحل إلا بالأسلوب التقليدى نفسه الذى كان يتبعه الولاة من قبل ، وهو إسناد الحكم إلى المتغلبين فى إطار التبعية للدولة العثمانية وما اضطر نامق إلى هذا الأسلوب التقليدى — برغم أنه كان يمتلك بواخر فى أنهار العراق — إلا لأن البصرة لم تكن قادرة على أن تقوم بمهمتها الحقيقية وركزت الأمور فى يد والى بغداد الذى كانت تحجبه عن الخليج عشائر وإمارات عشائرية قوية . بل إن عشائر المنتفق والضفير كانت تتحمل مسئولية النزاع بين آل سعود

(١) Saldanha:Precis of Naval Arrangements in Persian Gulf. 1862-1905 p. 13. Kemball to Lyons : Ap. 18, 1866, No. 15. F.O. 78-911.

(٢) عمان والساحل الجنوبى لخليج العربى : أصدرته شركة الزيت العربية الأمريكية — إدارة العلاقات — شعبة البحث القاهرة مطبعة مصر (١٩٥٢) ص ٣٢ — ٣٤ .

(٣) Kemball to Lyons : Ap. 18,1866. No. 15. F.O. 78-911. Saldankha : Precis of Naval Arrangements in Persian Gulf 1862-1905. p. 13.

(٤) British Relations with the Wahabees Jan. 30, 1903. Conf & Aitchison. Vol. X.p. 116. Lorimer : op. cit. Vol. I.Pt.Vol.I.p. 1123-24.

ونامق . فعلى إثر فشل المفاوضات بين نامق وفيصل بن تركى بعث الأخير بجيشه ضد المنتفق والضفير (١) نكاية فى والى بغداد .

وليس معنى هذا أن نامق تقاعس عن اتباع سياسة منظمة نحو الخليج فالمشروعات كانت فى رأسه ولكن إمكانات التطبيق كانت غير متوفرة إلى حد بعيد .

تقوية قبضة الحكومة على الكويت :

خلال ذلك عمل نامق باشا على إنقاذ الكويت مما يتهددها من مصير مشابه لمصير البحرين . وكانت الكويت قد لفتت بقوة أنظار الإنجليز منذ مطلع الستينات ، وخاصة عندما قام القنصل البريطانى بلى Pelly (٢) بزيارتها وهو فى طريقه إلى الرياض ١٨٦٣ . وأوصى بلى حكومته بأن تكون الكويت إحدى محطات البواخر فى الخليج لما كانت تمتاز به عن البصرة كنهاية للخطوط البرقية ومشروعات خطوط السكك الحديدية (٣).

ولم تقف هذه العناية بأهمية الكويت عند الدراسات السياسية فى الدوائر الدبلوماسية البريطانية ، بل تعدتها إلى الصحافة فقد نشرت صحيفة Bombay Times مقالة تحدثت فيها عن أن شيخ الكويت عرض على المسئولين الإنجليز

(١) أشيع أن عبد الله بن فيصل هزم المنتفق هزيمة شنيعة وعلى عادة حكام العراق اتصلوا بآل سعود لتهدئة الأمور .
Lorimer : op. cit. Vol. I., Pt. I. 1125.

(٢) يقول هوجارث إن رحلة بلى Pelly لمدينة الرياض لم تكن إلا نتيجة لرحلة بالجراف إليها وأنه اعتزم تقديم عروض لفيصل أكثر سخاء .
Palgrave Hogarth : Arabia p. 115.
وانظر تفاصيل زيارة بلى لنجد فى التحكيم لتسوية : ج ١ ؛ ٢٢١ — ٢٢٢ .

(٣) ويقول لوشر إن أول باخرة مرت بالكويت كانت فى ١٨٦٤ وأن أحد أقرباء شيخ الكويت وعد بتقديم تسهيلات لشركة British India Steam Navigation comp. فى الكويت . (انظر لوشر : ١٣ — ١٤ ، ١٨ ، ٣٩) .
والجدير بالذكر أن فارن Farren قنصل بريطانيا فى دمشق فى ١٨٤٠ طلب من حكومته خلال أزمة التوسع المصرى أن تفرض حمايتها على الكويت . انظر الفصل الخامس .

أن يتنازل عن المدينة والميناء وأن يرفع العلم البريطانى على سفنه (١). وعلم نامق بالمقال وهو الخبير بأساليب الاستعمار البريطانى فقرر أن يتخذ خطوات سريعة لمواجهة الموقف فى الكويت . فعزم على أن ينشئ جمركاً فيها (٢) تمهيداً لتطبيق نظم الإدارة العثمانية وأن يسند إلى حاكم الإمارة منصب القائمقامية (٣) ولكن لقيت هذه السياسة معارضة شديدة من جانب آل الصباح حيث إن إجراءات نامق لم تكن تكفل فقط ضمان الكويت تحت الحكم العثمانى ، بل تقضى كذلك على مكاسبها وتفوقها على حساب البصرة فكان من الطبيعى أن يجد آل الصباح فى آل سعود — وكانوا فى نزاع منذ وقت وجيز مع نامق — أعواناً لهم فى وجه السياسة العثمانية نحو الخليج (٤). وأعتقد أن عزل نامق عن ولاية بغداد (٥) ووجود عشائر المنتفق كستار يمنع من وصول قوات عثمانية إلى ما وراء سوق الشيوخ وعجز البصرة عن الضغط على الكويت، كل هذا أدى إلى أن تكتفى سلطات بغداد بتثبيت آل الصباح فى الحكم تحت السيادة العثمانية، وحافظت بذلك الكويت على كيانها ولم نسمع عن ظهور جمرك عثمانى فيها، بل استمر ميناؤها حراً للتجارة برغم ما فى ذلك من ضرر بمستقبل البصرة الاقتصادى ، بل استمرت سفنها ترفع الأعلام البريطانية والهولندية ، حتى أسندت ولاية بغداد إلى مدحت باشا (٦) فعندما جاء مدحت إلى العراق أدرك تماماً ما وراء ذلك من خطورة كبيرة على مستقبل الساحل الغربى للخليج العربى .

حملة مدحت فى الخليج العربى (١٨٧١ — ١٨٧٢) :

جاء مدحت إلى العراق فى وقت كانت فيه البواخر والسفن تستعد

---

(١) Kemball to Secrt. To Govnt. to India. Nov. 24, 1866. F.O. 78-19157
A.H. Midhat : The life of Midhat p. 55.

(٢) Ibid. & do-do Jan. 23, 1867. F.O. 78-1958.

(٣) عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت : قسم أول : ج ٢ : ص ٢٥ .

(٤) فقد رفع نامق يد شيخ الكويت عن السيوفية وكان آل زهير يطالبون بها .
Lorimer : op. cit. Vol. I. Pt. I. pp. 1114,1121,1125-b.
Kemball to Sect. Govt. to India. Ap. 4, 1866. F.O. 78-911.

(٥) عزل فى ١٨٦٧ م .

(٦) A.H. Midhat: The life of Midhat. p. 55

لتمخر قناة السويس إلى الشرق الأقصى وأوربا . وكان لابد من آن تعمل الحكومة العثمانية على الاستفادة من شق القناة لربط العراق بالآستانة بخط ملاحة تجارى مستمر عبر الخليج العربى والبحر العربى والبحر الأحمر والمتوسط ومعنى هذا ربط أطراف الدولة بعضها ببعض ، وهذا يتطلب السيطرة بقوة على الخليج العربى لهذا السبب والحد من التفوق البريطانى الذى تجلى خلال الحوادث سالفة الذكر . ولذلك اتبع مدحت سياسة تهدف إلى إنشاء أسطول عثمانى قوى فى الخليج وإنشاء خط بواخر بين البصرة والسويس والآستانة . ولذلك عمل مدحت على تقوية قبضة الحكومة على الإمارات التى لم ترتبط بعد بالانجليز ليحميها من الوقوع تحت سيطرتهم. وبدأ نشاطه فى هذا الصدد فى الكويت ، وذلك بمتابعة سياسة نامق الخاصة بإنشاء جمرك فى الكويت كجزء من خطته لإدخال نظم الإدارة العثمانية فيها . ثم أسند منصب القائمقامية إلى صباح الثانى . ويقول عبد العزيز الرشيد إن مدحت أعفى قائمقام الكويت من الرسوم الجمركية ومن الضرائب الأميرية (١) . ولعله فعل هذا تخفيفاً عن أهل الكويت من الالتزامات المالية حتى لا يعودوا إلى استخدام الأعلام الأجنبية ، وليس معنى هذا أن مدحت أدخل النظام الإدارى العثمانى فى الكويت . فإنشاء الجمرك كان على أسس واهية حيث إنه لم يعمر أكثر من سنة أو سنتين (٢) . ومن ناحية أخرى كان إسناد القائمقامية إلى زعيم الأسرة لا يغير كثيراً من جوهر نظام الحكم فى الكويت . وما اضطر مدحت إلى اتباع هذه السياسة إلا لحاجته إلى هذه المشيخة لتنفيذ مشروعاته فى الخليج .

كان مدحت يقدر قيمة الأسطول الكويتى (٣) والدبلوماسية الكويتية

---

(١) Lorimer : op. cit. Vol.I, Pt. I. pp. 1112-1114, Hogarth: the Penetration p. 240
عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت : القسم الأول : ج ١ : ص ٦٨ .

(٢) Memc. Repsecting Koweit (Reel II).
Herbert to Elliot: June 7, 1871. No. 25. F.O. 78-2176.
Rouir : La Rivalite. p. 45.

(٣) تحدث فارن Farren فى كتاب له إلى أبردين Aberdeen بالتفصيل عن قوة الكويت البحرية وشجاعتهم فى القتال . وقال إن سفنهم التجارية سرعان ما تتحول إلى سفن قتال . (دار الوثائق التاريخية — الأرشيف الإنجليزى — بعابدين محفظة رقم ١١ صفحة ١١٣ — ٤ لسنة ١٨٤١)

فى المساعدة على مد وتثبيت السيادة العثمانية فى الخليج العربى . فقد كانت يد شيخ الكويت وراء الكثير من الأزمات الداخلية فى البحرين . وكانت علاقاته على نطاق واسع مع مختلف الإمارات هناك (١) .

وأعتقد أن شيخ الكويت من جانبه رحب بسرعة بالتعاون مع العثمانيين لأنه كان يدرك أن الإنجليز خطر مهدد لمستقبل الإسلام فى تلك الجهات وأن الواجب يدعو إلى ربط أواصر التعاون مع السلطان ليحمى البلاد مما يدبره الأجانب للإسلام . ولا شك أن الإعفاءات الضرائبية التى منحها مدحت للكويت وتجنبه التدخل فى الشئون الداخلية للإمارة الناشئة شجعا شيخ الكويت على التعاون مع مدحت .

على أن تعاون الكويت مع مدحت وقبولها عروضه بسرعة كان أيضاً بسبب عدة عوامل اقتصادية . فالمعروف أن لآل الصباح ممتلكات كبيرة فى العراق وكانت من الأسلحة التى استخدمها من قبل « نامق » فى الضغط على الكويت (٢) ،ولا شك أن صباح الثانى أدرك أن مدحت لن يتوانى عن اتخاذ إجراءات عنيفة وسريعة إذا لقى مقاومة من جانب الكويت . وهكذا تكشف لنا تلك العلاقات بين الكويت وبغداد فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر عن الأسباب التى جعلت شيخ الكويت يتعاون إلى أقصى حدود التعاون مع الحملة العثمانية التى بعث بها مدحت إلى ساحل الأحساء فى ١٨٧١ . فقد قدم الشيخ أسطوله ورجاله ليعملوا تحت اللواء العثمانى بإخلاص لم تجده لدى أية إمارة عربية أخرى فى الخليج (٣) .

أزمة الصراع بين عبد الله بن فيصل وأخيه سعود :

أثمرت مجهودات مدحت فى الكويت إلى حد بعيد بينما كانت التطورات فى إمارة البحرين وقطر تشير إلى أن الإنجليز يستطيعون استعمار ساحل

(١) انظر مثالا على ذلك فى
Selection fr. the Bombay Govrnt. XXIV. pp. 404-405.

(٢) Lorimer : op. cit. Vol. I., Pt.I. pp. 1114, 1119,1121,1125,1126

(٣) Herbert to Elliot. June 6,1671. No. 5. F.O. 78-2176.

الأحساء بأسره إذا استمرت حكومة بغداد تتبع سياستها السلبية المقصورة على الاحتجاجات الرسمية والمفاوضات ذات المستويات العالية . ففى ١٨٦٨ انتهز الإنجليز نزاعاً بين آل ثانى — حكام قطر — وآل خليفة — حكام البحرين — وأرغموا شيوخ قطر على توقيع معاهدة أدخلته فى زمرة الإمارات المتعاهدة مع بريطانيا ، وعزلت بريطانيا شيخ البحرين — المناهض للإنجليز — ورفعت عيسى بن على إلى المشيخة ووضعت سفينة حربية قرب الجزيرة (١) .

أثار هذا التدخل البريطانى فى أمور البحرين كلا من السلطات الفارسية والعثمانية وآل سعود . فاعترضت الدولتان الفارسية والعثمانية على تلك الخطوات البريطانية (٢)، فذكرت بريطانيا الدولتين بسابق إخطاراتها لهما بأن البحرين مستقلة . ولكن لم نسمع عن أن إحداهما اعترضت على معاهدة ١٨٦٨ مع قطر وربما لم تعلما بها خاصة وأن بريطانيا لم تكن تبرز مثل هذه المعاهدات إلا عند ما تضطر اضطراراً إلى ذلك وكان آل سعود القوة الوحيدة التى قررت أن تتدخل مستخدمة قوة السلاح لإنقاذ كل من قطر والبحرين وإمارات الساحل المهادن بأسرها من الاستعمار البريطانى. والواقع أن القوة الوهابية كانت هى الوحيدة حينذاك القادرة على توجيه حملة ضد تلك الإمارات لرفع السيطرة البريطانية عنها ،وشرع عبد الله بن فيصل فعلا فى إعداد حملات واسعة النطاق حتى عمان . ولما كان عبد الله يدرك تماماً أنه سيتعرض لضرب مدفعية الأسطول البريطانى لساحل الأحساء إذا ما أقدم على تنفيذ حملاته ، كتب إلى بلى Pelly يخطره بعزمه وحقه فى أن يقوم بهذه الإجراءات وحذره من التدخل فى أمور قطر أو البحرين التابعتين لحكمه من ناحية ،والداخلتين فى إطار الدولة

(١) انظر نص اتفاقية ١٨٦٨ فى
Aitchison : A collection of Treaties, engagements. Vol. XI.

(٢) من هذا القبيل أن حاكم البصرة طلب من شيخ البحرين أن يعلن خضوعه للسلطان وأن يطبق قوانين إلغاء الرقيق
Hertslet's Memo. on Turk. Claims. to Sovrgn. over Bahrein. F.O. 195-957 (Jan. 27, 1870).

الدولة العثمانية من ناحية أخرى (١) . وأعتقد أن عبد الله لم يشرك الدولة العثمانية معه فى مطالباته بالبحرين وقطر وغيرهما إلا لشعوره بضعفه عن مواجهة الدولة البريطانية وحده . ولقد أثبتت تجاربه مع الإنجليز بعد انسحاب المصريين هذه الحقيقة .

لم يكن النزاع بين عبد الله بن فيصل وعيسى بن على آل خليفة حاكم البحرين لأسباب سياسية فقط ، بل كانت العلاقات الاقتصادية السبب الرئيسى فى هذا النزاع وسبق أن بينا كيف أن إبراهيم باشا ١٨١٨ اكتشف أهمية الأحساء والقطيف لنجد وطالب بضمهما إلى الحكم المصرى (٢) ، كما بينا الخطوات الجريئة التى قام بها خورشيد فى١٨٣٩ فى هذا الصدد وأن خورشيد أكد لسلطات القاهرة أن البحرين مفتاح شبه الجزيرة العربية الشرقى وأنها ستصبح مالطة أخرى لو تركت فى يد الإنجليز (٣) . وتحقق ما تنبأ به خورشيد وأصبحت البحرين قاعدة للضغط العنيف على الساحل الغربى وقد استخدمها لهذا الغرض الأسطول الإنجليزى وسفن البحرين على السواء . فإذا ما رأى السعوديون وغيرهم فى هجمات البحرين على القطيف مخلب قط للإنجليز فلهم العذر كل العذر فى ذلك . وفى ١٨٧٠ تطورت الأزمة إلى أن تحاصر سفن البحرين القطيف (٤) ، فرد عبد الله على ذلك بالاستعدادات الكبيرة لفتح البحرين وأخبر بلى Pelly بعزمه وطلب منه سحب الرعايا البريطانيين من الجزيرة تجنباً لما قد يقع لهم خلال المعارك والمعروف أن السلطات البريطانية فى ذلك الوقت كانت تستغل بشكل فظيع أية حادثة تقع لرعية من رعاياها فى أرض أجنبية لتحصل على حقوق ضخمة فى كل مرة (٥) .

---

(١) انظر نص كتاب عبد الله إلى بلى فى
Pol. & Secrt. Recs., ltrs. fr. per. G., Vol. 16. pp-615-621.
Commander of Gunboat Clyde to Pelly Oct. 27, 1820. Ibid. pp. 1079-1081.

(٢) عبد العزيز نوار : داود باشا والى بغداد : ص ١٨٦ وما بعدها .

(٣) الدار الأهلية من خورشيد إلى صاحب الدولة : ٢٩ من رمضان ١٢٥٥ هـ، ٢٧ فبراير ١٨٣٩ : محفظة ٢٦٧ وثيقة ٤٠ (أصلية) ١٠ حمراء .

(٤) Commander of Gunboat Clyde to Pelly: Oct. 27, 1870)Pol. & Secrt.

(٥) Recs., letrs. fr. Per. G. Vol. 16. pp. 1079-1081. Ibid. pp. 615-21.

وتمشياً مع السياسة البريطانية الهادفة إلى منع الإمارات العربية فى الخليج من القيام بأى نشاط حربى بحرى منعت السلطات البريطانية شيخ البحرين من الاستمرار فى حصار ساحل الأحساء ، وفعلا رفع الشيخ عيسى آل خليفة الحصار وسحب سفنه (١) ولكنه لم يعدم وسيلة أخرى للضغط العسكرى على هذه السواحل وإبعاد عبدالله بن فيصل عنها . فى ذلك الوقت كان سعود ابن فيصل — أخو عبد الله — على نزاع معه ويعمل على طرده من الحكم ووجد فى شيخ البحرين أقوى مؤيد له فى مشروعاته(٢) ، وأدى وجود سعود لدى شيخ البحرين إلى التهاب الجو بين الطرفين واضطرعبد الله إلى أن يضيق من اتساع الجبهة التى كان يريد أن يعمل فيها عند ما استولى على البريمى لتنطلق منها قواته إلى عمان (٣) ، فاقتصر على تركيز عملياته ضد البحرين .

كانت استعدادات سعود كبيرة ولقى من شيخ البحرين كل التسهيلات الممكنة ، وكان بلى Pelly — القنصل البريطانى فى الخليج — يتغاضى عن هذه المساعدات التى يقدمها شيخ البحرين إذ كان من صميم قلبه يريد أن ينتصر سعود على عبد الله . ويمكن أن نكتشف حقيقة موقف بلى Pelly من الخطابات التى بعث بها إلى حكومته وضمنها وثائق وقعها شيوخ الإمارات العربية تقول إنهم يبغضون عبد الله ويرحبون بنصر سعود حيث إنه فى نظرهم أكثر تنوراً من عبد الله . وكان بلى Pelly يردد فى مكاتباته دائماً أن سعود خير للإنجليز من أخيه (٤) ولقد عمل سعود فعلا على أن يكسب إلى جانبه

---

(١) Downing (Commander of Gunboat Clyde to Pelly. Oct. 27, 18708 Pol. 9) Sec. Recs., ltrs. fr. Per. G., Vol. 16. pp. 1079-1081).
فى هذا الوقت قررت حكومة الهند أن تحدد الوضع السياسى للبحرين فاتفقت مع حكومة لندن على اعتبارها مستقلة عن الدولتين الفارسية والعثمانية وعن الإمامتين الوهابية والعمانية وعن سلطة مسقط والحكومة البريطانية (١٨٧٠) وقد جاء فى أحد المكاتبات فى ٢٠ من مايو سنة ١٨٧٠ عن أن البحرين :
«Subject neither to Persia nor to Turkey ... Wahabee ... Mascat nor yet to British Government ,. Persian gulf. Turk. Jurisdiction. Pt.I.p. 13. F.O. 73-5108.

(٢) Dcning to Pelly. Aug. 1870. & Sec. Acs. ltrs. fr. Per. G.Vol. 16 p. 743).

(٣) Pelly to Sect. to Govrt. of Bombay. Aug. 18, 1870)Ibid. pp. 607-613.

(٤) Pelly to Sect. to Govrt. to Bombay. Nov. 1870.)Pol. & Sec. Dept. Recs., tlrs. Fr. Per. G., Vol. 16. pp. 1195-1199.

شيخ البحرين والإنجليز حتى لو أدى ذلك إلى أن يضع الإنجليز أقدامهم على الساحل الشرقى لشبه الجزيرة العربية . فقد جاء فى كتاب موجه من سعود ابن فيصل إلى عيسى آل خليفة شيخ البحرين أنه فى حاجة إلى مساعدته ضد أخيه عبد الله . ولكيلا يحرج سعود موقف عيسى مع الإنجليز وليغرى الإنجليز بالتعاون معه أكد عيسى أن الساحل سيعتبر تحت الحماية الإنجليزية إذا ما قدم الإنجليز المساعدات له (١). ولكن بلى Pelly وجد نفسه فى موقف حرج عندما استعد سعود لنقل قواته من البحرين إلى القطيف حيث إن عمليات الغزو هذه تتطلب استخدام سفن البحرين ، وهذا يتعارض مع السياسة البريطانية العامة فى الخليج ومع سابق إنذاراتها لشيوخ البحرين بعدم القيام بنشاط عسكرى يجرى ضد ساحل الأحساء . وأخذ عيسى بن خليفة يستفسر من بلى Pelly عما يمكن عمله فى هذا الشأن . وكان بلى Pelly فى مكاتباته مع عيسى يخطره بأنه لم يتلق بعد رأى المسئولين فى هذا الشأن دون أن يصرح له (٢) . ولكن فجأة وجدنا بلى Pelly نفسه يخطر حكومة بومباى أن سعوداً بعد أن أتم استعداداته فى البحرين نزل على الشاطئ الأحسائى ، واستولى عليه وأكد لهذه الحكومة أن انتصاره سيؤدى إلى استقرار أمور الخليج (٣) .

ونستنتج من هذا أن بلى Pelly تجنب الموافقة على مساعدات عيسى آل خليفة لسعود ، وترك الأمور تسير على ذلك النحو ، وتغاضى عن إبحار سعود وقواته إلى الساحل . ومن قبل قامت بريطانيا باتخاذ إجراءات عنيفة ، وتأديبية ضد إمارات عربية متعاهدة مع بريطانيا أقدمت على عمل مشابه . وهكذا كانت بريطانيا تستغل فرص الهدوء على مشيخات الخليج لمصلحتها وكانت فى الوقت نفسه تعتمد على قوتها التى تضمن لها تحول الموقف لمصلحتها فى النهاية .

(١) Translation of a Purport of a letter Saood to Isa. (Pol.&Sec. Dept. Recs., Sec. ltrs. fr. Per. G. Vol. 19). 23 Aug. 1870.

(٢) Downing Commander of Clyde to Pelly. Aug. 9, 1870. Pol. & Sect. Dept. ltrs. fr. Per. Gulf. Vol. 16. pp. 743.

(٣) Pelly to Secrt. to Govrt. to Bombay. Nov. 5, 1870. Ibid. Vol. 16, pp. 1195-119.

وكان نزول سعود بقواته على الساحل يشكل خطراً سريعاً وكبيراً على مركز عبد الله وذلك للعوامل التالية :

(ا) كانت الأحساء منذ البداية من المناطق التى قاومت الحركة الوهابية باستمرار . فالمؤثرات الشيعية فيها قوية وتاريخها من حيث المذاهب الإسلامية المتطرفة مشهود . وعلى الرغم من المجهودات الوهابية المتتالية ظلت الأحساء أقل الجهات ميلا للحركة الوهابية . ولذلك كانت أكثر ميلا إلى سعود لما عرف عنه من كراهية للتعصب المذهبى .

(ب) كان بنو خالد — حكام الأحساء خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر — يسعون قدر جهدهم لدى السلطات العثمانية فى بغداد ولدى الحكومة المصرية بالقاهرة لاستعادة حكم الأحساء ولكن دون جدوى . ولما كان عبد الله قد أسند حكم الأحساء إلى أخيه محمد فلا سبيل لهم لبلوغ هدفهم سوى التعاون مع سعود . والمعروف أنهم أخواله (١) .

(حـ) وجد العجمان فى الصراع بين سعود وعبد الله فرصة للانتقام من الأخير لأنه نكل بهم أشنع تنكيل خلال السنوات الأخيرة من حكم أبيه فيصل(٢) ولذلك رحبوا بالتعاون مع سعود .

(د) كانت عشائر بنى مرة تتوق لقتال عبد الله وعرفت هذه العشائر بقوة شكيمتها (٣) .

ومع أن عبد الله انتصر على أعدائه وحلفاء سعود غير مرة إلا أن سعوداً كان قائداً لا يهدأ . نشاطه فى فترة الهزيمة لا يقل عنه عند النصر . كان ماهراً فى جمع شتات قواته والقيام بمغامرات عسكرية جريئة . كان ينتقل

(١) Kemball to Alison: (No. 40) Aug. 18. 1858. F.O. 195-577.
Herbert to Elliot: 20 Feb. 1871. No. 6. F.O. 195-949 & Herbert to Elliot 7 June 1871. No. 25 Ibid.

(٢) انظر تفاصيل الصراع بين العجمان وعبد الله فى صلاح الدين المختار : جـ ١ ص ٣٥٠ — ٣٥٢ وانظر
Herbert to Elliot : Dec. 1, 1871. No. 58 F.O. 195-949.

(٣) Herbert to Elliot: 20 Feb. 1871. No. 6 F.O. 195-949.

بين قطر والبريمي والبحرين مثيراً للفتن عاقداً المحالفات حتى استطاع فى إحدى المعارك أن ينقض على جيش أخيه محمد – قائد قوات عبد الله فى الأحساء – ويأسره . وسيطر بعد ذلك على الطرق المؤدية إلى الرياض (ديسمبر ١٨٧٠) . وبدا لعبد الله أن لا أمل له فى المقاومة خاصة وأن سعود استطاع أن يستميل عدداً كبيراً من شيوخ نجد ، فلم يجد عبد الله مفراً من أن يغادر الرياض إلى جبل شمر ليستعين بأميرها [(١)] . ولعل عبد الله أمل فى أن يقوم أمير الجبل بالدور الذى لعبه سلفه عبد الله الرشيد فى ١٨٤٣ عندما وضع إمكاناته العسكرية تحت تصرف فيصل بن تركى ليسترد الرياض من عبد الله ابن ثنيان . كذلك فشلت مجهودات عبد الله لدى شيخ أكبر مدينة فى القصيم « عنيزة » ولقيت مجهوداته المصير نفسه لدى كبرى العشائر الواقعة بين نجد والعراق مثل سبيع ومطير[(٢)] . فكان معنى هذا أن لا أمل له فى أن يسترد الرياض من يد سعود الذى كان يعتقد أنه مخلب قط للبحرين التى تقف من ورائها الدولة البريطانية وهو يرى فى انتصار سعود نصرة للكفار على المسلمين والقضية ليست قضية سعود وعبد الله أو البحرين « ونجد » وإنما قضية الوقوف فى وجه الخطر البريطانى المتحفز لابتلاع البلاد . أما وقد تجرد عبد الله من القوة التى تستطيع المقاومة فلا أقل من أن يستنجد بالدولة العثمانية المسئولة عن حماية المسلمين من الخطر الأوربى فكتب إلى والى بغداد مدحت باشا بما حدث من جانب سعود وكتب لنقيب البصرة ولناصر السعدون شيخ عشائر المنتفق [(٣)] .

وفى كتاب بعث به عبد الله إلى إسماعيل باشا خديوى مصر كشف لنا عن حقيقة الأسباب التى جعلته يطلب تدخل الدولة العثمانية فى هذه الأزمة . قال عبد الله :

---

(١) Philby : Saudi. p. 220 & Herbert to Elliot: 20 Feb. 1871. No. 6. F.O. 195-949.
كان عبد الله بن الرشيد قد ساعد فيصل بن تركى فى التغلب على عبد الله بن ثنيان وفى دخول الرياض فى ١٨٤٣ .

(٢) حافظ وهبه : جزيرة العرب : ٢٦٦ – ٢٦٧ .

(٣) Philby : Saudi : pp. 221-222.

«... وصل إلى طرفنا بنجد بلى Pelly قنصلوص الإنجليز بخليج فارس ومعه هدية . وقد فهمنا أن مراده نعطيه مركزاً فى ساحل البحر إما البحرين أو الدمام أو بعض القطع غيرها (فاعتذرنا له) ورجعنا هديته .. حيث إن هذه الأماكن التى فى يدنا من الممالك المحروسة الراجعة إلى خليفة رسول الله السلطان ... ورجع (عنا يائسا) ... وكان سعود قد استجلبه القونصلوص الموما إليه فأفسده وأغراه ... وأمده بما (يقتضى) له من الذخيرة والمهمات ... والنقود بواسطة أهل البحرين . ولما رأينا الأمر بهذه الصورة انتصرنا بالله ثم بدولتنا وعرضنا الحال إلى والى بغداد»[(١)].

حملة مدحت فى الخليج العربى :

وأغلب الظن أن مدحت كان يرقب تطور الصراع بين سعود وعبدالله بكل اهتمام حيث إن هربرت – القنصل البريطانى فى بغداد – يقرر أن الاتصالات بين عبد الله ومدحت كانت قائمة منذ منتصف يناير ١٨٧١ . ولكن صعوبة المواصلات وتعرض المكاتبات بين مدحت وعبد الله للضياع أخر كثيراً من الاتصالات [(٢)] . ويبدو من مكاتبات القنصل البريطانى أن مدحت هو الذى أغرى عبد الله بالتعاون مع الحملة التى كان يعدها منذ ذلك الوقت ونحن لا نستبعد أبداً أن يكون مدحت هو الذى حث عبد الله على التعاون مع الحملة العثمانية ، إلا أن هذا لا يعنى أن مدحت هو الذى خلق ظروفاً تبرر إرسال الحملة التى كانت فى نظر الإنجليز حملة خطيرة ورعناء[(٣)]

وعلى أى حال كان مدحت – مثل عبد الله – يعتقد تماماً أن سعوداً على علاقة وثيقة بالإنجليز وأن توليه أمر نجد مضيعة لهذه البلاد وإلقاء بها فى يد الأجانب وواجبه هو أن ينقذ هذه البلاد مما ستردى فيه [(٤)] .

---

(١) من عبد الله الفيصل إلى إسماعيل باشا : بدون تاريخ . الدار الأهلية ، محفظة ١٩ بحراً براً وثيقة رقم ٢ .

(٢) Herbert to Elliot: 20 Feb. 1871. No. F.O. 195-949.

(٣) Granville to Elliot: 22 June 1871. No. 126. Homecorres p. Vol. 68. p. 628.)Per. G., Trk. Jursd. Pt. I.P. 13. F.O. 78-5108.

(٤) Herbert to Elliot: 20 Feb. 1871. No. 6. F.O. 195-949.
كان الشائع فى بغداد أن سعوداً عميل القنصل البريطانى .

فمتى بدأت الاستعدادات لهذه الحملة ؟ هل كانت وليدة أزمة الصراع بين سعود وعبد الله وإسناد ولاية بغداد إلى رجل نشيط من طراز فذ مؤمن بواجبه نحو خدمة دولته بإخلاص ؟ أم كانت فكرة إرسال هذه الحملة موضوعة قبل أن يغادر مدحت الآستانة ؟ وبالتالى هل كانت مجهوداته العنيفة للقضاء على ثورة الدغارة وإلغاء مشيخة المنتفق والتفاهم مع شيخ الكويت مقدمة وتمهيداً لفتح الطريق أمام الحملة ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة يعوزها الاطلاع على الوثائق العثمانية فى الآستانة . ومع هذا يمكن أن نقول إن مدحت صاحب الفضل الأكبر فى إرسال هذه الحملة سواء أكانت خطتها موضوعة فى الآستانة قبل حضوره إلى بغداد أم بعد وصوله إليها . ولا أستبعد أبداً أن يكون الباب العالى قد أدرك — نتيجة للأزمات العديدة بين ولاة بغداد وقناصل بريطانيا بشأن إمارات الخليج — أن الأمر قد بلغ حداً خطيراً يتطلب إجراءات وقائية سريعة لايستطيع أن يتحمل أعباءها سوى وال عاش وخبر مشكلات ولايات الأطراف مثل مدحت باشا ، وأعتقد أن فكرة إرسال الحملة كانت مختمرة فى رءوس المسئولين فى الباب العالى حيث إن السياسة العامة له حينذاك هى إرسال الحملات فى أقرب فرصة ممكنة عقب افتتاح قناة السويس إلى نقطتى الضعف العثمانى فى البحر الأحمر والخليج العربى : اليمن والساحل الغربى للخليج العربى .

فالمعروف أن الأزمة الدولية الناشئة عن افتتاح قناة السويس كانت على أشدها . وكأنه بافتتاحها فى نظر الصحافة البريطانية والأوروبية ستنطلق البوارج الفرنسية والإيطالية لتصارع الإنجليز على طول الطريق إلى الهند . ولقد زاد النشاط الفرنسى والإيطالى فعلا فى البحر الأحمر زيادة كبيرة فقد حاول الإيطاليون ١٨٧١ الاستيلاء على سقطرة فأبعدهم عنها الإنجليز (١) وأخذت قطعهم البحرية فى ضرب المراكز المصرية على الساحل الغربى للبحر الأحمر. كذلك نشطت فرنسا للعمل على السيطرة على مناطق أوبوك والشيخ سعيد(٢)

(١) حراز : التوسع : ص ١٣٩ .
(٢) المصدر نفسه : ٥٥ — ١٥٣ ، ٣٩٥ — ٥٠٠ .

فلا أقل ، والأمور تتطور بهذه السرعة ، من أن تسرع الدولة العثمانية إلى انتهاز فرصة افتتاح القناة أيضاً لإنقاذ أملاكها فى البحر الأحمر والخليج العربى والبحر العربى مما يبيته لها الأوربيون وأن تجنب هذه الأطراف شر الصراع الأوروبى حول المواقع الاستراتيجية على طول خطوط المواصلات العالمية عبر الشرق الأدنى (١) .

وكان مدحت يدرك بخبرته أن الإنجليز خطوا خطوات فى منتهى الخطورة نحو العراق وفى الخليج . وصادف فى السنة الأولى من حكمه تجربة مع البحرين كشفت له عن أنهم ثبتوا أقدامهم فى البحرين . ونجح الإنجليز فعلا فى أن ينفردوا بتوجيه أمور البحرين وفى أن يمنعوا أية قوة أخرى من مشاركتهم فى توجيه أمورها ، فعند ما احتج مدحت على السلطات البريطانية حين قبضت على كل من محمد آل خليفة وعبد الله ونفتهما إلى بومباى أخطرت الحكومة البريطانية الباب العالى أن لاحقوق للسلطان على البحرين (٢) . وكان مدحت ممن خبر أساليب التدخل البريطانى ، والأهداف الخفية وراءها فعمل على أن يوقف هذه التدخلات البريطانية بجميع صورها .

ولا شك أن النشاط العثمانى فى نواحى مكلا وعدن منذ ١٨٦٨ كان من العوامل التى أقلقت السلطات البريطانية أشد القلق . حقيقة احتجت الحكومة البريطانية على هذا النشاط فى تلك الجهات وأرغمتهم على أن يكفوا عن ذلك . إلا أن العثمانيين كانوا قد قرروا إرسال حملة كبيرة لاستعادة سيادتهم على اليمن . وربما كانت الخطة العثمانية أوسع مما كانت تبدو عليها .

(١) Pelly to Pol. Sec. to Gorvt. Bombay. June 5,1871. (Pol. & Sec. Dept. Recs., Sect. ltrs. fr. Per. G., Vol. 17. p. 877-81) Badger's Memo. of a conversation with the Ottoman Ambassador to France at the British Embassy. Paris Nov. 23, 1872. Enclos. to Despatch fr. J.B. Frère (Cairo) to Earl of Granville (fr. F.O.to Elliot) Jan. 23. 1873 No. 10. F.O. 195-1019
R. Reilly : Aden & the Yamen. p. 16.

(٢) Per. G. Trk. Jurd. Alg. Arb. Cst. Pt. I. F.O. 69-5108.
واعترضت حكومة الشاه كذلك على القبض على محمد آل خليفة وعلى منع الإنجليز المندوب الفارسى من الوصول إلى الجزيرة .
Thomson to Clarendon Jan. 12, 1870. Tehran. No. 7)Ind. O.R., F.R., P.P. G., Vol. 126, pp. 43-45).

فالمعتقد أن تنسيقاً بين الحملتين إلى اليمن والخليج كان موجوداً أمام المسئولين فى الآستانة الأمر الذى أثار الكثير من مخاوف الإنجليز (١) .

وينفرد المؤرخ الألمانى ميكوش بالقول بأن حملة مدحت على الخليج كانت للحيلولة دون اتساع رقعة إمارة آل الرشيد الناشئة فى حائل (جبل شمر) وذلك بالاستيلاء على الكويت والأحساء منافذ جبل شمر (٢) ، ولا أستبعد أن يكون من أهداف الحملة السيطرة على جبل شمر لما كانت تدور فيه خلال الستينات من أوجه نشاط سياسى غامض صادر عن كل من الإنجليز والفرنسيين واشتركت معهم فى هذا النشاط كذلك الحكومة المصرية (٣). ولكن ليس معنى هذا أن السيطرة على جبل شمر كانت دافعاً رئيسياً للحملة ، بل المعروف لدينا عن أمير جبل شمر أنه كان يعمل دائماً على أن تكون علاقاته طيبة مع السلطات العثمانيةسواء فى العراق أو فى الحجاز ، وكان دائماً يعلن أنه من رجال السلطان العثمانى ولم تكشف لنا العمليات العسكرية التى قامت بها حملة مدحت عن نشاط فى اتجاه جبل شمر برغم اتساع رقعة هذه الإمارة فى ذلك الوقت . وذكر هربرت ، القنصل البريطانى فى بغداد، أن منذر بن راشد — شيخ جبل شمر — أعلن انضمامه إلىمدحت ولعل المنازعات الداخلية بين أفراد الأسرة الحاكمة فى حائل تفسر لنا الأسباب التى أدت إلى عدم مشاركة آل الرشيد مشاركة فعلية فى الحملة .

ولما كانت الحملة ترمى إلى إنقاذ أطراف الدولة من الاستعمار البريطانى عنى مدحت بكتمان الأمر عن الإنجليز تماماً ، وكان مدحت خبيراً بأساليب

(١) Precis of Turkish Expansion p. 29.
Pelly to Pol. Sect. Bombay. June 5, 1871. (Pol. & Sec. Dept. Recs., Ltrs. fr. Per. G., Vol. 17. pp. 877-881).

(٢) ميكوش : عبد العزيز : ٢٥ .

(٣) انظر تفاصيل زيارة Pelly لنجد وكذلك زيارة Palgrave, Wallin. من قبله إلى نجد وجبل شمر فى :
Bill. de la Sec. de Geog. Nov. 1865. & Palgrave : Une Anné I.p. 189-169 d'Avril : L'Arabic. pp. 25, 39-47.
وانظر تفصيل العلاقات بين جبل شمر والعراق والحجاز وآل سعود ومصر ، واقتصاديات الإمارة وسيادتها فى Palgrave & Avril.

الإنجليز فى الوصول إلى أسرار الحكومة العثمانية ولذلك منذ وصوله إلى بغداد حذر الموظفين من زيارة القنصلية البريطانية حتى لايتعرضوا لتهمة إفشاء أسرار الحكومة لدولة أجنبية(١) . ونجح مدحت فى كتم أسراره العسكرية بدرجة فذة لم نألفها من قبل فى إدارات الدولة العثمانية . فقد كان القناصل ووكلاؤهم يحصلون بسهولة على المكاتبات والتقارير الرسمية ويقتبسون منها ما يفيد مصالحهم وينتقدون بعضها ، ويرفعون نصوصها إلى وزارة الخارجية وحكومة الهند وكأنها ملكهم . ولكن مدحت كتم أنباء حملته إلى الخليج للدرجة التى جعلت الإنجليز يحصلون على معلوماتهم الأولى عنها من القاهرة . فقد أخطر إسماعيل باشا — خديو مصر — القنصل العام البريطانى فى ديسمبر سنة ١٨٧٠ بأن حملة تُعَدّ للإرسال إلى الخليج العربى فطير القنصل الخبر إلى لندن وإلى سفيره بالآستانة .

استفسرت الحكومة البريطانية من الباب العالى عن أمر هذه الحملة كما استفسر هربرت من مدحت باشا عن أمرها . فردت حكومة الآستانة رداً دبلوماسياً بينما أبرق هربرت إلى حكومته أنه لا توجد أية إشارات عن هذه الحملة وأيده السفير البريطانى فيما قال(٢). وفجأة أبرق هربرت إلى حكومته فى ٢٧–٣– ١٨٧١ م أن حملة تعد وسترسل بعد وقت وجيز إلى نجد(٣) . وفعلا تحركت وحدات الحملة فى ٢١ – ٤– ١٨٧١ من بغداد . وكانت قد سبقتها فرقة من الكشافة لتحديد أنسب المواقع لتنزل بها الوحدات التى سترسل بحراً إلى الأحساء واستقر الرأى على أن رأس التنورة أنسب هذه المواقع(٤) فى الوقت الذى كانت فيه الباخرتان العثمانيتان « لبنـــان » و« الإسكندرية » تسرعان عبر قناة السويس وباب المندب إلى الخليج

(١) Herbert to secretary to Govrt. of India Nov. 7,1871. No. 44, F.O. 195-949.
وقد شكا هربرت من عدم حصوله على أخبار بسبب هذه الإجراءات .
Ibid.

(٢) Persian Gulf. Turkish Jurisdiction Pt.I. p. 13. F.O. 78-5108.

(٣) Pol. & Sec. Dept. Recs. ltrs. fr. Ber. G., Vol. 16. pp. 541-545.

(٤) Elliot ot Granville: May 1871. No. 279..O.F 78-2175 & Lorimer: I, Pt. I.p. 968-9.

للمشاركة(١) مع أسطول الـكويت(٢) فى نقل الحملة إلى رأس التنورة . وبوصول هاتين الباخرتين إلى البصرة أصبحت القوة البحرية العثمانية كبيرة خاصة عندما انضمت إليها الباخرة بروسه وعليها ٢٣ مدفعاً إلى جانب بعض السفن الصغيرة المسلحة بالمدفعية .

والحق أن العثمانيين أدركوا خلال القرن التاسع عشر أن الأسطول هو القوة الحقيقية التى كفلت لبريطانيا تفوقها الدولى وأنه لايمكن أن يستعيد الباب العالى سيادته على أى جزء فى الخليج إلا إذا اعتمد على وحدات بحرية لالنقل وحماية الحملة إلى ساحل الأحساء فقط ، بل أيضاً لمشاركة الإنجليز — على الأقل — السيادة على مياه الخليج . وكان افتتاح قناة السويس أكبر ميسر للقيادة العثمانية لأن ترسل بعض القطع البحرية من البحر المتوسط إلى اليمن وإلى الخليج العربى لتنضم إلى البواخر العثمانية العاملة منذ الستينات فى أنهار العراق .

وكانت بريطانيا تعمل على تعطيل ظهور قوة بحرية إسلامية بقدر الإمكان فى تلك المياه وموقفها من المحاولات الفارسية معروف ، ولكن بالنسبة للدولة العثمانية لم يكن فى استطاعتها أن تمنع إبحار السفن بين المتوسط والخليج . وأمل العثمانيون أنه بوصول القطع البحرية تنتهى حجة الإنجليز فى احتكار سياسة التفتيش ومقاومة تجارة الرقيق فتفقد بريطانيا عنصراً كبيراً من عناصر نفوذها وسيطرتها على مقدرات الخليج . ولذلك نبه القنصل البريطانى فى الخليج حكومته إلى خطورة ارتفاع عدد السفن والبواخر العثمانية إلى عشر سفن على مستقبل التفوق البريطانى هناك . وكل ما فعلته الحكومة البريطانية فى هذا الشأن أنها استفسرت من الباب العالى عن دواعى تقوية الأسطول العثمانى إلى هذا الرقم فتمسكت حكومة الآستانة بحقها فى أن يكون لها أسطول فى الخليج ، خاصة بعد افتتاح قناة السويس(٣) . وأثارت السلطات البريطانية

(١) زوراء : عدد ١٦٩ فى ٢٥ من جمادى الأولى ١٢٨٨ هـ .

(٢) يقول لوريمر إن عدد سفن الكويت التى اشتركت فى الحملة بلغ مائتى سفينة . Lorimer, Vol. I. Pt. I. pp. 968-969.

(٣) Precis of Turkish jurisdiction. pp. 19-22.

اعتراضاً آخر ، عندما ادعت أن زيادة الأسطول العثمانى سيؤدى إلى أن تنتهج فارس الطريق نفسه وتنزل أسطولا لها فتنشب فى أعقاب ذلك منافسات حادة بين القوى البحرية فى الخليج ، ولكن كل هذه الاعتراضات لم تثن الحكومة العثمانية عن إرسال السفن والبواخر اللازمة للحملة تباعاً نظراً لأن الاعتراضات البريطانية كانت تقوم على أسس سياسية استراتيجية فقط لاقانونية ، وكان من حق الدولة أن ترسل ما تشاء من سفن إلى الخليج . على أن الإنجليز كانوا يفكرون فى الواقع فى وسيلة تمنع العثمانيين من إنزال أسطول حربى فى الخليج . فقد صدرت الأوامر إلى بلى Pelly بأن يعتبر السفن والبواخر العثمانية المشتركة فى الحملة مجرد ناقلات(١) .

كذلك لجأ مدحت إلى استخدام أساليب الدعاية لإعداد النفوس لهذه الحملة . فقبل أن تبدأ العمليات العسكرية استخدم مدحت أساليب الدعاية لكسب ثقة أهل الأحساء ونجد وحثهم على التعاون مع جيش السلطان . ووزع لهذا الغرض إعلاناً مؤرخاً فى ٢٠ من أبريل ١٨٧١ كشف فيه عن أهداف هذه الحملة . أكد هذا الإعلان أن نجد وما يتبعها ضمن بلاد الدولة العلية . وأن الدولة لم يشغلها عن العمل على ترقية أمور نجد سوى مشاغلها الكثيرة ، وآن الأوان لأن ترعى الدولة هذه النواحى رعاية خاصة لتخلصها من الاضطرابات والفتن التى سارت فيها ولتصبح « الملة الإسلامية متحدة » وندد الإعلان بخروج سعود بن فيصل عن طاعة خليفة المسلمين السلطان العثمانى لأنه ثار على أخيه قائمقام نجد . وأكد الإعلان أن عبد الله سيظل قائمقام وفى الوقت نفسه أغرى الإعلان سعوداً بالعدول عن الثورة وإعلان الخضوع ليحصل على عفو السلطان ، هذا إلى أن مثل هذه الدعوة السلمية إلى حقن الدماء يكون لها أثرها فى بعض الناس فيعدلون عن متابعة الثورة خاصة وأن أسلوب الإعلان كان مليئاً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحض الناس على حقن الدماء وإطاعة أولى الأمر وتوحيد كلمة المسلمين . كذلك أثار الإعلان همم الناس لقتال الثوار على اعتبار أنهم فئة

(١) Precis of Turk. Jurisdiction. pp. 19-22.
Pelly to Sec. To Govrt. of Bombay May 20, 1871 (Pol. & Sec. Dept. Recs. Secret ltrs fr. Per. G. Vol. 17. pp. 741-45).

باغية ، وأن من واجب الناس شرعاً قتالهم(١) . وضعت الخطة العثمانية على أساس إرسال القوات النظامية بطريق الخليج العربى ، وأما قوات العشائر والزبير وجند المنتفق فتذهب بطريق البر ومعها معظم قوات المشاة النظامية لتلتقى بالقوات الأخرى فى الأحساء . وكان عدد المشاة النظاميين حوالى أربعة آلاف جندى معهم تسعة مدافع وبلغ احتياطيهم من العرب ١٥٠٠ مقاتل(٢) . وانضم إلى الحملة أسطول الكويت المؤلف من السفن الشراعية ولكنها كانت على جانب كبير من الأهمية للحملة لخبرة أهل الكويت بمياه الخليج .

وفجأة وفى أبريل ١٨٧١ كتب سعود ـ حاكم الرياض ـ إلى بلى يشكو إليه من أن الكويت انضمت إلى العثمانيين وأنها ستقوم بعمليات عسكرية بحرية ضده وأن هذا يتناقض مع (السلم البريطانى) Pax Britannica وطالبه سعود بأن يتدخل الإنجليز لمنع الكويت من أن تقدم على ذلك أما إذا ترك القنصل البريطانى الكويت تفعل ما تشاء فى مياه الخليج ضد سعود فعلى الإنجليز ألا يعترضوا على عمليات سعود البحرية ومن يتعاون معه ضد سفن الكويت(٣) . وكان رأى بلى Pelly هو أن تمنع الكويت من إرسال سفنها مع الحملة البحرية العثمانية ، أما فى حالة السماح لها بذلك فقد اقترح بلى أن يسمح لسعود بالقيام بعمليات بحرية عسكرية من جانبه(٤) وهذا ماوافقت عليه حكومة الهند حيث إن الوضع الدبلوماسى كان فى جانبها لأن الدولة العثمانية وسعوداً وشيخ الكويت غير متعاهدين مع بريطانيا(٥) وليس من حق بريطانيا أن تعامهلما بمثل ما تعامل به البحرين التى أرغمتها على عدم

(١) إعلان موجه إلى أهالى نجد .

(٢) Pol. 2 Sec. Dept. Secret letters from the Persian Gulf. Vol. 18 July 1871
Lorimer : Op. cit. Vol. I Pt. I. pp. 968-9.
Elliot to Granville: May 1871. No. 279- F.O. 78-2175.

(٣) Saood to Pelly: Sp. 14. 1871. (Letrs fr. per. G., Pol. & Scrt. Dept. Recs. Vol. 17 pp. 729-730.

(٤) Ibid. p. 727.

(٥) Political Secretary to Resident at Bushir: May 8,1871 Telegram. Ibid.

الاشتراك فى هذه الحرب برغم أن هذا كان ضد مصلحة سعود(١) . والمعتقد أن السلطات البريطانية أدركت أن التمسك بسياستها التقليدية قد يقلب ميزان القوى فى الخليج ضدها فى هذه الظروف الحرجة ، ولذلك أخطرت بلى Pelly أيضاً أن عليه أن يحافظ على السلام فى مياه الخليج إلى جانب مقاومته أية محاولة تقدم عليها القوات العثمانية لتضع يدها على أية من الإمارات المتعاهدة على أن يمنع هذه الإمارات من الاشتراك إيجابياً أوسلبياً فى هذه الحملة(٢). وفى الوقت نفسه غضت السلطات البريطانية الطرف عن عروض سعود بن فيصل لوضع الساحل تحت حمايتها خوفاً من الاشتباك علناً مع العثمانيين(٣) .

سارت القوات البرية دون مقاومة تذكر حتى الأحساء كمانزلت القوات من البواخر فى رأس التنوره وبدأت المعارك ضد بنى خالد والعجمان وبنى مرة وضد معاقل سعود فى القطيف والدمام . فلم تطق العشائر الموالية مقاومة الجيش النظامى كما أن المدفعية العثمانية سيطرت بسرعة على الدمام والقطيف فسقطتا فى يد العثمانيين فى يونيو ١٨٧١ وبذلك أصبحت الأحساء بأسرها فى قبضتهم(٤) .

لم يعترض الإنجليز على هذه العمليات ، ولكن بعد ذلك النجاح الذى لقيته الحملة بدأت العمليات الموجهة صوب الإمارات المتعاهدة ، وبدأ جهاز الدعاية العثمانى يردد أن الحملة تهدف إلى استتباب السلام فى نجد

(١) Pelly to Pol. Dept. Ap. 8, 1871. (Pol. & Secret Dept. Recs. fr. Per. Gulf. Vol. 17. p. 617-619).

وانظر كذلك .

Pelly to Sec. to Govrt. India. May 6, 1871 (Ibid. p. 711-179).

(٢) Pelly to Pol. Secrt. Telegram. Ap. 22, 1871. (Pol. & Sec. Dept. Recs., ltrs. fr. Per. G., Vol. 17, p. 639) & Elliot to Granville. June 8,1371. No. 225. F.O. 78-2175.

(٣) Saood to Pelly (5 Sept. 1871). Pol. & Sect. Dept. Recs., ltrs. fr. Per. G., Vol. 19).
Elliot to Granville: June 8,1871 No. 225 F.O. 78-2175.

(٤) Herbert to Elliot : June 21, 1871. No. 28. F.O. 78-2176. do-do. June 1,1871. Ibid., do-do. 7 June 1871. No. 25. F.O. 195-949 do-do. Dec. 1,1871. No. 58. Ibid.

وتوطيد النظام فى البلاد الواقعة تحت حكم آل سعود . فقد كانت نجد تعنى لدى العثمانيين ساحل الأحساء والبحرين وقطر وعمان والبريمى وأبوظبى ودبى والجبيلى وغناضة وبنوخفاجة . واشتدت مخاوف الإنجليز عندماظهرت صحيفة الزوراء فى أحد الأيام مؤكدة هذه الحدود الداخلة فى نجد(١) ، كما أن فارس تحركت نتيجة هذه الاتجاهات لمقاومة التوسع العثمانى ولإثبات حقوقها فى البحرين .

اعتمدت السلطات الفارسية فى المطالبة بالبحرين فى هذه المرة على التصريح الذى أدلى به كلارندون فى١٨٦٩م ، فقد وعد كلارندون السلطات الفارسية بأنه سيحيطها علماً بما يمس البحرين من أمور هامة وفهم المسئولون من ذلك أن بريطانيا اعترفت بتبعية البحرين للشاه وأيدت الحكومة الفارسية استعدادها لإرسال حملة لاحتلال الجزيرة . ونظراً لأن الحكومة الفارسية كانت عاجزة عن تنفيذ هذه المشروعات عملياً لا لضعف إمكاناتها البحرية فقط ، بل لاقتناعها التام أن بريطانيا لن تسمع بمثل ذلك الإجراء اقتصرت المجهودات الفارسية على عرض الموضوع على تلك الصورة على المسئولين الإنجليز دون أن يتبع ذلك بإجراءات إيجابية(٢) . أما الإنجليز فبادروا إلى الدخول فى مفاوضات مع سلطات بغداد ومع الباب العالى بشأن البحرين أولا :

طلب هربرت — القنصل البريطانى فى بغداد — من مدحت أن يتجنب الاشتباك مع الإمارات والعشائر المتعاهدة مع بريطانيا فرد عليه مدحت رداً دبلوماسياً قائلا إنه لن يتدخل فى شئونها إذا لم تكن تحت حكم عبد الله من

(١) Home Corresp. Vol. 68. p. 625. Despatch No. 279. of July 19, 1871. & Aitchison's minute of 19 July 1871. & Henvey's Precis p. 23. & Per. G. Turk. Jurisd. Pt. I.p. 19, F.O. 78-5108.
وانظر عدد الزوراء رقم ١٤٨ فى ٣٠ مايو ١٨٧١، ١٠ ربيع أول ١٢٨٨ هـ .
Herbert to Elliot : 7 June 1871. No. 25. F.O. 195-949.

(٢) Alison to Granville: May 12, 1871. No. 57. (Ind. O.R., F.R., F. R., P.P. G., Vol. 8128. pp. 669-671).
وانظر دفاع إسماعيل عن وجهة نظر الفرس فى هذا التصريح فى كتابه
Gulf Persique pp. 218-219.

قبل وأنه سيعتبر من يؤيد سعوداً عدواً للدولة(١) . وهكذا أصبحت الحملة واسعة النطاق غير محدودة بالإعلان الرسمى الذى أصدره مدحت بشأنها الذى حدد هدفها بإعادة عبد الله — قائمقام نجد — إلى الحكم وإخماد فتنة سعود وقبول اعتذاره والعفو عنه بعد أن أعلن خضوعه للسلطان(٢) . ولا شك أن مدحت أشار من طرف خفى فى رده هذا إلى ما يقوم به شيخ البحرين من تأييد لسعود ثم أكد هربرت لحكومته أن مدحت أبدى الرغبة بوضوح فى السيطرة على البحرين(٣) وتبادلت الحكومتان المذكرات فى هذا الشأن ورفعت المفاوضات إلى مستويات عليا فى الآستانة .

اعترضت الحكومة العثمانية على مقاومة بريطانيا لنشاط الحملة لاستعادة سيادتها على طول سواحل البلاد العربية فى البحر الأحمر والبحر العربى(٤) والخليج العربى مؤكدة أن لا سيادة لأحد على تلك البقاع سوى خليفة المسلمين العثمانى(٥) ، وأنه لاحق لبريطانيا فى منع أية مشيخة من المشيخات من أن تلبى نداء السلطان بالتعاون مع الحملة(٦) وربط الباب العالى بين موقف بريطانيا من الاستعمار الفرنسى فى الجزائر والبحر الأحمر وموقفها من أزمة البحرين وإمارات الخليج مبيناً أن بريطانيا تتبع سياستين متناقضتين إزاء الدولة العثمانية .

فبريطانيا تعرقل المجهودات العثمانية لتقوية أطرافها الضعيفة فى الوقت الذى لا تعترض فيه على التوسع الروسى فى تركستان أو التوسع الفرنسى فى الجزائر .

(١) Midhat to Herbert : June, 1, 1871. F.O. 78-2176.

(٢) Precis of Turk. Jurisdiction. p. 145. F.O. 78-5108 & Precis of Turk. Expansion p. 49. Ibid.

(٣) Telegram fr. Viceroy (Simla) to Mendaville. May 30, 1871 F.O. 195-971. Enclos to Despatch fr. F.O. to No. 118, June 5,1871. Ibid. Herbert to Gornt. of India in For. Dept. Nov. 7. 1871. F.O. 195-949.

(٤) عند ما حاولت الدولة العثمانية التوسع فى مشروعات الجنوب العربى فى مطلع السبعينات اعترض الإنجليز على هذا النشاط بأن هذه الإمارات مستقلة متعاهدة مع بريطانيا وهى نفس حجة الإنجليز فى الخليج العربى .

(٥) Pr. Turk. Expt. F.O. 78-5108.

(٦) Sypher to Teleg. fr. Elliot to F.O. D 8. R. 9. June 1871. F.O. 78-2175.

وذكر الباب العالى الحكومة البريطانية بما أقدم عليه شيوخ الإمارات المتطرفة مثل حاكم ميناء « الشيخ سعيد » الذى تنازل لفرنسا عن ميناءه دون الرجوع إلى الدولة العثمانية مما أوقع الدولتين العثمانية والبريطانية فى حرج دولى كبير (١)

وأكد الباب العالى للحكومة البريطانية أن مسقط والبحرين وشيوخ الساحل المهادن من رأس الخيمة إلى أبى ظبى يدفعون لأمير نجد ضرائب سنوية محدودة وأن هذا يعنى الاعتراف بالسيادة العثمانية على هذه الإمارات والمشيخات (٢) ، ولكن السلطات البريطانية كانت تنظر إلى هذه الضرائب على أنها « حلوان » تدفعه إمارة صغيرة لإمارة كبيرة درءاً لخطرها وتجنباً لعدوانها . إن منطق الدولة العثمانية لم يكن ليجدى نظراً لأن بريطانيا كانت تعتقد أن هذه الأطراف يمكن أن تقتطع من الدولة العثمانية دون أن يؤدى ذلك إلى انهيارها وأنها بالانفراد فى الخليج لا تضمن فقط السيطرة على هذا الممر المؤدى إلى الهند ، بل أيضا تكفل لنفسها قواعد هجومية ضد فارس إذا اتفقت مع روسيا ، وضد الدولة العثمانية إذا فكرت فى مناجزتها فى مكان آخر وضد أية قوة إسلامية أو أوربية تستطيع فى وقت ما أن تنزل أسطولا فى البحار الشرقية . وأخذت بريطانيا تتهم الباب العالى بأن احتفاظه بقوات كبيرة نسبياً فى مياه وسواحل الخليج سيخل بالسلم هناك نتيجة لظهور معسكرين ، معسكر بريطانى وآخر عثمانى لكل منهما من يظاهره ونتيجة لمشكلات الحدود

(١) Precis of Turk. Expnt. p. 25. F.O. 78-5108.

(٢) كانت مسقط تدفع للأمير الوهابى ٦٠٠٠ دولار أو خمسة آلاف دولار .
وشيخ البحرين يدفع له ٤٠٠٠ دولار .
وشيوخ الساحل المهادن من رأس الخيمة إلى أبى ظبى ١٢٠٠ دولار .
انظر

Col. Pelly's Report on the Wahabee Country written in 1865 (Pol. Desp. to India No. 11. Feb. 22, 1866)Per. G. Turk. Jursd. Pt. I. Conf. 39691) F.O. 78-5105.

ويبدو أن هذه الضريبة السنوية التى تدفعها مسقط للأمير الوهابى حدثت فى ١٨٤٥ على أثر نزاع بين الإنجليز وسلطان مسقط من جهة والأمير الوهابى من جهة أخرى وقد استمرت البوريمى فى يد الوهابيين إلى ١٨٦٨ . Trk. Expnt. p. 9.

التى لا بد وأن تنشأ تبعاً للظروف الجديدة(١) . فاستقدمت بريطانيا على عجل عدة بوارج إلى الخليج للدفاع عن مصالحها ومنحت بلى Pelly سلطات واسعة لضمان استتباب الأمن فى مصائد اللؤلؤ(٢) . وعلى هذا الأساس يستطيع بلى أن يقوم بالعمليات العسكرية الملائمة للمصالح البريطانية على نسق مشابه لما حدث خلال حملة كير سنة ١٨١٩ ضد القرصنة والتى انتهت بفرض السيطرة البريطانية على إمارات الخليج . فقد كان القناصل الإنجليز ذوى مهارة كبيرة من حيث تفسير الأوامر الصادرة إليهم واستخدامها بما يكفل لهم مكاسب ضخمة . وكانت قوة الأسطول العامل الرئيسى فى أن يتحول الموقف دائماً — سواء بالتدخل المباشر أو غير المباشر — لمصلحة الإنجليز .

إزاء هذا الموقف البريطانى الصلب عمل مدحت على أن يتدخل فى أمور البحرين بطريقة غير مباشرة . فقد ذهبت بعثة من قبل شيخ الكويت تدعو شيخ البحرين إلى إعلان الطاعة للسلطان ولكن مبعوث مدحت قتل فى الجزيرة(٣) . فقرر مدحت اتخاذ إجراءات تأديبية تكون مقدمة لإثبات حق الدولة فى إدارة أمور الجزيرة . وذهب مدحت — الذى كان قد وصل إلى الأحساء صوب البحرين على ظهر الباخرة الإسكندرية ومن خلفها الباخرة لبنان . فأدرك بلى Pelly أهداف هذه المناورة البحرية وتتبعت قطع الأسطول البريطانى السفن العثمانية . وقدر مدحت مغبة الدخول فى معركة غير متكافئة . فترك استكمال المناورة إلى قومندان البحرية عارف بك وحول المناورة العسكرية إلى زيارة ودية .

دخل عارف فى مفاوضات مع الشيخ عيسى بشأن بناء مستودعات الفحم اللازمة للملاحة البخارية العثمانية واستخدام ينابيع المياه العذبة فى البحرين للغرض نفسه ، ولم نلمس نتيجة إيجابية لهذه المفاوضات الأمر الذى

(١) Pr. Turk. Jurisdiction 22 pp. 23. F.O. 78-5108.

(٢) Midhat to Herbert. June 1,1871. F.O. 78-2176.

(٣) Pr. Trk. Expont. p. 34-35, 37. F.O. 78-5108.

يؤكد لنا أنها باءت بالفشل ولم يحرز العثمانيون أى كسب . حقيقة أخذت الدبلوماسية العثمانية بالأساليب البريطانية من حيث تقديم طلبات تهدف إلى تحقيق أغراض سياسية بعيدة المدى ، ولكن هذه المناورات السياسية ما كانت لتجدى فى تلك الظروف ما لم تكن هناك قوة تسندها وتنفذها فى حالة الاعتراض عليها . وهذا ما عجز العثمانيون عن تحقيقه . ولذلك لم تحرز بعثة عارف أى نجاح . كما أن العثمانيين اضطروا إلى عدم المضى فى فرض تعويض مباشر على البحرين بسبب قتل مبعوث مدحت حيث إن بلى Pelly أصر على أن يدفع هذا التعويض للعثمانيين عن طريق القنصلية البريطانية فى الخليج(١) .

ويقول على حيدر مدحت فى المذكرات التى نسبها إلى أبيه إن المشاورات بين مدحت وحكومة الهند أدت إلى أن تضم البحرين إلى الأعضاء(٢) . وإنى أستبعد كل الاستبعاد أن يكتب مدحت مثل هذا القول فى مذكرات له إذ كان هو أعرف الناس بحقيقة ما صارت إليه أمور البحرين . وأغلب الظن أن هذا الخبر كان مجرد إضافة من « على حيدر » إلى مذكرات مدحت لغرض واضح .

نشاط مدحت فى قطر :

وجه مدحت نشاطه كذلك صوب قطر . وكان موقف شيخها يختلف اختلافاً جوهرياً عن موقف شيخ البحرين . فقد أيد محمد آل ثانى الحملة منذ البداية وأعلن قاسم بن محمد انضمامه إليها على رأس ثلثمائة رجل(٣) وكانت هذه الميول صادرة عن رغبة حقيقية فى مقاومة الضغط الأجنبى أذكتها الدبلوماسية الكويتية النشطة . ورفع فعلاً العلم العثمانى على البدعة(٤)

(١) Lorimer : op. cit. Vol. I. Pt. I. pp. 802-803, 904-905. Pr. Turk. Expan. p. 34-35, 37. F.O. 78-5108.

(٢) A.H. Midhat : Midhat Pacha : Sa vie ... p. 24. & The Life of Midhat. p. 60.

(٣) Telegram: 9 June 1871, (Pol. & Sect. Dept. ltrs. fr. Per. G., Vol. 17. p. 1035)

(٤) Herbert to Elliot :July 24, 1871 No. 34. F.O. 195-949.

وتم كل هذا برغم أن قنصل بريطانيا فى الخليج أخطر شيخ قطر بأن الباب العالى يحترم تعهداته نحو الإمارات العربية المتعاهدة مع بريطانيا(١) .

كان بلى Pelly ماهراً فى تجنب وقوع أزمة عسكرية بينه وبين العثمانيين الذين بعثوا بقوة إلى البدعة تشد أزرها قوة كويتية . فأوصى حكومته بأن يترك الموقف فى قطر مائعاً فى الظروف الراهنة على أن تستخدم صريحات الباب العالى – الخاصة بعدم التدخل فى أمور المشيخات والإمارات المستقلة – فى إبعاد العثمانيين بعد أن تنتهى العاصفة عن قطر(٢) .

ولكن استمر الإنجليز فى اتباع بعض الإجراءات المعينة التى تؤكد ارتباط قطر بهم . فليس من قبيل المصادفة أن تبعث السلطات البريطانية بسفينة إلى قطر تطالب شيخها بالمبالغ السنوية التى يدفعها لشيخ البحرين فرفض شيخ قطر المطالب البريطانية وأعلن أنه رعية عثمانية وأحيطت الدوائر العثمانية علماً بتلك الإجراءات فبعثت بسفينتين إلى قطر باسم حمايتها من عدوان البحرين عليها وقدم الباب العالى احتجاجاً إلى الحكومة البريطانية بشأن العدوان البريطانى على أراض عثمانية . واتباعاً لسياسة ترك الوضع مائعاً فى قطر رد جرانفيل فى كتاب وجهه إلى السفير العثمانى فى ٨ من أغسطس ١٨٧٢ على الاحتجاج العثمانى بقوله إنه ليس لدى حكومته رغبة فى التدخل فى أمور الخليج العربى طالما كانت الأوضاع لا تؤدى إلى المساس بالمعاهدات المعقودة مع شيوخ الإمارات العربية هناك(٣)

(١) Teleg. 9 June 1871.(Pol. & Sec. Dept. ltrs. fr. Per. G., Vol. 17. p. 1035.

(٢) علق على التصريح العثمانى بعدم التدخل فى أمور الإمارات المستقلة بقوله :

More valuable to our interest than would be any particular definition (Pr. Turk. Jursd. p. 22-23. F.O. 78-5108).

من كتاب لوزارة الخارجية البريطانية مؤرخ ٢٦ من أغسطس ١٨٩٣ نتبين أسس السياسة البريطانية إزاء مشكلة البدعة :

So long as the Turkish authorities do not move beyond the limits of the town the nominal soverainty of the Porte is recognised, but any attempt to extend Turkish authority is resisted.,

ميكروفيلم فى كلية الآداب بجامعة عين شمس

(Per. G. Turk. Clms. on Arb. Cst. (Reel II)

وقد اتبعت الحكومة البريطانية هذه السياسة مدة طويلة

(٣) Pol. & Secret Library : B. 126. p. 1-2.
Faroughy : Bahrein. pp. 86-88.

لم تقتصر أزمة قطر على شبه الجزيرة ، بل امتدت إلى أبى ظبى بسبب طبيعة العشائر فى تلك المناطق التى كانت تتجول فيها متنقلة من مكان لآخر طلباً للمرعى أوفراراً من تحكم أحد الشيوخ . والمعروف أن نشاط شيخ أبى ظبى كان قبيل حملة مدحت على الأحساء قد بلغ حتى القطيف(١) لأن حدود الإمارات كانت غير واضحة على الإطلاق . وعند ما أعلن آل ثانى ولاءهم فى ١٨٧١ للسلطان العثمانى ادعى الإنجليز أن حكم آل ثانى لم يكن يصل إلا إلى منطقة قريبة من العديد التى كانت تنزلها عشيرة القبيسات المنشقة عن بنى ياس . وأغلب الظن أن شيخ قطر أراد أن ينتهز فرصة حملة مدحت ويمد سلطته حتى العديد فبعث بالأعلام العثمانية إلى شيخ القبيسات(٢) .

وكان شيخ أبى ظبى قد اتخذ منذ البداية جانب سعود بن فيصل واستولى باسمه فى يونيو ١٨٧١ على البوريمى(٣) . ولكن شيخ أبى ظبى فكر فى أن يتفاهم مع العثمانيين من أجل استعادة البوريمى التى يعتقد أنها وقعت فى يد القوى الموالية للعثمانيين بعد هزيمة سعود أمام الحملة العثمانية . وأخذت كتب العثمانيين تنهال على شيوخ هذه العشائر ويقال إن شيوخ الإمارات المتعاهدة لم يلبوا نداء العثمانيين(٤) . وأعتقد أن السبب الرئيسى فى تجميد نشاط العثمانيين فى هذه المنطقة الساحلية أن مدحت لم يتابع الخطوات التى بدأها فى تلك الجهات، وذلك تحت ضغط الأسطول البريطانى من جهة وبسبب الضعف الذى كان يسرى فى القوات العثمانية فى الأحساء ، ولأن السيادة العثمانية فى قطر نفسها كانت مزعزعة ، ولأن حامية البدعة لم تكن قادرة على القيام بعمليات تشد أزر القوى الموالية أو التى تبدى ولاءها للعثمانيين .

---

(١) Saldanha : Precis of Coresp. Regarding Trucial chief 1854-1904 p.20.

(٢) Pol. & Sec. Libr. B. 126. Nov. 1873. No. 103, For. Dept. No. 2750 (27 Oct. 1873).

(٣) Pol. Sec. Dept. letrs. fr. Per. G., Vol. 17, p. 969, 971.

(٤) Political and Secret Library B. 126. Nov. 1873. No. 103. For. Dept. No. 2750. Dated. 27. Oct. 1873.

ومع هذا استمر شيخ العديد يدفع للعثمانيين عن طريق شيخ البدعة (قطر) مبلغاً سنوياً(١) .

واستمر الإنجليز يتبعون سياسة تجاهل الحامية العثمانية فى البدعة طالما كانت هذه الحامية غير نشطة . ولم تنشط قط نشاطاً يؤرق جانب الإنجليز حتى طردت منها فى أوائل القرن العشرين . كذلك نجح الإنجليز فى أن يمنعوا شيخ أبى ظبى من الاستعانة بالعثمانيين فى سبيل تحقيق أهدافه فى البوريمى والعديد . وفى الوقت نفسه عمل الإنجليز على أن تظل البوريمى — مفتاح عمان — بعيدة عن متناول أيدى العثمانيين . فدفعوا عشائر النعيم إلى احتلالها ونجحوا فى ذلك لأن نطاق عمليات الحملة العثمانية لم تصل إلى تلك الجهات(٢) .

فنشأت بذلك مشكلة البوريمى حيث إن عشائر النعيم كانت أحياناً مع آل سعود وأخرى مع عمان . ولما كان من مصلحة الإنجليز أن تكون البوريمى فى أيدى عشائر النعيم أيدوهم فى حقهم فى البوريمى وظلت المشكلة معلقة حتى وقتنا هذا . ولعل الخوف من تشعب المشكلات بين الإمارات العربية فى الخليج(٣) هو الذى جعل هربرت — قنصل بريطانيا فى بغداد — يقترح على حكومته أن تنتهز فرصة نشاط الحملة فى الخليج لتحديد الحدود بين المناطق الواقعة تحت السيادة العثمانية وعمان . وأعتقد أن الحكومة البريطانية رفضت الأخذ بهذه التوصية خشية أن يفتح هذا الإجراء موضوع السيادة فى الخليج على مصراعيه وتتحول الأزمة إلى مستويات عليا دولية قد تشترك فيها فارس وغيرها من الدول التى تضيق بالتفوق البريطانى فى الخليج كل الضيق . كذلك كان الأخذ بفكرة هربرت تعرض بريطانيا للتدخل فى الأحداث التى تقع فيما وراء الساحل وهو أمر امتنعت الحكومة البريطانية

---

(١) Ibid.

(٢) Pol. & Sec. Libr. B 126.

(٣) Ross. to Sec. Govrt. to India Sep. 4, 1873. No. 1115. Pol. & Sec. Dept. Recs., Enclos. to secret letters V-B Received fr. Bombay. Vol. 23 Pol. & Sec. Libr. B. 126, Nov. 1873.

عن القيام به طيلة القرن التاسع عشر(١) :

ومن يقارن أساليب الإنجليز فى مقاومة التوسع المصرى فى الأربعينات فى الخليج بأساليبهم فى مقاومة التوسع العثمانى فى السبعينات يجدها متشابهة . ومع أن الإمكانات العثمانية كانت أكثر من إمكانات المصريين إلا أن العثمانيين وصلوا إلى تلك الجهات بعد فوات الأوان وبعد أن وطد الإنجليز نفوذهم سياسياً وعسكرياً واقتصادياً . ومن ناحية أخرى كانت الدولة العثمانية فى وضع يمنعها تماماً من أن تجازف بحرب خاسرة مع بريطانيا من أجل البحرين أو مشيخة من مشيخات الخليج . هذا فضلا عن أن موقف العثمانيين فى الأحساء كان يتطور بسرعة ضد مصلحتهم يوماً بعد يوم .

الصدام بين العثمانيين وعبد الله بن فيصل :

فبعد وصول الحملة إلى الساحل وانتصارها على سعود وسيطرتها تماماً على الأحساء اتضح لعبد الله بن فيصل أن العثمانيين أتوا ليستمروا فى الحكم لا ليثبتوه فقط فى الحكم . وكان يعتقد أنهم سيرحلون بعد هزيمة أخيه لذلك انتهز أول فرصة له ، خاصة بعد أن علم باعتزام مدحت القدوم بنفسه إلى الأحساء ، وغادر المعسكر العثمانى ذاهباً إلى الرياض شاكياً إلى الخديو إسماعيل راجياً أن يتوسط له لدى السلطان ليعيده لسابق مناصبه وليحصل منه على واردات الأحساء والقطيف . فكتب للخديو يقول :

« وقد سار عسكر تحت رياسة الفريق نافذ باشا وضبطوا الأحساء والقطيف ... و (حضرت) إلى الفريق المومى إليه بالأحساء وبعد هذا صدر من والى بغداد إعلانات ...... إلى جميع الرعايا بالاعتراض على آل فيصل وعدم استخدامهم وهذا خلاف ما كنا نأمله ... وصرت يائساً وظهرت من الأحساء (ولا زالت) معروضاتى على الفريق ... وإلى والى بغداد – باستجلاب مراحم .... دولتى وعدالتها ... ولا صدر منى بحق الحكومة ولا بحق الرعية ما يوجب الصدود ... أما نحن أهل هذا البيت غرس

(١) Elliot to Granville: Aug. 22, 1871. No. 304. Home Corresp. Vol. 68. p. 1025.

بعين المرحوم المبرور محمد على باشا طيب الله ثراه وأنجاله المعظمون ، فالذى نلتمس من شفقة مراحمكم أن (تنظروا) خادمكم وتعرضوا حالى (على أعتاب) دولتى العلية وتستجلبوا وقوع أنظارها السنية بصدور فرمان (يتضمن) وقوع أنظارها على عبدها .... وتحسن على عبدها من واردات الأحساء والقطيف »(١) .

كان مدحت قد قرر أن يغادر العراق إلى الأحساء لا ليكون على مقربة من أزمة البحرين فقط ، بل كذلك ليشرف بنفسه على تنظيم الإدارة العثمانية فى الأحساء وما حولها (أواخر ١٨٧١)(٢). ونحن نعرف أن مدحت كان مكرساً كل جهده فى سبيل تثبيت نظام الحكم المباشر بقدر الإمكان فلا أقل من أن يطبق هذا النظام فى بلاد وضعت فيها فعلا قوات عثمانية . وقد منحه عبد الله بن فيصل الفرصة كاملة حين غادر أواخر عام ١٨٧١ المعسكر العثمانى إلى الرياض(٣) فرد مدحت على ذلك بأن أعلن إلغاء حكم آل سعود واتخذ التدابير اللازمة لحكم الأحساء حكماً مباشراً . وتؤكد لنا مؤلفات فيلبى Philby(٤) ولوريمر Lorimer أن عبد الله خلال وجوده فى المعسكر العثمانى لمس تماماً أن العثمانيين يضمرون القضاء على آل سعود كأسرة حاكمة . ويقول لوريمر إن العثمانيين ضغطوا عليه فعلا ليضطروه إلى تسليم مقاليد الحكم لهم(٥) . وهذا هو المرجح حيث جاء فى المذكرات المنسوبة إلى مدحت أنه عرض على عبد الله منصب القائمقامية وقدم إليه ٣ آلاف قرش سنوياً فى مقابل انضوائه تحت الإدارة العثمانية(٦) .

(١) من عبد الله الفيصل إلى الخديو إسماعيل باشا : محفظة ١٩ بحراً براً تركى – وثيقة رقم ٢ النص عربى – بدون تاريخ .

(٢) Lorimer : op. cit. Vol. I., Pt. I. pp. 904-905

(٣) Philby : Saudi. pp. 221-222.

(٤) يقول فيلبى إن أحد ضباط الحملة أسر إلى عبد الله أن خطة موضوعة للقبض على آل سعود تمهيداً لضم نجد إلى الدولة العثمانية نهائياً . وكان عبد الله – رغم معاملته الطيبة – يشعر أنه فى سجن من ذهب فى الأحساء .

(٥) Lorimer : op. cit. Vol. I. Pt. p. 1129.

(٦) تبصره عبرت : ١٠٦ .

ويقال إن عبد الله عرض على العثمانيين عرضاً وسطاً . أبدى استعداده لدفع الضريبة السنوية فى مقابل اعتراف السلطان بإمامته على الموحدين ، ولكن مدحت تمسك بتطبيق الإدارة العثمانية إلى أقصى ما تسمح به ظروف الأقاليم الأحسائية والنجدية(١) .

ولاشك أن عبد الله حين تعاون مع مدحت ضد أخيه كان يعتقد أن الجيش العثمانى سيعود إلى العراق بعد تثبيته فى الحكم تحت طاعة السلطان . أما أن يتطور الأمر إلى أن يتنازل عن سلطاته الإدارية ويبعد عن مباشرة الحكم فهذا ما يتنافى مع تفكيره ومع مركزه كإمام الموحدين . ومن ثم كان عبد الله غير واع لخطط مدحت الإصلاحية العامة التى طبقها فى كل من ديرة المنتفق والكويت ، ولكن مدحت لم يتابع عملياً ما أعلنه بشأن إلغاء حكم آل فيصل واكتفى بتعيين نافذ باشا قائمقاماً على نجد بسبب الوهن الذى أصاب القوات العثمانية فى الأحساء(٢) حتى إن القيادة العثمانية هناك عملت على تغطية النقص بتجنيد تسعة آلاف من عرب هذه البلاد(٣)، كما اضطرت إلى أن تسحب جزءاً كبيراً من قواتها فى البدعة(٤) . وكانت عودة مدحت إلى العراق فى أوائل ١٨٧٢ ومغادرته البلاد إلى الآستانة فى مايو من تلك السنة من العوامل الرئيسية التى جمدت نشاط الحملة والقوات العثمانية فى شبه الجزيرة(٥) .

وفكر مدحت فى استغلال القوات العثمانية فى الحجاز بتوجيه حملة من مكة صوب الرياض ، ولكن هذه الخطة لم تظهر أبداً إلى حيز التنفيذ(٦) .

وقبل أن يغادر مدحت الأحساء تسابق كل من سعود وعبد الله إلى

---

(١) Pr. Turk. Expnct. p. 48. F.O. 78-5108.

(٢) Lorimer: op. cit. Vol. I., Pt. I. p. 970 & Hogarth : Penatration p. 238.

(٣) Lorimer : op. cit. Vol. I. Pt. I. pp. 1130, 969,971.

(٤) Pr. Turk. Export. p. 49. F.O. 78-5108.

(٥) وقدرت قوات الحملة فى أغسطس ١٨٧١ بـ ٣٤٠٠ مقاتل فى الهفوف والقطيف والعقير وأن ثلثهم كان مريضاً .

Lorimer: I. pt. 1130, 969, 71.

(٦) Herbert to Elliot: 26 Sept. 1871. No. 48 F.O. 195-949.

التفاهم معه . وكان مدحت منذ البداية غير متمسك بعبد الله مما شجع سعوداً على أن يقدم عريضة لمدحت — وقع عليها عدد من شيوخ نجد — يطلبون فيها إسناد نجد إلى سعود فى إطار التبعية للدولة العثمانية(١) ، ولكن لم تسفر الاتصالات بين سعود وعبد الله ومدحت عن نتائج واضحة (أواخر ١٨٧١ وأوائل ١٨٧٢)(٢) .

وغادر مدحت الأحساء فى أوائل ١٨٧٢ وأخذ معه عدداً من الجنود المرضى والجرحى من حامية الأحساء ، كما أن عدداً من العشائر التى سبق لها الاشتراك فى الحملة عادت أيضا فضاعف هذا من تضاؤل القوة العثمانية ومن تجميد أعمال الحملة ووقوفها عند الحدود التى بلغتها على يد مدحت باشا الذى غادر بغداد إلى الآستانة فى ٢٢ من مايو ١٨٧٢(٣) . وبعد عودة مدحت استمرت المفاوضات بين سعود وعبد الله ووالى بغداد الجديد رءوف باشا . وفى الوقت نفسه الذى كان القنصلان الإنجليزيان فى بغداد وبوشهر يرددان أن المفاوضات دائرة بين الأخوين لتسوية المنازعات بينهما وأن العرب يتجمعون حول الأخوين لمهاجمة العثمانيين بعد نزول الأمطار وزوال القحط(٤) . فالواقع أن سعود كان يحث أخاه عبد الله على التعاون معه ضد العثمانيين(٥) وكان من مصلحة الإنجليز أن يتم هذا التعاون بين الأخوين ، فتخف قبضة العثمانيين عن نجد وعن الأحساء ويقل تدخلهم فى أمور الخليج العربى .

ويبدو أن سعوداً بعد أن يئس من الاتفاق مع أخيه عاد إلى مناوأة قوات أخيه والقوات العثمانية على السواء ، واضطر سعود إلى أن يسعى إلى التفاهم مع العثمانيين ، خاصة بعد أن نكبه شيخ الكويت . وتوسط له حاكم بندر

---

(١) Ibid.

(٢) Pr.Trk. Expnt. p. 49. F.O. 78-5108.

(٣) Herbert to Elliot: Jan. 3,1872. No. 1 F.O. 195-996.

(٤) do-do. July 30, 1872. No. 26. Ibid.

do-do. 14 Feb. 1872. No. 6. Ibid.

(٥) Newsdiary 3 Ap. 1872 (Pol. & Sec.Dpt. Rec., Sec. letters. fr Per.G., Vol. 21.).

عباس (أحمد خان) . وكانت السلطات العثمانية فى هذا الوقت تميل إلى الاتفاق معه على أساس أن يدفع الضريبة السنوية مثلما كان الحال على عهد أبيه فيصل على أن يقدم رهائن إلى سلطات بغداد لتضمن استمرار ولائه . وذهب عبد الرحمن — أخو سعود — رهينة إلى بغداد واستمر هناك حتى أطلق سراحه فى أغسطس ١٨٧٤ . ما كاد عبد الرحمن يصل إلى الأحساء حتى أسرع الشيوخ إلى الالتفاف حوله وأعلنت عشائر الأحساء الثورة على العثمانيين . وتناثرت الإشاعات عن أن شيخ البحرين والإنجليز يقدمون المساعدات لعبد الرحمن . وكانت قواته الرئيسية تتألف بطبيعة الحال من العجمان وبنى خالد ،وحوصرت القوات التابعة للعثمانيين فى قلعة الهفوف(١) .

ونظراً لضعف الجيش السادس فى العراق،ولاضطراب أمور جنوب العراق فضل والى بغداد أن يسند أمر إخضاع ثورة الأحساء إلى ناصر السعدون المنتفق صهر بزيع بن عريعر حاكم الأحساء . وانتصر ناصر ودخلت قواته الهفوف واقتفت أثر الموحدين دون أن تتعرض للشيعة ، وفر زعماء الموحدين إلى البحرين ورحل عبد الرحمن إلى الرياض وهناك وجد سعوداً يحتضر متأثراً بجراح أصيب بها خلال إحدى المعارك ومات سعود فى ٢٦ من يناير ١٨٧٥ م .

ولم يستطع الولاة بعد مدحت أن يتابعوا مجهوداته فى الخليج وأسندوا أمور الأحساء إلى آل السعدون وهؤلاء لم يتبعوا سوى سياسة المحافظة على الأحساء بقدر الإمكان ، فكان أن استعادت الكويت شخصيتها كإمارة مستقلة استقلالا ذاتيا فكانت هذه الأوضاع أقوى سند للإنجليز لعقد اتفاقية ١٨٩٩ مع جابر الصباح(٢) ، وأصبحت الأحساء من بعد ذلك كثمرة أشرفت على السقوط حتى فكر عبد العزيز آل سعود فى اجتياحها منذ سنة ١٩٠٦ واستولى عليها فعلا فى ١٩١٣ . أما البحرين فقد تحولت إلى قاعدة بريطانية حتى الوقت الحاضر .

(١) Herbert to Elliot: Dec. 14, 1874. & do-do. Dec. 1,1874. F.O. 195-1030.

(٢) كتب أحد المسئولين الإنجليز عن وضع الكويت قائلا :

«Although technically a subject of the sultan enjoyed a considerable amount of independence ,. From Sir F. Lasceile to Lansdowne. No. 1919. Conf.)India off) Berlin July 30,1901.

سياسة مدحت ازاء فارس :

عندما جاء مدحت إلى العراق كان مصمماً على تنفيذ توصيات الباب العالى له بأن يراعى دواعى السلم مع جارته . وكان من مصلحة مدحت أن يضمن سلامة حدوده الشرقية خلال أزماته الشديدة مع عشائر الدغارة وحملته فى الخليج العربى . وكانت عوامل المنازعات فى عهد مدحت هى نفسها التى واجهها ولاة العراق بعد عقد معاهدة ١٨٤٧،وأهمها مشكلة العشائر المترددة بين الدولتين عبر الحدود،وحماية خطوط البرق من تعدى هذه العشائر عليها ، وتسهيل الحج للفرس إلى العتبات المقدسة .

كانت أول مشكلة صادفها فى هذه الناحية هى تعدى عشائر« الهماوند » على مناطق السليمانية تحت حماية حاكم زهاب « زهاو » الفارسى(١)، كما كانت عشائر السنجابية(٢) الفارسية تعتدى على خطوط البرق(٣)، وفى هذا أشد الإحراج لمكانة الباشا لأن هذه المشكلة كانت سريعا ما ترتفع إلى مصاف الأزمات العالمية . كذلك أشاعت عشائر «الفيليه» الفوضى على الحدود المشتركة،فقد هاجمت هذه العشائر نواحى « شهربان » « وقزلرباط » الجبلية وأوقعت بالقوافل(٤)،وكانت مشكلة الهاورامان أشد مشكلات الحدود خطورة فى عهد مدحت . إلى جانب مشكلة الهماوند .

كانت عشائر هورامان مقسمة بين فارس والعراق، . وكان القسم الإيرانى يتبع «سنة» والقسم العراقى يتبع «السليمانية» وكان لها أمير يدعى سلطان . وحدث أن غدر فرهاد ميرزا بأحد أمراء الهورامان السنيين فثارت العشيرة ودارت معارك دموية بين هذه العشيرة والقوات الفارسية . وبرغم تكرر انتصارات العشيرة — لوعورة مسالك مناطقها — فإنها كانت غير

(١) Lorimer: op. cit. Vol. I. Pt. p. 1421.

(٢) عشائر « على الهبة » يشتون فى العراق . فكانوا من موارد خزينة بغداد الهامة . العزاوى : تاريخ : ٧ : ص ١٨٢ وصحيفة الزوراء : عدد ٦ فى ١ من ربيع الأول ١٢٨٦ هـ .

(٣) العزاوى : تاريخ : ٧ : ص ٢٢٤ وكذلك الأعداد ٧ ، ٨ ، ١٢ .

(٤) المصدر السابق ٢٠٥ .

قادرة على أن تتحمل حرباً طويلة الأمد ضد الجيوش الفارسية التى كانت ترسل عليها بالتتابع وكان تعداد هذه العشيرة ٢٠ ألف نسمة . فلما اقتحم عليهم الجيش الفارسى الجبل اشتد الفرس الشيعة فى إسالة دماء وإفناء الهورامان السنة ومثلوا بهم أشنع تمثيل فاضطرت العشيرة إلى أن تلجأ إلى العراق(١) . واتجهت الحكومة العثمانية إلى أن توفق بين الحكومة الفارسية والهورامان على أساس أن يكف الفرس عن الاستمرار فى مذبحة الهورامان ، وأن تكف العشيرة عن مشاكستهم ، ولكن فارس لم تستمع إلى تلك النداءات واستمر الفرس فى عملية إفناء الهورامان . وأخذ هؤلاء يتوغلون فى العراق فراراً من الجيش الفارسى ، فقبل الموظفون العثمانيون « دخالة » الفارين رجالاً ونساء وأطفالا وأسكنوهم نواحى السليمانية . واتخذت التدابير للمحافظة عليهم وإعانتهم وإنقاذ هذه العشيرة السنية من براثن فارس .

ونظراً لخطورة تلك الأحداث اتفقت الدولتان على تبادل وجهات النظر فى مشكلات الحدود ووصل الطرفان إلى وضع بروتوكول فى ١٨٦٩ وقعته السلطات العثمانية والفارسية والبريطانية والروسية فعلا يضمن اعتراف الدولتين المتنازعتين على احترام خط الحدود المبين على الخريطة التى وضعتها لجنة الحدود . ووفق هذا البروتوكول ظلت المنحدرات الجنوبية الغربية فى بشتكوه قرب دجلة على ما كانت عليه « Status quo » حتى تقرر الحدود بدقة على ألا تبنى أية مبان أوحصون على هذه الأراضى(٢) .

وبدأت فرصة جديدة لاستئناف المفاوضات بصورة أكثر تفاؤلا عندما تقرر أن يزور الشاه العتبات المقدسة(٣) . وقد انتهز مدحت والباب العالى الفرصة فأوفدمن لدنه مبعوثاً — وهو قدرى بك — لمفاوضة الجانب الفارسى الذى تولى رياسته محب على خان . وأعد مدحت من الاحتفالات الفخمة — برغم

(١) العزاوى: تاريخ : ٧ : ١٨٤ — ١٨٦ والزوراء : ١٢/٧/٦ (ربيع الثانى ١٢٨٦/١٨٦٩) .

(٢) Aitchison : A Collection, Vol. XII. p. 21-22.

(٣) وصل الشاه إلى خانقين حيث استقبله مدحت فى شعبان ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م .

ما كانت تعانيه البلاد من قحط شديد — ما يليق بزيارة هذه الشخصية الخطيرة للعراق وما يمهد الجو لمفاوضات تسودها روح التفاؤل بقيام علاقات أكثر ودية بين البلدين :

خرج الشعب البغدادى لاستقبال الشاه وارتدى تلاميذ المدارس ملابسهم الحديدة واصطفوا فى الشوارع . ووضعت فى كل جانب من جوانب المدينة زينة . وأضيئت المدينة بالأنوار كما أطلقت الصواريخ ليلا . واجتمع الشاه بقناصل فرنسا وبريطانيا والوكيل الإيطالى ، ثم زار العتبات المقدسة(١) (النجف وكربلاء وسامرا) وخلع على علماء الشيعة هناك ومنحهم هبات كثيرة(٢) واستغرقت الزيارة ثلاثة أشهر كلفت خزانة بغداد ٣٠ ألف ليرة عثمانية(٣) وخلال ذلك دارت المفاوضات بين الطرفين حول مشكلة الحدود وحول المشكلات الأخرى وهى :

١ — دفن الموتى : واتفق فى هذا الشأن على ألا تدفن جثة فى العتبات إلا بعد مرور ثلاث سنوات على الوفاة(٤) .

٢ — كنز النجف : فقد دفنت فى تربة النجف منذ ثمانين عاماً تقريباً مجوهرات عندما هدد الوهابيون مدينة النجف وخشى أهلها من أن يحل بها ما حل بكربلاء وبلغت قيمة المجوهرات حوالى ٣٠٠ ألف ليرة عثمانية واقترح مدحت على المفاوض الفارسى أن يستخدم المبلغ لصالح الحجاج الفرس بأن يمد خطاً حديدياً بين فارس والنجف(٥) أو لإنشاء مستشفيات وملاجى

(١) تبصره عبرت : ١٦٩ .
Lorimer: op. cit Vol. I. Pt. 1421.

(٢) جعفر آل محبوبة النجفى : ماضى النجف : ١٥٣ — ١٥٤ .

(٣) وزاد من مشكلات مدحت فى هذه الظروف أن السنة كانت سنة قحط ، وأن مرافق الشاه كانوا عشرين ألف شخص منهم ستة آلاف فقط من أتباع الشاه وحده
Lorimer: op. cit Vol. I. Pt. p. 1421.

(٤) تبصره عبرت : ١٧٠ .
Aitchison: A Collection, Vol. XII, p. 20.

(٥) A.H. Midhat : the life of Midhat. p. 53.

وخانات على طول طريق الحجاج إلى العتبات . فلم تنجح هذه المقترحات التقدمية واضطر مدحت إلى إعادة الكنوز إلى مكانها وأن يحتم هو ورفاقه من وزراء فارس على باب المخبأ(١) .

وأما مشكلة الحدود فكانت أكثر المشكلات تعقيداً ، خاصة فى مناطق زهاو وأهوار عربستان(٢) التى عاد حكام المحمرة فيها إلى إثارة الفوضى . فاشترك مدحت ومبعوث الباب العالى فى دراسة مشكلة الحدود وفى مفاوضة ممثلى الجانب الفارسى وعلى رأسهم محب على خان بشأن تحديد الحدود وبشأن تسليم الفارين من فارس إلى العراق . وبجانب هذه المفاوضات التى اشترك فيها مدحت عقد المندوبان الفارسى والعثمانى اجتماعات قرب الحدود عند شهربان ، ولكن كل هذه المفاوضات انفضت دون الوصول إلى نتيجة مجدية .

وإذا كانت أساليب المفاوضات وتبادل الرأى قد أخفقت فقد اتبع مدحت أساليب عسكرية هجومية ودفاعية ، كان لها أثرها فى وقف مشكلات الحدود عند حدها بعض الوقت . فبنى عند المنافذ بين العراق وفارس بعض القلاع . ثم وضع خطة لضرب الهماوند والسنجابية بالتعاون مع عشيرة ربيعة وقبض على بعض المشاغبين وأعدمهم(٣) . وفى ١٨٧١ استؤنفت المفاوضات ويبدو أن الطرفين اتفقا فى هذه المفاوضات على أن ينتقل اللاجئون والمشاغبون على الحدود إلى مناطق بعيدة داخل كل من الدولتين كوسيلة لوقف حوادث الحدود إلى حد ما . كذلك تقرر فى هذه المفاوضات أن يعقد مؤتمر فارسى عثمانى فى الآستانة لوضع معاهدة أرضروم فى موضع التنفيذ ، كما تقرر أن يحضر ممثلون عن الحكومتين البريطانية والروسية هذا المؤتمر ، ولكن لم يجتمع هذا المؤتمر . ويعلل إتشسون عدم اجتماع هذا

---

(١) تبصره عبرت : ١٧٠ .
(٢) العزاوى : تاريخ : جـ ٧ : ص ٢٦٣
(٣) العزاوى : تاريخ : ٧ : ١٨٢ .

المؤتمر بمماطلات الحكومة العثمانية(١) . وفى ١٨٧٦ م عادت مشكلات الحدود إلى الظهور عند «قطور» و «زهاو» واستمرت المنازعات وقدمت فارس مذكرة جاء فيها :

١ — أن استمرار احتلال الترك لقطور التى احتلها درويش باشا سنة ١٨٤٩ عندما كان فى طريقه للانضمام إلى لجنة الحدود فضلا عن احتلالهم لعدة أماكن أخرى يعتبر خروجاً على نصوص معاهدة ١٨٤٧ .

٢ — سوء معاملة الزوار الفرس .

٣ — عدم تنفيذ أمر نقل عباس ميرزا من بغداد وكان العثمانيون قد وعدوا بذلك . وكان عباس ميرزا من مثيرى الفتن فى إيران .

٤ — المماطلة فى تحديد الحدود .

٥ — مشكلة جزيرة شهلة فى شط العرب ١٨٧٦(٢) .

ثم ألفت لجنة رباعية أخرى ، ولكن الفرس اعترضوا على عملية إنهاء النزاع ، وحلت اللجنة ولا تزال هناك لجنة موجودة باسم اللجنة الدولية لتحديد الحدود وبعد حوالى نصف قرن لم ينته الموضوع(٣) .

عزل مدحت :

إن تلك المجهودات الضخمة التى بذلها مدحت فى العراق تؤكد لنا أن الرجل كان من طراز فريد وأنه كان مؤمناً بفكرته الإصلاحية . لم يقم من قبل بمثل ما قام به مدحت مع أن المدة التى قضاها فى ولاية بغداد كانت قصيرة . ولأهمية المشروعات التى بدأها كان من جاء بعده من حكام يبدأ من حيث انتهى مدحت أو يستنير بما أقدم عليه مدحت ليسير على نهجه . عزل مدحت فى ٢٣ من مايو ١٨٧٢ ويقال إن سبب عزله يرجع إلى أن نديم باشا — الصدر الأعظم — كان يضغط على مدحت ليقدم لخزانة

Aitchison: A Collection, Vol. XII. p. 21-22. (١)
Aitchison : A Collection. Vol. XII. p. 22. (٢)
Boulger : op. cit. Vol. I. pp. 205-207. (٣)

الباب العالى أموالا تفوق طاقة أهل العراق . ورفض مدحت ذلك وقدم استقالته لهذا السبب . والواقع أن مركز مدحت كان قد ضعف منذ أن توفى كل من صديقيه عالى باشا وفؤاد باشا ومنذ أن تولى نديم باشا — عدو مدحت — الصدارة العظمى .

وقبل أن نختم هذا الموضوع يجب أن نشير إلى بعض الآراء التى قيلت فى مدحت حيث إنه أكبر شخصية حكمت العراق فى الفترة التى نحن بصددها . وقد كان أكثر الناس هجوماً عليه آن وولفرد بلنت . تقول آن بلنت أنه وضع من الخطط ما لم يكن هو بقادر على تنفيذه وتعتقد آن العراق كان سيئ الطالع لأنه وقع تحت حكم مدحت هذه السنوات القليلة(١) .

أما ولفرد بلنت فقد أعطانا صورة أشد تهكماً من تلك التى أعطتها لنا زوجته آن فهو يقول عنه وقد التقى به فى دمشق عندما كان والياً عليها .

« لم يكن ممتازاً بأى شىء فى مظهره سوى أنه كان فخوراً مختالا ولم أجد فى أثناء محادثتى معه فى موضوع تجديد تركيا وإصلاحها أى عمق فى أفكاره والواقع أنه كان أكثر من الأتراك احتقاراً لكل ما هو عربى »(٢) . والواقع أن آن بلنت كانا يحملان لمدحت كل ضغينة وكانا يقومان بحملة منظمة ضد أعماله والإساءة إليها حيث إنه كان من أشد أعداء النفوذ الأجنبى فى البلاد .

أما دائرة المعارف البريطانية فيرى كتابها أن إصلاحات مدحت فى العراق مثل إصلاحاته فى « نيش » كانت ذات نتائج حاسمة وأن مدحت لقى من المتاعب فى العراق ما يفوق ما لقيه فى « نيش »(٣) ويرى عباس العزاوى أن مدحت رجل غير مشرع وأنه « لم يكن واضع قانون رجل همه تنفيذ قوانين الدولة فكان توجيهه مرضياً « وبقوله إنه » وفقاً لما تطلبته

(١) A. Blunt, Bedouin, Vol. I. pp. 194-195.

(٢) ولفرد بلنت : تاريخ الاحتلال الإنجليزى لمصر : حـ ١ : ص ١٢٢ .

(٣) The Ensyclopedea Britannica, 14ed. Vol. 51, p. 456.

المصلحة وأمكن عمله فإذا كان لم يأت بشىء جديد فإنه وجه وعمل واستخدم المواهب .... وحاسب على الإهمال والتراخى وتغلب على الأهواء والتيارات المتعارضة فأخذ بناصيتها وعمل بما لم يسبق إليه(١) . والحق أن العزاوى أنصف فى وصف مدحت فإن مدحت أقدم على بعض الأعمال القيمة . فقد أحيا روح الإقبال على العمل فى ميادين لم تكن مطروقة من قبل وأطلق بذلك طاقات كانت مكبوتة وكشف للناس عن إمكانات كانت واسعة احتاجت إلى الحل وإلى المتابعة ونتيجة لذلك ظلت ذكراه عطرة إلى أيامنا هذه .

ثم إنه قام بتطبيق النظم الحديثة وهذه وحدها مشكلة استعصت على جل الولاة من قبله ونظم الإدارة وضرب على يد المرتشين وعنى بالحياة الاجتماعية والصحية وكانت من الأمور المهملة . فضرب مثلا فى هذه الناحية بأن الشرقى لا يقل عن الغربى إقبالا على هذه الأساليب من الحياة المتطورة وكما قام بواجبه — على قدر استطاعته — نحو أهل العراق وفّى حكومته حقها فقدم لها مبالغ من الأموال لم يقدمها وال من قبل .

إن النقد الرئيسى الذى يوجه إلى مجهودات مدحت هو أنه كان تركياً فى تفكيره . وكانت إصلاحاته تستهدف إنقاذ الرعية والحكومة من الهاوية التى كانوا ينحدرون إليها . ولكن لم يعن بإشراك العرب والأكراد إشراكاً فعلياً فى توجيه أمور البلاد أو فى تدريبهم على مسئوليات الحكم فظلت الإدارة تركية وظلت المدارس تعلم بالتركية فكان ذلك من أسباب الصراع العنيف بين القومية العربية وحكومة الآستانة . حيث إن بواكير الحركة العربية فى العراق أخذت تظهر فى البلاد لا فى أواخر القرن التاسع عشر — كما هو معروف — ولكن منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر .

(١) العزاوى : تاريخ : ٧ : ١٦٦ .

الفصل الحادى عشر

بواكير الحركة الغربية فى العراق

الفصل الحادى عشر

بواكير الحركة العربية فى العراق

وقع العراق خلال القرون الطويلة التى أعقبت سقوط بغداد فى يد المغول فى حكم عدة دول غير عربية ، مغولية وتركمانية وفارسية . ثم وقع أخيراً تحت الحكم العثمانى . فكيف تسنى للعراق أن يحتفظ بكيانه العربى خلال هذه القرون الطويلة التى قضاها تحت حكم تلك الدول غير العربية ؟ وما هى الظروف التى مهدت للحركة العربية التى ظهرت بواكيرها فى العراق فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ولتوضيح هذا يجدر بنا أن ندرس العناصر الرئيسية التى تؤدى إلى نشوء الحركة العربية والظروف التى أعانت على توجيه العراق نحو الاشتراك فى الحركة العربية العامة فى القرن العشرين، والمعروف أن اللغة والأصل العربى ووحدة التاريخ وديناميكية التعاطف بين العرب هى المقومات الرئيسية لنشوء الفكرة القومية .

وتعتبر اللغة العربية الفصحى والإنتاج العلمى الأدبى الدرع المتين الذى حفظ للعراق عروبته خلال تلك القرون التى عاشها تحت حكم دول غير عربية . وقد تعرضت اللغة العربية فى العراق لخطر شديد من جانب اللغتين الفارسية والتركية . فقد تفوقت اللغتان الأخيرتان على مر تلك القرون على اللغة العربية بسبب ما بلغته الدولتان الفارسية والعثمانية من مكانة مرتفعة . وكان العراق من ناحية أخرى أكثر البلاد العربية تأثراً بالثقافات الفارسية والتركية . فهو جار للدولة الفارسية وللأناضول الذى تسود فيه اللغة التركية . وكانت العلاقات بين العراق من جهة وفارس والأناضول من

جهة أخرى مستمرة وقوية نتيجة للاتصالات والروابط السياسية والاقتصادية والثقافية .

ومن ثم كان من اليسير أن تتسرب اللغة الفارسية والتركية إلى العراق . ولقد تسربت فعلا وبكثرة فى اللغة العامية . وساعد على تسرب اللغتين التركية والفارسية إلى العراق أنه كان لهما مراكز ثقافة قوية فى داخل البلاد نفسها . كانت النجف وكربلاء مركزين من أهم مراكز الثقافة الفارسية ، كما كانت المؤثرات الثقافية التركية صادرة عن الحالية التركية فى العراق وعلى رأسها هيئة الإدارة والحكم . على أن هذا المؤثرات التركية كانت غير موجهة من جانب الحكومة حتى عهد مدحت الذى أنشأ المدارس الرشدية .

ولقد بلغ الأمر بتفوق اللغتين الفارسية والتركية على اللغة العربية أن كان العلماء العرب يدرسون الفارسية والتركية ليحصلوا على مكانة ممتازة فى المجال الأدبى حينذاك ولهذا كثر عدد العلماء الذين كانوا ينظمون الشعر بلغتين على الأقل إحداهما العربية .

حقيقة لم يكن هذا الضغط الثقافى الفارسى أوالتركى منظماً ، ولكنه كان كبير الأثر فى العراق حتى غدت اللغتان الفارسية والتركية من لغات الأدب والعلم .

وبدأ التأثير الثقافى التركى المنظم عندما أنشئت المدارس الرشدية فى المدن الكبرى ، وعندما عنيت حكومة الآستانة بتشجيع أولاد شيوخ العشائر العربية على الحضور إلى الآستانة لتلقى العلم فى مدرسة العشائر حتى يكونوا من بعد أداة من أدوات الحكم العثمانى . ولقد أثرت المدارس الحكومية التركية إلى حد ما فى ثقافة خريجيها من العرب خاصة ، فهؤلاء الخريجون كانت تتفتح أمامهم بسهولة مجالات العمل فى الإدارات العثمانية.

أدى ذلك التدهور العام الذى أصاب اللغة العربية إلى أن يعجز العلماء والكتاب عن أن يأتوا بأفكار أوببحوث مبتكرة ، فلم نشاهد خلال الفترة الأولى من الحكم العثمانى فى العراق إنتاجاً عربياً مبتكراً وإنما عكف العلماء

على جمع ما أنتجه السابقون وعلى شرح مؤلفاتهم . وعندما نظموا الشعر قلدوا الشعر القديم فى بناء القصيدة وتتبعوا المعانى التى رددها شعراء العصر العباسى (١) . وكان لهذا النقل والتقليد فضل كبير فى أن تستمر اللغة العربية هى السائدة فى البلاد . إلى جانب هذا أخذ التفوق الذى أحرزته اللغتان الفارسية والتركية يتدهور فى القرن الثامن عشر بصفة خاصة ، وبدأت فى القرن نفسه حركة أدبية منحت اللغة العربية قصب السبق والتفوق على اللغتين الفارسية والتركية . وكان لنظام الحكم العثمانى بصفة عامة أثره فى أن يحفظ اللغة العربية كيانها ومكانتها ، كما كان للحكم المملوكى فى العراق فضل كبير فى تفوق اللغة العربية فى البلاد .

فقد كان العثمانيون يتجنبون التدخل فى الأمور الداخلية للبلاد العربية ومن ذلك أنهم تركوا حكم العشائر لشيوخها . ومن ثم كان الحكم العثمانى حكماً سطحيا لا يتغلغل فى كيان الطوائف أو العصبيات المحلية ولم يفرض العثمانيون لغتهم على العرب وتركوا اللغة العربية وأمر المدارس للعلماء وللشعب.

على أن الفضل الأول فى المحافظة على عروبة العراق وغيره من البلاد العربية يرجع إلى الإسلام وإلى القرآن الكريم وإلى أمهات الكتب والمؤلفات العربية . فالقرآن الكريم بإعجازه كان يشحذ الأذهان لدراسة وبحث كلمه وتفهم معانيه . كان القرآن المرجع الذى يلجأ إليه العلماء لتصحيح ما اعوج من أساليب اللغة ولتنقيتها من الشوائب . فحفظ بذلك اللغة العربية الفصحى سليمة غير مشوهة . حقيقة كثرت الشوائب فى أسلوب العلماء منذ القرن الثالث عشر الميلادى، وخاصة فى اللهجات العامية ، وتدهور الأسلوب الأدبى منذ ذلك القرن وأصبحت مؤلفات العلماء خليطا بين العامية والفصحى ، ولكن فى المؤلفات الدينية التى تبحث فى التفسير والفقه ، كان أسلوبها عربيا وإن كان ركيكاً ، وصحيحاً وإن كان مسجعا ومملا .

(١) قارن كتاب مرتضى الزبيدى توفى ١٢٠٥ ﻫ فى تاج العروس ، وهو ثروة لغوية مازال العلماء يرجعون إليه إلى وقتنا وشرح شافيه لعبد القادر البغدادى (١٠٩٣ ﻫ) بكتابات الشعراء والأدباء المعاصرين لهم من أمثال عبد الرحمن الجبرتى وعثمان بن سند صاحب مطالع السعود نجد أن أسلوب الأولين أفصح من الأخيرين .

أما الإنتاج الأدبي ، المنظوم منه والمنثور فكانت تكثر فيه الشوائب الفارسية والتركية وأخذت اللغة الفصحى تستعيد مكانتها تدريجيا فى الإنتاج الأدبي . والحق كانت الفصحى إحدى الروابط القوية التى تربط العرب وتطبع المجتمع العربي بطابعها وتصهر الناطقين بها فى بوتقتها وتشيع بينهم أحاسيس متقاربة ، وتجذب الأفراد بعضهم إلى بعض فى حماس وتعاطف .

ولقيت اللغة العربية فى عهد المماليك القوة التى دفعت بها قدماً إلى التفوق النهائى على اللغتين الفارسية والتركية . فقد عنى المماليك بها كل العناية . وهذا يرجع إلى أن بهاء الحكم المملوكى كان فى حاجة إلى وجود العلماء حول الحاكم ليؤيدوا أعماله، فهم فى ذلك الوقت كانوا بمثابة وزارة الدعاية فى هذا . كانوا يذيعون أخباره ويقنعون الناس بجدواها فقد كان العلماء أقرب الناس إلى قلوب الشعب . وكانوا هم أيضاً يدافعون عن حقوق الرعية ضد من يظلمهم . وكان الشعراء يمدحون الولاة . ولذلك عنى المماليك بالعلماء والشعراء وشجعوهم على الإنتاج العلمى العربي . وهم بهذا التشجيع كانوا لا يهدفون فقط إلى ترقية الإنتاج العربي، بل كذلك كانوا يمهدون العراق ليكون القاعدة التى سيؤسسون عليها ملكا لأنفسهم . ومع أن المماليك كانوا يتكلمون اللغة التركية إلى جانب العربية إلا أن ميولهم كانت موجهة إلى اللغة العربية وإلى تشجيع الإنتاج اللغوى والإسلامى بهذه اللغة . وأدت هذه الظروف إلى أن تظهر نهضة عربية واضحة خاصة فى عهد داود باشا (١٨١٦–١٨٣١) وكانت أيامه أيام تفوق اللغة العربية وتقدمها السريع فقد اجتاحت فى ذلك الوقت اللغتين الفارسية والتركية . ولما ضعفت مكانة اللغة الفارسية فى العراق ولى أصحابها وجوههم صوب فارس وساعد على ذلك تعدد المنازعات بين الدولتين العثمانية والفارسية وتوالى المعاهدات والقيود التى كانت تفرض على وسائل الاتصال بين العراق وفارس فرجحت كفة اللغة العربية . ومع هذا لم تتخلص من شوائب اللغة التركية والفارسية إلا فى حوالى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فالملاحظ أن أبا الثناء الألوسى المتوفى ١٨٥٠ كان يورد فى مؤلفاته أبياتا بالتركية(١) دون أن يترجمها على اعتبا

(١) أبو الثناء الألوسى : غرائب الاغتراب : ١٦٣ .

أنها أظهر من أن تترجم وعلى اعتقاد أن أدباء ذلك العصر يعرفون التركية ، ولكن هذا مالم نجده فى المؤلفات العربية بعد ذلك .

ولقد لعبت المدارس والكتاتيب دوراً فى المحافظة على اللغة العربية الفصحى وعلى الكيان العربي بصفة عامة . كان التلميذ قبل أن يذهب إلى المدرسة يتلقى مبادئ القراءة والكتابة فى كتّاب القرية أوالمدينة ، ولا يتركه إلابعد أن يحفظ القرآن . فإن آنس فى نفسه مقدرة على الاستمرار فى متابعة الدرس دخل المدرسة فيبدأ أولا بدراسة النحو والصرف ثم يكلف بدراسة شيء من الفقه ثم يدرس التفسير والبلاغة والشعر القديم .

وإذا ما بدا على الطالب أنه مجد فى علمه وحصل تلك العلوم بهمة ارتقى فى دراساته فيدرس العروض والقوافى والحساب وكتب الحكمة ، فضلا عن أمهات كتب التفسير والحديث وكان للطالب حرية الانتقال من مدرسة لأخرى ومن شيخ لآخر ومن عالم لآخر(١) .

إلى جانب هذه المدارس كانت توجد فى بيوت العلماء وفى الجوامع الكبرى خزائن كتب حافلة بنادر المخطوطات وبكتب التفسير والحديث واللغة يلجأ إليها الطالب كلما أعوزته المراجع وكان العلماء لايغلقون مكاتبهم على أنفسهم، بل كانت بيوتهم ندوات علمية يجتمع فيها العلماء والطلاب على السواء(٢) .

كانت الرابطة قوية بين العلماء والمدرسين والطلاب . كان العلماء يقومون بالتدريس ويحصلون على أرزاقهم من الأوقاف المرصودة لهذه المدارس . وكان إذا أظهر عالم الكفاءة أسند إليه التدريس فى إحدى المدارس ذات الدخل الوفير . فكان ذلك من أسباب تنافس العلماء على الدرس والإنتاج(٣)

(١) وعلى رأسها الأجرومية وشرح الكفراوى على الأجرومية ثم شرح الشيخ خالد عليها بحاشية العطار ثم الأزهرية بحاشيتها ثم شرح القطر بحاشية السجاعى ثم الشذور ثم الفاكهى ثم شرح الأسيوطى على ألفية ابن مالك، ثم شرح الأشمونى عليها بحاشية الصبان ، ثم مغنى اللبيب لابن هشام (انظر محمد بهجت الأثرى : أعلام العراق : ص ٩١ ، الصوفى : المماليك : ١٩٢ – ٣) ..

(٢) محمد القزلجى : التعريف بمساجد السليمانية : ٢٣ – ٢٤ مصطفى الواعظ النفحة الأزهرية : طبع : ١٩٤٨ ص ٢٨ .

(٣) أبو الثناء الألوسى : غرائب : ١٦٣ .

وكان عهد المماليك عهداً زاهراً للعلماء وللحركة التعليمية العربية . كان الولاة يبنون المدارس ويغدقون الأموال عليها . أما فى عهد الحكم المباشر فلم يكن فى سلطة الوالى أن يبنى مدرسة . ولم يكن هؤلاء الولاة يتجهون إلى ذلك . ولهذا لم نجد والياً واحداً فى الفترة التى نحن بصددها يقوم ببناء مدرسة لتعليم العلوم العربية .

وعندما وضع نظام عام للتعليم فى الدولة العثمانية كانت المناهج المطبقة فى المدارس باللغة التركية لا العربية ومن هنا اختلفت الحركة التعليمية فى العراق عنها فى مصر . كان التعليم فى مصر باللغة العربية سواء فى الجوامع أو فى المدارس الحديثة التى ظهرت منذ عهد محمد على . ولكن المدارس الحكومية فى العراق كانت تدرس العلوم باللغة التركية . وتحملت المدارس القديمة والمدارس الملحقة بالجوامع الكبيرة مسئولية تخريج علماء فى اللغة العربية وفى العلوم الإسلامية . وقام المدرسون العرب بواجبهم فى وجه ثقافة تركية ومدارس تركية تؤيدها الحكومة العثمانية بأموالها وإدارتها .

ووقفت المدارس العربية على قدميها أمام المدارس التركية وظلت تخرج للبلاد العلماء والمدرسين. حقيقة كان من يتعلم فى المدارس العثمانية يفتح لنفسه مجالات العمل فى الإدارة العثمانية ، ولكن وجود هذه المدارس التركية فى محيط عربى جعل خريجيها مرتبطين بهذا المحيط العربى ويخدمونه . ولم ينسوا أصلهم العربى فخدموه ووقفوا إلى جانب الحركة الوطنية عندما قامت الثورة العربية فى ١٩١٦ ، بل إن عدداً من زعماء هذه الحركة كان من خريجى المدارس التركية .

ومعنى هذا أن التعليم التركى لم يؤثر على نزعتهم العربية ولا شك أن هذه المسئوليات التى تحملها المعلمون والمدرسون والشيوخ فى إدارة المدارس العربية وقيامهم بالدفاع عن حقوق الشعب ضد طغيان الحكام والموظفين جعل هؤلاء العلماء والمدرسين يفرضون أنفسهم على حكام العراق ليكونوا قوة قادرة على الدفاع عن حقوق الشعب . وظهر هذا بوضوح خلال حكم على باشا رضا . فقد تجنب هذا الوالى إشراك زعماء البلد فى توجيه الأمور وكانوا من قبل ذوى كلمة فى سراى الباشا . واعتمد الرجل على معارفه

من أهل حلب فكان أن قامت ثورة ضده بزعامة عالم عربى بارز هو عبد الغنى جميل .

كانت الظروف العامة للبلاد تمهد لاندلاع هذه الثورة . فقد كان العلماء لا يحترمون الولاة العثمانيين قدر احترامهم للحكام المماليك . كانوا يفضلون المماليك لأنهم كانوا يفتحون السراى للعلماء ، ويستمعون إلى شكاياتهم وتوصياتهم ، ولأن مجالس عدد من المماليك — وخاصة سليمان الصغير (١٨٠٨ — ١٨١٠) وداود (١٨١٦ — ١٨٣١) — كانت مجالس علم . وكانوا إذا شفعوا لمظلوم لقيت شفاعتهم صدى فى قلوب رجال الحكومة هذا إلى أن المماليك لم يكونوا غرباء عن أهل بغداد ، وإنما تربوا بينهم وأنس إليهم الناس وكانت لكل كبير من المماليك مكانة فى قلوب الناس . أما على باشا رضا ورجاله فلم يكن لأهل العراق سابق معرفة بهم . بل وفدوا إلى البلاد فى هيئة لم يألفوها ولا تمت إلى التقاليد التى كانت سائدة بينهم . كان الباشا الجديد يرتدى الملابس الأوروبية ، وكذا عدد من حاشيته وكان هذا الزى هو زى « النظام الجديد » الذى تقرر استخدامه فى الدولة العثمانية منذ إلغاء الانكشارية . وكان هذا الزى فى نظر أهل بغداد خروجاً على التقاليد الإسلامية وأخذاً بالتقاليد الأوروبية التى كان الناس يخشون منها على الإسلام كل الخشية وكانوا يعتقدون أن ارتداء مثل هذه الملابس ليس سوى مقدمة للتحول عن الدين الإسلامى(١) . وهكذا أصبح الحكم العثمانى فى العراق ذا طابع يبعده عن طابعه الإسلامى الذى كان يتميز به من قبل . وفكرة وحدة المسلمين تحت حكم الخليفة كانت من أقوى العوامل التى ربطت بين الناس والخليفة العثمانى أما وقد تخلى الخليفة ورجاله عن بعض مظاهر الحكم الإسلامى واتبعوا طريق الأوروبيين فلا أقل من أن ينفض الناس من أنفسهم الولاء لهم بحجة الوقوف وراء شخصية إسلامية تحمى الذمار مما يدبره لهم الأوروبيون . فكان الناس يتطلعون إلى اليوم الذى يخلصهم من هذا النظام الجديد(٢) .

(١) Taylor to Chief Sec. Govrt. Bombay. 29 Ap. 1832 (Ind. O.R.,F.R., P. P. G., Vol. 49. pp. 359 - 365).

(٢) Ibid.

وكانت أحوال البلاد تتطور من سيئ إلى أسوأ خلال الأيام الأولى التى تولى فيها على رضا الحكم . فقد كانت بداية الحكم المباشر دموية نتيجة مذبحة المماليك التى دبرها لهم على رضا بطريقة غادرة أساءت إلى الحكم العثمانى إساءة كبيرة وأحفظت الصدور عليه . وفى أعقاب مذبحة المماليك انتشر رجال الوالى فى بغداد بحثاً وراء كل صاحب ثروة للاستيلاء عليها علهم يستطيعون دفع رواتب الجند المتأخرة وملء خزائنهم من منهوبات أهل بغداد. فتجاوزوا حدود الإنسانية فى سبيل تحقيق تلك الأهداف . فقد قبضوا على بعض النسوة وكانوا يكوون أبدانهن بالسيخ ويضربونهن بالفلقة ضربا مبرحا وتسامع أهل المدينة بهذه الفظاعات وكانت النفوس كلها متحفزة للوثوب على حكومة على باشا رضا . فلما طالب عبد الغنى جميل رجال الحكومة دون جدوى بالكف عن تلك الأعمال الوحشية ، أعلن الثورة ضد على باشا رضا وصمم على أن يعمل على عزله واستعادة مكانة علماء بغداد لدى رجال الحكومة(١) .

بدأت الثورة فى ٢٩ من مايو سنة ١٨٣٢ هـ — ٢٧ من ذى الحجة ١٢٤٧هـ بزعامة عبد الغنى جميل (٢) وكان حى الشيخ عبد القادر هو أكثر الأحياء تحمساً وثورة . ودارت المعارك بينهم وبين جند الباشا(٣)، وفى خارج بغداد كانت العشائر — التى لبت نداء الثورة — تستعد لمحاصرة المدينة ومد يد المساعدة للثوار داخلها .

ويبدو أن روبرت تيار Rubert Taylor الوكيل السياسى البريطانى فى بغداد لعب دوراً فى إقناع العشائر التى كانت تستعد لمهاجمة بغداد بأن تعدل عن المحاولة ووعدها بأن يرفع شكواها ضد الوالى إلى الباب العالى عن طريق السفير البريطانى فى الآستانة . كما وعد الثوار بأنه سيعمل على عزل على باشا رضا من منصبه ليتولى مكانه بكر بك الكركوكلى حاكم البصرة السابق ومرشح الثوار لتولى منصب الولاية وفعلا اقتنعت هذه العشائر بأقوال

(١) تاريخ لطفى جـ ٤ : ص ٧١.
(٢) Intelligence from Bagdad Contained in Report from Wood.
(٣) عباس العزاوى : تاريخ : جـ ٧ : ١٤ .

الوكيل السياسى البريطانى وانسحبت العشائر فى انتظار ما يتم فى الأمر فأصبح الوالى قادراً على توجيه ضربة قاصمة بمدفعيته لثوار بغداد ، وضرب منازل عبد الغنى جميل نفسه بالقنابل ، ولم تلبث أن توقفت المقاومة .

ويكشف لنا فشل ثوار بغداد عن تنسيق العمل مع القوى العربية التى كانت مستعدة للمشاركة فى الثورة عن أن هذه الحركة الثورية كانت عاجزة عن أن تجعل من نفسها حركة عامة عربية ضد الحكم العثمانى الأمر الذى أعان السلطات العثمانية على إخماد هذه الحركات بالوسائل العسكرية والسياسية على السواء .

لم يتبع على باشا رضا انتصاره على ثوار بغداد بالقبض عليهم وتعذيبهم مثلما فعل بعد دخوله بغداد فى أعقاب استسلام داود باشا (١٨٣١) ولعله لم يفعل هذا لأن الظروف كانت قد تغيرت تغيراً جوهرياً فى الشرق الأدنى منذ أن تقدمت القوات المصرية فى الشام ابتداء من خريف ذلك العام . فقد اضطرت هذه الظروف على باشا رضا إلى أن يستعين بكل القوى التى يمكن أن تسهم فى تقوية قبضته على البلاد وتثبيت القلوب حول السلطان العثمانى . وكان العلماء فى هذه الظروف ذوى أهمية كبرى لتحقيق هذه الأهداف .

حقيقة فشلت هذه الثورة بسرعة ، ولكنها ساعدت مساعدة كبيرة على نمو حركة أدبية عربية موجهة ضد العثمانيين . وكان عبد الغنى جميل نفسه ضالعاً فى هذه الحركة وصاحب نشاط كبير فى توجيه هذه الحركة الأدبية ضد الحكم العثمانى . واشترك معه فى هذه الحركة أبو الثناء الألوسى وعبد الغفار الأخرس . وسنتعرض لهؤلاء بالتفصيل لتحديد الدور الذى لعبوه فى توجيه الحركة الأدبية العربية وجهة سياسية .

كان أبو الثناء الألوسى (١٢١٧–١٢٥٧ هـ) مؤسس الأسرة الألوسية التى اشتهرت فى القرنين التاسع عشر والعشرين . وقد تلقى تعليمه على يد كبار علماء العراق وظهر نبوغه أول ما ظهر فى عهد داود باشا الذى قربه منه وأغدق عليه الأموال . على أن شهرة أبى الثناء ترجع إلى التفسير الكبير الذى ألفه وهو المعروف باسم :

« روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى »

وهو لا يزال حتى وقتنا هذا من مراجع المشتغلين بعلوم التفسير(١) هذا فضلا عن مجموعة أخرى من المؤلفات الأدبية والدينية وعلى رأسها كتب الرحلات التى ألفها والتى سبق بها غيره من العرب فى هذا الميدان(٢) : على هذا النحو كان نشاط أبى الثناء فى مجال الإنتاج العربى وهو فى هذا المجال خدم اللغة العربية والدراسات الإسلامية . أما نشاطه فى المجال السياسى فقد بدأ فى أواخر عهد داود .

كان أبو الثناء الألوسى من المقربين إلى داود باشا ، فكان أن وقف أبو الثناء إلى جانب داود عند ما دار القتال بينه وبين على باشا رضا . ولما سقطت بغداد فى يد على رضا ، التجأ الألوسى إلى حمى عبد الغنى جميل فحماه ، ولم يلبث أن تزعم عبد الغنى جميل الثورة ضد على رضا فكان أن انضم أبو الثناء الألوسى إلى الثوار وبعد فشلها كاد على رضا أن يقضى عليه . ولكن على رضا عدل عن سياسة العنف بصفة عامة وغيّر سياسته فعمل على تقريب العلماء منه وكان من بين هؤلاء العلماء الذين قربهم إليه أبو الثناء الألوسى ، ليستخدم هؤلاء العلماء والشيوخ أدوات لتقوية قبضة الحكومة على مختلف جهات البلاد وفى مقاومة التوسع المصرى . ولهذه الأسباب فتح على رضا أبواب السراى للعلماء على المنوال نفسه الذى كان فى عهد داود باشا ؛ كان على رضا باشا يجزل العطايا للعلماء والشعراء . واستمر هذا الوضع حتى عزل على رضا من ولاية بغداد وأسندت إلى نجيب باشا (١٨٤٢–١٨٤٧) ؛ فمنذ أيام نجيب هذا اتخذت الإدارة العثمانية شكلاً بيروقراطياً ليس للعلماء وكبار رجال البلد دور كبير كذلك الدور الذى كانوا يلعبونه على عهد الولاة

(١) وقد طبع فى مصر ثلاث طبعات .

(٢) معظم كتب الرحلات قبله كانت فى وصف الرحلة إلى الأراضى الحجازية أما رحلات أبى الثناء الألوسى فكانت بين بغداد والآستانة وفيما يلى مؤلفات أبى الثناء الألوسى الخاصة برحلاته

ا – غرائب الاغتراب فى الذهاب والإياب : طبع بغداد ١٣١٧ ﻫ .

ب – نشوة الشمول فى السفر إلى استامبول : بغداد ١٢٩١ ﻫ .

ج – نشوة المدام فى العود إلى مدينة السلام بغداد ١٢٩٣ ﻫ .

المماليك . وكان نجيب باشا نفسه من أنشط الولاة الذين عملوا على تطبيق الحكم المباشر فى مختلف أجزاء العراق ولذلك كان يناهض اشتراك العرب فى الإدارة العثمانية إلا فى حدود ضيقة جداً .

كان نجيب باشا المسئول عن اغتيال كل من صفوق شيخ عشائر شمر الجربا وهو أقوى قوة ضاربة عربية فى القرن التاسع عشر ، وعن مصرع سليمان الغنام شيخ عشائر العقيل التى استماتت فى سبيل كف يد الحكومة عن ضاحية الكرخ الذى كانت تلك العشائر تنزل فيه . وكذلك نجيب باشا هو المسئول عن النكبة التى نزلت بأبى الثناء الألوسى . وقد صور أبو الثناء الألوسى ماحدث بينه وبين نجيب بصورة مؤلمة ، ولكن دون أن يشير صراحة إلى الأسباب التى دفعت نجيب باشا إلى التنكيل به . وأراد أبو الثناء الألوسى أن يستعطف السلطات العثمانية فى الآستانة لتعفو عنه وتعيد إليه أرزاقه فسافر إلى الآستانة وهناك فجع بكراهية الترك للعرب فيقول :

« وقد صح عندى أن هذه الطبيعة الشيطانية شعار ودين لبعض مدرسى القسطنطينية ويبغضون بدورهم كل من يرد على بلدهم من الأفاضل ولو كان نبياً ، وأن رؤية العالم العربى فى أعينهم الموت الأحمر .... ابعد عنهم ما استطعت وإياك وإياهم . وعليك إن أردت صحبة بمصاحبة العوام ؛ فإنك تقوم وتقعد معهم فى أمان الله عز وجل والسلام . وفى هذه الحكاية لذوى الفطن كفاية(١) »

إن ما ذكره الألوسى من كراهية العلماء الترك للعرب تكشف لنا عن الرغبة القوية التى كانت لدى العلماء الترك نحو دفع العلماء العرب إلى أن يسيروا فى الاتجاه العثمانى وإلى أن يتخلوا عن الاتجاه العربى القوى الذى كان يسير فى تياره علماء بغداد . هذا التعارض بين الاتجاهين العربى والتركى كان من العوامل التى جعلت الروح العربية تطفو من أعماق الألوسى لتظهر فى أشعاره فمما لاشك فيه أن هذه الأزمة الطاحنة التى وقع فيها أبو الثناء الألوسى كانت بسبب اضطهاد نجيب باشا له ، وبسبب احتقار أولى الأمر فى

(١) غرائب الاغتراب : ص ١٦٩ .

الآستانة لمكانته ألهبت فى الرجل روح النقد ، وجعلته يتطلع إلى حكم آخر غير هذا الحكم العثمانى الظالم . وكان طبيعياً أن يتذكر فى هذه الأزمة عزة العرب عند ما كانوا سادة السيف والقلم .

ويكشف لنا أبو الثناء الألوسى عن رغبته الدفينة فى أن يتخلص العرب من حكم الأتراك وغير العرب بصفة عامة فى قصيدة بعث بها إلى أبنائه قال فيها :

وهل روضها يخضر بعد ذبولها ... ويهمى على أوراقه الويل والطل
وهل أنا فى يوم العروبة قاصد ... لحضرة باز شأنه الفصل والوصل(1)

ويبعث إليه عبد الغنى جميل مؤكداً تلك المعانى ، ولكن فى أسلوب أقوى وفى صراحة أوضح :

لهفى على بغداد من بلدة ... قد عشعش العز بها ثم طار
واليوم قد حصل بها من ترى ... فانفر وإلا بيديك الخيار
بغداد كم أخنى عليها الذى ... من أسرة لايستطاع الفرار(2)

وهناك شاعر آخر سار فى نفس الاتجاه وأفصح عن ميوله نحو حكم عربى ودعا إلى التخلص من الحكم التركى وهو عبد الغفار الأخرس .

كان عبد الغفار الأخرس رائد النهضة الشعرية التى نمت بسرعة خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وقد ولد عبد الغفار الأخرس فى أوائل القرن التاسع عشر وبدأ نبوغه الشعرى فى عهد داود . فعنى به وقربه وأغدق عليه ، ولكن أيام داود انتهت على يد على رضا فى ١٨٣١ . فاتخذ الأخرس من الشعر وسيلة لكسب رزقه فكان يمدح كل من يصله سواء أكان تركياً أم عربياً ولكن كان فى قرارة نفسه عربياً يدعو إلى أن يهب العرب من رقدتهم ليحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وكان شعره يتضمن الكثير من نقمته على أحوال العراق :

(1) غرائب الاغتراب : ٢١٠ .
(2) غرائب الاغتراب : ٢١١ – ٢١٢ .

طوينا عن الزوار لادر درهم ... بساط متى ينشر يعدونه طعنا
وإنى وإن كنت ابنها ورضيعها ... فقد أنكرتنى سقاها الحيا مزنا

وقوله :

فهلا رحلنا إلى غيرها ... لنحظى بعز وعيش أتم

وقوله :

فما بالنا لم نتفق فى المذاهب ... نحن إلى أرض العراق ركائبى(1)

على أن بواكير الحركة العربية ظهرت فى نطاق ضيق نسبياً فى العراق .

ومن ناحية أخرى كان العراق قد تأخر عن الشام ومصر فى ميدان الطباعة . فهى لم تظهر فى العراق إلا ابتداء من ١٨٥٦ م – ١٢٧٣ ﻫ . وكانت أول مطبعة حجرية وهى مطبعة كربلاء أسسها رجل فارسى . ولم يستهدف من ورائها هدفاً وطنياً وإنما كان معنياً بالمكاسب المادية فكانت مطبوعاتها لاتخرج عن نشرات تجارية ولم تصدر كتاباً يستحق الذكر سوى مقامات أبى الثناء الألوسى (2) . وبعد ذلك بسنوات قليلة أنشأ رجل فارسى آخر مطبعة (١٨٦١) وكان يدعى ميرزا عباس ، وسميت مطبعة « التبريزى » ، ولكنها كانت بطيئة جداً حيث إنها كانت تدار باليد واختفت بوصول المطابع التى تدار بالبخار(3) مثل المطبعة الحميدية (١٨٩٤ م) ، ومطبعتى الآداب (١٩٠٩) والشابندر (١٩٠٧) وكانت من أشهر مطابع العراق وأكثرها إنتاجاً ثم توالى ظهور المطابع من بعد(4) . وإلى جانب هذه المطابع كانت هناك مطبعة الولاية ومطبعة الفيلق . وقد أحضرها مدحت معه عندما قدم إلى العراق ، ولكن إنتاج مطبعة الفيلق كان مقصوراً على الأغراض الحربية(5) .

وهكذا كان عدد كبير من المطابع فى العراق لايعنى بالإنتاج الأدبى والعلمى إلا قليلا فى الفترة التى نحن بصددها ، كما كان عدد المطابع قليلا إذا ماقيس

(1) مجموعة عبد الغفار الأخرس : ٥٤ .
(2) لغة العرب : السنة الثانية ص ٣٠٩ .
(3) المرجع نفسه : ﺣ ٥ ص ٣٠٦ السنة الثانية .
(4) المرجع نفسه : السنة الثانية ٣٠٦ – ٣٠٩ .
(5) المرجع نفسه .

بعدد المطابع فى الشام وفى مصر . والحق أن سهولة استيراد المطابع من أوربا إلى مصر أو إلى الشام كانت من العوامل الرئيسية التى جعلت مصر والشام تتفوقان على العراق فى هذه الناحية . هذه الظروف هى التى أدت إلى أن تصبح مطابع مصر صاحبة الفضل فى نشر أمهات الكتب العراقية وأهم الدواوين والمؤلفات . وعلى رأسها : ديوان الأخرس وروح المعانى . كما أن المطابع المصرية زودت مدارس العراق ببعض الكتب الحديثة التى ظهرت فى مصر أولا .

حقيقة كانت هناك بعض المطابع التى تصدر الكتب العربية ، وخاصة الكتب التعليمية المسيحية ولكنها كانت مطابع طائفية . مثل المطبعة الكلدانية ومطبعة الدومينكان ، ولكنها مع ذلك أعانت على تنمية الحركة الأدبية .

أما العراق فظهرت فيها صحيفة زوراء — أولى صحف العراق — فى ١٨٦٩ م . واستمرت وحدها حتى سقوط عبد الحميد الثانى فظهرت عدة صحف عربية ، ولكنها لم تعش طويلا أوضعف مستواها حيث إن الصحف التركية طغت عليها تمشياً مع سياسة التتريك التى سارت عليها حكومة الاتحاد والترقى . وكانت المقالات العربية فى الصحف العراقية فى هذه الفترة ضعيفة المستوى ركيكة لاتكشف عن حقيقة المواهب(١) التى كانت موجودة فعلا فى البلاد(٢) . فقد كان علماء العراق ينشرون مقالات وقصائد شعر ذات مستوى أدبى عال فى صحف الآستانة العربية وعلى رأسها صحيفة الجوائب التى زخرت بقصائد الأديبين العراقيين يوسف الأسير وعزت الفاروقى (٣) .

حقيقة كانت الزوراء صحيفة حكومية لاتكتب إلا ما يتلاءم وأهدافها إلاأنها كانت معنية فى الوقت نفسه بنشر المقالات التى يبعث بها رجالات العراق إلى الصحيفة وكانت تنشر فى كل عدد مقالة لأحد المواطنين وكانت

(١) أبو الثناء الآلوسى : غرائب الاغتراب : ص ٣٥٧ استعرض فى هذه الصفحة وما بعدها بعض النظريات الجغرافية والفلكية الحديثة ومع هذا فهى أطرف من أغلب مقالات صحيفة الزوراء .

(٢) روفائيل بطى : الصحافة فى العراق : ص ١١ — ١٤ .

(٣) انظر أعداد الجوائب وخاصة فى السبعينات .

ذات أسلوب عربى سليم إلى حد كبير حيث إن الذين كانوا يشرفون على القسم العربى كانوا من شيوخ العراق . فكانت بذلك تدرب الأقلام الناشئة على كتابة المقالة الصحفية ، وكذلك نقلت هذه الصحيفة إلى القارئ العربى أنباء أوربا التى تكشف الكثير من نواحى تقدم الدول الأوربية ، وأنباء الأحداث الكبرى فى البلاد العربية مثل حوادث الصراع بين عرب الجزائر والفرنسيين .

وكان من الممكن أن يتقدم الإنتاج الصحفى فى العراق ويتطور بدرجات سريعة لو أتيح لأهل العراق الاطلاع على الصحف الشامية والمصرية بكثرة ؛ فقد كانت الصحف التركية التى تصدر فى الآستانة هى الشائعة فى العراق ، أما الصحف العربية فلم تكن كثيرة التداول فى العراق ثم صدر قرار بمنع دخول الصحف العربية التى كانت تصدر فى البلاد الأخرى إلى العراق(١) ؛ وأدى هذا إلى إضعاف الصلة بين العراق وغيره من البلاد العربية وقد كانت هذه التطورات عقبة فى وجه الحركة الوطنية العربية ولكنها كانت تزيد من الرمضاء ، التى تفجرت لهيباً خاصة خلال الثورة العربية وبعدها .

وقد تطورت هذه الحركة الأدبية إلى حركة عربية صريحة تدعو إلى التخلص من الحكم العثمانى فى نهاية القرن التاسع عشر . وقد سارت هذه الحركة العربية إلى جانب حركة إصلاح دينى دعت العرب إلى التخلص من البدع التى انتشرت بين المسلمين . وقد كانت فكرة الإصلاح الدينى وإنقاذ البلاد الإسلامية والعربية من الخطر الاستعمارى مختلطة بالحركة العربية القومية ؛ كانت فكرتا العروبة والإسلام مختلطتين إلى حد كبير فى العراق . فقد كان دعاة الحركة العربية فى العراق هم أنفسهم دعاة الحركة الإصلاحية السلفية ، ومن هؤلاء أبو الثناء الألوسى ومحمود شكرى الألوسى وغيرهما . ومن هذا يتضح لنا أن للحركة السلفية — التى بدأت فى نجد — أثراً فى لفت أنظار العرب إلى حقوقهم التى سلبها الترك . ولذلك سنتعرض للحركة السلفية لما لها من صلة وثيقة بالحركة العربية فى العراق ؛ والمعروف أن الحركة السلفية كانت موجهة ضد البدع التى نشرتها الطرق الصوفية فى البلاد الإسلامية ، وكان العراق

(١) روفائيل بطى : الصحافة فى العراق ص ٢١ .

مركزاً من أكبر مراكز الحركات الصوفية سواء المعتدل منا أو المتطرف فإلى جانب المذهب الشيعى المنتشر انتشاراً واسعاً فى العراق كانت الطرق الصوفية السنية تلقى تأييداً كبيراً من الولاة . وكان بعضهم ينتسب إلى إحدى هذه الطرق . كانت الطريقة النقشبندية(١) والقادرية(٢) أشهر هذه الطرق فى العراق ، وكانت الطريقة النقشبندية منتشرة فى كردستان انتشاراً كبيراً وانتشرت بدرجات متفاوتة فى مدن العراق . وكان اعتقاد الناس فى مؤسسى هذه الطرق قد بلغ حداً من الغلو يتنافى وحقيقة الإسلام فكان العراق بذلك تربة خصبة للفكرة السلفية .

قامت حركة محمد عبد الوهاب ک د" فعل ضد البدع التى انتشرت فى البلاد الإسلامية انتشاراً واسعاً والطرق الصوفية مسئولة إلى حد كبير عن انتشار هذه البدع التى أضلت الناس عن الإسلام الصحيح وزاد من انتشار هذه الطرق الصوفية فى العراق أن الولاة العثمانيين ينتمون إلى بعضها وكانوا يغدقون الأرزاق على أتباعها . ومن ذلك أن على باشا رضا كان بكتاشيا ومتحمساً لها ، كما كان نجيب باشا متحمساً للطريقتين القادرية والنقشبندية(٣). وأغلب الظن أن العثمانيين كانوا يشجعون هذه الطرق الصوفية لأنها كانت تعينهم على السيطرة على البلاد من ناحية ولأنها كانت تدعو إلى وحدة الإسلام تحت حكم الخليفة ، ولكن ضعف المستويات العلمية خلال القرون التى أعقبت الغزو المغولى للعالم الإسلامى أدى إلى انحراف هذه الطرق الصوفية عن الطريق السوى فانتشرت البدع والخرافات. وهذا ما لمسه محمد عبد الوهاب فدعا الناس إلى التخلص من هذه الشوائب والعودة إلى أصول العقيدة حتى يحسن إسلامهم .

حقيقة كانت الحركة السلفية التى بدأها محمد بن عبد الوهاب فى نجد تهدف إلى توحيد المسلمين تحت قيادة موحدة إلا أنها لم تنظر إلى آل عثمان

(١) نسبة إلى مؤسس الطريقة خالد النقشبندى .

(٢) نسبة إلى مؤسس الطريقة عبد القادر الجيلانى .

(٣) انظر عباس العزاوى : تاريخ : حـ ٧ : ص ٦٣ .
غرائب الاغتراب : ١٧ — ١٩ .

على أنهم أصحاب الحق فى الاستئثار بالحكم والخلافة ، بل كان أصحاب هذه الحركة يرون أن الأتراك أقل إسلاماً من العرب . وأنه على هذا يجدر بالعرب أن يستقلوا وهذا هو الاتجاه الذى سار فيه السلفيون فى العراق .

فى عهد سليمان الصغير ١٨٠٨— ١٨١٠ ظهر ميل واضح نحو الحركة السلفية فقد كان سليمان الصغير لا يصدر رأياً إلا بعد استشارة على السويدى أحد علماء العراق السلفيين وهو من أسرة علمية كبيرة هناك ولا تزال ذات مكانة فى العراق حتى الآن . واستطاع الرجل أن يقنع سليمان الصغير بقيمة الأفكار التى دعا إليها محمد بن عبدالوهاب ، بل يقال إنه حرض سليمان الصغير على الخروج على الدولة(١) . والحق أن الحركة السلفية كانت فى الوقت نفسه حركة انفصالية عن الدولة العثمانية كما أنها كانت تدعو إلى امتشاق الحسام لإنقاذ المسلمين من البدع التى نشرتها الطرق الصوفية . فقاومتها الحكومة العثمانية بقوة السلاح . حقيقة لم تصمد الحركة الوهابية فى شبه الجزيرة العربية للضربة العسكرية التى وجهها إليها محمد على إلا أنها لم تفقد قدرتها التبشيرية . ولقيت فى العراق تربة خصبة حيث إن عدداً من الطبقة المثقفة هناك كانت قد نفضت عن نفسها غبار التقليد ، و أخذت تنظر إلى المجتمع بعين ناقدة . والنقد الذاتى كان من أهم العوامل التى ساعدت الحركة السلفية على الانتشار إلا أن هذه العملية النقدية الإصلاحية لم ترتفع إلى مستوى التطور العالمى التقدمى حينذاك ، حيث إن تلك الحركة الإصلاحية اقتصرت فى غالبيتها على العودة إلى السلف الصالح فقط .

واشتهرت الأسرة الآلوسية كذلك بأنها سلفية الميول . وكان من الطبيعى أن تكون هذه الميول سرية نظراً لأن الحكومة العثمانية كانت تقاوم انتشار هذه المبادئ . ويحدثنا أحد الرحالة الألمان عن أنه لم يلاحظ وجود السلفيين فى بغداد ورجح أن أصحاب هذه الحركة كانوا يتكتمون أمرهم(٢) . ولكن

(١) فعلا تحدى سليمان الصغير أوامر الباب العالى فبعث بأحد رجاله إلى بغداد لطرده من الحكم ونجح فى طرده ورفع إلى المنصب عبد الله باشا (١٨١٠) . محمود أبوالثناء الآلوسى : غرائب الاغتراب : ص ١٦ — وعباس العزاوى : تاريخ العراق : حـ ٦ : ص ١٨٢—٢٠٠ .

(٢) سعاد العمرى : ص ١١١ ، لب الألباب : حـ ١ : ص ١١٠ — ١١١ .

فى أواخر القرن التاسع عشر أخذت هذه الحركة السلفية شكلا أوضح : فقد بدأت تظهر بعض الكتب التى تدعو إلى الحركة السلفية من تأليف علماء الأسرة الآلوسية(١) ، مثل كتاب « جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين » وإنه لأمر جدير بالملاحظة أنه لم يطبع فى العراق وإنما طبع فى القاهرة فى ١٨٨٠م–١٢٩٨ هـ .

ونمت هذه الحركة السلفية فى العراق حتى إن كبير علماء بغداد فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين – وهو محمود شكرى الآلوسى – كان زعيم السلفيين هناك واتجهت مؤلفات محمود شكرى نحو الدعوة إلى الحركة السلفية . ألف فى تاريخ نجد ودعا إلى التخلص من البدع وتنقية الأفكار من الدعوات الصوفية . وحاول أبو الهدى الصيادى – مستشار السلطان عبد الحميد الدينى – أن يكسبه إلى جانبه ، وأن يجعله داعية للخليفة وللجامعة الإسلامية ، ولكنه وقف أمامه موقفاً صلباً واعتذر فى مكاتباته لأبى الهدى الصيادى عن إمكان التعاون معه . فكان محمود شكرى بذلك هدفاً للحكومة العثمانية . فقبضت عليه ونفته ثم أفرجت عنه لعله يعود داعية عثمانية ، ولكن دون جدوى . وظل الرجل على مبادئه فاعتقله العثمانيون بعد نزول القوات البريطانية فى العراق ١٩١٥(٢) خشية أن يتفاهم معهم ضد الدولة العثمانية خاصة وأن زعماء الحركة العربية كانوا قد تفاهموا مع الإنجليز على إعلان الثورة ضد السلطان العثمانى .

إلى جانب هذه الحركات السياسية والأدبية والدينية التى أسهمت إلى حد كبير فى ظهور الحركة العربية فى العراق كانت هناك حركات عسكرية عنيفة تهدف إلى مشاركة المماليك والعثمانيين حكم البلاد ، بل هدفت فى بعض الأحيان إلى الحصول على منصب الوزارة نفسه وكان يتولى هذه الحركات العسكرية القوة العربية الضاربة فى العراق وهى عشائر العراق . هذه العشائر كانت تحفظ للعراق دائماً وجهه العربى ، وهى التى كانت تزود

(١) فى محاكمة الأحمدين (أحمد بن حجر وأحمد بن تيمية) مؤلفه نعمان الآلوسى .
(٢) محمد بهجة الأثرى : محمود شكرى الآلوسى : ص ٨٢–٨٣ .

باستمرار العراق بالدم العربى الأصيل فكان ذلك الدم العربى فى العراق متجدداً فملأت العشائر الصحراء بين العراق والشام وشبه الجزيرة العربية . ولم تعرف الولايات العثمانية فى أغلب الأحيان – خاصة فى العراق – الحدود الثابتة ، بل كان تحرك العشائر من ولاية لأخرى أمراً عادياً ولا يصادف مقاومة كبيرة من الولاة إلا إذا أضرت هذه التحركات بأحوال البلاد . فسمحت هذه الظروف بانتقال مجموعات ضخمة من العشائر العربية إلى العراق بعضها لقى ترحيباً من بنى عمومته هناك وأدى ذلك إلى تقوية جانب عرب العراق وملأ بقاع البلاد بالعنصر العربى وكان يمكن أن تهبط إليها عناصر أخرى كردية أو فارسية . فالمعروف أن بعض أراضى بنى لام كانت جزءاً من أراضى عشيرة الفيلية الفارسية وأن عرب منطقة الموصل استطاعوا أن يحفظوا هذه المنطقة عربية فى وجه الهجرات الكردية والتركية مع أنها كانت أقرب إلى مراكز الكرد والترك فى أقصى شمال البلاد . وهكذا كانت هجرة هذه العشائر تحول دون تقدم العشائر الكردية أو التركية إلى ما وراء الجبال ، بل إن العشائر العربية بدأت تضغط على المناطق الجبلية الأناضولية فى اتجاه أورفه .

وأغلب الظن أن الضغط العربى لم يستمر من بعد فأخذ الدم العربى يتناقص من تلك الجهات حتى طغت عليه العناصر الكردية والتركية ويرجع الفضل إلى هذه الهجرات التى استمرت طيلة القرون السابقة حتى الجزء الأول من القرن العشرين فى تقوية جانب العرب والعروبة فى العراق والمحافظة على تفوق العنصر العربى . ولكن ظروف العرب الذين ملئوا منطقة الحدود الفارسية – العثمانية فى منطقة عربستان كانت سيئة للغاية . فقد توقفت الهجرات إلى منطقة عربستان منذ أن استقرت عشائر كعب فى تلك المنطقة وعملت عشائر كعب على أن تحتفظ بكيانها العربى بعيداً عن متناول الحكومتين الفارسية والعثمانية ، ولكنها اعتبرت وفق معاهدة ١٨٤٧ ضمن الدولة الفارسية فأصبحت أقلية عربية فى دولة فارسية وكانت الضغوط الفارسية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية قوية خلال القرن التاسع عشر ، حتى إذا ما جاء القرن العشرون كانت الثقافة الفارسية قد تغلغلت فى عربستان

حتى قضى الشاه رضا بهلوى على إمارة المحمرة العربية وعمل على صبغها بالصبغة الفارسية(١). وهذا التطور الذى أصاب بعض عشائر كعب يكشف لنا عن أهمية تدفق العشائر العربية على العراق واحتفاظ العرب بالأغلبية العددية فقد كانت الأغلبية العربية تبتلع الهجرات القليلة الكردية التركية والفارسية . كانت الهجرات العربية تغذى كذلك المدن العربية باستمرار بالدم العربى فحفظت لهذه المدن طابعها العربى وظلت نسبة العرب مرتفعة فيها حتى فى بعض المدن التى كانت تتعرض بشدة لضغط الهجرات التركية والكردية مثل الموصل أو لضغط الهجرات الفارسية مثل النجف وكربلاء ومع ذلك احتفظت هذه المدن بعروبتها حتى النجف وكربلاء التى كانت تنزلهما جالية فارسية كبيرة كان مقدارها كبيراً بالنسبة لعرب المدينتين . وهذا يرجع إلى أن هذه المدن تعيش فى خضم عربى . فكان الدم العربى فيها متجدداً ولا يسمح بتفوق عنصر آخر على العنصر العربى . بل إن الأكراد والأتراك فى المدن استعربوا فقد كانوا يستخدمون لغتهم الأصلية واضطرتهم مصالحهم إلى اصطناع اللغة العربية فاستخدموها حتى تغلبت على لغتهم الأصلية .

هذه الهجرات العربية كانت من العوامل التى أدت إلى ظهور مدن تقيم فيها عشائر عربية وتستأثر بأمورها مثل منطقة الكرخ التى كانت تنزل فيها عشيرة العقيل ومثل سوق الشيوخ التى كانت مقر مشيخة عشائر المنتفق ومثل الزبير التى كان يسكنها النجديون ، هذه المدن لم تدخلها النظم الإدارية العثمانية وكانت تحت حكم شيوخ أقوياء . وظهرت فى ١٨٦٩ مدينة الناصرية التى بناها ناصر السعدون أحد زعماء المنتفق .

وعروبة مدن العراق ذات أهمية خاصة من حيث إنها معرضة بدرجة أكبر للمؤثرات التركية والفارسية . وابتداء من حكم المماليك خفت هذه المؤثرات الفارسية لأن المماليك كانوا أدرى بأساليب مقاومة الضغط الفارسى من العثمانيين ولأن المنازعات بين الفرس والعثمانيين كانت تنتهى

(١) التربية فى خوزستان (عربستان) بالفارسية .

بمعاهدات تحد من عمليات الهجرة الواسعة النطاق وتحد من الاتصالات المباشرة بين عرب العراق والفرس .

أما الهجرات التركية فقد توقفت هى الأخرى لأنه لم تكن فى اقتصاديات العراق مايغرى بهجرة الأتراك إليها على نطاق واسع ، وكانت الهجرات التركية بصفة عامة هجرات فردية كما أن العراق كان من ناحية أخرى بلداً نائياً يصلح لأن يكون منفى للمشاغبين من الترك .

فى بغداد كان التاجر العربى هو المسيطر على السوق . حيث إن التاجر التركى كانت عنجهيته وعدم درايته بحاجات الناس تجعله أقل كفاءة من منافسه العربى والكردى والفارسى ، والواقع كان الترك فى العراق يمثلون أقلية فى جميع المستويات . كانوا يتركزون فى المدن الكبرى ويعملون فى التجارة أو فى الوظائف الحكومية . وكانوا يغلقون على أنفسهم محيطهم التركى. ولذلك لم يؤثروا فى عروبة المدن ، وأما الأكراد فقد فضلوا بصفة عامة أن يعملوا فى جبالهم الكردية ونزلت قلة منهم إلى ميادين التجارة والحياة فى المدن العراقية فى السهول ولكن لم تحدث هجرات كردية جماعية إلى سهول العراق ومدنه . وإنما كانت الهجرات فردية . ولذلك لم تظهر فى العراق — فيما وراء كردستان — قرى كردية بينما كانت عملية ظهور القرى العربية — بل والمدن العربية — مستمرة خلال القرون السالفة فى سواد العراق وقد أدى طغيان العنصر العربى فى بعض هذه المدن إلى أن تسعى إلى الاحتفاظ بحكم نفسها بنفسها فى وجه الضغط العثمانى وعلى رأس هذه المدن الزبير والبصرة بفضل آل زهير . فقد كانت الزبير مدينة عربية خالصة لم تدخلها الإدارة العثمانية إلا فى منتصف القرن التاسع عشر، أما قبل ذلك فكانت تتمتع بحكم شيخها وهو من آل زهير . وهى أسرة عربية ذات نشاط تجارى واسع فى العراق وفى الخليج العربى وامتد نشاطها إلى البصرة حتى أصبح عرب البصرة تحت زعامتها وعند أوامرها وأصبح المتسلم العثمانى غير ذى قيمة إلى جانب آل زهير وكان هذا الحزب العربى فى البصرة من العوامل الرئيسية التى أضعفت النفوذ البريطانى هناك وهددته تهديداً خطيراً لأن نشاطها لم يكن قائماً على أسس عنصرية بقدر ما كان

يقوم على أسس اقتصادية . ولذلك التقت مصالح روبرت تيلر – الوكيل السياسى البريطانى ببغداد – وعلى باشا رضا والى بغداد فى القضاء على هذه الأسرة العربية القوية،ولذلك أخذ روبرت تيلر يحرض على رضا للسيطرة على الزبير وتقوية قبضة الحكومة على البصرة . فما كان من على رضا إلا أن حرض المنتفق على آل زهير فطردت عشائر المنتفق أسرة زهير من البصرة وتعقبتها إلى الزبير وحاصرتها حتى استسلمت . ونظراً لأن الضعف بعد ذلك دب فى المنتفق سهل على العثمانيين السيطرة على الزبير سيطرة كاملة(١) .

كانت العشائر العربية والمدن الكبرى هى التى حفظت للعراق وجهه العربى خلال القرون الماضية ، وهى الأرض الخصبة التى نمت فيها روح الرغبة فى التحرر من السيطرة العثمانية ومن الخضوع لأية حكومة غير عربية . ولقد وجد العثمانيون منذ أن استولوا على العراق أنهم أمام مجموعات عشائرية قوية لها كيانها ولها سيطرتها ، وخاصة فى الجنوب الذى كانت تغطيه عشائر المنتفق المرتكزة على سوق الشيوخ . فتركها العثمانيون فى أماكنها دون أن يفرضوا عليها نظماً إدارية معينة تمشياً مع السياسة العثمانية التى تقضى بالاعتراف بالعصبيات الحاكمة فى إطار التبعية للسلطان العثمانى . ولما وجد العثمانيون أن التفاهم مع هذه العشائر العربية القوية يتطلب نوعاً معيناً من الإدارة لربط العشائر بالحكومة أنشأ العثمانيون منصب باب العرب(٢) ، وهى إدارة مهمتها نقل رغبات العشائر إلى الحكومة والنظر فيما بين العشائر والحكومة من منازعات . فكانت الحكومة فى معظم الأحوال لا تتدخل إلا قليلاً فى أمور العشائر ولم تستطع – برغم مجهودات الولاة الكبيرة – أن تفرض على العشائر نظاماً إدارياً معيناً ولم يستطع الولاة سوى أن يجعلوا شيوخ العشائر واسطة لتنفيذ أوامر الحكومة وعرض مطالب العشيرة أمام السلطات الحاكمة .

حقاً كان شيوخ العشائر حينذاك لا يجدون غضاضة كبيرة فى الاعتراف بالسيادة العثمانية على اعتبار أن السلطان حامى حمى الإسلام ولكن على أساس

(١) Ind O.R., F.R., P.P.G., Vol. 49. pp. 541—3, (29 July, 1833)

(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق : حـ ٧ : ١٤٥ – ٤٦٨ .

أن تظل أمور العرب بيد العرب ولهذا التقت طريقة الحكم العثمانى مع اتجاهات العشائر العربية . على أن العشائر العربية لم تكن تتوانى من وقت لآخر عن العمل على التخلص من الحكم العثمانى ، وكف الحكومة العثمانية عن جمع الخراج السنوى من العشائر . وكان هذا الخراج هو المظهر الوحيد الذى كان يربط العشائر بالسيادة العثمانية ، فإذا ما توقف دفعه أصبحت العشائر مستقلة فعلاً لا اسماً . فدار صراع متطاول بين العشائر والولاة حول دفع هذا الخراج وكان وراء ذلك الصراع بين العشائر والحكومة رغبة نحو التحرير كانت تراود العشائر العربية الكبرى وقد أصبحت هذه الرغبة واضحة منذ أن تولى المماليك حكم العراق فى ١٧٤٩ .
كانت السنوات الأولى للحكم المملوكى قوية ، وعندما بدأ هذا الحكم المملوكى يضعف تطلع العرب إلى مشاركة المماليك فى الحكم ، وكان آل الشاوى أول من سعى إلى أن يكون للعرب مكانة فى حكومة بغداد وآل الشاوى هم شيوخ العبيد ، ومن بعدهم تابع هذه المحاولات آل السعدون شيوخ عشائر المنتفق وآل محمد شيوخ عشائر شمر الجربا .

أرادت هذه الأسرات العربية الحاكمة أن تكف يد الحكومة عنها وأن تشترك مع المماليك فى إدارة أمور العراق . وتزعم هذا الاتجاه أولاً سليمان الشاوى شيخ العبيد . وكان سليمان من طراز فريد . كانت ثقافته واسعة وأدبه جماً . كان شاعراً عميق الإحساس،قوى البنيان . كان الرجل قد بلغ مكانة كبيرة فى حكومة المماليك على عهد سليمان باشا الكبير (١٧٧٨–١٨٠٢) وكانت ظروف المماليك عصيبة إذ أن المتاعب التى لقيها المماليك خلال الغزو الفارسى ٧٥–١٧٧٦ ومحاولة الباب العالى التخلص منهم أدت إلى ضعف قوة المماليك وإلى أن يشرئب سليمان الشاوى – أكبر شخصية عربية ظهرت فى ذلك الوقت – إلى أن يكون شريك المماليك فى الحكم ،وكره المماليك حين رفعوا إلى منصب الكتخدائية رجلاً وضيعاً بدلاً من أن يسندوا المنصب إلى سليمان الشاوى . وكانت سياسة سليمان الكبير بصفة عامة تسير على أساس إبعاد كبار رجال العرب عن الاشتراك فى الحكم .

رد سليمان الشاوى على ذلك بإعلان الثورة ، وأحرز جملة انتصارات استطاع بعدها أن يحاصر بغداد نفسها . ولولا أن رمى الوالى سليمان الشاوى بالعقيل لتطور الأمر إلى وضع خطير . أما الشاوى فاضطر إلى أن يتراجع عن بغداد . واستعان بثوينى شيخ عشائر المنتفق وبالخزاعل لإعادة الكرة فاستولت قوات الحلف العربى على البصرة . وشعر الوالى بخطورة هذا الحلف العربى ، ولما كانت قوات المماليك ومن يتحالف معها من العشائر العربية أضعف من أن تقف فى وجه هذا الحلف العربى القوى بزعامة سليمان الشاوى عمد الوالى إلى الاستعانة بالقوات الكردية . وعندما دارت المعارك بين الطرفين كانت دموية لا كالمعارك العديدة الأخرى التى كانت تدور بين العشائر والحكومة . وكان انضمام عشائر عربية قوية إلى جانب الحكومة من العوامل الرئيسية التى جعلت الوالى يكسب المعركة(١) .

كان اعتماد سليمان الكبير على العشائر العربية خلال تلك الحروب المتطاولة ضد سليمان الشاوى وضد ثوينى شيخ المنتفق يؤكد دائماً أن المماليك أصبحوا يعتمدون على قوة العشائر العربية اعتماداً كبيراً لضمان استمرار الحكم فى يدهم . فكان طبيعياً أن يشعر شيوخ العشائر الكبرى بقيمتهم فيعملون على أن يشاركوا المماليك الحكم بوسيلة أو بأخرى . وكانت عشائر المنتفق أقوى العشائر فى جنوب العراق فى أوائل القرن التاسع عشر وأكثرها تحملاً لمسئولية كبيرة فى داخل العراق وخارجه فلا غرو أن تابع ثوينى مجهوداته فى الضغط على المماليك الذين تفككت قواهم بسبب المنازعات المحتدمه بين زعمائهم حول منصب الولاية، وكان هؤلاء المماليك المتنافسون على المنصب يتطلعون إلى إحدى القوتين الكبيرتين فى العراق للاستعانة بها فى الوصول إلى الحكم . فقد تطلع سعيد باشا الطامع فى المنصب إلى الاستعانة بحمود الثامر ليدخل بغداد على رأس القوات العربية . ونجحت المفاوضات بين الرجلين ودخل سعيد فعلاً بغداد على رأس قوات عرب المنتفق وعلى جثة الوالى المملوكى عبد الله باشا (١٨١٣ م) .

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق : حـ ٦ : ص ٩٥-١٠٣ .

يعتبر عهد سعيد ١٨١٣ — ١٨١٦ عهد تفوق العرب فى توجيه أمور العراق . كان حمود الثامر سيف سعيد الباتر ، واستبد حمود فى مقابل ذلك بالجزء الجنوبى من العراق بأسره ومنذ ذلك الوقت وديرة المنتفق تتبلور فى شكل إمارة عربية فى جنوب العراق . كان سعيد قد قرب إليه كذلك قاسم الشاوى شيخ العبيد وأصبح قاسم عقله المدبر . وأدرك داود — وكان إذ ذاك أحد كبار المماليك — أن الأمر سيفلت من يدهم إذا استمر سعيد فى سياسته العربية فكان أن أعلن الثورة على سعيد وطالب بالولاية . وإنه لأمر ذو مغزى أن يفر داود إلى شمال العراق ليستعين بالأكراد ضد المنتفق(١) . وكان الباب العالى هو الآخر يكره أن يكون الحكم بيد العرب ولذلك صدر فرمان بتولية داود، وكان فرمان السلطان واجب الطاعة فى ذلك الوقت ولذلك اعتذر حمود الثامر شيخ عشائر المنتفق عن الاستمرار فى تقديم المساعدة لسعيد باشا حتى لا يخرج على أوامر السلطان . وانسحبت قوات المنتفق من بغداد فسقطت بسهولة فى يد داود . وكان هذا إيذاناً بنهاية المنتفق كقوة مطالبة بالاشتراك فى الحكم . بل أصبحت عشائر المنتفق منقسمة على نفسها : جزء مع داود باشا وجزء يقاوم محاولات الحكومة لتقليم أظافر ديرة المنتفق . وشعر عرب المنتفق أنهم — وقد تفككوا إلى أحزاب متصارعة يستغلها الولاة لمصلحتهم — فى حاجة إلى الاستعانة بالقوى العربية التى برزت فى الميادين السياسية والعسكرية فى الخليج العربى وبوجه خاص بعشائر كعب وبسلطنة مسقط ؛

وعلى هذا النحو دار الصراع بين المماليك من جهة وعشائر المنتفق وأسطول مسقط من جهة أخرى ، ولكن ضعف مستوى القيادة لدى العرب حينذاك وسرعة تفكك القوة العربية ومهارة المماليك فى التغلب على مثل هذه الأزمات أدى إلى هزيمة هذا الحلف العربى الجديد فقد اشترى المماليك انسحاب أسطول مسقط ، وضرب المماليك المنتفق بعضهم ببعض(٢) ؛

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار : داود باشا . الفصل الثالث

(٢) Selections from the Records. Vol. XXIV. p. 192.

مختصر مطالع السعود : ص ٦٠ .

وبرغم هذه المجهودات التى بذلتها حكومته فإن ديرة المنتفق ظلت قوية ولكنها فقدت قدرتها على توجيه أمور العراق ، تلك القدرة التى كانت واضحة فى عهد سعيد باشا(١) . وإلى جانب ضيق نطاق عمليات المنتفق وانحصارها فى ديرة المنتفق أصيبت الأمور الداخلية لهذه العشائر بالاضطرابات والمنافسات بين الأسرة الحاكمة، وكان لدى الحكومة دائماً شيخ من آل السعدون يعرض خدماته على الحكومة ويعدها بخراج سنوى أكبر فكان أن تحول النزاع بين الحكومة وشيوخ المنتفق إلى فتن داخلية ضاعت فى خضمها رغبة العرب فى أن يكون لهم دور فى توجيه أمور البلاد . وأصبح المنتفق أداة من أدوات تقوية قبضة الحكومة العثمانية على المنطقة الجنوبية وخاصة فى الأحساء فقد أسندت أمور الأحساء إلى آل السعدون (الأسرة الحاكمة فى سوق الشيوخ) كما أسند منصب ولاية البصرة فى ١٨٧٥ إلى ناصر باشا السعدون . هذه التجربة الخطيرة — وهى إسناد الولاية إلى أحد أبناء البلاد ، فى وقت كانت الدولة فيه تعمل على القضاء تماماً على حكم العصبيات المحلية الحاكمة — لم تعش طويلاً إذ استمرت سنة واحدة فقط ، وقد انتقدت الصحافة التركية إسناد هذا المنصب إلى ناصر السعدون ، وأخذت تبرز للرأى العام التركى مساوئ هذا الوالى العربى خلال ولايته وبعد عزله . ومنذ عزل ناصر عن ولاية البصرة لم يسند منصب الولاية إلى عربى ، وهذا يؤكد لنا أن العثمانيين أصبحوا يخشون منذ نهاية القرن التاسع عشر إسناد المناصب العليا إلى العرب(٢) . على أن إبعاد العرب من المناصب العليا لم يقض على آمال العرب فى المشاركة مشاركة فعالة فى الحكم ، فظلت ثورات المنتفق تنشب من وقت لآخر ضد العثمانيين ، وخلال ذلك الوقت كان الناس ينتظرون زعيماً عربياً يتولى قيادة حركتهم ولقد ظهر فعلاً فى جنوب العراق زعيم يدعو إلى حرية العرب وهو طالب النقيب .

تزعمت عشائر شمر الجربا حركات عربية عسكرية مشابهة لحركات

(١) عبد العزيز نوار : داود باشا : الفصل الثانى .

(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق : حـ ٨ : انظر فيه حوادث القضاء على إمارة المنتفق ص ٥٢ وما بعدها .

المنتفق ضد العثمانيين للمحافظة على العشائر العربية بعيدة عن متناول أيدى رجال الحكومة وللمشاركة فى توجيه أمور البلاد مع الإدارة الحاكمة العثمانية . وترجع هذه المجهودات التى بذلتها عشائر شمر الجربا إلى عهد المماليك . واشتهر صفوق شيخ عشائر شمر الجربا وولده عبد الكريم بالقيام بأكبر محاولتين عربيتين للاستقلال بأمور « الجزيرة العراقية »(١) .

كان صفوق شيخ عشائر شمر الجربا يقود مجموعة من العشائر التى أبت — عندما كانت فى شبه الجزيرة العربية — أن تخضع لآل سعود وهاجرت إلى العراق لتعيش بعيداً عن آل سعود . فكان طبيعياً ألا تقل مقاومة عشائر شمر للسيادة العثمانية بأقل من مقاومتها لسيادة آل سعود . وهذا ما اشتهر عن شمر الجربا فى العراق فقد كانت دائماً تتكاتف ضد محاولات المماليك للسيطرة عليها .

وكان صفوق يهدف إلى أن يستقل بأمور جزيرة العراق وأن يشد أزر الحركات الهادفة إلى التخلص من الحكم العثمانى، ولقد وجد صفوق فى التوسع المصرى فرصة لتحقيق هدفه للاستقلال بتلك الجهات ، ولكن تفوقت الدبلوماسية العثمانية على الخطط الارتجالية التى كان يضعها وينفذها صفوق ، فوقع فى قبضة رجال الحكومة فى ١٨٣٤ ثم اغتاله أحد ضباط نجيب باشا والى بغداد فى ١٨٤٧ . وكان نجيب باشا هذا من الولاة الذين صمموا على القضاء على الزعامات الوطنية التى تحول دون تقوية قبضة الحكومة على أجزاء هامة من البلاد فاغتال صفوق ، كما اغتال سليمان الغنام شيخ عشائر العقيل التى وقفت وقفة عنيدة فى وجه على رضا للاحتفاظ بكيانها وبالكرخ بعيداً عن تدخل الحكومة . وأغلب الظن أن العثمانيين أدركوا أن حكمهم السطحى هو المسئول عن ضعف الدولة أمام محمد على باشا خلال أزمة التوسع المصرى فى الثلاثينات أمام الضغط الأوربى عليها بصفة عامة ، فعملت على التخلص من زعماء العصبيات العربية حتى يقضوا على أية حركة تهدد سلطات الحكومة .

(١) زوراء : العدد ١٩٥ فى ٢٨ من شعبان ١٢٨٨ هـ .

بعد مصرع صفوق تفككت عشائر الجربا بين زعامات متعددة حيث تنازع أولاده على السلطة وهم فرحان وعبد الكريم ونايف(١) . وكان الأول قد مال إلى الحكومة وتفاهم معها على أن يتولى المشيخة وأن يعمل على إقرار العشائر فى الأراضى الزراعية فى مقابل منحه مرتباً شهرياً . هذه السياسة العثمانية وهذا التفاهم الذى تم بين فرحان والحكومة لقى معارضة قوية من جانب قسم كبير من العشائر الشمرية . وكان هذا التفكك من مصلحة الحكومة العثمانية لأن شمر الجربا لم تعد على تلك القوة الكبيرة التى كانت لها على عهد صفوق .

وفى عهد مدحت قامت ثورتان عربيتان تدعوان إلى التخلص من الحكم العثمانى : الثورة الأولى هى التى عرفت بثورة الدغارة(٢) ، والثانية كانت مقصورة على عشائر شمر التى كانت تحت مشيخة عبد الكريم . وكان عبد الكريم يمثل النعرة العربية ويعارض فى إدخال النظم العثمانية إلى العشائر ويقاوم المحاولات التى يبذلها العثمانيون لجعل العشائر تستقر . حيث إن الاستقرار فى نظر عبد الكريم هو المقدمة الطبيعية لسيطرة الحكومة على العشائر . وكان عبد الكريم مندفعاً فى هذا التيار المعارض للتفاهم مع العثمانيين بسبب طبيعة تكوينه وتربيته منذ صغره . فقد كان عبد الكريم ولد صفوق، من عمشة . وكانت عمشة من طى ، وكانت السيدة المفضلة لدى صفوق . وكانت على جانب من الثقافة أهلتها لأن تكون صاحبة كلمة مسموعة فى البيد . وكانت — بسبب أصالة نسبها الحاتمى — عريقة فى عروبتها وفى دفع أولادها إلى التمسك بالفروسية العربية والابتعاد عن الحكومة العثمانية بقدر الإمكان ، ومقاومتها كلما حاولت السيطرة على العشائر . وكانت تكره فرحان — لا لأنه متفاهم مع الحكومة — بل لأنه كان تركياً فى أسلوب حياته . فلقد بلغ به الأمر أن كان يتكلم اللغة التركية وهو أمر كان مكروهاً كل الكراهية لدى العرب(٣) . وكان هناك وجه خلاف جوهرى آخر

(١) زوراء : العدد ١٩٥ فى ٢٨ من شعبان ١٢٨٨ هـ .
(٢) انظر الفصل العاشر : محاولات مدحت للسيطرة على العشائر .
(٣) Blunt : Bedouin. I.P. 226.

بين عبد الكريم وفرحان . كان فرحان لا يتفاهم فقط مع الحكومة فى أمور العشيرة ، بل يتعاون معها على تعليم أولاد شيوخ عشائر الجربا تربية عثمانية فى مدرسة العشائر بالآستانة ، ووجدت السلطات العثمانية فى فرحان خير معين لها لتحقيق هذا الهدف ، ولخلق جيل من الزعماء العرب يدينون بتعليمهم للمدارس العثمانية، ويميل إلى الحضارة العثمانية ، ويتعامل بالتركية مع السلطات العثمانية . هذه الخطوات كما هو واضح تهدد كيان العشيرة تهديداً خطيراً(١) .

كان عبد الكريم قد انفصل عن مشيخة أخيه فرحان وأبى أن يتعاون معه أو مع الحكومة . وعند ما كانت الحكومة تفرض أموالاً على عشائر شمر الجربا بأسرها أبى عبد الكريم أن يطبق على عشائره أوامر حكومة بغداد ، وأخذ يتربص للحكومة لعله يجد فرصة سانحة ليحقق الهدف الذى جاهد من أجله أبوه وهو الاستقلال بجزيرة العراق . وفعلاً سيطر على أجزاء كبيرة من هذه المنطقة .

ولكن أخفقت محاولة عبدالكريم فى الاستقلال بالجزيرة العراقية ووقع فى يد قوات الحكومة ونفذ فيه حكم الإعدام . ولم يثن ذلك عزم عمشة عن متابعة خطتها الهادفة إلى إعادة وحدة عشائر شمر الجربا تحت قيادة أحد أولادها على الأسلوب نفسه الذى كان يتبعه صفوق . فبعد مصرع عبد الكريم فرت عمشة بولدها فارس وأولاد عبد الكريم إلى جبل شمر بنى عمومتهم . وأخذت ترضعهم لبان الكراهية للترك وتعدهم لليوم الذى تدفع بهم إلى العراق لاستعادة مجد آل محمد حكام عشائر الجربا(٢) .

فى هذه الظروف وصلت آن وزوجها ولفرد بلنت إلى العراق . وآل بلنت اشتهروا بأنهم عملاء وزراء الخارجية . ودور ولفرد بلنت W.Blunt معروف فى الثورة العرابية ووصول آن وولفرد إلى العراق وإلحاحهما الشديد فى الذهاب إلى جبل شمر وفى لقاء عمشة مغزى خاص فقد التقت

(١) Rassam to Bulever: (Sep. 28, 1863) F.O. 192-752.
(٢) زوراء : عدد ١٩٥ فى ٢٨ شعبان ١٢٨٨ هـ .

آن بلنت بعمشة ودرست عن قرب ظروفها ومدى كراهيتها للحكم العثمانى وقدرتها على أن تثير المتاعب فى وجه حكومة بغداد، وكان آن وولفرد بلنت يعملان على تقوية جانب العرب ضد الضغط العثمانى . وكانت الظروف مواتية لهذا النشاط البريطانى السرى . فقد رمت عمشة العثمانيين بابنها فارس ليستعيد مجد أبيه صفوق . واقتفى ولفرد بلنت أثر فارس وعقد معه صداقة قوية وآخاه وسدد ولفرد بلنت لفارس ديونه وأخذ يوجه له النصائح السياسية وكلها تحضه على عدم التفاهم مع العثمانيين مهما كانت العروض العثمانية . وكان جانب فارس فى ذلك الوقت قوياً لأن الروابط بين شمر العراق وشمر الجبل أصبحت قوية بدرجة لم تبلغها من قبل كما أن حلفاً كان قد شكل بين شمر الجربا وشمر الجبل وعشائر الدولة الشامية . ومعنى هذا أن هناك حلفاً عربياً فى سبيله إلى التكوين ويمكن استغلال مثل هذه الأحلاف لخدمة المصالح البريطانية وأغلب الظن أن آل بلنت لم يذهبوا إلى شمر الجبل إلا لعقد أواصر الصلة بهذه المجموعات العشائرية الكبيرة لتوجيهها إلى الوجهات التى تتلاءم مع السياسة البريطانية . ولذلك أخذوا يحرضون «فارس» على تجنب التفاهم مع السلطات العثمانية . ولكن حسين باشا قائمقام دير الزور كان من أصل عربى ويعرف كيف يتفاهم مع شيوخ العشائر وسعى إلى التفاهم مع فارس . ونجح فى إقناع فارس بالاتفاق مع الحكومة برغم المجهودات التى بذلها ولفرد بلنت لإقناعه بالعدول عن الاتفاق مع حسين باشا ، وكان آل بلنت يريدون من فارس أن يقتفى أثر أخيه عبد الكريم ليحقق لعرب الجربا استقلالهم . ولكن أخفقت مجهوداتهم فى هذه الناحية واتفق فارس مع حسين باشا (١٨٧٨)(١) .

ومع ما كانت عليه مجهودات العشائر المضنية فى سبيل المشاركة فى حكم العراق فإنها أخفقت فى تحقيق هذا الهدف واقتصرت على كف يد الحكومة عن التدخل فى أمور العشيرة الداخلية وهو كسب له قيمته من حيث إنه حفظ هذا الدم العربى نقياً بلغته وتقاليده العربية حتى الآن .

Blunt : Bed ouin. vol. I. pp. 319-336, vol. II. p. 7-11. (١)

وترجع الأسباب الرئيسية لإخفاق العرب فى إثارة حركة عربية عامة ضد العثمانيين حينذاك إلى أن العشائر العربية لم تعرف القيادة الموحدة المنظمة ، ولم تكن لديها وحدة الفكرة ولم تكن المثل العربية القومية قد تبلورت بعد لدى الزعماء ، وإنما كانت الدوافع العصبية أوضح لديهم من الاتجاهات القومية . كذلك أخفقت القيادات العربية فى تكوين جبهة موحدة لإثارة حركة عربية عامة لأن العشائر البدوية كانت لا تطيق حرباً طويلة ، وكانت أسباب العداء فيما بينها فرصة كبيرة للحكومة لضرب عشيرة بأخرى ، هذا إلى أن ضيق أفق شيوخ العشائر كان من العوامل الرئيسية التى جعلت مجهودات هؤلاء الشيوخ محدودة لا تتعدى مجموعة من العشائر فى منطقة معينة دون أن تتحول المجهودات إلى حركة عامة .

هذا فضلاً عن أن عدداً من الولاة الذين تصدوا لهذه الحركات العربية كانوا على مهارة كبيرة فى مواجهة الأزمات وكانت الإمدادات العسكرية مستمرة إلى الولاة ، والجيش السادس فى بغداد ينمو من وقت لآخر فى العدد والعدد ، وبينما كانت القوات العثمانية تزيد من مدفعيتها ومن بواخرها المسلحة ومن قواعدها العسكرية وحامياتها كانت القوات العشائرية تحت قيادات ارتجالية ، تكر وتفر والأسلحة النارية قليلة لدى رجالها ، وتعتمد إلى حد كبير على الموانع الطبيعية التى تحول دون زحف الجيوش كالأهوار والصحارى .

ونظرة سريعة على كل تلك الحركات العربية السياسية والعسكرية والفكرية الهادفة إلى التخلص من الحكم العثمانى وأساليبه تؤكد لنا أن العرب وإن كانت لديهم هذه الفكرة إلا أنها لم تتحول إلى حركة عامة ضد العثمانيين . كانت هناك فرصة لقيام مثل هذه الحركة العامة عندما اتصل صفوق شيخ عشائر شمر الجربا بالقيادة المصرية وعندما عمل ثوار بغداد ١٨٣٢ على عزل على رضا فنجاح تلك الحركات كان سيؤدى إلى انقلاب كبير لصالح القضية العربية .

المراجع

(أ) المراجع العربية والتركية والفارسية :

١ ـ الوثائق غير المنشورة .

٢ ـ الصحف .

٣ ـ الكتب والمؤلفات .

(ب) المراجع الأوروبية :

١ ـ الوثائق غير المنشورة .

٢ ـ الوثائق المنشورة .

٣ ـ المؤلفات .

٤ ـ الرحلات .

المراجع العربية والتركية والفارسية

وثائق غير منشورة

عربية و تركية

(ا) الدار الأهلية للوثائق السرية والمحفوظات التاريخية :

دفتر مجلس ملكى : ١٥٦

خديو تركى : دفتر ٧٨٧ ، ٨١٣

بحراً براً : ١ ، ٣ ، ٤ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٦ ، ١٧

معية تركى : ٥ ، ٢٩١ ، ٧٣٢ ، ٣١ ، ٣٠ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٦٧ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٠ .

(ب) دفتر ١– ٧ : ٩ – ١٠ – ١١ – ١٣ – ١٤ – ٢١ – ٢١٠ – ٢١١ – ٢١٢ – ٢١٤ – ٢٢٢ ه

محفظة عابدين : ٢٣١ – ٢٣٩ – ٢٤٢ – ٢٤٥ – ٢٤٩ – ٢٥٠ – ٢٦٧

المؤلفات

مؤلفات تحت الطبع

عبد العزيز سليمان نوار :

داود باشا والى بغداد

١٨١٦ – ١٨٣١ : المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . القاهرة ١٩٦٧

الصحف والمجلات

الجوائب : لصاحبها أحمد فارس الشدياق

لغة العرب : لصاحبها انستاس مارى الكرملى

زوراء : كانت تصدرها ولاية بغداد من ١٨٦٩ حتى ١٩١٤ باللغتين العربية والتركية حتى ١٩٠٨ ثم بالتركية منذ ذلك التاريخ ؛

مراجع تركية

– خليل خالد بك

العرب والترك . مطبعة الهداية . مصر .

رسالة باللغة العربية والتركية ترجمها إلى العربية عمر رضا .

– خورشيد باشا : سياحتنامة حدود :

كلف السلطان عبد المجيد كلا من درويش باشا ومحمد خورشيد باشا تحديد الحدود ودراسة طبائع الأهالى ومحال سكنهم والمحصولات الزراعية والإنتاج الصناعى فى مناطق كرستان والعراق .

– درويش باشا :

تقرير درويش باشا . أصدرته حكومة العراق .

– رفعت باشا :

منتخبات آثار . تنظيمات خيرية دائر ممالك محروسة به كوندريلان فرمان عالنيك صور تيدر رفعت باشا مرحوم خارجته لغنده قلمه المشدر .

الكتاب عبارة عن مكاتبات رفعت باشا عند ما كان يعمل فى الإدارة السياسية لحوض البحر المتوسط الشرقى وتضمنت مكاتباته ومذكراته بعض الإشارات عن أحوال العراق .

– رفعت ثريا :

قاتلو مدحت – تعريف كامل راضى سنو . طبع ونشر مكتبة الاتحاد العثمانى بيروت ١٣٢٥ .

– سالنامه ١٣٠٨ استانبول دار الطباعة العامرة .

– سالنامه قمرى لسنة ١٢٩٧ هـ .

ترتيب أبى الضياء توفيق استانبول مهران مطبعة سى ١٢٩٧ هـ حجاز

– ولايتى سالنامه سى لسنة ١٣٠٥هـ ؛ ترتيب محمد عارف (قائمتان والى جده (العدد الثالث دفعة ثالثة) مكة المكرمة ١٣٠٥ هـ .

– سالنامه سنة ١٢٨٠ هـ

استانبول . دار الطباعة العامره ١٢٨٠ هـ .

سالنامه دولت عثمانية ١٣٢٠ إصدار دار الطباعة العامره . دار سعادت ١٣١٨ رومية ؛ ؛

– قوانين :

قوانين ونظامات ومقررات مالية مجموعة سى ٣ (أجزاء)

– كامل باشا :

تاريخ سياسى دولت عليه عثمانية تأسس دولت عليه دن جنتمكان سلطان عبد المجيد خانك أواخر سلطنه قدر كذران ايدن زمانه عائد در . مطبعة أحمد إحسان ١٣٢٧ هـ .

المؤلف كان صدراً أعظم وهو على نظام الحوليات . ويهمنا منه الجزء الثالث الذى تحدث فيه عن النزاع بين محمد على والسلطان والدور الذى لعبه تركجة بيلمز وحملة خورشيد صوب الخليج العربى والعراق ؛

– لطفى :

تاريخ لطفى . ثمانية أجزاء – الآستانة (ينتهى بحوادث ١٢٦١ هـ)

– مصطفى ناظر دفترخاقانى :

نتائج الوقوعات . فى أربعة أجزاء . الطبعة الثانية . استانبول ١٣٢٧ هـ

يهمنا منه الجزء الرابع فيما يتعلق بالنزاع بين السلطان ومحمد على وعلاقة ذلك بالعراق ؛

– معاهدات :

دولت عليه ايله دول متحابه بينلرنده تيمنا منعقد أولان معاهدات عتيقة وجديدة دن مأمورين سلطنت سنيه مراجعتى لازم كلان فقرات عهدية بى متضمن رساله در

المطبعة المصرية : بولاق ١٢٨٦ هـ ؛

المراجع الفارسية

— تقى خان لسان الملك (ميرزا) :

ناسخ التواريخ (تاريخ قاجاريه از مجلدات ناسخ التواريخ) حوادث يكذار ودييست وينجاه ويك (١٢٥١ هـ) .

المجلد الأول عن فتح شاه .

المجلد الثانى عن تاريخ محمد شاه ؛

المجلد الثالث عن تاريخ ناصر الدين ياد شاه طبع ١٣١٩ .

كتبه محمد على بن محمد على جواد تبريزى فى شعبان ١٣١٩ — الكتاب يتبع نظام الحوليات وهو فى طريقته يشبه إلى حد ما تاريخ جودت .

— سيد أحمد كروى تبريزى

تاريخ يانصد رساله خوزستان . طهران ١٣١٢ هـ — ١٩٣٦ م .

الكتاب يعطى تاريخ ٥٠٠ سنة الأخيرة لخوزستان (عربستان) حتى أصبحت تحت الحكم الإيرانى المباشر . بدأ كتابه بعهد إمارة المشعشعين فى أوائل القرن التاسع الهجرى (القرن الا ابع عشر الميلادى) ويمتاز بأنه اعتمد على عدد من المصادر الفارسية الأصلية المعاصرة التى نستطيع الحصول عليها وبذل الرجل مجهودا كبيرا فى إخراج الكتاب إلا أن مجهوده منصب على وجهة النظر الفارسية لتاريخ خوزستان وإلى جانب مراجعه الفارسية اعتمد على عدة مراجع إنجليزية هامة ، يقتبس منها ما يؤكد تبعية ع بستان لإيران وهو لايضيف كثيراً إلى المادة التى جمعناها عن عربستان منذ الثلث الثانى للقرن التاسع عشر ومراجعه هى نفسها المراجع الإنجليزية التى اعتمدنا عليها وعلى الأخص مؤلفات وكتاب لوريمر Lorimer وسياحتنامه حدود لدرويش باشا ؛

— محمد فرياد معتمد .

تاريخ روابط سياسى إيران عثمانى . جلد دوّم .

إن انتشارات كتابخانه ابن سينا . جاب اتحاد (بدون تاريخ) ؛

— مقاله :

مقاله شخصى سياح كه‌در قضية باب نوشته است .

مراجع عربية

أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود أفندى الآلوسى :

غرائب الاغتراب ونزهة الألباب (طبع بغداد سنة ١٣٢٧ هـ) .

أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود أفندى الآلوسى :

نشوة الشمول فى السفر إلى اسلامبول .

وقد تم تأليف هذا الكتاب فى ١٢٨٩ هـ – ١٨٧٢ م وطبع بمطبعة ولاية بغداد فى ١٢٩١ هـ – ١٨٧٣ م .

أبو الثناء محمود أفندى آلوسى زاده :

نشوة المدام فى العودة إلى مدينة السلام .

الرجل فى كتابه هذا يصف الناس والعادات والمدن والقرى ، والباخرة وقد وصل بغداد يوم ٥ من ربيع الأول ١٢٦٩ هـ ولكنه لم يشر إلى سبب سفره إلى الآستانة .

أبو الحسن على الندوى :

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (مكتبة دار العروبة . القاهرة الطبعة الرابعة ١٩٦١ – ١٣٨١) .

أحمد تيمور باشا :

اليزيدية . الطبعة الثانية القاهرة ١٣٥٢ هـ .

أحمد حامد الصراف :

الشبك من فرق الغلاة فى العراق . أصلهم . لغتهم . قراهم . عقائدهم . أوابدهم . عاداتهم . (مطبعة المعارف بغداد ٩٥٤ م – ١٣٧٣ هـ) .

أحمد سوسة :

وادى الفرات ومشروع سدة الهندية الطبعة الأولى – مطبعة المعارف – بغداد ١٩٤٥ .

يبحث عن تاريخ الفرات ونطورات مجراه الرئيس وتحليل مشروعاته الفنية ومعالجة مشكلاته منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر .

أحمد الشقيرى :

قضية عمان فى الجمعية العامة للأمم المتحدة . أصدره مكتب إمامة عمان القاهرة ١٩٦١ م .

نص خطاب السيد أحمد الشقيرى المندوب الدائم للمملكة العربية السعودية فى الأمم المتحدة والذى ألقاه فى الجمعية العامة دفاعاً عن قضية إمامة عمان .

أحمد عبيد :

مشاهير شعراء العصر فى الأقطار العربية الثلاثة مصر وسورية والعراق (الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٢٢ م . مطبعة التركى) .

أحمد على :

آل سعود . مكة المكرمة ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م .

دراسة سريعة لآل سعود منذ نشأتهم حتى عهد عبد العزيز آل سعود وهى دراسة تبين وجهة النظر السعودية فى تاريخ نجد .

أنستاس مارى الكرملى :

لغة العرب – مجلة بغدادية صدرت منذ ١٩١١ وهى تحتوى على عدة مقالات موجودة بمكتبة القلعة وبمكتبة تيمور . وصاحبها أنستاس مارى الكرملى من كبار المشتغلين بتاريخ العراق وله مؤلفات عدة .

إسماعيل باشا بن محمد أمين سليم البابانى :

إيضاح المكنون فى الذيل – على كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون بغداد – المطبعة البهية – ١٩٤٥ – ١٣٦٤ .

جعفر بن الشيخ باقر آل محبوبة النجفى :

ماضى النجف وحاضرها — مطبعة العرفان — صيدا — سنة ١٣٥٣ ه .

حافظ وهبة :

جزيرة العرب فى القرن العشرين . الطبعة الأولى ١٩٣٥ م — ١٣٥٤ ه.

حسنين مخلوف :

القرآن الكريم ومعه صفوة البيان لمعانى القرآن جزءان .

حسين بن غنام :

تاريخ نجد (روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام ومقدار غزوات ذوى الإسلام حرره وحققه د . ناصر الدين الأسد . قابله على الأصل عبد العزيز محمد بن إبراهيم آل الشيخ مطبعة المدنى . المؤسسة السعودية بمصر . الطبعة الأولى ١٣٨١ — ١٩٦١ .

د . خليل صابات :

تاريخ الطباعة فى الشرق العربى (مكتبة الدراسات التاريخية) دار المعارف القاهرة ١٩٥٨ .

داود السعدى :

طريق الحج من الإحساء إلى الرياض فالحجاز — المؤلف كان مفتى العسكر فى الإحساء طبعت رسالته فى مطبعة الزوراء ١٢٨٩ — ١٨٧١ م ثم أعيد طبعها فى لغة العرب وقد سافر مع القائد نافذ باشا فقرب نافذ باشا بحنكته ابن سعود إلى جانب الدولة العثمانية .

ديولافوا (مدام) :

رحلة مدام ديولافوا — إلى كلدة — العراق ١٨٨١ م — ١٢٩٩ ه
نقلها إلى العربية عن الفارسية على البصرى — راجعها ووضع التقديم الدكتور مصطفى جواد بغداد ١٩٥٨ — ١٣٧٧ ه

رضا ظاهر زين :

العراقيات — جزء أول — وهو مختار من شعر عشرة سفراء من مشاهير

سفراء العراق — طبع بنفقة جامعية — رضا وظاهر وزين — صيدا سنة ١٣٣١ ه .

روفائيل بأبو إسحق :

تاريخ نصارى العراق — انتشار النصرانية فى الأقطار العراقية إلى — أيامنا مطبعة المنصور — بغداد ١٩٤٨ .

روفائيل بطى :

تاريخ الصحافة فى العراق — محاضرات ألقيت على طلبة قسم الدراسات الأدبية اللغوية ١٩٥٥ القاهرة ١٩٥٥ بمعهد الدراسات العربية العليا .

ريدربولارد :

بريطانيا والشرق الأوسط من أقدم العصور حتى ١٩٥٢ — ترجمة حسن أحمد السمان بغداد ١٩٥٦ . دراسة سريعة للعلاقات بين بريطانيا وبلاد الشرق الأوسط .

دكتور زكى صالح :

موجز تاريخ العراق . منشأ النفوذ البريطانى فى بلاد ما بين النهرين — الطبعة الأولى ١٩٤٩ — بغداد .

زينى دحلان :

خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام لزينى دحلان — طبعة مصر ١٣٠٥ ه

ستون وليامز :

وادى الرافدين — موجز تاريخ العراق منذ أقدم العصور حتى الآن — نقله إلى العربية طه باقر وبشير فرنسيس .

سعاد العمرى :

بغداد كما وصفها السواح الأجانب فى القرون الخمسة الأخيرة . بغداد ١٩٥٤ .

سليمان البستاني :

عبرة وذكرى . أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده . مطبعة الأخبار – أكتوبر ١٩٠٨ . الكتاب ألف تخليداً لذكرى مدحت باشا وتخليداً لحركة الاتحاد والترقي .

سليمان الدخيل :

تحفة الألباء في تاريخ الأحساء – المؤلف نجدي اشتغل بالصحافة في العراق أصدر سنة ١٩٠٩ جريدة الرياض هناك وأشرف على طبع « عنوان المجد في تاريخ نجد والفوز بالمراد في تاريخ بغداد ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب وله مقالات عديدة في مجلة لغة العرب . وسليمان على صلة نسب بآل سعود وآل رشيد .

سليمان صايغ :

تاريخ الموصل – جزءان . مصر ١٩٢٣

سليم قبعين :

عبد البهاء والبهائية . القاهرة .

سيد نوفل :

الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي معهد الدراسات العليا العربية ١٩٦٠ .

شركة الزيت العربية الأمريكية :

عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي . القاهرة ١٩٥١

صديق الدملوجي :

إمارة بهدينان أو إمارة العمادية . يبحث عن حياة الأكراد التاريخية والسياسية والاجتماعية في بهدينان . ومايتعلق بهم من أخبار وحوادث . حقوق الطبع محفوظة ولا يجوز النقل والاقتباس – طبع في مطبعة الاتحاد الجديدة بالموصل سنة ١٣٧٢ هـ – ١٩٥٢ م .

صحيفة الزوراء :

كانت تصدر منذ أيام مدحت بالعربية والتركية حتى إعلان الدستور عندما صدرت بالتركية فقط فساء ذلك أهل العراق فعادت إلى الظهور بالتركية والعربية مرة أخرى ابتداء من العدد ٢٤١٨ الصادر في ٧ من شعبان ١٣٣١ – ١٢ من يوليو ١٩١٣ م(١) .

صلاح الدين المختار :

تاريخ المملكة العربية السعودية وماضيها وحاضرها – منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت . المؤلف من المتحمسين للحركة السعودية الأخيرة ولذلك ظهر في كتابه هذا الميل الواضح لآل سعود ويهمنا الجزء الأول فهو يشمل تاريخ آل سعود من عهد جدهم الأعلى مانع المريد حتى عهد عبد الرحمن ابن فيصل آل سعود .

عباس العزاوي :

١ – تاريخ العراق بين احتلالين ثمانية أجزاء بغداد .

٢ – عشائر العراق – أربعة أجزاء . بغداد .

٣ – تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم . بغداد .

٤ – مجموعة عبد الغفار الأخرس في شعر عبد الغني جميل بغداد .

عبد الرحمن الرافعي :

عصر محمد علي – مكتبة النهضة . الطبعة الثانية – ١٣٦٦ هـ – ١٩٤٧ م القاهرة .

عبد الرحمن العمري :

الترياق الفاروقي . مطبعة الشيخ عثمان الموصلي ١٣١٦ هـ – ١٨٩٨ م

عبد الرازق الحسني :

تاريخ الصحافة في العراق . بغداد .

الصابئة قديماً وحديثاً . بغداد :

عبد الرازق الحصان :

ربيعة العراق — القسم الأول . بغداد ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٧ م .

عبد الرحمن السويدى :

حديقة الزوراء فى سيرة الوزراء (مخطوط بدار الكتب بالقاهرة) .

عبد الحسين أواره :

الكواكب الدرية فى مآثر البهائية .

عبد العزيز الرشيدى :

تاريخ الكويت — القسم الأول ج ١ ، ج٢ — المطبعة العشرية ١٩٢٦ م — ١٣٤٤ هـ .

عبد الغفار الأخرس :

الطراز الأنفس فى شعر الأخرس . نشرة عزت الفاروقى — القاهرة.
الكتاب عبارة عن ديوان شعر الأخرس جمعه عزت الفاروقى ابن أخى عبدالباقى العمرى الشاعر العراقى المعروف . ويبدو أن الأخرس لم يستطع أن يدون بصراحة كل أشجانه ومجموعة عبد الغفار الأخرس فى شعر عبد الغنى جميل توضح وتبين أهم اتجاهات عبدالغنى جميل والأخرس السياسية وما كان الأخرس ليستطيع أن يصرح بالشعر أو بما يعتمل فى صدره من ضيق من الحكام .

عبد الفتاح الشواف :

حديقة الورود . فى تاريخ محمود أبى الثناء الآلوسى . الذى كان من مفتى بغداد . ألف الكتاب فى حياة أبى الثناء محمود الآلوسى . وتوفى ١٢٦٢ — ١٨٤٥ م فأكملها أمين الفتوى بن بكتاش حتى نهاية المجلد الأول ، ثم كتب نعمان خير الدين الآلوسى الباقى . وأشرك أبا الثناء نفسه فى تأليف هذا الكتاب . الجزء الأول من هذا المخطوط بمكتبة طلعت والثانى بمكتبة تيمور.

عبد الفتاح محمد الحلو :

شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر — الطبعة الأولى دار العروبة — القاهرة ١٣٧٩ هـ — ١٩٥٩ م .

عبد القادر الخطيبى الشهربانى :

تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد . عنى بنشره الأب أنستاس مار الكرملى — دار الطباعة ١٩٣٦ .

على ظريف الأعظمى :

مختصر تاريخ بغداد — مطبعة الفرات ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٦ م . وله كذلك مختصر تاريخ البصرة .

عيسى ميخائيل سابا :

الشيخ ناصيف اليازجى — دار المعارف . (نوابغ الفكر العربى ٦) ، القاهرة .

الدكتور فاضل حسين :

مشكلة الموصل — دراسة فى الدبلوماسية العراقية — الإنجليزية — التركية — وفى الرأى العام — بغداد ١٩٥٥ . وهى رسالة دكتوراه تقدم بها لجامعة أنديانا فى ١٩٥٢ م

فيليب وفريد الخازن : (معربان) :

مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان ١٨٤٠ — ١٩١٠ المجلد الثانى من كانون — تشرين الأول ١٨٦٠ — مطبعة الصبر ١٩١١ جوينه .

قسطاكى حمصى :

أدباء حلب ذوو الأثر فى القرن التاسع عشر — دمشق .

كويلرينج :

الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته . ترجمة د. عبدالرحمن محمد أيوب —

راجعه الدكتور أبو العلا عفيفي والدكتور محمد محمود الصياد . مشروع الألف كتاب — دار النشر المتحدة .

لودر : ج . د . ف :

القول الحق فى تاريخ سورية وفلسطين والعراق . تعريب نزيه المؤيد العظم . طبع دمشق ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٥ م .

لوشر :

الكويت عام ١٨٦٨ . ترجمة عبد الله ناصر الصانع — ترجم الجزء المتعلق بالكويت من الكتاب وهو صغير

لويس شيخو :

الطباعة فى الشرق : انظر. مجلة المشرق : ج ٢ : ص ٧٨ — ٨٥ — ٣٥٥ — ٣٦٢ تاريخ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر .

محب الدين الخطيب :

اتجاه الهجرات البشرية فى جزيرة العرب . بحث تاريخى فى الهجرات العربية منذ ستة آلاف سنة إلى العراق والشام خاصة والبلاد السامية عامة وفى أن أصل الكلدانيين والفينيقيين من العرب القاهرة ١٣٤٤ هـ — المطبعة السلفية .

محمد أمين زكى :

١ — تاريخ السليمانية . طبع بغداد .

٢ — تاريخ الإمارات الكردية بغداد .

٢ — مشاهير الكرد وكردستان — ترجمة كريمة وراجعه محمد على عونى — مطبعة السعادة ١٩٤٧ .

محمد أمين فكرى بك :

رسالة تشتمل على جدولين محررين بقلم حضرة محمد أمين فكرى بك حدهما عبارة عن تواريخ بعض وقائع مشتهرة من مبدأ الخليقة إلى سنة

١٢٨٦ هـ من الهجرة ثانيهما فى بيان أسماء ملوك آل عثمان وذكر تاريخ ولاداتهم وجلوسهم ووفياتهم ومدد سلطنتهم وأعمارهم ومدافنهم بالتفصيل بالبيان .

محمد بهجت الأثرى :

أعلام العراق — كتاب تاريخى أدبى انتقادى يتضمن سيرة الإمام الآلوسى الكبير وتأبين العلماء والأدباء وتراجم نوابغ الآلوسيين — تصنيف محمد بهجة الأثرى ١٣٤٥ هـ — المطبعة السلفية — القاهرة .

محمد رشيد السعدى :

قرة العين فى تاريخ الجزيرة والعراق والنهرين — تأليف محمد رشيد داود سعدى — مطبعة الرشيد — بومبى ١٣٢٥ هـ .

محمد رضا الشبيبى :

النهضة الأدبية فى العراق — بحث ألقى فى مؤتمر المجتمع (الجلسة الخامسة — ٢٠ — ١٢ — ١٩٤٨) ومنشور فى مجلة مجتمع اللغة العربية العدد السابع — مطبعة المعارف ١٩٥٣ .

محمد صالح السهروردى :

لب الألباب — بغداد ١٩٥١ هـ — ١٩٣٣ م .

محمد صادق الحسينى :

عمران بغداد — تأليف — محمد صادق الحسينى بغداد ١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م .

محمد عبد الله ماضى :

النهضات العربية الحديثة فى جزيرة العرب القاهرة ١٩٥٠ .

محمد بن عبد الوهاب (الإمام شيخ الإسلام) :

كتاب كشف الشبهات فى التوحيد . المكتبة السلفية ومطبعتها بالقاهرة ١٣٧٥ هـ .

محمد فاضل :

الحراب فى صدر البها والباب . القاهرة .

محمد المهدى البصير :

تاريخ القضية العراقية — مطبعة الفلاح — بغداد — ١٣٤٣ هـ : ١٩٢٣م

محمد مهدى الموسوى الأصفهانى :

أحسن الوديعة — أوتلقين روضات الجنات — جزءان — مطبعة النجاح — بغداد .

محمود شكرى الآلوسى :

١ — المسك الأذفر — بغداد . ٢ — تاريخ نجد . بغداد .

٣ — تاريخ مساجد بغداد . بغداد ١٣٤٦ هـ .

محمود الآلوسى : انظر أبوالثناء

مدحت باشا : مذكرات مدحت :

تعريب كمال باك حتانه — الطبعة الأولى — مطبعة هندية — يقول على حيدر — وهو ابن مدحت باشا وناشر مذكرات أبيه — إن هذه المذكرات هى « تبصره عبرت » وإن أباه كتب هذه المذكرات فى السجن من ثلاث نسخ دون أن يدرى أنه بذلك فى سجنه فى الطائف ومن هذه النسخ نسخة وقعت فى الطائف حتى أعلن الدستور العثمانى سنة ١٨٠٨ م . ونحن نقف عند هذه النقطة لخطورتها نظراً لأن بعض المعلومات التى وردت فى هذه المذكرات والتى وردت فى كتب أخرى نشرها على حيدر على لسان أبيه تتضمن من الأخطاء التاريخية الشاذة ما يجعلنا نشك فى أن كل ماكتب كان بخط مدحت وإنما صور على حيدر كثيراً من آمال أبيه وأعماله وأقحم خلال ذلك بعض آمانه وأهدافه مما لايتفق وواقع الأمور حينذاك على أن مدحت يعتذر عن وجود بعض الأخطاء لافتقاره الشديد للوثائق الرسمية ، ولكن أن يدعى مدحت أن البحرين ضمت إلى متصرفية الأحساء فهذا ما لا أتهم مدحت به وإنما أتهم ابنه فى هذا التحريف .

ثم إن على حيدر نفسه يقرر فى مقدمة كتابه عن أبيه Life of Midhat أنه قاسى كثيراً من النفى حتى بارح أرض السلطان إلى بلاد الإنجليز وأنه شعر بضرورة تعريف الإنجليز بتاريخ حياة أبيه وأنه اعتمد فى عمله هذا على الوثائق والمذكرات التى تركها والده ولكنه لم ينشر بعض الوثائق التى يعتقد أنها قد تسبب حرجاً فى ميدان السياسة الدولية ومن ثم يتضح لنا أن على حيدر تصرف فى استخدام ما لديه من وثائق وفق الظروف السياسية التى كانت تكتنفه ولعل هذه الظروف هى التى جعلته يخرج النسخ الإنجليزية من تاريخ حياة مدحت بشكل يختلف فى بعض النقط اختلافاً جوهرياً عن النص الفرنسى .

ميشيل حكيم :

تقرير عن أحوال الدولة العلية — مرفوع إلى رب السيف والقلم دولة المشير الخطير مختار باشا الغازى — طبع فى مصر ١٨٩٥ م .

ميكوش د . :

عبد العزيز (آل سعود) . القاهرة .

نابليون الماردينى :

تنزه العباد ، مدينة بغداد — بيروت — ١٨٨٧ .

نور الدين عبد الله بن حميد السالمى :

تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان . (جزءان) . قام بطبعه وتصحيحه « أبو إسحاق إبراهيم أطفيش الجزائرى الميزابى : القاهرة — المطبعة السلفية ١٣٤٧ هـ .

نوفل عبد الله نوفل (مترجم) :

الدستور — جزءان — بيروت . (١٣٠٠ هـ) .

يحيى الخشاب :

الكرد وكردستان — القاهرة ١٩٥٨ — دراسة لطيفة عن أصل الكرد

الكرد ثم عن المشكلة الكردية منذ مطلع القرن العشرين وعلاقة ذلك بمشكلة الموصل وضمها إلى العراق ، وأهداف الكرد فى أن تكون لهم دولة مستقلة وما ترتب عن ذلك من ثورات دموية فى كردستان .

يعقوب سركيس :

مباحث عراقية : فى الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد الخ . جزءان وهو المباحث المنشورة فى جملة لغة العرب من سنة ١٩١٢ ، ١٩١٤ ، ١٩٢٧ ، ١٩٣١ — بغداد ١٢٦٧ هـ — ١٩٤٨ م .

يوسف كركوش الحلى :

مختصر تاريخ الحلة — مطبعة العرفان — صيدا — سورية .

Abreviations

Conf — Confidential

Enclos - Sec. Ltrs. Rsvd. — Enclosures to Secret Letters Received

F.O. — Foreign Office.

Hans. Parl. Deb. — Hansard Parliamentary Debates.

Home Corresp. = Home Correspondence.

I.O. — India Office.

Ind. O.R.,F.R., P.P.G. — India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gulf.

Parl. Pap. — Parliamentary Papers.

Per. G. = Persian Gulf.

Per. G. Trk. Jurd. Alg. Arb. Cst. = Persian Gulf Turkisk Jurisdiction Along the Arabian Coast.

Pol. & Ext. Files — Political and External Files.

Pol. & Sec. Dept. Recs. — Political and Secret Department Records.

Pol. & Sec. Lib. — Political and Secret Library.

Sec. Comm = Secret Committee

Prec. = Precis.

Trk. Arb. — Turkish Arabia.

المراجع الأوربية

وثائق غير منشورة

A. Common wealth Relations - India Office

1. Factory Records, Persia & Persian Gulf, Letters From Persia to the secret Committee. Vols. 46-130. (1830-1874).

2. Political & Secret Department Records :

   Secret Letters Recieved From Constantinople, Turkey Persian Gulf, Political Agents in Turkish Arabia & Muskat. Vol 10-21 of the Years 1843-1872.

   Secret Home Correspondence vols. 1,3-6, 9-10, 26-28, 40-41, 49-50, 53a, 68-69, 111,197, of the years 1895-1901.

   Political & Secret Letters to the Persian Gulf, Vols. 1-6 (1859-74)

   Political Home Correspondance Vol. 1,3,25 of the years 1859, 1869, 1860.

   Enclosures to Bombay to Secret Department to all presidencies 1846,1847,1845. Vols. 41-43.

   Enclosures to secret letters received From Bombay; Vols. 1,15-19 of the years 1839-1840, Vols. 127 of 1856, Vol. 128 of 1857.

3. Political & Secret Library :

   Persian Gulf Jurisdiction aparts 1879-84.
   « « Garrison Bedaa.
   « « Limits.
   Claims of the Euphrates & Tigris Navigation. 1881.
   Koweit 1896-1903.
   Saldanha : Precis of Turkish Arabia Affairs 1801-1905.
   « « « Commerce in Persian Gulf; 1906.
   Turkiah Persian Frontiers.

4. Political & External Files :

Bagdad Railway, Turkish Arabia, Koweit, Aden, Bahrein Situation Persian Peracy.

B. Foreign Office

1. Turkey : F.O. 78 :

   210-212, 229,234, 236-7, 240,251-258, 262-3, 289,291-3, 312-6, 319,341,371,410,413,442-3, 447-9, 475,478,9,500, 517,521-2, 533,543, 558,593,595, 597-8, 637-640, 642-646, 647, 678-688, 702-4, 713,725, 725-733, 753,768, 772-779, 802,825,828,855, 857,861,888,893,89L, 895,907,957, 1018,1115, 1175-6, 1179, 1212,1275,1296, 1353,1357, 1359, 1360-2, 1422-4, 1506-8, 1513,1536,1604,1652-5, 1733,1768, 1911,1957,1969,1961,2019, 2021,2, 2076-79, 2120-5, 2174-7, 2187, 2224, 2265-73, 2299, 2329,2382,2384,2391,

2. Turkey : F.O. 195 :

   109,113-6, 121, 1290130, 148, 155-165, 180,204,206.224,237, 109-113-6, 121,129-130, 148,155-165, 180,204,206,224,237, 239, 252,272,286,298,301, 308, 18,334,366,367,388,394,413, 554-5, 577,603,676,717,728,796,803a, 803,939, 949,951,957, 8,971-2, 986-8,996,1119,1620,1021,1067,1142,1188,.

3. Persia : F.O. 60 :

   38,41,44,46,50,58,67,69,73,87,90,92,133,147,156,158.

4. Confidential Prints : Turkey : F.O. 424 : 7 B 7 C 7 d

وثائق منشورة أوربية

Aitchison. C

A Collection of treaties, engagements & sanads relating to India & Neighbouring Countries 12 Vols. Culcutta 1892.

Gabriel. Lieut.

Persian Gulf Gazetter Pt. 1. Historical & Political Materials. Precis on Arm Trade in the Persian Gulf.

Hansard's Parliamentery Debates forming a continuation of the work edite (The Paliamentary History of England. New serias.

Gooch & Temperley.

British documents on the origins of the warl. 1898-1914. London 1938.

Hurewitz. J.

Diplomacy in the Near & Middle East. 2 Vols. N.W. 1908.

Lorimer : J. G.

Gazetteer of the Persian Gulf Vol. I ; Parts I-II. Culcutta. Superintendent Government Printing India. 1951.

Nourandounghian. G.

Recuil d'actes Internationaux de l'Empire Ottoman 4 TOMES Paris. 1897-1903.

Parliamentary Papers :

Annual List & General Index of the parliamentary papers relating to the East India Company His Maj's Stationary Office. 1909 Euphrates Expedition 1837-1838. Vol. XLIII of 1837.

المراجع الأوربية

١ ـ المؤلفات

Aali Pacha

Les Hommes d'Etat de la Turquie. Aali Pacha et Fuad Pacha.

Adamiyat, F.

Bahrein Islands. A Legal and Diplomatic Study of the British Iranian Controversy. (New York, 1955).

دراسة قانونية عن النزاع الأنجلوفارسي حول البحرين مع عرض تاريخي للموقف فى القرن التاسع عشر وعلاقة الغرب بهذا النزاع .

Aldington :

Lawrence of Arabia London 1955.

Ali Haidar Midhat,

Souvenir de mon Exile Volontaire. Geneve. 1905.

The Life of Midhat Pacha. London 1905.

قضى على حيدر (١٥) سنة منفياً فى أزمير قاسى خلالها الكثير من الآلام ثم غادر بلاده إلى بريطانيا . وقال إنه شعر بأهمية تعريف الإنجليز بأبيه ودوره فى توجيه سياسة بلاده ، وقال إنه اعتمد فى كتابة هذا على الوثائق والمذكرات التى تركها والده وقال أيضاً إنه لم ينشر بعض الوثائق لأنه يعتقد أنها قد تسبب حرجاً فى ميدان السياسة الدولية . وقال أيضاً إنه حاول أن يضفى على الترجمة الإنجليزية للوثائق التركية نفس الرداء الذى يحس به عند قراءة النص التركى .

وأراد فى كتابه هذا أن يشرح أسباب تدهور الدولة على يد عبد الحميد الثانى انظر

The Life of Midhat. Pref. VII-VIII.

Midhat Pacha. Paris, 1908

Andrew, W.P.

Indian Railways as connected with British Empire in the East. 4th. Ed. London 1884.

Csind Railway and its relation to the Euphrates Valley. London. 1856.

Andrew, W.P.

The Euphrates Valley Railway. London, 1840.

Annuaire Diplomatique de l'Empire Ottoman. Constantinople. 1872.

The Arabian Peninsula.

A Selected, Annotated List of Periordicals

Books and Articles in English

Prepared under the Direction of the Near East

Section, Division of Diventaba

وقد صدرت معها نشرة بعنوان ايران Iran

Arnold, A.

Through Persia By Caravan. 2 Vols. Tinsley Brothers. London. 1877.

رحلة قام بها السيد أرنولد وزوجته من لندن فى صيف ١٨٧٥ إلى روسيا ثم إلى فارس واجتازا بحر قزوين إلى فارس فوصلا إلى نهايته الفارسة فى أكتوبر ١٨٧٥ ثم عبرا فارس من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ليصلا إلى الخليج العربى فى فبراير ١٨٧٦ وفى مارس كانا فى بومباى وفى أبريل فى الإسكندرية .

والجرء الثانى من هذه الرحلة هو الذى يهمنا لما فيه من معلومات عن العراق لها أهميتها .

Asaad Rustum,

The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria. 1831-41. Berut, 1936.

The Struggle of Mehemet Ali with Sultan Mahmud II. 1926.

Asiatic

The Asiatic Quarterly Review. Edited by : Demetrius Boulger Vol. I. January-April, 1886. London.

Assissinate

Assissinat de Midhat Pacha. Geneve 1898.

من وثائق تركيا الفتاة نشرتها جمعية الاتحاد والترقى . جنيف ١٨٩٨ م ؟

d'Avrile A.

La Golfe Persique, route de L'Inde. et de Chine. Paris 1908

تعرض للعلاقات الأنجلو الفارسية فى الخليج العربى.

D'Avrile, Adoulphe

L'Arabie Contemporaire avec la Description du Pelirenage de la Mecque et une Nouvelle Carte Geographique de Kiepert. Paris. 1868.

كان المؤلف يشغل منصب قنصل فرنسا العام فى رومانيا . وقد تحدث عن أحوال جزيرة العرب عند غزوة خورشيد باشا للشواطى الشرقية للخليج العربى . وتعرض لبعض حوادث آل سعود.

Les Hierarchie Orientales.

Extrait de la «Revue d'Histoire Diplomatique» Paris. 1901

به بعض معلومات عن النساطرة . توزيع الكنائس المسيحية .

Badger, G.P.

The Nestorians and their Rituals, with the Narrative of a Mission to Mesopotamia and Coordistan in 1842-1844 and Late visit to those Countries in 1850 ; also Researches into the Present Condition and an Inquiry into the Religious Tenets of the Yezeedees. 2 Vols., London. 1852.

On of the East Indian Comp.'s Chaplains in Ducese of Bombay.

وكان المؤلف بدأت رحلته إلى العراق فى أبريل ١٨٤٢ فوصل فى أكتوبر من نفس السنة ثم ماردين فى ٢٦ من أكتوبر ١٨٤٢ وتحدث عن فظائع الترك فى منطقة ماردين . وأعتقد أنها مبالغات ؟

Baha Ullah
La Livre de la Certitude (Kitab et Ikan) un des livres Sacres du Bahaisme. Trad. de Perse Par Hippolyte Dreyfus et Mirza Habib ullah Chirazi. Paris. Laroux. 1904.

Baha-ullah
(Hidden Words) Words of Wisdom and Communs from the supreme Pen «of Baha'Ullah. Trans. by Mirza Ameen U. Fareed.
London Bahais. 1911.

Berard, V.
La Mort de Stambul. Paris. 1913.

Berhe, L.W.C. Van Den
Le Hadramout et les Colonies Arabes dans L'Archipel Indien.
Ouvrage Publié par l'ordre du Gouvernment.
Batavia, Imprimerie du Gouvernment, 1886.

Bernard, M.
Turquie d'Europe et d'Asie, De Salonique à Juresalem.
Autour de la Mediterrannée Les Côtes Orientales. Paris.

Campbell, Helen.
An Eastern Diary. Tenby. South Wales.

Carnegy, A.
My Log. Persian Gulf and Turkish Arabia 1878.
Education Society's Press. Bombay. 1878.

Cheesman, K.E.
In Unknown Arabia. London. 1936.

Cheradame ; André.
La Question D'Orient. La Macedoine. Le Chemin de Fer de Bagdad-Paris. 1903.

Cuinet, Vital.
La Turquie d'Asie. Geographie Administrative, Statistique, Descreptive et Raisonnée de chaque Provincede l'Asie Mineure. 4 Tomes.

Dickson : H.
Kuwait & Her Neighbours. London 1956.

Engelhardt,
La Turquie. et les Tanzimat Paris.
دراسة للإصلاحات العثمانية (التنظيمات) عنى بالمناطق الأوربية أكثر وبالتنظيمات الخاصة بالباب العالى والوزارات ، أما الولايات الشرقية فقد حظيت منه بعناية قليلة وغير تطبيقية .

Ernest, J.
Background of the Middle East, 1952.

Faroughy; Dr. Abbas. Ind. Off. Lib. V. 2445
The Bahrein Islands (750-1951). A contribution to the study of Power Politics in the Persian Gulf. An Historical, economic and Geographical survey. Verry, Fisher & Con. New York. 1951.

Field, Henry.
The Arabs of Iraq.
American Journal of Physical Anthropology Vol. XXI. No. 1. January - March, 1936

Fraser, J.B.
Masopotamia and Assyria from the Earliest ages to the present time. Edinburgh, 1842.

Fraser, R.W.
Turkey: Ancient and Modern. A History of the Ottoman Empire from the Period of its Establishment to the Present Time. Edinburgh. 1854.

Gibb & Bowen :
Islamic Society and the west Vol. I. Pt. I. London. 1952.

Guedella ; Philip,
Palmerston. London. 1926

Guigniaut, J.D.,
La Chaldée et les Chaldeens. Paris 1847. Extrait de l'Encyclopedie Modern. Tome VIII, Col. 296-313.

Harris, G.L.
Saudi Arabia. Its People, its society & its cultures New Haven. 1959. Hay, Sir Rupert.

The Persian Gulf States. The Middle East Institute Washington. 1959.

Hetslet, Sir Edward.,

Treaties Between Great Britain and Persia and between Persia and other Foreign Powers in Force on the lst. April. 1891.

London 1891.

Hoskins, H.

Bsritish Routes to India. 1928.

اعتمد المؤلف على مجموعة

Parliamentary Debates, Parliamentary Paps.

وكذلك على الوثائق الموجودة فى دور المخطوطات البريطانية وعلى كتب الرحلات وقد عنى عناية خاصة بدراسة التنافس الدولى وخاصة بين بريطانيا وفرنسا على خطوط المواصلات العالمية بين الشرق والغرب عبر مصر والعراق وكذلك عنى بمشروعات خطوط البواخر والسكك الحديدية والبرق والطرق البرية وعلاقة ذلك بالتطورات السياسية فى الدولة العثمانية وأوربا .

وفى نهاية كتابه قائمة بالمراجع على جانب كبير من الأهمية لدارسى هذه الموضوعات .

C. Huart,

Les Calligraphes et les Ministuristes de l'Orient Musulman. Paris 1908.

Huart, C.

Hist. des Arabes, Paris. 1912-3. 2 Vols.

La Religion de Bab. Reformateur Persan du XIX Siecles. Ernest Leroux. Paris 1889.

المؤلف من المهتمين بتاريخ العراق وخاصة فى العصر الحديث وفى هذه المقالة دراسة لنشأة البابية وتاريخ مؤسسها على محمد مع ترجمة لبعض النصوص الهامة لهذه العقيدة .

Hunt, G. H. :

Outram and Havelock's Persian Campaign. London 1858.

Hunter, W.W.

The Imperial Gazetteer of India 7 Vols. 2 nd Edition. London. 1885.

Ingrams, H. :

Arabia and the Iles. 1934.

Invasion,

Invasion of India from central Asia, London. Richard Bentley and son. Published in Ordinary to her Majesty the Queen, 1879.

Isaacs, A.A.

Biography of the Rev. Henry Aaron Stern, D.D., From more than Forty Years. A missionary amongst the Jews Containing an account of His Labours and Travels in Mesopotamia, Persia, Arabia, Turkey. Abyssinia, London. 1186.

مهم فى دراسة يهود العراق .

Jastrow. M.

The War and the Bagdad Railway. The Story of Asia Minor and its Relation to the present conflict. Philadelphia and London. 3rd. Impression April. 1918.

Kaye :

The Administration of the East India Company.

Kelly, J.

British Relations with the Persian Gulf. 1800-1842.

وهى رسالة دكتوراه موجودة بجامعة لندن .

Kisrawi Tabrizi, Sayyid Ahmed,

Five Hundred Years History of Khuz Tehran. 1934.

Lane-Poole ; Stanley,

The life of the R. Hon. Stratford Canning Viscount Stratford De Radcliffe. From His Memoirs & Private & official papers. 2 Vols. London, 1888.

Lane-Poole ; Stanley

Assisted by E.J. Gibb & Arthur Gilman Turkey, London, 1938 (MDCCLXXVIII).

Latham, G.

India to England. Proposed new overland route via Turkish Arabia. 1870.

Leblicher, Roy.

The Arabia of Sand. New York.

Lencsowski ; George.

Russia and the West in Iran. 1918-1948. A Study in Big-Power Rivalry. New York. 1949.

Letters to India, Madras, Bombay, Aden Muscato, Persian Gulf, Zanzbar (Except) 1871 (6 Vols).

Letters,

The Letters of Queen Victoria. A selection from Her Majesty's Correspondence Between the Years 1837 and 1861. Published by Authority of his Majesty the King. Edited by Arthur Christopher Bensen M.A. and Viscount Esher, G.C.V.O., K.C.B. in three Volumes. London 1907.

Londay., Drummond.

Tales from the Arab Tribes. Translated by G.G. Campbell.1949.

Longrigg. H.

Four Centuries of Modern Iraq. London 1925.

إن القرون الأربعة هذه تبدأ من القرن السادس عشر — الفتح العثمانى — حتى القرن التاسع عشر . ويمتاز بتتبعه الدقيق لكل ماكتب بالإنجليزية والفرنسية تقريبا عن العراق وبعض المؤلفات التركية والفارسية ولكنه متحيز لبنى جنسه.

وله كذلك : Iraq. 1900-1950. London 1960

Lloyd, Seton,

Foundation in the Dust. London, 1947.

Low, C.R. :

History of the Indian Navy. (1613-1863). 2 Vols. London. 1877.

Malherbe, R.

L'Orient. (1718-1845). Histoire, Politique, Religion, Moeurs...

Et. C. 2 Vols. Paris. 1846.

Mano ; G.A.

L'Orient Revue à lui-même. Paris. 1861.

Marcellus ; Le Vicomte de :

Souvenirs de l'Orient. 3 Tomes. Bruxelles 1840.

Marmont, Marshal.

The Present state of the Turkish Empire. Translate with notes and observations on the Relations of England with Turkey, and Russia by Frederic Smith. London. 1839.

Martens : Le Bn Ch..., & Le Bn F. de Cussy :

Recueil Manuel et Pratique de Traités, Conventions et Autres Actes Diplomatiques, Sur lesquels sont Etablis les Relations et les Rapports Existant Aujourd'Hui Entre les Divers Etats Souverains du Globe, Depuis L'Année 1760 Jusqu'a L'Epoque Actuelle. 2 Tomes. Leipzig. F.A. Brockhaus. 1846.

يحتوى على المعاهدات التى عقدت بين دول العالم ابتداء من سنة١٧٨٨ حتى ١٨١٤ م

Menant. J.

Les Yasidiz. Paris. 1892.

تعرض الكتاب لتاريخ اليزيدية وعباداتهم وتقاليدهم وكتبهم ومافيه لا يختلف عما ورد فى مؤلفات لايارد .

Middle East, 1959, Europa Publication. London, 1959. 7th Ed.

Miles, S.B.

The Countries and Tribes of the Persian Gulf. 2 Vols. London 1919.

Morand. P.

La Route des Inde. Paris 1936.

Moulavi - Cheragh Ali,

The Proposed Political Legal and Social Reforms in the Ottoman Empire and other Mohammedan State. London, 1883.

P. Muller - Simonis.

Relation des Missions Scientifiques de MM.H. Hyvernat et P. Muller - Simonis. 1888-1889.

Du Caucase au Golfe Persique à travers l'Arménie, le Kurdistan et la Mesopotanie. Paris. 1892.

Pharoad, J.B.

Progress and Present Position of Russia in the East. Madras. MDCCCXXXVIII (1838).

Phelps, M.

Life and Teachings of Abbas Effendi. A study of the Religion of the Babis or Behais. London. 1903.

Pichon, J.

Les Origines Orientales des la Guerre Mondiale. Paris 1937

H.St. John Philby.

Saudi Arabia (Nations of the Modern World) lst Edition, London 1955.

Philby. H.ST. J.B.

Arabia. London 1930

Philips; W. Alison.

Mehemet Ali. An Article in the Cambridge Modern History. Vol. X. pp. 545-572.

Ronaldsay, Earl of.

The Life of Lord Curzon. Being the authorized Biography of George Nathaniel Marquess Curzon of Kedleston. K.G. 3 Vols. London : Ernest Benn. Ltd. 1928.

Ross, H.J.

Letters from the East 1837-1857.
Edited by his Wife.
London 1902.

Rouire, Dr.

Le Rivalité Anglo-Russe au XIXe Sc. en Asie, Golfe Persique Frontière de L'Indes, Paris 1908. p. 45.

Reute, Rudolph Said,

Date and References of the History of the Dynasty of the Al Bu Said Dynasty from the time of its Founder Ahmed Bin Said till the Death of Said Bin Sultan. (1741-1857).
With Genealogical Table and Bibliography.

Sadlier, Forster.

Diary of a journey Across Arabia. Bombay. 1866.

Saleh, Z.

Mesopotamia - (1600-1914). Bagdad. 1957.

Salil-Ibn-Razik,

History of the Imams and Sayyids of Omam. from 661-1856. Translated from the original arabic and edited with notes appendices, and an introduction containing the History down to 1870, By G.P. Badger late chaplain in the Presidency of Bombay. London Hakluyt Society. 1871.

Sykes, M.

The Kurdish Tribes of the Ottoman Empire (Pamphlit at the India Office Libr.)

A History of Persia. 2 Vols. London.

La Syrie,

La Syrie Sous L'Administration de Mehemet Ali. Question D'Orient.

Turkey.

Turkey. No. 2. (1877).

Correspondence respecting the Conference of Constantinople and the Affairs of Turkey 1867-1877. Presented to both Houses of Parliament by Command of Her Majosty. 1877.

London. Printed by Harrison and Sons.

Ubicini, A.

La Turquie Actuelle.

Paris, Librarie de L. Hachette et. Cie. 1855.

Ubicini,

Lettre sur la Turquie 1895

Vassif, A. Clician .... Ephendi.

Les Martyrs Celebres. Son altesse Midhat-Pacha Grand Visir. Paris. 1909.

Verney, III, Nœl & George Dambmann.

Les Puissances Etransgeres dans le Levant En Syrie et en Palestine. Enfluences Politiques et Economiques finances, Travaux publics, Industrie et Agriculture, Commerce et Navigation. Paris. Lyon. 1900.

Wilson : A.T.

A Bibliography of Persia.

Oxford. 1930.

A. Wilson.

Persian Gulf. An Historical Sketch From the Earliest Times to the Beginning of the Twentieth Century. London. 1954.

Yale : Williams.

The Near East. A Modern History.

Ann. The University of Michigan Press 1958.

٢ ــ الرحلات

Ainsworth, W.F.

A Personal Narrative of the Euphrates. Expedition. 2 vols. London 1888.

المؤلف من مرافقي جسني في رحلته الكشفية المعروفة على طول الفرات ، وقد تعرض كثيراً للآثار القديمة ولكنه كان يهتم في مواضع عدة بالنواحي السياسية ، والاقتصادية وفند بعض اتهامات فونتانييه Fontanier إلى Chesney وبعثته .

Researches in Assyria, Babyloniaa and Chaldaea, Forming par tof the labour of the Euphrates Expedition, London, 1838.

المؤلف هو نفسه صاحب A Personal Narrative وهذا الكتاب عبارة عن وصف لتكوين الفرات الطبيعي وكذلك صخور العراق وجبالها وتكوينها مع لمحة تاريخية قديمة عن بعض المناطق .

The River Karum. an opening to British Commerce London. 1899.

Bellew, H.W.

From Indus to the Tigris. A Narrative of a Journey through the Countries of Balouchistan, Afghanistan, Khorasan and Iran In 1874.

London. 1874.

Bengamin, S.G.

Persia, and the Persians.

London. 1935.

Binder, H.

Au Kurdistan En Mesopotamie Et En Perse. Mission Scientifique du Ministére de l'Instruction Publique Paris. Maison Ouantin. 1887.

دون بندرمشاهدانه خلال رحلته فى الشرق الأوسط من الآستانة فى أغسطس ومن ثم إلى كردستان فزار جلمرك والعمادية والموصل التى بلغها فى ٨ من أكتوبر ثم رحل إلى بغداد فوصل إليها فى أواخر أكتوبر ١٨٨٣ ومنها اتجه إلى كرمنشاه وطهران فباكو ثم تفليس مرة أخرى وأخيراً عاد إلى بلاده.
وقد فضل أن يحيل القارئ على كتابى :

Rivoire : Mme Dieulafoy, Les Vrais Arabes el leur pays

ولذلك لم يذكر الكثير عن بغداد .

Bittner, Maximallian Dr.

Die Heiligen Bucher der Jeziden Oder Teufelsanbeter (Kurdisch and Arabisch).

Wien, 1913.

أورد فى هذا الكتاب النصين العربى والكردى لكتابى « مصحف رش » و« الجلوة » .

Blunt A.

Beduin Tribes of the Euphrates. 2 Vols.

London. 1879.

وصفت فيه عشائر العراق النازلة على الفرات وبينت نوعاً من الصراع الذى تسببه الأحوال الاقتصادية هناك .

وكانت تهدف أصلا من وراء هذه الدراسة الوصول إلى عشائر شمر ودراستها . (انظر الكتاب (Vol. I. p 197.)

ولها كذلك .Voyage en Arabie Paris 1882 وهو مترجم عن الإنجليزية

Bode, C. :

Travels in Luristan and Arabistan.

2 Vols. London. 1845

Buckingham, J.S. :

a) Travels in Assyria, Media and Presia 2 Vols. 2nd Edition London 1830.

b) Travels in Mesopotamia 2 Vols. London 1827.

Bulletin de la Societé de Geographie Octobre 1868. Paris.

Brown, Edward :

A Traveller's Narrative Written to Illustrate the Episode of the Bab.

2 Vols. Combridge 1861

Budge, E.A. :

By Nile and Tigris 2 Vols. London.

Buiss, Dr Geo,

Outline of the Operation of the British Troops in Scinde and Afghanistan. Nov. 1838 to Nov. 1841.

Burton, R.F.

Personal Narrative of a pilgrimage to Al-Medina & Meccah. London. 1862.

Burton, Isabel.

Arabia, Egypt, India, A Narrative of a Travel. London. 1879.

Busch, Dr. Moritz.

Hand-Book for travellers in Egypt and Adjacent Countries Subjected to the Pascha. Translated from the German of Dr. Moritz Busch Bv W.C. Wrankmore. 2nd Edition. Trieste, 1864.

Chensney, R.A. (Commander of the Expedition) ;

A. The Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris. Carried on by the Order of British Government, in the Years 1835-1837. Precisd by Geographical and Historical Notes of the Regions Situated Between the Rivers Nile and Indus, **in Four Volumes.** London. 1850.

كان المؤلف قائد بعثة الفرات ، وأصدر كتابه هذا من جزأين فقط ليقدم لمن يهمهم الأمر المعلومات التى جمعها خلال البعثة لدراسة مدى صلاحية الفرات للملاحة التجارية وليؤكد للمسئولين أنه على حق حين طالب المرة بعد المرة بضرورة استخدام طريق الفرات النهرى ولذلك يعتبر

أهم مرجع عن هذه البعثة وعن أحوال العراق فى تلك السنوات وتعتبر ملاحظاته دقيقة إلى حد كبير وهى ملاحظات تغطى نواحى هامة اقتصادية وسياسية واجتماعية .

B. Narrative of the Euphrates Expedition. Carried on by Order of the British Government during the Years 1835-1836-1837. London. 1868.

بعد أن أصدر المؤلف كتابه الأول عن بعثة الفرات قام بمجهودات كبيرة لإخراج مشروع استخدام نهر الفرات للملاحة التجارية أو مد خط سكة حديد عبر العراق وبعد مجهودات استغرقت حوالى خمس عشرة سنة دون جدوى ، وجد أنه من الضرورى إصدار كتاب جديد عن بعثة الفرات يذكر الناس والمسئولين بها وليشرح فكرته فى استخدام العراق كمعبر بين الشرق والغرب . ويقول كسى إن إصدار هذا الكتاب لم يكن بوحى منه فقط ، بل إن هناك جهات مسئولة أوحت له بذلك لأنها وجدت أن الظروف السياسية تتطلب ظهور كتاب من هذا النوع وهذه الظروف يمكن تلخيصها فى تلك المجهودات الضخمة التى كان يبذلها من أجل طريق العراق إلى الهند ولمقاومة مشروع قناة السويس ، ورأى جسنى أن المشروع الفرنسى خطير ، وأن انهيار الدول العثمانية على وشك الوقوع وأن هذا يتطلب من الإنجليز أن تكون أقدامهم راسخة فى البلاد التى تمر بها خطوط المواصلات العالمية .
(انظر الصفحات ١ — ٢ من هذا المؤلف والمقدمة)

C. Report on the Euphrates Valley Railway. London 1857.

وهو تقرير عن وادى الفرات من حيث إمكان مد خط حديدى عبره يربط بريطانيا بالهند .

Cowper : H. Swainson :

Through Turkish Arabia. A Journey from the Mediterrnean to Bombay By the Euphrates and Tigris Valleys and the Persian Gulf. London. 1894.

بدأ الرحلة من الشام إلى بغداد فى ٢٩ من يناير ١٨٩٠ وهو ينوى أن

يزور بلاد العراق وهو يعتقد أنه برحلته هذه وبإخراجه هذه الرحلة على صورة كتاب يصف الطريق البرى الذى سلكه سدّ نقصاً كبيراً فى المكتبة الأوروبية حيث إن رحلة جسنى Chesney ومعظم الرحلات الأخرى عنيت بالطرق النهرية أما هو فقد عنى بالطرق البرية (انظر المقدمة) .

Greagh, J.

Armenians, koords and Turks 2 vols. 1880.

Curson : Hon. George. N.

Armenia. A Year at Erzeroom and on the Frontiers of Russia, Turkey and Persia. John Murray. London. 1854.

Curzon, Hon. George N.

Persia and the Persian Question. 2 Vols. London. 1829.

Russia in Central Asia in 1889 and the Anglo — Russian Question. Longmans. London. 1889.

Dupré : A.

Voyage en Perse. Paris. 1819.

Flandin, E.

Voyage en Perse. Par Ordre de M. Le Ministre des Affaires Etrangères. 2 Tomes. Paris 1851.

كان المعلق ملحقاً فرنسياً بسفارة فرنسا فى إيران سنة ١٨٤٠—١٨٤١ .

Ellis, Tusteam J.

On a Raft and through the Desert. The Narrative of an Artist's Journey through Northern Syria and Kurdistan By the Tigris to Mosul and Bagdad, and of a Return Journey across the Desert By the Euphrates and Palmyra to Damascus over the Anti-Lebanon to Baalbek and to Beyrout. 2 Volumes. (Field & Tuer. London. MDCCCLXXXI.).

المؤلف كان رساماً ذهب لرسم لوحات لمعرض فى لندن . بدأ رحلته من ليفربول فى أول أكتوبر سنة ١٨٧٩ إلى الإسكندرية ومر بطرابلس الشرق والتقى بمدحت باشا عندما كان والياً على الشام . ومر بحلب وبيره جلك وديار

بكر فى مارس ١٨٨٠ ورافق الكولونيل ميلز Miels فى رحلته سنة ١٨٨٠ إلى الموصل إلى مقر عمله كقنصل لبريطانيا فى بغداد .

Fletcher, Rev. J.P. Geog, 706

Narrative of two Years Residence at Nineveh and Syria, Second Edition. 2 Vols. London, 1850.

هدفه — وهو رجل دين — دراسة الأحوال الدينية والثقافية للكنائس الشرقية القديمة واهتم بدراسة أحوال النساطرة واليعاقبة . وله نظرة استعمارية وتعرض للبعثات التبشيرية ؛ ولليزيديين . وكانت له حوادث طريفة فى العراق . وقد كلف بمهمة دراسة أحوال الكنائس الشرقية فبراير ١٨٤٢ وكتب عن جزء من الصراع بين المذاهب المسيحية فى العراق والدور الذى لعبته البابوية فى هذا الصراع . والرجل بروتستانتى ولذلك تحامل على اتباع البابوية .

V. Fontanier,

Voyage en Orient en 1829. 2 Vols. Paris. 1846.

V. Fontanier,

Voyage dans h'Inde et dans le Golf Persique par l'Egypte et le Mer Rouge. 2 Toms. Paris, 1844.

المؤلف قنصل فرنسا فى البصرة . بعد القضاء على المماليك فى العراق عنى بالكتابة عن الأوضاع السياسية فى العراق ، وعن خطط الإنجليز إزاء العراق ، وكان يعمل على تبصير الحكومة بأهداف بعثة جسنى وإلى خطورة سيطرة الإنجليز على دجلة والفرات ، وعمل على مقاومة بعثة جسنى ؛ وقد حاول آنزورث Ainsworth فى كتابه A Personal Narrative الرد على اتهامات Fontanier للمسئولين الإنجليز فى البصرة وبغداد . كذلك كتب عن الامتيازات التى يتمتع بها الإنجليز فى العراق وتحدث عن الأحوال الاقتصادية خصوصاً أحوال البصرة الاقتصادية والسياسية وقد تسلم فونتانييه Fontanier أوامر السفر إلى الخليج العربى فى نهاية ١٨٣٤ وطلب منه أن يفتح عينه على أحوال الولايات الفارسية

الغربية وكذلك الولايات التركية بطبيعة الحال . وكان عليه أن يزود حكومة فرنسا بتقارير عن الأوضاع فى الخليج العربى ومدى تقدم النفوذ الإنجليزى هناك . ولقد لعب فونتانييه نفسه دوراً له خطورته فى الحملة التى شنها على رضا على المحمرة والتى أدت إلى مشكلات سياسية واقتصادية ذات أهمية كبيرة فى تاريخ كل من فارس والعراق .

M. Ferd. Hoefer,

Chaldee, Assyrie, Medie, Balylonio. etc.. Paris 1862.

Mme Ida Pfeiffer,

Voyage d'une femme autour du Monde. Paris 1858. p. 446.

D.G. Hogarth :

The Penetration of Arabia. A Record of the Development of Western Knowledge Concerning The Arabian Peninsula. London. 1904.

استعراض للرحلات التى قام بها رحالة أوربيون فى بلاد العرب مع نقد وتعليق لما كتبوه ويمتاز بأنه اطلع على عدد من المؤلفات الألمانية .

Hogarth, D.G.

Arabia, Oxford, 1922.

Fowler, George,

Three years in Persia. With Travelling Adventures in Koordistan 2. Vols. London. 1841.

وصف مطول لفارس ، من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومعلوماته عن العلاقات التركية ـ الفارسية أقل من معلوماته عن العلاقات الأنجلو إيرانية والروسية الإيرانية . مترجم عن الألمانية .

Fraser ; David.

The Short Cut to India. The Record of a Journey along the Route of the Baghdad Railway. 1909 London.

دراسة على طول خط بغداد الحديدى المقترح نهايته فى رأس الخليج

دراسة للعراق فى مطلع القرن العشرين الميلادى ومشكلة نهاية الخط فى المحمرة والبصرة والكويت .

Fraser, J.B.

Mesopotamia and Assyria From the Earliest Ages to the Present Time Edinburgh. 1842.

الكاتب ينقل عما كتبه الرحالة الذين سبقوه ويضيف إلى معلوماتهم مادة جديدة لم يلاحظوها . وهو مهم من حيث الدراسات الاجتماعية .

Gabriel, Lieut :

Persian Gulf Gazetteer. Pt. I History and Political Material Precis on Trade in the Persien Gulf.

Gabineua, Le Conte De.

Trois ans en Asie (1855-1858) Nouvelle Edition. Paris. 1095.

وصف مالطة .... والإسكندرية ... والقاهرة .... وجدة وعدن ... ومسقط ... وبوشهر ... وشيراز ... وأصفهان .... وطهران .... ودراسة للأمة الفارسية من حيث العقائد والطوائف

Garnier, Ernest, Gerg. 773.

Voyage en Perse. Armenie, Mosopotamie, Chaldée Kurdistan Arabistan etc... Tour. 1850

عبارة عن تلخيص لعدة رحلات زار فيها العراق. وبعض هذه الرحلات الهامة ليس فى متناول أيدينا فى هذه الأوقات .

Goldsmid, Colonel Sir Fredrec John.

Telegraph and Travel. A Narrative of the Formation and Development of telegraphic communication Between England and India, under the Orders of Her Majesty's Government, with incidental Notices of the Countries Traversed By the Lines. Macmillan and Co. London. 1874.

A. Grant, Hist., 905, 896.

The Nestorians. Or the Last Tribes containing Evidence of

Their Identity. An Account of their manners, Customs and Ceremonies Together with Sketches of Travel in Ancient Assyria, Armenia, Media and Mesopotamia and Illustrations of Scripture Prophecy. London. 1841.

A.N. Groves.

Journal of a Residence at Bagdad London 1832.

المؤلف مبشر بروتستانتى إنجليزى ، وهو أول مبشر لهذا المذهب فى العراق ، فكان طبيعياً أن يتحامل على المبشرين الفرنسيين . وكان متصلا مباشرة بالأهالى ، ويجتمع بكثير من مسيحيى بغداد . وكتب يومياته مستنداً إلى ما يشاهده بنفسه أو ما يسمعه من أفواه الناس . وكان تحت رعاية تايلور Taylor القنصل الإنجليزى ويعتبر وصفه لحوادث الطاعون والفيضان وحصار بغداد من أهم ما كتب فى هذه الفترة ، ولكن أخباره لم تخل من المبالغة والخطأ .

وهو يبين فى كتاباته رغبته القوية فى تقويض دعائم الإسلام ويرى فى تفكك الإمبراطورية العثمانية الوسيلة الوحيدة لكى تدخل العراق تحت الحكم الإنجليزى ، العادل فى نظره .

A Handbook for traveller

In Syria and Palestine.

Including an account of the Geography, History, Antiquities, and Inhabitants of these countries.

The Peninsula of Sinai, Edom and the Syrian desert with detailed descriptions of Jerusalem, Petra, Damascus and Palmera 2 Part. London, 1888.

Helfer, P.

Travel of Dr. & Mme Helfer in Syria, Mesopotamia, Burmah & Other Lands. Narrated by Pauline, Countess Nostitz (Formerly Mme. Helfer) and rendered into English by Mrs. George Sturge. 2 Vols. London. 1878.

بدأت رحلة آل هلفر من أوربا فى ١٨٣٥ م ومروا فى طريقهم إلى الشرق الأقصى وقد وصفت باولين هلفر الرحلة والأحداث التى صادفتها

البعثة والبلاد التى مرت بها والعقبات التى صادفتها من جانب إبراهيم باشا ومن جانب العشائر العربية إلى غير ذلك من العقبات . وقد ضاعت مذكرات المستر هلفر بغرق الباخرة « دجلة » وضاع جزء آخر منه وكان المفروض أن يظهر هذا الكتاب قبل أن يصدر جسنى كتابه فى ١٨٦٨ ولكن المستر هلفر وعد جسنى بأنه لن يصدر كتابه إلا بعد أن يصدر جسنى كتابه ولذلك تأخر صدور كتاب هلفر كثيراً .

وكان الدكتور هلفر Helfer من علماء الطبيعة النمساويين اجتاحته رغبة المخاطرة فرحل صوب الشرق الأوسط ثم الأقصى حيث لقى حتفه بسهم مسموم فى جزيرة اندامان بخليج البنغال (Andaman) .

Heude,

A Voyage up the Persian Gulf and Journey Overland from India to England in 1817. London. 1819.

Hell, X

Voyage en Turquie et on Perse. Executé par Ordre du Government Français pendant les Années 1846, 1847, et 1848. Par Xacier Hommaire de Hell. (3 Toms. Paris. 1854).

تكلم عن مشكلة الإقليمية المسيحية النسطورية وموقف حكومة بريطانيا من النساطرة فى العراق .

Jones, J.F.

Selections from the Records of the Bombay Government. No. XLIII. Memoirs by Commander James Felix

Jones, I.N.

a) Steam-Trip to the North of Bagdad in April 1846.

b) Journey for the purpose of determining the Tract of the Ancient Nahrawan Canal undertaken in April 1848.

c) Journey to the Frontier of Turkey and Persia through a part of Kurdistan.

d) Researches in the vicinity of Median Wall of Xenophon and along the River Tigris Memoir on the Province of Bagdad.

e) Notes on the Topography of Ninevel Complied and edited By Thomas, Assistant Secretary of Political Departement, Bombay, 1857.

وهو من أهم الكتب التى كتبت عن أحوال العراق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية هذا إلى جانب تحديده الدقيق لأخبار بغداد وأسعار السلع الحاضرة فى سوق بغداد مع بيان أعلى وأقل الأسعار والحرف وأجور العمال والصناع والموازين وأنواعها المختلفة . والنقود وقيمة كل نقد مع دراسة وافية للعشائر ، هذا كله إلى جانب دراسات جغرافية دقيقة وتعرض للمشكلات العشائرية الكردية والعربية وهو يعتبر من أوائل الرحالة الذين زاروا ودرسوا المنطقة الجنوبية للعراق .

وكان يشترك فى هذه الرحلات العلمية الوكيل السياسى البريطانى رولنسون كما كان يبعث بمقالاته إلى الجمعية الجغرافية الملكية بلندن .

Kinnier,

Voyage dans l' Asie Mineur et Kourdistan Paris 1818.

Latour ; M. Antoin

Voyage de S.A.R. Monseigneur Le Duc de Montpensier à Tunis en Egypt, en Turquie et en Grèce. Paris. 1847.

Lawrence of Arabia

A bibliographical Enquiry. London. 1955.

Layard, A.H.

Nineveh and its Remains, with an account of a visit to chaldanean Christians of Kurdistan, and the Jegidis or divil-worshippers, and an enquiry into the manners and Arts of the Ancient Assyrians. 2 Vols. London. 1849.

وهكذا واضح من عنوان الكتاب أهداف Layard وهى دراسة للعراق من جميع نواحيه مع العناية بالمسيحيين واليزيديين والآثار . وقد تعرض فى أكثر من موضع للتيارات السياسية فى العراق ويعتبر من أهم الكتب فى دراسة أحوال العراق فى هذه الفترة ، على أن يؤخذ كلامه بحذر لأنه نصب

نفسه مدافعاً عن اليزيديين والمسيحيين وكانت له أهداف سياسية معينة .

وله كذلك الكتب الثلاثة التالية :

* Early adven tures in Persia London 1887.
* Nineveh and Babylon. 1897.
* Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon London. 1853.

Lloyd, Seton,

Foundaition in the Dust. London, 1947.

وفيه تلخيص لما كتب عن ريتش فى

Constance Alexander, Bagdad Bygons Days. London 1925.

وهو دراسة لعمليات التنقيب عن الآثار فى العراق وتعرض كثيراً للأوضاع السياسية والبعثات الأثرية الأجنبية وما كان بينها من منازعات وخاصة الإنجليزية والفرنسية .

Loftus W.K.,

Travels and Researches in Chaldaea and Susiana. With an Account of Excavation at Warka. The «Erech» of, Nimrod, and Sush, «Shushan the Palace» of Esther in 1849-1852.

Under the Orders of Major General Ser W. F. Williams of Karms London. 1856.

عين لوفتس فى يناير سنة ١٨٤٩ فى معية الكولونيل وليامز وطلب منه أن يسرع إلى اللحاق به، ولكن الشتاء احتجزه فى الآستانة ثم ركب باخرة فى مارس إلى البحر الأسود ومنه إلى ديار بكر ثم ركب إلى الموصل التى بلغها فى ٥ من أبريل سنة ١٨٤٩ حيث انضم إلى العضو البريطانى ووصل لوفتس إلى بغداد فى ٥ من مايو سنة ١٨٤٩ ونظراً لتأخر وصول العضو العثمانى والحاجة إلى بعض الردود من لندن تأخر فى الذهاب إلى الحدود حتى ينقضى الصيف ثم غادر هو ووليامز بغداد إلى خان سعد حيث التقى بالعضوين الروسى والتركى اللذين عرضا رغبتهما فى مصاحبتهما إلى الحدود. وهو خلال

ذلك كان يتحدث عن مشكلة الحدود وعن أحوال العراق فى كتابه الذى أخرجه عن رحلته فى العراق .

Lycklama, N.

انظر Nijholt

Lynch, B.

Note on Steam Communication Between England and India. Aug. 1837.

India Office Records, Factory Records, I.O., Persia and the Persian Gulf. Vol. 57.

Mohammed Rida.

Dalail Al-Zafar fi Tadkirah al Safar.

Morris, E.J.

Notes of a Tour through Turkey, Greece, Egypt, and Arabia Petrea to the Holy Land including A Visit to Athens, Sparta, Delphé Cairo, Thebes, Mount Sinai, Petra By Joy Morris an American Traveller, Aberdeen, 1847.

Nijkolt, Lycklama.

Voyage en Russie. 4 Tomes. Paris.

Palgrave, G.

Notes of a Journey from Gaza, through the Interior of Arabia to El Khatif on the Persian Gulf, and thence to Oman, in 1862-1863.
VIII, No. III.

Une Année de Voyage dans l'Arabie Central Paris. 1866. Arabia. 1862-1863. London 1865.

Observations made in Central, Eastern and Southern Arabia Jour. Roy. Geog. Soc. 1864. Vol. XXXIV. p. 111-154.

Pelly, L.

A visit to the Wahabee Capital, Central Arabia J.R.G.S. 1865 XXXV. p. 169-191.

Pelly, Col. The Geographical Capabilities of the Persian Gulf as an area of Trade.

Perkins :

A residence of 8 Years in Persia among the Nestorians. New York. 1843.

Oppert, Jules.

Expedition Scientifique En Mesopotamie. Executée Par ordre du Gouvernement de 1851-1854 Par M.M. Fresnel, Felix Thomas et Jules Oppert.

Publiée, dans les auspices de son Excellence M. Le Ministre D'Etat.

Tome I, Relation du Voyage et Resultats de l'Expedition.

Tome II, Dechiffrement des Descriptions' Cuneiromes. Paris 1895.

Pillet, M.

L'Expedition Scientifique de Mesopotamie et de Medie, 1851 1855. Paris. 1922.

Piolet, Père J.B.

La France au Dehors. Les Missions Catholiques Françaises au XIXe Sciecles.

Publiées sous la direction du Père J.-B. Piolet, S. J. Avec la Collaboration de Toutes Les Societés de Missions. 2 Tomes. Paris.

Rawlinson, H.

Notes on a March from Zohab, at the foot of Zagros, along the mountains to Khuzistan (Susiana), and from thence through the Province of Luristan to Kirmanshéh in the year 1836.

(The Journal of the Roy. Geog. Sc. of London. Volume the Ninth 1839. Part I.)

Rawlinson : H.

Adress on the Toyal Geographical Soc. of London, Delivered at the Anniversary Meeting on the 27th May, 1872. London. 1872.

Revue,

Revue des Deux Mondes.

année : 1834-1835, 1839-1841,1843-1863, 1966-1867, 1877,1878
7, 1877,1878 1879-1910.

Table 1er Periode 1831-1874.

Review,

The Foreign Quarterly Review. London. Chapman and Hall. 1843.

Rich, C. J.

1) Narrative of a journey to the site of Balylonia in 1811. London 1839.

2) Narrative of a Residence in Koordistan 2 Vols. London. 1836.

Rinoire, Denis de,

Les Vrais Arabes et Leur Pays. Bagdad et Les Villes Ignorées de l'Euphrates. Paris 1884.

Roberts, Miss Emma.

Notes of an overland journey Through France and Egypt to Bombay. London, 1841.

Roberts, Emma

East India Voyager. Or Ten Minutes Advices to the Outward Bound. London. 1839.

Roger

La Route d'Orient Paris 1914.

Roget, S.R. : (Editor)

Travels in the two last Centuries of three Generations London 1922.

Samuel, J.

Journal of a Missionary tour through the Desert of Arabia to Bagdad. Edin. 1844.

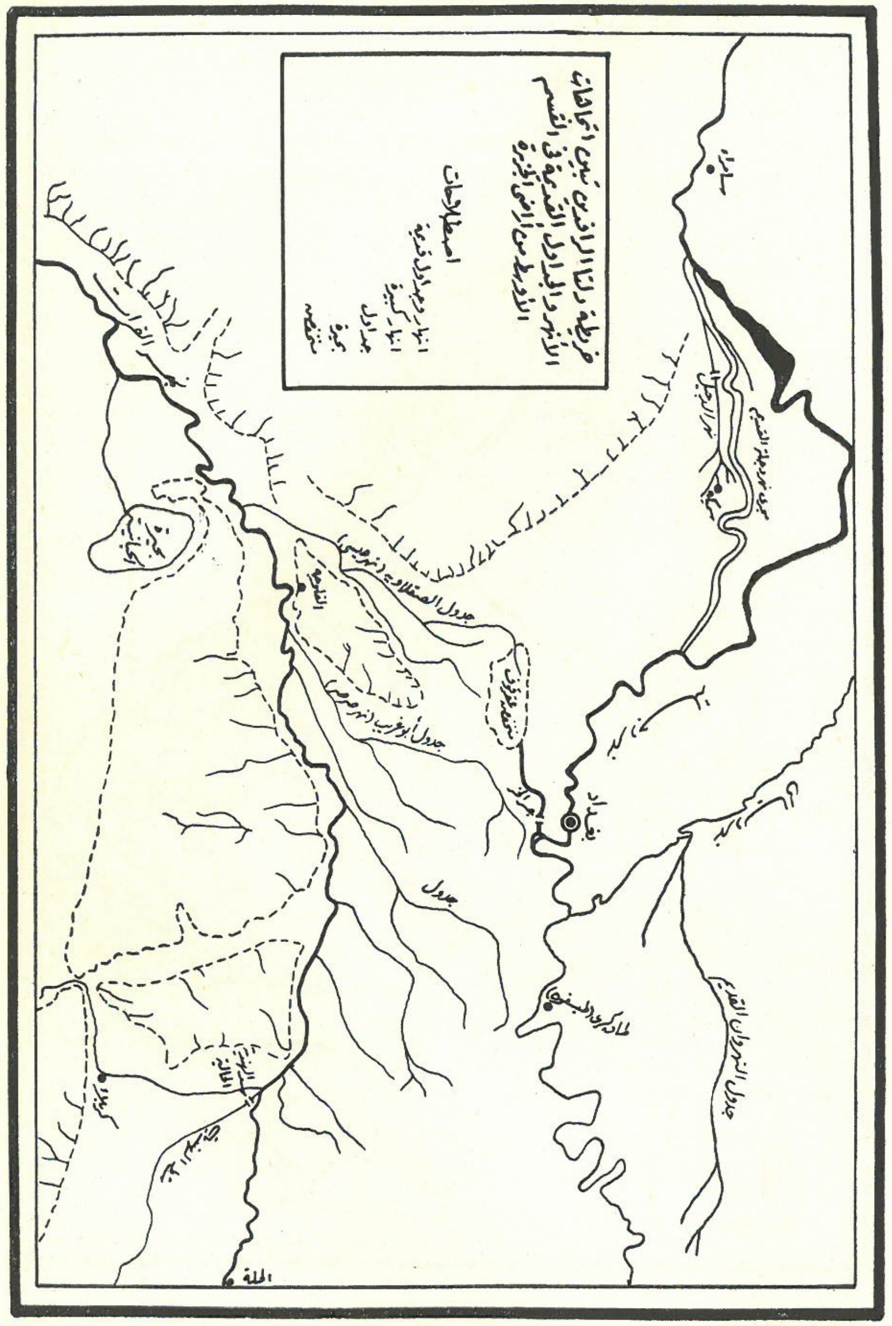

Shepherd, William Ashton,

From Bombay to Bushire and Basura. Including an Account of the Present State of Persia and Notes on the Persian War.

London. 1877

Simonis P. Muller,

Relation des Missions. Scientifiques de M.M.H. Hyvernant et P. Muller-Simonis. (1888-1889). Du Caucase Au Golfe Persique à travers l'Armenie, Le Kurdistane et la Mesopotamie Suivie de Notice Geographique et Historique Ancienne de L'Armenie par H. Hyvernant. Paris. 88

Skinn

Adventures During A Journey Overland to India By Way of Egypt, Syria and the Holy Land

Second Edition. 2 Volumes. Loàdon, 1837.

Southgate,

Narrative of a tour in Armenia, Kurdistan, Iran and Mesopotania. 2 Vols. London. 1840.

Stevens, E.S

By Tigris and Euphrates. London, 1923.

Stoqueler, J.H.

The Overland Campaigne. 1850

Ussher, John F.R.G.S.

A Journey from London to Persopolis, Including Wanderings in Daghstan, Georgia, Armenia, Kurdistan, Mesopotamia and Persia. London, 1865.

Taylor, R.

Travels in Kurdistan, with Notices of the Sources of the Eastern and Western Tigris, and Ancient Ruins in their Neigbourhood.

J.R.G.S. Vol. XXXV, 1865. pp. 21-58.

Wright, Dr. William,

An Account of Palmra and Zenobia with travels in the Desert.

Thomas Nelson. London. 1895.

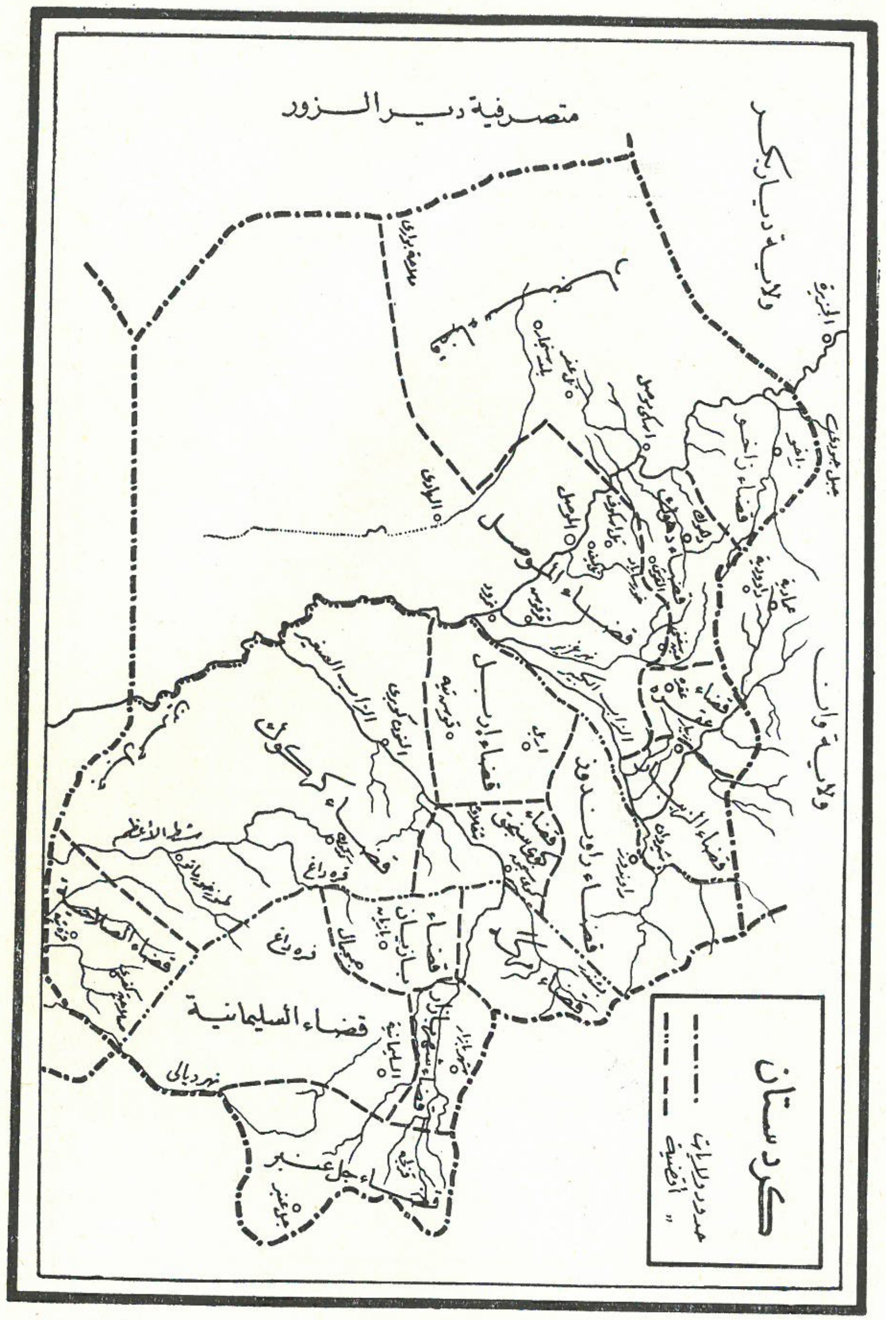
متصرفية دير الزور
كردستان
قضاء السليمانية

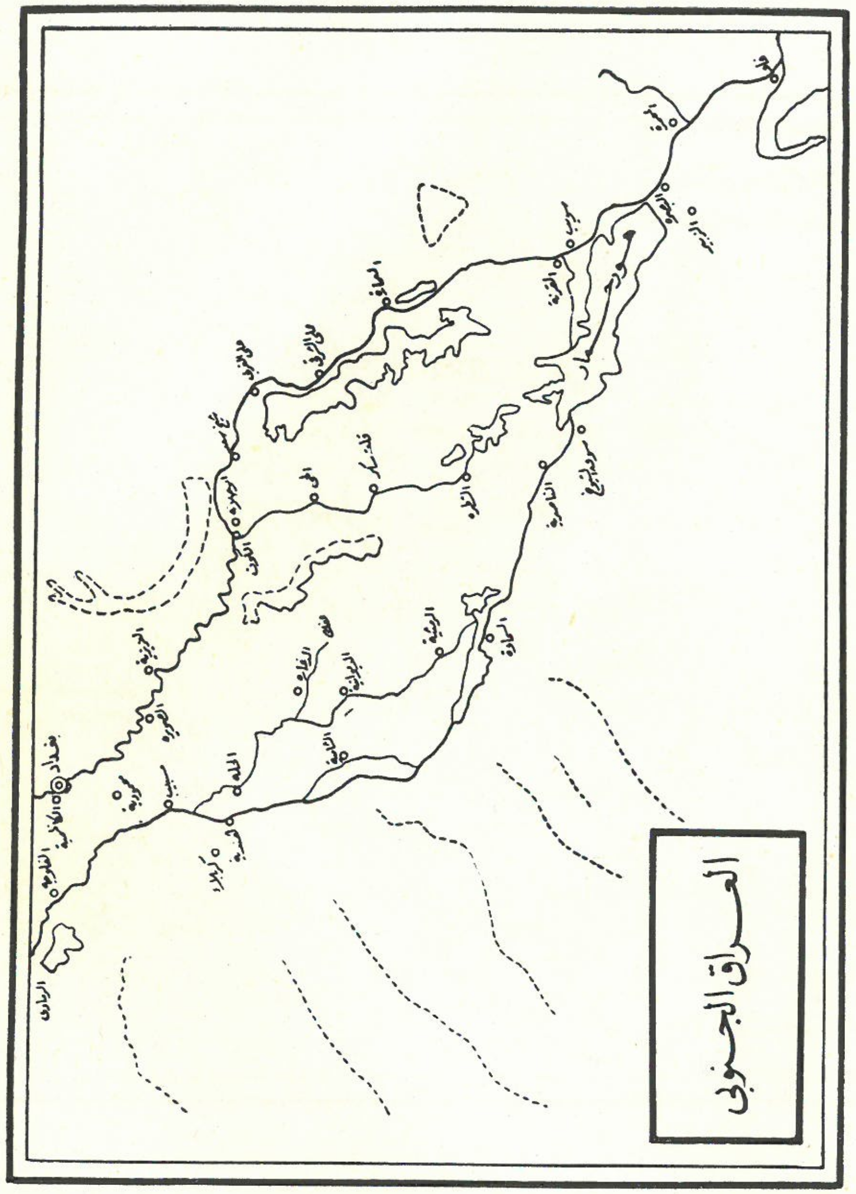
العراق الجنوبي

كردستان
نصيبين
جزيرة ابن عمر
زاخو
العمادية
دهوك
عين سفني
سنجار
تلعفر
الموصل
حمام علي
شوره
مشيطان
راوندوز
حرير
اربيل
كوي
رانيه
سردشت
بانه
السليمانية
حلبجه
كركوك
تل علي
شرقاط
ليلان
طاووق
باريكه
طوزخورماتو
كفري
تكريت
دور
سامراء
بلد
دلي عباس
خانقين
قزلرباط
شهربان
بعقوبة
مندلي
بغداد
الكاظمية
سلمان باك
العزيزية
الصويرة
بدره
جصان
الفرات
عانه
القائم
حديثه
الرمادي
فلوجه
قصر الخباز

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

— ٨٠ —

التأليف [٥٤]

التاريخ [٦]

القاهرة

١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م